




بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة البحوث:

الحمد لله رب العالمين الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد

فقد أنعم الله على البشرية كافة بهذا الدين الخالد الخاتم الذي ربط المخلوق بالخالق معرفة وانقيادا وتسليما، كما ربط الدنيا بالآخرة والعلم بالعمل في توازن وتكامل تام، وحث على التعلم والنظر ورفع من قدر العلماء، وكان أول ما نزل منه الأمر بالقراءة (اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق)، وقال تعالى: (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب)، وقال سبحانه (أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء)، ولأهمية العلم لم يأمر الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بطلب الزيادة من شيء سواه فأمره أن يقول: (رب زدني علما)، وأمره أمر لأتمته.

وقال صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه الإمام أحمد و الترمذي وأبو داود وابن ماجه من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه:- (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْحَيَاتَانِ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطَّةٍ وَأَفْرِ).

ويكفي أن الله قرن شهادة العلماء بوحديته بشهادته وشهادة ملائكته، فقال: (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم)، وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه

أحدها: استشهادهم دون غيرهم من البشر.

الثاني: اقتران شهادتهم بشهادته.

الثالث: اقترانها بشهادة الملائكة.

الرابع: أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم، فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العادل^١.

أما المستكبرون الذين لا يدعون للحق ولا يوصلهم العلم إلى المعرفة فمبعدون من هذه الشهادة، ولذلك قال فيهم: (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا) ونبه على ذلك بقوله: (إنما يخشى الله من عباده العلماء).

ولهذه الأوامر أعطى المسلمون للعلم عناية واسعة، ورفعوا من شأن أهله الذين جردوا أنفسهم للبحث والنظر، ولأهميته اعتبره الإسلام أفضل من نوافل العبادات^٢ ولذلك اتسعت صدور المسلمين لعلوم جميع الحضارات وترجموا ما توصلت إليه من نتائج

ثم أضافوا إليها ما تفتحت عنه قرائحهم المستتيرة بتوجيهات القرآن والسنة، وبذلك أخرجوا للدنيا علماء أجلاء لا زالت بصماتهم باقية على المعارف إلى اليوم أمثال:

ابن الهيثم

ابن سينا

الرازي

والفارابي، الذي سجل الباحثون أنه سبق آنشتاين إلى بعض النظريات في نطاق نظريته في النسبية^٣

١ راجع: مفتاح دار السعادة ٤٨/١.

٢ وكان مطرف بن عبد الله بن الشخير يقول: فضل العلم أحب إلي من فضل العبادة، وخير دينكم الورع. انظر تفسير قوله تعالى: (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) المجادلة في تفسير الإمام الطبري.

٣ انظر الموسوعة الإسلامية العربية (٩) للأستاذ أنور الجندي - الثقافة العربية إسلامية أصولها وانتمائها ص ١٨٨-١٩٣.

وليس هذا قاصرا على علوم معينة بل شمل ذلك جوانب المعرفة المختلفة فابن رشد وابن حزم سبقا (كانت) إلى نظرية المعرفة، فابن حزم هو الذي يقول: لا يجوز لمن لا يملكون أدوات الاجتهاد والعقل أن يقلدوا إماما في كل ما يقول أو كل ما قال وقرر من غير ترجيح دليل على دليل.

والغزالي واطع نظرية علم النفس الاجتماعي، وقد فسر مظاهر سلوك الإنسان بأربعة دوافع أساسية (شهوة الطعام، والجنس، والمال، والجاه) واعتبر الاعتدال هو الميزان الصحيح لجميع أنواع السلوك، وأن الإفراط في جانب هو سبب من أسباب الأمراض النفسية ووضع لها البراهين والقوانين، وتبناها القديس توما الأكويني في الدفاع عن المسيحية دون أن يذكر سبق الغزالي، وابن رشد إلى ذلك، يقول الأستاذ أنور الجندي - رحمه الله: وكل ما فعله توماس الأكويني أنه أخذ آراء ابن رشد بحذافيرها فنسبها لنفسه.

كما سبق ابن خلدون إلى نظريات: علم الاجتماع، وعلوم التاريخ، والاقتصاد السياسي، وحلل الظواهر الاجتماعية والعمرانية على أسس علمية وبراهين منطقية استقرائية، وكل من جاء بعده عالية عليه في هذا.

وكان لذلك العلم أثره الإيجابي على الناس كافة، بل تركت تلك الاكتشافات بصماتها الإسلامية العربية واضحة على بعض المسميات الطبية إلى اليوم رغم محاولة إخفاء ذلك: يقول روجيه الجارودي: (إن الغرب لديه - منذ مطلع عهد الرأسمالية والاستعمار- الإصرار متصاعدا على تجاهل كل حضارة ذات أصل غير أوروبي)٤.

وقد بلغ علماء المسلمين كل ذلك مع محافظتهم على دينهم دون أن يجدوا تعارضا بين العلم والدين ثم قدموا خلاصة نتائج بحوثهم تلك إلى البشرية كافة دون من ولا أذى وقد اعترف بذلك الباحثون المنصفون من الغرب الذين لا يخضعون لأي مؤثر. ومن أراد أن يبحر في هذا الشأن تفصيلا وتأصيلا فليراجع ذلك السفر الكبير الذي كتبه د/فؤاد سيزكين، فقد بلغ ما كتبه أكثر من خمسة وعشرين مجلدا تضمنت إسهام المسلمين في شتى العلوم.

لكن عندما تتعاسس المسلمون عن الريادة العلمية وتقدم غيرهم تحول البحث العلمي إلى وسيلة للسيطرة والمتجارة وإفساد الحرث والنسل وفقد العالم بذلك خيراً كثيراً.

وقد آن الأوان لأن تدرك الدنيا بأسرها أن العلم ونتائجه التي خباها الله في الكون والأنفس هي ملك له تعالى وإنما دور الإنسان فيها أن يبحث ويكتشف ويستخدم ما توصل إليه فيما ينفع الناس ويعين على الاستخلاف في الأرض (ولا تعثوا في الأرض مفسدين)، فيصرف جهده فيما يشفي المريض ويطعم الجائع ويريح الإنسان ويسعده ويعينه على عبادة خالق الأرض والسماء، ولذا سخر الله للإنسان السموات والأرض وما بينهما ليبحث ويكتشف، فالإنسان لا يتغلب ولا يسيطر، ولم يؤت علماً من عنده، ووصفه بذلك كبر وغرور، وجهل بالحقائق، قال تعالى: (الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار)، ومن لم يدرك ذلك لا محالة سيصبح العلم وبالاً عليه كما وقع لمن قبله، قال تعالى: (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وأتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتتوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين)* وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين* قال إنما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون)..

ولهذا المؤتمر (قصة) أسجلها للأيام أذكرها لتكون ذكري لمن وفق للخير ودعى له: فقد دعيت لإلقاء محاضرة في الموسم الثقافي لجائزة دبي العالمية للقرآن الكريم وأثناء تلك الزيارة دعينا للإفطار على مائدة سمو الشيخ محمد بن راشد ولي عهد دبي وزير الدفاع وجرى الحديث عن برهان القرآن وإعجازه ودلائله التي تجلت في عصر العلم وسر الشيخ بها سروراً بالغا ثم قال لي ماذا يمكنني أن أقوم به

لخدمة هذا الشأن الكبير قلت له لعل سموكم أن يدعم المؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي فما كان منه إلا أن بادر مشكوراً وأحال هذا الشأن للأستاذ الفاضل الأخ العزيز الأستاذ / إبراهيم محمد بوملحه النائب العام: ولقد قام هذا الشيخ الفاضل بهذه المهمة ومعه كوكبة من شباب دبي الذين جمع الله لهم بين القدرة وحسن الخلق وتضافرت جهود هؤلاء الأكارم مع كوكبة أخرى من إخوان لهم في المملكة العربية السعودية فقد كونا في الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة مجموعة أخرى للقيام بالإعداد لهذا المؤتمر وما يتطلبه ذلك من أعمال علمية ومهام أتقنها هؤلاء العلماء من خلال المؤتمرات السابقة وتضافرت الجهود وبذل المجهود وآتت هذه الأعمال مجتمعة هذه الثمار التي تجدها أخي القارئ في ثنايا هذه الأبحاث: والحمد لله فهذه الأمة أمة ولود معطاء يرث الفضل والمجد فيها الأبناء عن الآباء وتمتد عبر الزمن لتبقى حجة الله على خلقه جلية ظاهرة، وسلطان حجته سامقاً متعالياً ما إن يخالط بشاشة القلوب حتى تستجيب لأمر ربها معلنة أن الحق أحق أن يتبع ولن تستطيع قوى الشر أن تخترق عقلاً صانه الله بالقرآن ولا أن تستلب قلباً أنارته بوارق القرآن وعلى الأمة أن تحتمي لدينها بحماه وأن تستظل من لهب الشبهات والشوائب بظلاله الوارفة عندها تكون هادية مهدية سالمة مرضية: والهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة هي الدوحة الجامعة التي تداعى إليها سائر من اهتم بهذه القضية في آفاق الأرض جمعتهم مكة المكرمة وتلاقوا في أروقة رابطة العالم الإسلامي وخرجوا جميعاً بهذه الصيغة لتكون هي الضابط لهذه المسيرة والمنظم لهذه القضية واجتمع عليها أعلام هذا العلم من المشارق والمغرب، وكان من أهم ما تلاقوا عليه في رمضان عام ١٤٢٤ هـ أن يبرزوا هذه الحجة وأن يظهروا هذا البرهان وفق ضوابط تعصم الأمة من الزلل والقول على كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا علم، واعتمدوا في ذلك ما وضعه علماء التفسير والأصول والحديث وللعلم فإن الهيئة قد صنفت في هذا الخصوص كتابين هما: (التأصيل والضوابط) لتضعهما بين يدي المهتمين بهذا الجانب حتى تكون إسهامات إخوتنا الباحثين محققة ما نأمله جميعاً إن شاء الله تعالى.

أما بحوث هذا المؤتمر فقد شملت المحاور الآتية :

المحور الأول : العلوم الطبية، وفيه: الأبحاث التطبيقية، التشريع والأجنة، وظائف الأعضاء.

المحور الثاني : الإعجاز التشريعي.

المحور الثالث : علوم الأرض.

المحور الرابع : علوم الفلك والارصاد.

المحور الخامس : البشارات.

المحور السادس : علوم النبات والحيوان.

المحور السابع : علوم الحياة.

وبلغت هذه البحوث (٧٢) اثنين وسبعين بحثاً.

والهيئة بهذه المناسبة تدعو جميع الباحثين إلى مزيد من التأمل في كتاب الله وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم مع النظر والبحث العلمي التنزيه في هذا الكون المليئ بالإسرار والعجائب التي يصل إلى مكوناتها من وفقه الله فبذل جهده للكشف عنها، قال تعالى: (قل انظروا ما ذا في السماوات والأرض)، وقال تعالى: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق).

فهللوا على بركة الله لنقدم للبشرية المزيد في كافة المجالات العلمية النافعة ولا يفتني هنا أن أقدم خالص الشكر والتقدير وصادق الامتتان والعرفان بإسمي وباسم هذه الهيئة المباركة لكل من أسهم في أنجاح هذا المؤتمر وأثراه ببحث أو مناقشة أو فكرة أو دعم وخاصة أولئك العلماء الباحثون والمناقشون والمحكمون ممن أثروا هذه الجلسات بمعين علمهم وثاقب فكرهم.

ونخص بالشكر كلامن :

- سمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم ولي عهد إمارة دبي ووزير الدفاع بدولة الإمارات العربية المتحدة .
- سعادة الأستاذ إبراهيم محمد بوملحه النائب العام في دبي.

وجزاكم الله عنا جميعا خير الجزاء

والله تعالى نسأله أن يجعل أعمالها وإياكم خالصة صوابا نافعة
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أخوكم

الدكتور عبد الله بن عبد العزيز المصلح
الأمين العام للهيئة العالمية للأعجاز العلمي في القرآن والسنة

جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم

أنشئت جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم في عام ١٤١٨ هـ الموافق عام ١٩٩٨م برعاية الفريق أول سمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم ولي عهد دبي وزير الدفاع، وتهدف إلى خدمة كتاب الله عز وجل والارتقاء بالمستوى العام لحفظ القرآن من خلال تحفيز الأجيال الناشئة على الالتزام بدينها وإدراك واجباتها تجاه عقيدتها ورسالتها الإسلامية وإيجاد روح التنافس في مجال حفظ القرآن الكريم وتكريم المتميزين من حفظته وتأكيد القيم الإسلامية وأهمية دورها في حياة الفرد والجماعة وكذلك تكريم الشخصيات من علماء ومفكرين وجهات أو مؤسسات قامت بخدمة الإسلام والمسلمين في العام بشكل متميز.

وتتنوع من جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم عدة فروع هي

- **المسابقة الدولية للقرآن الكريم:** ويشارك فيها متسابقون يمثلون الدول العربية والإسلامية والجاليات الإسلامية في العام، ويصل عدد المشاركين إلى ٨٠ مشاركاً وقد اختتمت ست دورات وهذا العام تنطلق فعاليات الدورة السابعة.
- **تكريم الشخصية الإسلامية:** وهو أحد الفروع الرئيسية للجائزة يتم من خلالها اختيار شخصية إسلامية بارزة من الأفراد أو المؤسسات الإسلامية خدمت للإسلام والمسلمين.
- **المسابقة المحلية للقرآن الكريم:** وهي خاصة بالمقيمين على أرض الدولة من المواطنين والوفدين ذكوراً وإناثاً.
- **برنامج المحاضرات:** يشارك في هذه المحاضرات في بداية شهر رمضان المبارك من كل عام نخبة من العلماء والمفكرين الإسلاميين والدعاة المعروفين على مستوى العالم الإسلامي يلقون محاضراتهم للرجال والنساء بواقع ليلتين لكل محاضر.

- برنامج تحفيظ القرآن في السجون؛ ويهدف هذا البرنامج إلى خدمة كتاب الله وتحويل السجون إلى مؤسسات إصلاحية تربط السجين بكتاب الله وتخفيف العقوبة عن نزلاء ونزيلات السجون بدبي على قدر حفظهم من الأجزاء.
- برنامج الإشراف على مراكز تحفيظ القرآن بدبي؛ وتقوم الجائزة من خلاله بالإشراف على مراكز التحفيظ الموجودة في إمارة دبي.
- برنامج تكريم الحفظة من المواطنين؛ ويهدف إلى تشجيع المواطنين ذكوراً وإناثاً على حفظ كتاب الله ويمنح البرنامج جميع المواطنين من مختلف الأعمار ممن يحفظون القرآن الكريم مكافأة مالية تشجيعاً لهم على الحفظ.
- مركز الدراسات القرآنية؛ ويعنى المركز ببحث ودراسة ونشر العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم وتتبع المركز وحدة الدراسات والنشر ووحدة البرامج والأنشطة.

وفيما يلي أسماء الشخصيات التي كرمت خلال الدورات السابقة

- فضيلة الشيخ/ محمد متولي الشعراوي (الدورة الأولى) ١٤١٨ هـ
- فضيلة الشيخ/ أبو الحسن الندوي (الدورة الثانية) ١٤١٩ هـ
- صاحب السمو الشيخ/ زايد بن سلطان آل نهيان (الدورة الثالثة) ١٤٢٠ هـ
رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة
- الدكتور/ يوسف القرضاوي (الدورة الرابعة) ١٤٢١ هـ
- الرئيس/ علي عزت بيجوفيتش (الدورة الخامسة) ١٤٢٢ هـ
- الدكتور/ عبدالله بن عبد المحسن التركي (الدورة السادسة) ١٤٢٣ هـ
- جامعة الأزهر- مصر (الدورة السابعة) ١٤٢٤ هـ

هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة

الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة إحدى هيئات رابطة العالم الإسلامي ذات شخصية اعتبارية مستقلة : تسعى لإظهار أوجه الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة، والعمل على نشرها أنشئت بقرار من المجلس الأعلى العالمي للمساجد في دورته السادسة لعام ١٤٠٤ هـ .

الأهداف والوسائل

- ١) وضع الأسس و القواعد التي تضبط الاجتهاد في بيان الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.
- ٢) الكشف عن دقائق معاني الآيات في كتاب الله والأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بالعلوم الكونية في ضوء أصول التفسير ووجوه الدلالة اللغوية ومقاصد الشريعة الإسلامية دون تكلف.
- ٣) ربط العلوم الكونية بالحقائق الإيمانية، وإدخال مضامين الأبحاث المعتمدة في مناهج التعليم في شتى مؤسساته ومراحله.
- ٤) الإسهام في إعداد علماء وباحثين لدراسة المسائل العلمية، والحقائق الكونية : في ضوء ما ثبت في القرآن والسنة.
- ٥) توجيه برامج الإعجاز العلمي في القرآن والسنة لتصبح وسيلة من وسائل الدعوة.
- ٦) تنسيق الجهود المبذولة في العالم في مجال الإعجاز العلمي في القرآن والسنة والتعاون مع المؤسسات والمراكز ذات الاختصاص.

الوسائل

- تقوم الهيئة باستخدام الوسائل التي تتفق مع أحكام الشريعة الإسلامية، ومنها :
- ١ - وضع معايير تقويم الأبحاث المتعلقة بالإعجاز العلمي في القرآن والسنة.
 - ٢ - دراسة الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، المتعلقة بموضوعات الإعجاز العلمي.

- ٢ - دراسة بحوث الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، والتدقيق فيها من الناحية الشرعية والكونية وإجازة ما يصلح منها.
- ٤ - تشجيع البحث الفردي، والجماعي : في مجال الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.
- ٥ - تنسيق جهود الباحثين العاملين في مجال الإعجاز العلمي .
- ٦ - تتبع ما يتوصل إليه العلماء في المجالات الكونية، وما يكتبون، وما ينشرون : من قضايا علمية تتصل بالقرآن والسنة، ودراستها، وتقويمها .
- ٧ - توثيق الصلة بالمختصين بالمختصين في العلوم الإسلامية والكونية من المسلمين وغيرهم.
- ٨ - الاتصال بالهيئات ذات التخصص في العلوم الإسلامية والكونية، وتبادل المعلومات.
- ٩ - إصدار كتب ودوريات تهتم بالإعجاز العلمي في القرآن والسنة وتوزيعها على المهتمين والراغبين في العالم.
- ١٠ - عقد المؤتمرات والندوات وحلقات البحث المتعلقة بالإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ونشر أبحاثها والمشاركة في المؤتمرات والندوات العلمية الأخرى ذات الصلة.
- ١١ - نشر البحوث المعتمدة بأساليب تناسب مستويات الناس العلمية والثقافية، وترجمتها إلى مختلف اللغات.
- ١٢ - إمداد الدعاة والإعلاميين في العالم - أفراداً ومؤسسات - بالأبحاث المعتمدة للانتفاع منها كل في مجاله.
- ١٣ - التعاون مع المؤسسات التعليمية، والهيئات العلمية المختصة، وعقد الاجتماعات واللقاءات بين العاملين بموضوع الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.
- ١٤ - السعي لدى المسؤولين عن التعليم الخاص والعام في المؤسسات التعليمية والمنظمات الإسلامية المهمة بالعلوم والثقافة : لإدخال الأبحاث المعتمدة لدى الهيئة ضمن المناهج التعليمية في مراحل الدراسة المناسبة.
- ١٥ - حث الجامعات على إتاحة الفرص والتشجيع على التسجيل في الدراسات العليا، وتقديم المنح الدراسية في مجال الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

أبرز الإنجازات

أولاً : في مجال المؤتمرات والندوات العلمية :

- ١- المؤتمر العالمي عن الإعجاز العلمي في القرآن والسنة بإسلام آباد في باكستان ١٤٠٨هـ.
- ٢- مؤتمر القاهرة للإعجاز الطبي في القرآن والسنة في مصر ١٤٠٩ هـ.
- ٣- ندوة عن الإعجاز الطبي في الصيام ١٤١١هـ.
- ٤- مؤتمر الإعجاز العلمي في القرآن والسنة بدار - السنغال في ١٤١٢هـ.
- ٥- المؤتمر العالمي عن الإعجاز العلمي في القرآن والسنة بموسكو في روسيا ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- ٦- المؤتمر العالمي عن الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في باندونغ بأندونيسيا ١٤١٥هـ.
- ٧- الندوة الدولية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة في نواكشوط بموريتانيا في الفترة من ١٠-١٢/٣/١٤١٩هـ.
- ٨- المؤتمر العالمي حول الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في بيروت - لبنان ١٤٢١هـ.
- ٩- المشاركة في الندوة العالمية لطب الأعشاب التي عقدت بمستشفى الملك فهد بجدة في الفترة من ١٥-١٨/١١/١٤١٧هـ.

ثانياً : في مجال البحوث والإصدارات :

تتضمن البحوث والإصدارات مواضيع إعجازية كثيرة وشيقة، في الآفاق والأنفس وتشمل الكتب المطبوعة وإصدار مجلة الإعجاز العلمي وإنتاج أشرطة فيديو وأقراص كمبيوتر مدمجة وهذا بيان بأهم إصدارات الهيئة :

١ - الكتب :

- ١- انه الحق (باللغتين العربية والإنجليزية) .
- ٢- تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة .
- ٣- من أوجه الإعجاز العلمي في مجال العدوى والطب الوقائي .
- ٤- من أوجه الإعجاز العلمي في عالم النحل .
- ٥- من أوجه الإعجاز العلمي في اللبن ومكوناته .
- ٦- من أوجه الإعجاز العلمي في حديث : الحبة السوداء شفاء من كل داء .
- ٧- علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة (باللغتين العربية والإنجليزية) .
- ٨- مشاريع البحوث الطبية (باللغتين العربية والإنجليزية) .

- ٩- المفهوم الجيولوجي للجبال في القرآن والسنة (بالإنجليزية).
- ١٠- إعجاز القرآن الكريم في وصف أنواع الرياح، السحاب، المطر.
- ١١- الصيام معجزة علمية.
- ١٢- الخمر داء وليست بدواء.
- ١٣- من أوجه الإعجاز العلمي في الارتفاعات العالية والإحساس بالأم.
- ١٤- الإعجاز العلمي في آيات السمع والبصر في القرآن الكريم.
- ١٥- من أوجه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عالم البحار.
- ١٦- الإعجاز العلمي في الناصية.
- ١٧- المصعب والحواجز بين البحار في القرآن الكريم.
- ١٨- الاستشفاء بالصلاة.
- ١٩- (أفرايتم النار التي تورون).
- ٢٠- من أوجه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عالم النبات.
- ٢١- الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ... تاريخه وضوابطه.

٢- مجلة الإعجاز العلمي :

صدر العدد الأول من المجلة عام ١٤١٦هـ وقد انتظم صدور المجلة ابتداء من العدد الرابع وهي وقد صدر منها حتى الآن ثلاثة عشر عدداً، وتصدر في السنة ثلاثة أعداد، ويطبع منها ٢٥ ألف نسخة يوزع منها داخل المملكة خمسة عشر ألفاً والباقي يوزع في عدد من الدول العربية، وبلغ عدد المشتركين في المجلة أكثر من ألفي مشترك. وللمجلة - بحمد الله - قبول وجمهور كبير داخل المملكة وخارجها وأصدرت الهيئة قرصاً مدمجاً (cd) يحتوي على الأعداد الستة الأولى من المجلة.

٣- الأشرطة : أصدرت الهيئة عدة أشرطة فيديو :

- ١- شريط فيديو بعنوان (انه الحق) باللغات الآتية :
 - ١- العربية ،
 - ٢- الإنجليزية ،
 - ٣- الفرنسية ،
 - ٤- الأردنية ،
 - ٥- التركية
 - ٢- شريط فيديو حول وقائع المؤتمر العالمي للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بموسكو - روسيا.
 - ٣- شريط فيديو حول وقائع المؤتمر العالمي للإعجاز العلمي في القرآن والسنة في بيروت - لبنان.
- وهناك مجموعة من المحاضرات في مواضيع مختلفة.

ثالثاً : في المجال البحثي :

أنجز الباحثون في الهيئة والمتعاونون معها عدداً من أبحاث الإعجاز العلمي في مواضيع شتى، وتقوم اللجنة العلمية في الهيئة بالعمل على إخراج موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة وفق ضوابط الإعجاز العلمي وقد انتهت من المرحلة الأولى.

رابعاً : المحاضرات :

يقوم الباحثون بالهيئة والمتعاونون معها بإلقاء المحاضرات في الجامعات والمدارس الثانوية والمراكز الثقافية في المملكة وخارجها.

خامساً : المكاتب الفرعية للهيئة :

يوجد للهيئة مكتبان فاعلان الأول في جدة والثاني في القاهرة، يقوم كل منهما بجانب من أنشطة الهيئة.

سادساً : موقع الهيئة على الإنترنت :

أنشأت الهيئة موقعاً متكاملًا باللغة العربية والإنجليزية على شبكة الإنترنت وعنوانه :

www.alejaz.net

أهم مشروعات الهيئة المستقبلية

- 1- إخراج سلسلة من الأفلام العلمية المتعلقة بالإعجاز العلمي في القرآن والسنة.
- 2- متابعة الأعمال في موسوعة نصوص الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.
- 3- متابعة عقد الندوات حول حقائق الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.
- 4- التحضير لعقد مؤتمرات عن الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في أماكن مختلفة من العالم.
- 5- ترجمة وطباعة الكتب الصادرة من الهيئة باللغة الإنجليزية، وغيرها من اللغات الحية.
- 6- طباعة عدد من الأبحاث المجازة باللغة العربية وهي حوالي خمسة عشر بحثاً.
- 7- إنشاء وقف للهيئة لمتابعة أنشطتها ومشاريعها.
- 8- إنشاء معرض دائم للإعجاز العلمي في مقر هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة برابطة العالم الإسلامي.
- 9- دعم ومتابعة الأبحاث الطبية في المختبرات المعملية على بعض الأعشاب التي ورد ذكرها في الأحاديث النبوية الشريفة بالتعاون من مراكز الأبحاث في الجامعات.

المحور الرابع

علوم الفلك والارصاد



- (١) مراحل خلق الكون بين العلم والقرآن.
- (٢) (وجعلنا سراجا وهاجا).
- (٣) الإعجاز العلمي في قوله تعالى : (سُقُّفٌ مِّنْ فِضَّةٍ).
- (٤) بعض تمثيلات الفساد في المجال البئي.

**ظهر الفساد
بما كسبت أيدي الناس**

أ.د الحسين زايد

و

أ.د عبد الكبير بلاوشو

للم المدخل

للم معرفة الإنسان في الإسلام.

للم الفساد كمصطلح قرآني.

للم في رحاب الآية المعجزة.

للم بعض مظاهر الفساد في البر والبحر.

* المكون الأساسي للحياة: الماء.

* المكون الحيوي الثاني: الهواء.

- ظاهرة الانحباس الحراري.

- ظاهرة الدخان الضبابي.

- ظاهرة الأمطار الحمضية.

- ظاهرة ثقب الأوزون.

* المكون الحيوي الثالث: التربة.

- ظاهرة التخصب.

- ظاهرة التصحر.

- ظاهرة الرضيع الأزرق.

* المكون الحيوي الرابع: التنوع البيولوجي.

للم خاتمة.

للم مراجع.

مدخل:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي حث عباده، كل عباده ولم يستثن منهم أحدا، على البحث عنه في كل ما خلق، وعلى الاهتمام إليه عبر العقل الباحث المفكر والمدير ... حثهم على طلب العلم والعمل به، فنفتح فيهم روحا وهاجة، وبث فيهم من علمه عقلا فياضا، يحول النور إشعاعا إنسانيا، أو يدعه يخفت ويثيدا فيصبح ظلما دامسا. والمسلم مطالب بأن يتدبر آيات الله، المكتوب منها والمنظور، وأن يفعل عقله وفكره ووجدانه في فقه معانيها وفهم دلالاتها لتطمئن الجوارح وتستقر الخواطر إلى أن القرآن هو تنزيل من الله عز وجل، وحجة إلى العقل الإنساني أو عليه، على اعتبار أن العلم حجة على أهله لأنه مناط التكليف، حيث أن العلم يجعل العقل لا يقبل قضية إلا إذا كانت مشفوعة بالبرهان القاطع، ولا يرجح راجحا على مرجوح إلا بدليل ساطع، ويستطيع التفرقة بين الأدلة القطعية والظنية.

أمام هذا، فهو لا يقف إلا على ما يثق فيه، وإلى ما يطمئن إليه حسب مقدرته من التقييم ورصيده من التجريب. لهذا، نجد أنفسنا أمام من يأخذ بالظنة ويقول عليها، ومن يطلب بالدليل القطعي الذي يعطيه واقعا لا يرقى إليه الحدس أو الريبة.

ونحن اليوم نستفيد من الكشوفات والأبحاث العلمية، والعلم قد بلغ مراحل خطيرة من التفوق والنفوذ ولم يتوقف عند حد، فقد أصبح لزاما علينا في آن واحد، أن نؤمن بآيات الله المبررة لقوله تعالى: "أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفاها"⁽¹⁾.

وكذلك من الواجب والفريضة أن نتدبر آياته الكونية لقوله عز وجل: "إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانهك، فقنا عذاب النار"⁽²⁾.

والقرآن الكريم حافل بالإشارات العلمية الكونية، وكل منها يدعو الفطرة الموحدة لمزيد من التوحيد والخشوع والخشية أمام عظمة الله الواحد القهار، وأكثر الناس إدراكا لها المتخصصون: "إنما يخشى الله من عباده العلماء"⁽³⁾.

يتمحور هذا البحث حول منزلة الإنسان من المنظور الإسلامي باعتباره مستخلفا في الأرض وعليه تقع مسؤولية إدارة مواردها.

ثم يعرف مفهوم الفساد كمصطلح قرآني ميرزا المعنى اللغوي والشرعي والمفهوم المعاصر قبل أن يتطرق لبعض مظاهر الفساد المرتبطة بالأنشطة البشرية والتي تطل الماء والهواء والتربة وانعكاساتها السلبية على صحة الإنسان وإنتاجيته.

ويخلص في الأخير على ضرورة أخذ العبر من النتائج الوخيمة التي لحقت بالإنسان عندما خضع لغريزته واتبع هواه فتصرف بأنانية مطلقة وقدم مصلحته الخاصة على المصلحة العامة ... فأفسد في الأرض بعد إصلاحها وحلت به المصائب والكوارث وهي بالنسبة للعارفين بالله نوع من أنواع الأخذ الرباني للأمم المتمردة التي تخلت عن منهج الله ولم ترق إلى مستوى الخلافة وارتضت حكم الأهواء "وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة، إن أخذه أليم شديد"⁽⁴⁾.

وكان الإنسان أكبر المتضررين.

فكان عليه آنذاك مراجعة نفسه ... فجاءت التقارير تلو التقارير، من المنظمات الدولية وغير الدولية، الحكومية منها وغير الحكومية، كلها تصب في اتجاه واحد: "لنوقف هذا الريف!" مما يدل على تنامي الوعي والاهتمام بإشكالية البيئة دوليا وإقليميا ووطنيا.

فكان مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة البشرية في استكهولم سنة ١٩٧٢ وكانت قمة الأرض في ريودي جانيرو سنة ١٩٩٢ والتي صاغت برنامج عمل طموح "جدول أعمال القرن ٢١" (Agenda 21).

وكان مؤتمر السكان والتنمية بالقاهرة سنة ١٩٩٤ ومؤتمر التنمية البشرية في كوبنهاغن سنة ١٩٩٥ ومؤتمر المستوطنات البشرية في إسطنبول سنة ١٩٩٦ ثم قمة "ريو + ٥" سنة ١٩٩٧ وقمة "ريو + ١٠" للتنمية المستدامة سنة ٢٠٠٢ في جوهانسبورغ ولازال المشكل البيئي قائما شاهدا على خيبة الأمل بالنسبة للعديد من الالتزامات والتعهدات التي بقيت حبرا على ورق، ويستدعينا جميعا لقمة من نوع آخر، "قمة الرجوع إلى الله" عز وجل حتى تنفجر الكرب وتعود النعم التي أنعم الله علينا بها، مصداقا لقوله تعالى: "ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون"⁽⁵⁾، ونضمن بذلك مستقبلا بيننا سليما لنا وللأجيال القادمة.

منزلة الإنسان في الإسلام:

يروى لنا القرآن الكريم الحوار الذي دار بين الخالق عز وجل وملائكته حول خلق آدم (عليه السلام) والخلافة في الأرض:

"وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم ما علم غيب السموات والأرض وأعلم ما تدون وما كنتم تكتمون" (١).

"وهو الذي جعلكم خلائف الأرض" (٢).

فالإنسان إذن مكرم بالخلافة في الأرض.

ونجد كذلك في سورة الإسراء إشارة أخرى لهذا التكريم:

"ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا

تفضيلاً" (٣).

ومن مظاهر هذا التكريم والتفضيل الذين حظي بهما الإنسان

• أن سواه الله ونفخ فيه من روحه "فإذا سويته ونفخت فيه من روحي..." (٤).

• وأمر الملائكة أن يسجدوا له "... فقعوا له ساجدين" (٥).

• وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة.

"هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً" (٦).

"وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه" (٧).

"وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره، وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، وسخر لكم الليل والنهار، وآتاكم من كل ما سألتموه، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار" (١٣).

والتسخير هو التذليل بلا أجر ولا ثمن، أي بدون مقابل، يشترك في هذا المؤمن والكافر "كلا نمد، هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظورا" (١٤) فالإنسان هو المخلوق الوحيد الذي حباه الله بقدرة التسلط على المخلوقات الأخرى والتحكم فيها وإخضاعها لسيطرته، وكيف لا، والكون كله مسخر له!

وقد منح الله هذا الإنسان من الطاقات والقدرات ما لم يمنحه لغيره من الكائنات، فوهبه سبحانه وتعالى وسائل ليقوم بعمارة الأرض "هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها" (١٥)، واستثمار خيراتها وكنوزها، والانتفاع بكل ما عليها، ويستنبط سنن الله الكونية في الحياة، غير أن هذا التفضيل الذي حباه الله به قد يجعل منه كائنا خطيرا إن لم يحسن التصرف والتدبير، فكل شيء خلقه الله لمصلحة ومنفعة المخلوقات، خلقه بقدر محدد وبميزان:

"إنا كل شيء خلقناه بقدر" (١٦).

"وكل شيء عنده بمقدار" (١٧).

"والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون" (١٨).

وكل تدخل بشري يخل بهذا التوازن، إنما ينجم عنه خلل قد يتحول إلى فساد.

ومع التسوية ونفخ الروح وإسجاد الملائكة له، منحه الله العقل المتدبر لا العقل المتعطل يستنبط به الكامن من بديع صنعه بفطنته ويستكشف الغامض من عظيم خلقه بدقيق فكره، فيتأمل ما حوله حيث تتمثل حكمة الله وتتمظهر آياته الجليلة.

"ويفكرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه" (١٩).

ورغم هذه المنح كلها، لم يترك الله الإنسان يتخبط بين المعرفة والجهل، وبين اليقين والشك، فأرسل الرسل والأنبياء حتى تقام الحججة "وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا" (٢٠).

من هنا، كان القرآن منهجا لحركة الإنسان في الحياة وأداء وظيفته ومهمته في الاستخلاف ودستورا ينظم للناس معاشهم ومعادهم.

فكانت تلك الغايات التي من أجلها أوجد الله الإنسان: الخلافة في الأرض وعمارها وتحقيق عبودية الله وحده وهو سلوك منبثق من معرفة الخالق والإيمان به عن طريق توظيف العقل والقراءة واستكناه حقيقة الكون من حولنا.

قال تعالى:

"إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا"^(٢١).

فها هو الكون كله يسلم لله ويرفض أن تكون له الخيرة في أن يؤمن أو لا يؤمن، يسلم عن طواعية ويختار طريق الإيمان دون أن تكون له إرادة في المعصية.

"ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فقال لها وللأرض إيتيا طوعا أو كرها، قالتا أتينا طائعين"^(٢٢).

أما الإنسان، فقد قبل أن يحمل الأمانة وما يترتب عنها من تداعيات إيجابية أو سلبية. فنتعت من أجل ذلك بالظلم الجهول (مبالغة في الظلم والجهل) لعدم تقديره لعظم المسؤولية التي تنتظره وخطورتها وهولها. قبل أن يأتي الله باختيار وحب، وحيث أنه يستطيع فعل ذلك، فباستطاعته كذلك القيام بعكس ذلك.

فهناك إذن حرية في الإيمان، والحرية تقتضي أن يكون المرء مسؤولا.

غير أن هذا الإنسان، المخلوق من عنصرين المادة والروح، تتنازع نزعتان: نزعة تشده إلى الأرض وما فيها من عبودية للمادة، ونزعة تسمو به إلى السماء وما فيها من عبودية لله.

"إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا"^(٢٣).

"ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها"^(٢٤).

فإما أن يهذب العنصر الروحي الإلهي فيسمو به ويرفعه إلى السماء فيصبح من الشاكرين وإما أن يتغلب عليه العنصر الترابي فيشده إلى الأرض ويسعى فيها فسادا ويكفر بخالقه فيكون من الخاسرين والعياذ بالله، ويصدق عليه قوله تعالى:

"واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثل كمثل الكلب، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث"^(٢٥).

لهذا كان على الإنسان العاقل أن يتجنب العبث وإلحاق الضرر بمكونات الوسط الذي يحيى فيه. فجاء القرآن ليحذرننا من أن الفساد في الأرض قد يترتب عليه إهلاك للحرث والنسل "ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد"^(٢٦).

وذكر الحرت والنسل إشارة للنبات والحيوان وهما أساس التغذية لدى الإنسان.
كما أمرنا القرآن الكريم أن نتجنب التبذير.

"ولا تبذر تبذيرا، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين، وكان الشيطان لربه كفورا"^(٢٧).
"كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين"^(٢٨).
ونبحث عن الوسطية.

"والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما"^(٢٩).

"ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا"^(٣٠).
لأننا أمة وسط "وكذلك جعلناكم أمة وسطا"^(٣١).

وجاءت تعاليم السنة النبوية الشريفة لتربينا على احترام البيئة ومكوناتها فجعلت إمطة الأذى والحجر والشوكة والعظم عن الطريق من محاسن الأعمال وشعبة من شعب الإيمان.
يقول الرسول (ص) في هذا الباب:

"الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان"^(٣٢).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال رسول الله (ص):

"عرضت علي أعمال أمتي حسننها وسيئها فوجدت من محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق.
ووجدت من مساوئ أعمالها النخامة تكون في المسجد لا تدفن"^(٣٣).

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه، عن رسول الله (ص):

"... وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن طريق الناس صدقة"^(٣٤).

وفي حديث البخاري ومسلم عن رسول الله (ص):

"ما من مسلم يفرس غرسا أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة".

وجاء في صحيح البخاري أن رسول الله (ص) مر عليه بجنابة فقال مستريح ومستراح منه. قالوا يا رسول الله، ما المستريح وما المستراح منه؟ قال: العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب.

وجاءت الشريعة السمحة لتحرم الفساد وتمنعه بالضرب على أيدي المفسدين، وتضع من بين مقاصدها الحفاظ على النفس، مما يستلزم الحفاظ على الحياة وتحري العافية والبحث عن الوقاية والعلاج والتغذية، والسعي وراء سلامة مافينا وسلامة ما حولنا، وهو ما اصطلاح عليه باسم البيئة.

الفساد كمصطلح قرآني:

التعريف المفاهيمي:

مقاربتنا لظاهرة الفساد تقتضي الوقوف عند دلالة هذا المصطلح وحولته القيمة، من هنا ارتأينا تقديم معنى الفساد في الاصطلاح اللغوي ومن المنظور الشرعي انتهاء بالمفهوم المعاصر الشامل والأوسع لهذا المصطلح.

الاصطلاح اللغوي:

فسد: الفساد: تقيض الصلاح، فسد يفسد ويفسد وفسد فسادا وفسودا، فهو فاسد وفسيد فيهما، ولا يقال انفسد وأفسدته أنا، وقوله تعالى: ويسعون في الأرض فسادا؛ نصب فسادا لأنه مفعول له أراد يسعون في الأرض للفساد.

وقوم فسدى كما قالوا ساقطو سقطي، قال سيبيوه: جمع مجمع هلكى لتقاربهما في المعنى. وأفسده هو واستفسد فلان إلى فلان.

وتفاسد القوم: تدابروا وقطعوا الأرحام؛ قال:

يمددن بالثدي في الجاسد

إلى الرجال، خشية التفاسد

يقول؛ يخرجن ثديهن يقلن: ننشدكم الله ألا حميتونا، يحرضن بذلك الرجال.

واستفسد السلطان قائده إذا أساء إليه حتى استعصى عليه.

والمفسدة: خلاف المصلحة. والاستفساد: خلاف الاستصلاح. وقالوا: هذا الأمر مفسدة لكذا أي فيه

فساد؛ قال الشاعر:

إن الشباب والفراغ والجده

مفسدة للعقل، أي مفسده،

وقوله عز وجل: ظهر الفساد في البر والبحر؛ الفساد هنا: الجذب في البر والقحط في البحر أي في

المدن التي على الأنهار؛ هذا قول الزجاجي. ويقال: أفسد فلان المال يفسده إفسادا وفسادا، والله لا يحب الفساد.

وفسد الشيء إذا أباره؛ وقال ابن جنذب:

وقلت لهم: قد أدركتكم كتيبة

مفسدة الأدبار، ما لم تخفر

أي إذا شدت على قوم قطعت أدبارهم ما لم تخفر.

الأدبار أي لم تمتنع. وفي الحديث: كره عشر خلال منها إفساد الصبي غير محرمه؛ هو أن يطأ المرأة المرضع فإذا حملت فسد لبنها وكان من ذلك فساد الصبي وتسمى الغيلة؛ وقوله غير محرمه أي انه كرهه ولم يبلغ به حد التحريم.

الدلالة الشرعية:

الفساد في دلالة القرآن والسنة وفق تفسير الجلالين هو الخروج عن حد الاعتدال بالكفر والشرك والتعويق عن الإيمان وبالمعاصي وإهلاك الحرث والنسل وقتل النفس بغير حق والسعي إلى قطع الطريق، والنهب والبغي والتخريب والعتو والعودة إلى حياة الجاهلية بكل مظاهرها. تلکم الفساد والإفساد والقائمون عليه مفسدون.

غير أننا نجد هذا المصطلح يأخذ معنى مناقضا تماما لمعناه الأصلي عندما يوظف من طرف المفسدين أنفسهم؛ فهذا هو مثلا فرعون الذي كان يشكل قمة الفساد آنذاك يقول واعظا ومشققا على الناس من موسى (عليه السلام): "وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه، إني أخاف أن يبدل دينكم وأن يظهر في الأرض الفساد" (٣٥).

وينصب نفسه المرشد والهادي إلى الطريق القويم: "قال فرعون ما أرىكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيلا الرشاد" (٣٦).

وقد سبقت كلمة الفساد ومشتقاتها في ٥٠ آية قرآنية بصيغ مختلفة نذكر منها:

لفسدت - لفسدنا - أفسدوها - لفسدن - تفسدوا - لفسد - يفسد - ليفسدوا - يفسدون -

الفساد - فسادا - المفسد - المفسدون - مفسدين - المفسدين.

المفهوم المعاصر:

في عصرنا هذا، يتسع مفهوم الفساد ليطال كل مناحي الحياة بتمثلات جديدة وتظاهرات ومسميات وليدة هذا الزمان، فنجد الفساد في التصور، والفساد في الممارسة والسلوك، والإفساد في المحيط وفي الأنظمة الإيكولوجية أو ما يسمى اصطلاحاً بالتلوث البيئي، كما نجد أيضاً الفساد أو التلوث الأخلاقي، والفساد الإيديولوجي، والفساد في الكلمات والمفاهيم والمصطلحات. حيث الفساد موجود بوجود الفعل الإنساني، حتى أصبح لسان حالنا يدعو لتخليق الممارسات ومجالات الحياة المهنية والمجالات البيئية ليعود الاعتبار بذلك للضوابط والقواعد الأخلاقية والشرعية.

في رحاب الآية المعجزة:

يقول الحق عز وجل: "ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون"^(٣٧).

آية واحدة تتكلم عن حدوث الظاهرة (ظاهرة الفساد)، وعن مكان حدوثها (في البر والبحر، ويعتبر الغلاف الجوي الذي لم ينجم من الفساد هو الآخر، تابعا للبر) وعن المسؤول عن حدوثها (بفعل الإنسان) وعن المتضرر منها (فالعواقب والكوارث البيئية تلحق الضرر بالوجود الإنساني) والعبرة من هذا تقتضي الإقضاء بالمنهج الرباني (رجوع الإنسان إلى خالقه) لأن حدوث الفساد وما يترتب عنه من أضرار يقتضي الوقوف عند الظاهرة وتفكيك عناصرها وتحليل أسبابها بهدف معالجة مسبباتها لتجنب الوقوع فيها ثانية.

آية نزلت منذ خمسة عشر قرناً لم يكن الإنسان آنذاك يعرف شيئاً عن التلوث وانعكاساته الخطيرة على التنوع البيولوجي ولا عن التنمية المستدامة ولا عن التغيرات المناخية بسبب الانحباس الحراري ولا عن ظاهرة البيوت الزجاجية ...

هذه الآية تجعل الإنسان المسلم يقف إجلالاً لما يجد فيها من إعجاز، فينهر للشمولية التي تضمنتها، وتقتز مشاعره في ضوء منهج إسلامي علمي متكامل، يكاد يخيل إلينا أنها أنزلت لهذا الزمن، زمن التلوث والفساد ... فنجد أنفسنا منها أمام وعي شامل بمشاشة ما حولنا وعظمة المسؤولية الملقاة على عاتقنا وخطورة العقاب التي تنتظرنا ... منهج متكامل يجعل الإنسان يدرك مركزه في الكون ويدرك الكون نفسه.

وفي هذا الصدد، يقول الدكتور صبحي الصالح:

"وهنا برزت معالم هذا النهج الإسلامي الكوني الذي أنشأ للمسلمين علما قد يصطلح على تسميته علم الوعي الكوني من طريق الإسلام وهو مؤلف من قيم كثيرة نكتفي بذكر خمس منها بإيجاز شديد، إنما أربع على مستوى الأكوان والخامسة التي تتممها هي على مستوى الإنسان. أما الأربع الكونيات فهي:

- قيمة الزمان لرفض العدم.
- وقيمة الحياة لرفض العيب.
- وقيمة الأرقام لرفض الأوهام.
- وقيمة الفضاء لرفض الفراغ.

وأما الخامسة التي تكملها وإيها نهاية المطاف في هذه الحياة الفانية قبل المصير إلى دار الخلود فهي قيمة الشخص، لرفض الهوى، والانسحاق والاستغلال والانحلال".

ولأن هذا البحث يدور حول الآية المعجزة، فهو يركز أساسا على مسؤولية الإنسان تجاه محيطه المتكون من التربة والهواء والماء. لذا كان لابد أن نتوقف عند بعض التهديدات التي تطال المجال البيئي من جراء أنشطة بشرية غير مسؤولة في قطاعات شتى (من فلاحية وصناعة وغط عيش وغيرها) والتي تسبب في الإخلال بالتوازنات البيئية.

بعض مظاهر الفساد في البر والبحر:

شهدت الكرة الأرضية منذ مطلع الثورة الصناعية وخذ الآن تصاعدا مستمرا في كمية التلوث التي أصبحت تعم اليابسة والماء والهواء على حد سواء. إن المجتمعات البشرية التي تعاقبت على الأرض أحدثت تغييرات على الوسط الذي كانت تعيش فيه. فانتجت نفايات وفضلات وقذفت بها في الوسط الطبيعي بدون أخذ أية إجراءات وقائية، وبذلك تكون قد دشنت بداية لمسلسل التلوث الذي لم تنته حلقاته بعد. وقد ظل هذا التلوث بدون عواقب تذكر في مرحلته الأولى، لكن سرعان ما تحول، مع التطور الصناعي والفلاحي خلال القرنين الماضيين، إلى كارثة أتت على كل مكونات الحياة من ماء وتربة وهواء، فـ "ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس".

المكون الأساسي للحياة: الماء

لا تزال القدرة على الحصول على المياه النقية حاجة عاجلة للبشر في كثير من البلدان، ويعزى جانب من المشكلة إلى التلوث فيما يرجع الجانب الآخر إلى نقص في الموارد المائية. ويعتبر الماء من المنظور الإسلامي:

* أساس الوجود.

"وكان عرشه على الماء" (٣٨).

"وجعلنا من الماء كل شيء حي" (٣٩).

* وأصل كل الأحياء.

"والله خلق كل دابة من ماء، فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع، يخلق الله ما يشاء" (٤٠).

"فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب" (٤١).

* ومصدر رزق وغذاء للإنسان والحيوان والنبات.

"لم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه" (٤٢).

لذا، فقد اهتم به الإسلام أيما اهتمام وحث على الاقتصاد في استعماله والحفاظ عليه من التلوث. فكان النبي (ص) تكفيه كمية قليلة من الماء للاغتسال والوضوء. نفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله (ص) مر بسعد وهو يتوضأ، فقال: ما هذا السرف؟ قال: أي الوضوء إسراف؟ قال: نعم وإن كنت على فخر جار (٤٣). وجاء في صحيح البخاري أن الرسول (ص) قال: "لا يبولن أحدكم في الماء الدائم" (الذي لا يجري).

من هنا كانت حماية الموارد المائية العذبة وترشيد استعمالها من الأولويات التي ينبغي للمسلم الاعتناء بها.

فالكثير من معاناة البشر ينجم عن أمراض يمكن التغلب عليها إلى حد كبير عند توفير إمدادات ملائمة للمياه وإنشاء شبكات للصرف الصحي.

وأكثر أشكال تلوث المياه انتشارا ناتج عن فضلات البشر الحاملة للأمراض (أنظر الصورة ١). وفي هذا الصدد، يفيد تقرير "برنامج الأمم المتحدة للبيئة" (PNUE) لسنة ٢٠٠٢ بأن كمية المياه المستعملة التي تقذفها الدول النامية في تزايد نتيجة التعمير السريع والنمو الديمغرافي المتزايد.

فإذا علمنا أن مدينة صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها ٣٠٠ ألف نسمة ترمي كل ثانية مترا مكعبا من الماء الملوث، والذي يحتوي كل ميليلتر منه (أي جزء من ألف من اللتر) على مليوني أو ثلاثة ملايين من الجراثيم، وإذا علمنا أن مترا مكعبا من مياه الصرف يلوث ٢٥ مترا مكعبا من المياه الصالحة للشرب، أصبح الأمر واضحا على ضرورة إيقاف هذه الكارثة البيئية وبشكل استعجالي حتى لا ينفلت زمام الأمور وتصير هذه الأخيرة إلى نقطة اللاعودة.

ومن حكمة الله عز وجل ورحمته بنا أن حيا الوديان والأنهار بقدرة النصفية الذاتية (auto-purification) وهي خاصية ذات أهمية قصوى بالنسبة لمصير الكائنات الحيوانية والنباتية والإنسان، لكنها تبقى محدودة وتنقلص فعاليتها كلما زاد حجم النفايات أو نقصت كمية الماء المتدفقة. وليس من الغريب أن يجيء في تقرير برنامج الأمم المتحدة للبيئة لسنة ٢٠٠٢ أن ما يناهز نصف أقطار العالم تشكو من التلوث.

الجدول ١: المسحوبات القطاعية من المياه حسب مجموعة الدخل القطرية

المسحوبات حسب القطاع (نسبة مئوية)			نصيب الفرد من المسحوبات السنتوية (بالأمتار المكعبة)	مجموعة الدخل
الزراعة	الصناعة	المنازل		
٩١	٥	٤	٣٨٦	الدخل المنخفض
٦٩	١٨	١٣	٤٥٣	الدخل المتوسط
٣٩	٤٧	١٤	١١٦٧	الدخل المرتفع

(المصدر: معهد الموارد العالمية: ١٩٩٠)

ومن أهم أسباب تلوث المياه، يمكن الحديث عن:

- غياب معالجة المياه المستعملة.
- إلقاء النفايات الصناعية مباشرة في الوديان.
- تسربات مخازن حاملات النفط.
- بقايا المخصبات والمبيدات المستعملة في الزراعة.
- الأمطار الحمضية.

ولا يزال شبح الموت يخيم على المجتمعات البشرية خصوصا في البلدان النامية، فيحصد حسب المنظمة العالمية للصحة ما بين ٣ و٤ ملايين شخصا سنويا من جراء أمراض متعلقة بجودة الماء (كالإسهال، والتسممات والأمراض الطفيلية...). فيلتجئون أمام هذا التدهور البيئي الخطير ذي الانعكاس الصحي القاتل إلى البحث عن حلول قد تكون في غالب الأحيان مؤقتة أو غير ملائمة. وهكذا قامت الحكومات في البلدان المصنعة بإجراءات قانونية في العقود الأخيرة بهدف حماية الموارد الوطنية، ومن بين هذه التدابير، معالجة المياه المستعملة وإحداث محطات لتصفية المياه الملوثة. أما في البلدان النامية فلا تزال تكلفة تقنية تصفية المياه تشكل عائقا ماديا لا يستهان به.

فلو أخذنا بعين الاعتبار التكاليف الباهظة التي تكبدها المياه الملوثة والصرف الصحي القاصر للصحة البشرية والإنتاجية، وكذا الضغوط التي يفرضها الطلب البشري المتنامي بسرعة على موارد المياه، لجاز لنا دق ناقوس الخطر على أن الماء سيصبح -خلال السنين المقبلة- مثل الطاقة: من المصادر الحساسة التي ستقام الحروب حولها.

أما بالنسبة لمعالجة المياه المستعملة وإعادة استعمالها، فلنا في الإعجاز البيولوجي لجسم الإنسان (وخاصة الجهاز البولي) خير مثال حيث أن كمية الماء التي يضخها القلب خلال اليوم الواحد عبر الشرايين والأوردة تقدر بحوالي عشرة إلى خمسة آلاف لتر. فإذا علمنا أن متوسط حجم الدم عند الإنسان يعادل خمس لترات، خلصنا إلى أن جسم الإنسان يستعمل ويعيد استعمال كل لتر من الماء ألفين إلى ثلاث آلاف مرة حتى تستنفذ صلاحيته ويصبح غير قابل للاستعمال فيتخلص منه الجسم على شكل السائل البولي.

"وفي أنفسكم، أفلا تبصرون"^(٤٤).

المكون الحيوي الثاني: الهواء

يحتوي الهواء على غازات حيوية وأخرى سامة. من بين الغازات الحيوية نجد الأكسجين (O_2) الذي يدخل عموما في عملية التنفس، وثنائي أكسيد الكربون (CO_2) الذي يستهلك بواسطة النباتات الخضراء (عناصر الإنتاج) في إحدى أهم عملية كيميائية حيوية عرفتها الأرض: عملية التركيب (أو التخليق) الضوئي (Photosynthèse).

ومن بين الغازات السامة الموجودة في الغلاف الجوي نذكر على سبيل المثال لا الحصر أكسيد الكربون (CO) الذي ينتج عن الاحتراق غير التام للمواد العضوية، وأكسيدات النتروز (NO, NO_2) وثنائي أكسيد الكبريت (SO_2).

من أخطر أنواع التلوث ذلك الذي يطال الهواء والذي من أهم مصادره الدخان الناتج عن احتراق المواد ... فهناك ثلاثة مصادر أساسية سببها الرئيسي هو الإنسان، تؤدي كلها إلى تلوث الهواء:

- استخدام الطاقة.
- انبعاث الغازات من السيارات والشاحنات.
- الإنتاج الصناعي.

ومن المعلوم أن الأضرار الناتجة عن الدخان لا تقتصر على صحة الإنسان فحسب بل تتعداها إلى أضرار بيئية نذكر من بينها: الانحباس الحراري والتغيرات المناخية وإفقار طبقة الأوزون وهطول الأمطار الحمضية.

* ظاهرة الانحباس الحراري:

لقد تضاعفت انبعاثات ثاني أكسيد الكربون (CO_2) ثلاث مرات خلال أقل من نصف قرن من الزمن. يتراكم هذا الغاز في الطبقات العليا للغلاف الجوي للأرض حيث يعمل على حفظ حرارة الأرض لكونه يعكس جزءا منها ويعتمها من التسرب إلى الفضاء الخارجي كما هو الشأن مع البيوت البلاستيكية أو الزجاجية.

ويذهب كثير من العلماء على أن الغازات ذات مفعول الانحباس الحراري مثل ثاني أكسيد الكربون والميثان ($Methane$) وغيرهما قد تسبب في ارتفاع تدريجي لحرارة اليابسة وما يترتب عنها من تغيرات مناخية هامة.

فمن المتوقع كنتيجة لهذا أن يزداد ذوبان الثلج في القطبين وبالتالي ترتفع نسبة المياه في الأنهار والبحار وما يتبع ذلك من فيضانات قد تفرق بعض المناطق الساحلية.

* ظاهرة الدخان الضبابي:

من مظاهر تلوث الهواء الواضحة وجود الدخان الضبابي ($Smog$) فوق بعض المدن الكبرى نتيجة انبعاث الغازات من المصانع والسيارات. وتبين الدراسات أن هناك ازديادا في الوفيات مع ارتفاع تركيز المواد الهابطة الدقيقة العالقة، وخاصة بين كبار السن المصابين بأمراض مزمنة أو بانسداد الشعبات الرئوية، أو الالتهاب الرئوي أو أمراض القلب.

فمع وجود ضوء الشمس، تتفاعل هذه الغازات فتشكل كثافة عالية من الدخان يمكن ملاحظته معلقا في الهواء على علو كيلومترات قليلة من الأرض.

* ظاهرة الأمطار الحمضية:

من بين الغازات السامة الموجودة في الدخان غازان مسؤولان عن تكون الأمطار الحمضية وهما ثاني أكسيد الكبريت (SO_2) وثاني أكسيد النيتروز (NO_2). هذان الأخيران يتفاعلان مع ذرات الماء فينتجان على التوالي حمض الكبريتيك (H_2SO_4) وحمض النيتريك (HNO_3) اللذان يعتبران سماً قاتلاً يقضي على النباتات والغابات والبحيرات ويتسبب في إتلاف المنشآت.

فمن نعمة قد يصبح ماء المطر نقمة لأن درجة الحمضية التي يحتوي عليها تذيب أملاح الألومنيوم السامة التي تأتي على الحيوانات والنباتات المجهرية فتدمرها مما يؤدي إلى ندرة في الأسماك التي تتغذى عليها.

وقد شوهدت هذه الظاهرة في الشمال الشرقي للقارة الأمريكية وأوروبا ومؤخراً في الصين.

"قل أفرأيتم الماء الذي تشربون، أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المزلون، لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون" (45).

* ظاهرة ثقب الأوزون:

غاز الأوزون (O_3) متواجد في غلاف رقيق في الطبقة العليا من الغلاف الجوي (على علو ٢٥ كيلومتر). وحدث أن قرع ناقوس الإنذار سنة ١٩٨٥ بشأن ثقب وقع في طبقة الأوزون (انظر الصورة ٢) فوق القارة القطبية الجنوبية (antarctique) فتوجهت أصابع الإتهام إلى مركبات تحتوي على عنصري الكلور (Cl) والفليور (F) من أبرزها مركب الكلورو فليورو كربون (CFC) وتستعمل هذه المركبات في صناعة التلاجات.

ومن المعلوم أنه بدون أوزون تنعدم الحياة لأن هذا الغاز الوقائي مسخر من عند الله عز وجل ليلعب دوراً حيوياً في حماية الحياة على الأرض من الأشعة ما فوق البنفسجية (Rayons UV) المدمرة.

وأمام هذا التهديد الخطير، فقد وقع سنة ١٩٨٧ ما يقرب من ثلاثين دولة مصنعة اتفاقية مونتريال (Protocole de Montréal) التي تهدف في مرحلة أولى إلى الحد من استعمال مركبات الكلور والفليور (CFC) ومنعها تماماً في المرحلة اللاحقة.

ومن النتائج الهامة المترتبة على استئراف الأوزون زيادة الأشعة فوق البنفسجية المنبعثة من الشمس والتي يستقبلها سطح الأرض. ومن المحتمل أن تسجل زيادة في سرطانات الجلد غير الحبيثة التي تصيب في المقام الأول أصحاب البشرة البيضاء إذا لم تتخذ التدابير اللازمة.

المكون الحيوي الثالث: التربة

إن الإنتاج الزراعي رهين بنمو النبات، ولكي ينمو النبات لا بد له من تغذية متوازنة من أملاح معدنية وماء وشمس ... من هنا كان التفكير في إضافة الأسمدة أو المخصبات لتعويض النقص المعدني الذي يطال التربة من جراء امتصاص الأملاح المعدنية من طرف جذور النبات وجني الغلة وتحويلها من الحقل إلى المستهلك. غير أن إضافة الأسمدة التي أريد بها تحسين النمو والمردودية بالنسبة للنبات، أخذت أبعادا خطيرة. فعن أي ربح نتكلم إذن؟

إن كنا نتحدث عن الربح المادي، فهذه نظرة ضيقة ومؤقتة وجد أنانية لأن في المقابل هناك خسارة جسيمة في ميدان البيئة والصحة والاقتصاد.

* ظاهرة التخصب:

وحتى تكون الفكرة أوضح، سنضرب مثلا لهذا: عندما يريد المزارع الرفع من المردودية، يقوم في غالب الأحيان بإضافة أسمدة تحتوي عموما على أملاح معدنية نذكر منها البوتاسيوم (K^+) والنترات (NO_3^-) والفوسفات (HPO_4^-). فيعلق الأول بالمركب المكون من الذبال (humus) والمادة الغروانية (colloïdes) لأن لديه شحنة موجبة في حين يتسرب جزء كبير من النترات والفوسفات إلى أعماق طبقات التربة بسبب شحنتها السالبة فيصل إلى المياه الجوفية، فيرتفع في هذه المياه تركيز هذين العنصرين بشكل ملحوظ. ولم تنج بيجرات المياه العذبة من شر هذه الظاهرة حيث كثر فيها تركيز النترات والفوسفات. ومن الواضح أن هذين العنصرين يشكلان قوتا متميزا للنباتات المائية وخصوصا المجهرية منها التي تطفو على سطح الماء (Phytoplankton) فتأخذ في التكاثر بشكل غير طبيعي ويختل التوازن، ويرتفع إنتاج المادة العضوية (أنظر الصورة ٣)، فتراجع كمية الضوء التي كانت تحترق سطح الماء، وينقص الأكسجين وتختفي بعض أنواع الأسماك، وتنخفض الثروة السمكية. وعند موت هذه النباتات المجهرية، تتفكك إلى عناصرها الأولية، فتتراكم المادة العضوية ويتكون الوحل، وتدعى هذه الظاهرة، بظاهرة التخصب (Eutrophisation). وهذا ما شوهد في بعض السدود حيث شكل الوحل عائقا لوظيفة هذه السدود. ومن أنجع الحلول لظاهرة الوحل، نذكر إدخال بعض فصائل الأسماك لمنع تراكم المادة العضوية.

* ظاهرة التصحر:

إن الإنتاج الزراعي المكثف وإزالة الأشجار وإتلاف الغابات يؤدي إلى تعرية الأراضي (أنظر الصورتين ٤-٥) واستنزاف التربة مما يترتب عنه فقدان الأرض لقدرتها الإنتاجية في الزراعة والرعي وبالتالي عجزها عن تحقيق الأمن الغذائي للبشرية.

كما أن التربة تتعرض للضياح بسبب الانجراف والتملح وعدم ملائمة أساليب الري مما يؤدي إلى التصحر (Désertification).
وبما أن الغطاء النباتي يحدد مستوى التساقطات، فإن الطرق الزراعية المكثفة وغير الملائمة من شأنها إحداث تغييرات عميقة في دورات المياه على مستوى القارات مسببة بذلك تغيرات مناخية على الصعيد الجهوي.

* ظاهرة الرضيع الأزرق:

أما في الميدان المتعلق بالصحة، فمن أهم مشاكل الإنسان المرتبطة بوفرة النترات في المياه الصالحة للشرب نذكر تسمم المستهلك بالنترات وما ينتج عنه من الإصابة بمرض تنفسي عند الرضيع أو احتمال الإصابة بداء السرطان عن طريق النيتروزامين (Nitrosamines).
إن الكريات الحمر الموجودة في دماننا تحتوي على مادة الهيموغلوبين (Hémoglobine) وهو الصيغ التنفسي الأحمر المسؤول عن حمل الأكسجين إلى الأنسجة والخلايا والتخلص من ثاني أكسيد الكربون.
وقد يسبب تركيز النترات في غذاء الرضيع (عن طريق الماء أو الحليب) إلى تحول هذا الصباغ التنفسي هيموغلوبين إلى صيغ آخر مخالف للأول يدعى ميثيموغلوبين (méthémoglobine)، لا يستطيع بالقيام بعملية نقل الأكسجين، فيصاب الرضيع بالدوران والاختناق. وهذه الظاهرة يطلق عليها ظاهرة الرضيع الأزرق Syndrome des bébés bleus.

وعلى سبيل المثال، فالمقاييس المعتمدة في دول أوروبا الغربية بالنسبة لتركيز النترات في الماء والتي يسمح بها التشريع هناك لا تتجاوز ٦٢ ميليغرام في اللتر الواحد.
وقد جاء في تقرير برنامج الأمم المتحدة للبيئة (PNUE) لسنة ٢٠٠٢ بأن استعمال الأسمدة في الدول النامية لا يزال في تزايد ملحوظ في حين يعرف استقرارا في البلدان المتقدمة.

المكون الحيوي الرابع: التنوع البيولوجي:

إن الثروات النباتية والحيوانية تكنسي أهمية أساسية في حفظ التوازن البيئي وتوفير متطلبات الأمن الغذائي، بيد أنها غير أزلية لذا يجب العمل على الحفاظ عليها وتأمين استمراريتها.

فاستتراف الثروات الحيوانية من صيد وقنص ومفرطين، يؤدي إلى تراجع في التنوع البيولوجي. ولعل العدد الهائل للفصائل الحيوانية والنباتية التي انقرضت أو في طور الانقراض أو مهددة بالانقراض يبرز لنا خطورة الوضع. كما أن التلوث الناتج عن طريق رمي النفايات الصلبة والسائلة واستعمال المبيدات والأسمدة والمواد المشعة قد يلحق أضراراً بالأوساط التي تعيش فيها هذه الكائنات المستخرجة لخدمتنا.

وقد نشر برنامج الأمم المتحدة للبيئة (PNUE) تقريره الثالث سنة ٢٠٠٢ حول المستقبل البيئي في العالم يتحدث فيه عن هشاشة الوضع بسبب تدهور نوعية الهواء وتقلص الموارد المائية وتراجع التنوع البيولوجي. ويخلص بان الإنسانية تعيش حقبة حرجة لأن الخيارات التي ستلجأ إليها ستحدد مصير الغابات والمحيطات والأنهار والجبال والنبات والحيوان وكل الأنظمة الحيوية بالنسبة للأجيال الحاضرة والمستقبلية.

يقول رسول الله (ص):

"مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً"^(٤٦).

يقول الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري عن هذا الحديث:

"وهذا الحديث الشريف يبين أن هذه السفينة التي نحن جميعاً فيها، فيها نوع من البشر لا تهمه إلا مصلحته، ولا يهيمه ما إذا أصاب الناس خير أم أصابهم شر من سعيه من وراء تحقيق هذه المصلحة، وأنه ينفرد بتقدير مصلحته، وأنه حر في ميع الأعمال التي تؤدي إلى هذه المصلحة التي انفراد بتقديرها لأن جميع من في السفينة ليس لهم أية دالة عليه فهم جميعاً مجرد ركاب مثله لهم نفس الصفة والوضعية القانونية ولهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات ...

وهذا النوع من البشر هم الواقعون في حدود الله، والأخذ على أيديهم واجب وإلا هلك الجميع

...."

ويضيف قائلاً:

"... الخطر الكبير الذي يهدد السفينة من مثل هذا الإنسان الذي أراد خرقها هو خطؤه في تقديره المصلحة وخطؤه في تقدير المسؤولية، والحرية والمصلحة لم تتركهما الشريعة هملاً، بل تناولتهما بالتنظيم والتقنين والتوجيه حتى أصبحا مؤدبين للصالح العام وحتى جردتهما من كل خطر يمكن أن يهدد السفينة".

وبعد الوقوف عند هذا الحديث الشريف، لنرجع إلى واقع السفينة المر لنسأل أنفسنا:

- وهل ثقب طبقة الأوزون إلا بداية ثقب في السفينة ؟
- وهل تدمير المكونات الأساسية للحياة إلا تكسير للسفينة ؟
- وهل انبعاث الغازات السامة في الهواء إلا "خنق" السفينة ؟
- وهل رمي النفايات الصناعية والفضلات في الأنهار والمحيطات إلا إغراق لهذه السفينة ؟

الخاتمة:

إن الهدف من هذا البحث المتواضع الذي ارتكز أساسا على الآية المعجزة، آية حدوث ظاهرة الفساد في البر والبحر وتحديد المسؤول عنها والمتضرر الرئيسي منها هو دق ناقوس الإنذار على أن تحقيق التنمية التي هي ضالة كل مجتمع لا ينبغي أبدا أن يتم على حساب التوازن الإيكولوجي.

من هنا، كان لابد على الإنسان أن يستخدم "ورقة" الخلافة في الأرض والمسؤولية التي تترتب عليها، مسؤولية إدارة ثرواتها وتدبير مواردها واحترام وجود الكائنات التي تحي عليها والتي سخرها الله لخدمة هذا الإنسان ... فكان عليه أن ينطلق من الدستور الذي أنزله الله إليه وتحديدًا من أول آية أنزلت على النبي محمد (ص) من سورة العلق "اقرأ باسم ربك الذي خلق" (العلق، ١) فيتعامل مع الكون وفق المنهاج الذي رسمه له رب العزة، فيكون مستغلا برفق، لا متسلطا بعنف، شاكرًا لأنعم الله لا كافرًا بما (كما جاء في سورة النمل على لسان سليمان عليه السلام عندما سمع غملة تأمر إخوتها بولوج مساكنهن خوفا من أن يحطمهن سليمان وجنوده وهم لا يشعرون).

وعندما نتكلم عن الإنسان نقصد البعد الفردي والجماعي.

فعلى المستوى الفردي، تطال المسؤولية كل فرد في المجتمع حسب موقعه ودرجته وقد أوضح لنا الرسول الأكرم (ص) عموم المسؤولية في الحديث الصحيح الذي رواه ..
"كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ...".

أما على المستوى الجماعي، فينبغي التمييز بين المستويين الوطني والعالمي وما يمكن فعله في كلا الحالتين، فعلى الصعيد الوطني، يجب إقرار سياسات بيئية واضحة وفعالة وملائمة للواقع المعيشي، من بينها إعادة التنشئة الاجتماعية (الاهتمام بالطفل كرجل الغد) على أساس احترام المجال البيئي (وهو ما اصطلاح عليه باسم التربية البيئية)، ولنا في تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة خير مرجع يعتز به المسلم أيما اعتزاز (إن الله أعزنا بالإسلام، فمن ابتغى العرة في غير الإسلام، أذله الله).

أما على الصعيد العالمي، فإن في حديث السفينة التي استهم عليها القوم، من العبر ما يكفي لإنارة طريق الإنسانية والحفاظ على مقومات الوجود الإنساني.

وحيث أن الوجود هو بنية متكاملة متجانسة تتفاعل بداخلها عناصر وأنماط ومستويات في منتهى الدقة والإتقان والحكمة.

وأن كل خلل مصدره سلوك إنساني قد يؤدي إلى فقدان التوازن وطغيان في الميزان، مما يفضي إلى الخراب والهلاك وغرق السفينة.

وكما أن لكل ظاهرة منطوقاً، فإن الفساد ينطلق من الخروج عن السياق الإسلامي في الحركة والحياة والابتعاد عن النمط الرباني والمنهاج الإلهي الذي يوطر الوجود ككل.

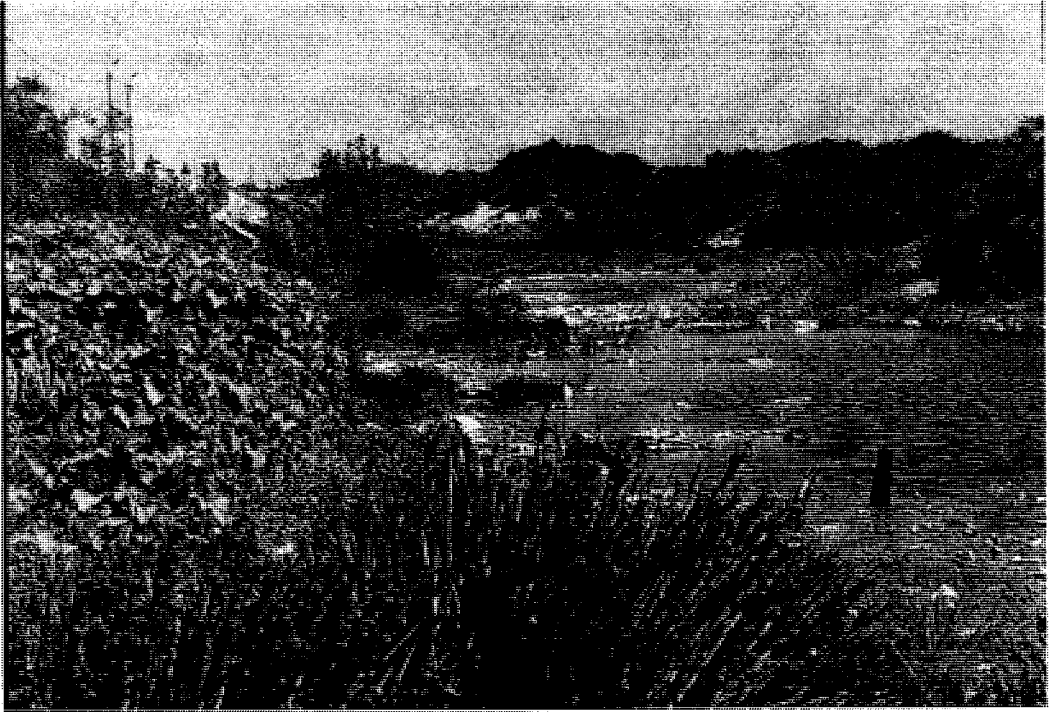
وحيث أن السفينة التي تكلم عنها الحديث الشريف هي الصورة المجازية لهذا التعبير على مستوى القيادة وحسن تدبيرها وتأمين الحياة بداخلها، والحديث عن التدبير يجرنا إلى الحديث عن ربان هذه السفينة والذي من المفروض أن يستمد تعاليم القيادة من مصادر ثابتة لا يطانها الخطأ والتقدم، ومراجع تتوفر على أدوات وتقنيات تتجاوز سلطة الزمان والمكان في مسار هذه السفينة، وهذا لن نجده إلا في كتاب الله وسنة رسوله (ص). "والله يعلم المفسد من المصلح" (٤٧).

وبالله التوفيق

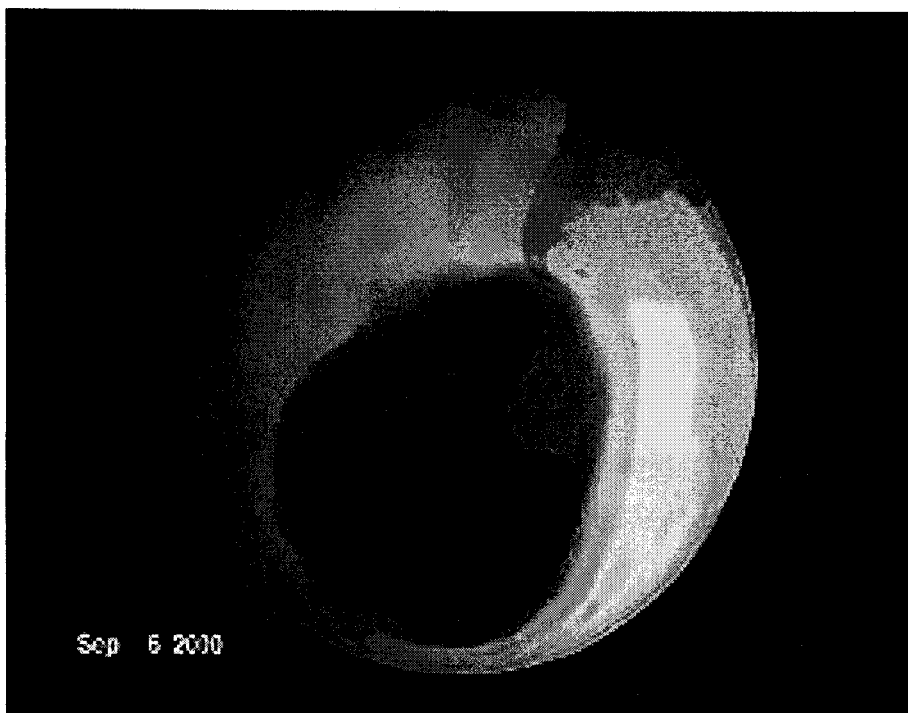
المراجع:

- القرآن الكريم.
- الوعي الكوني في التصور الإسلامي - الدكتور صبحي الصالح - الدروس الحسنية ١٤٠٣-١٤٠٤ هجري وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية - ص: ٥٩-٧٢.
- المصلحة والمسؤولية - الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري - الدروس الحسنية ١٤٠٣-١٤٠٤ هجري وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية - ص: ٩٥-١١٩.
- دراسات بيئية، تحليل لبعض المشكلات من وجهة نظر إسلامية - الإنسان وعلاقته بالبيئة - رؤية إسلامية د. فاروق حمادة - منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- إدماج المفاهيم البيئية في البرامج التعليمية ما قبل الجامعية (أوراق بحثية) التربية البيئية من وجهة نظر إسلامية - د. عبد اللطيف محمود آل محمود - منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو ٥١٤٢١،/٢٠٠٠م.
- إدماج المفاهيم البيئية في البرامج التعليمية ما قبل الجامعية (أوراق بحثية التربية البيئية واستراتيجية إدراجها في المناهج التعليمية) - د. محمد فتوح.
- تقرير عن التنمية في العالم - التنمية والبيئة - مؤشرات التنمية الدولية - منشورات البنك الدولي - ١٩٩٢.
- الزراعة المرورية وأثرها على استنزاف المياه الجوفية في شمال غرب سهل جفاره - حسن محمد الجديدي - ١٩٨٦ الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان - الجماهيرية الليبية.
- نحو مغرب مصدر للطاقة - ذ. عبد العزيز بنونة - ١٩٩٤ - مطبعة دار النشر المغربية - الدار البيضاء.

الصورة ١: تلويث المياه عبر إلقاء الفضلات (صورة: زايد).



الصورة ٢: ثقب الأوزون فوق القارة القطبية الجنوبية (صورة مأخوذة من طرف مركز الأبحاث الفضائية الأمريكية).



الصورة ٣: إنتاج المادة العضوية فوق سطح الماء نتيجة ظاهرة التخصب (صورة: زايد).



الصورة ٤: صورة عن ظاهرة زحف الرمال بنواحي مدينة الصويرة (المغرب) نتيجة التصحر (صورة: زايد).



الصورة ٥: لاحظ عامل الريح الذي تعكسه تموجات الكثبان الرملية (صورة: زايد).



الهوامش

- 1- محمد: ٢٤.
- 2- آل عمران: ١٩٠-١٩١.
- 3- فاطر: ٢٨.
- 4- هود: ١٠٢.
- 5- الأعراف: ٩٦.
- 6- البقرة: ٣٠.
- 7- الأنعام: ١٦٥.
- 8- الإسراء: ٧٠.
- 9- الحجر: ٢٩؛ ص: ٧١.
- 10- الحجر: ٢٩؛ ص: ٧١.
- 11- البقرة: ٢٨.
- 12- الجاثية: ١٣.
- 13- إبراهيم: ٣٤-٣٦.
- 14- الإسراء: ٢٠.
- 15- هود: ٦١.
- 16- القمر: ٤٩.
- 17- الرعد: ٨.
- 18- الحجر: ١٩.
- 19- آل عمران: ١٩١.
- 20- الإسراء: ١٥.
- 21- الأحراب: ٧٢.
- 22- فصلت: ١٠.
- 23- الإنسان: ٣.
- 24- الشمس: ٧-١٠.
- 25- الأعراف: ١٧٥-١٧٦.
- 26- البقرة: ٢٠٤-٢٠٥.
- 27- الإسراء: ٢٦-٢٧.
- 28- الأعراف: ٣١.
- 29- الفرقان: ٦٧.
- 30- الإسراء: ٢٩.
- 31- البقرة: ١٤٣.
- 32- متفق عليه.
- 33- أخرجه مسلم وابن ماجه.
- 34- أخرجه البيهقي.
- 35- غافر: ٢٦.
- 36- غافر: ٢٩.

- 37- الروم: ٤١.
- 38- هود: ٧.
- 39- الأنبياء: ٣٠.
- 40- النور: ٤٥.
- 41- الطارق: ٧-٥.
- 42- الزمر: ٢١.
- 43- أخرج ابن ماجة.
- 44- الذاريات: ٢١.
- 45- الواقعة: ٦٨-٧٠.
- 46- أخرج البخاري.
- 47- البقرة: ٢٢٠.

وجعلنا سراجاً وهاجاً

د. ياسين محمد المليكي

ملخص:

"تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا". إن من الإعجاز العلمي للقرآن الكريم هو التفريق بين النجم والكوكب والذي كان منذ أكثر من ألف وربعمائه عام وهو ما توصل إليه علماء الفلك الحديث بعد اكتشاف المناظير وأجراء الدراسات الفوتومترية (الضوئية) والطيفيه على النجوم والكواكب خلال القرون القليلة الماضية. فالنجم ما هو إلا جسم سماوي متلألاً يشع الطاقة ذاتياً بينما الكوكب جسم سماوي ثابت الأضاءة يعكس الأشعه التي يتلقاها من النجوم والشموس وينطبق هذا على التوابع الطبيعية للكواكب (الأقمار). قد ذكر الحق تبارك وتعالى ذلك فقال- وهو الذي جعل الشمس سراجا والقمر نورا وقال تعالى "وجعلنا سراجاً وهاجاً" وستحدث في بحثنا هذا عن بعض الملامح (والتي رصدت بعدة أقمار صناعية تدور حالياً حول الشمس) التي جعلت من هذا الجرم (الشمس) سراجاً وكيف أن هذا السراج يضل متوهجاً نشطاً لا يهدأ ولا يكل، وسنرى هل هذا التوهج ثابتاً أم أنه يزداد ويتغير خلال الأعوام.

مقدمة

يبحث علم فيزياء الشمس وهو أحد فروع علم الفلك في دراسة وفهم بعض الاسرار التي تكتنف اقرب النجوم اليها وهي الشمس ، هذا الجرم العملاق الذي خلقه الله تبارك وتعالى ليجعل الحياة على سطح الأرض ممكنة وملائمة. وقد أهتم العلماء والدول بهذا النهج من الدراسة فهناك مئات من المعاهد والمراكز العلمية لدراسة الشمس وهنالك قرابة العشرون قمراً صناعياً تدور حول الشمس لفهم العديد من الاسرار التي حيرت العلماء حتى أيامنا هذه، وبإضافة ألى آلاف المراصد الأرضية والمناظير لرصد وتبع غموض ظواهر شمسنا الوحيدة فما الذي جد في ذلك عن الجرم من حيث إشعائه وإشعاعه.

طاقة الشمس (المفاعل النووي الكوني):

تنتج طاقة النجوم سراجها نتيجة لإحتراق الهيدروجين وهو المكون الأساسي لها وتحوله إلى هليوم في باطن النجوم حيث الكثافة والضغط العالي والحرارة التي تصل إلى ١٥ مليون درجة كما يحدث في شمسنا وقد تزيد في نجوم أخرى حيث يؤدي هذا إلى حدوث تفاعل نووي وإندماج أربع ذرات هيدروجين لإعطاء ذرة هليوم واحدة ويكون فرق الكتلة ما بين المواد الداخلة في التفاعل والنتيجة من التفاعل يشع على هيئة طاقة كهرومغناطيسية كالأطول الموجية القصيرة (أشعة جاما وأشعة أكس) والتي تختار طريقها إلى سطح النجم أو الشمس ، هذه الأشعة قصيرة الموجة تصاحبها أشعة مرئية عند وصولها لسطح والشمس وتشتع منه في الضوء المرئي والإشعة تحت الحمراء والإشعة فوق البنفسجية وهذا يعني أن الشمس تستمد طاقتها من باطنها وسراجها (وقودها) هو عبارة عن أندماج نووي طبيعي تحت ظروف عالية الضغط والكثافة والحرارة في باطنها (شريحه ٢). وكان الشمس ما هي إلا مفاعل نووي عملاق سخره الحق تبارك وتعالى لمخلوقاته في الأرض ليمدهم بالنور والدفء والطاقة ، ساجحة بسرعتها الكبيرة التي تصل إلى ٢٢٠ كم/ساعة وتدور الأرض منجذبة حولها بسرعة عالية جدا تقارب ٣٠ كم/ث.

السراج الوهاج:

ويعتبر باطن السراج (الشمس) كما ذكر سابقاً مصدر لجميع أنواع الطاقات الشمسية وهو يمثل حوالي ١٠٪ من قطر الشمس ويحتوي على ما يقارب ٦٠٪ من كتلة الشمس . وجوف الشمس ساخن جداً إذ تصل درجة الحرارة فيه إلى ما يقارب الـ ١٥ مليون درجة مطلقة وتقل درجات الحرارة باتجاه الخارج إذ تصبح درجة الحرارة على سطحها (طبقة الفوتوسفير) حوالي ٥٠٠٠ درجة مئوية تقريباً (شريحة ٦). وهذه الكرة الغازية الضخمة يقدر قطرها بـ $13,92 \times 10^7$ كم، وكتلة كبيرة تعادل تقريباً ٣٣٣ ألف مرة مثل كتلة الأرض وهذه الكتلة تعتبر ٩٩,٩٪ من كتلة المجموعة الشمسية (المجموعة الشمسية عبارة عن الشمس والكواكب التسعة وما بينها). كما أن حجمها يبلغ مليون وثلاثمائة ألف مرة مثل حجم الأرض وتبلغ جاذبيتها حوالي ٢٨ مرة مثل جاذبية الأرض . أن الشمس هي أقرب نجم وأكثر نجم يحظى بالبحث والتقصي في هذا الكون . وهي أيضاً مصدر حياتنا، ونستطيع رؤية وجهها بين الفينة والأخرى فقط. لكننا في العادة لا نجرأ على النظر إليها لشدة وهج سراجها . ونحن نَعْجَبُ بما بأحاسيسنا وعقولنا ، ولهذا يستوجب علينا دراستها ومعرفتها ومعرفة عظمة خالقها وإبداعه في هذا الكون الكبير .

يعد من المستحيل أن نأتي على كل ما يتعلق بالشمس في بحثنا هذا. ولذلك سنقوم بعرض وهجها وشدهه وتأثير ذلك على الأرض ومن وجهة نظر واحدة. فمن الواضح إن الشمس هي التي تحدد كل التوازن الحراري لكوكبنا. ومع ذلك فإننا نجحنا منذ عهد قريب فقط في إثبات أن تقلبات الطقس والمناخ مرتبطة بصورة واضحة بتنوع واختلاف النشاط الشمسي. كيف ولماذا؟ وما هو النشاط الشمسي بالنسبة للشمس؟ وماذا يعني بالنسبة لنا؟ هل تحتاج حياتنا إلى النشاط الشمسي؟ ما هي الشمس من وجهة نظرنا هذه؟

هي ذلك الجرم السماوي والتي نواتها المركزية هي باطنها أو المكان الذي يتم فيه استهلاك الوقود لإنتاج كمية كبيرة من الطاقة (المفاعل النووي). تكون هذه النواة في المركز. ويحيط بقلها هو في منطقة الحمل الحراري تحت السطح والتي تكون مباشرة أسفل البشرة الدقيقة الخاصة بالطبقات الخارجية المرئية للكرة الضوئية . تحتل منطقة الحمل الحراري نحو ٣/١ نصف القطر الكلي للشمس. وهنا تتولد موجات مكونة من آلاف التحركات الموجية والذبذبات (شبيهة بالموجات الصوتية في الهواء). فهذه " الأصوات " تمدنا بمعلومات هائلة عن كل الشمس تقريباً. ولكن آذاننا لا تسمع " أصوات الشمس " لأن ذبذباتها (وأعني أصوات الشمس) هي نحو ٣ ميغاهيرتز أي أقل بمائة ألف مرة عن ذبذبة الصوت العادي الذي نسمعه . هناك ثلاثة أجهزة بالمرصد الفلكي

الشمسي العالمي (سوهو) والذي أطلق عام ١٩٩٥ على مسافة ١٥ مليون كم من الأرض (شريحة ١٠) تقوم برصد التغيرات المتواترة على سطح الشمس المرئي الناتجة عن الموجات الصوتية المترددة في باطنها. وتتماها كما يقوم الإختصاصيون في علم الزلازل بسبر غور باطن الأرض مستخدمين الموجات الزلزالية ، فإن الإختصاصيين في علم الشمس يعرفون عن طريق الموجات الصوتية سلوك البلازما في جوف الشمس المضطرب . كما أن هنالك مقاييس فوتومترية خاصة لقياس سرعة الموجات فوق الطبقة الضوئية تتيح كشف طول وترددات الموجات وتعرف بواسطتها سرعة الصوت في باطن الشمس. وبالمقابل فإن هذا يتيح إثبات توزيع الحرارة في باطن الشمس. إن قياسات سرعة الصوت أثبتت أن بعض المستويات في داخل الشمس تكون أشد حرارة ، والبعض الآخر أشد برودة مما يتوقع. والنتيجة الرئيسية هي أن حساب الأقطار الداخلية للشمس التي بذل فيها واضعو النظريات جهداً كبيراً ، هي قريبة جداً من نتائج الطريقة الجديدة للتعامل مع الشمس المسماة الزلزال الشمسي .

ومن الواضح فإن الدوران الشمسي في منطقة الحمل الحراري يمتاز بخاصية مختلفة أي أن المناطق الإستوائية تدور أسرع بقليل مما هي في خطوط العرض المرتفعة. ويصور الشكل ٤ بنية منطقة الحمل الحراري. وهي تتصف بحركات صعود وهبوط تعتبر من الناحية الطبولوجية مختلفة تماماً .

فهذه الحركات بالإضافة إلى السمة المميزة لدوران خط الزوال الخاص بالمادة الشمسية ، نتيجة للإنبعاك البسيط عند القطبين، تظهر خاصيتها المميزة جداً ، وهي الظهور المتكرر أو توسيع المجالات المغنطيسية القوية . فكل هذه الخواص متعلقة بمنطقة الحمل الحراري ، وهي مهمة جداً لمجمل "حياة" الشمس لأنها الأسباب الرئيسية الخاصة بالنشاط الشمسي .

ولمواصلة هذه المقارنة فما الذي سنعتبره كجهاز عصبي للشمس ؟ ببساطة تقدم المادة الشمسية بالكامل عن طريق البلازما الآلية التآين ، حيث إن التذبذبات المذكورة أعلاه يمكن أن تنتشر إلى أبعد من منشئها والذي هو المنطقة المضئنة. وهذا النظام العصبي كنظام موصل يزودنا بكمية هائلة من المعلومات المتعلقة بالبارامترات الطبيعية داخل الشمس .

وعلى عكس الجسم الصلب الحقيقي فإن الغلاف الغازي للشمس ليس له سطح محدد . بيد أن الشمس لديها "جلد" ، وهو طبقة دقيقة بين الأجزاء المرئية بصورة واضحة والأجزاء غير المرئية الخاصة بطبقاتها الخارجية المعروفة بالجو الشمسي . وهذه هي طبقة الفوتوسفير ، حيث تنخفض درجات الحرارة إلى ٥٠٠٠ درجة مئوية .

فذرات الهيدروجين الأكثر وفرة تكون محايدة بشكل عملي هنا . فتقريباً واحدة من ١٠,٠٠٠ منها تكون مؤينة. وبالنسبة للشمس فالفوتوسفير بلازما " باردة " وقد نعتبرها " كجلد " شبه محايد. فكل المادة الخارجية والداخلية لهذه الطبقات تكون مؤينة بصورة كبيرة وتكون مهمة جداً للترابط بين البلازما والمجال المغنطيسي. وباختصار لا يمكن فصلهما عن بعضهما البعض .

وفي النهاية ما هما رتنا الشمس ، كيف يكون نفسها ؟ من المؤكد إن تيارات البلازما الشمسية هي التي تهب بصورة دائمة خارج الشمس الرياح الشمسية " شريحة ١٥ ، ٢٣ " .. فهذه التيارات هي التي تهب على أرضنا أو لنكن أكثر دقة ، على غلافها المغنطيسي والذي هو حاجبنا الواقى الرئيسي . ولكن كل هذه العلاقات قد تكون مجرد إجماعات أو تكهنات من قبل واضعي النظريات. إلا أن المرصد الفلكي الشمسي (سوهو) -شريحة ٩- يمكنه الإقتراب قليلاً وفي الحقيقة نستطيع إثبات المستوى العالي لدرجة الحرارة في نواة الشمس وأن اقتراحنا هذا قائم على نتيجة التفاعلات الحرارية - النووية. وفي هذه الحالة فإن كمية كبيرة من الجزئيات السريعة والخفيفة جداً - النيترينو أو الدقيقة الذرية لا بد أن تظهر .

ويعتقد البعض أن أحد مصادر الرياح الشمسية هي ما بين الحبيبات الشمسية أو حول منطقة الحمل الحراري . فالنبضات الصادرة من طبقاته العليا تخترق الطبقات المرئية لسطح الشمس المنير وتعدنا بصورة رائعة للحبيبات (شريحة ٥). وهي تبدو كبقع مضيئة ، والحبيبه شمسية يبلغ قطرها نحو ١٠٠٠ كيلومتر. إن الطبقات العميقة لمنطقة الحمل الحراري تمتاز ببنية أكبر حيث يبلغ قطرها نحو ٥٠,٠٠٠ كيلومتر نظراً لدرجة حرارتها العالية (جداً) . ويمكن ملاحظة أثرها الناتج عن الخطوط المغنطيسية للقوة ، في نمط جو الشمس مُشبهاً شبكة من الخلايا .

ومن المحتمل أن البنية الرئيسية لمنطقة الحمل الحراري بأكملها تكون مرتبطة بالخلايا الحرارية. وهي تنظم بين الفينة والأخرى مجموعة متشابهة من النشاط في جميع الطبقات المرئية للغلاف الجوي الشمسي. وفي مرحلة النمو فإن هذه المجموعة تضم مجموعة بقع شمسية ثنائية القطب ، محاطة ببقع لامعة في قرص الشمس ، تتبعثر فجأة بواسطة انفجارات الوهج الشمسي وتزين بزخرفة من الشواظ الشمسي كما سنرى لاحقاً.

ضياء الشمس :

نأتي الآن إلى تعريف مهم : ما هو النشاط الشمسي ؟ من جهة فإننا على إطلاع جيد جداً عن شكل هذا النشاط ، خصوصاً بفضل الأجهزة الفضائية البارزة كالسوهو (قمر صناعي أوروبي) ويوهكوه (قمر صناعي ياباني) وغيرها العديد. فنستطيع يومياً أن نرى بوضوح ما يحدث في الشمس ، وفي كل طبقة من جوها " المتعدد الطوابق " .

يعتبر الوهج الشمسي أكثر الأحداث حيوية حيث يعطي نحو 10^{31} - 10^{32} أثناء الفاصل الزمني حوالي عشرات الدقائق . وتقسم هذه الطاقة بالتساوي بين الإنبعاث الإلكتروني ومغناطيسي (أشعة أكس والأشعة فوق البنفسجية ، والإنبعاث المرئي) والطاقة المتحركة الخاصة بالجسيمات النسبية السريعة والناعمة (شريحة ٨). فكل هذه الطاقة بعد أن تنتشر في الفضاء تصل بشكل جزئي إلى الغلاف المغناطيسي للأرض وإلى جميع طبقات غلافها الجوي .

مظاهر النشاط الشمسي

لقد وجد أن التغير الحاصل في الأشعاع الشمسي وفي الظواهر الشمسية عموماً ومن أشدها الانفجارات الشمسية لها تأثير كبير على الأرض ومن يعيش عليها. ومن هذه التأثيرات وهي على صور شتى كالتأثير على الاتصالات السلكية واللاسلكية وكذلك التأثير على مسارات الأقمار الصناعية بالإضافة على محطات الكهرباء الأرضية وهذا ما يظهر في البلدان ذات خطوط عرض عالية مثل كندا وكذلك الوهج القطبي (شريحة ٢٢-٢٦). وقد اتخذ تأثير نشاط الشمس على مناخ الأرض أهمية كبيرة مع نهاية القرن العشرين بعد ثبوت تغير ثابت الإشعاع الشمسي مع دورة النشاط في الشمس عن طريق رصد الإشعاع الشمسي بالأقمار الصناعية خارج الغلاف الجوي للأرض بداية من عام ١٩٧٨ وذلك عن طريق القمر الأمريكي Nimbus7 ثم ما تلاه العديد من أقمار صناعية حتى الآن .

ويؤكد علماء المناخ أن تغير مقداره ٠,٥% (نصف في المائة) في قيمة الإشعاع الشمسي ممكن أن يؤدي إلى تغيرات مناخية كبيرة ولقد سجل القمر الصناعي SOHO تغير في مقدار الإشعاع الشمسي مقداره ٠,٢% (٢ في الألف) وذلك خلال دورة الشمس الحالية (الدورة الثالثة والعشرين) الممتدة من ١٩٩٦ - ٢٠٠٦ .

وستتناول في بحثنا هذا أهم أنواع ظواهر النشاط الشمسي والتي هي دلالة على وهج الشمس المتدفق وأنه متغير في الكيف وفي الكم. ومنها البقع الشمسية-الأنفجارات الشمسية-الرياح الشمسية - السنة الهب (الشواظ الشمسي) .

البقع الشمسية (شريحة ٤-٥): تعتبر من أوضح الاشارات للنشاط الشمسي وهي تظهر كبقع داكنة على سطح الشمس تكون أحياناً واضحة للعين المجردة ، ولأنها تبعث اشعة أقل من الفوتوسفير الذي يجاوزها فإن درجة الحرارة فيها تكون أقل مما جارورها لأن الغاز الأقل حرارة يكون أقل إشعاعاً . فدرجة البقع تقريباً ٣٨٠٠ بينما حرارة الفوتوسفير المجاور تساوي تقريباً ٥٠٠٠. تحتوي البقع على مراكز داكنة تدعى منطقة الظل **Umbra** وتحاط بما يسمى بمنطقة أقل عتامة شبه الظل **Penumbra** . أما حجم البقع فقد يبدأ صغير ثم خلال أيام يزداد إلى أن تصل إلى حجم أكبر بكثير من حجم الأرض.

الرياح الشمسية(شريحة ٧):

سيل عارم من الجسيمات تنطلق من الأكليل الشمسي ، بحرارة مليون درجة وبسرعة ٤٥٠ كم/ث. وتتجاوز الرياح مدار بلوتو (حوالي ٥٩٠٠ مليون كم). نرى من الشكل كيف تدفع الرياح وتشكل المفيئوسفسر الأرضي .

الأنفجارات الشمسية(شريحة ١١-١٣):

تعد الانفجارات الشمسية هي أقوى الانفجارات قاطبة في المجموعة الشمسية ، حيث تنطلق منها طاقة تصل إلى قرابة 20 مليون من القنابل النووية الكونية (ذات 100 ميغا طن) إلى ما يقارب 10³² إرج ، وذلك في فتره قدرها من 100 إلى 1000 ثانية . ويمكن تعريف الانفجارات الشمسية على أنها انطلاق الطاقة المخزونة في المجالات المغناطيسيه، والتي تصل في الانفجارات الكبيرة إلى 10³² أرج في دقائق معدودة، وفي مساحة مقدارها 10¹⁸ سم² (أي ما يقارب 10 ثواني قوسيه). ومع أن مقدار الطاقة الكبيرة جداً إلى أنها مقارنة بطاقة الشمس الكلية فهي تصل إلى 1\40 من الثانية من الطاقة المنطلق من الشمس . وعند مقارنة هذه الانفجارات مع تلك في النجوم الأخرى فأما لا تقارن ، خاصة أن بعضها يظهر تأثيره في منحنيات الضوء لتلك النجوم التي لا ترى ولا ترصد سوى كنفط ضوئية على صفحه السماء.

الشواظ الشمسي:

وهو عبارة عن سحب غازية ما بين الكروموسفير والكورونا ذات كثافة عالية وحرارتها أقل من جاورها وتكون مرئية خلال فلتر أحادي كعلامات أو سحب داكنة تشق طريقها عبر الشمس ، وقد تمتد إلى 100,000 كم. وحرارتها أكبر بقليل من حرارة الفوتوسفير، وقد يتسبب المغنطيسي أن يدفع هذه السحب الداكنة إلى عشرات أو آلاف الكيلومترات فوق سطح الشمس . عندما تكون السحب الداكنة على حافة الشمس فإن مقطعها على صفحة السماء يعطي أشكال ضخمة مرتفعة فوق سطح الشمس وتدعى بالشواظ الشمسي . إذا حصل وكانت السحب الداكنة على حافة الشمس نتيجة دورانها فإن لونها سوف يختفي ويحل محله شريط لامع جداً مقارنة بما يحيطه ويكون مندفع إلى الخارج وعندما تتغلب الجاذبية الشمسية على حركته فإنه يتساقط عائد إلى الشمس، وأحياناً يندفع على شكل قوس ينتهي طرفه الآخر إلى قرص الشمس ويصنف الشواظ الشمسي إلى نوعين هادي ونشيط.

خلاصة:

يتضح لنا مما ذكر سابقا أن الشمس تعد مفاعلا نوويا عملاقا يسبح فب الفضاء بسرعة كبيرة وله ضوء وطاقة وحرارة ذات أشكال شتى ومتغيرة في كمها وكيفها . وهي ليست قرص مضيئ ثابت الضياء، بل هو سراجا وهاجا.

**الإعجاز العلمي في قوله تعالى
(سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ)**

م. محمد عبد القادر الفقي

لماذا اختصَّ الله الفضة بالذكر في قوله تعالى: (وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ. وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكَبَّرُونَ. وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ) الزخرف/ ٣٣: ٣٥، ولم يختصَّ الذهب، وهو أقيم من الفضة وأعلى، وطلب الناس وجههم له أعلى؟

وهل أسلوب الشرط في الآية الكريمة، واستخدام أداة الشرط (لَوْلَا) يعني انتفاء وقوع جواب الشرط إذا لم يتحقق فعل الشرط؟ وما دلالة قوله تعالى: (لَجَعَلْنَا) في الآية نفسها؟

وما معنى اللام الجارة في قوله عزَّ وجلَّ: (لِبُيُوتِهِمْ)؟

وماذا يعنيه ورود كلمة (سُقْف) في الرسم العثماني للمصحف بصيغة جمع الجمع، وعدم مجيء الكلمة بصيغة الإفراد فيه؟

وهل قوله تعالى (لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا) في هذه الآية الكريمة يعني أنه يمكن أن يجعل الله لكل إنسان (يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ) سقفا واحدا أو أن المراد أن يكون للبيت الواحد من بيوت هؤلاء الكافرين أكثر من سقف؟

وما هي الحكمة من استعمال لفظة (لِبُيُوتِهِمْ) بدلا من (لننازلهم)؟

وما دلالة (مِنْ) في قوله تعالى (سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ)؟ وهل هي تفيد البيان أو الابتداء أو توكيد العموم أو أنها تفيد التبعية أو غير ذلك من الدلالات الأخرى لهذا الحرف؟

وكيف تكون السُقْف (بضم السين والقاف) من فضة؟

وما معنى تعدد تلك السقف التي هي (مِنْ فِضَّةٍ)؟

وهل عرفت أية أمة من الأمم السابقة التي كَفَّرَ أهلها بالرحمن (سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ) في حضاراتها؟

وما الذي يقوله العلم الحديث بشأن هذه السُّقْف (بضم السين والقاف)؟

وهل عرفت أية أمة من الأمم المعاصرة تلك النوعية من السُّقْف؟

وهل يمكن في العصر الحديث تشييد بيت بحيث تكون له سُّقْفٌ مِنْ فَضَّة؟

وهل في الآية الكريمة السابقة إعجاز علمي؟ وما هي دلالاته؟ وما هي أهميته؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة ضرورية حتى يفهم المرء ما في تلك الآيات الكريمة من دلالات، وحتى يقف على سر من أسرار القرآن الذي لا تنقطع عجائبه مهما مرَّ على نزوله من الأيام والأعوام. وحتى نوضح ما في الآيات من إعجاز علمي، فإنه من المهم جداً في بداية هذا البحث أن نقف على دلالات ما يعرف بالكلمات الرئيسية **key words** في تلك الآيات، من خلال العودة إلى كتب اللغة والنحو وأقوال المفسرين من القدامى والمعاصرين.

تأملات لغوية في دلالات بعض الألفاظ القرآنية الواردة في الآيات السابقة
أولاً: قوله تعالى: (وَلَوْلَا):

جاء في المعاجم: لولا: مركبة من لو ولا. ومعنى لو: امتناع الشيء لامتناع غيره. ومعنى لا: النفي والنهي. فلما رُكِّبَا معا حدث معنى آخر وهو: امتناع الشيء لوجود غيره أو لوقوع غيره. أي: أن في (لولا) يمنع الثاني من أجل الأول. تقول: لولا زيد هلكنا، أي: امتنع وقوع الهلاك من أجل وجود زيد. وقد تكون (لولا) بمعنى: هلاً، وهو كثير في القرآن العزيز، ومنه قوله تعالى: (لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ الْمُنَافِقُونَ / ١٠). وقال الراغب الأصفهاني في (المفردات في غريب القرآن): "لَوْلَا بِحِيٍّ عَلَىٰ وَجْهَيْنِ، أَحَدُهُمَا بِمَعْنَى: امْتِنَاعِ الشَّيْءِ لَوْقُوعِ غَيْرِهِ، وَيَلْزَمُ خَيْرَهُ الْحَذَفُ، وَيُسْتَعْنَى بِجَوَابِهِ عَنِ الْخَيْرِ، نَحْوُ: (لَوْلَا أَتَيْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) سبأ/ ٣١، والثاني بِمَعْنَى: هَلَا، وَيَتَعَبَقَبُ الْفِعْلُ نَحْوُ: (لَوْلَا أَرْسَلْنَا إِلَيْتَا رَسُولًا) طه/ ١٣٤، أي هَلَا، وَأَمَثَلْتُهُمَا تَكَثَّرَ فِي الْقُرْآنِ."

ولا بد لـ (لولا) من جواب مذكور أو جواب مقدر إذا دل عليه دليل، نحو: (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ) النور/ ١٠. وتكثر اللام في جوابها، إلا إذا كان منفيًا بلم فيمتنع دخولها عليه، أو بما، فيقل دخولها عليه.

ثانيا: قوله تعالى: (جَعَلْنَا):

جاء في المعاجم: جعل الله الشيء جعلًا: خلقه وأنشأه. وجعله: صنعه وفعله. وجعل الشيء كذا: صيره إياه. وجعله على كذا وفيه: وضعه وألقاه.

وقال الراغب: (جَعَلَ): لَفْظٌ عَامٌّ فِي الْأَفْعَالِ كُلِّهَا، وَهُوَ أَعْمُ مِنْ فَعَلَ وَصَنَعَ وَسَاتَرَ أَخْوَاتِهَا. وَيَتَصَرَّفُ عَلَى خَمْسَةِ أَوْجُهٍ:

الأوّل: يَجْرِي مَجْرَى صَارَ وَطَفِقَ، فَلَا يَتَعَدَّى، نَحْوُ: جَعَلَ زَيْدٌ يَقُولُ كَذَا، قَالَ الشَّاعِرُ:

فَقَدْ جَعَلْتَ قَلُوصَ بَنِي سُهَيْلٍ
مِنَ الْأَكْوَارِ مَرْتَعَهَا قَرِيبُ

والثاني: يَجْرِي مَجْرَى أَوْجَدَ، فَيَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ، نَحْوُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ) الأنعام/ ١، وَقَوْلِهِ: (وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) النحل/ ٧٨.

والثالث: فِي إِيجَادِهِ شَيْئًا مِنْ شَيْءٍ وَتَكْوِينِهِ مِنْهُ، نَحْوُ: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا) النحل/ ٧٢، وَقَوْلِهِ: (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا) النحل/ ٨١، وَقَوْلِهِ: (وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا) الزخرف/ ١٠.

والرابع: فِي تَصْيِيرِ الشَّيْءِ عَلَى حَالَةٍ دُونَ حَالَةِ نَحْوُ: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَرَاشًا) البقرة/ ٢٢، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظُلُمَاتٍ) النحل/ ٨١، وَقَوْلِهِ: (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا) نوح/ ١٦، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) الزخرف/ ٣.

والخامس: الْحُكْمُ بِالشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ حَقًّا كَانَ أَوْ بَاطِلًا. فَأَمَّا الْحَقُّ فَنَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: (إِنَّا رَادُوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) القصص/ ٧، وَأَمَّا الْبَاطِلُ فَنَحْوُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: (وَجَعَلُوا اللَّهَ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا) الأنعام/ ١٣٦، وَقَوْلِهِ: (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتَ سُبْحَانَهُ، وَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ) النحل/ ٥٧، وَقَوْلِهِ: (الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ) الحجر/ ٩١. أ.هـ.

وأقول: إن الذي يتأمل مواضع ورود كلمتي (خَلَقَ) و(جَعَلَ) في كتاب الله الكريم، يجد اختلافًا في دلالات كل منهما. وليس صحيحًا أنهما مترادفتان. ورحم الله من قال بأنه لا ترادف في كتاب الله، وأن لكل لفظ في دلالة خاصة لا تغني عنها لفظة أخرى.

وتأتي كلمة (خَلَقَ) ومشتقاتها في القرآن لتدل على الإيجاد والتكوين على غير مثال سابق. أما كلمة (جَعَلَ) فتزد في سياق الحديث عن الظواهر والأمور التي يمكن للتدخل البشري أن يؤثر فيها، أو أن يحاكيها (إلى حد ما)، بمشيئة الله. ومن الأمثلة على ذلك قوله سبحانه وتعالى: (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظامًا، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقًا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) المؤمنون/ ١٢: ١٤، وقوله عز وجل أيضًا: (ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم) المرسلات/ ٢٠: ٢٢. ففيما يتعلق بالإبداع الإلهي الذي يتفرد به الخالق عز وجل (مثل صنع الإنسان الأول من طين وإيجاد ذريته من ماء مهين، وتكوين العلقة والمضغة) وردت كلمتا (خَلَقْنَا، نَخْلُقُكُمْ). أما فيما يتعلق بالتخصيب وزرع البويضة المخصبة فقد وردت كلمة (جعلناه) لتدلنا على أن المجال الوحيد لتدخل الإنسان في آلية الحمل ونمو الجنين هو مرحلة وضع النطفة في الرحم، وهو ما فعله الأطباء في النصف قرن الأخير لمعالجة بعض حالات العقم التي تتطلب التخصيب خارج الرحم، ثم زرع البويضات المخصبة في ذلك القرار المكين.

وهكذا فإن ورود كلمة (جعلناه) في قوله تعالى: (لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فِصَّةٍ) يدل على إمكانية أن يقوم الإنسان بمحاكاة ما ورد في الآية الكريمة، فيتخذ (سُقْفًا مِنْ فِصَّةٍ) للبيوت. ولا يعني ذلك مخالفة الله الذي لم يرد أن يجعل للكافرين بيوتًا سقْفها من فِصَّةٍ؛ حتى لا يفتتن بهم ضعفاء الإيمان ومحبو الشهوات والمفرمون بالصفراء والبيضاء. فوضع تلك السقف الفضية على البيوت يمكن أن يقوم به بعض الأغنياء من المسلمين. وفي الوقت نفسه، لا يمكن لكل الكافرين بالله أن يتخذوا هذه السقف لبيوتهم؛ لأن فيهم من الفقراء أضعاف من فيهم من الأغنياء. ثم إن أداة الشرط (ولولا) الواردة في الآية ٣٣ من سورة الزخرف لا تعني انتفاء وقوع جواب الشرط إذا لم يتحقق فعل الشرط (وهو ما تختص به لو)، ولكنها تمنع الثاني من أجل الأول. وشتان بين دلالة كل من الأديتين (لو) و(ولولا). وأنت لا تستطيع أن تضع (ولولا) في جملة شرطية أداها (لو)، مثل: (لو زارني فلان لأكرمه) لتحصل على جملة مفيدة. وفي المقابل، لا تستطيع أن تضع (لو) مكان (ولولا) في جملة شرطية مثل قول جرير:

لولا الحياء لهاجني استعمار ولزرت قبرك، والحبيب يزار

ثالثاً: قوله تعالى: (لِيُوتِيَهُمْ):

البيت هو البناء الذي يتشكل من جدران أربعة وعليها سقف قائم، فالكعبة بيت الله لأجل كونها ذات قوائم أربعة وعليها سَقْف، والقرآن يعبر عن البيت بالمكان المسقّف، ويقول: (لِيُوتِيَهُمْ سَقْفًا مِنْ فِضَّةٍ). فالمستفاد من الآية أن البيت لا ينفك عن السقف. وقد استخدمت كلمة (البيوت) في القرآن لتدلّ على المساجد، قال تعالى: (فِي بُيُوتِ أَذُنِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْأُقْدُومِ وَالْأَصْوَالِ) النور/ ٣٦. وإذا كان السقف من ضروريات مسكن الإنسان، فإنه لا يشترط في المساجد وجود السقف. فهذا هو المسجد الحرام تراه مكشوفاً تحت السماء ودون سقف يظلمه.

وقد ورد لفظ البيوت في القرآن الكريم (٣٦ مرة) بصور مختلفة، واستعمل في غير المسجد، يقول سبحانه: (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى، وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) البقرة/ ١٢٥. ويقول عز وجل أيضاً: (وَإِذْ كُنَّا نَمُوتُ وَإِنَّا لَنَاقِلُونَ) في بيوتكن من آيات الله والحكمة الأحزاب/ ٣٤، إلى غير ذلك من الآيات.

وقال (الراغب الأصفهاني): أصل البيت: مأوى الإنسان بالليل؛ لأنه يُقال: بات، أي: أقام بالليل، كما يُقال: ظلّ بالنهار، ثم قد يقال للمسكن: بيت من غير اعتبار الليل فيه، وجمعه أبيت وأبيوت، لكن الأبيوت بالمسكن أخص، والآيات بالشعر. قال عز وجل: (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا) النمل/ ٥٢، وقال تعالى: (وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً يونس/ ٨٧، وقال عز وجل: (لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم) النور/ ٢٧. ويقع ذلك على المتخذ من حجر ومدبر وصوف وبر، وبه شبه بيت الشعر، وعبر عن مكان الشيء بأنه بيته... وقوله عز وجل: (وليس البر بان تأتوا البيوت من ظهورها، ولكن البر من اتقى) البقرة/ ١٨٩، إنما نزل في قوم كانوا يتحاشون أن يستقبلوا بيوتهم بعد إخراجهم، فنبه تعالى أن ذلك متاف للبر. وقوله تعالى: (في بيوت أذن الله أن ترفع) النور/ ٣٦، قيل: بيوت النبي، نحو: (لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم) الأحزاب/ ٥٣.

وقال ابن منظور: "والمَنْزِلُ والمَنْزِلَةُ: موضع النزول. قال ابن سيده: وحكى اللحياني مَنْزِلُنَا بموضع كذا، قال: أراه يعني موضع نُزولنا... وقال الجوهري: والمَنْزِلُ: المنهل، والدارُ والمِرْجَلَةُ مثله؛ قال ذو الرمة:

أَمَنْزَلَتْنِي مَيَّ، سَلَامٌ عَلَيْكُمَا
هَلِ الْأَزْمُنُ اللَّامِي مَضِينٌ رَوَاجِعٌ"

والمُرل (بضم الميم وفتح الزاي): هو الإنزال أو مكان الإنزال. وفي التبريل العزيز يقول تعالى مخاطباً نبيه نوحاً عليه الصلاة والسلام: (وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ) المؤمنون/ ٢٩. قال الطبري في تفسيره لهذه الآية: "وقل إذا سلمك الله وأخرجك من الفلك فزلت عنها: رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مِنْ الْأَرْضِ مُبَارَكاً، وَأَنْتَ خَيْرُ مَنْ أَنْزَلَ عِبَادَهُ الْمَنَازِلَ. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل... واختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء الأمصار: (رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً) بضم الميم وفتح الزاي، بمعنى: أَنْزِلْنِي إِنْزَالاً مُبَارَكاً. وقرأه عاصم: (مَنْزَلاً) بفتح الميم وكسر الزاي، بمعنى: أَنْزِلْنِي مَكَاناً مُبَارَكاً وَمَوْضِعاً". فالمرل (بضم الميم وفتح الزاي) مصدر (بمعنى إنزال) واسم مكان (بمعنى موضع الزول) كما قال صاحباً (تفسير الجلالين). وقال صاحب (زاد المسير): "قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: مُنْزَلاً بضم الميم. وروى أبو بكر عن عاصم: ففتحها. والمرل، بفتح الميم: اسم لكل ما نزلت به، والمرل، بضمها: المصدر بمعنى الإنزال؛ تقول أنزلته إنزالاً ومُرلاً".

ونفهم مما سبق أن المرل أعَم من البيت. فالمرل خاص بمكان الزول أيا كان هذا المكان ومهما كان زمان الزول نهاراً أو ليلاً. أما البيت فهو يختص أساساً بمكان المبيت (وإن شاع استخدامه للتعبير عن المسكن)، أي أنه الموضع الذي يتخذهُ الإنسان مأوى لبيته. وإذا كان لمكان مبيت الإنسان (الكافر بربه) سُقْف من فضة فإن هذا يعدُّ دليلاً على مستوى الترف الدنيوي الكبير الذي يعيش فيه هذا الإنسان (والدنيا جنة الكافر). ومن تكن لموضع نومه مثل هذه السُقْف، فليس بمستغرب أن تكون لموضع إقامته بالليل والنهار (أي: المرل) مثل هذه السقف. وإذا كان سطوع الشمس على السُقْف الفضية مثيراً بالنهار لتكسّر إشعاعاتها عليها، فإن جعلها على موضع المبيت بالليل دليل على أن من وهبها لصاحب هذا الموضع لا يقيم لها وزناً، ولا يساوي هذا النوع من النعيم (الذي قد نعده إسرافاً زائداً على الحدِّ) عنده جناح بعوضة فما دونها. ولعلنا بذلك نكون قد أوضحنا الحكمة من ورود كلمة (لِيُؤْتِيَهُمْ) بدلاً من (لمنازهم) أو (لمساكنهم) في تلك الآية الكريمة.

ورثة لطيفة أخرى في تخصيص البيوت (لا المنازل) بالسُقْف المتخذة من فضة، سنذكرها بإذن الله في الجزء الأخير من هذه الدراسة.

رابعا: اللام في قوله تعالى: (لبيوهم):

من المعروف أن اللام المفردة في العربية تكون عاملة للجر إذا أدخلت على الأسماء. وفي هذه الحالة، تأتي لعدة معان، من بينها:

- (١) الاستحقاق، وهي الواقعة بين معنى وذات، نحو: الحمد لله، والملك لله، والأمر لله.
- (٢) الاختصاص، نحو: الجنة للمتقين.
- (٣) الملك، نحو: (له ما في السماوات وما في الأرض) البقرة/ ٢٥٥ (وغيرها)، أو التملك نحو: وهبت لزيد دينارا، أو شبه التملك نحو: (جعل لكم من أنفسكم أزواجا) الشورى/ ١١.
- (٤) التعليل، كما في التزليل العزيز: (لإيلاف قريش. إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) قريش/ ١: ٢.
- (٥) موافقة (إلى): نحو قوله تعالى في التزليل العزيز: (بأن ربك أوحى لها) الزلزلة/ ٥.
- (٦) موافقة (على) في الاستعلاء الحقيقي، نحو قوله تعالى: (يجزّون للأذقان) الإسراء/ ١٠٧، أو المجازي نحو: (وإن أسأتُم فلها) الإسراء/ ٧.
- (٧) موافقة (في): نحو قوله تعالى: (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) الأنبياء/ ٤٧.
- (٨) موافقة (عن): نحو قوله عز وجل: (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه) الأحقاف/ ١١.
- (٩) التوكيد، نحو: (إن ربي لسميع الدعاء) إبراهيم/ ٣٩.

وقد اختلف المفسرون والنحاة في دلالة اللام في قوله تعالى: (لبيوهم)، وفي علاقتها باللام في قوله عز وجل: (لمن يكفر). فقال الألوسي في تفسيره: "و(لبيوهم) بدل اشتمال من قوله تعالى: (لمن يكفر). واللام فيهما للاختصاص، أو هما متعلقان بالفعل لا على البديلية. ولام (لمن) صلة الفعل لتعديه باللام فهو بجزلة المفعول به، ولام (لبيوهم) للتعليل فهو بجزلة المفعول له. ويجوز أن تكون الأولى للملك والثانية للاختصاص، كما في قولك: وهبت الحبل لزيد لدابته، وإليه ذهب ابن عطية. ولا يجوز على تقدير اختلاف اللامين معنى البديلية، إذ مقتضى إعادة العامل في البديل الاتحاد في المعنى، وإلى هذا ذهب أبو حيان. وقال الخفاجي: لا مانع من أن يبدل المجموع من المجموع".

وقال الطبري: "اختلف أهل العربية في تكرير اللام التي في قوله (لمن يكفر) وفي قوله (لبيوهم)، فكان بعض نحوي البصرة يزعم أنها أدخلت في البيوت على البديل. وكان بعض نحوي الكوفة يقول: إن شئت جعلتها في (لبيوهم) مكررة كما في: (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) البقرة/ ٢١٧، وإن شئت جعلت اللامين مختلفتين كأن الثانية في معنى (على) كأنه قال: جعلنا هم على بيوهم سقفا... وتقول العرب للرجل في وجهه: جعلت لك لقومك الأعطية، أي: جعلته من أجلك لهم". وأكد ذلك الفراء والقرطبي والبيضاوي وغيرهم،

فقال الفراء: يجوز أن يكون معنى (ليبوهم): على بيوتهم. وقال القرطبي في تفسيره: "وقيل: اللام في (ليبوهم) بمعنى: (على) أي: على بيوتهم. وقيل: بدل كما تقول: فعلت هذا لزيد لكرامته، قال الله تعالى: (ولأبويه لكل واحد منهما السدس) النساء/ ١١، كذلك قال هنا: (جعلنا لمن يكفر بالرحمن ليوهم)". وقال البيضاوي: (ليبوهم) بدل اشتمال من (لَمَنْ) أو اللام بمعنى (على) كقولك: وهبت له ثوبا لقميصه.

ونحن نميل إلى الرأي الذي يقول أصحابه بأن اللام في (ليبوهم) بمعنى (على). ونرى في هذه الدلالة إعجازا علميا باهرا للقرآن الكريم، سوف نشير إليه في الجانب العلمي هذه الدراسة.

رابعا: قوله تعالى: (سُقفاً):

جاء في المعاجم: السُقْفُ (بفتح السين وسكون القاف): غطاء المنزل ونحوه، وهو أعلاه المقابل لأرضه. وَجَعَلَ اللهُ السَّمَاءَ سَقْفًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَالسَّقْفُ الْمَرْفُوعُ) الطور/ ٥، وقوله أيضا: (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ) الأنبياء/ ٣٢.

وَالسَّقْفُ جَمْعُهُ: سقوف وأسقف. وجاء في بعض المعاجم أيضا أن السُقْفُ جمعه سُقْفٌ. وأنكر بعض اللغويين والمفسرين أن تكون كلمة (سُقْفُ) جمعا لكلمة (سُقْفُ)، وقالوا إنما جمع الجمع لكلمة (سقوف) أو أنها جمع (سقيفة). ونقل المفسرون مثل أبي السعود عن الفراء قوله إن (السُقْفُ) جمع سقيفة كسفن وسفينة. وقال الطبري: "وقد زعم بعضهم أن السُقْفُ بضم السين والقاف جمع سُقْفُ، والرُّهْنُ بضم الراء والهاء جمع رهْنُ، فأغفل وجه الصواب في ذلك، وذلك أنه غير موجود في كلام العرب اسم على تقدير فَعَلَ بفتح الفاء وسكون العين مجموعا على فُعَلُ، فيجعل السُقْفُ والرُّهْنُ مثله".

ولم ترد كلمة السقف في المصحف الشريف بصيغة الإفراد في الآية رقم ٣٣، وإنما جاءت بصيغة جمع الجمع (سُقْفُ). أما في علم القراءات فقد وردت الكلمة بصيغة الإفراد، كما وردت بصيغة الجمع (سقوف) وجمع الجمع (سُقْفُ)^(١). ومع يقيننا بأن القرآن نزل على سبعة أحرف وفقا للهجات القبائل العربية، وأن للأوجه المختلفة للقراءات إعجازها وأثرها الكبير في إثراء معاني الآيات القرآنية وتوسيع نطاق دلالاتها، فإننا نرى أن الرسم العثماني للمصحف هو الأوثق والأدق والأكثر تعبيرا عن المعنى المراد، لا سيما وأنه يتفق مع رأي الجمهور. ومن ثم فإنه في حالة البحث عن صور الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، يكون التعويل على الرسم العثماني هو الفيصل في حالة ما إذا وجد الباحث نفسه أمام صور مختلفة من القراءات للكلمة الواحدة، وكان للفظ الواردة في الرسم العثماني للمصحف ارتباط كبير بالإعجاز العلمي المطلوب كشف النقاب عنه.

سَقْفٌ واحد لكل بيت أم سقوف متعددة لكل بيت؟

إذا اعتمدنا الرسم العثماني للمصحف، وقلنا إن (سَقْفًا) في الآية الكريمة هي جمع الجمع، فإن السؤال الذي يمكن أن نطرحه هنا هو: هل قوله تعالى: (لِيُبَيِّنَ سَقْفًا) يعني أنه يمكن أن يجعل الله لكل إنسان (يَكْفُرُ بِالرُّحْمَنِ) سَقْفًا واحداً لبيته، أو أن المراد أن يكون للبيت الواحد من بيوت هؤلاء الكافرين أكثر من سقف؟

إنها مسألة لغوية تحتاج إلى البحث للوصول إلى القول الفصل في هذه القضية.

لقد نقل ابن الجوزي في (زاد المسير) قول الزجاج: "والسقف واحد يدل على الجمع، فالمعنى: جعلنا لبيت كل واحد منهم سَقْفًا من فضة". وجاء في كتاب (حجة القراءات) إن حجة من قرأ (سَقْفًا) - بصيغة جمع الجمع - هي قوله تعالى بعد ذلك: (وليبيوهم أبواباً وسريراً)، ولم يقل باباً وسريراً. "فدلّ على أن آخر الكلام منظوم على لفظ أوله. ومن قرأ (سَقْفًا) - بصيغة الأفراد - فهو واحد يدلّ على أن المعنى: جعلنا لبيت كل واحد منهم سَقْفًا من فضة. ويجوز أن يوحد السَقْفُ لتوحيد لفظ (مَنْ) فيكون المعنى: جعلنا لكل من يكفر بالرحمن سَقْفًا من فضة.

ويرى الباحث أن الصياغة القرآنية في هذا السياق حثالة أوجه. ويمكن تأويل قوله تعالى: (جعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوهم سقفا من فضة) على أنه يتحمل الدلالات التالية كلها:

١- أن يكون لكل بيت من بيوت الكافرين سَقْفٌ واحد من فضة (مثل ما قال الزجاج)، وهو السقف الذي يظلل البيت ويغطي غرفه وملحقاتها.

٢- أن يكون لكل بيت من بيوت الكافرين سقفاً: أحدهما هو السقف العادي، والآخر هو سقف من فضة يعلوه. وما يشجعنا على القول بهذا التأويل ورود القراءة (سَقُوفًا) بصيغة الجمع، وما قاله المفسرون من أن اللام في قوله تعالى (لبيوهم) بمعنى (على). وهذا يعني أن السَقْفُ المتخذ من فضة سيكون على السقف الأساسي للبيت.

٣- أن يكون لكل بيت من بيوت الكافرين سقفاً، استناداً إلى الحجج التي أوردناها في الدلالة السابقة، ولكن الجديد الذي يمكن أن نذكره هنا هو أن كلا السقفين: السقف العادي، والآخر الذي يعلوه، من فضة. وفي ذلك زيادة في بسط الدنيا لهؤلاء الذين يكفرون بالرحمن، فضلاً عن استدراجهم بالترف. كما أنه تأكيد لهوان الدنيا عند الله.

٤- أن يكون لكل بيت من بيوت الكافرين ثلاثة سقوف فأكثر: أحدهما هو السقف العادي، والأسقف الأخرى هي سَقْف من فضة تعلوها. وما يشجعنا على القول بهذا التأويل ورود كلمة (سُقفا) بصيغة جمع الجمع في المصحف الذي بين أيدينا، وقراءة الجمهور، وما قاله المفسرون من أن اللام في قوله تعالى (ليوقم) بمعنى (على). وهذا يعني أن السُقْف المتخذة من فضة ستكون على السقف الأساسي للبيت.

٥- أن يكون لكل بيت من بيوت الكافرين ثلاثة سقوف فأكثر، كلها من فضة، بما في ذلك السقف الأساسي للبيت. وما يشجعنا على القول بهذه الدلالة أن القرآن أورد الأبواب والسُرر والمعارج بصيغة الجمع، وقال أغلب المفسرين إنها كلها من فضة.

خامسا: حرف الجر (من) في قوله تعالى: (سُقفا من فضة):

يقول النحاة إن (من) حرف جر يأتي على وجوه، منها:

(١) التبويض، فيمكن أن يذكر موضعها كلمة (بعض)، مثل قوله تعالى: (فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ) البقرة/ ٢٥٣، وقوله عز وجل أيضا: (حتى تنفقوا مما تحبون) آل عمران/ ٩٢. وتقول: هذا من التوب، وهذا الدرهم من الدراهم، وهذا منهم كأنك قلت بعضه أو بعضهم.

(٢) البيان والتفسير، فيكون ما بعدها بيانا لشيء مبهم قبلها، وكثيرا ما تقع بعد ما ومهما، نحو (ما يفتح الله للناس من رحمة) فاطر/ ٢، ونحو: (مهما تأتينا به من آية) الأعراف/ ١٣٢. قال الجوهري: "وقد تكون (من) للبيان والتفسير، كقولك: لله درك من رجل، فتكون (من) مفسرة للاسم المكني في قولك: (درك) وتوجه عنه. وقوله تعالى: (ويزل من السماء من جبال فيها من برد) النور/ ٤٣، فالأولى لابتداء الغاية والثانية للتبويض والثالثة للبيان، قاله ابن سيده".

(٣) توكيد العموم، وهي الزائدة في نحو قوله تعالى: (أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ) المائدة/ ١٩ (٢).

(٤) أن تأتي بمعنى (على) كقوله تعالى: (ونصرناه من القوم) الأنبياء/ ٧٧، أي: على القوم^(٣).

(٥) أن تكون للجنس كقوله تعالى: (فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا) النساء/ ٤. فإن قيل: كيف يجوز أن يقبل الرجل المهر كله، وإنما قال منه؟ فالجواب في ذلك أن (من) هنا للجنس كما قال تعالى: (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) الحج/ ٣٠، ولم تؤمر باجتنا ب بعض الأوثان، ولكن المعنى: فاجتنبوا الرجس الذي هو وثن، وكلوا الشيء الذي هو مهر. وكذلك قوله عز وجل: (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما) الفتح/ ٢٩.

(٦) دلالات أخرى^(٤).

وقد حاول الباحث أن يقف على دلالة (من) في قوله تعالى (سُقفاً من فضة)، فتبين له أنها تصلح للتبويض، كما تصلح للبيان والتفسير. ولعل النحاة يفصلون في هذه المسألة، وإن كان الباحث يرى أن القول ياحدى الدالتين صحيح، ويخدم المعنى، ويتوافق مع ما يريد أن يبينه من أوجه الإعجاز العلمي في الآية رقم ٣٣ من سورة الزخرف.

سادسا: قوله تعالى: (معارج):

الْعُرُوجُ: ذَهَابٌ فِي صُعُودِ، قَالَ تَعَالَى: (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ) الْمَعَارِجُ / ٤، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ) الْحَجَرُ / ١٤.

وَالْمَعَارِجُ: الْمَصَاعِدُ وَالذَّرَجُ، وَاحِدُهَا مَعْرَاجٌ. وَالْمَعْرَاجُ: السُّلْمُ، وَالْجَمْعُ مَعَارِجٌ وَمَعَارِيجٌ مِثْلُ مَفَاتِحَ وَمَفَاتِيحٍ، لَفْتَانٍ. وَقَالَ الطَّبْرِيُّ: وَأَمَّا الْمَعَارِجُ لِإِنَّمَا جُمِعَتْ عَلَى مَفَاعِلٍ، وَوَاحِدُهَا مَعْرَاجٌ عَلَى جَمْعِ مَعْرَجٍ، كَمَا يَجْمَعُ الْمَفَاتِحَ مَفَاتِحَ عَلَى جَمْعِ مَفْتَحٍ لِأَنَّهَا لَفْتَانٌ: مَعْرَجٌ وَمَفْتَحٌ. وَلَوْ جُمِعَ مَعَارِيجُ كَانَ صَوَاباً، كَمَا يَجْمَعُ الْمَفَاتِحَ مَفَاتِيحَ، إِذْ كَانَ وَاحِدُهَا مَعْرَاجٌ. وَقَرَأَ أَبُو رَجَاءٍ الْعَطَارْدِيُّ وَطَلْحَةُ بْنُ مَصْرُوفٍ: مَعَارِيجُ، وَهِيَ الْمَرَاقِيُّ وَالسَّلَالِيمُ. قَالَ الْأَخْفَشُ: إِنْ شئتَ جَعَلتَ الْوَاحِدَ مَعْرَجًا، وَمَعْرَجٌ مِثْلُ مَرَقَاةٍ. قَالَ تَعَالَى: (مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ) الْمَعَارِجُ / ٣، وَلَيْلَةُ الْمَعْرَاجِ سُمِّيَتْ لِصُعُودِ الدُّعَاءِ فِيهَا إِشَارَةً إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ) فَاطِرُ / ١٠. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَوْلُهُ: (وَمَعَارِجٌ عَلَيْهَا يظهرون) قَالَ: دَرَجٌ عَلَيْهَا يَصْعَدُونَ إِلَى الْعَرْفِ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الْمَعَارِجُ: دَرَجٌ مِّنَ فَضَّةٍ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي (زَادَ الْمَسِيرِ): "وَمَعَارِجٌ وَهِيَ الدَّرَجُ، وَالْمَعْنَى: وَجَعَلْنَا مَعَارِجَ مِّنَ فَضَّةٍ، وَكَذَلِكَ وَلِيَبْوِثَهُمْ أَبْوَاباً أَي مِّنَ فَضَّةٍ وَسُرراً أَي مِّنَ فَضَّةٍ".

سابعاً: قوله تعالى: (وَزُخْرُفًا):

الزُّخْرُفُ: الزَّيْنَةُ الْمُرَوَّقَةُ، ومنه قيلَ لِلذَّهَبِ: زُخْرُفٌ، وَقَالَ: (أخذت الأرض زخرفها) يونس/ ٢٤. وقال: (أو يكون لك بيت من زخرف) الإسراء/ ٩٣، أي: ذهب مُرَوَّقٌ، وقال: (زخرف القول غرورا) الأنعام/ ١١٢، أي: الْمُرَوَّقَاتِ مِنَ الْكَلَامِ. وقال ابن عباس: الزُّخْرُفُ: أَلذَّهَبُ. وروى شعبة عن الحكم عن مجاهد قال كنت لا أدري ما معنى (وزخرفا) حتى وجدته في قراءة عبد الله بن مسعود: وذهباً. وقال ابن زيد: الزخرف: هو ما يتخذُه الناس في منازلهم من الأمتعة والأثاث والتجملات. وقال الحسن: هو النقوش والتزويق، وأصله الزينة. يقال: زُخْرِفُ الدار: أي زينتها، وتزخرف فلان أي: تزين. وأكثر اللغويين ذكروا للزخرف معنيين: الذهب والزينة، فقيل الظاهر إنه حقيقة فيهما، وقيل إنه حقيقة في الزينة، ولكون كمالها بالذهب استعمل فيه أيضاً.

هل السقف والمعارج والأبواب والسرر من فضة فقط أم من ذهب وفضة؟

اختلف المفسرون في كون سقف البيوت والمعارج والأبواب والسرر من فضة أم من فضة وذهب. فقد ذهب فريق منهم إلى أنها من فضة وذهب. ومن هؤلاء الزمخشري وطائفة أخرى من المفسرين. قال الزمخشري: ويجوز أن يكون الأصل: سقفا من فضة وزخرف يعني: بعضها من فضة، وبعضها من ذهب".

وذهب فريق آخر إلى كون السقف والمعارج والدرج والسرر من فضة فقط. جاء في صحيح البخاري: قال ابن عباس: ولولا أن يكون الناس أمة واحدة: لولا أن يجعل الناس كلهم كفارا لجعلت لبيوت الكفار سقفا من فضة ومعارج من فضة وهي درج وسرر فضة ...

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقول الله لولا أن يجزع عبدي المؤمن لعصبت الكافر عصابة من حديد فلا يشتكي شيئا، ولصبيت عليه الدنيا صبا". قال ابن عباس رضي الله عنهما: قد أنزل الله شبه ذلك في كتابه في قوله: "ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن... الآية".

وقال أبو السعود في تفسيره: قوله تعالى: (جعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوهم سقفا من فضة) أي: متخذة

منها.

وقال صاحب (معاني القرآن): "وليؤتم أبوأبا، أي: من فضة، وسررا: أي من فضة. وذهب فريق ثالث إلى أن السقف والسرر والأبواب والمعارج من فضة، وأن للكافرين مع ذلك أيضا زخرفا أي: ذهبا يتنعمون به، ولكنه لا يدخل في تكوين السقف ومرافق البيت الأخرى المتخذة من الفضة. فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما: ولولا أن يكون الناس أمة واحدة... الآية، يقول: لولا أن أجعل الناس كلهم كفارا لجعلت لبيوت الكفار سقفا من فضة، ومعارج من فضة... وسرر فضة، وزخرفا وهو الذهب. وقال البغوي: "ولولا أن يكون الناس أمة واحدة، أي: لولا أن يصيروا كلهم كفارا فيجتمعون على الكفر لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة... ومعارج مصاعد ودرجا من فضة... وليؤتم أبوأبا من فضة، وسررا أي: وجعلنا لهم سررا من فضة عليها يتكئون، وزخرفا أي: وجعلنا مع ذلك لهم زخرفا وهو الذهب".

وثمة فريق رابع قال ما قاله الفريق الثالث، ولكنه فسّر الزخرف على أنه التزاويق ومواد الزينة غير الذهب.

وفريق خامس أورد الآراء المختلفة في هذه المسألة دون أن يقرر أيها أصوب، مثل الطبري والنسفي وغيرهما من المفسرين. يقول الطبري في تفسيره: "وفي نصب الزخرف وجهان، أحدهما: أن يكون معناه: لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومن زخرف. فلما لم يكرر (من) نصب على إعمال الفعل فيه ذلك والمعنى فيه، فكانه قيل: وزخرفا يجعل ذلك لهم منه. والوجه الثاني أن يكون معطوفا على السرر فيكون معناه لجعلنا لهم هذه الأشياء من فضة، وجعلنا لهم مع ذلك ذهبا يكون لهم غنى يستغنون بها. ولو كان التبريل جاء بخفض الزخرف لكان (المعنى): لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومن زخرف، فكان الزخرف يكون معطوفا على الفضة".

ويقول النسفي: "وليؤتم أبوأبا وسررا عليها يتكئون وزخرفا: أي جعلنا للكفار سقوفا ومصاعد وأبوابا وسررا كلها من فضة، وجعلنا لهم زخرفا أي زينة من كل شيء. والزخرف: الذهب والزينة. ويجوز أن يكون الأصل سقفا من فضة وزخرف، أي: بعضها من فضة، وبعضها من ذهب، فنصب عطفا على محل من فضة.

ويقول غيرهما من المفسرين: قوله تعالى: (وَزُخْرُفًا) عطف على (سُقُفًا) أو عطف على محل (من فضة)، كأن الأصل: سقفا من فضة وزخرف، يعني بعضها من فضة وبعضها من ذهب، فنصب عطفا على المحل، وجوز عطفه على سقفا أيضا. وقيل: انتصب (زُخْرُفًا) على معنى: وجعلنا لهم مع ذلك زخرفا، وقيل برفع الحذف. والمعنى: فجعلنا لهم سقفا وأبوابا وسررا من فضة ومن ذهب فلما حذف (من) قال: (وَزُخْرُفًا) فنصب.

ويرى الباحث أن القول بأن السُقْف والأبواب والسرر والمعارض من فضة فقط، وأن الله لو شاء لجعل للكافرين مع ذلك زخرفاً (سواء أكان ذهباً أم تزاويق) هو الأصوب، دون أن ينفي ذلك إمكانية أن يدخل الذهب (بنسبة أقل بكثير من الفضة) في تكوين السقف والمرافق الأخرى. ويدعم هذا الرأي الصياغة القرآنية التي وصفت السُقْف وصفاً مباشراً لا لبس فيه بأنها من فضة، ثم ما قاله نفر غير قليل من المفسرين تأكيداً لذلك. كما أن الإعجاز العلمي الذي سنكشف النقاب عنه يتساق مع كون السقف من الفضة (بصورة أساسية) لا الذهب. وهكذا تتعاقد الدلائل التي تجعلنا لا نرجح قول من قال إن السقف من فضة وذهب، وإن الذهب حُذِف من السياق لأنه مفهوم ضمناً من قوله سبحانه وتعالى بعد ذلك: (وزخرفاً).

التفسير الإجمالي للآيات السابقة من خلال كتب التفسير

من استعراض ما ورد في كتب التفسير، قديمها وحديثها، يمكن أن نقول إن المعنى الإجمالي للآيات الثلاث محل دراستنا هذه هو: لولا غلبة حب الدنيا على القلوب، واختيار الناس لها على الآخرة، وقلة خطرها عند الله عز وجل وحقارتها وهوانها، ولولا أن يكون في الكفار غني وفقير وفي المسلمين مثل ذلك، ولولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاء المال دليل على محبة الله لمن أعطاه فيجتمعوا على الكفر لأجل المال، ولولا أن يرغب الناس في الكفر فيجتمعوا عليه إذا رأوا الكفار في سعة وتنعم لحبهم الدنيا، لأعطى الله هذا المتاع على أتم وجه من هو شر الخلائق وأدناهم منزلة. فكراهة الاجتماع على الكفر هي المانعة من تمتع كل كافر والبسط عليه، لا أن كون متاع الدنيا له قدر عند الله. والكراهة المذكورة هي وجه الحكمة في ترك تنعيم كل كافر وبسط الرزق عليه، فلا محذور في تقديرها. فلولا ما ذُكِر لجعل سبحانه وتعالى على بيوت من يكفر بالرحمن سُقفاً من فضة، أي متخذة منها، ومساعد من فضة عليها يرتقون ويصعدون ويعلمون السطوح، وجعل لبيوتهم أبواباً من فضة وسرراً من فضة أيضاً عليها يتكئون. ويجعل لهم إلى جانب ذلك ذهباً يغنيهم، وتزاويق وزينة في بيوتهم تروق لهم وتعجب من يطالعها. وما كل هذه الأشياء إلا متاعٌ فان زائل يستمتع به أهل الدنيا في الدنيا، إذ يعجل لهم بحسناتهم التي يعملونها في الدنيا مآكل ومشرب ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله تبارك وتعالى حسنة يجزيهم بها. وزين الدار الآخرة وبهاؤها عند ربك للمتقين، الذين اتقوا الله فخافوا عقابه وعذابه وبطشه، فجدوا في طاعته، وحذروا معاصيه خاصة دون غيرهم من خلق الله.

الدراسة العلمية لآيات سورة الزخرف المرتبطة بالفضة:

رأينا من التأملات اللغوية لآيات سورة الزخرف المرتبطة بالفضة أن المفسرين القدامى (والمعاصرين) أيضا لم يتطرقوا إلى سبب ورود الفضة بدلا من الذهب في النص القرآني الخاص بوصف سُقْف البيوت التي كان الله سيجعلها للكافرين به لولا علمه عز وجل بأن ذلك سيكون سببا في كفر بقية الناس. ولما كانت الفضة أعلى من الذهب وأقيم فإن ورودها في الآيات محل دراستنا يحمل أسراراً خاصة لم يعرفها القدامى، أو ربما أدركوها ولكنهم لم يربطوا بينها وبين الآيات التي أشرنا إليها. وقد شغلني هذه المسألة منذ عام ١٩٧٧، وتوصلت عامذاك إلى قناعة ترتبط بمزايا تنفرد بها الفضة وتتفوق بها على الذهب. ولكي نوضح هذه المزايا، سوف نتناول هنا باختصار أهم الخصائص التي تنفرد بها الفضة من دون بقية الفلزات والمعادن، والتي تجعلها أهلا لهذا التكريم القرآني، وسببا لإيثارها على الذهب بالذكر في الآية رقم ٣٣ من سورة الزخرف.

نبذة عن الفضة وخواصها:

الفضة فلز لونه أبيض ناصع جدا إذا كان نقياً، وزنه الذري ١٠٧,٩، وعدده الذري ٤٧. وهو بذلك يسبق الذهب في احتلال موقع متقدم بالجدول الدوري للعناصر (الوزن الذري للذهب ١٩٧، وعدده الذري ٧٩).

ولا تتأكسد الفضة بسهولة، كما أنها (مثل الذهب) لا تميل إلى التفاعل الكيميائي مع معظم المواد؛ ولذلك توجد في حالتها العنصرية في الطبيعة، وقد كان ذلك أحد أسباب تعرف الإنسان عليها من قديم الزمان. وهي تلي الذهب مباشرة في اللدونة **ductility** (أي القابلية للسحب، وتكوين أسلاك رفيعة) وفي القابلية للطرق والتحول إلى أشكال مختلفة. وهي من أوائل الفلزات التي استخدمها الإنسان، ويرجع تاريخ معرفته بها إلى العصر الحجري الأول. وفي المرتبة الثانية يأتي استخدام الفضة في الحلبي والمجوهرات وأدوات السفر وكثير من الأدوات المنزلية التي تُقتنى للتباهي بها أكثر من الاستخدام العادي.

وكانت الفضة تستخدم على نطاق واسع في صك العملات المعدنية، ولكنها قَلَّتْ إلى حد كبير الآن لارتفاع سعرها، وتكاد تقتصر على العملات التذكارية فقط. أما في الاستخدامات الصناعية فَيُعَدُّ استعمالها في التصوير الضوئي (الفوتوغرافي) أكثر تلك الاستخدامات شيوعاً؛ فقد وُجِدَ أن هاليدات الفضة تتأثر بالضوء بحيث ترسب منها الفضة في صورتها الفلزية. وتعتمد كمية الفضة المترسبة على شدة الضوء الذي تتعرض لها هذه الأملاح.

وتتصف الفضة ببنائها الكيميائي إذا تركت في الهواء النقي أو الماء الصافي الخالي من الملوثات. وهي لا تتأثر بالرطوبة (مثل الحديد والنحاس). كما أنها لا تتحد مع الأكسجين في درجات الحرارة العادية أو المرتفعة، ولذلك لا ينطفئ بريق الفضة إذا تعرضت للهواء النقي، وهي لذلك تقاوم التآكسد. كما أنها تتصف بمقاومتها العالية للتآكل الكيميائي. ويعزى انطفاء بريق الفضة، الذي يحدث لها عند تعرضها للهواء الجوي، وبخاصة في المناطق الصناعية، إلى وجود أي من مركبات الكبريت أو الأوزون في الهواء (وهي الظاهرة المعروفة بتطويس الفضة **silver tarnishing**)، حيث يتسبب وجود تلك المركبات في الهواء في تكوين طبقة رمادية أو سوداء على سطح الفضة من مادة كبريتيد الفضة **silver sulfide** تفقد الفضة بريقها المعروف. ونظرا لتفاقم مشكلات تلوث الهواء في العصر الحديث بهذه المركبات الكبريتية، فإن هذه الظاهرة أصبحت أكثر انتشارا عما مضى.

وتتفوق الفضة على بقية العناصر الكيميائية بعدة خصائص، هي:

١- الفضة هي أفضل العناصر الكيميائية كلها في القدرة على نقل الحرارة، وتوصيلها، ولا ينازعها في هذه المكانة فلز آخر أو حتى أية مادة مصنعة كيميائيا. ولهذا فإنها تتخذ مرجعا قياسيا لمقارنة موصلية العناصر الأخرى بها.

وإذا أعطينا الفضة رقم ١٠٠ فإن نقل المعادن الأخرى للحرارة يكون له القيم الموضحة في الجدول

التالي:

جدول رقم (١)

الموصلية الحرارية للفلزات بالنسبة إلى الفضة

الفلز	معامل التوصيل الحراري
الفضة	١٠٠
النحاس	٧٣,٦
الذهب	٥٣,٢
الزنك	١٩
القصدير	١٤,٥
الحديد	١١,٦
البلاتين	٨,٤
الرصاص	٨,١
البيزموت	١,٨

وإذا تأملنا الجدول السابق فسوف نجد أن توصيل الذهب للحرارة يبلغ ٥٣,٢ % بالنسبة للفضة، أي أن موصلية الذهب للحرارة نصف ما للفضة تقريبا.

وإذا اتخذنا النحاس أساسا للمقارنة بين المعادن (انظر الجدول رقم ٢) فسوف نجد أن الموصلية الحرارية للفضة تبلغ ١٠٦، أي تزيد على موصلية النحاس بمقدار ٦ %، في حين تبلغ موصلية الذهب بالنسبة للنحاس ٦٥ فقط، أي تقل عن موصلية النحاس بمقدار ٣٥ %. أما البلاتين الذي تزيد قيمته على الذهب فتبلغ موصليته ١٥، أي أن الموصلية الحرارية لهذا المعدن الثمين أقل من تلك التي للنحاس بنسبة ٨٥ %.

جدول رقم (٢)

الموصلية الحرارية النسبية للمعادن مقارنة بالنحاس

(عند درجة حرارة ٢٠ مئوية، باعتبار موصلية النحاس = ١٠٠)

الموصلية النسبية	الفلز
١٠٠	النحاس
١٠٦	الفضة
٦٥	الذهب
٥٩	الألومنيوم
٥٥	الكروم
٣٣,٢	المولوبيديوم
٢٨,٩	التنجستن
٢٨,٢	الحارصين (الزنك)
٢٨	النحاس الأصفر
١٩	الكاديوم
١٧,٧	الحديد النقي
١٦,٣	الكوبالت
١٦-١٢	النيكل
١٥	البلاتين
١٥-٣	الفولاذ
١٣	القصدير
١٢-٢	الحديد الزهر
٧	الرصاص
٥	التيتانيوم
٤	فلز مونل
٣,٧	المنجنيز
١,٦٦	الزئبق

وعلمياً، تعرف الموصلية الحرارية لمادة ما بأنها المكافئ لكمية الحرارة التي تمر في وحدة الزمن عبر وحدة المساحات للوح (أو صفيحة) من هذه المادة، عندما يتعرض الجانبان المتقابلان للوح (أو الصفيحة) لاختلاف في درجة الحرارة قيمته وحدة حرارية واحدة.

ويمكن التعبير عن الموصلية الحرارية رياضياً كما يلي:

الموصلية الحرارية = معدل التدفق الحراري ÷ (المساحة × الممال الحراري Temperature gradient)

وفي النظام العالمي للوحدات القياسية العالمي يعبر عن الموصلية الحرارية بوحدة الوات / متر - كلفن $(W \cdot m^{-1} \cdot K^{-1})$.

ويوضح الجدول رقم (٣) قيم الموصلية الحرارية لمعظم المواد الشائعة.

جدول رقم (٣)

قيم الموصلية الحرارية لمعظم المواد الشائعة

المادة	الموصلية الحرارية (وات / متر - كلفن)
الفضة	٤٣٠
النحاس	٣٩٠
الذهب	٣٢٠
الألومنيوم	٢٣٦
البلاتين	٧٠
الكوارتز	٨
الزجاج	١
الماء	٠,٦
البولي ستيرين	٠,٠٣
الصوف	٠,٠٥

وتتغير الموصلية الحرارية للمواد مع تغير درجة الحرارة. وبالنسبة لمعظم المواد فإنها تتناقص قليلا مع ارتفاع درجة الحرارة.

ويمكن للفضة أن تتحمل التغيرات الكبيرة في درجة الحرارة.

٢- ثمة خاصية أخرى تنفرد بها الفضة أيضا، وهي كونها أفضل الفلزات في توصيل الكهرباء، وأقلها مقاومة لمرور التيار الكهربائي فيها (انظر الجدول رقم ٤)، ولذلك تستخدم الفضة على نطاق واسع في صناعة الأجهزة الكهربائية.

والموصلية الكهربائية **electrical conductivity** هي مقياس مدى مقدرة مادة ما على نقل شحنة كهربائية **electric charge**. والتوصيل **conductance** ظاهرة كهربائية طبيعية، حينما تكون هناك مادة محتوية على جسيمات مشحونة كهربائيا متحركة **movable particles**. وحينما يكون هناك فرق جهد كهربائي **electrical potential** بين طرفي موصل **conductor** فإن الشحنات المتحركة تنساب، مما يؤدي إلى ظهور تيار كهربائي.

وتتسم الفلزات **metals** بأنها موصلات **conductors** جيدة للكهرباء. والعوازل **insulators**، (مثل الزجاج، أو الفراغ **vacuum**)، لها موصلية ضعيفة. أما أشباه الموصلات **semiconductors** (مثل الجرمانيوم والسيليكون) فهي وسط بين الموصلات والعوازل، وإن كانت موصليتها تتغير مع الظروف، كما في حالة تعرضها لترددات خاصة من الفوتونات الضوئية. والموصلية الكهربائية هي ضد المقادير **electrical resistivity**. ونظرا لرخص أسعار النحاس، مقارنة بالفضة، فإنه يعد أساسا للمقياس الذي يستخدم لتقييم الموصلية الكهربائية للمواد. ويعبر عن هذا المقياس بالحروف **IACS** التي ترمز إلى المقياس الدولي للنحاس المملدّن (المعامل بالتحمية، ثم بالتبريد) **International Annealed Copper Standard**. ويعتمد هذا المقياس على سلك من النحاس المملدّن كثافته ٨,٨٩ جرام/ سنتيمتر مكعب، ووزنه جرام واحد، وطوله متر واحد، ومقاومته ١,٥٣٢٨ أوم. وبموجب هذا المقياس يعطى النحاس رقم ١٠٠ عند درجة حرارة ٢٠٠ مئوية (٦٨٠ فهرنهايت). ولا يعني ذلك أن النحاس ذو مقاومة لمرور للكهرباء تساوي صفرا، وأن موصليته ١٠٠% بصورة مطلقة. وكل ما في الأمر أن النحاس قد اتخذ مرجعا للمقياس والمقارنة، وأن هناك ما قد يتفوق عليه في التوصيل الكهربائي (والفضة هي التي تعد مثلا على ذلك). وكلما ارتفعت قيمة الرقم الذي يحصل عليه فلز ما على هذا المقياس كان هذا دليلا على الموصلية الكهربائية العالية لهذا الفلز. ويوضح الجدول رقم (٥) موصلية بعض المواد الشائعة على هذا المقياس^(٥).

جدول رقم (٤)

الموصلية الكهربائية Electrical Conductivity للعناصر

مقاسة بوحدة مليون/ أوم - متر

العنصر الموصلية الكهربائية	العنصر الموصلية الكهربائية	العنصر الموصلية الكهربائية	العنصر الموصلية الكهربائية
الليثيوم ١١,٧	البريليوم ٢٥	الكربون ٠,٠٧	الصدنيوم ٢٠,١
البيرورون ١٢١٠ ÷ ٥	الماغنسيوم ٢٢,٤	الألمنيوم ٣٧,٧	الإسترونشيوم ٥
الفوسفور ١١٠ ÷ ١	البوتاسيوم ١٦,٤	الكالسيوم ٣١,٣	السكانديوم ١,٥
الكبريت ١١٠ ÷ ٥	التيتانيوم ٢,٦	الفاناديوم ٤	الكروروم ٧,٩
البروم ١١٠ ÷ ٥	الحديد ١١,٢	الكوبالت ١٧,٩	النيكل ١٤,٦
الجرمانيوم ١٠ ÷ ٣	الغارصين ١٦,٩	الجاليوم ١,٨	المنجنيز ٠,٥
السيليكون ٠,٠٠٠٤	السيلينيوم ٨	الزئبق ٦٠,٧	الروبيديوم ٤٧,٨
اليود ١١٠ ÷ ١	اليوتريوم ١,٨	الزركون ٢,٣	النيوبيوم ٦,٦
الموليبيدينوم ١٧,٣	التلوريوم ٠,٠٠١	الروثينيوم ١٤,٩	الروديوم ٢٣
البيزموث ١٠	الفضة ٦٢,٩	الكاديوم ١٤,٧	الإنديوم ٣,٤

الزئبق	الذهب	البلاتين	الأيريديوم
١	٤٨,٨	٩,٤	٢١,٣
البولونيوم	الزئبق	البرونز	النيوبيوم
٠,٧	٠,٩	٤,٨	٥,٦
البرومثيوم	النيوديميوم	البراسيوديميوم	السترونشيوم
٢	١,٦	١,٥	١,٤
التريبيوم	الجادولينيوم	الإيوروبيوم	السمريوم
٠,٩	٠,٨	١,١	١,١
الثوليوم	الإيريبيوم	الهولميوم	الديسبورنيوم
١,٣	١,٢	١,١	١,١
البروتكتينيوم	الثوريوم	اللوتيتيوم	اليوتربيوم
٥,٦	٧,١	١,٥	٣,٧
الأميريكيوم	البلوتينيوم	النتونيوم	اليورانيوم
٠,٧	٠,٧	٠,٨	٣,٦
الزرنينخ	الثوريوم	النيوبيوم	السترونشيوم
٣,٨	٠,٠٠٠٢	٢,٦	٨,٧
الهافنيوم	اللانثانوم	الباريوم	السيوم
٣,٤	١,٩	٢,٨	٥,٣
الأرسنيوم	الرينيوم	التنجستن	التالوم
١٢,٣	٥,٨	١٨,٢	٨,١

جدول رقم (٥)

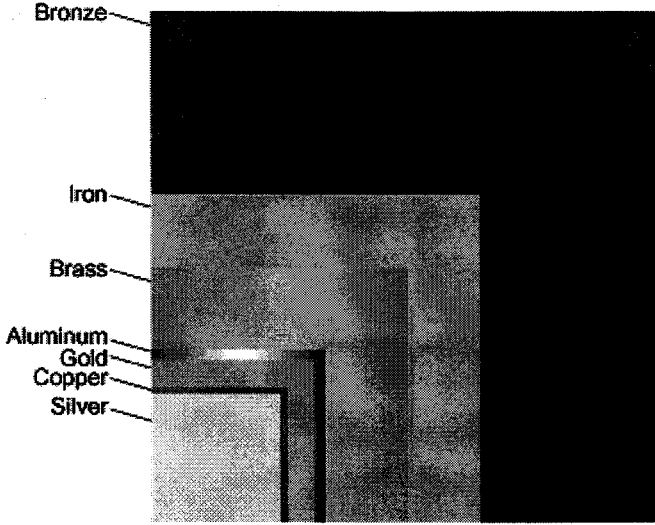
الموصلية الكهربائية للمواد مقارنة بالنحاس

الفضة	١٠٥%	النحاس الأصفر	٢٨%
النحاس	١٠٠%	الحديد	١٧%
الذهب	٧٠%	القصدير	١٥%
الألمنيوم	٦١%	الرصاص	٧%
النيكل	٢٢%	الفولاذ	٣-١٥%
الحارصين (الزنك)	٢٧%		

وإذا أخذنا الفضة مرجعا للمقارنة، وأعطينا موصليتها للكهرباء القيمة ١٠٠، فإن الموصلية الكهربائية لكل من النحاس والذهب ستكون ٩٧، و ٧٦ على التوالي، أي أن موصلية الذهب للكهرباء تبلغ ٧٦% من موصلية الفضة.

ونظرا لاختلاف المواد والفلزات في قيمة الموصلية الكهربائية للأحجام المتساوية لكل مادة منها، فإن الأحجام المطلوبة لتحقيق قيمة ثابتة من الموصلية الكهربائية تتفاوت تفاوتاً كبيراً حسب قدرة كل مادة أو فلز على التوصيل. ويوضح الشكل التالي الأحجام المطلوبة من عدد من المواد لتحقيق قيمة موحدة ثابتة للموصلية الكهربائية. ويتبين من هذا الشكل أن الفضة هي المادة التي يمكنها تحقيق ذلك بأقل حجم.

Required Material Sizes For
Equivalent Conductivity



٣- تتصف الفضة بقدرتها الفريدة على عدم إصدار شرر، مما يجعلها مادة مثالية لا نظير لها لكونها ذات فائدة عظيمة في أدوات أو أجزاء إحداث التماس الكهربائي. وتعد الفضة النقية أقل الفلزات مقاومة لهذا التماس **contact resistance**.

٤- تتصف الفضة بتفوقها على سائر الفلزات الأخرى في التطبيقات المتعلقة بتوصيل الترددات اللاسلكية (الراديوية) **radio frequency (RF) conductivity** ^(١).

٥- عندما تكون الدوائر الكهربائية مغلقة، فإن الفضة تنقل الأحمال الكهربائية العالية دون حدوث تسخين زائد، وذلك نظراً لموصلتها العالية للكهرباء. كما تتبدد الطاقة الناجمة من الأقواس الكهربائية **arc energy** التي تحدث في تلك الدوائر دون حدوث ارتفاع كبير في درجة الحرارة، ودون أية آثار ضارة على الأجزاء أو القطع الفضية المستخدمة لإحداث التماس الكهربائي.

٦- أحد الخواص العظيمة للفضة هي قدرتها على قتل البكتيريا. فهي عنصر سام وقاتل للميكروبات في العادة، ولكنها لا تضر الكائنات الحية الأرقى (مثل الرئيسيات، والإنسان). والتراكيز البسيطة من الفضة أو من أملاحها تفتك بالجراثيم والبكتيريا من خلال تأثيرها في أغشية خلاياها، حيث تؤدي إلى هتك أنسجة تلك الأغشية وتمزقها. ولا تستطيع البكتيريا أن تطوّر وسائل مناعة مضادة للفضة، كما هي الحال مع المضادات الحيوية^(٧). وتحظى نظم تنقية المياه، القائمة على استخدام الفضة، باهتمام كبير سواء لتعقيم مياه الشرب أو المياه التي تستعمل في الأغراض الصناعية. وربما كان ذلك أحد الأسرار التي تضمّنها قوله تعالى: (وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا. قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا) الإنسان/ ١٥: ١٦، حيث اختصّ الحقّ عز وجل الفضة دون الذهب في وصفة للآنية والأكواب التي يطاف بها على من يدخلون جنة الخلد في الآخرة. ومع أن هاتين الآيتين تتحدثان عن صورة من صور النعيم في الجنة، ومع معرفتنا بأن ما يشربه أهل الجنة (غير آسن)، أي يكون خاليا من أية بكتيريا، فإن الآيتين تلفتان انتباهنا إلى أهمية استخدام الفضة في تعقيم الأشربة. وهو ملمح إعجازي للقرآن يتطلب دراسة خاصة، لا سيما وأن هناك أبحاثا علمية كثيرة تناولت دور الفضة وأملاحها في التعقيم. ولا يتعارض ذلك مع في الرسول صلى الله عليه وسلم عن الأكل والشرب من أواني الذهب والفضة؛ إذ يمكن أن تستخدم الفضة لهذا الغرض دون أن تكون في صورة آنية. ويلاحظ أن هذه الصفة تفوق بما الفضة على الذهب، وإن كانت هناك مواد أخرى تفوق قدرة الفضة في التعقيم.

٧- للفضة قدرة عالية جدا على عكس **reflectivity** الضوء المرئي **visible light**. ولهذا تستخدم في صناعة المرايا، ويمكن ترسيبها لهذا الغرض على الزجاج أو بعض الفلزات الأخرى عن طريق الترسيب الكيميائي **chemical deposition** أو الكهربائي **electrodeposition** أو بالتبخير. وحينما يكون ترسيبها حديث العهد فإنها تكون أفضل عاكس معروف للضوء.

٨- للفضة قدرة فريدة على الالتحام بالفلزات الأخرى. وهذه الخاصية التي تنفرد بها الفضة هي السبب في استهلاك الفضة في العديد من التطبيقات المتعلقة باللحام **soldering** والتكسية **brazing**. فهي تستخدم في عمليات اللحام بديلا للقصدير والرصاص في العديد من التطبيقات الصناعية، وذلك نظرا لموصلتها العالية، وعدم إحداثها للتلوث البيئي (مثل الرصاص).

- ٩- للفضة رنين صوتي جميل ومتميز، وهو أفضل من رنين أي فلز آخر، بما في ذلك الذهب. ولهذا تفضل في صناعة الأجراس والأجهزة الموسيقية.
- ١٠- الفضة هي أكثر الفلزات بياضا.

نبذة عن علاقتي بالبحث في مسألة (سُقفا من فضة)

لما كانت للفضة تلك الخصائص الفريدة، فقد دفعني ذلك إلى التأمل في الآية رقم ٣٣ من سورة الزخرف، والربط بين قوله تعالى (سُقفاً من فضة) وبين إمكانية استخدام الفضة في تقنيات صناعة الطاقة الشمسية. وقد سألت نفسي: إذا كان المفسرون يرون إمكانية تحقيق ذلك للكافرين هوان الدنيا عند الله، فإذا كان الأمر كذلك، أولم يكن جديراً أن يُذكر الذهب بديلاً للفضة، والذهب أنفس وأغلى؟

وفي عام ١٩٧٧ لم تكن بحوث الطاقة الشمسية قد تقدمت كثيراً، وكانت التقنية الشمسية تعتمد أساساً على فكرة المجمعات الشمسية التي توضع على أسطح المنازل بهدف امتصاص حرارة الإشعاع الشمسي واستخدامها في تسخين المياه. وفي المؤتمر الأول حول الإعجاز العلمي في القرآن والسنة الذي عقد في إسلام آباد بباكستان عام ١٩٨٧، قدّمت بحثاً بعنوانه (لغات من الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في مجال علوم الأرض)، تطرقت فيه إلى ملامح الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عالم الفلزات وغيرها، وأشرت فيه إلى الإعجاز المتضمن في وصف السقف بأنها من فضة، وإمكانية استخدام هذه السقف في تزويد البيوت بمصادر نظيفة للطاقة لا تلوث البيئة، وقلت: "إن السُقْف الفضية سوف توفر جواً من الدفء وبخاصة في المناطق الباردة. ويمكن أن يستغل ذلك في أغراض شتى. ولعل سائلاً يقول: إذا كان في الإمكان استخدام الفضة، رغم غلاء ثمنها، في امتصاص حرارة الشمس وتوصيل هذه الحرارة إلى الماء المستخدم في تدفئة المنازل في المناطق الباردة، فإن ذلك غير مرغوب في المناطق الحارة أو الدافئة. ونرد على ذلك بقولنا: إن الطاقة الحرارية الناتجة من أشعة الشمس يمكن امتصاصها بألواح فضية واستخدامها في أغراض أخرى غير التدفئة، مثل الطهي. وإذا أضفنا إلى ذلك أن استخدام حرارة الشمس لا يسبب أي نوع من أنواع التلوث البيئي، لاتضح لنا عظمة التصوير القرآني في الآية ٣٣ من سورة الزخرف. وتجدر بنا الإشارة إلى أن اللام في قوله تعالى (ليوتمم) تتساقط في هذه الحالة مع ما ذكره المفسرون من أنها بمعنى (على)".

وقلت أيضا: "إذا كانت السخانات الشمسية توضع الآن على سقوف البيوت والمنشآت، فمن يدري ما يأتي غدا. وقد توصل الإنسان إلى تحويل الطاقة الشمسية إلى طاقة كهربائية. ومن الطبيعي أن توضع الأجهزة المستخدمة في التحويل على سقوف البيوت وعلى سطوح المصانع. وذكرت أن الآية الكريمة التالية (وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرُّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقُوطًا مِّنَ السَّمَاءِ مِن مَّعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ) تعبر عن ذلك، وتبين حقارة الدنيا وقلة خطرها وهوان أمرها، وأنها عند الله سبحانه وتعالى من الهوان، بحيث كان يجعل بيوت الكفرة ودرجها من الفضة".

وخلال الأعوام الخمسة عشرة الأخيرة شهد العالم تطبيقات واسعة وكبيرة للخلايا الشمسية، وأصبح من المألوف أن نرى صورا لبيوت تعلوها ألواح الخلايا الشمسية، والتي تبدو وكأنها سقف تعلو تلك البيوت. والجديد الذي جدّ في هذه السنوات هو استخدام الفضة على نطاق كبير في هذه الخلايا، مما يجعلنا نقول إن ما كنا نتصوره من خلال فهمنا للنص القرآني المتعلق بالسقف الفضية قد تحقق، وأن هذا في حد ذاته إعجاز علمي كبير للقرآن الكريم، وأن واجب الباحثين في الإعجاز العلمي للقرآن والسنة أن يسبقوا العلم الحديث في اكتشاف الحقائق العلمية ومحاولة الاهتداء إلى أسرارها قبل أن يكتشفها الباحثون الذين لا يعرفون شيئا عن القرآن والسنة أو حتى عن الإسلام.

لمحة تاريخية عن أبحاث الطاقة الشمسية

يمتد تاريخ استخدام الطاقة الشمسية إلى عصر ما قبل التاريخ، عندما استخدم الكهنة والرهبان الأسطح المذهبة لتركيز ضوء الشمس لإشعال نيران المذبح. وقد استفاد الإنسان منذ القدم من طاقة الإشعاع الشمسي مباشرة في تطبيقات عديدة، مثل: تجفيف المحاصيل الزراعية وتدفئة المنازل. كما استخدمها في مجالات أخرى وردت في كتب العلوم التاريخية. فقد أحرق أرخميدس الأسطول الحربي الروماني في حرب عام ٢١٢ ق.م. عن طريق تركيز الإشعاع الشمسي على سفن الأعداء باستخدام المئات من المرايا العاكسة والسدوع المعدنية. وفي العصر البابلي كانت نساء الكهنة يستعملن آنية ذهبية مصقولة كالمرايا لتركيز الإشعاع الشمسي للحصول على النار. وفي عام ١٦١٥ قام العالم سالون دي كوكس بتفسير ما يسمى بالحرّك الشمسي، وهو مجموعة من العدسات توضع في إطار معين، مهمتها تركيز أشعة الشمس على إناء محكم به ماء، وعندما يسخن الهواء داخل الإناء يتمدد ويضغط على الماء، ويدفعه ليخرج على شكل نافورة. واخترع العالم الفرنسي جورج لويس كليرك بوفن أول فرن شمسي لطهي الطعام. وفي عام ١٧٤٧، استطاع العالم الفلكي الفرنسي ج. كاسيني أن يصنع زجاجا حارقا قطره ١١٢ سنتيمترا، مكّنه من الحصول على حرارة زادت على ١٠٠٠ درجة

متوية كانت كافية لصهر قضيب من الحديد خلال ثوان. وصمّم العالم لافوازييه فرنا شمسيا مكّنه من الحصول على حرارة قدرها ١٧٦٠ متوية. وأجرى ستوك وهينمان في ألمانيا أول تجربة باستخدام الطاقة الشمسية لصهر السيليكون والنحاس والحديد والمنجنيز.

وفي عام ١٨٧٥م شهد عالم مجتمعات الطاقة الشمسية تقدما ملحوظا، حيث صممت آلة بخارية تولّد ١,٥ كيلو واط من الكهرباء. وفي عام ١٨٧٨ استطاع أبيل بيفر تشغيل ماكينة الطباعة التي تعمل بالطاقة الشمسية. وفي الفترة من ١٨٨١-١٨٨٤ اخترع العالم جون أريكسون دائرة أريكسون التي تعمل بالهواء الساخن لتحويل الطاقة الشمسية إلى طاقة حركة. واستطاع العالم الإنجليزي و. آدمز صنع غلاية تعمل بالطاقة الشمسية تنتج ٢ كيلو واط.

وكانت الآلات الشمسية التي اخترعت في الثمانينات من القرن التاسع عشر الميلادي تعمل فقط في وجود الشمس فهارا، ثم توقف عن العمل في أثناء الليل وفي فترات الغيوم. وفي عام ١٨٩٣م، حصل العالم م. ل. سيفري على براءة اختراع لآلة شمسية تعمل على مدار ٢٤ ساعة؛ حيث تخزن الطاقة فهارا في بطاريات خاصة، لتستخدم بعد غروب الشمس. وفي عام ١٨٨٨ توصل ويستون إلى طريقة لتحويل الطاقة الشمسية إلى طاقة ميكانيكية باستخدام ما يسمى بالازدواج الحراري، حيث يمكن توليد جهد كهربائي بين نقط الاتصال الساخنة والباردة بين معدنين مختلفين مثل النيكل والحديد. وفي عام ١٨٩٧ صنع العالم ه. س. ريجان جهاز ازدواج حراري لتوليد الكهرباء باستخدام الطاقة الشمسية.

وفي عام ١٩٠٤ ابتكرت في سانت لويس بأمريكا آلة شمسية تنتج ٥ كيلو واط كهرباء. وفي عام ١٩٠٥ نفذ بويل وإدوارد وإيمان أول آلة شمسية تنتج ١٥ كيلو واط من الكهرباء في صحراء كاليفورنيا. وفي عام ١٩١١ استطاع فرانك شومان تشغيل نظام شمسي ينتج ٣٢ كيلو واط من الكهرباء، وكان ذلك يعد مشروعا اقتصاديا آنذاك.

وفي عام ١٩١٢ اضطلع شومان وبويز بتنفيذ أول وأكبر محطة عالية لضخ مياه الري بواسطة الطاقة الشمسية، وذلك في المعادي قرب القاهرة. وأنتج هذا المشروع ٣٧ - ٤٥ كيلو واط على مدى خمس ساعات متصلة في اليوم، ولكن هذا المشروع أهمل بسبب نشوب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤.

وفي بداية عقد الثلاثينات من القرن العشرين بدأ الاهتمام بالخلايا الشمسية، وذلك بعد اكتشاف مزايا أشباه الموصلات **semiconductors**. وتركز التفكير حينذاك على إيجاد مواد وأجهزة قادرة على تحويل طاقة الشمس إلى طاقة كهربائية. وقد تم اكتشاف مادة تسمى السيلينيوم تتأثر مقاومتها الكهربائية بمجرد تعرّضها للضوء. وجاء هذا الاكتشاف دون توقّع، حيث إن أساس البحث كان لإيجاد مادة مقاومتها الكهربائية

عالية، لغرض تمديد كابلات للاتصالات في قاع المحيط الأطلسي. وأخذ الاهتمام بهذه الظاهرة يتطور حتى بداية الخمسينات من القرن نفسه، عندما استدعت برامج غزو الفضاء هذا النوع من مصادر توليد الطاقة لتشغيل الأقمار الصناعية، وغيرها من معدات الفضاء. وحينذاك قام الباحثون بتطوير شرائح عالية القوة من مادة السليكون تم وضعها بأشكال وأبعاد هندسية معينة بحيث تكون قادرة على تحويل أشعة الشمس إلى طاقة كهربائية بكفاءة تحويل ٦ %، ولكن كانت تكلفة ذلك عالية جداً.

وفي عقدي الخمسينات والستينات ازداد الاهتمام بالطاقة الشمسية. وفي هذا الصدد قام الباحثون في مختبر (أوديبو) للطاقة الشمسية في جبال (ألبرنيه) بفرنسا باستخدام صفوف من المرايا الفضية المغطاة بطبقة رقيقة من الزجاج لعكس نور الشمس مركزاً داخل فرن ضخم، تبلغ درجة حرارته ٣٨٠٠ مئوية. كما بدأت صناعة السخانات الشمسية بسعة ١٠٠ - ٢٠٠ لتر تشهد انتشاراً كبيراً، حتى بلغ عدد السخانات الشعبية فوق أسطح المنازل ربع مليون وحدة عام ١٩٦٠ باليابان. ومع ذلك، ظلت أبحاث الخلايا الشمسية قاصرة على مجال غزو الفضاء. وكان ارتفاع تكلفة توليد الكهرباء من هذه الخلايا (مقارنة بتكلفة توليدها من الفحم والنفط) سبباً في تعثر محاولات استغلال هذه الخلايا في الأغراض المدنية. ولكن، في النصف الثاني للستينات حينما أعلن العرب حظر تصدير النفط إلى الغرب، بدأت دول عديدة تعطي اهتماماً بالغاً للطاقة الشمسية واستخدامها. وأدى ذلك إلى تطور تقنية الطاقة الشمسية، حيث انتشر استخدامها في مجالات عديدة مثل: الاتصالات والنقل والإنارة... وغيرها. وأصبحت الطاقة الكهربائية المولدة من الشمس في المناطق التي تكون فيها الطاقة الشمسية عالية، مثل الدول العربية، تنافس المصادر التقليدية للطاقة من ناحية التكلفة الاقتصادية. ويتطلب ذلك تصميم أنظمة الطاقة الشمسية المتكاملة لتوليد الكهرباء وتخزينها، ومن ثم تحويلها من تيار مستمر إلى تيار متردد، مثل الكهرباء التي تستخدم في المنازل.

وهكذا يتضح من ذلك العرض التاريخي أن استخدام الفضة في صورة سقف من المرايا أو الخلايا المصنوعة من الفضة لم تقم به دولة من أي دول العالم حتى نهاية القرن العشرين تقريباً. ومن المتوقع أن يشهد العالم أفاقاً علمية جديدة في ميدان استغلال الطاقة الشمسية في الفترة المقبلة نتيجة التطور الكبير في تقنيات هذه الطاقة، وسيكون للفضة دور كبير في ذلك، وقد بدأت بشائر السقف التي من فضة في الظهور، وسوف نشير إلى ذلك فيما بعد.

أشباه الموصلات والخلايا الشمسية

تصنع معظم الخلايا الشمسية بصورة أساسية من العنصر الرابع عشر من الجدول الدوري لمندليف (أي العنصر المعروف باسم السيليكون). ويرجع ذلك إلى توافر عنصر السيليكون في الطبيعة، علاوة على أن العلماء والباحثين تمكنوا من دراسة هذا العنصر دراسة مستفيضة، وتعرفوا على خواصه المختلفة وملاءمته لصناعة الخلايا الشمسية. ولا يعني الاهتمام بصناعة تلك الخلايا من السيليكون أنه لا توجد مواد أخرى يمكنها أن تصلح لهذا الغرض. فثمة مواد مختلفة مناسبة لذلك، مثل مادة زرنيخيد الجاليوم **gallium arsenide** (التي تستعمل في الخلايا الشمسية للأقمار الصناعية وغيرها من معدات غزو الفضاء، ومثل كربيد الكاديوم، وفوسفيد الإنديوم، وكبريتيد النحاس)، إلا أن أغلبية تلك المواد تتسم بندرتها في الطبيعة، أو تكون لها خواص سامة ملوثة للبيئة، أو أن عمليات تصنيعها معقدة وباهظة التكاليف. ولا يزال بعضها تحت الدراسة والبحث. وعليه فقد تركّز الاهتمام على تصنيع الخلايا الشمسية السيليكونية. ومع ذلك، فالعملية الأساسية لكيفية عمل جميع أنواع هذه الخلايا متشابهة مع تلك التي تحدث للخلايا السيليكونية.

ويُعدّ السيليكون شبه موصل أو شبه فلزّ **semi-metal**. ويعكس هذا الاسم حقيقة أن السيليكون له خصائص كل من الفلزات والعوازل **insulators**. وهو يعدّ عنصراً متزناً من الناحية الكيميائية. والذرات في الفلزات، مثل النحاس، تحتوي في مداراتها الأخيرة على إلكترونات ذات ارتباط ضعيف بالنواة، مما يجعل هذه الإلكترونات تنفصل بسهولة من ذراتها وتتدفق في صورة تيار كهربائي عندما تتعرض لضغط كهربائي **electrical pressure** (فولطية **voltage**). أما الذرات في العوازل **insulators**، مثل الزجاج، فتتصف باحتوائها على إلكترونات ذات ارتباط قوي بالنواة، بحيث لا يمكنها أن تنفصل عن مداراتها وتتدفق في حالة تعرض هذه الذرات لفولطية كهربائية عالية. وإلكترونات الذرات في أشباه الموصلات تكون مرتبطة بنوياتها بشكل أقوى مما هي عليه الحال في الفلزات، ولكن في الوقت نفسه تكون قوة ارتباطها بالنويات أضعف مما هي عليه الحال في العوازل. ولعل ما هو مثير ومفيد أيضاً هو أن كمية الإلكترونات التي يمكنها أن تنفصل عن ذراتها وتنساب في صورة تيار، إذا تعرضت لضغط فولطي كهربائي، تتأثر بعدة عوامل، من أهمها: إدخال مقادير صغيرة من الشوائب (أو ما يعرف بالمُشيب (أي عامل الإشابة) **dopant** في بنية المادة شبه موصلة. والعنصران النمطيان للمواد المشيبيّة التي تستخدم للتأثير في السيليكون هما: الفوسفور والبورون.

أنواع الخلايا الشمسية

تنقسم الخلايا الشمسية التجارية إلى نوعين أساسيين:

١- الخلايا الشمسية السيليكونية المتبلورة: تصنع هذه الخلايا من السيليكون عبر إنماء قضبان من السيليكون أحادي أو عديد التبلور ثم تحول إلى رقائق وتعالج كيميائياً وفيزيائياً عبر مراحل مختلفة لتصبح خلايا شمسية. وتتسم هذه الخلايا بكفاءتها العالية، حيث تتراوح تلك الكفاءة بين ٩ - ١٧ ٪. والخلايا السيليكونية أحادية التبلور غالية الثمن، نظراً لصعوبة التقنية المستخدمة في إنتاجها، في حين أن الخلايا السيليكونية عديدة التبلور تعد أقل تكلفة من الخلايا أحادية التبلور وأقل كفاءة أيضاً.

٢- الخلايا الشمسية السيليكونية عديمة التبلور (الأمورفية):

تكون مادة هذه الخلايا من السيليكون، ولكن التكوين البلوري لها لا شكل له، ويرجع ذلك إلى وجود عنصر الهيدروجين أو عناصر أخرى أدخلت قصداً لتكسيبها خواص كهربائية مميزة. وهذا النوع من الخلايا ذو تكلفة زهيدة مقارنة بالخلايا السيليكونية المتبلورة.

المجال الكهربائي الداخلي للخلايا الشمسية:

تحتوي ذرة السيليكون في غلافها الخارجي على أربعة إلكترونات، في حين تحتوي ذرة الفوسفور على خمسة إلكترونات، أما ذرة البورون فتضم في غلافها الخارجي ثلاثة إلكترونات فقط. وبشكل السيليكون معظم الخلية الشمسية، ولكن بعض ذرات البورون تكون موجودة في الخلية، كما تكون هناك طبقة رقيقة جداً من السيليكون المشاب بالفوسفور على السطح الأمامي للخلية. وتقوم بعض الإلكترونات الخارجية "الزائدة" **extra outer electrons**، الموجودة في الطبقة المشابة بالفوسفور **phosphorous doped layer**، بالعبور وملء "الثقوب" **holes** الموجودة في الطبقة المشابة بالبورون **boron doped layer** (الناجمة من نقص عدد الإلكترونات في الغلاف الخارجي للبورون مقارنة بالفوسفور). وهذه الإزاحة الدائمة للإلكترونات تتسبب في تكوين مجال كهروستاتيكي ثابت **fixed electrostatic field** تحت واجهة سطح الخلية الشمسية مباشرة. وهذا المجال لا يمكن أن يحدث أبداً في أي فلز؛ حيث إن حالة "عدم التوازن" الكهربائي **electrical imbalance** سوف تتلاشى سريعاً. ولما كانت الإلكترونات في ذرات السيليكون ترتبط بنوياتها برباط قوي نسبياً، فإن حالة عدم التوازن هذه تظل قائمة وثابتة في البنية البلورية للسيليكون. وهذا المجال الإلكتروني الاستاتيكي الداخلي هو الذي يجعل الخلية الشمسية تقوم بعملها.

تحويل ضوء الشمس إلى كهرباء

على المستوى الذري، من المعروف أن الضوء يتكون من سيل من جسيمات نقية من الطاقة، تعرف باسم (الفوتونات) **photons**. وهذه الحزم الضوئية، أو "الكَمّات"، التي تتدفق وتنساب من الشمس في صورة جسيمات نقية من الطاقة، حتى إذا اصطدمت بالخلية الشمسية سطعت عليها. وفي واقع الأمر، فإن الفوتونات تحترق بلورة السيليكون، وتصدم ذرات السيليكون بصورة عشوائية (علما بأن مقدار كل من الفوسفور والبورون يكون ضئيلا **miniscule** مقارنة بمقدار السيليكون). وحينما يصطدم أحد الفوتونات بذرة السيليكون فإنه يؤينها، معطيا بذلك كل طاقته إلى الإلكترون الخارجي، وفي الوقت نفسه يسمح لهذا الإلكترون بأن ينفصل عن ذرته. ويختفي الفوتون من الكون، وتصبح كل طاقته وقتئذ في صورة طاقة حركية **movement energy** للإلكترون. ومن المعروف أن التيار الكهربائي ما هو إلا حركة الإلكترونات المشحونة بالطاقة.

وثمة سبب آخر لاستخدام السيليكون في الخلايا الشمسية، وهو أن الطاقة المطلوبة لتأين إلكترون السيليكون تتوافق بشكل جيد مع طاقة الفوتونات الآتية من الشمس. وإذا كانت طاقة الفوتونات أقل مما هو مألوف (كأن يكون الطيف الشمسي مكونا من مقدار كبير من الإشعاع الأحمر أو الأشعة تحت الحمراء) فإنه لن يكون هناك قدر من الطاقة الشمسية التي تكفي لتحرير الإلكترونات وإطلاقها من عقاها (المتمثل في الروابط التي تشدها إلى جهة النواة، وتُحوّل دون تفككها وانفصالها من مداراتها). وإذا كانت الفوتونات تتمتع بامتلاكها قدرا كبيرا من الطاقة (كأن يكون الطيف الشمسي محتويا على المزيد من الإشعاع الأزرق أو الإشعاع فوق البنفسجي)، فإن جميع الطاقة، التي تزيد على القدر المطلوب لإطلاق سراح الإلكترون وفصله عن النواة، سوف تضيع سدى، وسوف تفقد في صورة حرارة سرعان ما تتلاشى.

والإلكترونات التي يطلق الضوء سراحها في أية خلية شمسية يتم دفعها إلى واجهة (جبهة) الخلية عن طريق المجال الإلكتروستاتيكي الداخلي. وتفقد هذه الإلكترونات قدرا ضئيلا من طاقتها في أثناء دفعها عبر ذلك المجال، ولكن ينتهي بها المطاف وقد حملت نحو نصف فولت من القوة الكهربائية. وهذا النصف فولط هو القوة الكهربائية المحركة **voltage** التي تتصف بها الخلية الشمسية. ولكن نصف الفولط لا يسمن ولا يغني من ظمأ الطالبين الطامعين في اقتناص طاقة الشمس وتدجينها بتحويلها إلى كهرباء طائعة طيبة! ولهذا فتفتق ذهن أهل العقد والحل في مجال تقنية الإشعاع الشمسي عن حل عملي يتمثل في ربط الخلايا الشمسية بحيث يمسك بعضها بزمام بعض، لتكوين ما يعرف بالوحدة (التركيبة) الشمسية **solar module** النمطية، التي تُصَفُّ فيها

الخلايا على التوالي بحيث تلامس جبهة الخلية الأولى ظهر الخلية الثانية التي تجاورها، ويستمر الحال على هذا المنوال بين جميع الخلايا. وتتدفق الإلكترونات على سطح كل خلية شمسية، وعبر خطوط شبكية **gridlines** من الفضة تغطي سطح الخلية الشمسية بأكمله. وفي حالة كهذه، حيث تُستخدم مادة فائقة التوصيل للكهرباء (هي الفضة)، فإن التيار الكهربائي ينساب بسلاسة وسهولة إلى أسرطة **ribbons** من النحاس قد تم طلاؤها بطبقة رقيقة مسطحة من القصدير **flat tin-coated copper** على واجهة الخلية عن طريق اللحام **soldering**، ومن هناك ينساب التيار الكهربائي بسلاسة إلى ظهر الخلية الشمسية المجاورة.

وعندما يمر التيار عبر أية خلية شمسية فإنه يُستحث بالفوتونات التي تصطدم بكل خلية وتدخلها، ويكتسب هذا التيار نصف فولط في كل خلية. ومع مرور الوقت الذي يستغرقه التيار في التدفق عبر وحدة شمسية كاملة (يكون قوامها عادة ٣٦ خلية متصلة على التوالي) يكتسب التيار ٣٦ × ٠,٥ فولط، أي ١٨ فولط. وعند الحاجة إلى مزيد من الفولط (على سبيل المثال: لشحن بطارية سعتها ٤٨ فولطاً، أو لتشغيل محوّل **inverter** قدرته ٦٠ فولطاً) يتم توصيل الوحدات الشمسية **solar modules** أيضاً لتكوين مصفوفة شمسية **solar array** قادرة على إنتاج الجهد الكهربائي المطلوب. ولا نكون قد ضربنا بعضنا في عالم البلاغة والخيال إذا وصفنا كل مصفوفة من أمثال هذه المصفوفات بأنها سقف شمسي.

وحيثما يمر التيار الكهربائي الشمسي عبر المحوّل أو البطارية فإنه يتخلى عن طاقته للحمل الكهربائي (جهاز مثلاً) الذي يتم تشغيله. ولا تخفي الإلكترونيات، ولا تُستفد **used up** أو تُستهلك في هذه العملية. وكل ما يحدث لها أنها تفقد طاقتها، أي جهدها. ويواصل التيار مسيرته المستمرة عبر الأسلاك ليعود أدراجه من حيث أتى، حتى يبلغ الوحدة والخلايا الشمسية التي كان قد انطلق منها. وتووب الإلكترونيات، التي فقدت ما كانت تحملها على كواهلها من طاقة، إلى السيليكون، وعندئذ تكون على أهبة الاستعداد لكي تشحن من جديد بالمزيد من الفوتونات التي ترد إليها من الشمس. وتظل هذه العملية بشقيها: الشحن والتفريغ في تعاقب مستمر وتدفق متواصل ما دام هناك مدد من الفوتونات يهبط من السماء على السقف الشمسية. وإذا مرّت سحابة أمام قرص الشمس فإن معدل تدفق الفوتونات يتضاءل إلى حدّ كبير، ومن ثم فإن مقدار التيار الكهربائي الذي ينساب من الخلايا ومن المصفوفة الشمسية بأكملها سوف ينخفض أيضاً تبعاً لذلك. وحينما ترحل الغمامة بعيداً، ويعود ضوء الشمس إلى حالته الأولى من الإشراق والسطوع، فإن تدفق التيار الكهربائي يتصاعد معه حتى يستردّ مستواه الذي كان عليه قبل أن تتوارى الشمس بالحجاب. وحينما تغرب غزاة السماء في المساء، ويختفي قرصها البرتقالي وراء خط الأفق، فإن التيار الكهربائي يتقلص قدره، حتى إذا عسعس الليل، وخيم الظلام، ألقى التيار عصا التسيار، ولا يعود قادراً على أن ينهض من عقال المصفوفة الشمسية. وفي اليوم التالي، وبعد أن يدرك الخلايا الشمسية الصباح، تعاود عملية إنتاج التيار الكهربائي سيرها تلقائياً مرة أخرى.

ومن الجدير بالذكر أن أول استخدام للألواح الشمسية المصنعة من مادة السليكون كان في مجال الاتصالات في المناطق النائية، ثم استخدمت لتزويد الأقمار الصناعية بالطاقة الكهربائية، حيث تقوم الشمس بتزويد الأقمار الصناعية بالطاقة الكهربائية، إذ إن الشمس تكون ساطعة في الطبقات العليا من الغلاف الجوي لمدة (٢٤) ساعة في اليوم. ولا زالت هذه الألواح تستخدم حتى يومنا هذا ولكن بكفاءة تحويل تصل إلى ١٦ % وعمر الافتراضي يتجاوز العشرين عاماً.

كيف تعمل الخلايا الشمسية؟

تُعدّ الخلايا الشمسية بمثابة محولات **converters** للطاقة. فهي تستخدم إحدى صور الطاقة (ضوء الشمس) باعتبارها وقوداً، وتحوّلها إلى صورة أخرى من صور الطاقة (الكهرباء). وحينما يتم تقليل الوقود أو إيقافه، كما في حالة حجب قرص الشمس بالغمام، أو عندما تغرب الشمس وتختفي وراء خط الأفق في المساء، فإن عملية التحويل تتباطأ أو تتوقف بصورة كلية. وحينما تسطع أشعة الشمس من جديد فإن عملية التحويل تستأنف نشاطها فوراً. ولا تقوم الخلايا الشمسية بتخزين أية كهرباء، ولكنها فقط تحوّل أشعة الشمس إليها عندما تكون هذه الأشعة متوافرة. وللحصول على طاقة كهربائية بالليل، فإن النظام الكهربائي الشمسي يتطلب نوعاً ما من أنواع معدات تخزين الطاقة، هو عادة البطاريات، وذلك لسحب الطاقة منه وقتئذ بدلاً من سحبها من الخلايا الشمسية.

ويتم تحويل طاقة الإشعاع الشمسي إلى كهرباء بصورة مباشرة من خلال استخدام الخلايا الشمسية التي تستخدم فيها مادة السليكون أو غيرها من أشباه الموصلات.

والتيار الكهربائي الذي يتم إنتاجه من الخلايا الشمسية، يتم تجميعه من خلال الموصلات الفضية، ومن ثم يستخدم لتشغيل المحركات الكهربائية.

وما يبدو مدهشاً في شأن الخلايا الشمسية أنها تقوم بعملية التحويل من دون استخدام أية أجزاء متحركة، ومن غير ضوء أو تلوث بيئي أو إشعاع ودون الحاجة إلى صيانة. والخصائص التي تتصف بها أشباه الموصلات هي التي تجعل عملية التحويل ممكنة.

ومن الجدير بالذكر أنه في أية خلية شمسية سليكونية تقليدية يتم "طبّع" مواضع التماس الأمامي **front contact** على السطح العلوي **top surface** للخلية باستخدام تقنية الطباعة المنخلية **screen printing** (المماثلة لما هو معروف في عالم النسيج باسم الطباعة الحريرية). وفي هذه الطباعة يتموضع عجينة لاصقة غنية بالفضة **silver-loaded paste** على الخلية، حتى إذا جفّت صارت صالحة

لتوصيل التيار الكهربائي. ويحظى هذا النوع من الخلايا السليكونية بثقة العملاء في أسواق الطاقة الشمسية، لا سيما وأن فاعليته لا تزال محل تقدير العارفين المخضرمين في شئون الطاقة المتجددة. ولكن هذه الخلايا، التي تدرت بجلل الفضة في مواضع معدودات على إهابها السيليكوني، ذات قدرات غير كبيرة في مجال تحويل الطاقة الشمسية إلى كهرباء، إذ تتراوح كفاءتها في هذا المضمار بين ١٢ و ١٥ %.

وقد قام مركز البحوث الخاصة بالكهرباء الضوئية **the Photovoltaics Special Research Centre** في جامعة نيو ساوث ويلز **University of New South Wales** باختراع تقنية جديدة في مجال الخلايا الشمسية تعرف باسم الخلية الشمسية ذات مواضع التماس الدفين **The Buried Contact Solar Cell** التي يرمز إليها بالاختصار **(BCSC)**. وتعدّ هذه الخلية من أنجح تقنيات الخلايا الشمسية التي تم تطويرها في الأعوام الخمسة عشر الأخيرة. أما المركز المذكور فيعدّ رائدا على مستوى العالم في مجال أبحاث الخلايا الشمسية والاتجار **commercialization** فيها، وتعدّ الخلية الشمسية ذات مواضع التماس الدفين أحد أبرز إنجازاته الناجحة. ويتم تصنيع هذه الخلية باستخدام مخطاط **scriber** ليزري أو ميكانيكي لتكوين أخاديد في السطح العلوي للخلية، يتم ملؤها بالنحاس. وتزيد كفاءة هذه الخلية على ٢٠ %، وهي مع ذلك ذات تكلفة أقل من الخلايا السليكونية التقليدية.

وإذا كان النحاس المستخدم في هذه التقنية قادرا على تحقيق هذا المستوى الكبير من الكفاءة، فإن استخدام الفضة محله سوف يرفع كفاءة الخلايا الشمسية إلى معدل أكبر بكثير. ولكن السبب الرئيسي للاتجاه إلى النحاس هو رخص ثمنه مقارنة بالفضة.

السقف الفضية توشك أن تصبح حقيقة:

كانت إحدى الصحف الأمريكية قد كشفت النقاب في عددها الصادر في ٢٧ يونيو ١٩٩٧ عن مبادرة للبدء في مشروع كبير تبنته إدارة كلينتون آنذاك يستهدف توسيع نطاق استخدام طاقة نظيفة يتم توليدها عن طريق استعمال الخلايا الشمسية التي تصنع مكوناتها من فضة. وقال الرئيس الأمريكي (بل كلينتون) يومذاك في خطاب ألقاه أمام مؤتمر بيني نظمته الأمم المتحدة: "سوف نعمل مع رجال الأعمال والجماعات والوحدات والجمهور لاستغلال طاقة الشمس لتقليل الاعتماد على الوقود الأحفوري بتركيب الواح شمسية على أكثر من مليون سقف في مختلف أنحاء وطننا. إن اقتناص دفاء الشمس يمكن أن يساعدنا على تخفيض معدل درجة حرارة الأرض".

وقد لخص (فدريكو بينا Federico Pena) سكرتير الطاقة في الإدارة الأمريكية وقتذاك تفاصيل "مبادرة المليون من السقف الشمسية Million Solar Roofs Initiative" بقوله: "إن تنفيذ هذا البرنامج يتطلب القيام بخطوتين: الأولى: زيادة فاعلية الموارد الفيدرالية المتاحة لتشجيع مبيعات الطاقة الشمسية. والأخرى: العمل مع السلطات المحلية والشركات المعنية والمتخصصة في هذه التقنية لإيجاد طرق لتوسيع نطاق استخدام التقنية الشمسية بسرعة. وبالفعل فإن المرافق تتسابق في مختلف أنحاء الدولة لكي تلبي الطلبات على الطاقة الشمسية. ففي أريزونا فإن الاستجابة غير المسبوقة (التي ليس لها مثيل) لبرنامج (شركاء في الطاقة الشمسية) Solar Partner Program الذي تم إدخاله مؤخرا في فلاجستاف Flagstaff قد شجع الشركة على أن تبدأ في خطط عملية لتقديم خيار الطاقة الشمسية للعملاء في مختلف أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية بحلول هذا الخريف".

وقد سارت ولاية ديترويت (ميتشيغان) على المسار نفسه. فقامت إدارة الطاقة هناك مؤخرا بإنشاء مرافق كهربائي ضوئي photovoltaic facility بهدف توفير الكهرباء بزيادة مقدارها 6.59 دولارات لكل شهر. وقد كان الطلب على الطاقة الناتجة من استخدام تقنية هذا المرفق كبيرا، حتى أنه كان لدى الشركة قائمة انتظار طويلة لتلبية طلبات الراغبين في الاستفادة من هذه التقنية. وفي الحقيقة قامت شركة (ديترويت إديسون Detroit Edison) ببناء نظم كهربائية ضوئية photovoltaic systems إضافية ذلك العام باستخدام مكونات من الفضة silver components، وهي تعمل على استخدام ألواح الطاقة المتجددة renewable energy في المدارس.

ويقول المسئولون في إدارة الطاقة (Department of Energy (DOE إن لديهم خططا ومشروعات عملاقة للطاقة الشمسية في كل ولاية تقريبا، وإن الاهتمام بتنفيذ هذه المشروعات يزداد باستمرار. وقد اقترح باتاكي Pataki حاكم نيويورك في عام ١٩٩٧ أن يسمح للمواطنين بتركيب ألواح شمسية على سقوف منازلهم rooftop solar panels وبيع الكهرباء الزائدة على حاجتهم إلى مرفق الكهرباء، ليقبلوا بذلك قيمة فواتير الكهرباء.

ويقول جيفري مازور Jeffrey Mazur مهندس أشباه الموصلات semiconductor engineer في قسم التقنية الكهربائية الضوئية Photovoltaic Technology Division في إدارة الطاقة بالولايات المتحدة الأمريكية: تستخدم عجينة الفضة silver paste في ٩٠% من جميع الخلايا الكهربائية الضوئية السيليكونية البلورية crystalline silicon photovoltaic cells التي تمثل أغلب الخلايا الشمسية. وجميع الخلايا السيليكونية المستخدمة في الفضاء لتزويد الأقمار الاصطناعية بالطاقة اللازمة لتشغيلها تستخدم الفضة في صورة فلز متبخر evaporated metal لعمل التماس الكهربائي electrical contact.

والكهرباء التي يتم توليدها باستخدام الخلايا الضوئية الكهربائية يمكن الاعتماد عليها بشكل كبير. فبمجرد أن تصطدم أشعة الشمس بهذه الخلايا فإن القدرة الكهربائية تبدأ في التدفق والسريان. إن الأشعة الشمسية التي تسقط على الخلايا السيليكونية تولد الإلكترونات، التي تقوم الموصلات الفضية بتجميعها لكي تصبح تيارا كهربائيا مفيدا. والموصل الفضي، الذي يعزز من عملية انعكاس ضوء الشمس، يتم تطبيقه في صورة عجينة زجاجية تتكون من الفضة بحد أدنى مقداره ٩٠%، بحيث تغطي الفضة أعلى البلورة السيليكونية وأسفلها بالكامل. وحينما تستثار البلورة السيليكونية بسقوط أشعة الشمس عليها، فإن الفضة تكوّن دائرة كهربائية كاملة، فتجمع الطاقة الشمسية وتوصلها إلى خطوط تزويد الطاقة الكهربائية. ويمكن مجموعة من سقوف الخلايا الشمسية التي توضع على أسطح البيوت أن تولد كمية من الطاقة تكفي لتزويد المنزل باحتياجاته منها، بالإضافة إلى شحن البطاريات أيضا لتزويد الطاقة بعد حلول الظلام ودخول الليل.

وقد ناقش (فدريكو بينا) في أوائل يونيو ١٩٩٧ موضوع نمو سوق الطاقة الشمسية بالولايات المتحدة. وقال في هذا الصدد لممثلي مرفق الطاقة هناك: "إن عددا كبيرا من الأمريكيين صوتوا لصالح استخدام هذه الطاقة، باستخدام أجهزة الحواسيب المحمولة. وإن الأمريكيين فضلوا هذا الخيار لاعتبارات بيئية، وإنهم على استعداد لتحمل بعض التكاليف الإضافية من أجل المنتجات والمواد الخضراء الصديقة للبيئة.

وفي ولاية أريزونا اختار المستهلكون المحليون شراء وحدات شمسية solar units قدرتها ١٠٠ وات. وسُمح لكل مستهلك بشراء ٢٠ وحدة فقط. وتصل التكلفة الإجمالية لها نحو ثلاثة دولارات شهريا. وقد تختلف هذه التكلفة قليلا بين مستهلك وآخر اعتمادا على نوع التيار الكهربائي الذي يستخدمه كل مستهلك.

ويقول (جون ثورنتون John Thornton) الخبير في أسواق معدات الطاقة الشمسية في المعمل الوطني للطاقة المتجددة National Renewable Energy Laboratory بمدينة جولدن Golden في ولاية كولورادو الأمريكية: "في الوقت الذي يتزايد فيه الطلب على الطاقة الشمسية في الولايات المتحدة الأمريكية، فإنه يتسارع أيضا بصورة أسية في سائر أنحاء العالم. ويتزايد معدل تصدير التقنية الشمسية بمقدار ١٥ إلى ١٨ % كل عام.

ويقول (بول بيتمان Paul Bateman) المدير التنفيذي لمعهد الفضة The Silver Institute بالولايات المتحدة الأمريكية: إن نحو الطلب العالمي على الطاقة الشمسية يعدّ بمثابة سوق جديد للفضة، ذلك الفلز الذي يتصف بخصائص فريدة لا ينافسها فيها فلز آخر. فقدرته الفائقة على توصيل الكهرباء، وحساسيته الكبيرة للحرارة، وقدرته الهائلة على عكس الضوء، كل ذلك يجعله مصدرا أساسيا لا غنى عنه لتقنية الطاقة الشمسية".

وهكذا، سوف تشهد الفترة المقبلة انتشارا لسُفّ الخلايا الشمسية، التي تشكل الفضة مكونا رئيسيا من مكوناتها. ومن يدري فرما تتطور تقنيات الخلايا الشمسية بصورة كبيرة، بحيث يصبح بالإمكان الاستغناء عن أشباه الموصلات (أي السيليكون وزرنيخيد الغاليوم وغيرهما)، واستخدام الفضة في صناعة البلورات التي تولد الكهرباء، وهو الأمر الذي يمكن تحقيقه عن طريق التدخل في التركيب الإنشائي لمعدن الفضة، وبذلك تتحقق النبوءة القرآنية، ويثبت لكل ضال مدى هوان هذه الحياة الدنيا عند الله، بحيث لو شاء لجعل لبيوت الكافرين سقفا من فضة خالصة، أو من فضة وزخرف (ذهب).

وكانت الدوريات العلمية التي تناولت حدث إطلاق سفينة الفضاء الأمريكية إلى المريخ قد أشارت إلى أن كلا من المركبتين: رائد المريخ (مارس باثفايندر Mars Pathfinder) والهابط (لاندر Lander) والعربة التي سميت بالريل المؤقت (سوجورنر Sojourner) تستمد جميعها طاقتها من خلايا شمسية مصنوعة من مادة زرنيخيد الجاليوم gallium arsenide، وأن هذه الخلايا تنتج الكهرباء بعد أن يتم تغطيتها بطبقة من الذهب (تعمل كمادة لاصقة)، ثم توضع فوقها طبقة أممك من الفضة، لكي تعمل موصلا أوليا

للكهرباء **primary electrical conductor**. كما أن ظهور هذه الخلايا تغطي أيضا بالذهب (كمادة لاصقة) ثم يوضع فوق الذهب طبقة أخرى من الفضة لكي تعمل موصلا رئيسيا **main conductor** للكهرباء.

وهذا الخبر العلمي الذي يشير إلى الجمع بين الفضة والذهب في الخلايا الشمسية يضيف لنا بعدا جديدا في فهم آيات سورة الزخرف، ويتوافق مع ما قاله بعض المفسرين في أن المراد بقوله تعالى (وزخرفا) يعني الذهب، وأن السقف التي لو أراد الله أن يجعلها للكافرين لجعلها تتكون من الفضة (بصورة أساسية) والذهب (بنسبة أقل). ولعل لصق الفضة فوق الذهب، وزيادة سمك طبقة الفضة على سمك طبقة الذهب، يوضح لنا عظمة الإعجاز العلمي في القرآن في تخصيص الفضة بالذكر (لا الذهب) في قوله تعالى (سقفا من فضة).

وإذا كانت سقف الخلايا الشمسية (التي هي من فضة وذهب) قد صارت أمرا واقعا في رحلات غزو الفضاء، فإن انتشار هذه السقف على أسطح البيوت ليس بمستبعد ولا مستحيل. والتكلفة الاقتصادية هي السبب في عدم انتشار هذه التقنية في مصفوفات الخلايا الشمسية التي توضع على البيوت والمنشآت.

ولعل استخدام السيليكون والفضة في صناعة الخلايا الشمسية يعضد الرأي القائل بأن حرف الجر (من) في قوله تعالى (سقفا من فضة) هو للتبعيض. فالسقف ليست كلها فضة أو سيليكونا، ولكنها من الاثنين.

ومن الجدير بالذكر أنه في ٦ يوليو ١٩٩٧، تم تشغيل العربية المريخية (سوجورنر) **Sojourner** عن طريق إشارة تلقتها من الأرض (على بعد ١٤٣ مليون ميل)، وتحركت العربية من مكانها داخل المركبة (لاندر) إلى الصخور المجاورة على كوكب المريخ بعد أن دار محركها بفعل الكهرباء التي تم تجميعها بوساطة الفضة من الخلايا الشمسية المثبتة على ظهر العربية.

أما بالنسبة للمعارج والأبواب والسرر المتخذة من الفضة، فهذا أمر ممكن تحقيقه صناعا لمن آتاهم الله المال وغرقم الحياة الدنيا وزخرفها. ويمكن أن نقول إن بالإمكان تشغيل المعارج والأبواب والسرر الفضية بالطاقة الكهربائية المولدة من سقوف الخلايا الشمسية الفضية. وحركة المصاعد (المعارج) تتم بالكهرباء. وثمة وسائل حديثة لفتح الأبواب وإغلاقها بالكهرباء أيضا. كما يمكن رفع مستوى الأسرة أو خفضه بالكهرباء. وقس على ذلك في كل المعدات والأجهزة المستعملة في البيوت.

ولعل المعنى الذي قاله المفسرون في تأويل آيات سورة الزخرف المتصلة بالفضة لا يختلف مع ما وصلنا إليه في الجزء العلمي من هذه الدراسة. ولعلنا بذلك نكون قد ألقينا الضوء على قوله تعالى: (جعلنا لمن يكفر بالرحمن ليوثهم سففا من فضة)، وأوضحنا السر في ذكر الفضة لا الذهب.

وإذا كان استخدام الفضة في سقْف الخلايا الشمسية لا يزال إلى الآن مكلفا وغاليا، فإن تعميم الاستفادة منها في الدول النامية غير مستبعد. وليس ذلك على الله بعزيز.

والله أعلم.

أهم المصادر والمراجع:

- (١) القرآن الكريم
- (٢) صحيح البخاري
- (٣) صحيح مسلم
- (٤) سنن الترمذي
- (٥) تفسير الطبري
- (٦) تفسير ابن كثير
- (٧) تفسير القرطبي
- (٨) الكشاف للزمخشري
- (٩) تفسير أبي السعود
- (١٠) تفسير النسفي
- (١١) تفسير الألوسي
- (١٢) زاد المسير لابن الجوزي
- (١٣) تفسير السيوطي الموسوم بالدر المنثور
- (١٤) تفسير البهوي
- (١٥) تفسير الخازن
- (١٦) في ظلال القرآن لسيد قطب
- (١٧) صفوة التفاسير للصابوني
- (١٨) صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسنين محمد مخلوف
- (١٩) زبدة التفسير من فتح القدير للشوكاني
- (٢٠) الحجة في القراءات السبع
- (٢١) لسان العرب لابن منظور
- (٢٢) القاموس المحيط للفيروزآبادي
- (٢٣) مختار الصحاح للرازي
- (٢٤) المعجم الوسيط

- (٢٥) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني
 (٢٦) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم
 (٢٧) تكنولوجيا الطاقة البديلة لسعود عياش
 (٢٨) أبحاث المؤتمر الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة (بحث: نحات من الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في مجال علوم الأرض للباحث)

- (29) W.W. Porterfield in *Inorganic chemistry, a unified approach*, Addison Wesley Publishing Co., Reading Massachusetts, USA, 1984.
- (30) I.S. Butler and J.F. Harrod in *Inorganic Chemistry, Principles and Applications*, Benjamin Cummings, California, USA, 1989.
- (31) G.W.C. Kaye and T.H. Laby in *Tables of physical and chemical constants*, Longman, London, UK, 15th edition, 1993.
- (32) N.N. Greenwood and A. Earnshaw in *Chemistry of the Elements*, 2nd edition, Butterworth, UK, 1997.
- (33) J.E. Huheey, E.A. Keiter, and R.L. Keiter in *Inorganic Chemistry : Principles of Structure and Reactivity*, 4th edition, HarperCollins, New York, USA, 1993.
- (34) P.A. Cox in *The Elements : Their Origin, Abundance, and Distribution*, Oxford University Press, Oxford, UK, 1989.
- (35) *McGraw-Hill Encyclopedia of Science & Technology*, 7th ed., 1992, McGraw-Hill, New York, USA.

- (36) A.M. James and M.P. Lord in Macmillan's Chemical and Physical Data, Macmillan, London, UK, 1992.
- (37) D.R. Lide, (Ed.) in Chemical Rubber Company handbook of chemistry and physics, CRC Press, Boca Raton, Florida, USA, 79th edition, 1998.
- (38) J.A. Dean (ed) in Lange's Handbook of Chemistry, McGraw-Hill, New York, USA, 14th edition, 1992.
- (39) <http://www.nationmaster.com/encyclopedia/Thermal-conductivity>
- (40) <http://www.alrawae.com/lessons/geology/geo9.htm>
- (41) <http://www.paaet.edu.kw/it/tecnology.htm>
- (42) <http://www.silverinstitute.org/news/prsolar.htm>
- (43) <http://www.pv.unsw.edu.au/info/bcsc.html>
- (44) <http://www.khayma.com/madina/sun-power.htm>
- (45) http://www.astropower.com/how_solar_cells_work.htm
- (46) <http://www.pv.unsw.edu.au/info/bcsc.html>.
- (47) <http://www.bfi.org/Trimtab/spring02/solarcells.htm>
- (48) http://www.audusa.com/silver_has_the_highest_electrical.htm
- (49) http://www.blueseas.com/techtalk/materials_techbrief.htm
- (50) http://www.proplate.com/platers_corner.htm
- (51) <http://www.nationmaster.com/encyclopedia/Thermal-conductivity>
- (52) <http://www.scescape.net/~woods/elements/silver.html>
- (53) <http://www.kp44.org/ftp/ElectricalConductivityOfMaterials.htm>

الهوامش

(١) نقل المفسرون اختلاف القراءة في لفظ كلمة (سُقفا) في الآية محل بحثنا. فمنهم من قرأها (سُقفا) بصيغة الإفراد، ومنهم من قرأها (سقوفا) بصيغة الجمع، ومنهم من قرأها (سُقفاً) بصيغة جمع الجمع. يقول القرطبي: "قرأ ابن كثير وأبو عمرو سقفا بفتح السين = وإسكان القاف على الواحد ومعناه الجمع اعتباراً بقوله تعالى: (فخَرَّ عليهم السقف من فوقهم) النحل/ ٢٦، وقرأ الباقون بضم السين والقاف على الجمع مثل رهن ورهن. قال أبو عبيد: ولا ثالث لهما. وقيل: هو جمع سقيف مثل كتيب وكتَّب ورغيف ورُغِف، قاله الفراء. وقيل: هو جمع سقوف فيصير جمع الجمع: سقف وسقوف نحو فلس وفلوس، ثم جعلوا فعولاً كأنه اسم واحد، فجمعوه على فُعل. وروي عن مجاهد (سُقفا) بإسكان القاف..."

ويقول الطبري شيخ المفسرين وإمامهم في هذا الصدد: "واختلفت القراء في قراءة قوله (سُقفا)، فقرأته عامة قراء أهل مكة وبعض المدنيين وعامة البصريين (سُقفا) بفتح السين وسكون القاف، اعتباراً منهم ذلك بقوله: (فخَرَّ عليهم السُقْف من فوقهم) النحل/ ٢٦، وتوجيهاً منهم ذلك إلى أنه بلفظ واحد معناه الجمع. وقرأه بعض قراء المدينة وعامة قراء الكوفة (سُقفا) بضم السين والقاف، ووجهها إلى أنها جمع سقيفة أو سقوف. وإذا وُجِّهَتْ إلى أنها جمع سقوف كانت جمع الجمع؛ لأن السقوف جمع سقف، ثم تجمع السقوف سُقفاً، فيكون ذلك نظير قراءة من قرأه: (فُوْهُنْ مقبوضة) البقرة/ ٢٨٣ بضم الراء والهاء، وهي الجمع واحداها رهان ورهون، وواحد الرهون والرهان: رهن. وكذلك قراءة من قرأ: (كلوا من ثمره) الأنعام/ ١٤١ بضم التاء والميم... والصواب من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان متقاربتا المعنى، معروفتان في قراءة الأمصار، فأبَيتهما قرأ القارئ فمصيب".

وقال القرطبي: "قرأ ابن كثير وأبو عمرو (سُقفا) بفتح السين وإسكان القاف على الواحد ومعناه الجمع اعتباراً بقوله تعالى: (فخَرَّ عليهم السقف من فوقهم) النحل/ ٢٦، وقرأ الباقون بضم السين والقاف على الجمع مثل رهن ورهن. قال أبو عبيد: ولا ثالث لهما. وقيل: هو جمع سقيف مثل كتيب وكتَّب ورغيف ورُغِف، قاله الفراء. وقيل: هو جمع سقوف فيصير جمع الجمع: سقف وسقوف نحو: فلس وفلوس، ثم جعلوا فعولاً كأنه اسم واحد، فجمعوه على فُعل. وروي عن مجاهد (سُقفا) بإسكان القاف..."

وجاء في (روح المعاني): "وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح السين والسكون على الإفراد لأنه اسم جنس على الواحد وما فوقه وهو المراد بقريئة البيوت وقرىء بفتح السين والقاف وهي لغة في سقف، وليس ذلك تحريك ساكن لأنه لا وجه له، وقرىء سقوفا وهو جمع سقف كفلوس جمع فلس".

وجاء في كتاب (الحجة في القراءات السبع): قوله تعالى: (لبيوهم سقفا من فضة) يقرأ بفتح السين وإسكان القاف على التوحيد، وبضمهما على الجمع. فالحجة لمن وحد أنه أراد أعلامهم وأظلمهم، ودليله قوله تعالى: (فخَرَّ عليهم السقف من فوقهم) النحل/ ٢٦. والحجة لمن جمع أنه وافق بذلك بين اللفظين في قوله: (ومعارج عليها يظهرون).

(٢) في هذه الحالة يشترط أن يتقدم (من) نفياً أو نفياً أو استفهام مهمل، وأن يليها نكرة، نحو: (مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ غُفُورٌ رَحِيمٌ) التوبة/ ٩١.

وقال ابن منظور: "وقد تدخل (من) في موضع لو لم تدخل فيه كان الكلام مستقيماً ولكنها توكيد بمنزلة ما إلا أنها تجر لأنها حرف إضافة وذلك قولك: ما أتاني من رجل، وما رأيت من أحد، لو أخرجت (من) كان الكلام مستقيماً، ولكنه أكد بمن لأن هذا موضع تبعيض، فأراد أنه لم يأت بعض الرجال، وكذلك: ويجه من رجل، إنما أراد أن يجعل التعجب من بعض، وكذلك: لي إناء ملؤه من عسل، وهو أفضل من زيد، إنما أراد أن يفضل على بعض ولا يعم. وكذلك إذا قلت: أحرى الله الكاذب مني ومنك، إلا أن هذا وقولك أفضل منك لا يستغنى عن (من) فيهما لأنها توصل الأمر إلى ما بعدها. قال الجوهري: وقد تدخل (من) توكيداً لغواً، قال: قال الأخفش: ومنه قوله تعالى: (وَكُورَى الْمَلَائِكَةِ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْقُرْشِ) الزمر/ ٧٥، وقال: (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) الأحزاب/ ٤، إنما أدخل (من) توكيداً، كما تقول: رأيت زيدا نفسه". وقال ابن بري في استشهاده بقوله تعالى: (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) قال: من للبيان والتفسير، وليست زائدة للتوكيد؛ لأنه لا يجوز إسقاطها بخلاف: ويجه من رجل.

(٣) قال ابن بري: يقال: نصرته من فلان، أي: منعه منه؛ لأن الناصر لك مانع عدوك، فلما كان نصرته بمعنى: منعه، جاز أن يتعدى — (من). ومثله: (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) النور/ ٦٣، فعدى الفعل — (عن) حملاً على معنى: يخرجون عن أمره؛ لأن المخالفة خروج عن الطاعة.

(٤) من هذه الدلالات ما يلي:

(أ) ابتداء الغاية في الأماكن وهو الغالب، وذلك كقولك: من مكان كذا وكذا إلى مكان كذا وكذا، وخرجت من بغداد إلى الكوفة، وتقول إذا كتبت: من فلان إلى فلان. فهذه الأسماء التي هي سوى الأماكن بمنزلتها الابتداء. وقال سيويه: "وأما قولك: رأيت من ذلك الموضوع، فإنك جعلته غاية رؤيتك، كما جعلته غاية حيث أردت الابتداء والتمتهى". وتدخل (من) على الزمان قليلاً، نحو: مرض من يوم الجمعة.

(ب) التعليل، نحو: (لما خطبناهم أفرقوا) نوح/ ٢٥.

(ت) البدل، نحو: (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة) التوبة/ ٣٨، وكقول الله تعالى: (ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة) الزخرف/ ٦٠ معناه: ولو نشاء لجعلنا بديلكم.

(ث) الفصل والتمييز، وهي الداخلة على ثاني المتضادين، نحو: (والله يعلم المفسد من المصلح) البقرة/ ٢٢٠.

(ج) الصلة، نحو قوله تعالى: (وما يعزب عن ربك من مقال ذرة) يونس/ ٦١، أي ما يعزب عن علمه وزن ذرة. قال الفراء: (من) صلة ههنا. وأنشد الفراء لداية الأحف فيه: والله لولا حنق برجله ما كان في فيئانكم من مثله.

- (ح) أن تأتي بمعنى (مذ): قال أبو عبيد: "والعرب تضع (من) موضع مذ، يقال: ما رأيته من سنة، أي: مذ سنة. قال زهير: لمن الديار بقنة الحجر أقوين من حجج ومن دهر أي: مذ حجج". وفي التنزيل العزيز: "أسس على التقوى من أول يوم" التوبة/ ١٠٨.
- (خ) أن تكون بمعنى اللام الزائدة كقول الشاعر: "أمن آل ليلي عرفت الديارا؟" أراد: آل آل ليلي عرفت الديارا؟
- (د) أن تكون بمعنى باء القسم، كقولهم في القسم: "من ربي ما فعلت"، فمن حرف جر وضعت موضع الباء؛ لأن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض إذا لم يلتبس المعنى.

(٥) يتضح من هذا الجدول أن سبائك النحاس لا تتشابه مع النحاس في موصليته للكهرباء. وقد يعتقد المرء أن سبائك البرونز والنحاس الأصفر ذات موصلية مشابهة للنحاس؛ نظرا لأنها تتكون بصورة أساسية من النحاس، ولكن الحقيقة غير ذلك. فوجود نسب بسيطة من المواد التي تدخل في تكوين هذه السبائك (مثل الألومنيوم، والنيكل، والخاصين، والفسفور) يتسبب في انخفاض الموصلية الكهربائية لهذه السبائك بقدر كبير. وفي الواقع فإن المعدن الوحيد الذي يتفوق على النحاس في التوصيل الكهربائي هو الفضة.

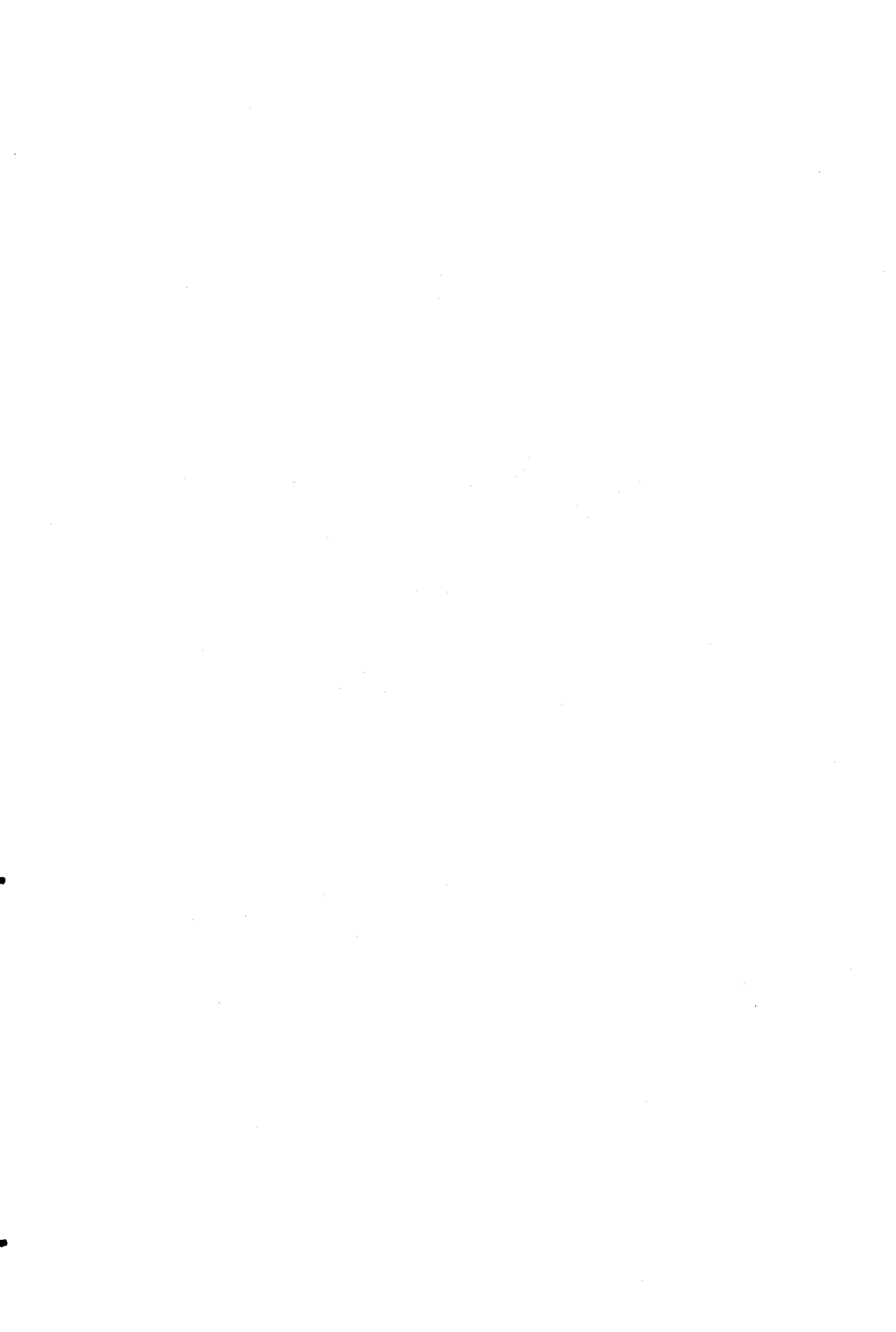
(١) تتسم الفضة بطراوتها، ولهذا يمكن أن تبلى سريعا عند استعمالها في القطع التي تستخدم لأغراض إحداث التماس الكهربائي عن طريق الانزلاق. والفضة إلى جانب ذلك مؤكسد سريع fast oxidizer، وهو الأمر الذي يؤثر سلبا في قيمة الموصلية الكهربائية عند مناطق التماس. ولتحقيق عملية توصيل الترددات اللاسلكية والتحكم في أكسدة الفضة يتم طلاؤها بطبقة رقيقة من الذهب أو طلاء آخر.

(٧) بسبب هذه الخاصية العجيبة للفضة وأملاحها، فإن بضع قطرات من نترات الفضة silver nitrate تستخدم في تنظيف أعين المواليد في العديد من دول العالم. والدهانات الغنية بالفضة silver rich creams تعد أحد المراهم المنزلية الشائعة الاستخدام لعلاج الحروق. كما أن قطعة من الشاش cotton gauze بعد غمسها في محلول الفضة تمثل علاجاً معجزاً (بإذن الله) لحالات الحروق الشديدة التي تستعصي على وسائل العلاج الأخرى. وفي الوقت الذي فيه تحمي الفضة الجسم من خطر البكتيريا، فإنها تقوم أيضا بكي cauterisation الشعيرات الدموية الدقيقة، مما يحول دون فقدان الدم (بالنزيف)، ويمنع تنامي الأنسجة المتقرحة scar tissues والندوب.

ويستخدم الشاش المبلل بمحلول الفضة في حشو جروح المصابين في أثناء نقلهم إلى مرافق العلاج. والفضة عنصر خامل في جسم الإنسان. ولهذا تستخدم في تدبيس العظام المكسورة، وخیاطة الجروح الكبيرة.

**مراحل خلق الكون
بين
العلم والقرآن**

أ. مروان وحيد شعبان



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد:

إن أبرز ظاهرة تميّز بها عصرنا أنه عصر الاكتشافات العلمية، والثورة التقنية التكنولوجية، والإعجاز العلمي بناءً على ذلك يعتبر أهم وسيلة دعوية تتلائم مع معطيات زماننا، ذلك لأن الإيمان بالله تعالى ما هو إلا ثمرة تحريك العقل وإعمال الفكر قبل أن يكون مسألة عاطفية شعورية.

ومما لا يخفى على أحد، أن الداعية ينبغي أن يتسلح بسلاح المنطق السليم والبرهان القويم، ليقيم الحجة ويثبت صدق دعوته، وإن السلاح العلمي المادي يعتبر من أقوى الأدلة المقنعة للمكلفين، ذلك لأنه مشاهد ومرئي ولا يستطيع أحد أن ينكره... وإبراز مظاهر الإعجاز العلمي في هذا الصدد، والتي تتمثل في عرض الآيات الكونية العلمية مقارنة مع المكتشفات العصرية، هو أعظم أسلوب يتفق مع ما توصل إليه الإنسان في هذا العصر...

والذي يعنى النظر في آي القرآن الكريم، وما ورد مما صح عن النبي الكريم ﷺ يلاحظ أن عدداً ليس بالقليل من الآيات والأحاديث توجه عقولنا لدراسة الآيات الكونية مع معطيات العلوم الإنسانية، ليقف الإنسان بعد ذلك على مشاهد الجلال في كتاب الله تعالى حيث يتضح له السبق القرآني في ميدان إثبات الحقائق العلمية، وهذه الحقائق تتضح وتجلي كلما تقدم العلم، وانكشفت أستار الكون واتضحت غوامضه وبانت خفاياه، قال تعالى: ﴿سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَلِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾^(١).

- وفي هذا البحث: «مراحل خلق الكون بين العلم والقرآن» حاولت أن أركز على ثلاثة قضايا:
- ١- خلق الأرض أولاً غير مدحوة.
 - ٢- خلق السموات وتسويتها.
 - ٣- ثم مرحلة دحي الأرض.
 - ٤- واستمرار توسع الكون منذ اللحظة الأولى.

وبيّنت أن من قال بتقديم خلق السموات على الأرض، قوله مجانب للصواب، ومعارض لصريح النصوص القرآنية، ودافعه لذلك رغبة شديدة لتكليف نصوص القرآن مع النظريات والفرضيات العلمية وليس مع الحقائق.

الثانية: أكدت على أن أقرب وأصح النظريات العلمية التي تتحدث عن مراحل خلق الكون، هي نظرية الانفجار العظيم، وأنها لا تتعارض أبداً مع ما ورد في نصوص القرآن الكريم، وأن كثيراً من علماء الفلك اعتبرها حقيقة علمية وليست نظرية.

الثالثة: توثيق القضايا العلمية من مصادرها الأصلية، فكثير من الناس يقول: ثبت علمياً كذا وكذا، ولا يرد المسألة إلى كتب المختصين في مجالها، وهنا أسهبت في ذكر المصادر العلمية، وعرفت برواد علم الفلك المعاصر الذين لهم باع طويل في الدراسات والأبحاث.

وأسال الله تعالى أن ينفعنا ويرفعنا بالقرآن الكريم، وأن يجعله إمامنا وسائقنا إلى جنات النعيم، إنه سميع مجيب.

تمهيد:

الآيات التي تتحدث عن خلق الكون، وما بث في تضاعفه من مكونات ومخلوقات كثيرة جداً كما أن هناك عدداً ليس بالقليل من هذه الآيات تسترعي انتباه الناس، وتدعوهم إلى التفكير والتأمل في خلق السموات والأرض، والدافع الحقيقي لهذا التأمل هو التعرف على عظم هذه المخلوقات وأسرار خلقها، وعجائب تكوينها، وبالتالي الوقوف على عظمة الخالق، وروعة إبداعه في صنعه وخلقها يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾^(١) ويقول تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢) ويقول تعالى: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣).

هذه الآيات وغيرها تأمرنا أن نستخدم مدركاتنا، ووسائل الإدراك والنظر التي هي امتداد لمدركاتنا، ومما منحنا الله من مستجدات تقنية وعلمية لتعرف على قضية الخلق، ومراحل الخلق وكيف بدأ الخلق وما تنطوي عليه السموات والأرض من عجائب الخلق والتدبير، والسبيل الأوضح إلى ذلك هو ما أشار إليه الحق ﴿قل انظروا﴾ فبالنظر والتأمل والاستدلال يتوصل الإنسان للكشف عن حقائق الخلق.

وما أجهل هذا الحث القرآني على دراسة الأرض ومكوناتها لتتعرف من خلال ذلك على بداية الخلق وعلى النشأة الأولى للكون: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٤)، وهذا لا يتنافى أبداً مع قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ تُتَّخَذُ الْمُضْلِينَ عَضُدًا﴾^(٥) لأن الحق هنا يقرر ضعفهم وتفرد في الخلق والإيجاد، ولكنه لا ينفي أبداً أن يفتش الإنسان عن المفردات العلمية والكونية ليعلم ماهية بداية الخلق والتكوين.

ولقد عرض لنا القرآن الكريم بداية خلق الكون والمراحل التي مر بها عرضاً بيانياً دقيقاً، يصور كل طور من أطوار الخلق بوضوح وجلالة دون ليس أو غموض، وسوف نستعرض الآيات القرآنية التي تتحدث عن كل مرحلة، ونزيلها بفهم علماء التفسير واللغة، ثم نحدد معطياتها، لنرى مدى التوافق الدقيق بينها وبين ما وصل إليه علماء الفلك والكون في عصرنا الحاضر.

مراحل الخلق

أولاً: مرحلة الرتق والفتق.

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

الآية هنا تسترعي انتباه العباد، وتخلق فيهم الباعث الذي يولد في كينونتهم، ويشير في ساحة الإدراك والتفكير لديهم، حب الاستطلاع والرغبة في البحث والتقيب عن سرّ انتقال هذا الكون العظيم من دنيا الفناء وعالم اللاشيء، إلى طور التخلق فالقرار ثم الحياة، ثم إن انبلاج هذا الكون من تلافيف العدم إلى حيّز الوجود وميدان الإدراك، ليتطلب من البشر أن يسخروا ما أوتوا من قوة عقلية وعلمية ومادية، في سبيل التعرف على خلق هذا الكون، والوقوف عند المادة الأم التي تشكل الكون منها بأسره.

والآية تشير إلى أن السماوات والأرض، أي الكون وما بُث في أرجائه من نجوم ومجرات وكواكب وشمس وأقمار كان شيئاً واحداً، كان مادة واحدة، كتلة واحدة ثم انشطرت هذه المادة وفتقت وتفجرت، فانفصلت السماوات عن الأرض، وتباعدت أجزاءها وأصبحت عالماً عظيماً مترامي الأطراف، بعيد المدى، واسع الرحاب، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ تعبير دقيق ومشهد رائع، يأخذ بالألباب والعواطف والأحاسيس، لأنه يصور لنا المشهد الأول، واللقطة الأولى من الكون ساعة الانفصال. وبجولة سريعة في كتب المفسرين، يتكامل التصور الدقيق حول هذه المرحلة من خلال شرحهم لهذه الآية الكريمة ومعطياتها.

ففي «جامع البيان»: (يقول تعالى ذكره: أو لم ينظر هؤلاء الذي كفروا بالله بأبصار قلوبهم فـيروا بما، ويعلموا أن السموات والأرض كانتا رَتْقًا، يقول: ليس فيهما ثقب، بل كانتا ملتصقتين يقال منه: رتق فلان الفتق إذا شدّه، فهو يرتقه رَتْقًا ورتوقًا، ومن ذلك قيل للمرأة التي فرجها ملتصحم: رتقاء، ووحيد الرَتْق، وهو من صفة السماء والأرض، وقد جاء بعد قوله تعالى: ﴿كَانَتَا﴾ لأنه مصدر، مثل قول الزور والصوم والفطر، وقوله: ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ يقول: فصدعناهما وفرجناهما، ثم اختلف أهل التأويل في معنى وصف الله تعالى السموات والأرض بالرتق، وكيف كان الرتق، وبأي معنى فتق؟ قال ابن عباس: كانتا ملتصقتين، فرقع السماء ووضع الأرض ...

وكان الحسن وقتادة يقولان: كانتا جميعاً ففصل الله بينهما بهذا الهواء، وقال آخرون: بل معنى ذلك أن السموات كانت مرتتقة طبقة، ففتقها الله فجعلها سبع سموات، وكذلك الأرض كانت كذلك مرتتقة، ففتقها فجعلها سبع أرضين^(١).

وفي تفسير «القرطبي»: (وقال: ﴿رتقاً﴾ ولم يقل رتقين، لأنه مصدر، والمعنى كانتا ذواتي رتق... والرتق السد ضد الفتق، وقد رتقت الفتق أرتقه فارتق أي التأم، ومنه الرتقاء للمنظمة الفرج قال ابن عباس وغيره: يعني أنهما كانت شيئاً واحداً ملتزمتين لفصل الله بينهما بالهواء، وكذلك قال كعب: خلق الله السموات والأرض بعضها على بعض ثم خلق ريحاً بوسطها ففتحتها بها، وجعل السموات سبعاً والأرضين سبعاً^(٢).

وفي «أضواء البيان» عدة أقوال منها: (الأول: أن معنى ﴿رَتَقًا فَفَتَقْنَهُمَا﴾ أي كانت السموات والأرض متلاصقة بعضها مع بعض، ففتقها الله وفصل بين السموات والأرض، فرفع السماء إلى مكانها، وأقر الأرض في مكانها، وفصل بينهما بالهواء الذي بينهما كما ترى.

القول الثاني: أن السموات السبع كانت رتقاً، أي متلاصقة بعضها ببعض، ففتقها الله وجعلها سبع سموات، كل اثنتين منها بينهما فصل، والأرضون كذلك كانت رتقاً ففتقها، وجعلها سبعاً بعضها منفصل عن بعض^(١). ولتوخي الدقة وزيادة الضبط نفتح المعاجم اللغوية للتعرف على معاني بعض الكلمات القرآنية من حيث أصلها اللغوي واشتقاقاً، ليصبح وجه الاستدلال بها منسجماً مع المقارنة الكونية للآية القرآنية.

يقول ابن منظور: ﴿كانتا رتقاً﴾ (والرتق ضد الفتق، والرتق إلحام الفتق وإصلاحه)^(٣). وفي «القاموس المحيط»: (الرتق ضد الفتق، ارتتق التأم السماوات متلاصقات وكذلك الأرض لا فرج بينها ففتقها الله وفرجَ بينها ... فإن قلت: متى رأوهما رتقاً حتى جاء تقريرهم بذلك؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما أنه وارد)^(٣).

ولربما يخطر في البال هاهنا سؤال فيقول صاحبه: ما هي المادة التي تكونت الكتلة الكونية الأولى التي تم رتقها وفتقها؟

هذا السؤال قد حير علماء الفلك والمتخصصين في الفيزياء الكونية، فراحوا ينسجون تصورات نظرية حول هذه المادة وطبيعتها إلى أن اتفقوا على أن أصل المادة عبارة عن سدم، لكننا نجد القرآن الكريم قد أجاب على هذا السؤال بكل وضوح، وأشار إلى أن المادة الكونية الأولى للكون إنما هي من "الدخان" كما قال تعالى: ﴿... ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾^(٤) فالمادة التي تشكل منها كوننا العظيم إنما هي من الدخان. ولنا أن نستخلص مما سبق، ومن خلال التصور القرآني عن المرحلة الأولى لخلق الكون مايلي:

١- أن السموات والأرض في لحظة الخلق الأولى وبداية النشأة، كانتا كتلة واحدة متلاصقة ثم انفصلت وتوزعت.

٢- طبيعة هذه المادة التي تشكل الكون منها إنما هي الدخان.

ثانياً: مرحلة خلق السموات والأرض:

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾^(١).

كان الحديث في الآية الأولى عن طبيعة المادة الكونية الأولى وماهيتها، وكيف أنها كانت كتلة واحدة ثم انفصلت، أما هنا فالآية تتحدث عن أطوار خلق السموات والأرض، والمراحل التي اعترقها بعد عملية انفصال المادة الأولى.

وهذه الآية الكريمة تقرر حقيقة كونية ثابتة وقطعية الدلالة وهي، أن الأرض بعد عملية فتح الرق خُلقت أولاً، ثم تم تشكيل السماء وبنائها من الدخان، وهذا ما ذهب إليه جمهور المفسرين، ولقد وقع في الخطأ والخلط من حاول أن يقدم مرحلة خلق السموات على الأرض، بسبب رغبة شديدة دفعته إلى توأمة هذا النص القرآني مع التخمينات النظرية التي تحدث عنها بعض الفلكيين، من أن السموات خلقت قبل الأرض، وهذا الكلام لا يستند إلى دليل لا من النصوص القرآنية ولا من المعطيات العلمية الثابتة، وهذا ما سيوضح بعد إلقاء نظرة حول هذه الآية في كتب التفسير.

ففي «تفسير البيضاوي»: ﴿ قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ في مقدار يومين، أو نوبتين، وخلق في كل نوبة ما خلق في أسرع ما يكون، ولعل المراد من ﴿الْأَرْضَ﴾ ما في جهة السفلى من الأجرام البسيطة ومن خلقها ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ أنه خلق لها أصلاً مشتركاً، ثم خلق لها صوراً بها صارت أنواعاً، ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ قصد نحوها من قوهم: استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه توجهاً لا يلوي على غيره، والظاهر أن ثم لتفاوت ما بين الخلقين لا للتراخي في المدة لقوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَجَّهَا﴾ ودحوها متقدم على خلق الجبال من فوقها ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أمر ظلماني، ولعله أراد به مادتها أو الأجزاء المتصغرة التي كتب منها ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا﴾ بما خلقت فيكما من التأثير والتأثر وأبرز ما أودعتكما من الأوضاع المختلفة والكائنات المتنوعة، أو ﴿ائْتِيَا﴾ في الوجود على أن الخلق السابق بمعنى التقدير أو الترتيب للرتبة، أو الإخبار أو إتيان السماء حدوثها وإتيان الأرض أن تصير مدحوة، وقد عرفت ما فيه أو لتأت كل منكما الأخرى في حدوث ما أريد توليده منكما^(١).

وفي «روح المعاني» (الكلام على التقديم والتأخير والأصل) «ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقضاهن سبع سموات» الخ، «فقال لها وللأرض ائتيا» الخ، وهو أبعد عن القيل والقال، إلا أنه خلاف الظاهر، أو كونا واحداً على وجه معين وفي وقت مقدر لكل منكما، فالمراد إتيان ذاتهما وإيجادهما، فالأمر للتكوين على أن خلق وجعل وبارك وقدر بالمعنى الذي حكيناه عن إرشاد العقل السليم، ويكون هذا شروعاً في بيان كيفية التكوين أثر بيان كيفية التقدير، ولعل تخصيص البيان بما يتعلق بالأرض وما فيها لما أن بيان اعتنائه تعالى بأمر المخاطبين وترتيب مبادئ معاشهم قبل خلقهم ما يحملهم على الإيمان، ويزجرهم عن الكفر والطغيان، وخص الاستواء بالسماء مع أن الخطاب المترتب عليه متوجه إليهما معاً كقضاء بذكر تقدير الأرض وتقدير ما فيها كأنه قيل: فقيل لها وللأرض التي قدر وجودها ووجود ما فيها كونا واحداً، وهذا الوجه هو الذي قدمه صاحب الإرشاد وذكره غيره احتمالاً، وجعل الأمر عبارة عن تعلق إرادته تعالى بوجودهما تعلقاً فعلياً بطريق التمثيل من غير أن يكون هناك أمر ومأمور^(٢).

وفي «بحر العلوم»: (ثم استأنف فقال: «سواءً للسائلين» ومن قرأ بالنصب يعني قدرها سواء صار نصيباً على المصدر، ومعناه: استوت استواءً «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ» أي صعد أمره إلى السماء، وهو قول الله: «كُنَّ» ويقال: عمد إلى خلق السماء «وَهِيَ دُخَانٌ» يعني بخار الماء كهيئة الدخان، وذلك أنه لما خلق العرش، لم يكن تحت العرش شيء سوى الماء كما قال تعالى: «وكان عرشه على الماء» ثم ألقى الحرارة على الماء حتى ظهر منه البخار، فارتفع بخاره كهيئة الدخان، فارتفع البخار، وألقى الريح الزبد على الماء، فزيد الماء، فخلق الأرض من الزبد، وخلق السماء من الدخان^(٣).

وفي «مختار الصحاح»: (الدخان: دخان النار معروف وجمعه دواخن، كثبان وعوائن، على غير قياس، ودخنت النار ارتفع دخانها، وبابه قطع وخضع، وادخنت مثله، ودخنت النار إذا فسدت بإلقاء الحطب عليها حتى هاج دخانها، ودخن الطيب إذا تدخنت القدر، والدخن الجاورس والدخنة كالدريرة تدخن بها البيوت^(٤)). وفي «مفردات ألفاظ القرآن» نجد أن الدخان هو: المستصحب للهب، قال تعالى: «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ» أي هي مثل الدخان، إشارة إلى أنه لا تماسك لها، ودخنت النار تدخن كثر دخانها، لكن تعرف فيما يتبخر به من الطيب^(٥).

ويستخلص من معطيات النص القرآني مايلي:

- ١- تم خلق الأرض بعد فثقتها من الكتلة الدخانية في يومين «خلق الأرض في يومين».
- ٢- تم تسوية السموات السبع في يومين كما قال تعالى: «فقضاهن سبع سموات في يومين» وذلك بعد فثقتها والانفجار والانفصال الذي اعترها بعدما كانت دخاناً، قال تعالى: «ثم استوى إلى السماء وهي دخان».

٣- تم تدبير الأرض وتثبيتها وتسخيرها لتعيش عليها المخلوقات في يومين ﴿وجعل فيها رواسي من فوقها﴾ أي الجبال التي تساعد على توازن واستقرار الأرض ﴿وبارك فيها﴾ أي زاد فيها الخير والزرع والماء وغير ذلك ﴿وقدر فيها أوقاتها﴾ من أرزاق وأسباب المعيشة.
وينبه إلى أن المقصود بالأيام هنا هي المراحل والحقب الزمنية، وليست الأيام المعروفة لدينا كما أشار إلى ذلك كثير من المفسرين كما سبق، ولأن الزمن شيء نسبي كما هو معلوم، فيوم الأرض ليس كيوم الشمس وليس كيوم المجرة وهكذا...

ثالثاً: مرحلة دحي الأرض.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنشَدُ خَلْقًا أَمَ السَّمَاءِ بَنَاهَا، رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا، وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا، وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا، أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾^(١).
هذه هي المرحلة الثالثة من مراحل الخلق حسب تصوير القرآن لذلك، فالمرحلة الأولى كانت مرحلة تفجير الكتلة الدخانية" الرق والفتق" والمرحلة الثانية كانت مرحلة خلق الأرض لكنها غير مدحوة، وتسوية السموات وتشكيلها، ثم جاءت المرحلة الثالثة التي هي مرحلة دحي الأرض.
لكن قد يستشكل أحدنا أو يجول في خاطره سؤال مفاده، أيهما خلق أولاً السموات أم الأرض؟ ففي الآية السابقة عرفنا بنص قرآني واضح وصريح أن الأرض خلقت قبل السماء ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(٢) وهنا نجد أن الحق يخبرنا أن الأرض خلقت بعد السماء ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ أي بعد خلق السموات، فكيف يكون ذلك؟

إن الجواب على هذا السؤال أو الاستشكال سهل للغاية، وقد عرض هذا السؤال على ابن عباس رضي الله عنهما، كما ورد في صحيح البخاري: (قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما: إني لأجد في القرآن أشياء تختلف علي... قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنشَدُ خَلْقًا أَمَ السَّمَاءِ بَنَاهَا﴾ إلى قوله ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ فذكر خلق السماء قبل الأرض، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ...﴾ فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء... فقال ابن عباس رضي الله عنهما: خلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم

استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحى الأرض ودحيتها أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله تعالى: ﴿دحاها﴾ وقوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فخلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخلق السماوات في يومين... فلا يختلفن عليك القرآن، فإن كلاً من عند الله عز وجل⁽¹⁾.

وعلى هذا النسق سار المفسرون، ففي إرشاد العقل السليم: (فهي وما في سورة البقرة من قوله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾⁽²⁾ تدلان على تقدم خلق الأرض وما فيها على خلق السماء وما فيها، وعليه إبطاء أكثر أهل التفسير، وقد روي أن العرش العظيم كان قبل خلق السموات والأرض على الماء، ثم إنه تعالى أحدث في الماء اضطراباً فأزبد فارتفع منه دخان، فأما الزبد فبقي على وجه الماء، فخلق فيه اليبوسة فجعله أرضاً واحدة، ثم فتحها فجعلها أرضين، وأما الدخان فارتفع وعلا فخلق منه السموات... وقيل إن خلق جرم الأرض مقدم على خلق السموات، لكن دحوها وخلق ما فيها مؤخر عنه لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ولما روي عن الحسن رحمه الله، من أنه تعالى خلق الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليه دخان ملتزق بها، ثم أصدد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهر في موضعها، وبسط منها الأرض وذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿كَانَتْ رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ وليس المراد بنظهما مع السماء في سلك الأمر بالإتيان إنشائها وإحداثها بل إنشاء دحوها وجعلها على وجه خاص يليق بها من شكل معين ووصف مخصوص، كأنه قيل: اتتيا على ما ينبغي أن تأتي عليه، اتتيا يا أرض مدحوة قراراً ومهاداً لأهلك، واتتيا يا سماء مقببة سقفاً لهم⁽³⁾.

وعند الطبري: (عن ابن عباس، قوله حيث ذكر خلق الأرض قبل السماء، ثم ذكر السماء قبل الأرض، وذلك أن الله خلق الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات، ثم دحا الأرض بعد ذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾⁽⁴⁾).

وعند ابن كثير: (أن الأرض خلقت قبل خلق السماء، ولكن إنما دحيت بعد خلق السماء، بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل⁽⁵⁾).

وفي تفسير القرطبي: (أن الله تعالى خلق أولاً دخان السماء ثم خلق الأرض، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فسواها، ثم دحا الأرض بعد ذلك، وما يدل على أن الدخان خلق أولاً قبل الأرض ما روي عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ في قوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ قال: إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئاً قبل الماء، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء فسما عليه، فسماه سماء، ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فتحها فجعلها سبع أرضين في يومين⁽⁶⁾).

(فالكلمتان " دحاها _ طحاها " تدلان على معنى البسط، دحا الأرض يدحوها، بسطها، قال شمر: فأنشدتني أعرابية: الحمد لله الذي أطاقا بنى السماء فوقنا طياقا ثم دحا الأرض فما أضافا والأدحوة، مَبِيضُ النعام في الرمل... ومدحى النعام، موضع بيضها)^(٣).

هذه هي مراحل الخلق حسب معطيات القرآن الكريم ودلالته، ولا شك أن هذا التفصيل لمراحل خلق الكون عسير على العلم بل من المستحيل أن يصل إليه، لأنه من المغيبات التي لا تخضع لمدرجات الإنسان، لكن يمكن للعلم أن يصل إلى حقائق كونية ثابتة عن أصل الكون والخلق، لكنها مجملة وليست مفصلة بهذه الدقة القرآنية العجيبة، والدليل على ذلك أنهم حقاً توصلوا إلى حقائق علمية تدل على أصل الكون ومنشأه.

والعودة لملف علم الفلك، والنظر في أقوال علماء الكون، تظهر أن ما توصلوا إليه من حقائق كونية علمية ثابتة بعد جهد جهيد من الدراسة والبحث، هي ذاتها التي أشار إليها القرآن الكريم بوضوح القول وصريح العبارة، وأن ما كشفوا عنه اليوم هو الذي سبقهم إليه كتاب الله تعالى وسطر ملاحظه وأطره في صفحاته قبل أكثر من أربعة عشر قرناً.

الكون الذي يحوي في ثناياه النجوم والكواكب والمجرات، وما يتبعها من غازات ومعادن وصخور وتراب وحيوانات ونباتات وإنسان، وغير ذلك من المخلوقات الأخرى، كان مثار اهتمام لدى الإنسان عبر مرور الأحقاب، سواء كان هذا الاهتمام مبنياً على الخرافة والوهم، كما عند بعض الناس في القدم، والذين اعتقدوا بأزلية الكون، وربطوا تصوراتهم العقائدية بأجسام عدة من الكون كالشمس والشجر والنار... وجعلوها آلهة لهم، أو كان مرتكزاً على الدراسات الصحيحة التي تعتمد على الرصد والحسابات الفلكية والرياضية.

وإذا ما طوينا صفحة الخيال أو الخرافة التي كانت سائدة ومسيطرة على عقل الإنسان في معظم الحضارات القديمة، واتجهنا إلى التعرف على الدراسات الحديثة التي شهدها الإنسان في بداية القرن العشرين، فإننا نجد تطوراً هائلاً في مجال الفلك بسبب الاكتشافات الكبيرة لأسرار الكون، عبر المراصد الضخمة، ومن خلال النظريات العلمية الجديدة.

وقبل الشروع في عرض وبيان آراء العلماء حول مولد الكون ونشأته، يُنبه إلى أن هناك العديد من النظريات التي أعلنت حول أصل الكون، إلا أن معظمها خفت صوتها وغُيبت، عندما ظهرت أحدث نظرية حول مولد الكون والتي تدعى بالانفجار العظيم: **big bang** بل والتي أجمع على صحتها جمهور علماء الفلك، مما دفع بعض الفلكيين إلى القول بأنها حقيقة قطعية كما سيأتي.

ويوسعنا الآن أن نستعرض طائفة من دراسات الفلكيين حول الانفجار الكوني العظيم، لنرى مدى التوافق بين ما أثبتوه، وبين الحقائق القرآنية التي سبق وأن قرر من خلالها الحق نشأة الكون.

الحقائق العلمية:

(توصل عالم الفلك البلجيكي "جورج إدوارد لو ميتر" إلى نتيجة الانفجار العظيم، وأعلنها في عام ١٩٢٧، وقد افترض في مستهل الأمر أن المادة الكونية كانت كلها مضغوطة في حجم ضئيل للغاية أسماه البيضة الكونية، ثم تعرض ذلك الجسم لتمدد مفاجئ سريع وما زال يتمدد، ولما طرح "هيل" قانونه في عام ١٩٢٩، وشرح المشاهدات التي استند إليها، بدا واضحاً أن ذلك يجسد تماماً ما ينبغي أن يكون من شأن كون في حالة تمدد، وكون كل المجرات تتبعد عنا بمعدل أسرع كلما كانت أكثر بعداً، أمر ليس له أي دلالة خاصة تتعلق بنا وبمجرتنا، فما دام الكون في حالة تمدد فهذا يعني أن كل مجراته تتباعد عن بعضها، وقد التقط الفيزيائي "جورج جاموف" فكرة البيضة الكونية وعممها ثم أطلق على عملية التمدد الأولى اسم {الانفجار العظيم}، وما زال ذلك الاسم مستخدماً حتى الآن ويشير "جاموف" إلى أن الإشعاعات التي صاحبت الانفجار العظيم، لا بد أن يكون لها الآثار حتى الآن ما يمكن رصده من أي اتجاه على هيئة موجات {ميكروويف} ضعيفة، لها من المواصفات ما يمكن تقديره حسابياً، وبهذا الاكتشاف انتهى علماء الفلك إلى الاقتناع بوجود الانفجار العظيم، ومن المتفق عليه الآن أن الكون قد بدأ بجسم ضئيل انفجر منذ خمسة عشر بليون سنة، وما زال تحديد عمر الكون على وجه الدقة قيد البحث، ولكنه يصعب أن يقل عن عشرة بلايين سنة، ولن يزيد على الأرجح على عشرين بليون سنة^(١).

وهذا ما أكده كثير من علماء الكون، يقول توماس آربي: (يدرس علماء الكون الزمن الغابر باستقراء خارجي للشروط السائدة في الكون حالياً، بمعنى أنهم يستعملون قوانين الفيزياء لاستنباط الكيفية التي كان الكون عليها حين نشأته وبداية تكوينه، فلقد تبين أن الكون كان في بدايته حاراً وكثيفاً، وكان غازياً وكانت مادته وإشعاعه ممتزجين معاً امتزاجاً يختلف فيه تماماً عما نعرفه عنهما من حيث تميزهما الواضح عن بعضهما، ويعود سبب الامتزاج إلى أنه في غاز ذي درجة حرارة مرتفعة يحمل الإشعاع طاقة هائلة، الأمر الذي يوفر إمكان تحوله إلى مادة، وهكذا فالإشعاع والمادة في بداية نشأة الكون سلكا سلوكاً لا يكاد يميز أحدهما عن الآخر... وهم يعتقدون أن درجة حرارته كانت عالية جداً مما أدى إلى الانفجار العظيم^(١).

ويؤكد هذا المعنى العالم "جون فايفر" فيقول: (لقد كانت الظلمات السائدة حينذاك نقطة بداية لا نقطة نهاية، عندما تكونت فيها سحابة لاثنية سحب اليوم أبداً، فقد بدأت المادة تتجمع بالفريزة كما تتجمع قطعان الأغنام، وهكذا بدأت كثافة السحابة تزداد، وبدأت الظلمة تنقشع ويبدو فيها بصيص من النور، ولقد كان هذا النور بداية تكون النجوم^(٢).

(وفي اللحظات الأولى للكون عندما كانت الكثافات هائلة، ودرجات الحرارة عالية، لا بد من أن الكون كان معتماً، فلم تكن {فوتونات}* أشعة تستطيع التحرك إلا لمسافة قصيرة جداً، وبعدها ترتطم إما بجسيم أو {بفوتون} آخر، ولكن عندما أخذ الكون بالاتساع أخذت الأطوال الموجية {للفوتونات} في الكرة النارية الأولية بدورها بالاستطالة شيئاً فشيئاً، وازدياد الأطوال الموجية يعني انخفاض الطاقة التي يحملها كل {فوتون}، وبانخفاض الطاقة المحمولة في كل {فوتون} بدأت درجة حرارة الكرة النارية بالهبوط وابتدأ الكون بعدها بالبرودة... وقد لعبت {الإلكترونات}* الحرة المنطلقة حول الكرة النارية، عندما كان الكون في بدايته ساخناً، دوراً مهماً في الإبقاء على عتمة الكون، فقد كانت {الإلكترونات} الحرة تستطيع بسهولة وكفاءة تشتيت {الفوتونات}، إذ لم يكن لأي {فوتون} المجال للتحرك بعيداً، إذ كان ولا بد أن يرتطم {بالإلكترونات} السائبة^(١).

ويقول كليفورد سيماك في كتابه: « قصة الكون » (إن الكون قد بدأ على شكل كتلة ساخنة جداً من المادة، ولم يكن شبيهاً كلياً بالمادة كما نعتقد، بل كانت توجد فيه على الأقل كتلة من الجسيمات الذرية الأولية مزدهجة مع بعضها، وقد قدر أن قطر هذه المادة لم يكن يتعدى بضعة ملايين من الأميال، أي أنه كان من الممكن أن يوضع في مدار الأرض حول الشمس، ولا بد أن كثافة هذه المادة كانت مائة مليون طن لكل سنتيمتر مكعب، أي أكثف من نواة الذرة، كما كانت درجة حرارتها بلا شك عالية إلى حوالي عشرة بلايين درجة، ومثل هذه الكتلة يمكن أن تكون غير مستقرة جداً فتتفجر عند وقت ما، ومع درجة الحرارة العالية لا بد أن الانفجار كان قوياً، اندفعت بمقتضاه كل مادة الذرة الضخمة إلى الخارج، وفي جزء من الثانية أصبح للكون وجود^(٢) .

ويؤكد هذه القضية "كارل ساغان" في كتابه « الكون » فيقول: (ونعلم الآن أن كوننا يبلغ من العمر نحو ١٥ أو ٢٠ مليار سنة، وهذا الزمن محسوب منذ ذلك الحدث التفجيري الاستثنائي، الذي يعرف بالانفجار الكبير، وفي بداية الكون لم تكن هناك مجرات أو نجوم أو كواكب أو أي نوع من الحياة أو حضارات، بل مجرد كرة نارية مشعة منتظمة الشكل تملأ الفضاء كله^(٣) .

الإعجاز:

لا أرى داعياً في سرد المزيد من دراسات علماء الفلك والكون، والتي تصور بمجملها أصل الكون ومولده، وتؤكد على أن الكون كان كتلة متماسكة حارة، ثم بدأ بانفجار مدو عظيم أدى إلى انفصال الكتلة الملتحمة، وتفرقت أجزاؤها في أنحاء الفضاء، وكانت درجة الحرارة وقتها عالية جداً ثم تبردت وانخفضت... هذا ما توصل إليه علماء الكون بعد دراسات حثيثة ومضنية، كلفتهم ما الله به عليم من الجهد والوقت والمال، لكننا نجد أن القرآن الكريم قد سبقهم لتسطير هذه الحقيقة حول أصل الكون ومولده، قبل أكثر من أربعة عشر قرناً، حيث قال الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١)، ما أعظمها من آية وما أدق بيان الحق فيها، فهي تصور لنا أن السموات والأرض كانتا «رتقاً» أي كتلة واحدة ملتصقة متماسكة «فتقناها» أي فصلنا أجزائهما من مجرات وكواكب ونجوم... وهذا ما كشف عنه العلم المعاصر اليوم، وليس هذا التوافق داعياً للبشر ليطأطؤوا الرؤوس إجلالاً وتعظيماً لهذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

رابعاً: مرحلة توسع الكون.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾^(٢). تعطينا هذه الآية الكريمة مشهداً آخر من مشاهد تخلق الكون وتطوره، وهذا هو الطور الرابع الذي مرت به حركة الكون، فيعد أن طرأ عليه الانفجار العظيم، هبطت درجة حرارته المرتفعة، وبدأ بالالتبريد، والتوسع، والانتشار، والتمدد الدؤوب المستمر... وإن هذا التوسع وذاك التمديد، لم يسر عبر مسالك مستوعرة، وطرق وساحات قد ازدحمت بالفوضى والاضطراب... ليست الحالة كذلك بل كما عبر القرآن الكريم «بنيانها» والبناء يقتضي هندسة دقيقة، ويستلزم تصميمًا تشيع بين جنباته الرتبة المتألفة. وياقناء نظرة في كتب المفسرين حول معاني هذه الآية، وما تصور لنا من معطيات كونية وعلمية نجد مايلي: يقول القرطبي: (في السماء آيات وعبر تدل على أن الصانع قادر على الكمال، فعطف أمر السماء على قصة قوم نوح لأنهما آيتان، ومعنى «بايد» أي بقوة وقدر، عن ابن عباس وغيره: «وإننا لموسعون» قال ابن عباس: لقادرون، وقيل: أي وإننا لدو سعة، وبخلقها وخلق غيرها لا يضيق علينا شيء نريده، وقيل: أي وإننا لموسعون الرزق على خلقنا، ومنه أيضاً، وإننا لموسعون الرزق بالمطر وقيل: جعلنا بينهما وبين الأرض سعة^(٣)). وفي «روح المعاني»: (والسما، أي وبنيان السماء بنيانها، بأيد: أي بقوة قاله ابن عباس ومجاهد وقادة، ومثله الآد، وليس جمع يد، وجوزه الإمام، وإن صحت التورية به، وإننا لموسعون، أي لقادرون، من الوسع بمعنى

الطاقة، فالجملة تذييل إثباتاً لسعة قدرته عز وجل كل شيء، فضلاً عن السماء... واليد بمعنى النعمة لا الإنعام، وقيل: أي لموسعوها بحيث أن الأرض وما يحيط بها من الماء والهواء بالنسبة إليها محلقة في فلاة، وقيل: أي لجاعلون بينها وبين الأرض سعة، والمراد السعة المكانية^(١).

وفي تفسير «فتح القدير»: (وإنا لموسعون، الموسع: ذو الوسع والسعة، والمعنى إنا لذو سعة بخلقها وخلق غيرها، لا نعجز عن ذلك، وقيل: لقادرون، من الوسع بمعنى الطاقة والقدرة، وقيل: إنا لموسعون الرزق بالمطر)^(٢).

فكلمة «موسع» تشير إلى الاستمرارية في البناء المتناسق، وهذا نفي لكل ما قد يمور في سراديب عقل إنسان، من أن الكون جامد ثابت لا حراك فيه ولا حركة، وأنه ملازم صفة واحدة لا ينفك عنها. وإذا ما رجعنا إلى معاجم اللغة وفتشنا عن معنى كلمة «موسع» وعن الأبعاد التي تعطينا إياها فسوف نجد مايلي:

ففي «مختار الصحاح»: (وسعه الشيء بالكسر يسعه سعة بالفتح، والوسع والسعة بالفتح الجدة والطاقة، وأوسع الرجل صار ذا سعة وغنى، ومنه قوله تعالى: ﴿والسماء ببنائها بأيدٍ وإنا لموسعون﴾ أي أغنياء قادرين ويقال: أوسع الله عليك، أي أغناك، والتوسيع خلاف التضيق، تقول: وسع الشيء فاتسع واستوسع أي صار واسعاً، وتوسعوا في المجلس تفسحوا^(٣).

وفي «لسان العرب»: (... في أسمائه سبحانه وتعالى الواسع، وهو الذي وسع رزقه جميع خلقه ووسعت رحمته كل شيء، وغناه كل فقر، ويقال: الواسع المحيط بكل شيء... والسعة، نقيض الضيق و استوسع الشيء، وجده واسعاً وطلبه واسعاً، وأوسعته ووسعه، صيره واسعاً، وقوله تعالى: ﴿والسماء ببنائها بأيدٍ وإنا لموسعون﴾ أراد جعلنا بينها وبين الأرض سعة، جعل أوسع بمعنى وسع، وقيل: أوسع الرجل صار ذا سعة وغنى، وقوله: ﴿وإنسا لموسعون﴾ أي أغنياء قادرين^(٤).

هذا هو النبأ والقرار القرآني الصريح حول استمرارية الكون في عملية البناء الموسعة، فمن معطيات الآية الكريمة أن الكون في حالة اتساع مستمرة، وأنه غير ثابت محجم ومحجر، فماذا يقول علماء الفلك؟ وماذا توصلوا في أبحاثهم حول توسع الكون؟

الحقائق العلمية:

المتبع للمستجدات العلمية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، يجد تنافساً هائلاً بين العلماء فيمن يحظى بأسقية تدوين اكتشافه حول حركة الكون وتوسعه.

فلقد لاحظ العالم النمساوي "دوفلر" * في سنة ١٨٤٢، أن الموجات الصوتية والضوئية الصادرة عن جسم متحرك، تغير أطوالها وذبذباتها تبعاً لحركتها بالنسبة لراصدها، فهي تقصر فتزداد حدة إذا كانت صادرة عن جسم يتحرك نحو الراصد، أو تطول فتخف حدتها إذا كانت صادرة عن جسم يبتعد عن راصده، هذه الظاهرة المعروفة في الفيزياء باسم ظاهرة "دوفلر"، وقد اكتسبت نظرية "دوفلر" هذه أهمية كبرى في علم الفلك عام ١٨٦٨، عندما استخدمت في دراسة الخطوط الطيفية المنفصلة، فقد برهن العلماء في ذلك العام أن في الخطوط المظلمة من أطياف بعض النجوم إزاحة بسيطة نحو الأحمر أو الأزرق مقارنة مع طيف الشمس^(١).

ثم جاء "أينشتاين" * بنظريته النسبية (والتي تمثل مراجعة شاملة لقوانين الفيزياء التقليدية، فعندما فرغ أينشتاين من صياغة النظرية النسبية العامة في عام ١٩٢٥، حاول استغلال نظريته في بناء نموذج نظري للكون، ولا بد من الإشارة إلى أن النظرية النسبية هي نظرية للجاذبية، تطبق على الأنظمة الحركية المنتظمة وغير المنتظمة، ويعتبر أينشتاين بنظريته النسبية أن الجاذبية تمثل انحناء أو تحديباً في النسيج الزمكاني "الزمان والمكان" وبغياب الجاذبية يصبح كل من الزمان والمكان مسطحاً، وفي حالة وجود مجال جاذبي ينحني الزمان والمكان... ورغم أن نظرية أينشتاين حول الجاذبية أكثر دقة، إلا أنه لم يكن متأكداً من صحة ما توصل إليه في بناء النماذج النظرية للكون، ولم يكن أحد في ذلك الحين أيضاً يظن أو يشك بوجود حركات كبرى في الكون، ولذلك اتجه أينشتاين في أبحاثه إلى وضع نماذج ثابتة للكون، وقد تعرضت جهوده في هذا المجال للإحباط الشديد، فكلما سعى إلى بناء نموذج رياضي للكون يجد أن عمله يؤدي إلى كون ينكمش، وبدلاً من أن يتابع ما توصل إليه في حساباته ويوافقها إذ كانت صيغته الرياضية تقوده دائماً إلى حقيقة تدل على أننا لا نحيا في كون ثابت، ولذلك بدأ الشك والحيرة تصيبه في صحة معادلاته، وعلى ذلك أضاف إلى معادلاته مقداراً محدداً أطلق عليه "الثابت الكوني" بحيث يمنع الثابت كون "أينشتاين" من الانكماش، ومعادلاته الخاطئة في بناء نماذج كونية ثابتة فوت "أينشتاين" الفرصة في تعجيل اكتشاف "هبل"، بما لا يقل عن عشر سنوات، وبحلول عام ١٩٢٩، أصبح جلياً أننا نحيا في كون يتمدد، ولم يعد هناك أي تحفظ جديد، ولقد ندم "أينشتاين" كثيراً في السنوات الأخيرة التالية لأضافته الثابت الكوني في معادلاته الأصلية في النسبية العامة، وأشار إلى ذلك بقوله: لقد كان ذلك هو أكبر خطأ وقعت به في حياتي^(١).

ثم استنتج العالم الفلكي الأمريكي "هبل" (أن المجرات تتباعد عن بعضها بعضاً بسرعات تتناسب مع المسافة بينها، يشبه ذلك قليلاً قالب الحلوى الذي نضعه في الفرن، فكلما انتفخ تباعدت فيه حبات الزبيب عن بعضها بعضاً، وهذه الحركة لجمال المجرات والمسماة توسع الكون^(١).

يقول "ستيفن هوكنغ" *: (صورتنا الحديثة عن الكون يرجع تاريخها فقط إلى ١٩٢٤ عندما برهن عالم الفلك الأمريكي "إدوين هبل" على أن مجرتنا ليست المجرة الوحيدة، والحقيقة أن هناك مجرات كثيرة أخرى، بينها قطع فسيحة من فضاء خاوي، وحتى يثبت ذلك فإنه احتاج إلى تحديد المسافات إلى هذه المجرات الأخرى، وهي بعيدة جداً بحيث إنها بخلاف النجوم القريبة التي تبدو في الواقع ثابتة واضطر "هبل" بسبب ذلك إلى استخدام وسائل غير مباشرة لقياس المسافات، وقام "هبل" بحساب المسافات إلى تسع مجرات مختلفة، ونحن نعرف الآن أن مجرتنا ليست إلا واحدة من مجرات يناهز عددها مائة ألف مليون مما يمكن رؤيته باستخدام {التلسكوبات الحديثة}... واكتشاف أن الكون يتمدد هو إحدى الثورات الثقافية العظيمة في القرن العشرين^(٢).

ويقول "ستيفن هوكنغ" أيضاً: (بعد انقضاء ساعات قليلة على الانفجار العظيم يكون توليد {الهليوم}* والعناصر الأخرى قد توقف بعد ذلك، وحتى لفترة مليون سنة تلت أو نحو ذلك يكون الكون قد استمر في توسعه من دون حدوث ما هو ذو شأن يذكر، وأخيراً عندما تكون الحرارة قد انخفضت إلى آلاف قليلة من الدرجات، ولم يعد {للإلكترونات} وللنوى ما يكفي من الطاقة للتغلب على الجاذبية الكهرومغناطيسية فيما بينها، تأخذ هذه {الإلكترونات} والنوى بالتكتل لتكوين الذرات ويكون الكون ككل قد استمر في التوسع والتبرد^(٣).

ثم إن (المراقبين في سائر المجرات النموذجية، يرون دفعة مادية واحدة وفي جميع الاتجاهات، وفي أثناء هذا التوسع تزداد أطوال موجات الأشعة الضوئية متناسبة مع المسافة بين المجرات، ولا يظن أن هذا التوسع هو نتيجة لقوة كونية دافعة، بل إنه ببساطة سرعة انفلات وهروب اكتسبتها الأجرام عند حدوث انفجار سابق، وهذه السرعة تتناقص تدريجياً تحت تأثير الجاذبية^(٤).

ولقد أكدت قياسات "هبل" (أن جميع المجرات، حتى الموغلة في الأعماق السحيقة من الكون تتحرك مبتعدة عنا وبسرعات هائلة، وتبدو لأعيننا وكأن الكون يفتتح أمام ناظرينا، وعلى الرغم مما لوحظ من تباعد عام لجميع المجرات عن مجرتنا، إلا أنه تم الكشف عن استثناء وحيد في ذلك، وهو مجرة {المرأة المسلسلة} التي تبدو وكأنها تتحرك نحونا، ولقد عرف السبب الحقيقي لذلك منذ وقت قريب، وهو أن حركة شمسنا في مدارها حول مركز مجرتنا تقع في اتجاه مجرة المرأة المسلسلة^(٥).

ويقوم العلماء حالياً باستعمال (مطيافات شديدة القوة والفاعلية لتحليل ضوء النجوم، وبعد دراسات طويلة توصلوا إلى التأكد من أن الخطوط الطيفية تميل دائماً إلى الإحمرار، وعندما يتعد مصدر ضوئي عن المرصد الموجود على الأرض نجد أن تردد الضوء يتضائل، وبما أن اللون يحدد تردد الموجات الضوئية، وأن اللون الأحمر يكون تردده أقل، فإن العلماء قد استنتجوا أن ميل الخطوط الطيفية إلى الإحمرار إنما يدل على أن كل الأجرام تبعد عن بعضها، مما ينتج عنه امتداد للكون بشكل عام)^(١٧).

الإعجاز:

هذه هي الحقائق العلمية عن المرحلة الرابعة من خلق الكون وهي مرحلة «التوسع»، التي قد توصل إليها العلماء في عصرنا الحاضر، وأثبتوا كما رأينا من تصافر أبحاثهم، أن الكون ليس ثابتاً جامداً، إنما هو كون متحرك متوسع، وهذا الذي وصلوا إليه بعد كل الدراسات الشاقة والأبحاث المضنية، نجد أن القرآن الكريم الذي نزل على نبي أمي ﷺ وعلى أمة بدائية تعيش بين بحار من الرمال في فناء الصحراء الواسع، قد سبق العلماء في إثبات هذه الحقائق العلمية، وسطرها في صفحاته المجيدة، «وإنا لموسعون» لتكون سراجاً مضيئاً يتبصر بها جمهرة البشر معالم بناء حضارتهم، وسبل الوصول إلى الحق فاليقين، وليعلم الجميع أن هذا الكتاب حق، وأنه تنزيل العزيز الحميد.

الخاتمة والتوصيات

لقد رأينا كثيراً من الحقائق العلمية، التي تكشفت للعلماء في عصرنا، قد سبقهم القرآن لإثباتها وتقرير واقعها، لكن الذي قدمه العلماء هو الكشف عما هو موجود، ومع الأسف فإن الذي يكشف أسرار هذا الكون، وينقب عن غوامضه وخفاياه هم غير المسلمين، فبعد أن برع أسلافنا في العلوم الكونية والطبيعية، وخلفوا لنا ثروة هائلة من المخطوطات، قام الغرب بترجمتها والاستفادة منها فأصبحت منارة لبداية طريق النهضة والثورة العلمية، في حين نجد أن المسلمين أعرضوا عن تراثهم التجريبي هذا ؟.

لقد قدم علماءنا جزاهم الله خيراً كمّاً هائلاً من الأحكام التشريعية والعلمية، واستنبطوا الأحكام الفقهية الكثيرة من آيات الأحكام في كتاب الله وسنة المصطفى ﷺ فتركوا لنا آلاف المجلدات وعمروا المكتبة الإسلامية وأثروها بخدمتهم للقرآن الكريم وللسنة المطهرة .

لكن لتساءل إذا كان الفقهاء قد استنبطوا من آيات الأحكام تشريعاً ينظم حياة الفرد المسلم والأمة المسلمة، فلماذا لا يقوم غير الفقهاء من العلماء، ويتشرفوا بخدمة القرآن الكريم باستنباط الإعجاز العلمي المستور وراء كل آية علمية أو كونية في القرآن الكريم، وكما هو معلوم أن الآيات الكونية تفوق آيات الأحكام بكثير.

إن كلمة الحج على سبيل المثال، ورد ذكرها في القرآن تسع مرات، فكان نتيجة ذلك أن سَطَّرَ حولها مئات المجلدات والموسوعات الفقهية، فكيف إذا درسنا البحر والأرض والشمس والنجوم والإنسان والنبات... والتي ذكرها القرآن الكريم عشرات المرات فماذا تكون النتيجة ؟ إن كثيراً من أبنائنا الذين برعوا في العلوم الكونية، تراهم منبهرين بما عند غيرنا من حضارة، ومتى يعود أمثال هؤلاء إلى رشدهم، ويعكفوا على كتاب ربهم ليخدموه بما قد نالوا من معارف كونية فيسخر الفيزيائي قوانينه لدراسة الآيات الفيزيائية في القرآن، ويدرس الفلكي مواقع وأنواع النجوم والكواكب بما يستلهمه من إشارات القرآن ومعطياته، ويقف الطبيب بعلمه على الوصف القرآني لخلق الإنسان ويشاهد عالم الزراعة والنبات العرض القرآني لعالم النبات في صفحاته ...

وفي الختام أوصي بأمرين:

الأمر الأول: أن في القرآن أنباءً وحقائق علمية ستبقى متجددة مساورة للركب الحضاري والعلم الإنساني مدى الدهر، فإعجازاته مستمرة مع كل جيل، فما رأينا نحن الآن من حقائق علمية كشف عنها العلماء ووجدنا أن القرآن ذكرها قد غابت عن أسلافنا، وإن هناك حقائق لم تظهر بعد تعتبر بالنسبة لنا في تلافيف الغيب المستقبلي والتي ستكون مشاهدة ومرئية للأجيال القادمة من أبنائنا.

الأمر الثاني: بناءً على هذا، فإن البحث في هذا الموضوع مفتوح بل هو خصب، لذلك أهيب بذوي الاختصاص، وأولي الأمر من قادة المسلمين بتهيئة الجو المناسب، و تسخير أدوات البحث العلمي للبحاث والدارسين في جوانب الإعجاز العلمي في القرآن، وتوفير الإمكانيات البحثية في سبيل تحقيق ذلك الهدف. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث بالمعجزات الباهرات رحمة للعالمين سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه والتابعين .

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: الكتب الشرعية واللغوية.

- إرشاد العقل السليم تفسیر القرآن الكريم، محمد بن مصطفى العمادي أبو السعود، بيروت دار إحياء التراث العربي، د.ت.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، بيروت، عالم الكتاب، د.ت، ١٠٢/٤.
- أنوار التنزيل، عبد الله بن عمر البياضي، تحقيق، عبد القادر عرفات، بيروت، دار الفكر ١٤١٦هـ/١٩٩٦.
- بحر العلوم، نصر بن محمد السمرقندي، تحقيق، محمود مطرجي، بيروت، دار الفكر العربي، ١٩٩٧، ٢١٧/٣.
- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير، بيروت، دار الفكر، ١٤٠١هـ.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد الطبري، بيروت، دار الفكر ١٤٠٥هـ.
- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن فرح القرطبي، تحقيق، أحمد عبد العليم البردوني، القاهرة، دار الشعب، الطبعة الثانية، ١٣٧٢هـ - ٢٨٢/١١.
- الدر المنثور، عبد الرحمن بن جلال الدين السيوطي، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٣.
- روح المعاني والسيب الثاني، محمد الألوسي أبو الفضل بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، بيروت، دار اليمامة، تحقيق، مصطفى البغا الطبعة الثالثة، ١٩٨٧/١٤٠٧.
- فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.
- القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٥.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، بيروت، دار صادر، الطبعة الأولى، د.ت.
- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، تحقيق، محمود خاطر، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥.
- ١٥ - مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق، صفوان داوودي، دمشق، دار القلم، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ/١٩٩٧.

ثالثاً: الكتب والموسوعات العلمية.

- ١- أجل تاريخ للكون، جويل دوروني وآخرون، ترجمة، موسى خوري، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٩٦.
- ٢- أحاديث حول اللامرئي، جان أودوز وآخرون، ترجمة، نور الدين عبيد، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠، دمشق، مكتبة الأهلبي.
- ٣- الأطلس الفلكي، عصام الميداني، دمشق، دار دمشق، ١٩٩٦.
- ٤- أعلام الحضارة، سمير شيخاني، بيروت، مؤسسة عز الدين، ١٤٠١هـ/١٩٨١.
- ٥- آفاق فلكية، فوزية محمد الرويح، الكويت، جامعة الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧.
- ٦- الانفجار الكبير، أميد شمشك، ترجمة، أورشان محمد علي، عمان، دار البشير، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨.
- ٧- بداية الكون، جون فايفر، ترجمة، د. محمد الشحات، القاهرة، مؤسسة سجل العرب، ١٩٧٥.
- ٨- بلوغ سنن الرشد في الهجرة، تقي فوس، ترجمة، هنري مطر، عمان، مركز الكتب الأردني، ١٩٩٠.
- ٩- احتمالات نهاية الكون، إعداد قسم التأليف والترجمة في دار الرشيد، دمشق- بيروت، دار الرشيد، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨.
- ١٠- الدقائق الثلاث الأولى من عمر الكون، ستيفن ونبرغ، ترجمة، وائل الأتاسي، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٨٦.
- ١١- رحلة في الكون والحياة، أحمد محمد عوف، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦.
- ١٢- الشموس المتفجرة، إسحاق عظيموف، ترجمة السيد عطا، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤.
- ١٣- طرائف علم الفلك، فيكتور كوماروف، ترجمة عبد الله حبة، موسكو، دار مير، ١٩٨٥.
- ١٤- عالم المعرفة، الكون، كارل ساغان، ترجمة، نافع أيوب لبس، الكويت، المجلس الوطني للثقافة، ١٤١٤هـ/١٩٩٣.
- ١٥- علم الفلك، هاشم أحمد، بيروت، هلا بون، د.ت.
- ١٦- علم الفلك وفلسفة النسق الكوني، فايز فوق العادة، الكويت، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي الطبعة الأولى، ١٩٩٢.
- ١٧- علم الفلك العام، مرفت السيد عوض ومصطفى كمال محمود، القاهرة، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠.

- ١٨- الفضاء والشهب، محمد فتحي عوض الله، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣ .
- ١٩- قصة الكون عجب وبهاء، كليفور دسيماك، ترجمة، د. عبد القوي عياد، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥ .
- ٢٠- قصة نشوء الكون، مخلص الريس وعلي موسى، دمشق، دار دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٠ .
- ٢١- الكون البحث عن لحظة الميلاد، هوبرت ريفز، ترجمة، درويش الحلوي، القاهرة، المستقبل العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٦ .
- ٢٢- الكون وأحجار الفضاء، محمد فتحي عوض، دمشق، دار الوثبة، الطبعة الثانية، ١٩٨٣ .
- ٢٣- الكون والطاقة، إعداد المكتب العالمي للبحوث، بيروت، المكتب العالمي ١٤٠٣هـ / ١٩٨٩ .
- ٢٤- المجرات والكوازارات، وليام كاوفمان، ترجمة، عبد الكريم السامرائي، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الأولى، ١٩٨٩ .
- ٢٥- موسوعة الكويت العلمية للكيمياء، الكويت، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الطبعة الأولى، ١٩٨٦ .
- ٢٦- الموسوعة الفلكية، خليل بدوي، عمان، عالم الثقافة، الطبعة الأولى، ١٩٩٩ .
- ٢٧- مقدمة في علم الفلك، توماس آرن، ترجمة، د. أحمد الحصري، دمشق، دار طلاس، الطبعة الأولى، ١٩٩٨ .
- ٢٨- مفكرون من عصرنا، سامي خشبة، القاهرة، المكتبة الأكاديمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١ .
- ٢٩- موسوعة غينيس في علم الفلك، باتريك مور، ترجمة، مركز التعريب والترجمة، بيروت، الدار العربية للعلوم، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤ .
- ٣٠- اخيرات الفلكية، عبد الرحيم بدر، الكويت، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الطبعة الأولى، ١٩٨٤ .
- ٣١- مشاهير القرن العشرين، محمد بوذينة، تونس، مطبعة تونس، الطبعة الأولى، ١٩٩٤ .
- ٣٢- المجموعة الشمسية ومجال الجاذبية الكونية، الأمين محمد كعورة، القاهرة، المكتب المصري الحديث، د.ت .
- ٣٣- موجز في تاريخ الزمان، ستيفن هوكينغ، ترجمة، مصطفى فهمي، القاهرة، مكتبة الأسرة، ٢٠٠١ .
- ٣٤- مفكرون من عصرنا، سامي خشبة، القاهرة، المكتبة الأكاديمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١ .
- ٣٥- موسوعة الكون والفضاء والأرض، موريس شربل ورشيد فرحات، بيروت، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٩ .
- ٣٦- نشأة الكون، السموات السبع، محمد جمال الدين الفندي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣ .

- ٣٧- نحن والكون، عبد الوهاب سليمان، الكويت، مؤسسة الكويت التقدم العلمي، الطبعة الأولى، ١٩٩٦.
- ٣٨- هل من كائنات عاقلة خارج الأرض، نزار دندش، بيروت، دار المؤلف، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠.

الهوامش

- (١) سورة فصلت ، الآية ٥٣ .
- (١) سورة العنكبوت، الآية ١٩ .
- (٢) سورة العنكبوت، الآية ٢٠ .
- (٣) سورة يونس، الآية ١٠١ .
- (٤) سورة العنكبوت، الآية ٢٠ .
- (٥) سورة الكهف، الآية ٥١ .
- (١) سورة الأنبياء، الآية ٣٠ .
- (١) جامع البيان، للطبري، ١٣/١٧ .
- (٢) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن فرح القرطبي، تحقيق، أحمد عبد العليم البردوني، القاهرة، دار الشعب، الطبعة الثانية، ١٣٧٢هـ / ١١ / ٢٨٢، وانظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٦٩٢/٥ .
- (١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، بيروت، عالم الكتاب، دت، ١٠٢/٤ .
- (٢) لسان العرب، ابن منظور، ١٣٢/٥ .
- (٣) القاموس المحيط، الفيروز أبادي، ٢٤٣/٣ .
- (٤) سورة فصلت، الآية ١١ .
- (١) سورة فصلت، الآيات ٩-١١ .
- (١) أنوار التنزيل، لليضاوي، ١٠٥/٥-١٠٦، وانظر: جامع البيان، للطبري، ٢٦/٢٤ .
- (٢) روح المعاني، للألوسي، ١١٧/٢٤-١١٨، وانظر: الدر المنثور، للسيوطي، ٣١٣/٧ .
- (٣) بحر العلوم، نصر بن محمد السمرقندي، تحقيق، محمود مطرجي، بيروت، دار الفكر العربي، ١٩٩٧، ٢١٧/٣، وانظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ٣٤٢/١٥، وانظر: أضواء البيان، للشنقيطي، ٤٠٦/٧-٤٠٧ .
- (١) مختار الصحاح، للجوهري، ٨٤/١ .
- (٢) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق، صفوان داودي، دمشق، دار القلم، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧، ص ٣١٠ .
- (١) سورة النازعات، الآيات ٢٧-٣٠ .
- (٢) سورة فصلت، الآيات ٩-١١ .
- (١) رواه البخاري، باب التفسير، رقم: (٤٥٣٧)، ١٨١٥/٤ .
- (٢) سورة البقرة، الآية ٢٩ .
- (٣) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود، ٧-٥/٨ .
- (٤) جامع البيان، للطبري، ٤٦/٣٠ .
- (١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣١٧/٨ .
- (٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٢٥٠/١ .

(٣) لسان العرب، لابن منظور، ٣٠٣ / ٤، وانظر: مفردات الفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، ص ٥١٧.

* جورج إدوارد لو ميتر، ١٨٩٤-١٩٦٦، كاهن بلجيكي كان رائداً في علم الرياضيات، عمل أستاذاً في جامعة لوفان، أهم أبحاثه التي أدت إلى نظرية الضربة الكونية الكبرى عن تكوين الكون، ظهرت في عام ١٩٢٧، خدم في الجيش البلجيكي، وريح ميدالية الحرب وقتها. انظر: موسوعة غينيس في علم الفلك، باتريك مور، ترجمة، مركز التعريب والبرمجة، بيروت، الدار العربية للعلوم، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٤، ص ٢٨٤.

* أدويل هبل، ١٨٨٩-١٩٥٣، فلكي أمريكي معاصر، قام برصد ملايين النجوم من مرصد جبل بالومار، وقام بتصنيفها في مجموعات، أعلن أن الكون أكبر مما يتصور العلم آنذاك. الأطلس الفلكي، عصام الميداني، دمشق، دار دمشق، ١٩٩٦، ص ٨٨.

* جورج جاموف، ١٩٠٤-١٩٦٨، الأمريكي الروسي الأصل، مؤسس نظرية الانفجار الكبير لنشوء الكون، وصاحب المصطلح الذي أصبح الآن من أكثر الفرضيات إثارة للجدل في تاريخ العلم، وتتبا بوفرة عنصر الهيليوم، وبنانتشار الأشعة الباردة. انظر: مفكرون من عصرنا، سامي خشبة، القاهرة، المكتبة الأكاديمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١، ص ٣١١.

(١) الشمس المتفجرة، إسحاق عظيموف، ترجمة السيد عطا، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤، ص ١٢٣-١٢٤.

(١) مقدمة في علم الفلك، توماس أرني، ترجمة، د. أحمد الحصري، دمشق، دار طلاس، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، ص ٧٠٢.

* جون فايفر أحد أئمة كتاب العلوم، وقد كرس نفسه أساساً لتقديم صورة عامة دقيقة عن نتائج البحث العلمي، وكان المحرر العلمي والطبي لمجلة "نيوزويك" والمدير العلمي لإذاعة وتلفزيون كولومبيا، له عدة مؤلفات منها: العلم في حياتك، والعقل البشري، والكون الصغير. انظر: مقمة المترجم، ص ٢.

(٢) بداية الكون، جون فايفر، ترجمة، د. محمد الشحات، القاهرة، مؤسسة سجل العرب، ١٩٧٥، ص ٩.

* الفوتون: photon، عبارة عن كمية الطاقة الضوئية المرئية أو غير المرئية، ويمتلك الفوتون طاقة وكمية حركة، ويتمتع بكتلة تساوي طاقته مقسومة على مربع سرعة الضوء، غير أنه ليس له كتلة سكون، فهو دائم الحركة بسرعة تساوي سرعة الضوء، وهو جسيم ليس له أي شحنة كهربائية. انظر: الموسوعة الفلكية، خليل بدوي، عمان، عالم الثقافة، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، ص ٨٤.

* الإلكترون: electron، مشتق من الكلمة اليونانية، electron، والتي تعني الكهرمان، وهو جسيم ذو شحنة كهربائية سالبة يدور حول نواة الذرة، توجد الإلكترونات في الحالة الاعتيادية في مداراتها الرئيسية المستقرة في الذرات، وبما أن عدد الإلكترونات يساوي عدد البروتونات في ذرة ما، فإن شحنة الذرة تساوي صفراً. انظر: موسوعة الكويت العلمية للكيمياء، الكويت، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الطبعة الأولى، ١٩٨٦، ١/٣٢٥، و ١/٦٢٦.

(١) المجرات والكوازارات، وليام كاوفمان، ترجمة، عبد الكريم السامرائي، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الأولى، ١٩٨٩، ص ١٣٧-١٣٨، وانظر: الانفجار الكبير، أميد شمشك، ترجمة، أورخان محمد علي، عمان، دار البشير، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨ ص ٢٧، وانظر: الدقائق الثلاث الأولى من عمر الكون، ستيفن ونبيرغ، ترجمة، وائل الاتاسي، دمشق، منشورات وزارة الثقافة ١٩٨٦ ص ٨١.

(٢) قصة الكون عجب وبهاء، كليفورديسيماك، ترجمة، د. عبد القوي عياد، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥ ص ١٩٥ وانظر: آفاق فلكية، فوزية محمد الرويح، الكويت، جامعة الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ص ٢٨١.

* كارل ساغان، أستاذ الفلك وعلم الفضاء بمعهد دافيد دنكان، ومدير معمل دراسات الكواكب بجامعة كورنيل، قام بدور بارز في رحلات سفن الفضاء، له نحو ستمائة ورقة بحثية علمية، بالإضافة للعديد من الكتب. انظر: مقمنة المترجم، ص ٣، وانظر: الفضاء والشهب، محمد فتحي عوض الله، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣، ص ٢٠، وانظر: بلوغ سنن الرشد في المجرة، ثمثي فرس، ترجمة، هنري مطر، عمان، مركز الكتب الأردني، ١٩٩٠، ص ٢٨٢، وانظر: الكون البحث عن لحظة الميلاد، هوبرت ريفز، ترجمة، درويش الحلوبي، القاهرة، المستقبل العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٦، ص ٧١، وانظر: أجمل تاريخ للكون، جويل دوروني وآخرون، ترجمة، موسى خوري، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٩٦، ص ٢٢.

(١) عالم المعرفة، الكون، كارل ساغان، ترجمة، نافع أيوب لبس، الكويت، المجلس الوطني للثقافة، ١٤١٤هـ/١٩٩٣، ص ٣٦، وانظر رحلة في الكون والحياة، أحمد محمد عوف، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦، ص ١٢٣، وانظر: نشأة الكون، السموات السبع، محمد جمال الدين الفندي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣، ص ١٤٢.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ٣٠.

(١) سورة الذاريات، الآية ٤٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٥٢/١٧.

(١) روح المعاني، للكلوسي، ١٧/٢٧.

(٢) فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، ٩١/٥.

(٣) مختار الصحاح، فخر الدين لرازي، ٢١٠/١.

(٤) لسان العرب، لابن منظور، ٣٩٢/٨.

* كريستيان جوهان دوفلر، doppler، فيزيائي فلكي نمساوي، اكتشف ظاهرة دوفلر، وهي تغير الطول الموجي الضوئي أو الكهرومغناطيسي المنبعث من جسم متحرك. انظر: علم الفلك، هاشم أحمد، بيروت، هلابون، دت، ص ٨٤.

(١) الكون وأحجار الفضاء، محمد فتحي عوض، دمشق، دار الوثيقة، الطبعة الثانية، ١٩٨٣، ص ٤١، وانظر: المحبريات الفلكية، عبد الرحيم بدر، الكويت، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الطبعة الأولى، ١٩٨٤، ص ٣٠. * أنيشتاين، ١٨٧٩ - ١٩٥٥، فيزيائي ألماني، صاحب نظرية النسبية المشهورة التي لا يفهما إلا نفر ضئيل، وهو من علماء الرياضيات ومن أعظم المفكرين، أتم دراسته الثانوية في ميونخ، وأخذ الجنسية السويسرية، واستقر في برلين وعين عضواً في أكاديمية العلوم فيها عام ١٩١٣، ونشر نظرية النسبية. انظر: مشاهير القرن العشرين، محمد بوذينة، تونس، مطبعة تونس، الطبعة الأولى، ١٩٩٤، ص ٨٩ وانظر: أعلام الحضارة، سمير شيخاني، بيروت، مؤسسة عز الدين، ١٩٨١/هـ ١٤٠١، ص ٢٣٨، وانظر: الأطلس الفلكي، محمد عصام الميداني، ص ٨٧. (١) نحن والكون، عبد الوهاب سليمان، الكويت، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الطبعة الأولى، ١٩٩٦، ص ٩٤، وانظر: المجموعة الشمسية ومجال الجاذبية الكونية، الأمين محمد كعورة، القاهرة، المكتب المصري الحديث، دت، ص ٢٤.

(٢) أجمل تاريخ للكون، جويل دوروني وآخرون، ص ٢٢، وانظر: هل من كائنات عاقلة خارج الأرض، نزار دندش، بيروت، دار المؤلف، الطبعة الأولى، ١٤٢٠/هـ ٢٠٠٠، ص ١٨، وانظر: الكون والطاقة، إعداد المكتب العالمي للبحوث، بيروت، المكتب العالمي ١٤٠٣/هـ ١٩٨٩، ص ٩، وانظر: علم الفلك وفلسفة النسق الكوني، فايز فوق العادة، الكويت، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي الطبعة الأولى، ١٩٩٢، ص ٣٣٥.

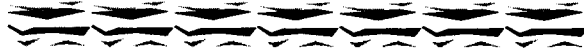
* ستيفن هوكينغ، ملاح بارع يجوب أفاقاً عجيبة في علم الكون والفيزياء، مستنداً إلى موهبة علمية فذة، وسعة أفق خلاقة، ومن الشيق أنه رجل معوق ألزمه مرض أعصابه وعضلاته كرسية ذا العجلات طيلة العشرين سنة الأخيرة من عمره، الذي بلغ التاسعة والأربعين ومع ذلك فهو يعد أبرز المنظرين في الفيزياء منذ أنيشتاين، ويشغل الآن كرسي أستاذ الرياضيات الذي كان يشغله إسحاق نيوتن في كمبرج. انظر: مقدمة المترجم، ص ٢. (١) موجز في تاريخ الزمان، ستيفن هوكينغ، ترجمة، مصطفى فهمي، القاهرة، مكتبة الأسرة، ٢٠٠١، ص ٤٤، وانظر: علم الفلك العام، مرفت السيد عوض ومصطفى كمال محمود، القاهرة، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٤٢٠/هـ ٢٠٠٠، ص ٢٧٥.

* الهليوم، أخف العناصر وأكثرها وفرة بعد الهيدروجين، كل ذرة هليوم تحتوي إلكترونين حول نواتها. الدقائق الثلاث الأولى من عمر الكون، ستيفن وينبرغ، ص ١٨٨. (٢) موجز في تاريخ الزمان، ستيفن هوكينغ، ص ١٤٢.

- (1) الدقائق الثلاث الأولى من عمر الكون، ستيفن وينبرغ، ص ٦٣.
- (2) قصة نشوء الكون، مخلص الرئيس وعلي موسى، دمشق، دار دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٠، ص ٤١.
- (3) موسوعة الكون والفضاء والأرض، موريس شربل ورشيد فرحات، بيروت، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، ص ٢٠ وانظر: طرائف علم الفلك، فيكتور كوماروف، ترجمة عبد الله حبة، موسكو، دار مير، ١٩٨٥، ص ٢٤، وانظر: أحاديث حول اللامرئي، جان أودوز وآخرون، ترجمة، نور الدين عبيد، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠، دمشق، مكتبة الأهلبي، ص ٦٦، وانظر: احتمالات نهاية الكون، إعداد قسم التأليف والترجمة في دار الرشيد، دمشق- بيروت، دار الرشيد، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨، ص ٢٧.

المحور الخامس

البشارات



- (١) البشارات بالنبي ﷺ في الكتب السابقة.
- (٢) بشارات خاتم النبيين محمد ﷺ في أسفار أهل الكتاب.
- (٣) البشارات بالنبي ﷺ في بعض أسفار أهل الكتب السابقة.

البشارات بالنبي ﷺ

في الكتب السابقة

أ.د. بركات عبد الفتاح دويدار

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين
أما بعد ،،،

فهذا بحث متواضع في موضع البشارات بالرسول صلى الله عليه وسلم حاولت في آن أبين رأي العلماء الذين يعتمدون على التحليل للكلمات ويتبعون أصولها والموضوع الذي وردت فيه حتى يصلوا إلى الحق ويسدوا الطريق على من يريد إنكار هذه البشارات بتغيير ألفاظها في الترجمات الحديثة . وهذا منهج نحتاجه الآن بعد أن ساد تحريف هذه البشارات وساعدهم على هذا التحريف ضياع الأصول التي تكلم بها الأنبياء السابقون فأصبح كل يدعي أن هذه الكلمات هي التي نطق بها الأنبياء . ولكن العلماء بالبحث عن الكلمة في مضمون البشارات كلها ضيعوا على المخرفين ما كانوا يبغونه من وراء تحريفهم ولعل هؤلاء المخرفين قد أصابهم ما أصاب المنافقين الذين حاولوا إخفاء ما عندهم من خبث فقال الله سبحانه في حقهم: (أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم " ولو نشاء لأرينا لهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم) سورة محمد / ٢٩ ، ٣٠ . فأصحاب البصائر سيكشفونهم وهذا ما تحقق ولا زال يتحقق من العلماء المخلصين سواء من كان مسلما من البدء ومن دخل الإسلام بأسباب منها هذه البشارات .

أسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل وأن يرزقنا الإخلاص .
إنه سميع مجيب .

البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم في الكتب السابقة

والمقصود السابقة على القرآن الكريم .

ولكنني أبدأ بالقرآن الكريم وذلك للأسباب التالية : -
 أولا : - القرآن الكريم ينص على ما في هذه الكتب السابقة ، وإذا فإذا آتينا بما في القرآن الكريم فإننا نكون قد آتينا بما في الكتب السابقة معتمدين على القرآن الكريم .
 ثانيا : - حين نبدأ بالقرآن الكريم مع النص على قول العلماء من هذه الأديان السابقة تكون قد برهنا لغير المسلمين على صدق ما جاء في القرآن الكريم .

ثالثا : - ومع أن القرآن الكريم لا يحتاج إلى من يحكم بصدقه إلا أن ذلك يكون حجة على مخالفيه من أصحاب الديانات .

رابعا : - أنا بذلك نتبع المنهج القرآني حيث استشهد بعلماء الأمم السابقة وذلك فيما يأتي قال تعالى (وأنه لفي زبر الأولين ، أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل) الشعراء ١٩٦-١٩٧ وقال تعالى :

(قل أرايتم أن كان عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله قامن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين) الأحقاف آية ١٠

وإن القرآن - يعني ذكره - مثبت في سائر الكتب السماوية .

وقال تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وأن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) سورة البقرة / ١٤٦ .

وقال تعالى :

(الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) الأنعام / ٢٠
 ثم بين الله كتمانهم الحق بأسلوب الاستفهام للإنكار والتوبيخ فيقول سبحانه (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ، يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) آل عمران / ٧٠ ، ٧١
 هذه بعض الآيات التي جاء في أهل الكتاب وأنهم يعرفون صدق الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وصدق القرآن الكريم وأكثرهم لم ينتفع بهذا ، فمن البشارات التي حددت أو صافه صلى الله عليه وسلم ما جاء في الإصحاح الثاني والأربعين من سفر أشعياء :

" هو ذا عبدي الذي أعضده . مختاري الذي سرت به نفسي . وضعت روحي عليه . فيخرج الحق للأمم . لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته . قصبة مرصوفة لا يقصف ، وفتيلة خامدة لا يطفى إلى الأمان يخرج الحق . لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض وينتظر الجزائر شريعته . هكذا يقول الرب خالق السماوات ، وناشرها ، باسط الأرض ونتائجها . معطي الشعب عليها نسمة والسكانين فيها روحا .

أنا الرب قد دعوتك بالبر ، فأمسك بيدك ، واحفظك واجعلك عهدا للعشب ونورا للأمم . لتفتح عيون العمى لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن الجالسين في الظلمة .

أنا الرب هذا اسمي ومجدي لا أعطيه لآخر ، ولا تسيحي للمنحوتات . هو ذا الأوليات قد أتت والحديثات أنا مخبر بها . قبل أن تنبت ألمكم بها . غنوا للرب أغنية جديدة تسيحها من أقصى الأرض ، آيها المنحدون في البحر وملؤه والجزائر وسكانها . لترفع البرية ومدقا صومًا الديار التي سكنها قياداً لترنم سكان سلع من رؤوس الجبال ليهتفوا . ليعطوا الرب مجداً ، ويخبروا بتسيحها في الجزائر . الرب كالجار يخرج . كرجل حروب ينهض غيرته . يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه .. " (إشعيا ٤٢ : ١-١٣)

بهذه البشارات أصبحوا أفهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم أي يعرفونه صلى الله عليه وسلم بأوصافه الشريفة المكتوبة في كتبهم ، ولا يشتهه عليهم كما لا يشتهم عليهم أبناءهم يفسر هذا عبد الله بن سلام :
عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سأل عبد الله بن سلام رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنا أعلم به مني بابي ،
قال : ولم ؟

قال : إني لست أشك فيه أنه نبي ، فأما ولدل فلعل والدته خانت فقبل عمر رأسه .ⁱⁱ
وفي آيتي آل عمران (وأنتم تشهدون) أي تشهدون نعته في الكتابين : التوراة والإنجيل وصحة نبوته صلى الله عليه وسلم .

وفي قوله تعالى :

• يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل (أي تخلطون الحق الذي جاء به الأنبياء ونزلت به الكتب وهو عبادة الله وحده وعمل البر والخير والبشارة بنبي من بني إسرائيل يعلم الناس الكاب والحكمة ، ولم تخلطون هذا الباطل الذي ألحقه به أحباركم ورهبانكم ...ⁱⁱⁱ
(وتكتُمون الحق وأنتم تعلمون) فكانوا يكتُمون بعض الأحكام وكذلك البشارات بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

وهذا ما كان يبينه الرسول صلى الله عليه وسلم كما جاء في الآية قوله تعالى :

(يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) المائدة / ١٥ فكان رسول الله وخاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم قد بين لأهل الكتاب كثيرا من الأحكام والمسائل التي كانوا يخفونها مما أنزل عليهم .. وكذلك أخفوا صفات النبي صلى الله عليه وسلم والبشارات به وحرفوها بالحمل على معان أخرى ، اليهود والنصارى في هذا سواء ^{iv}

العلماء والبشارات

وبمرور الأيام لا زال كذبهم وصدق القرآن الكريم ينكشفان ، فإذا كانت الأنجيل المترجمة حديثا قد غطت على البشارات فإن الأنجيل القديمة لم تلتها يد التغير لا زالت تنطق بما جاء به القرآن الكريم ، وعلمائهم هم الذين يشهدون بهذا .

يقول مرادهوفمان : -

" ومن الأهمية بمكان (أو من المأساة) أن أقدم نسخة لدينا من الإنجيل إنما كتبت بعد الجمع ^v ومع أنه ليس من الضروري أن نوافق على كل ما كتبه " كارل يابترديشنر " وما كتبه عن التاريخ الإجرامي للمسيحية فما قالته عن الديانة المزورة يقترب كثيرا مما أكدته القرآن من تزييف " للكتاب المقدس " ^{vi}

" ونعود إلى الشاهد من بني إسرائيل عبد الله بن سلام وغيره عن أنس "

أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فأتاه يسأله عن أشياء .

فقال : - إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي : -

ما أول أشراط الساعة ، وما أول طعام يأكله أهل الجنة ، وما بال الولد يروح إلى أبيه أو إلى أمه ؟

قال أخبرني جبريل آنفا . قال ابن سلام : ذلك عدو اليهود من الملائكة .

قال : أم أول أشراط الساعة ، فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد .

قال : أشهد ألا إله إلا الله . وأنت رسول الله .

قال : يارسل الله ، إن اليهود قوم بهت فأسألكم عنى قبل أن يعلموا بإسلامي فجاءت اليهود ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

أي رجل عبد الله بن سلام فيكم قالوا خيرنا وابن خيرنا ، وأفضلنا وابن أفضلنا .
فقال النبي صلى الله عليه وسلم : رأيتم أن أسلم عبد الله بن سلام ؟
قالوا : أعاده الله من ذلك ، فأعاد عليهم ، فقالوا مثل ذلك فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد ألا إله إلا الله
وأن محمدا رسول الله .

قالوا : شرنا وابن شرنا وتنقصوه .

قال : هذا كنت أخاف يا رسول الله " البخاري " ^{vii}

وكما يقول ابن حجر في الفتح عن عبد الله بن سلام :

وعبد الله بن سلام بن الحارث ، وكان خيرهم وأعلمهم وأم المؤمنين صفية بنت حيي رضي الله عنها تبين كيف
كان اليهود يعرفون صدق محمد صلى الله عليه وسلم وأنها عرفت ذلك من أبيها وعمها وقت هجرته صلى الله
عليه وسلم إلى المدينة تقول :

" لم يكن أحد من ولد أبي وعمي ياسر أحب إليهما مني ، لم ألقهما قط مع ولدهما إلا أخذاني دونه ، فلما قدم
رسول الله صلى الله عليه وسلم قباء قرية بني عمرو بن عوف غدا إليه أبي حيي بن أخطب وعمي أبو ياسر بن
أخطب مغلسين ^{viii} فوالله ما جاءنا إلا مع غروف الشمس فجاءنا كالين كسلانين ساقطين يمسيان الهويني
فمشيت إليهما كما كنت أصنع ، فوالله ما نظر إلى واحد منهما .

فسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي بن أخطب : أهو هو ؟ قال : نعم ، قال أتعرفه بنعته وصفته ؟ قال
: نعم والله .

قال : فما في نفسك منه ؟ قال : عداوته ما بقيت " ^{ix}

هذه أم المؤمنين تروي ما كان عند قومها اليهود من علم برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإذا كان أهل الكتاب غيروا بدلوا وكنتموا الحق ، فإن الواقع يقول أنهم ليسوا كلهم هكذا إذ من أهل الكتاب
من شهد كما قال تعالى :

(وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله قامن واستكبرتم) هذا في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ولا زال
هذا مستمرا حتى الآن والذي يجب أن يعرفه الجميع أن أهل الكتاب لو لم تكن هذه البشارات موجودة عندهم
لسارعوا إلى التكذيب ولأعلنوها صراحة ولتبعهم أقوامهم في هذا التكذيب .

ولكن الواقع غير هذا تماما إذ لا زال الكثير من أهل الكتاب ينطلقون من هذه البشارات إلى الإسلام بإيمان
صادق يعلنون إسلامهم ويدافعون عنه لا يهابون شيئا

وإذا كان عبد الله بن سلام وصفية بنت حبي أم المؤمنين قد عبرا بعبارات قليلة عن الكتب السابقة وما حوته من أوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم إذا كان هذا هو ما كان منهما فإن تأثير هذه الكتب (التوراة والإنجيل) وما جاء بهما لا زال ممتدا حتى الآن ليدخل مسلمون جدد بل وأمتاز هؤلاء المسلمون من أهل الكتاب بالدراسة الواسعة التي قدموها .

من هؤلاء البروفيسور " دافيد بنامين كلداني " الذي أسلم وأصبح اسمه بعد إسلامه بعد الأحد داود اسلم وترك لنا دراسة وافيه^x في البشارات في الكتب المقدسة عندهم مع النص على ما يقابلها في القرآن الكريم وهو دائم التذكير بالتحريف الذي لحق بالكتاب المقدس . (التوراة والإنجيل) فتحت عنوان :

" وسوف يأتي أحمد لكل الأمم " إنجيل حجي : ٢-٧ يقول :

الترجمة الخرفة لبعض الكتب المقدسة تأتي في الإصحاح الثاني من سفر حجي هكذا يقول :
(وبأتي مشتهدى كل الأمم)

أما القرآن الكريم فيذكر في سورة الصف وفي الآية ٦ :

(وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا سحر مبین) ثم بين تدمير هيكل سليمان ونفي جميع الأهالي من القبائل العشرة وذلك أبناء يهوذا وبنيامين الذين سملوا من الذبح فقد نقلوا إلى بلاد بابل .

ثم سمح لليهود بالعودة إلى بلادهم وإعادة بناء الهيكل والمدينة ثم يقول : وخلال تلك الفرصة النادرة أرسل الله خادمه النبي " حجي " ليسري عن هؤلاء المخزونين ، ومعه تلك الرسالة الهامة .

ولسوف أزلزل كل الأمم وسوف يأتي " حمدا " لكل الأمم وسوف أملاً كل البيت بائجد ، كذلك قال رب الجنود ، ولي الفضة ولي الذهب ، هكذا يقول رب الجنود ، وأن مجد ذلك البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول ، هكذا يقول رب الجنود ، وفي هذا المكان أعطى السلام ، هكذا يقول رب الجنود " الإصحاح الثاني "

من سفر حجي ٧-٩ . ثم بين المصدر الذي اعتمد عليه وأنه النسخة الوحيدة للإنجيل التي كانت بحوزته وهذه النسخة كانت باللغة الوطنية الداريجة ثم يعقب على ترجمات غيره التي انتهت بكلمة " حمدا " إلى الأمانة "

وبكلمة شالوم إلى السلام " ويستعمل العقل في نقضها

إن " حمدا " شخص بشر بمجيبته ولكن من جعلوا البشر به هو الأمانة والسلام تقول لهم : فحينئذ تصبح النبوة لا شيء أكثر من همس غامض مبهم لا يفهم معناه ولكن إذا فهمنا المقصود من التعبير بكلمة " حمدا " بأنه فكرة

ثابتة عن شخص أو عن حقيقة واقعة ، وإذا ما فهمنا المقصود بكلمة " شالوم " بأنها ليست حالة مشروطة بل هي قوة فعالة وديانة رسمية ثابتة ، ومعترف بها ، عندئذ لا بد من اعتبار هذه النبوءة على أنها صادقة لا إنكار

فيها وأنها مطابقة لشخصية " أحمد " وبعثته بالإسلام " وذلك كلأني كلمتي " حمدا " و "شالوم" أو سلاما تؤديان بدقة نفس الدلالة والأهمية لكلمتي " أحمد " و " الإسلام " ^{xi}

هنا نجده يستعمل النص والعقل فمن ناحية العقل كما ذكر هنا لو ترجمنا كلمة "حمدا" بالأمنية .
سيكون السؤال : فيمن يتحقق الأمنية وفيمن يتحقق السلام ؟
ومن ناحية النص تراه يبين أنه من المفيد قبل إثبات تحقق النبوة في "أحمد" و "الإسلام" إيضاح أصول هاتين الكلمتين ثم يأخذ كلمة "حمدا" ويأتي بالجملة التي جاءت فيها ويقول إنها تقرأ في اللغة العبرية هكذا " في يافو حمداث كول هاجوييم " واليت تعني حرفيا " وسوف يأتي حمدا لكل الأمم " وينتهي إلى أن الحقيقة الناصعة تبقى بأن كلمة "أحمد" هي الصيغة العبرية لكلمة "حمدا" وهذا التفسير قاطع لا ريب ولا مرأء فيه ^{xii} ثم يقول :

ولقد جاء في القرآن الكريم وفي سورة الصف الآية السادسة :
(وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد)

والأمر واضح في البشارات الموجودة عند النصارى سواء في التوراة أم الإنجيل ويزيد ذلك توضيحا بقوله : وفي إنجيل يوحنا الذي باليونانية استعمل الاسم " باركليتوس " وهو صيغة وثنية لم تكن معرفة في دنيا الأدب الإغريقي ولكن كلمة " بيركليتوس " والتي توافق وتطابق تماما اسم " أحمد " في معناه ومغزاه في " إشراقه " و"سحوه " و" تمجيده " وفي " مقامه الم محمود الأعلى " لابد أن تكون ترجمتها من اليونانية " حمدا " ولعلها " حميده " بصيغتها الآرامية كما نطق بها يسوع المسيح .

ولكن واسفاه ، لا يوجد إنجيل باق على الزمن باللغة الأصلية التي تحدث بها السيد المسيح .^{xiii}
ومن هنا كان من غير الممكن الوصول إلى الحق إلا بهذا الجهد الذي قام به ولم يكن " عبد الأحد داود " هو الوحيد الذي بين أن " بيركليتوس " تعني " أحمد " وأنه لا يمكن اللجوء إلى كلمة أخرى بل نجد ذلك عند غيره .
يبين الشيخ عبد الوهاب النجار هذا عندما روى أنه كان مع أحد المستشرقين الدكتور " كارلو نلينو " المستشرق الطلياني وهو حاصل على درجة الدكتوراة في آداب اليهود اليونانية القديمة وقد جرى بينهما هذا الحديث .^{xiv}

ما معنى " بيركليتوس " فأجابني بقوله :

" إن القسس يقولون : إن هذه الكلمة معناها المعزى "

فقلت : إني أسأل الدكتور " كارلونيونر " الحاصل على الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة ولست أسأل قسيسا .

فقال : إن معناها الذي له حمد كثير .

فقلت : هل هذا يوافق أفعال التفضيل من " حمد " فقال : نعم

فقلت إن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسمائه " أحمد "

ومن المعلوم أن كتاب الشيخ النجار سابق على ترجمة كتاب محمد في الكتاب المقدس .

ثم يبين ^{xv} البشارة برسول الله صلى الله عليه وسلم وأنها كيف غيرت ويوقفنا على الترجمة بعد أن بين أنه لا ينبغي إلا وجه الله تعالى :-

جاء في " لوقا " أنه ظهر في الليلة التي ولد فيها المسيح عليه السلام جمهور من الجنود السماوية للرعاة كانوا في

البرية يترغمون بهذا النشيد (لوقا): ١٤

" اعبد الله في الأعالي ، وعلى الأرض إسلام ، وللناس ^{xvi} أحمد " أن الذي فتح عيني هذا المحرر الفقير ووهب له

مفتاح أبواب خزائن الإنجيل ، وكان له دليلا في تتبع الأديان الأخرى وأنعام النظر في الإنجيل مرة أخرى هو

هذه الآية آية الآيات إني مطمئن بأن هذه الآية الجليلة ستبعث اليقظة مع الحيرة والدهشة في قلوب كثير من

المسحين كما وقع ذلك لي ، لأني واثق بأنه يوجد في هذه الملة اليوم أناس كثيرون براء من العصب والفسفسطة

، وأهم لا يتأخرون عن الإذعان والتصديق للكلام الحق ، ولا يترددون في قبول الفكر الصحيح وقتما ما ثم

يحاول أن يبين أن شروط السلام على الأرض لا يمكن أن تتحقق بالوسائل التي يتبعها غير المسلمين ويبين ذلك

بأن الطوائف المسيحية ليس بينها سلام وبين أسباب ذلك بيان الولاءات عندهم وأنها أمور غير مفهومة فيبين

المعمودية والعشاء الرباني وكيف يتحول ذلك إلى لحم المسيح ودمه ثم ولاءات الكنسية إلى أين : ولاءات

خاصة نحو القلوب المقدسة لعيسى ومرم والقديس يوسف والمراحل أو المنازل الأربع عشرة للصلب ، وكذلك

ها ولاء لتمائيل مئات عديدة من القديسين والشهداء وآلاف من العظام والبقايا الحقيقية أو المزيفة هؤلاء ،

وكذلك لها عبادة لقطعة الفطير المقدسة — كما لله تعالى — ومع ذلك لا زال السلام مفقود ^{xvii}

ويتعرض لمسألة الاعتراف فيقول عن تقاليدهم :-

ويجب الاعتراف بجميع الخطايا، صغيرها وكبيرها أمام الكاهن أو القسيس ، وأن الغفران الذي يحصل عليه

الخطاي من ذل كالأب الروحي هو الذي يأتي بالسلام والطمأنينة إلى قلبه ويمأله بانئية الحسنه ^{xviii}

ثم يبين أن شيئا من السلام لم يتحقق عندهم وأن الأسباب الحقيقية متحققة في الإسلام .

لا يمكن أن تكون على الأرض سلام إلا إذا توفرت شروط بينها بقوله : ويظهر أن السلام الحقيقي لا يمكن

الحصول عليه بالوسائل المصطنعة .

إذ إن هناك ثلاث وسائل فقط يمكن بواسطتها الحصول على السام الحقيقي التام وهي :

١. الاعتقاد المتين بوحدانية الله المطلقة .

٢. والخضوع الكامل والاستسلام لمشيئته المقدسة .

٣. وأن يكون سبحانه هو محور التأمل والتفكير باستمرار .

فمن يحقق هذه الوسائل الثلاث فهو مسلم حقيقي وعملي ، والسلام الذي يجزره عن طريقها يكون سلاما حقيقيا وغير مصطنع ، فيصبح متسامحا آمينا عادلا ورحيما ، ولكن في نفس الوقت يصبح مستعدا للقتال بكل جوارحه دفاعا عن كل ما يتعلق بالله ، وزودا عن شرفه إذا ما هدد أو هوجم^{xix} وواضح كما يقول إن الحصول على هذا السلام الكامل يتم عن طريق الإيمان الداخلي والاستسلام المطلق للخالق ، وليس عن طريق الممارسات والطقوس الخارجية المظهرية .

فهذه الأخيرة لا تفيدنا إلا إذا كان الإيمان حقيقيا ، واختياريا غير مشروط.

لذلك فنحن مضطرون إزاء الحقائق التاريخية التالية من جهة وإزاء أهمية المناسبة والمصدر الذي جاء منه هذا الإعلان من جهة أخرى ، إلى الاستنتاج أن هذا السلام على الأرض لم يكن سوى تأسيس مملكة الله على الأرض وهو أمر قادم ، أولا وهو الإسلام .

إن كلمة (Eiriny) اليونانية مرادفة للكلمات السامية :

" شالوم " " وسلاما " و " إسلام "

" هذا كل ما في الأمر " ^{xx}

إذا وصل بنا إلى أن " وعلى الأرض السلام لا تتحقق إلا بالإسلام ففي هذا النشيد الإسلام وهو

المبشر به "

ويستمر " عبد الأحد داود في الاستدلال على رأيه في أن المبشر به هو محمد صلى الله عليه وسلم ولقد بلغ به الاقتناع بهذا الصحيح أنه ترك ما كان عليه من الدين النصراني وانتقل إلى الإسلام الدين الصحيح فيبين أن " الرسالة الخاصة التي بعث بها رسوله المسيح كانت من أجل هداية أو عودة اليهود عن ضلالهم وانحرافهم واعتقادهم بأن ملكوت الله على الأرض الذي كانوا ينتظرون لم يكن ليأتي بواسطة مسيح من سلالة داود ولكن من نسل " إسماعيل " يحمل " اسم " أحمد " وهو الاسم الصحيح المائل للاسم الذي نص عليه الإنجيل اليوناني محفوظا على صورة " يودوكسوس " و " بربكنوس " وليس " باركليت " كما صورته الكنائس^{xxi} وسار عبد الأحد داود بكل جهده في الاستدلال على أن المبشر به هو محمد صلى الله عليه وسلم .

ونتقل الآن إلى عالم من علماء النصارى هو " مورييس بوكاي " سقف من الألفاظ التي يرون أنها صدرت من المسيح في العشاء الأخير وهل هو مبشر بالروح القدس أو بمحمد صلى الله عليه وسلم ثم ينتهي إلى أنه لا يمكن بالمنطق العقلي أن يكون بشر بالروح القدس بل الذي يحتمه العقل — بعد أتباع كل الأدلة العقلية — أنه بشر بمحمد صلى الله عليه وسلم ونجد عند " مورييس بوكاي " الهدوء في الفكر واستعمال المنطق حتى يخرج القارئ وهو مقتنع تماما بما يقوله مورييس بوكاي فتحت عنوان أحاديث المسيح الأخيرة .
بين أن المسيح في حديثه الأخير كان " معطيا إرشاداته وأوامره ، ومعددا بشكل نهائي المرشد الذي على الإنسانية أن تتبعه بعد اختفائه ^{xxiii}

إن نص إنجيل يوحنا — وهذا النص وحده — يسمى بشكل صريح هذا المرشد باسم يوناني هو **prarklets** الذي أصبح في الفرنسية **paraclet** وها هي الفقرات الجوهرية في هذه الخطة حسب الترجمة المسكونية للعهد الجديد .

" إذا كنتم تحبونني فستعلمون على إتباع أوامري وسأصلى للأب الذي سعطكم **paraklet** آخر (١٤ - ١٦)

ما معنى هذه الكلمة **paraclet** ؟

إن النص الذي نملك حاليا لإنجيل يوحنا يشرح معناها بالألفاظ التالية :

والـ **paraclet** الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي سيبلغكم كل شيء وسيجعلكم تتذكرون كل ما قلت لكم (١٤ ، ٢٦) وهو نفسه سيشهد له (١٥ : ٢٦)

رحيلي فائدة لكم لأنني إذا لم أرحل فالـ **paraclet** لن يأتي إليكم وعلى العكس فإذا رحلت فسأبعث به إليكم .

وهو بمجيئه سيذهل العالم فيما يخص الخطيئة والعدل والحكم (١٦ : ٧ - ٨) عندما سيأتي روح الحقيقة فيسجعلكم ترقون إلى الحقيقة بكاملها لأنه لن يتكلم بإرادته ، وإنما سيقول ما يسمع ويسعرفكم بكل ما سيأتي وسيمجديني .. (١٣ : ١٦ - ١٤)

ويقف مورييس بوكاي مع المسيح في قوله دائما سيقول ما يسمع ويسعرفكم ... الخ .
فيقول :

لا بد من طرح المشكلة فمبدئيا يبدو غريبا أن ننسب إلى الروح القدس الفقرة المذكورة أعلاه والتي تقول : -
" لن يتكلم بإرادته ، وإنما سيقول ما يسمع ويسعرفكم ما سيأتي "

ثم يعقب على هذا بقوله :

يبدو أن من غير المعقول أن ننسب إلى الروح القدس سلطان أن يتحدث وأن يقول ما يسمع^{xxiii} وبعد أن يقارن بين ما ورد في هذا الموضوع بقوله :

يبدو إذن أن الاتصال بالناس المقصود هنا لا يكمن مطلقا في إلهام من عمل الروح القدس ، إنما هو اتصال ذو طابع مادي واضح وذلك بسبب مفهوم إصدار الصوت وهو المفهوم المرتبط بالكلمة اليونانية التي تعرفه . وبعد أن يقارن بين الأفعال اليونانية التي وردت في هذا الموضوع والتي لا يمكن أن تخص إلا كائنا يتمتع بجهاز للسمع وآخر للكلام بعد هذا ينتهي إلى نتيجة وهي أن تطبيق هذه الأفعال على الروح القدس أمر غير ممكن . وبهذا التحليل لما جاء في إنجيل يوحنا ينتهي موريس بوكاي إلى أنه " عندما يقول المسيح — حسب إنجيل يوحنا (١٦ ، ١٤) : سأصلى لله وسيرسل لكم Paraclet آخر فهو يريد بالفعل أن يقول إنه سيرسل إلى البشر وسطيا آخر كما كان هو وسيطا لدى الله وفي صالح البشر أثناء حياته على الأرض وذلك يقودنا بمنتهى المنطق إلى أن نرى في الـ Paraclet عند يوحنا كائنا بشريا مثل المسيح يتمتع بحاستي السمع والكلام وهما الحاستان اللتان يتضمنهما نص يوحنا بشكل قاطع .

إذن فالمسيح يصرح بأن الله سيرسل فيما بعد كائنا بشريا على هذه الأرض ليؤدي الدور الذي عرفه يوحنا . ولنقل باختصار إنه نبي يسمع صوت الله ويكرر على مسامع البشر رسالته .

ذلك هو التفسير المنطقي لنص يوحنا إذا أعطينا الكلمات معناها الفعلي ثم

يبين موريس بوكاي السبب في وجود الروح القدس في النص وهو أنه أريد إزالة التناقض بين مجيء نبي بعد المسيح وعقيدة الكنائس بأن المسيح هو خاتم الأنبياء .

يقول : أن وجود كلمتي الروح القدس في النص الذي نملك اليوم قد يكون نابعا من إضافة لاحقة إرادية تماما تهدف إلى تعديل المعنى الأول لفقرة تناقض بإعلائها مجيء نبي بعد المسيح . مع تعاليم الكنائس المسيحية الوليدة

التي أرادت أن يكون المسيح هو خاتم الأنبياء .^{xxiv}

ومن هنا نرى أن موريس بوكاي — مع بيانه البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم في إنجيل يوحنا — ينص على أن التدخل كان لغرض مقصود وهو جعل المسيح هو خاتم الأنبياء . ولكن هذا الغرض لم يتحقق لأن بقية النصوص عكرت عليهم .

ونعود إلى " عبد الأحد داود " في كتابه محمد في الكتاب المقدس فنجده يقف طويلا لبيان البارقليط ليس هو الروح القدس ثم ينتقل إلى البيان بالدليل أن " البرقليطوس يعني أحمد " ويبدأ بالآية الكريمة ونص من إنجيل يوحنا .

(وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) الصف آية ٦

"ثم وسوف أسأل الأب أن يعطيكم برقليطوس آخر يبقى معكم إلى الأبد" يوحنا ١٤/١٦

ولكنه يعقب على نص يوحنا بأنه يبدو فيه عدم التماسك وذلك بسبب كلمة آخر وبعد أن يوضح سبب هذا يقول :

وإذا أردنا أن نجد المعنى الحقيقي لهذه الكلمات فعلينا تصحيح النص ووضع الكلمات المسروقة أو الخرفة على الصورة التالية :

وسوف أذهب إلى الأب ، وسيرسل لكم رسولا سيكون اسمه " البرقليطوس لكي يبقى معكم إلى الأبد "

وبالكلمات التي أضيفت والتي تحتها خط يعود تواضع عيسى الذي سلب منه كما نتعرف على طبيعة " البرقليطوس " ^{xxv}

وبعد أن يبرهن على أن البرقليطوس لا يمكن أن يكون معزيا ولا محاميا .. الخ

يعود إلى أصل الموضوع ليبين المراد من كلمة " برقليطوس " إن كلمة " برقليطوس " تعنى من الناحية اللغوية البحتة :

(الأعمد والأشهر والمستحق للمديح)

والصعوبة الوحيدة التي ينبغي حلها والتغلب عليها هي اكتشاف الاسم السامي الأصل الذي استخدمه عيسى المسيح أما بالعبرية أو الآرامية ..

إن الترجمة المعتمدة لدى الكنيسة الكاثوليكية واسمها " فالجيت " تترجم الاسم إلى " معز " وإذا لم أكن مخظنا ^{xxvi} فإن الصيغة الآرامية لا بد أنها كانت " محامدا " أو " حميدا " وذلك لتتناسب مع كلمة " محمد " العربية أو " أحمد " و " البرقليط " اليونانية ^{xxvii}.

ويعود بعد ذلك إلى القرآن الكريم ليبين صدقه فيما دل عليه في موضوعنا وأنه دليل على أنه تنزيل من عند الله سبحانه وتعالى فيقول :

" إن التزيل القرآني بأن عيسى بن مريم أعلن لبني إسرائيل أنه كان مبشرا برسول يأتي من بعده اسمه أحمد " واحد من أقوى البراهين على أن محمدا كان حقيقة نبيا ، وأن القرآن تنزيل إلهي فعلا ، إذ لم يكن في وسعه أبدا أن يعرف أن كلمة " البرقليط " كانت تعني " أحمد " إلا من خلال الوحي والتزيل الإلهي .

وحجة القرآن قاطعة ونهائية لأن الدلالة الحرفية للاسم اليوناني تعادل بالدقة ودون شك كلمتي " أحمد " و " محمد " ^{xxviii}

هذه هي البشارات بالرسول " صلى الله عليه وسلم " كما وضحتها اثنان من علماء النصارى " عبد الأحد داود " و " موريس بوكاي " وكل منهما كان بعيدا عن الآخر حينما يكتب ، ولا أعتقد أن الآخر " موريس بوكاي " قد نقل عن الأول " عبد الأحد داود " ومع ذلك كانت النتيجة واحدة كما سبق بيانه .

إنه الحق الواضح إنه اليقين الناتج عن دراسة متأنية .

وبهذه الأدلة التي قام بها اثنان من أكبر علماء العالم في الموضوع وهما قد عاشا في المسيحية هذه الفترة الطويلة التي تمكن كلا منهما من الاطلاع على ما في المسيحية من فكر وأدلة على عقائدها وليس هناك ما يظن أن أحدهما أو كليهما تعرض لنوع من الضغط .

هذه الأدلة التي ساقها كل منهما على البشارات بالرسول صلى الله عليه وسلم لم تعتمد على المقارنة بين كل ما جاء في الكتاب المقدس ، وبذلك أمكن الرد على الاعتراضات التي تبني على الكلمة " بارقليط " ، " بارقليطوس " ...

إن الذين حرفوا الكلمة لم يكسبوا إلا العار الذي لحقهم يقول : " عبد الأحد داود " ولكن الصيغة المحرفة لا تعني شيئا إلا العار لأولئك الذين جعلوها تحمل معنى المعزى ، أو المحامي منذ مدة ثمانية عشر قرنا .^{xxix}

ونأخذ هنا بعض البشارات من الديانات الهندية وذلك لنعرف هل التغيير تناول اسم الرسول صلى الله عليه وسلم فيها أولا ؟ ولتكون المقارنة بين البشارات في الكتب عند النصارى وعند الهنود وعند علماء الأديان من المسلمين .

أولا : في إحدى هذه البشارات :

سوف يأتي معلم روحاني مع رفقائه الكرام ويشتهر بين الناس باسم " محامد " ويستقبله الأمير قائلا : يا ساكن الصحراء هازم الشيطان ، صاحب المعجزات برينا من كل شر ، قائما على الحق خبيرا ومجسما في معرفة الله ومحبا له ، سلام عليك أنا عبدك أعيش تحت قدميك^{xxx} .

كلمة محامد — كما يقول مؤلف الكتاب لا توجد في اللغة السسكريتية وهي معرفة من لفظ " محمد " .

ثم هذه الصفات المذكورة في محامد لم توجد في بطل من أبطال الهندوس وقد وجدت بأتم صورها في نبينا محمد صلى الله عليه وسلم^{xxxi} هنا نجد النص على اسم الرسول صلى الله عليه وسلم " محمد " وهو ما جاء في البشارة " العشرين " من كتاب تخجيل من حرف التوراة والإنجيل^{xxxii}

وقال أشيعا: " يخاطب الناس عن محمد صلى الله عليه وسلم : تفهمي أيتها الأمم ، إن الرب أهاب بي من بعيد ، وذكر اسمي وأنا في الرحم ، وجعل لساني كالسيف الصارم وأنا في البطن وحاطني بظل يمينه ، وجعلني كالسهم المختار من كتانته ، وخزني لسره ، وقال لي : أنت عبدي فصر في وعد لي حقا قدام الرب وأعمالي بين يدي إلهي ، وصرت " محمدا " عند الرب فيأهني حولي وقوتي .. (أشيعا ١/٤٩-٥)

ولكن بالرجوع إلى سفر أشيعا لا نجد اسم محمد حيث نجد النص هكذا .

١- اسمي لي أيتها الجزائر ، وأصفوا أيها الأمم من بعيد .

الرب من البطن دعاني من أحشاء أمي ذكر اسمي

٢- وجل فمي كسيف حاد ، في ظل يده خياني وجلعتي سهما مبريا في كتانته أخفاني .

٣- وقال لي أنت عبدي إسرائيل الذي به أتمجد .

٤- أما أنا فقلت عبنا تعبت باطلا وفارغا أفنيت قدرتي لكن حقي عند الرب وعملي عند إلهي .

٥- والآن قال الرب جابلي من البطن عبدا له لإرجاع يعقوب غليه فينضم إليه إسرائيل فاتمجد في عيني الرب وإلهي يصير قوتي .
xxxiii

وهنا نجد اسم محمد غير موجود وكلمة الفارقليط تركوها وأتو بكلمة الروح القدس ففي البشرى الحادية والسبعون من كتاب تخجيل من حرف التوراة والإنجيل يقول :

قال يوحنا: (قال المسيح من يجيني يحفظ كلمتي وأي يجبه وإليه تأتي وعنده تتخذ المنزل ، كلمتكم هذا لأني عندكم مقيم ، والفارقليط روح القدس الذي يرسله أبي هو يعلمكم كل شيء ، وهو يذكر كل ما قلت لكم ..

هنا نجد أنه قال : (الفارقليط روح القدس " على أنه نص من يوحنا وإذا رجعنا إلى نص يوحنا نجد هكذا:

" أن أحبني أحد يحفظ كلامي ويجبه أبي وإليه تأتي عند نصح مرلا ، الذي لا يجيني لا يحفظ كلامي ، والكلام الذي تسمعونه ليس لي بل للأب الذي أرسلني .

بهذا كلمتكم وأنا عندكم ، وأما المعزى الروح القدس الذي يرسله الأب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ،
ويزدركم بكل ما قتله لكم
xxxiv

وقيل ذلك يقول :

" أن كنتم تحبونني فاحفظا وصاياي ، وأن أطلب من الأب فيعطيكُم معزيا آخر ليمكث معكم إلى الأبد .^{xxxv}
 فيجد هنا حتى كلمة فارقليط اختفت ولكن الحق لابد أن يظهر فيجد عبد الأحد داود " يأتي بنص إنجيل يوحنا
 هكذا ثم " سوف أسأل الأب وسوف يعطيكم " برقليطوس " آخر يبقى معكم إلى الأبد .^{xxxvi}
 وبسبب كلمة آخر في النص يكون اعتراض عبد الأحد داود كما لو كان عدة " فراقليطين " قد جاءوا
 وذهبوا .

ويصح النقل هكذا :

وسوف أذهب إلى الاب ، وسيرسل لكم رسولا سيكون اسمه " البرقلطوس " لكي يبقى معكم إلى الأبد "

وفي البشرى الثانية والسبعين من التخييل نجدها هكذا :

" إذا جاء الفارقليط الذي أبي أرسله ، روح الحق الذي من أبي هو يشهد لي ، قلت لكم هذا حتى إذا كان
 تؤمنوا به ولا تشكوا فيه " يوحنا ١٥/٢٦ ، ٢٧

لكن نجد هذا الكلام قد غير في الإنجيل هكذا " ومتى جاء المعزى الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحق
 الذي من عند الأب ينبثق فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معي من الابتداء " يوحنا ١٥/٢٦ ، ٢٧
 وقد جاء بما الشيخ رحمت الله هكذا : فأما إذا جاء الفارقليط الذي أرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي
 من الأب ينبثق هو يشهد لأجلي ، وأنتم تشهدون لأنكم معي من الابتداء^{xxxvii} .

ثانيا : وفي البشارة الثالثة والسبعين من كتاب التخييل :

أوردها هكذا أن خيرا لكم أن أنطلق لأني أن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط ، فإذا انطلقت أرسلته إليكم
 الخ يوحنا ١٦/٧ وما بعدها .

جاءت هذه البشارة في إظهار الحق هكذا يقول :

" وفي الباب السادس عشر من إنجيل يوحنا هكذا :

" ٧ لكي أقول لكم الحق أنه خير لكم أن أنطلق لأني أن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط ، فأما إن انطلقت أرسلته
 إليكم .

هنا نجد الفارقليط مذكور .

وأما إذا أنطلقا إلى الكتب عند النصارى فإننا نجد لفظ الفارقليط غير موجود ووضع بدله لفظ آخر هكذا .
لكني أقول لكم الحق أنه خير لكم أن أنطلق لأنه أن لم أنطلق لا يأتكم المعزى ولكن أن ذهبت أرسله إليكم^{xxxviii}.... الخ يوحنا ١٦/٧.... وما بعدها^{xxxix} هنا نجد لفظ الفارقليط لا يظهر .
وهكذا لا يمكن أن يكون غير مقصود بل هو مقصود ومتعمد^{xl} وإذا كان

إبعاد كلمة الفارقليط ليس سهلا فإننا نجد من النصارى من يريد تحويل الكلمة عن معناها وكما قال الشيخ رحمه الله^{xli} أنه جاءته رسالة من أحد القسس بشأن كلمة فارقليط " ويرى هذا القسيس أن الكلمة يونانية الأصل وأن هذا اللفظ يوناني الأصل وأنه يكون قريبا من معنى محمد أو أحمد إذا كان هكذا " بيركلوطوس " ولكن الصحيح أنه " باراكلي طوس " وبذلك فيكون بمعنى المعزى... الخ وقد رد عليه الشيخ رحمه الله ردا مستفيضا لا يتسع هذا البحث لذكره واستشهد عليه بمن أسلم من اليهود والنصارى بسبب هذه البشارات .

وكما وقف الشيخ ضد من كتب إليه هذه الرسالة ، فإننا نجد " عبد الأحد داود " ضد من يريد جعل المباشرة هو المعزى كما تقدم ولقد تعمق " عبد الأحد داود " في اللغة ومعناها وما هو المراد باللفظ حتى يؤدي المراد الذي جيء به من أجله . حيث ترك الاعتماد على اللفظ وحده ففي مسألتنا هذه هل يمكن أن يكون المبشر به المعزى أو الروح القدس ؟ إن المبشر به هو شخص يأتي لمهمة معينة ثم يرجع إلى نفس اللفظ ليقول إن اللفظ الذي

يطلق على المعزى هو " باراكالون " وليست باراكليطوس .^{xliii}

ويأتي عبد الأحد داود بنص يشكك في كل ما عند النصارى وأن اعتمادهم ليس على نص ما نطق به عيسى عليه السلام بل على ما قدرته النجاص وهو ما يقتضي عدم اليقين عندهم ويفارق ما عندهم بالإسلام .
فيقول :

" والدين الذي آمن به كل واحد من أصحاب رسول الله في السنوات الأولى من الهجرة هو نفسه الدين الذي يعتنقه اليوم كل مسلم ولا يمكن أن يقال هذا عن الدين التعميدي .

لقد انعقد أكثر من ستة عشر مجمعا كنسيا لتحديد وتعريف دين المسيحية ولم يكن ذلك إلا ليكتشف مجمع الفاتيكان في القرن التاسع عشر أن أسرار العصمة والحمل بلا دنس كانتا من التعاليم الرئيسية ، وكلا المسألتين لم تكن معروفة للرسول بطرس ولريم العذراء عليهما السلام وأن أي دين يعتمد على مداولات وقرارات المجامع العامة المؤمنة أو الملحدة هو دين مصطنع .

إن دين الإسلام هو الإيمان بالله الواحد والتسليم المطلق لمشيئته وهذا الإيمان يعتنقه الملائكة في السماء والمسلمون في الأرض أنه دين التقديس والاستنارة وقلعة لا يمكن للوثنية اقتحامها .^{xliiii}
ويظهر أن " عبد الأحد داود " أراد أن ينسف كل ما عند النصارى .

خاتمة البحث

أثر البشارات

جاء القرآن مبينا أن الكتب السابقة بشرت بمحمد صلى الله عليه وسلم بقي من هذه البشارات ما بقي وأخفى منها ما امتدت إليه يد التغيير ، وما أخفى بينه القرآن الكريم .

وجاء المخلصون من علماء أهل الكتاب ليدرسوا ما بقي في كتبهم وما بينه القرآن الكريم مما أخفى دراسة متأنية وكل ما يرجوه هو أن يعرفوا الحق ليتبعوه ، مع أن هذا كان يكلفهم كثيرا حيث إنه ليس من السهل خروج الإنسان من دينه ومفارقة جماعته إلى دين آخر ، ومع ذلك ضحوا بكل شيء لينالوا ما عند الله تعالى .

من هؤلاء عبد الله بن سلام والنجاشي الذي لم يمنعه الخوف على الملك من إعلان إسلامه مع اعتراض الاساقفة عليه ، وسلطة رجال الدين في هذه الأوقات غير خافية . ومسارعة أهل المدينة إلى بيعة العقبة إنما كان من أهم أسبابها أن نفرا من الأنصار جاءوا في الموسم فلقبهم الرسول صلى الله عليه وسلم وعرض عليهم الإسلام بعد أن عرفهم بنفسه وتلا عليهم القرآن . وكانت اليهود تسأكنهم بالمدينة " فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم إن نبيا مبعوث الآن قد أظلم زمانه نتبعه فقتلكم قتل عاد ورام ^{xliv} فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ودعاهم إلى الله أيقنوا واطمأن قلوبهم إلى ما سمعوا منه ووجدوا ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب من صفته ، فقال بعضهم : يا قوم تعلموا ^{xlv} والله إنه النبي الذي توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه ، فأجابوه إلى ما دعاهم إليه ، بأن صدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ^{xlvi} هنا نجد أن البشارات بالرسول صلى الله عليه وسلم كانت تملأ الساحة فكانت سببا في إسراع هذا النفر من الأنصار (وكانوا ستة نفر أو ثمانية) وهم أصحاب العقبة الأولى ثم كانت البيعة الثانية والثالثة مع شيوع البشارات خارج الجزيرة وأثره .

كانت النصرانية تشمل كل بلاد الروم والشام ومصر ومعظم دول أوروبا وكل هذه البلاد كان يعمها العلم بهذه البشارات وهذا يفسر لنا موقف هرقل عندما جاءه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع دحية الكلبي يدعوه فيه إلى الإسلام .

وقبل عرض ما حصل من هرقل يجب أن نذكر شيئا عن هرقل في هذه الظروف إنه إمبراطور الروم أكبر دولة في العالم في ذلك الوقت ثم هو كان على علم بالأديان وما فيها ويدرك تماما ما فيها من البشارات بالنبي المنتظر .

وفي نفس الوقت كان مشغولا — بعد انتصاره على الفرس — بإخراج

جنودهم من بلاده .

في وسط كل هذا نجده يعطي كل اهتماماته لكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه هكذا:

كتب هرقل إلى صاحبه له بروميه وكان نظيره في العلم ، وسار هرقل إلى حمص فلم يرم^{xlvi} حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي صلى الله عليه وسلم وأنه نبي . فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بمحمص ثم أمر بأبوابها فغلقت ثم اطلع فقال : يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي ؟ فحاصوا حصنة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد أغلقت فلما رأى هرقل نفرتهم وآيس من الإيمان ، قال : ردوهم على وقال : إني قلت مقالتي آنفا أختير بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت ، فسجدوا له ورضوا عنه^{xlvi} ، وفي نفس الظروف عندما التقى هرقل بسايفان وسأله عن النبي صلى الله عليه وسلم هذه الأسئلة التي تدل على عمق فكره قال لأبي سفيان فإن كنت ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين .

وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أي أعلم أي أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه .^{xlvi}

ويعلق أبو سفيان على موقف هرقل بقوله : فلما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب ، وارتفعت الأصوات وأخرجنا ، فقلت لأصحابي حين أخرجنا : لقد أمر أمر ابن أبي كبشه أنه يخافه ملك بني الأصفر ، فما زلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام .¹

وإذا كان عدم إسلام هرقل خوفه على نفسه وعلى ملكه فقد كان هناك من هو أكثر علما منه وهو الأسقف " ضغاظر " وكان كما جاء في فتح الباري صاحب أمرهم وبعد وصول دحية بكتاب النبي صلى الله عليه وسلم سأل هرقل الأسقف " ضغاظر " عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال " ضغاظر " هذا الذي كنا نتظر ، وبشرنا به عيسى أما أنا فمصدقته ومتبعه فقال : له قيصر أما أن فعلت ذلك ذهب ملكي فذكر القصة ، وفي آخره :

فقال لي الأسقف : خذ هذا الكتاب واذهب إلى صاحبك فاقرأ عليه السلام وأخبره أي أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وأني آمنت به وصدقته وأنهم قد أنكروا علي ذلك ثم خرج إليهم فقتلوه .

وينقل ابن حجر رواية ابن أسحق فيقول :

وفي رواية ابن أسحق أن هرقل أرسل دحية إلى " ضغاظر " الرومي وقال إنه في الروم أجوز قولاً مني ، وإنⁱⁱ " ضغاظر " المذكور أظهر إسلامه وألقى ثيابه التي كانت عليه ، ولبس ثياباً بيضاء ، وخرج على الروم فدعاهم إلى الإسلام ، وشهد شهادة الحق ، فقاموا إليه فضربوه حتى قتلوه .

فلما رجع دحية إلى هرقل قال له : قد قلت لك أنا نخالفهم على أنفسنا " فضغاطر " كان أعظم عندهم مني " هذه هي البشارة بالرسول صلى الله عليه وسلم في أهم بيئة مسيحية فلو كانت هذه البشارات كما يقول الأعداء غير موجودة بالنص لما كانت المعرفة به صلى الله عليه وسلم تعم هذه البيئة هكذا .

وأنا اعتبر هذا الذي حصل من هرقل ومن كانوا معه وكذلك ما حصل من المقوقس عندما وصل كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتبر هذا أقوى دليل على أخبار الكتب السابقة به صلى الله عليه وسلم ، وأنها عمت اليهود والنصارى وهيئات الأذهان لقبول الدعوة الإسلامية ، ومن اليقين أن طبقات كتبهم لم تكن غيرت بالشكل الذي هي عليه الآن .

ماذا يراد من البشارة ؟ إنما يراد منها قهينة الأذهان لقبول الدين الجديد الذي سيأتي به محمد صلى الله عليه وسلم ليس للعرب فقط بل للعالم كافة كما قال تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) الأنبياء / ١٠٧ وقال تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا) سبأ / ٢٨ أي إلا إلى جميع الخلائق من المكلفين .

وقال تعالى : (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا) الأعراف / ١٥٨ فكان من نعمة الله تعالى على الخلائق أن جاء ذكره صلى الله عليه وسلم في رسالة الأنبياء السابقين ، فهيأت الأذهان إلى قبول الإسلام وهو الذي لا زال موجودا حتى الآن ، ونراه واضحا فيمن أسلموا على مر التاريخ .

نتائج البحث

١. البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم كانت تعم الكتب السابقة كلها .
٢. حاول أصحاب هذه الديانات إخفاء هذه البشارات ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم ما نزل عليه من القرآن الكريم — كشف ما علم الله فائدة كشفه وما لم تكن فيه فائدة تركه —
٣. هيا الله العلماء من المسلمين ومن غيرهم لإبراز هذه البشارات والوقوف ضد من أراد طمسها. وآثار هؤلاء العلماء ما زالت موجودة .
٤. كانت هذه البشارات — ولا زالت حتى الآن — سببا في هزيمة النفوس لقبول الدعوة الإسلامية .

وفي الختام نحمد الله سبحانه وتعالى وندعوه أن ينصر الإسلام والمسلمين وأن يتقبل أعمالنا إنه سميع مجيب .

الهوامش

- 1- قي دار بن إسماعيل بن إبراهيم عليهم السلام وكان يقيم بمكة
- 2- تفسير أبي السعود
- 3- تفسير المنار
- 4- تفسير المنار
- 5- أي مجمع ثقبية
- 6- الإسلام كبديل : مرادهوفيمان ص ٣٨
- 7- ص ٢٧٢ فتح البخاري كتاب مناقب الأنصاري
- 8- الغلس ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بنور النهار
- 9- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ج ٣ ص ٥٤ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٧٥
- 10- منها كتاب محمد في الكتاب المقدس " ترجمة فهمي شماط ثانية قطر سنة ١٩٨٥ وترجمة " محمد فاروق الزين " بعنوان محمد صلى الله عليه وسلم كما ورد في كتب اليهود والنصارى ط. دار نهضة مصر ط الأولى سنة ٢٠٠٢ وكتاب الإنجيل والصليب نقله من التركية مسلم عراقي هكذا جاء بالعنوان ط القاهرة سنة ١٣١٥
- 11- سيكون السؤال محمد في الكتاب المقدس ص ٤٩-٥٠
- 12- ص ٥٠ ، ٥١ يتعرف قليل بسبب الخلاف بين الترجمة في النسختين قطر ونهضة مصر .
- 13- محمد في الكتاب المقدس ، ص ٥١
- 14- كما رواه الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء هامش ص ٣٩٨ ط ثانية .
- 15- أي عبد الأحد داود
- 16- ذكر هذا النشيد في كتاب محمد الكتاب المقدس ص ١٤٧ هكذا المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة .
- 17- نفسه ١٥١ ، ١٥٢
- 18- نفسه ١٥٢
- 19- في قمة الدقة في بيان حكمة الإذن بالقتال في الإسلام والله سبحانه وتعالى يقول : ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا ظلموا منهم ... العنكبوت ٤٦
- 20- نفسه ص ١٥٣ ، ١٥٤
- 21- نفسه ص ١٥٩
- 22- أي بعد اختفاء المسيح

23- دراسة الكتاب المقدس ص ١٢٧

24- نفسه ص ١٢٨، ١٢٩

25- محمد في الكتاب المقدس ص ٢١٩

26- القائل هو عبد الأحد داود

27- نفسه ص ٢٢٣

28- نفسه ٢٢٣

29- محمد في الكتاب المقدس

30- مرجعي هذا كتاب دراسات في اليهود والمسيحية وأديان الهند للدكتور محمد عبد الرحمن الأعظمي الأستاذ بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

31- نفس المرجع ص ٧٣٠

32- تأليف صالح بن حسين الجعفري ط ١ ص ٦٦٨

33- سفر أشعيا ٤٩: ١-٥٠ نسخة دار المتاب المقدس في الشرق الأوسط .

34- الكتاب المقدس ، دار الكتاب المقدس الشرق الأوسط الإصحاح ٢٤: ١٤ وما بعدها .

35- نفسه إنجيل يوحنا الإصحاح ١٦: ١٧

36- محمد في الكتاب المقدس وقد تم الكلام عن هذه المسألة ولكن ذكرها تميماً للمقارنة ولبيان التغيير الذي أصاب كاتب اليهود والنصارى وكذلك لبيان ما قاله علماؤنا في البشارات وفوق كل هذا القرآن الكريم على كلمة أحمد .

37- إظهار الحق ج ٤ ص ١١٨٦ وأرجعها إلى الباب الخامس عشر من إنجيل يوحنا ٢٦ ، ٢٧

38- - يوحنا ، من نسخة الكتاب المقدس ط دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط

39- من نسخة الكتاب المقدس الطبعة الكاثولوكية : بيروت .

40- ومن المقيد أن نذكر هنا محقق كتاب إظهار الحق حيث بين أن المبشر به ورد في ترجمة الخوري يوسف عوف بلفظ "فارقليط وبارقليط" وروح الحق وفي طبقات أخرى بلفظ المعزى ، وروح الصدق وفي طبقات أخرى بلفظ " المعزى " ورووح الق وفي طبقات أخرى بلفظ " المؤيد

وروح الحق بإختصار من هامش ص ١١٨٦

41- إظهار الحق ص ١١٨٧

42- انظر ص ٢١٦

43- محمد في الكتاب المقدس ص ٢٠١

44- أي نستأصلكم

45- تعلموا أي اعلموا

46- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ج ٣ ص ٢٦٧

47- بفتح أوله وكسر ثانيه أي لم يبرح من مكانه .

48- صحيح البخاري ، كتاب بدء الوحي

49- نفسه والأسئلة مع استنتاجات هرقل وارده في البخاري بالتفصيل ، كل هذا جعله يعلن أن ملك هذه الأمة أي العرب قد ظهر
50- نفسه .

51- فتح الباري ص ٤٢ ، ٤٣ ، في شرح الحديث المذكور

بشارات خاتم النبیین

محمد ﴿ ﷺ ﴾

في أسفار أهل الكتاب

اللواء : أحمد عبد الوهاب علي

محمد رسول الله

هو خاتم النبيين ... أكمل الله به الدين ، وأتم على يديه الرسالة ، وجعله رحمة للعالمين.

والحديث عنه دائماً متجدد..

فمنذ حمل رسالة الله إلى الناس وهو حديث العالم ، قاصيه ودانيه ، ولا يزال كذلك إلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولقد تعرض محمد رسول الله لأذى كثير من القريب والبعيد ، سواء الذين عاصروه أو أولئك الذين جاءوا من بعده ، حتى إن واحداً من علماء المسيحية المعاصرين قال في دراسته : " ربما لا يوجد صاحب دعوة تعرض للتجريح والإهانة ظلماً على مدى التاريخ مثل محمد ، كذلك لا يوجد أي أقدام أساسه السياسية — لا الدين — مثل الاتهامات التي وجهت للإسلام " ⁽ⁱ⁾.

ومع ذلك فإن الإسلام — دين الله الذي جاء به محمد الناس — ظل قوياً أبداً يلقي بظله الممدود عبر صنوف البشر ومختلف القارات.

وأخيراً وبعد زمان بدأ العالمون من غير المسلمين في الاعتراف بصدق محمد وكمال رسالته واعتباره " الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحاً مطلقاً على كلا المستويين الديني والدنيوي ، فهو قد دعا إلى الإسلام ونشره كواحد من أعظم الديانات وبعد ١٣ قرناً من وفاته فإن أثر محمد ما يزال متجدداً " ⁽ⁱⁱ⁾.

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى إخوانه المرسلين السابقين ..
وبعد.

يقول الحق في القرآن العظيم :

" الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون " (الأعراف : ١٥٧).

" الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون " (البقرة : ١٤٦).

فعلي الرغم مما تعرضت له أسفار أهل الكتاب عبر العصور من تحريفات إلا أنه لا يزال فيها كثير من البشارات إلى الآن.

ولقد قام علماء أهل الكتاب بعمل دراسات نقدية لها في القرن العشرين انتهت إلى الاعتراف صراحة بوقوع التحريف. ونبدأ بعرض موجز لبعض هذه الدراسات المتعلقة بنصوص أسفار أهل الكتاب.

إفساد نصوص الكتاب المقدس :

إن هذا هو العنوان الذي وضعته الترجمة الفرنسية المسكونية الشهيرة التي صدرت في منتصف القرن العشرين تحت اسم :

TRADUCTION OECUMENIQUE de La BIBLE

وشارك فيها نخبة متميزة من أكابر العلماء المتخصصين وتمتاز بمقدمات وشروح وتعليقات تعرف القارئ بتاريخ أسفارهم المقدسة وما جري لنصوصها عبر القرون.

ومن حسن حظ قراء العربية أن صدرت ترجمتها العربية عن دار المشرق في بيروت في أجزاء الأول منها يحمل اسم كتب الشريعة الخمسة (التوراة) ثم كتب الأنبياء ، وكتب التاريخ وكتب الزمائر ثم أسفار العهد الجديد.

وفي تعريف بنصوص العهد القديم :

تقول الترجمة العربية تحت عنوان غير دقيق هو تشويه النصوص (iii).

" لا شك أن هناك عددا من النصوص المشوهة التي تفصل النص المسوري (أي صيغة النص الرسمية التي قررت نهائيا في الدين اليهودي حوالي القرن العاشر بعد المسيح) عن النص الأصلي. فمن المحتمل (iv) أن تقفز عين الناسخ من كلمة إلى كلمة تشبهها وترد بعد بضعة أسطر مهملة كل ما يفصل بينهما وبين غيرها. وقد يدخل الناسخ في النص الذي ينقله لكن في مكان خاطئ تعليقا هامشيا يحتوي على قراءة مختلفة أو على شرح ما. والجدير بالذكر أن بعض النساخ الأتقياء أقدموا بإدخال تصحيحات لاهوتية على تحسين بعض التعابير التي كانت تبدو لهم معرضة لتفسير عقائدي خطير. أي صيغة من النص تختار؟ أو عبارة أخرى كيف الوصول إلى نص عبري يكون أقرب نص ممكن إلى الأصل؟

الحل العلمي الحقيقي يفرض علينا أن نعامل الكتاب المقدس كما نعامل جميع مؤلفات الحضارة القديمة أي نضع شجرة النسب لجميع ما نملكه من الشهود بعد أن نكون قدر درسنا بدقة فائقة مجمل القراءات المختلفة .. وهذه المقارنات كلها نستطيع أن نستعيد النموذج الأصلي الكائن في أساس جميع الشهود".
ماذا يعني ذلك؟

أنه يعني بوضوح أن أيدي الكتبة حرفت النصوص وأدخلت فيها ما ليس منها بناء على معتقدات الكتّاب. كما يعني أيضا أن النصوص في حاجة إلى تنقيح وتصحيح بغرض الوصول إلى أقرب نص إلى الأصل.

وفي تعريف بنصوص العهد الجديد تقول الترجمة العربية (v). المنقولة عن الترجمة الفرنسية المسكونية.

" إن نسخ العهد الجديد التي وصلتنا ليست كلها واحدة ، بل يمكن المرء أن يري فيها فوارق مختلفة الأهمية ، ولكن عددها كثير جداً على كل حال.

إن نص العهد الجديد قد نسخ ثم نسخ طوال قرون كثيرة بيد نساخ صلاحهم للعمل متفاوت ، وما من واحد منهم معصوم من مختلف الأخطاء التي تحول دون أن تتصف أية نسخة كانت ، مهما بذل فيها من الجهد ، بالموافقة التامة للمثال الذي أخذت عنه.

يضاف إلى ذلك أن بعض النساخ حاولوا أحيانا ، عن حسن نية ، أن يصوبوا ما جاء في مثالمهم وبدا لهم أنه يحتوي أخطاء واضحة ، أو قلة دقة في التعبير اللاهوتي ، وهكذا أدخلوا إلى النص قراءات جديدة تكاد أن تكون كلها خطأ.

ومن الواضح أن ما أدخله النساخ من التبديل على مر العصور تراكم بعضه على بعضه الآخر ، فكان النص الذي وصل آخر الأمر إلى عهد الطباعة مثقلا بمختلف ألوان التبديل ظهرت في عدد كبير من القراءات.

كان الآباء لسوء طالعنا يستشهدون به في أغلب الأحيان عن ظهر قلب (من الذاكرة) ومن غير أن يراعوا الدقة مراعاة كبيرة ، فلا يمكننا والحالة هذه الوثوق التام في ما ينقلون إلينا. " ولا يرجى في حال من الأحوال الوصول إلى الأصل نفسه "

هذا — ولدينا شواهد على أن بشارة سيدنا محمد (ﷺ) — قد تعرضت عمدا إلى التحريف نذكر هنا مثالين فقط.

المثال الأول : التحريف في ترجمة عربية.

من المعلوم أن أول الوحي إلى محمد — خاتم النبيين — قد فاجأه في غار حراء إذ جاء الملك جبريل — معلم الأنبياء — فجلس أمامه قائلا : أقرأ قال : ما أنا بقارئ فضمه الملك إليه بشدة حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله قائلا : أقرأ. قال محمد : ما أنا بقارئ.

وتكرر ذلك مرتين آخرين ، حتى إذا ما أرسله الملك في المرة الأخيرة ، بدأ يقرأ عليه القرآن مبتدأ بقول الحق " أقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . أقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم." (العلق : ١ — ٥).

فرجع بما رسول الله (ﷺ) يعانى روعا ورهبة من هول المفاجأة وشدة الوحي.

ولقد سبق أن بشر النبي أشعيا بمحادثة بدء الوحي إلى محمد خاتم النبيين على هذه الصورة ، فقال.

"يدفع الكتاب لمن لا يعرف القراءة ، ويقال له : أقرأ هذا فيقول : لا أعرف القراءة" (أشعيا ٢٩ : ١٢)

لكن هذا النص نجده في الترجمة العربية حسب الكتاب المقدس للبروتستانت وحسب الكتاب المقدس للكاثوليك ، قد حرف بالعكس ، حيث وضعت كلمة (الكتابة) بدلا من كلمة (القراءة) ، وهو ما يجعل هذه العبارة المحرفة تناقض نفسها. فبعد دفع الكتاب لذلك الإنسان ، " يقال له : أقرأ هذا " ويكون الرد المنطقي : " لا أعرف القراءة " ليس " لا أعرف الكتابة " كما تزعم الترجمة العربية المحرفة ، وقد عرفنا التحريف من مقارنة هذا النص بنظيره من التراجم الإنجليزية والفرنسية والألمانية فهو الترجمة القياسية المراجعة بالإنجليزية يقول:

AND WHEN THEY GIVE THE BOOK TO ONE WHO CANNOT READ , SAYING " READ THIS " HE SAYS, "I CANNOT READ"

ومن هنا جاءت احدث ترجمة عربية للكاثوليك والمنقولة عن الترجمة الفرنسية المسكونية والتي ظهرت تحت أسم : " كتب الشريعة الخمسة لتصحح هذا الانحراف .

المثال الثانى : التحريف فى ترجمة إنجليزية :

يقول الكتاب المقدس للبروتستانت ، على لسان موسى :

" قال الرب ، قد أحسنوا فى ما تكلموا . أقيم لهم نبيا من وسط أخوتهم مثلك ، وأجعل كلامي فى فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيه به . ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي ، أنا أطلبه (انتقم منه) — تثنية ١٨ : ١٨ — ١٩ ."

لكن ترجمة إنجليزية اليوم " **TODAY'S ENGLISH VERSION** " حرقت عبارة نبيا من وسط أخوتهم " لتكون : نبيا من وسطهم **FROM AMONG THEIR ONE PEOPLE** لماذا؟ لأن " نبينا من وسطهم " تعنى من بني إسرائيل ، أما " من وسط أخواتهم " فتعنى من أقربائهم وبالذات أولاد عمومتهم وهم بنو إسماعيل . فلقد شاع استخدام لفظ "الأخوة" فى أسفار العهد القديم ليعنى هذا . لقد كان هذا مدخلا لآبد منه قبل الحديث تفصيلا عن البشارات .

البشارات

لا يزال بين أيدينا إلي الآن بقية من البشارات بنبي الإسلام نكتفي بعرض بعض منها في إيجاز شديد كما جاءت في أسفار أهل الكتاب التي تسمى اصطلاحاً : العهد القديم ، والعهد الجديد.

أولاً : بشارات العهد القديم:

١ . بشارة التوراة :

(١) تقول التوراة — التي تكون الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم — أنه قبيل موت موسى فإنه جمع بني إسرائيل كلهم ووقف فيهم معلماً وخطيباً وكان "هذا الكلام الذي كلم به موسى جميع بني إسرائيل في عبر الأردن .. في أرض موآب ابتدأ موسى يشرح هذه الشريعة قائلاً : الرب إلهنا كلمنا في حوريب .. فالآن يا إسرائيل اسمع الفرائض والأحكام التي أنا أعلمكم لتعملوها لكي تحيوا" (تثنية ١ : ١ — ٦ ، ٤ ، ١) . لقد كان ما أعلنه موسى أمام جميع بني إسرائيل تلك البشارة بنبي مرتقب عظيم الشأن ، قال فيها :

" قال لي الرب : قد أحسنوا في ما تكلموا ، أقيم لهم نبياً من وسط أخوتكم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به .

ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه ، وأما النبي الذي يطفي فيتكلم باسمي كلاماً لم أوصه به أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبي" . (تثنية ١٨ : ١٧ — ٢٠) .

بادئ ذي بدء نقول أن هناك اتفاقاً تاماً بين المسيحيين والمسلمين على أن هذا النبي المرتقب لم يظهر في بني إسرائيل حتى عهد المسيح . ويتبين ذلك من شهادة كل من بطرس واستيفانوس الذي كان يعتقد أن تلك النبوءة قد تحققت في المسيح .

فقد قال بطرس : " يسوع المسيح المبشر به لكم قبل .. فإن موسى قال للآباء : إن نبياً مثلي سيقم لكم إلهكم من أخوتكم له تسمعون في كل ما يكلمكم به " (أعمال الرسل ٣ : ٢ — ٢٢) .

وكذلك قال استيفانوس : " هذا هو موسى الذي قال لبني إسرائيل : نبياً مثلي سيقم لكم الرب إلهكم من أخوتكم ، له تسمعون" (أعمال الرسل ٧ : ٣٧) .

ولا مانع من الموافقة على ذلك بشرط الإقرار بأن : المسيح مثل موسى تماماً ، فقد كان موسى عبد الله ورسوله وكذلك يكون المسيح .

إن هذا الإقرار يقضي تماماً على الخلافات في أساسيات العقيدة بين المسيحيين بعضهم البعض من جانب ، وبينهم وبين المسلمين من جانب آخر .

ولكن واقع الأمر — للأسف الشديد — على خلاف ذلك من جميع الوجوه .

والآن ننظر في علامات هذا النبي المرتقب فنجد كلمات النبوة تقول :

(أ) " نبيا من وسط أخوتهم " : وأخوة بني إسرائيل هم أولاد عمومتهم أو أقرباؤهم الذين يشاركونهم نسب الآباء ، فأولاد الجد الأكبر إبراهيم وأحفاده يعتبرون أخوة لأنهم ذرية لأب واحد . وقد شاع استخدام لفظ " الأخوة " في العهد القديم ليعني الأقرباء وأولاد العمومة كما في قوله :
" أرسل رسلا من قادش إلى ملك أدوم . هكذا يقول أخوك إسرائيل "
(العدد ٢ : ١٤) .

فالمقصود بـ " إسرائيل " هنا هم الشعب الإسرائيلي الذي كان يقوده موسى ، وهؤلاء كانوا أحفاد .. إسرائيل (يعقوب) بن إسحق بن إبراهيم ، كما كان ملك أدوم وشعبه ، من أحفاد .. عيسو أخي إسرائيل ، علاوة على كون الأدوميين من ذرية إسماعيل بن إبراهيم . ذلك أن عيسو بن إسحق هذا كان قد ذهب إلى عمه " إسماعيل ، وأخذ محلة بنت إسماعيل بن إبراهيم .. زوجة له " (تكوين ٢٨ : ٩)
وتكرر نفس المعنى في قوله : " أوصي الشعب قائلا : أنتم مارون يتخمن أخوتكم بني عيسو الساكنين في سعير " (تثنية ٢ : ٤)

فلغة العهد القديم تقول إن : ذرية الأحفاد يعتبرون أخوة لذرية الأحفاد الذين يشتركون معهم في الجد الأكبر .

فما سبق نتبين أن هذا النبي المرتقب : ليس إسرائيليا لكنه يشارك الإسرائيليين جدهم الأكبر .

(ب) " مطلق " إن أهم ما يتميز به موسى أنه جاء بكتاب أنزل من عند الله هو التوراة ، يقوم على التوحيد الخالص ويدعو إلى قتل الوثنيين وعباد الأصنام ، ثم يفرض شرائع وأحكاما تتعلق بالعبادات والمعاملات .. كذلك يتميز موسى بأنه " رجل حروب " فقد نظم صفوف بني إسرائيل وقادهم في الحروب ضد أعدائهم . ومن أمثلة مجهوداته الحربية :

بعد خروج موسى ببني إسرائيل من مصر " أتى عماليق وحوارب إسرائيل .. فقال .. موسى ليشوع (تابعه) انتخب لنا رجالاً وأخرج حارب عماليق .. وأما موسى وهارون وحوارب فصعدوا على رأس التلة .. كان إذا رفع موسى يده أن إسرائيل يغلب وإذا خفض يده أن عماليق يغلب " (خروج ١٧ : ٨ - ١١) .

ثم بدأ موسى يجهز بني إسرائيل للحرب فقد " كلم الرب موسى في بركة سيناء .. في السنة الثانية لخروجهم .. أحصوا كل جماعة بني إسرائيل بعشائرتهم .. من أبن عشرين سنة فصاعداً كل خارج للحرب في إسرائيل " . (العدد ١ : ١-٣) .

وفي حروب بني إسرائيل بقيادة موسى ذاقوا النصر حين أطاعوه وساروا وفق خطته فقد " أرسل إسرائيل رسلاً إلى سيحون ملك الأموريين قائلاً " دعني أمر في أرضك . فلم يسمح سيحون لإسرائيل بالمرور في تخومه .. وحارب إسرائيل فضربه إسرائيل بحد السيف وملك أرضه " . (العدد ٢١ : ٢١ - ٢٤)

كذلك ذاق بنو إسرائيل الهزيمة في معركة الجبل^(٧٦) - وفيهم موسى - حين خرجوا إلى الحرب بهواهم ورفضوا أوامره . وفي هذا قال لهم موسى : " تنطقتم كل واحد بعدة حربه واستخفتم الصعود إلى الجبل فقال الرب لي : قل لهم لا تصعدوا ولا تحاربوا .. فكلمتكم ولم تسمعوا بل عصيتم قول الرب وطغيتم وصعدتم إلى الجبل .. فخرج الأموريون الساكنين في ذلك الجبل للقائكم وطردوكم كما يفعل النحل وكسروكم " (تثنية ١ : ٤١ - ٤٤) .

(ج) " أما النبي الذي .. يتكلم باسمي كلاماً لم أوصه أن يتكلم به .. فيموت ذلك النبي "

إن هذه الفقرة تحدد عقوبة النبي الذي يفترى على الله الكذب فيدعي أن الله أوحى إليه ولم يوح إليه شيء ، فعقوبة ذلك النبي وأمثاله هي القتل . إن قوله : " يموت ذلك النبي " تعني قتله وإلا صبح عديمة المعنى ، لأن الموت نهاية كل حي سواء أكان نبياً كاذباً أم صادقاً .

إن ذلك ما تقوله التراجم القديمة : " أما النبي الذي يجتري بالكبرياء ويتكلم باسمي ما لم أمره بقوله ، أو باسم آلهة غيري فليقتل "

لقد درج الكتاب المقدس على استخدام عقوبة الموت لتعني القتل كما في حدود الزنا :

" إذا زني رجل مع امرأة .. فإنه يقتل ، الزاني والزانية .. وإذا اقتربت امرأة إلى هيمة لنزائها ، تميت المرأة والهيمة . إنهما يقتلان . دمهما عليهما " (لاويين ٢٠ : ١٦ ، ١٠)

ونقف هنا لنقول : إن توراة موسى تنص بوضوح على أن كل نبي يقول بغير " لا إله إلا الله " فإن نهايته القتل ، لأنه متنبئ الفترى على الله كذباً ، وعلم غير الحقيقة الكبرى ، وهي التوحيد الخالص ، حتى لو أتى ذلك الدعى بكل المعجزات والأعاجيب. إن هذا ما تقوله التوراة.

" إذا قام في وسطك نبي أو حالم حلماً ، وأعطاك آية أو أعجوبة ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التي كلمك عنها قاتلاً : لنذهب وراء آلهة أخرى .. فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو الحالم .. لأن الرب إلهكم يمتحنكم لكي يعلم هل تحبون الرب إلهكم ..

وذلك النبي .. يقتل لأنه تكلم بالزيف من وراء الرب إلهكم " .(تشية ١٣ : ١ - ٥)

إن آية صدق النبي - إذن - كل نبي ، هو أن يقول ويعلم " لا إله إلا الله " .

والآن نقول : إن النبي المرتقب الذي لا تزال تبشر به التوراة - إلى الآن - لا يمكن أن يكون سوي محمد نبي الإسلام ، فهو النبي الوحيد الذي ظهر بعد موسى وينطبق عليه الوصف أنه "مثل موسى" تماماً ، وذلك لأسباب كثيرة من بينها ما نذكره بعد مسلسلأ من المنشأ إلى نهاية الحياة الدنيوية لكل من هذين النبيين العظيمين:

١ . ينسب موسى إلى أبيه عمرام بن قهات بن لاوى بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، وكانت امه يوكابد بنت لاوى بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم وبهذا يلتقي أبيه مع أمه في الجد الأول لأبيه. ونلاحظ أن صلة الأب بذلك الجد أبعد من صلة الأم بمقدار جيل واحد.. وينسب محمد إلى أبيه عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى .

وكانت أمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى .. الخ. وبهذا يلتقي أبوه مع أمه في الجد الرابع لأبيه . ونلاحظ كذلك أن صلة الأب بذلك الجد أبعد من صلة الأم به بمقدار جيل واحد..

وغني عن البيان أن كليهما قد حمل به وولد ولادة طبيعية.

٢ . جاء موسى من بيت اختص بالخدمة الدينية وهم بنو لاوى ، فقد " أفرز الرب سبط لاوى ليحملوا تابوت عهد الرب ولكي يقفوا أمام الرب ليخدموه ويباركوا باسمه " (تشية ١٠ : ٨) . كذلك جاء محمد من بيت أختص بالخدمة الدينية ، فقد كان بنو عبد مناف يلون الرفادة والسقاية ، وهما تقديم الطعام لحجاج البيت الحرام وتقديم الماء العذب لهم.

٣. وكان موسى راعي غنم قبل رسالته ، وكذلك كان محمد راعي غنم قبل رسالته .
٤. وقد تزوج موسى قبل رسالته وكانت له ذرية : " أخذ موسى امرأته وبنيه وأركبهم على الحمير ورجع إلى أرض مصر " (خروج ٣ : ٢٠) .
- ولقد حدثت هذه العودة بعد الرسالة .
- وكذلك تزوج محمد قبل رسالته ، وعمره آنذاك ٢٥ عاماً ، وكانت له ذرية من خديجة بنت خويلد التي كان عمرها آنذاك ٤٠ عاماً .
٥. وكلاهما عدد زوجاته بعد الرسالة ، فقد تزوج موسى مرة أخرى من امرأة سمراء أعجبه فتعرض من جراء ذلك للنقد والسخرية ، لكن الله — سبحانه — تكفل بالدفاع عنه . فلقد " تكلمت مريم (أخته) وهارون على موسى بسبب المرأة الكوشية لأنه كان قد اتخذ امرأة كوشية فقالا : هل كلم الرب موسى وحده . ألم يكلمنا نحن أيضاً؟
- فسمع الرب ، وأما الرجل موسى فكان حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض .
- قال الرب حالاً لموسى وهارون ومريم : أخرجوا أنتم الثلاثة إلى خيمة الاجتماع ، فخرجوا هم الثلاثة .. ودعا موسى وهارون فخرجوا كلاهما . فقال (الرب) : اسمعا كلامي .
- إن كان منكم نبي للرب فبالرؤيا أستعلن له .. وأما عبدي موسى فليس هكذا . بل هو أمين في كل بيتي .. فلماذا لا تخشيان أن تتكلما على عبدي موسى؟
- فحمي غضب الرب عليهما .. وإذا مريم برصاء كالثلج .. فقال هارون لموسى : أسألك يا سيدي لا تجعل علينا الخطية التي حقنا وأخطأنا بها .. فصرخ موسى إلى الرب قائلاً : اللهم أشفها . فقال الرب لموسى : تحجج ز سبعة أيام وبعد ذلك ترجع " (العدد ١٢ : ١ - ١٤) .
- لقد عدد كل من موسى ومحمد زوجاته ولا حرج عليه فمن قبل عدد الأنبياء ، وعلى رأسهم أبوهام إبراهيم ، الذي تزوج هاجر ومعه زوجته الأولى سارة . وبعد موت سارة " عاد إبراهيم " فأخذ زوجة اسمها قطورة فولدت له (٦ أبناء) .. وأما بنو السراي اللواتي كانت لإبراهيم فأعطاهم عطايا وصرفهم .. شرقاً " (تكوين ٢٥ : ١ ، ٦) . لقد عدد إبراهيم الزوجات والسراي وكانت له منهن ذرية .
- وكذلك عدد يعقوب زوجاته ، فقد تزوج الأختين ليئه وراحيل كما تزوج جاريتيهما بلهفة وزلفة ، فجمع أربعاً في وقت واحد ، وجاء منهن بنو إسرائيل .
- وعدد داود زوجاته فقد " أخذ داود نساءً أيضاً في أورشليم وولد أيضاً داود بنين وبنات " (أخبار الأيام الأول ١٤ : ٣) .

وكانت له أختينوعم وأبيجايل امرأة نابال الكرملّي ومعكّه بنت تلماي وحجيث وأبيضال وعجلاة ، وميكال بنت شاول.

وأما عن سليمان فحدث ولا حرج إذ تقول الأسفار : " وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون : موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات ، من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل : لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم ، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم ، فالتصق سليمان هؤلاء بالخبية. وكانت له سبع مئة (٧٠٠) !! من النساء السيدات وثلاث مئة (٣٠٠)!! من السراي فأمالت نساؤه قلبه " (الملوك الأول ١١ : ١ - ٣) .

الحق .. إن الذين يمارون في تعدد الزوجات إما جهله وإما منافقون.

وبعد هذه الوقفة التي جاءت في مكانها للحديث عن تعدد الزوجات نعود لنستكمل أوجه التشابه بين موسى ومحمد.

٦. كان موسى معافا في بدنه وعقله ، وظل يتمتع بطاقته العقلية والبدنية حتى توفاه الله . " وكان موسى ابن مائة وعشرون سنة حين مات ، ولم تكل عينه ولا ذهب نضارته" (تثنية ٣٤ : ٧) .

وكذلك كان محمد معفا في بدنه وعقله. لقد كانت رجاحة عقله سبباً في منع حرب أهلية كادت تنشب بين قبائل قريش من أجل التسابق على وضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة بعد إعادة بنائها قبل بعثته. فقد اقترح عليهم أن يأتيه بثوب وضع عليه الحجر وأمسكت كل قبيلة بطرف من الثوب ، فكأنهم حملوه جميعاً إلى ما يجاذي موضع البناء ثم تناوله بيده ووضع في مكانه.

وكان محمد قوي البدن وسيم الطلعة أزهر اللون اشتهر في قومه بالأمانة فعرف بينهم منذ نشأته بالأمين. واجتمعت فيه كل صفات الخلق العظيم ، كما اكتملت فيه المهابة وقوة الشخصية التي تلتفها ألفة ولين جانب ، حتى إن الأطفال لتركن إليه وتفرح بمداعبته.

وكان محمد شجاعاً مقداماً ، أول من يلي داعي النصره ويقترح مواطن الخطر. يصف على بن أبي طالب - وهو القُدائي المقدام - مواقف الرسول في الحرب فيقول : "كنا إذا اشتدت الحرب واحمرت الحدق ، اتقينا برسول الله ، فيما يكون أحدنا أقرب إلى العدو منه".

ولقد عرف كل من موسى ومحمد بالطهارة وسلامة الطبع فعافت نفساهما الطاهرتان كل خبيث من مأكّل ومشرب فما ذاقا الخمر أو المسكر.

٧ . جاء موسى بكتاب من عند الله هو التوراة ، ولا يزال يقول الذين أعادوا كتابته بعد أن تعرض للضياع والأسر عند الأعداء — ولم يكتمل شريعته إلا حوالي عام (٤٠٠ ق.م) أي بعد موسى بنحو ٨٠٠ عام — أن ما بين دفتيه هو كلام الله ووحيه. فالحديث عن الوصايا العشر يبدأ هكذا : " ثم تكلم الله بجميع هذه الكلمات قائلاً : أنا الرب إلهك .. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي .. لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما " (خروج ٢٠ : ١ — ٤) .
" وقال الرب لموسى : أكتب لنفسك هذه الكلمات .. فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر " (خروج ٣٤ : ٢٧ — ٢٨) .

وفي آخر أيام موسى : " عندما كمل موسى كتابه كلمات هذه التوراة في كتاب إلى تمامها أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلاً : خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكنون هذابك شهاداً علىكم " (تثنية ٣١ : ٢٤ — ٢٦) .

وجاء محمد بكتاب من عند الله هو القرآن ، يشهد ما فيه على أنه كلام الله الذي أنزل وحيّاً إلى الرسول ﴿ وإنه لتعزير رب العالمين ﴿ نزل به الروح الأمين ﴿ على قلبك لتكون من المنذرين ﴿ بلسان عربي مبين ﴾ . (الشعراء : ١٩٢ — ١٩٥)
﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه ، فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ (الشورى : ٧)
﴿ قل الله شهيد بيني وبينكم ، وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ، أنتم لتشهدون أن مع الله آهة أخرى ، قل لا أشهد ، قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون ﴾ (الأنعام : ١٩)

وبين التوراة والقرآن ، جاء الإنجيل ، إلا أن ما بين أيدينا من أناجيل أربعة قانونية لم يقل واحد منها إنه كلام الله ، أو إن كاتبه قد كتبه يوحى أو إلهام .
فها هو إنجيل يوحنا الذي كتب بعد أكثر من ٧٠ سنة من رفع المسيح والذي ينسب إلى أحد تلاميذه يقول كاتبه في خاتمته : " هذا هو التلميذ الذي يشهد بهذا وكتب هذا . ونعلم أن شهادته حق . وأشياء أخرى كثيرة صنعها يسوع إن كتبت واحدة واحدة فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة " . (يوحنا ٢١ : ٢٤ — ٢٥)

ولا شك أن درجة الدقة هنا يحددها اعتراف الكاتب بأنه لا يظن أن العالم يسع الكتب التي تحكي معجزات المسيح وأن ما سطره ليس إلا شهادة منه كتبها بجهوده الشخصية ، وكذلك الحال مع بقية أناجيل متى ومرقس ولوقا بل وبقية أسفار العهد الجديد وخاصة رسائل بولس وتلاميذه المسيح والتي سبق أن عرضنا لها في موضوع

الوحي (vii).

هذا .. وثمة ميزة ينفرد بها محمد النبي المرتقب وكلام الله الذي جاء به كما يتضح من بشارة التوراة : " وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيهم به " إن هذه النبوءة ينفرد بها محمد خلافا لكل من موسى والمسيح.

فهي تعني بوضوح أن كلام الله سينطق من فم النبي إلى مسامع من حوله، أي أن أول عهدهم به سيكون قراءة كلام الله عليهم ولا مانع أن يكتب بعد ذلك. وهذا الأمر خلاف لما كان من أمر موسى والتوراة ، ذلك أن أسفار العهد القديم تقول إن أول نسخة من التوراة جاءت مكتوبة بأمر الله : " فانصرف موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة في يده. لوحان مكتوبان على جانبهما.. اللوحان هما صنعة الله ، والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين..

وكان عندما اقترب (موسى) إلى المحلة أن أبصر العجل (الذي عبده قومه) والرقص فحمى غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرها في أسفل الجبل " (خروج ٣٢ : ١٥ - ١٩).

ثم أعيدت كتابة التوراة مرة ثانية هكذا : " قال الرب لموسى : انحت لك لوحين من حجر مثل الأولين. فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين اللذين كسرتهما..

وقال الرب لموسى : أكتب لنفسك هذه الكلمات .. وكان موسى هناك عند الرب أربعين يوماً وأربعين ليلة. فكتب على اللوحين كلمات العهد ، الكلمات العشر" (خروج ٣٤ : ١ - ٢٨)

وقرب نهاية موسى " كتب موسى هذه التوراة وسلمها للكهنة بني لاوى حاملي تابوت عهد الرب ولجميع شيوخ إسرائيل " (تثنية ٣١ : ٩)

لقد كان موسى يعرف القراءة والكتابة ، بل إنه كان مثقفاً درس في جامعة عين شمس القديمة " فهذب موسى بكل حكمة المصريين "

وكذلك كان المسيح مثقفا درس الأسفار المقدسة وتلمذ على طائفة اليهود الأسنيين. ففي بدء رسالته " دخل اجمع حسب عادته يوم السبت وقام ليقراً ، فدفع إليه سفر أشعيا النبي. ولما فتح السفر وجد الموضوع الذي كان مكتوباً فيه : روح الرب على لأنه مسحني لأبشر المساكين .. وطوى السفر وسلمه إلى الخادم. . . فابتداء يقـ" (لوقا ٤ : ١٦ - ٢١)

لهم : إنه اليوم قد تم هذا المكتوب على مسامعكم". (لوقا ٤ : ١٦ - ٢١)
 مما سبق نتبين أن كلام الله الذي يجعله في فم النبي المرتقب هو ما يقرأه على الناس شفاهاً بأنه القرآن الذي جاء به ، وكان فيه : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ إن هو إلا وحي يوحى ﴾ (النجم : ٣ - ٤).

٨. وكما نعلم جميعاً فقد كان كل من موسى ومحمد "رجل حرب" قاد أتباعه في معارك شرسة ضد الكفار وعباد الأوثان. وذاتت قوات كل منهما النصر ، كما تعرضت للهزيمة.
 ويجب أن نذكر أن "رجل الحرب" في الكتاب المقدس صفة من صفات الله.
 فهذا هو موسى يعظم ربه بعد غرق فرعون وجنوده ويقول " الرب قوتي ونشيدي . . هذا إلهي فأمجده . . الرب رجل الحرب. الرب اسمه " (خروج ١٥ : ٢ - ٣).

٩. ولقد تلقي موسى الرسالة الإلهية وعمره ٨٠ عاماً : " وكان موسى ابن ثمانين سنة وهارون ابن ثلاث وثمانين سنة حين كلما فرعون " (خروج ٧ : ٧).
 وكما علمنا فقد توفي موسى عن ١٢٠ عاماً. أي أن فترة رسالة موسى بلغت ثلث عمره...
 كذلك بعث محمد وعمره ٤٠ عاماً وتوفي عن ٦٣ عاماً أي أن فترة رسالته بلغت ثلث عمره أيضاً.

١٠. وأخيراً — وليس آخراً — فقد مات كل منهما ميتة طبيعية ولم يتعرض فيها لقتل أو تعذيب ، إنما مات رضي النفس في حضن أهله وعشيرته وأتباعه.

(ب) ثم كانت هناك بشارة أخرى لا تزال تذكرها التوراة تتعلق بالإسلام ونبيه وشريعته ، وفتح مكة ودخوله ظافراً على رأس جيش من صحابته الأبرار : ١٠٠٠٠٠ من القديسين ، كما تقول التوراة .
فهذه نبوءة موسى فيهم وفي نبيهم — محمد رسول الله — تقول ، حسب ترجمة البروتستانت . " جاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من سعير ، وتلألأ من جبل فاران . وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم . فأحب الشعب . جميع قديسيه في يدك ، وهم جالسون عند قدمك ، يتقبلون من أقوالك " (تثنية ٣٣ : ٢ — ٣) .

وإذا رجعنا إلى نسخة الملك جيمس نجد ترجمة الفقرة التي تتحدث عن " ربوات القدس " وما بعدها تعطينا صورة أوضح ، أذ تقول : " وجاء مع عشرة آلاف (١٠٠٠٠) من القديسين . ومن يمينه خرجت شريعة ملتهبة لهم " (viii) .
أما العبارة التي تقول : " أحب الشعب " فنجدها في التراجم الفرنسية تتكلم عن حب الله للشعوب ، أي الناس أجمعين ، وليس شعباً واحداً ، التي جرت العادة ، في مثل تلك الحال ، أن يفهم أنه الشعب الإسرائيلي ، فالفرق كبير بين هذا وذاك . فهذه التراجم تقول : " أجل ، إنه يحب الشعوب " (ix) .
وأما قولهم : " يتقبلون من أقوالك " . فهي في نسخة الملك جيمس : " وكل واحد سيتلقى من أقوالك " .
وهناك إجماع بين التراجم على أن هذه الفقرة من سفر التثنية ، لها علاقة بفقرة أخرى من سفر حبقوق (٣ : ٣) ، ستعرض لها فيما بعد .
والآن ننظر في هذه النبوءة ، كما جاءت في سفر التثنية مع الأخذ في الاعتبار ما تقوله مختلف التراجم ، نجد أن :

مجىء الرب من سيناء ، يشير إلى رسالة موسى ، حيث ناداه الله في البقعة المقدسة .
وإشراق الرب من سعير ، يشير إلى رسالة المسيح عيسى ، حيث تمتد سعير جنوب البحر الميت ، شرق فلسطين — وحيث اعتزل المسيح نحو ١٨ عاماً مع طائفة من أهل التقوى والورع يعرفون باسم : الأسينيين .
وأما تلألؤ الرب من جبل فاران ، فهو إشارة إلى رسالة محمد الذي جاء من ذرية إسماعيل بن إبراهيم . فلقد سكن إسماعيل في " بوية فاران " . (تكوين ٢١ : ٢١) .
وكان " بنو إسماعيل : اثنا عشر رئيساً ، حسب قبائلهم ٥٠ وسكنوا من حويله إلى شور التي أمام مصر " (تكوين ٢٥ : ١٦ — ١٨) .

هذا .. ولقد دخل محمد مكة فى السنة الثامنة من الهجرة فى ١٠٠٠٠ من أصحابه ، القديسين كما تقول نبوءة موسى. دخلوها بسلام لهم ولأهلها. فلما دخل المسجد الحرام طاف بالكعبة وسجد لله شاكراً ، ثم دعا القريشيين وقال لهم :
 " يا معشر قريش ، ما ترون أبى فاعل بكم ؟"
 قالوا : خيراً. أخ كريم ، وابن أخ كريم.
 قال : " فأذهبوا فأنتم الطلقاء ."

ثم أتى رسول الله فى أول يوم لفتح مكة. ما استمر يدعو إليه طيلة ٢٠ سنة ، وما حاربتة مكة بصناديدها أشد الحرب فيه. فقد طهر المسجد الحرام من الأصنام وقضى تماماً على الوثنية.
 هذا ٥٠٠ ونجد إشارة أخرى إلى جبل فاران . جاءت فى حقوق التى أشارت إليها مختلف التراجم ، كما ذكرنا سلفاً. فهى تقول : " الله جاء من تيمان ، والقدوس من جبل فاران. سلاه جلاله غطى السموات والأرض امــــن تــــلأت مــــن تــــسيحه "
 (حقوق : ٣ : ٣) .

إن المسلمين هم الوحيدون بين المؤمنين بالله ورسالاته ، الذين يملأون الأرض تسيحاً ، خمس مرات على الأقل كل يوم فى الأذان للصلاة ، حيث يهتفون قائلين : الله أكبر. ثم يعلنون شهادة الحق الكبرى وهى : لا إله إلا الله.

وان مكة هى المدينة المقدسة الوحيدة التى قضى الله - جلّت حكمته - ألا يدخلها مشرك نجس. فوجب على المسلمين أن يحافظوا على طهارتها هذه ، فذاك قضاء الله فى كتب النبيين ، كما هتف به أشعياء السذي جاء بعد موسى بستة قرون ، فقال نبوءة عن البرية ، بلاد العرب المقفرة الجداء ، جاء فيها : " تفرح البرية والأرض اليابسة ويتهج القفر ويزهو كالترجس ٥٥ هو ذا إلهكم. الانتقام يأتى . جزاء الله ٥٥ وتكون هناك سكة وطريق يقال لها الطريق المقدسة لا يعبر فيها نجس بل هى لهم " (أشعياء ٣٥ : ١ - ٨) .
 ولقد كان قضاء الله فى القرآن العظيم :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ (التوبة : ٢٨) .
 حقاً لقد عوض الله رسوله بصحابة عظام ، قادهم فى جيش من ١٠٠٠٠ قديس ، كان كل منهم - كما تقول نبوءة التوراة - " يجلس عند قدمي النبي يتلقى من أقواله".

٢. بشارة الزمير

ثم كانت نبوءات الزمير عن ذلك النبي المرتقب ، منها :^(x)
(أ) أنه وسيم الخليفة حسن المنظر : " أنت أبرع جمالا من بني البشر "

(ب) رجل حرب من أجل الحق ن يحالفه النصر : " تقلد سيفك على فخذك أيها الجبار . . أركب من أجل الحق والدعة ، والبر ، فترك يمينك مخاوف . شعوب تحتك يسقطون ، بنات ملوك بين حظياتك " . .

ولقد كان محمد نبي الإسلام صاحب هذه الصفات وصاحب هذه الأحداث . . وفي إحدى الغزوات كانت جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق من السبايا ، ففك النبي أسارها وتزوجها فلما بلغ الخبر الناس أطلقوا من أيديهم من أسري بني المصطلق إكراما لمصاهرة رسول الله إياهم حتى لكانت عائشة تقول عن جويرية : " ما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها " .

(ج) كذلك عرف عن محمد نبي الإسلام أنه لم يشتهر بسلسلة نسب تضم في الآباء كثيرا من الملوك وإن كانت قد ضمت رؤساء قبائل سادة موقرين في أقوامهم ابتداء من أبناء إسماعيل الذين كانوا رؤساء قبائل كبيرة^(xi) .

حتى جده قصي الذي اجتمع له أمر مكة في منتصف القرن الخامس الميلادي ممثلاً في الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء والقيادة .

ولكن الله — جلت حكمته — عوضه عن ذلك النسب الأبوي بنسب ولدى فقد خرجت منه ذرية وكان له نسب انتشر في الأرض ، وكان أولئك " أهل البيت " النبوي محل تقدير وتعظيم عبر العصور . وفي هذا يقول المزمور :

" عوضاً عن آبائك يكون بنوك تقيمهم رؤساء في كل الأرض " .

لقد مات النبي ولم يورث مالا ولا ملكا وإنما ورث علما وحكمة ومودة ورحمة . وترك النبي ذرية ونسبا وصهرا .

﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ﴾ (الشورى : ٢٣)

﴿ يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطيرا ﴾ (الأحزاب : ٢٣)

٣. بشارة أشعياء :

ثم كانت نبوءات أشعياء (xiii) ، وفيها عن هذا النبي :

(أ) اشتهر بأنه عبد الله ورسوله : " هو ذا عبدي الذي أعضده ، مختارى الذي سرت به نفسي. وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم ."

وقد اشتهر محمد نبي الإسلام بأنه عبد الله ورسوله كما اشتهر بذلك عباد الله المكرمون من الأنبياء والمرسلين ، يقول القرآن الكريم :

﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ (البقرة : ٢١) .

﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ (البقرة : ٢٣) .

﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ﴾ (الكهف : ١) .

(ب) يسود الدين وتكتمل الشريعة التي جاء بها في عهده ، لا من بعده : " لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض وتنتظر الجزائر شريعته ."

ولقد وعد الله نبي الإسلام أن يتم الأمر الذي جاء به ، فقال :

﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبي الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ (التوبة : ٣٢) .

ولقد أكمل الله الدين في حياة النبي حتى إذا توفاه الله ترك الأمة الإسلامية على المحجة البيضاء ليلها كنهارها. لقد اكتمل الدين ونزل القرآن يقول :

﴿ اليوم ينس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم وأخشون ، اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ (المائدة : ٣) .

(ج) يعصمه الله من الناس حتى يكمل رسالته : " أنا الرب دعوتك بالبر فأمسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهداً للشعب ونوراً للأمم ."

ولقد طمأن الله نبي الإسلام ألا يلتفت إلى مؤامرات الكائدين له ، فالله عاصمه من الناس حتى يبلغ الأمر غايته. ولقد نزل القرآن ليعلمن هذا التحدي على رؤوس الأشهاد :

﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فيما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ﴾ (المائدة : ٦٧) .

- (د) ينتسب النبي إلى إسماعيل بن إبراهيم : " لترفع البرية ومدنها صوتها ، الديار التي سكنها قيثار " . وقيدار هذا هو الابن الثاني لإسماعيل . (تكوين ٢٥ : ١٣) .
- (هـ) أعداؤه المنهزمون عبدة أوثان ، أصحاب أصنام : " يجزى خزيا المتكلمون على المنحوتات القائلون للمسبوكات أنتن آلهتنا " :
- (و) رجل حروب مقدم ينتصر على أعدائه : " الرب كالجبار يخرج . كرجل حروب ينهض ويصرخ ويقوى على أعدائه " .

ولقد سجل القرآن المعارك الكبرى في الإسلام وكان النبي هو القائد والمخطط والغازي حين البأس :

﴿ وإذ غدوت من أهلك تبئ المؤمنون مقاعد للقتال ، والله سميع عليم ﴾ (آل عمران : ١٢١)

﴿ فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ، وحرص المؤمنون عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا ، والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً ﴾ (النساء : ٨٤) .

إن هذا أمر أختص به أولو العزم من الأنبياء والمجاهدين ، ولقد كان ذلك أمر موسى بعد أن خرج ببني إسرائيل من مصر . وانتهت مرحلة في جهاده وبدأت مرحلة أخرى ، فآنذاك " كلم الرب موسى في برية سيناء ٠٠ في السنة الثانية لخروجهم من أرض مصر قائلاً : أحصوا كل جماعة بني إسرائيل ٠٠ من ابن عشرين سنة فصاعداً ، كل خارج للحرب في إسرائيل ، تحسبهم أنت وهارون حسب أجنادهم ويكون معكما رجل لكل سبط ، هو رأس لبيت آبائه " .

(ز) في دينه هتاف من رعوس الجبال وتسييح وتكبير : " من رعوس الجبال ليهتفوا ، ليعطوا للرب مجداً ويخبروا بتسييحه في الجزائر " .

لقد بني الإسلام على خمسة أعمدة خامسها الحج ، وفيه يعقد أكبر مؤتمر ديني عالمي سنويا بجبل عرفات ، وقد جعلت الوقفة بهذا الجبل ركن الحج الركين ، إذا قال نبي الإسلام : " الحج عرفة " فهناك يهتف الحجاج لله ويسبحون ويكبرون ويهللون ويتضرعون بالدعوات وصالح العبادات ، وما أعظمه من نسك .

وفي الحج — يتجرد الإنسان عن زخرف الحياة ومتعها ، إذ يحرم عليه ممارسة بعض ما اعتاده في حياته الزوجية الصالحة مثل العلاقة الجنسية ، والتحللي بأفخر الثياب ، وعوامل الصخب والإثارة .

هناك يواجه الإنسان الحقيقة بين يدي خالقه فيأتي هذه التجربة العظيمة طوعاً في الدنيا قبل أن يأتيها كرهاً في الآخرة ، فآنذاك لا ينفع الندم ولا تجدي الحسرات .

﴿ الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، وأتقون يا أولي الألباب ﴾ ليس عليكم جناح أن تتغصوا فضلا من ربكم ، فإذا أفضتم من عرفات فأذكروا الله عند المشعر الحرام وأذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين ﴾ (البقرة ١٩٧ - ١٩٨) .

(ح) الشعب الذي ظهر فيه كان متخلفا ضعيفا طعمة لكل آكل : " شعب منهوب ومسلوب ، وقد اصطيد في الحفر كله وفي بيوت الحبوس اختبأوا . صاروا فبأ ، ولا منقذ . وسلباً ، وليس من يقول رد" . ويقول القرآن : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفئ ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم ﴾ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ﴾ (الجمعة : ٢ - ٤) .

(ط) ولكن بعد أن جاءهم النبي خرجوا من الظلمات إلى النور : " لتفتح عيون العمي ، لتخرج من الحبس المأسورين ، من بيت السجن الجالسين في الظلمة . أسير العمي في طريق لم يعرفوها ، في مسالك لم يدروها أمشيهم ، أجعل الظلمة أمامهم نوراً والمعوجات مستقيمة . هذه الأمور أفلها ولا أتركهم " .

ويقول القرآن : ﴿ آلر ، كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ (إبراهيم : ١) .

﴿ فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا ، قد أنزل الله إليكم ذكراً ﴾ رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ﴾ (الطلاق ١٠ - ١١) .

نبوءة عن القرآن :

في نبوءة لاشعيا عن القرآن الذي نزلت آياته منجمة وأوامره وشرائعه متتابعة وبلسان غير اللسان الذي كان يتكلم به بنو إسرائيل أولئك الذين رفضوا المعرفة والراحة التي جاء بها هذا النبي ، فيقول : " ليس مكان لمن يعلم معرفة ولن يفهم تعليماً ، لأنه أمر على أمر . أمر على أمر . فرض على فرض . فرض على فرض . هنا قليل وهناك قليل .

أنه بشفة لكفاء وبلسان آخر يكلم هذا الشعب . الذين قال لهم هذه هي الراحة. أريحوا الرايح وهذا هو السكون. ولكن لم يشاءوا أن يسمعوا. فكان لهم قول الرب أمرا على أمر . أمر على أمر . فرضا على فرض . فرضا على فرض . هنا قليل هناك قليلا لكي يذهبوا ويسقطوا إلى الوراى وينكسروا ويصادوا فيؤخذوا — أشعياء (٢٨ : ٩ — ١٣).

لقد رفضوا المعرفة والراحة التي جاء بها إليهم نبي الإسلام وكانت النتيجة وبالا عليهم فسقطوا وأنكسروا. وهذا ما صدق عليه التاريخ.

وصدق الله إذ نبتنا أن في أسفار السابقين حديثا عن القرآن فيقول : ﴿ وإنه لتتربل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين . وإنه لفي زبر الأولين ﴾ (الشعراء : ١٩٢ — ١٩٦).

ثانيا : بشارات العهد الجديد

١ . النبي المرتقب :

ظهر يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا) نبيا في اليهود في مطلع القرن الأول من الميلاد ليشر بالمسيح — قريبه الذي ولد معه في نفس العام — ويمهد له الطريق.

وعندما ظهر يوحنا كان اليهود يعلمون يقينا من نبوءات كتبهم أنه لا يزال هناك في عالم الأنبياء ثلاثة لم يظهرها بعد ولذلك أرسلوا إليه يسألونه.

" وهذه هي شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم . كهنة ولاويين ليسألوه من أنت؟ فاعترف ولم ينكر وأقر : أي لست أنا المسيح . فسألوه إذا ماذا؟ أيليا أنت؟ فقال: لست أنا. النبي أنت؟ فأجاب: لا . فقالوا له : ماذا تقول عن نفسك ؟ قال : أنا صوت صارخ في البرية قوموا طريق الرب كما قال أشعياء النبي .

فسألوه وقالوا له : فما بالك تعمد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي ؟

أجابهم يوحنا قائلا : " أنا أعمد بماء ، ولكن في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه.. الذي لست بمستحق أن أحل سيور حدائه " (يوحنا ١ : ١٩ — ٢٧).

من الواضح إذن أن لكل واحد من الثلاثة الذين كان ينتظرهم اليهود اسما يعرف به ، وأن أسماء أولئك هي : إيليا — والمسيح — والنبي.

ومن الواضح كذلك أن النبي المرتقب هو آخر الثلاثة ظهوروا ، أي يأتي بعد إيليا والمسيح وذلك لكونه آخر من سأل عنه اليهود يوحنا المعمدان.

ولما كان اليهود قد اشتهروا بظهور الأنبياء فيهم ، فإن تسمية هذا النبي المرتقب الأخير باسم " النبي " يعني ولا شك أنه نبي ولكنه ليس ككل الأنبياء.

أنه نبي أمره جلال ونباه عظيم . انه نبي الزمان أو هو " النبي المرتقب " .

وحتى بعد ظهور " المسيح " استمر اليهود يخلطون بينه وبين " النبي " المرتقب فقد حدث " في اليوم الأخير العظيم من العيد وقف يسوع ونادي قائلاً : إن عطش أحد فليقبل إلى ويشرب .. فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام ، قالوا : هذا بالحقيقة هو النبي .

وآخرون قالوا : هذا هو المسيح . فحدث انشقاق في الجمع لسببه .

(يوحنا ٧ : ٣٧ — ٤٣)

لقد ظهر النبي إيليا (إيلياس) في بني إسرائيل في منتصف القرن التاسع قبل الميلاد ، وإيليا هذا — انتهت حياته برفعه إلى السماء حياً .

ولقد استمر اليهود حتى ميلاد المسيح ينتظرون إيليا أو ظهور نبي يتقدم إليهم بروح إيليا . ولقد كانت بشارة الملاك للنبي زكريا أنه سيرزق بابن اسمه يحيى (يوحنا) يتقدم بروح إيليا إذ قال له الملاك: وخرأً ومسكراً لا يشرب . ومن بطن أمه يمتلئ من الروح القدس .. ويرد كثيرين من بني إسرائيل إلى الرب إلههم . ويتقدم أمامه بروح إيليا وقوته (لوقا ١٥ : ١٣ — ١٧) .

ولقد علم المسيح من حوله أن إيليا المنتظر قد جاء في شخص يوحنا بن زكريا فقد " ابتداء يسوع يقول للجموع عن يوحنا . . ماذا خرجتم لتنتظروا؟ أنبيأ ؟

نعم أقول لكم وأفضل من نبي . .

الحق أقول لكم : " لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان . . إن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا — المزمع أن يـ_____أتي " .

(متي ١١ : ٧ — ١٤) .

ومرة أخرى " سأله تلاميذه قائلين : فلماذا يقول الكتبة : إن إيليا ينبغي أن يأتي أولاً (قبل المسيح). فأجاب يسوع وقال لهم : إن إيليا يأتي ويرد كل شيء ولكني أقول لكم : إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا كل ما أرادوا . . . حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان " (متى ١٧ : ١٠ - ١٣).

والذي عملوه في يوحنا المعمدان أن حاكماً فاجراً يدعي هيرودس قطع رأسه وقدمه على طبق إرضاءً لراقصة فاجرة جزاء تنديده بعلاقة هيرودس بامرأة أخيه المدعوة هيروديا.

وخلاصة القول الذي لا جدال فيه : أن نبوءات الأنبياء السابقين ومعتقدات الجيل المعاصر للمسيح كانت تقرر يقيناً أنتظار ثلاثة مشهورين في عالم الأنبياء هم على الترتيب: إيليا ، ثم المسيح ، ثم النبي. لقد قرر المسيح صراحة أن إيليا قد جاء في شخص يوحنا المعمدان ومن المعتقد بين المسيحيين والمسلمين — أن المسيح قد جاء في القرن الأول من الميلاد. — إذن — بعد المسيح إلا أن يأتي " النبي " المرتقب ، النبي الذي يكتمل به الزمان ، وفي مجيئه يأتي " ملكوت السموات " .

ويذكر التاريخ أن محمداً نبي الإسلام قد أرسل كتباً إلى الملوك والحكام من الجيران يدعوهم فيها إلى الإسلام منهم : كسري ملك فارس وهرقل إمبراطور الروم والنجاشي ملك الحبشة والمقوقس الزعيم الديني لأقباط مصر التي كانت آنذاك تحت حكم الروم. وقد جاء رد المقوقس : " سلام عليك — أما بعد : فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه. وقد علمت أن نبياً بقي وكنت أظن أنه يخرج بالشام. وقد أكرمت رسولك " . وقد بعث إليه بجاريتين هما مارية وسيرين. وقد عرفت الأولى باسم مارية القبطية التي تزوجها النبي وولدت له إبراهيم. أما سيرين فقد تزوجها حسان بن ثابت. ولا شك أن التمهيص التاريخي لكتاب المقوقس يقرر صحته لسببين على الأقل:

أحدهما : أن إرسال مارية إلى النبي باعتبارها رداً كريماً على كتابه إلى المقوقس ثم زواج النبي منها ، وولادتها إبراهيم ، ثم موته طفلاً وحزن النبي عليه وحديثه الشهير في رثائه ثم مقالة بعض المسلمين حين وافق موت إبراهيم كسوف الشمس فحسبوا ذلك معجزة وما كان من رد النبي عليهم حين قال قولته الخالدة " إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته " — كل ذلك حقائق تاريخية مسلم بها.

وأما الثاني : فهو قول المؤرخين المسلمين بان المقوقس لم يسلم على الرغم من رده المهذب ، فإن هذا يعني تحريمهم الدقة فيما كتبه وكان بوسعهم إدعاء ، خلاف ذلك بعد أن انتشر الإسلام وساد.

بعد ذلك نقول : إن قول المقوقس في رسالته : " قد علمت أن نبياً بقي " فهو يتفق وما في الأناجيل حتى اليوم. وأما قوله : " وكنت أظن أنه يخرج بالشام أو فلسطين مثلاً لا يعدو مسألة ظنية ، بدليل قوله : " كنت أظن " . وهو قد توقع خروجه بالشام لأن الشائع أن أنبياء كثيرين ظهوروا في تلك البقعة من الأرض ، فمن المتوقع — قياساً على ذلك — أن يظهر النبي المرتقب فيها أيضاً.

بيد أن قول المسيح الذي قذف به في وجه رؤساء الكهنة وشيوخ اليهود في لقائه الغاضب بهم " أقول لكم : إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره " (متى ٢١ : ٤٣) — إن هذا القول يعني بوضوح وبساطة أن عهد خروج الأنبياء في تلك البقعة قد انتهى ، لأن رسالة الله قد نزعت من تلك الأمة اليهودية العاصية ، ثم تفضل الله بها على أمة أخرى يشهد المسيح أنها ستكون جديدة بها.

٢ . " الملكوت " المرتقب :

عندما ظهر يوحنا المعمدان كني " كان لباسه من وبر الإبل وعلى حقويه منقطة من جلد وكان طعامه جراداً وعسلاً برياً .

(وكان) يكرز في برية اليهودية قائلاً : "توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات " (متى ٣ : ٣ — ٤).

ولما " سمع يسوع أن يوحنا أسلم ، أنصرف إلى الجليل وترك الناصرة.

ومن ذلك الزمان ابتداء بسوع يكرز ويقول : "توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات " (متى ٤ : ١٢ — ١٧).

" وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت ويشفي كل مرض وكل ضعف في الشعب. " (متى ٤ : ٢٣).

" ثم دعا (المسيح) تلاميذه الإثني عشر .. هؤلاء الإثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً : إلى طريق أمم لا تمضوا ، إلى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل أذهبوا إلى خراف بيت إسرائيل الضالّة.
وفيما أنتم ذاهبون أكرزوا قائلين : إنه قد اقترب ملكوت السموات. اشفوا مرضى ، طهروا برصاً ..
مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا " . (متى ١٠ : ١ - ٨) .

ولقد علم المسيح تلاميذه أن يدعوا في صلاتهم لأن يأتي ملكوت السموات ، " إذ كان يصلي في موضع ، لما فرغ قال واحد من تلاميذه : علمنا أن نصلي كما علم يوحنا (المعمدان) أيضاً تلاميذه.
فقال لهم : متى صليتم فقولوا : أبانا الذي في السموات ، ليتقدس اسمك ليأت ملكوتك. أغفر لنا خطايانا .. ولا تدخلنا في تجربة " (لوقا ١١ : ١ - ٤) .
وكانت تلك الصلاة الربانية هي تعليم المسيح في موعظة الجبل الشهيرة.
(متى ٦ : ٩ - ١٣) .

لما سبق نتبين بوضوح أن : يوحنا المعمدان والمسيح — وتلاميذه جاءوا يبشرون باقتراب ملكوت السموات. من البدهى — إذن — أن هذا الملكوت شيء يأتي بعد المسيح.

ولقد رأينا أن المسيح تنبأ للإسرائيليين بانتزاع الملكوت منهم ، فقال لهم :
" إن ملكوت الله يترع منكم ويعطي لأمة تعمل أثماره " .
ومن ثم نتبين أن ملكوت الله الذي كان في بني إسرائيل ثم نزع منهم لم يكن سوي النبوة وما يرتبط بها من وحي ورسالة وكتب سماوية.
وأن المسيح حين تنبأ بنزعه منهم فإنه تنبأ كذلك بإعطائه لأمة أخرى تكون أفضل من تلك الأمة الإسرائيلية التي وصفت منذ عهدنا المبكر في توراة موسى بأنها " أمة عديمة الرأي ولا بصيرة فيهم " (تشيئة ٣٢ : ٢٨) .

وعندما جاء يوحنا المعمدان يمهد للمسيح كان قوله للإسرائيليين : " يا أولاد الأفاعي ، من أراكم أن تمربوا من الغضب الآتي فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أباً ، لأني أقول لكم أن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم " (متى ٣ : ٧ - ٩) .

٣. الرسول " روح الحق " :

يذكر إنجيل يوحنا نبوءة للمسيح عن الرسول العظيم الآتي بعده تقول في شأنه الترجمة العربية المعروفة باسم نسخة البروتستانت ما نورده في فقرات كالتالي:

- (أ) " إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي. وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد. روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه. وأما أنتم فتعرفونه لأنه معكم ويكون فيكم " (١٤ : ١٥ - ١٧).
- (ب) الكلام الذي تسمعونه ليس لي بل للآب الذي أرسلني. بهذا كلمتكم وأنا عندكم. وأما المعزى الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم " (١٤ : ٢٤ : ٢٦).
- (ج) " ومتي جاء المعزى الذي سأرسله أنا إليكم من الآب ، روح الحق الذي من عند الآب يثبت فهو يشهد لي. وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الابتداء " (١٥ : ٢٦ - ٢٧).
- (د) " أقول لكم الحق : إنه خير لكم أن أنطلق. لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى. ولكن إن ذهبت أرسله إليكم.
- ومتي جاء ذاك يبكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة. أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بي. وأما على بر فلأنني ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضاً. وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين " (١٦ : ٧ - ١١).
- (هـ) " إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن.
- " وأما متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل بكل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمر آتية " (١٦ : ١٢ - ١٣).

قبل الشروع في دراسة هذه النبوءة نلاحظ بادئ ذي بدء. أن التراجم المتداولة قد اتفقت على الأسم الثاني لذلك الرسول الآتي بعد المسيح ، فكان:

- في العربية : روح الحق.
- وفي الإنجليزية : **THE SPIRIT OF TRUTH**
- وفي الفرنسية : **L'ESPIRIT DE LA VERITE**

لكن تلك التراجم اختلفت في اسمه الأول فكان :

- في العربية : المعزي (نسخة البروتستانت ، والكتاب المقدس للكاتوليك ، منشورات دار الشرق) .
- وأيضا : المؤيد (العهد الجديد . منشورات دار المشرق)
- وفي الإنجليزية :

- **{ KING JAMES VERSION }** (المعزي) **THE COMFORTER**
- **{ REVISED STANDARD }** (الحامي . الناصح) **THE COUNSELLOR**
- **VERSION}**
- **{ THE ORIGINAL N.T. }** (الناصح) **THE ADVISER**
- وفي الفرنسية :

{ L. SECOND } (المعزي) **LE CONSOLATEUR**

{ T,O,B, ET B. DE JERUS. } (الباراقليط : كلمة يونانية) **LE PARACLET**

ولما كانت نبوءة المسيح قد ذكرت أنه سيكون رسولا يرسله الله الذي أرسل المسيح (الفقرتان : أ ، ب) ، كان من المنطق الذي لا يحتمل الجدل أن تكون تسميته المبداية هي : الرسول روح الحق ، وذلك إلى أن يتم التعرف على حقيقة اسمه الأول الذي اختلفوا فيه .

إن فهم هذه النبوءة وصدق تأويلها تحكمه مجموعة من الحقائق التي نعرضها فيما يلي :

(١) روح الحق إنسان :

ولقد بين يوحنا التلميذ أن روح الحق يطلق على الإنسان الصادق في القول والعقيدة فقال : " أيها الأحباء ، لا تصدقوا كل روح بل امتحنوا الأرواح هل هي من الله . . . نحن من الله فمن يعرف الله يسمع لنا ، ومن ليس من الله لا يسمع لنا .

من هذا نعرف : روح الحق ، وروح الضلال . (رسالة يوحنا الأولى ٤ : ١ - ٦) .

من ذلك يتبين أن اللغة الشعاعية التي كتب بها يوحنا التلميذ إنجيله ورسائله ، تعنى أن : روح الحق هو إنسان صادق ، هو من الله - وأن روح الضلال هو إنسان كاذب ليس من الله في شيء . ولقد أكدت ذلك حاشية كتاب أورشليم الفرنسي (المقدس) فأشارت إلى أن "روح الحق" الذي تكلم عنه يوحنا في رسالته الأولى هنا (٤ : ٦) هو ما سبق أن ذكره في إنجيله (١٤ : ١٧) .

(٢) روح الحق غير الروح القدس :

لقد ذكرت نبوءة المسيح اسم : "روح الحق" ثلاث مرات في الفقرات ٣ : ١ ، ج ، هـ (١٤ : ١٧ ، ١٥ : ٢٦ ، ١٦ : ١٣) ، بينما استبدل كاتب إنجيل يوحنا هذا الاسم بـ (الروح القدس " مرة واحدة فقط وذلك في الفقرة ٣ : ب (١٤ : ٢٦) .

لقد عاج الدكتور موريس بوكاي هذه المشكلة في كتابه المعروف باسم : الكتاب (المقدس) والقرآن والعلم^(xiii) ، إذ بينت المقارنة مع مخطوطة سريانية شهيرة اكتشفت بدير سيناء عام ١٨١٢ أن النص الوارد في ١٤ : ٢٦ يخلو من كلمة "القدس" أي أنه يتحدث عن "الروح" فقط ، وليس "الروح القدس" وهو ما يعني أن كلمة "القدس" قد أضيفت بفعل أحد النساخ .

يقول موريس بوكاي : " أن أي نقد جاد للنصوص يبدأ بالبحث عن الاختلافات النصية . ويظهر هنا أن ليس في مجموع المخطوطات المعروفة لإنجيل يوحنا نص آخر مختلف من شأنه أن يغير المعنى سوى تلك الفقرة ١٤ : ٢٦ من المخطوطة السريانية الشهيرة المسماة **Pallmseto** والفقرة لا تشير هنا إلى الروح القدس وإنما إلى الروح فقط^(xiv) . فيما عدا هذه الملاحظة وبعض الاختلافات النحوية التي لا تغير شيئاً من المعنى العام للنص ٠٠ وما يهم هو أن المعروض هنا فيما يتعلق بالمعنى الدقيق للفعلين : "يسمع" و " يتكلم " . يجب أن يسري على كل مخطوطات إنجيل يوحنا ، وهذا هو واقع الحال . إن فعل **entondro** في الترجمة الفرنسية هو فعل **akouê** باليونانية ، ويعني استقبال أصوات . وقد أعطي الفعل اليوناني ، على سبيل المثال كلمة **acoustique** بالفرنسية و **acoustics** بالإنجليزية تعني علم الأصوات .

وإن فعل يتكلم **Parler** فى الترجمة الفرنسية فهو فعل **Laleō** باليونانية ، ومعناه العام إصدار أصوات خاصة صوت الكلام ، ويتكرر هذا الفعل كثيرا فى النص اليونانى للأناجيل وذلك عند الإشارة إلى تصريح خطير للمسيح فى أثناء تبشيره. ويصبح إذا أن المقصود بالاتصال بالناس هنا لا يكمن مطلقا فى إلهام من عمل الروح القدس ، إنما هو اتصال ذو طابع مادى واضح ، وذلك بسبب مفهوم إصدار الأصوات المرتبط بالكلمة اليونانية التى تعرفه . إن الفعلين **Laleō** و **akouō** يعنيان فعلين ماديين لا يمكن أن يخصا إلا كائنا يتمتع بجهاز للسمع وآخر للكلام ، وبالتالي فمن المستحيل تطبيق هذين الفعلين على الروح القدس .. ولكن إذا حذفتنا كلمة **الروح القدس** من **to pneuma to agien** من هذه الجملة فإن نص يوحنا كله يعبر عن معنى غاية فى الوضوح. إن ذلك يقودنا بمنتهى المنطق أن نرى فى الباراقليط **PARACLET** الذى ذكره يوحنا كائنا بشريا مثل المسيح يتمتع بحاستي السمع والكلام ، وهما الحاستان اللتان يتضمّنهما النص اليونانى ليوحنا بشكل قاطع. إن وجود كلمتي " الروح القدس " فى النص الذى بين أيدينا اليوم يمكن إرجاعه بسهولة إلى إضافة ألحقت عمداً فيما بعد ، وقصد بها تغيير المعنى الأصلي لفقرة تتناقض بإعلانها مجيء نبي بعد المسيح مع تعليم الكنائس المسيحية الوليدة التى أرادت أن يكون المسيح هو خاتم الأنبياء^(٣٧).

مما سبق يتبين ضرورة إسقاط كلمتي " الروح القدس " التى حرفها قلم الكاتب فى ١٤ : ٢٦ ، واعتبارهما : " روح الحق " الذى ذكرت فى تلك النبوءة ثلاث مرات متتاليات.

ويحضرنا فى هذا المقام ما يقوله الوحي إلى النبي إرميا عن هؤلاء المخرفين : " كيف تقولون نحن حكماء وشريعة الرب معنا. حقا إنه إلى الكذب حولها قلم الكتبة الكاذب " (إرميا ٨ : ٨).

(٣) مجيء الروح القدس غير مرتبط برحيل المسيح:

تقول الفقرة (٣ : ٤) من النبوءة ، على لسان المسيح : " أقول لكم الحق : إنه خير لكم أن أنطلق. لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي " (١٦ : ٧) إنما تقرر هنا شيئا هاما وهو أن المسيح وذلك الرسول المعزي لا يجتمعان فى الدنيا معاً ، مما يؤكد مرة أخرى أن المعزي لا يمكن أن يكون الروح القدس الذى أيد المسيح طيلة حياته.

فمن المعلوم أن الروح القدس ظل يعمل منذ خلق الله العالم وإلى أن جاء المسيح وإلى ما بعد المسيح وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وإذا ركزنا على نشاط الروح القدس فى جيل المسيح مع ذكر شيء يسير مما قبله لوجدنا الآتي :

- (أ) كان الروح القدس مع داود :
 " لأن داود نفسه قال : بالروح القدس قال الرب لربي ٠٠ " (مرقس ١٢ : ٣٦).
- (ب) بارك الروح القدس كلا من زكريا وامراته اليصابات ، وأوحى إلى زكريا وإلى سمعان النقي : " امتلأ زكريا أبوه من الروح القدس وتنبأ قائلاً : مبارك الرب إله إسرائيل. وامتلأت اليصابات من الروح القدس ٠٠ .
 وكان رجل من أورشليم اسمه سمعان ، وهذا الرجل كان باراً وتقياً ٠٠٠ والروح القدس كان عليه وكان قد أوحى إليه بالروح القدس أنه لا يري الموت قبل أن يري مسيح الرب " (لوقا ١ : ٦٧ ، ٤٠ ، ٢ : ٢٥ : ٢٦ —) .
- (ج) بارك الروح القدس يحيى وهو في بطن أمه :
 " قال له الملاك : لا تخف يا زكريا ٠٠ ستلد لك أبناً وتسمية سوحنا ٠٠ ومن بطن أمه يمتلئ من الروح القدس " (لوقا ١ : ١٣ — ١٥) .
- (د) كان الروح القدس هو المسئول عن حمل مريم بابنها المسيح:
 " لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا ، وجدت حبلي من الروح القدس " (١ : ١٨) .
- (هـ) ولقد نزل الروح القدس على المسيح واستمر معه بعد أن عمده يوحنا في ماء الأردن .
 " ولما اعتمد جميع الشعب اعتمد يسوع أيضا ، وإذا كان يصلي انفتحت السماء ونزل عليه الروح القدس هيئة جسمية مثل حمامة " . (لوقا ٣ : ٢١ — ٢٢) .
 وقال يوحنا المعمدان : " الذي أرسلني لأعمد بالماء ذاك قال لي : الذي تري الروح نازلاً ومستقراً عليه فهذا هو الذي يعمد بالروح القدس " . (يوحنا ١ : ٣٣) .
- " في تلك الأيام جاء يسوع ٠٠ واعتمد من يوحنا ٠٠ وللوقت وهو صاعد من الماء رأى السماء قد انشقت والروح مثل حمامة نازلاً عليه " . (مرقس ١ : ٩ — ١٠) .
 " إذا السموات قد انفتحت فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتيا عليه " .
- (مق ٣ : ١٦)
- " فالروح القدس — روح الله — استقر على المسيح ، إذ أيده الله به ، استمر يعمل معه طيلة رسالته .
- (و) وكان الروح القدس مؤيداً للمسيح في دعوته ومعجزاته:
 " أما يسوع فرجع من الأردن ممتلئاً من الروح القدس ٠٠ ورجع يسوع بقوة الروح إلى الجليل ٠٠ وكان يعلم في مجامعهم " (لوقا ٤ : ١ ، ١٤ — ١٥)

" أما الفريسيون فلما سمعوا قالوا : هذا لا يخرج الشياطين إلا ببعلزبول رئيس الشياطين ، فعلم يسوع أفكارهم وقال لهم ٠٠ إن كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله " (متى ٢ : ٢٤ — ٢٨) .

إن الروح القدس يعمل من قبل أن يأتي المسيح ومن بعد ما جاء ، لكن روح الحق — الذي انفرد يوحنا بالحديث عنه دون بقية الأناجيل وبين أنه إنسان مؤمن بالله يصدق الحديث — شيء آخر ، له عمل ورسالة يخاطب بها العالم لا تبدأ إلا بعد رحيل المسيح .

هذا ومن المعلوم أن إنجيل يوحنا يعتبر آخر الأناجيل كتابة بعد رفع المسيح ، فقد كتب ما بين عام ١٠٠ — ١٢٥ م ، وأنه لم يتقيد بالتسلسل التاريخي للأحداث فاختلف لذلك كثيراً مع الأناجيل الأخرى ٠٠ ويعتذر بعض العلماء عن ذلك بشيخوخة يوحنا الذي كتب إنجيله ورسائله أو أملاها حسبما أسعفته ذاكرته . كذلك

عرف عن يوحنا لغته الشعرية التي تكلمت كثيراً عن الحب والحبّة وخلطت الخالق بالمخلوق ، ولكنه لم يعرف تلك الحبّة عندما تكلم عن اليهود الذين ذكر اسمهم في إنجيله أكثر من عشر مرات عن نظيره في أي إنجيل آخر . ويتضح من ذلك ما يلي :

- جعل التلاميذ من غير هذا العالم وكذلك المسيح ، فقال على لسانه :
" ليسوا من العالم كما أنا لست من العالم " (١٧ : ١٤) .
- جعل التلاميذ والمسيح والله شيئاً واحداً فقال على لسان المسيح :
" ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الأب في وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا " (١٧ : ٢١) .

(٤) الله وحده هو مرسل المرسلين وليس المسيح :

تقول الفقرة (٣ : أ) إن المسيح سيطلب من الله أن يرسل لمن سيرحل عنهم رسولا آخر ، وذلك في قوله : " أطلب من الآب فيعطيك معزياً آخر " (١٤ : ١٦) . وفي ترجمة أخرى دقيقة فإن هذه الفقرة تقرأ هكذا : " أتوسل إلى الآب ٠٠٠٠ " .

ثم تطور ذلك في الفقرة (٣ : ب) إلى القول : " سيرسله الآب باسمي " . (١٤ : ٢٦)

ثم تطور مرة أخرى ليكون في الفقرة (٣ : ج) : " الذي سأرسله أنا إليكم من الآب " (١٥ : ٢٦) ،

وفي الفقرة (٣ : د) : " إذ ذهبت أرسله إليكم" (٧ : ١٦). لكن الحق الذي لا مرية فيه هو أن الله وحده هو مرسل المرسلين وليس المسيح. إن هذا هو ما أعلنه المسيح على رؤوس الأشهاد وبينه قولاً وفعلاً من انه ليس له من الأمر شيء ، وأن الأمر كله لله ، فقال : " تعليمي ليس لي ، بل للذي أرسلني . . إن شاء أحد أن يعمل مشيئة يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلم أنا من نفسي. من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه. أما من يطلب مجد الذي أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم" (يوحنا ٧ : ١٦ - ١٨).

" إني لم آت من نفسي ، بل ذاك أرسلني " (يوحنا ٨ : ٤٢).

" الآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي .. أنا قد آتيت باسم (الله) ولستم تقبلوني " (يوحنا ٥ : ٣٧ ، ٤٣).

" إني لم أتكلم من نفسي ، لكن الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم. وأنا اعلم أن وصيته هي حياة أبدية. فما أتكلم به فكما قال لي الآب هكذا أتكلم" (يوحنا ١٢ : ٤٩).

" أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً .. إني لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني " (يوحنا ٥ : ٣٠).

" ولم يقدر أن يصنع هناك ولا قوة واحدة " (مرقس : ٥ - ٥).

وكما عجز عن الفعل واعترف بذلك ، فقد عجز عن الإخبار بالغيب واعترف بذلك ، فحين سأله تلاميذه عن " انقضاء الدهر " ويوم القيامة ، قال لهم : أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها أحد ، ولا الملائكة الذين في السموات ولا (أنس) إلا الآب" (مرقس ١٣ : ٣٢).

واعترف المسيح أنه لا يملك من أمر الآخرة شيئاً ، فحين " تقدم إليه يعقوب" ويوحنا ابني زبدي قائلين : يا معلم ، نريد أن تفعل لنا كل ما نطلبنا. فقال لهما : ماذا تريدان أن أفعل لكما؟ فقال له : أعطنا أن نجلس واحد عن يمينك والآخر عن يسارك في مجدك. فقال لهما يسوع : لستما تعلمان ما تطلبان .. الجلوس عن يميني وعن يساري فليس لي أن أعطيه إلا للذين أعد لهم ". (مرقس ١٠ : ٣٥ - ٤٠).

من الواضح إذن أن المسيح لا يملك من الأمر شيئاً ، وأنه لم يأت من نفسه بل الله — مالك الملك ومن له الأمر والخلق — هو الذي أرسله. وهو الذي يحكم بين عباده يوم القيامة ويحدد مصائرهم. ومن ثم يتبين أن كل حديث عن إرسال المسيح "لروح الحق" بعد رحيله عن الدنيا ، إنما هو زعم باطل وافتراء على الحق.

(٥) روح الحق " ما ينطق عن الهوى " :

" لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل بكل ما يسمع يتكلم به " (يوحنا ١٦ : ١٣)

(٦) روح الحق يعلم الناس الدين الكامل:

" فهو يعلمكم كل شيء ، ويذكركم بكل ما قلته لكم ٠٠٠ وهو يرشدكم إلى جميع الحق " (يوحنا ١٤ : ٢٦ ، ١٦ : ١٣)

(٧) ما جاء به روح الحق باق إلى الأبد:

إن لغة الكتاب (المقدس) تعتبر الحديث عن الأنبياء مكافئاً صحيحاً للحديث عن الكتب التي جاء بها هؤلاء الأنبياء. ومن أمثلة ذلك ما ذكره لوقا في قصة الغني الذي استمتع بالدنيا وكانت عاقبته الجحيم ، ولعازر الفقير الذي كانت عاقبته النعيم في حضن إبراهيم. فحين طلب ذلك الغني المعذب إلى أينا إبراهيم أن يرسل لعازر من الأموات لينذر أهل بيته ، " حتى يشهد لهم لكيلا يأتوا هم أيضا إلى موضع العذاب هذا. قال له إبراهيم: عندهم موسى والأنبياء ليسمعوا منهم.

فقال : لا يا أبي إبراهيم. بل إذا مضى إليهم واحد من الأموات يتوبون. فقال له : إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء ، ولا إن قام واحد من الأموات يصدقون " (لوقا ١٦ : ٢٨ — ٣١) .

لقد مات موسى والأنبياء ، وتركوا كتباً هي التي أشار إليها أبونا إبراهيم ، ويبين أن الحديث عنها هو بمثابة الحديث عنهم. وكل ذلك ما أكدته لوقا مرة أخرى في قوله : " ابتداء من موسى ومن جميع الأنبياء يفسر لهم الأمم المختصصة به جميع الكتب " (لوقا ٢٤ : ٢٧)

فعلي ضوء ذلك يفهم معنى قول المسيح فيما يجي به الرسول الآتي بعده حين أعلن لتلاميذه أنه : " يمكث معكم إلى الأبد " (يوحنا ١٤ : ١٦) . أن تلاميذ المسيح الذين قال لهم هذا الكلام لم يمشوا إلى الأبد ، لكنهم ماتوا أو قتلوا — جميعا — منذ تسعة قرناً. فهذا القول لا يصمد للتأويل حرفياً ولكنه يعني أن ما يأتي به " روح الحق " إلى الأجيال المتلاحقة سيبقى إلى يوم الدين.

وخلاصة القول : إن دراسة هذه النبوة على ضوء ما جاء في الكتاب (المقدس) وما نستته الأناجيل للمسيح من أقوال يقطع بأن الرسول " روح الحق " الآتي بعد المسيح إنما هو : إنسان وأنه غير روح القدس الذي لا يرتبط بمجئته برحيل المسيح ، وأن الله وحده هو مرسل المرسلين وليس المسيح ، وأن هذا الرسول " ما ينطق عن الهوى " وأنه يعلم الناس الدين الكامل ، وأن ما جاء به وحياً من الله باق أبداً الدهر .

إن هذا يقود إلى التسليم بأن هذه النبوة تنطبق جملة وتفصيلاً على محمد بن عبد الله ، رسول الله إلى الناس جميعاً ، الذي أكمل الله به الدين وختم به النبوة ، فقال وقوله الحق ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت علىكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾

(المائدة : ٣)

وتكفل الله بحفظ كتابه — القرآن العظيم ، فقال في شأنه : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾

(الحجر : ٩)

اسم الرسول الآتي بعد المسيح

ذكرنا سلفاً أن التراجم المتداولة للإنجيل يوحنا اتفقت على أسمه الثاني وهو : " روح الحق " ، بينما اختلفت في أسمه الأول لاختلاف فهمهم لمعنى كلمة يونانية قد يسمعونها شخص غير مدقق في كتبها : باراقليط مما اضطر التراجم الفرنسية الحديثة أن تنقلها صوتياً على هذه الصورة **PARACLET** . ونريد أن نتعرف على حقيقة هذا الاسم الأول الذي اختلفوا فيه .

في دراسة دينية ولغوية رصينة قام بها عالم اللاهوت المسيحي (سابقاً) ديفيد بنجامين كلداني ، وجاءت ضمن دراسات وبحوث أخرى نشرها في كتابه : " محمد في الكتاب المقدس " ^(xvi) . بعد أن اهتدي إلى الإسلام وتسمى " عبد الأحد داود " — نجد فضلاً عن البارقليط ، يقول فيه : " أما الإنجيل الرابع فهو مثل أي كتاب أو سفر آخر في العهد الجديد ، فقد كتب باليونانية وليس بالأرامية التي كانت اللغة الوطنية ليمسي وتلاميذه . وبالتالي فإنه تواجهنا مرة أخرى نفس الصعوبة التي لقيناها عندما كنا نبحث في " يودوكيا " الخاصة بمار لوقا ، وهذه الصعوبة تلتخص في السؤال : ما هي الكلمة أو الاسم الذي استعمله يسوع في لغته الأصلية والتي نقلها الإنجيل الرابع بلفظ : " البراقليط " أو " الفرقليط " ثم ترجمت إلى المعزي في جميع نسخ ذلك الإنجيل ؟ ..

إن الفرقليط لا تعني المعزي أو الخامي ، في الواقع ، وهي ليست كلمة كلاسيكية بالمرّة ، والتهجئة للكلمة هي **PARAKLYTOS** ومعناها في الأدبيات اليونانية : " شخص يدعي للمساعدة ، محام ، وسيط " ولا حاجة لأن يدعي المرء أنه عالم يوناني ليعرف أن الكلمة اليونانية التي تترادف المعزي ليست : باراكليتوس **PARACLYTOS** بل باراكلون **PARACALON** وثمة كلمة يونانية أخرى مرادفة لكلمة : معزي ، هي : باريجوريتس **PARYGORYTYS** بمعنى : أنا أعزي. أما بالنسبة للمعني الآخر لكلمة : وسيط أو محامي — الذي يتضمنه الكلمة الكنسية : بارقليط **PARACLET** فإنني أصر ثانية على أن : باراكلون **PARACALON** وليس : باراكليتوس **PARACLYTOS** وهي الكلمة التي تعطي معنى مشابهاً. واللفظة اليونانية المرادفة لكلمة : محامي **ADVOCATE** هي : **SANEGORUS** والكلمة : وسيط أو شفيع ، هي **MEDIATEA**.

إن الاعتقاد بأن موت عيسى على الصليب (حسب زعم النصارى) قد فدى المؤمنين من لعنة الخطيئة الأصلية ، وأن روحه وبركته وحضوره في القربان المقدس سيبقي معهم إلى الأبد ، هذا الاعتقاد تركهم دون حاجة إلى عزاء أو إلى مجيء معز.

ومن ناحية أخرى فإنهم إذا كانوا بحاجة إلى معز كهذا فإن جميع الادعاءات والمزاعم النصرانية حول تضحية المسيح وتحمله آلام الصلب تتهافت وتصبح باطلة.

والواقع أن لغة الأناجيل والرسائل تدل بوضوح على أن العود الثاني لعيسى فوق السحاب كان وشيكا^(xvii). (مرقس ١٦ : ٢٨ ، مرقس ٩ : ١ ، لوقا ٩ : ٢٧ ، تسالونيكي الأولى ٤ : ١٥ — ١٧) ..

إن البرقليطوس المذكور في إنجيل القديس يوحنا لا يعني ولا يمكن أن يعني : المعزي أو الخامي ، وإن الكلمة صورة مشوهة من كلمة أخرى هي " بيرقليطوس **PERIQLYTOS**

إن كلمة : بيرقليطوس ، تعني من الناحية اللغوية البحتة : " الأجد ، والأشهر ، المستحق للمديح " . وإني أتناول مرجعاً هو قاموس إسكندرية ، الإغريقي / الفرنسي ، حيث يفسر كلمة **PERIQLITOS** فيقول :

'Qu' on peut entendre de tous les côtés ; qu'il est facile à entendre. Très cõlõbre ; = Periqleitos, très cõlõbre, illustre, glorieux; = Periqleoyes, très cõlõbre, illustre, glorieux, = Klees, glorie, renommée, cõlõbrité.

هذا الاسم المركب مكون من : المقطع الأول **peri** ، والمقطع الأخير **Kleotis** وهذا يشتق من التمجيد أو الثناء. والاسم الذي أكتبه بالحروف الإنجليزية ، هو : **Periklytes** أو **Perikleitos** ، يعني بالضبط ما يعنيه اسم أحمد باللغة العربية . . .

إن التنزيل القرآني القائل بأن عيسى ابن مريم أعلن لبني إسرائيل أنه كان ﴿ مبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ (xviii) واحد من أقوي البراهين على أن محمداً كان نبياً وأن القرآن تنزيل إلهي فعلاً ، إذ لم يكن في وسعه أبداً أن يعرف أن كلمة البرقليط كانت تعني " أحمد " إلا من خلال الوحي والتنزيل الإلهي. وحجة القرآن قاطعة ونهائية لأن الدلالة الحرفية للاسم اليوناني تعادل بالدقة ودون شك كلمتي : أحمد ، ومحمد . . . ومن العلامات الرئيسية للبرقليط : روح الحق ، عندما يأتي أنه سوف يبكت العالم على الخطية (يوحنا ١٦ : ٨) . ولا يوجد عبد آخر من عباد الله ، سواء أكان ملكاً مثل داود وسليمان ، أو نبياً مثل إبراهيم وموسى ، بلغ بهذا التبكيث إلى مداه بتصميم وحماس وشجاعة ، كما فعل محمد. فكل خرق للشرعية أو القانون إنم وخطيئة ، ولكن الوثنية هي أم الخطايا وأصلها (xix). فنحن نأثم في حق الله إذا أحببنا شيئاً أكثر من حبنا إياه ، ولكن عبادة أي شخص أو كائن آخر إلى جانب الله تعتبر كفراً . . . إن جميع العاملين لله قاموا بإنزال العقوبة على مرتكبي الخطايا من جيرانهم وشعوبهم ، ولكن لم يفعلوا ذلك على نطاق العالم كله كما فعل محمد ، إذ لم يقتصر عمله فقط على اقتلاع الوثنية من شبه الجزيرة العربية أثناء حياته ، بل قام بإرسال مبعوثين إلى كسري أبرويز وهرقل ، وهما حاكمان لأعظم إمبراطوريتين (فارس وروما) ، وإلى ملك أثيوبيا ، وحاكم مصر ، والعديد من الملوك والأمراء الآخرين ، يدعوهم إلى اعتناق دين الإسلام ونبذ الكفر والعقائد الباطلة.

وبدا هذا التبكيث من محمد بتبليغ كلمة الله كما تلقاها ، أي بترتيب آيات من القرآن ، ثم بالوعظ والتعليم وممارسة الدين الحقيقي ، ولكن عندما عارضته قوي الظلام والكفر بالسلاح ، استل سيفه وعاقب العـدو الكـافر. و كـمـان ذلـك تنفيـذاً لأمر الله (سفر دانيال : ٧) . وقد منح الله محمد القوة والسلطان لتأسيس مملكة الله (الملوك الموعود) ، ليصبح أول أمير وقائد عام لها ، تحت سلطة ملك الملوك ورب الأرباب (الله) . . . والعلامة الأخيرة ، وليست أقل العلامات قيمة للبرقليط هي أنه : " لا يتكلم من نفسه ، بل بكل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمر آتية " (يوحنا ١٦ : ١٣) .

ولا يوجد شيء أو كلمة أو تعليق من محمد وأصحابه الطاهرين ضمن نصوص القرآن الكريم. فكل محتوياته من كلام الله المنزل ، إذ كان محمد ينطق بكلمة الله كما سمعها من جبريل ، وكانت تدون على يد كتبة الوحي الأمانة. وكلمات الرسول وأقواله وتعاليمه على قداستها ورفعة قدرها ليست من كلام الله ، ولذلك فهي تدعي بالأحاديث.

إذن أليس هو الفرقليط الحقيقي ، حتى بهذا الوصف ؟ هل باستطاعتكم أن تبينوا شخصيا آخر إلى جانب أحمد ، لديه كل هذه الصفات المادية والعملية ، وتلك العلامات والمميزات التي للفرقليط؟ إنكم لا تستطيعون؟ (xx)

ذلك بعض ما جاء في دراسة هذا العالم ، والقس السابق ، دافيد بنجامين الكلداني ، وانتهت به إلى قبول الإسلام ديناً حقاً ، قائماً على العلم والبرهان. ولقد كان تعليقه على نبوءة المسيح التي ذكرها كاتب إنجيل يوحنا بعد ما لحق بها من تحريف ، أن صيغتها الحالية التي تقول على لسان المسيح : " أنا أطلب من الأب فيعطيك معزياً آخر ليملك معكم إلى الأبد " (١٤ : ١٦) ، أنها تحتاج إلى تصحيح.

فهو يقول : " إذا أردنا أن نجد المعنى الحقيقي لهذه الكلمات المسرقة أو المخرفة على الصورة التالية : " سوف أذهب إلى الأب. وسيرسل لكم رسولاً سيكون اسمه البرقليطوس (أحمد) لكي يبقى معكم إلى الأبد. " وبالكلمات التي أضيفت والتي تحتها خط ، يعود تواضع عيسى الذي سلب منه " (xxi) . ولقد سبق أن برهننا على أن الحديث عن النبي يمكن أن يعني الحديث عن كتاب الله الذي جاء به إلى الناس.

بقيت إضافة لا بد منها ، نعرضها باختصار فيما يلي :

(أ) صدق تنبؤات الرسول:

نطق محمد رسول الله بالقرآن كلام الله ، وكان مما جاء فيه تنبؤات عن أحداث المستقبل ، سواء ما تعلق بالرسالة والرسول ، أو بإحداث تخص القوى الكبرى في العالم آنذاك.

فلقد تنبأ القرآن بحفظ شخص الرسول من مؤامرات الناس ، فقال : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ﴾ (المائدة: ٦٧) وتنبأ القرآن بانتصار الإسلام ونبيه ، فعزلت آياته والمسلمون آنذاك يعانون الضعف والتعذيب والاضطهاد - تقول ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر ﴾ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴿ (القمر : ٤٤ - ٤٥) .

وتنبأ القرآن بانتصار الروم على الفرس رغم ما نزل بهم آنذاك من هزائم منكرة ، إذ احتلت جيوش فارس : الشام ومصر وبلاد الأناضول ، وتقدمت شمالاً حتى بلغت البوسفور ، وفي تلك الأثناء نزلت آيات القرآن لتعلن للناس كافة انتصار الروم " في بضع سنين " ، ولتبقى إلى الآن تتلي صباح مساء ، وتعرف باسم سورة الروم ، التي تستفتح بقول الله : ﴿ ألم غلبت الروم ﴿ في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم يغلبون ﴾

في بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون ﴿ بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم ﴿ وعد الله ، لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ . (الروم : ١ - ٦) .
إن هذا يكفي للتأكيد على أن الرسول الآتي بعد المسيح هو روح الحق ، محمد الذي نزل عليه القرآن ليخبر حقاً وصدقاً بالغيب ، والذي قال في شأنه المسيح : " يخبركم بأمر آتية " (١٦ : ١٣) .

(ب) المسيح وأسماء الناس :

تبين الأناجيل أن المسيح اعتاد أن يطلق اسماً آخر على بعض أحبائه ، يري فيه دلالة صادقة تميز شخصية كل منهم . فلقد فعل ذلك مع بعض تلاميذه الإثني عشر ، إذ " جعل لسبعان اسم بطرس ، ويعقوب ابن زبدي ويوحنا أخوا يعقوب وجعل لهما اسم : بوانرجس ، أي بني الرعد " (مرقس ٣ : ١٦ - ١٧)
ومن هنا كان إطلاق المسيح اسم : أحمد — بصيغة أفعال التفضيل هذه — على محمد رسول الله ، الآتي إلى الناس من بعده ، متفقاً تماماً وما عرف عنه . وهو برهان واضح ، يضاف إلى البراهين الأخرى ، التي تؤكد انطباق النبوة التي نطق بها المسيح في إنجيل يوحنا على محمد الرسول روح الحق ، إذ تقول إنه " لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به " . لقد عرف بين الناس ، قبل النبوة باسم : محمد — وعرف بينهم بعد النبوة ، باسم : محمد ، وذكره القرآن بهذا الاسم أربع مرات . وعلى هذا فإن المنطق البسيط يقول إنه لو كان القرآن من عند محمد لكان أولي به أن يذكر في تبشير المسيح به — الذي ذكره القرآن — اسم : محمد وليس اسم : أحمد .

لكنه النبي الصادق الذي : ﴿ ما ينطق عن الهوى ﴾ إن هو إلا وحي يوحى . علمه شديد القوى ﴿ (النجم : ٣ - ٥) .

ولهذا جاءت بشارة المسيح في القرآن هكذا :

﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ (الصف : ٦) .

لقد كانت هذه الإضافات براهين إضافية للتأكيد على تمام انطباق نبوءة المسيح — التي ذكرها إنجيل يوحنا — على محمد رسول الله.

حقاً لقد بشر المسيح بنبي الإسلام فقال :
 هذا — ولقد ترجم القسيس أوسكان الأرمني سفر أشعياء إلى اللغة الأرمنية وطبعت ترجمته عام ١٧٣٣ وقد جاء في الإصحاح الثاني والأربعين منه هذه الفقرة:
 " سبحوا الله تسيحاً جديداً ، وأثر سلطنه على ظهره ، واسمه أحمد " (متى ٣١).
 وحين جاء نبي الإسلام كانت المسيحية قد صارت دين الإمبراطورية الرومانية ، وكان المسيحيون أمماً كثيرة تؤمن باسم المسيح ، لكنها تختلف فيه اختلافاً كبيراً ، وصل إلى حد القتال المسلح وإراقة الدماء ورمي كل طائفة من يخالفها المعتقد بالكفر والهرطقة.

ولقد تعرض هؤلاء للتبكيك والندير والوعيد بعد أن جاءهم فيه القول الفصل والقصص الحق:

﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾
 (النحل : ٦٤)

﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ الحق من ربك فلا تكن من الممتريين ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين ﴾ إن هذا هو القصص الحق ، وما من إله إلا الله ن وإن الله هو العزيز الحكيم. فإن تولوا فإن الله عليهم بالفسدين ﴿
 (آل عمران : ٥٩ — ٦٣)

أما بعد ،،،

إن مسيحية اليوم التي تخلط بين الله والمسيح وتقوم على التثليث تعتبر أكبر الديانات اتباعاً ، فهي تمثل العالم الذي يتعرض لتبكيك شديد في القرآن الذي جاء به محمد يقول :

﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ﴾ لقد جنتم شيئا إدا ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ﴾ أن دعوا للرحمن ولدا وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا أتي الرحمن عبداً ﴾ لقد أحصاهم وعدهم عدا ﴿ وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴾
 (مريم : ٨٨ — ٩٥) .

لقد جاء القرآن لينذر : ﴿ الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا لآبائهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذبا ﴾ (الكهف : ٤ — ٥)

والآن نقول : إن خلاصة بشارات العهدين — القديم والجديد — بنبي الإسلام نقرؤها واضحة في القرآن بعد أن رأينا كيف اتفقت عليها الكتب المقدسة الثلاثة وهي التوراة والإنجيل والقرآن.

يقول الحق الرحيم : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو يحيى ويميت ، فأمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تفتنون ﴾ (الأعراف : ١٥٦ — ١٥٨) .

قائمة المراجع

- (١) القرآن العظيم.
- (٢) الكتاب المقدس — طبعة البروتستانت.
- (٣) كتب الشريعة الخمسة — دار المشرق — بيروت ١٩٨٤.
- (٤) العهد الجديد — دار المشرق — بيروت — الطبعة العاشرة — ١٩٨٥.
- (٥) محمد فى الكتاب المقدس (القس سابقا) عبد الأحد داود — ترجمة فهمى شتا — طبعة دار الصفا للنشر والتوزيع — عمان — الأردن.
- (٦) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم — موريس بوكاى — دار المعارف — القاهرة — ١٩٧٩.
- (٧) تفسير ابن كثير.
- (٨) البداية والنهاية — ابن كثير.
- (٩) الوحي والملائكة — أحمد عبد الوهاب على — مكتبة وهبة — القاهرة.
- (١٠) النبوة والأنبياء — أحمد عبد الوهاب — مكتبة وهبة — القاهرة.
- (١١) **HOLY BIBLE : TODAY'S ENGLISH VERSION**
- (١٢) **THE BIBLE : REVISED STANDARD VERSION**
- (١٣) **TRADUCTION OECUMENIQUE DE LA BIBLE**
- (١٤) **M. HART : THE 100 , PUBLISHING GROUP, 600 MADISON AVENUE , NEW YORK**

مختصر البحث

- ✽ يبدأ البحث بكلمة موجزة عن محمد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ثم مقدمة عن أسفار أهل الكتاب وما تعرضت له نصوصها عبر التاريخ من تحريف وخاصة بشارات سيدنا محمد خاتم النبيين.
- ✽ ثم يتحدث عن بشارات العهد القديم وأولها بشارة التوراة التي تجعله نبياً مثل موسى من أبناء عمومة الإسرائيليين. ثم بشارة أخرى عن فتح مكة ومعها ١٠٠٠٠ من جند الله. ثم بشارة المزامير وفيها يستخدم السيف من أجل الحق والبر.
- ✽ ثم بشارة النبي أشعيا وفيها يشتهر بأنه عبد الله ورسوله وأنه رجل حرب وأن قومه عبدة أوثان وأن الله سيحفظه حتى يبلغ رسالته وأن في دينه تسبيح من رعوس الجبال وهذا ما يحدث في الحج. وكذلك نبوءة عن القرآن وأنه ينزل منجماً وتشريعاته متوالية ولا ينزل جملة واحدة.
- ✽ ثم بشارات العهد الجديد وأنه النبي المرتقب الذي كان ينتظره اليهود بعد المسيح. وأنه نبي الملكوت المقرب بعد المسيح وهو الإسلام بعد أن نزع الله النبوة من بني إسرائيل وأظهرها في العرب بنى إسماعيل. وأنه روح الحق الذي تحدث عنه الإنجيل وأن اسمه أحمد الذي بشر به المسيح.

الهوامش

- (i) من بحث للدكتور ميغيل ايرنانديث في المؤتمر الإسلامي المسيحي بقرطبة عام ١٩٧٧.
- (ii) من كتاب " المانة .. الأعظم أثرا في التاريخ " - للعلم الفلكي الرياضي الأمريكي ميخائيل هارت.
- (iii) النص الفرنسي يقوم : Corruptions textuelles أي الفساد النصي.
- (iv) الترجمة غير دقيقة حيث أن النص الفرنسي يقول : par exemple أي على سبيل المثال.
- (v) صدرت عن دار المشرق ببيروت - الطبعة العاشرة - سنة ١٩٨٥ صفحة ٧ وما بعدها.
- (vi) يذكرنا هذا على الفور بهزيمة المسلمين في معركة جبل أحد لأنهم خالفوا تعليمات الرسول.
- (vii) راجع كتاب المؤلف : الوحي والملاحة.
- (viii) <and he came with ten thousands of saints : from his right hand went a fiery law for them>.
- < Oui, il aime les peuples>. (L.S). (ix)
- (*) أنظر المزمور : ٤٥.
- (xi) تقول التوراة : " هذه أسماء بني إسماعيل حسب مولدهم : نبايوت بكر إسماعيل ، وقيدار ، ودبتيل ، ومبسام ، ومشماع ، ودومة ، ومسا ، وحدار ، وتيما ، ويطور ، ونافيش ، وقدمه . هؤلاء هم بنو إسماعيل وهذه أسماءهم بديارهم وحصونهم. اثنا عشر رئيسا حسب قبائلهم ٠٠ سكنوا في حويله إلى شور التي أمام مصر حينما تجئ نحو أشور". (تكوين ٢٤ : ١٣ - ١٨)
- (xii) أنظر على وجه الخصوص الإصحاح ٤٢.
- (xiii) La Bible , Le Coran et la Science ، وقد نشرته دار المعارف بالقاهرة تحت عنوان " القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم".
- (xiv) الترجمة العربية بها خطأ فادح فقد قلبت المعنى راسا على عقب إذ تقول : " والفقرة لا تشير إلى الروح فقط وإنما إلى الروح القدس " ص ١٢٧ بينما النص الفرنسي يقول
- " Ici, on ne mentionne pas L' Esprit Saint, mais L, Esprit tout court." P.108.
- " Here, it is not the Holy Spirit that is mentioned but quite simply the Spirit".
- وقد بينت هذا الخطأ في مقال نشر بصحيفة " الشرق الأوسط " بتاريخ ١٩٨٨/٩/٢١م.
- (xv) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص ١٢٧ - ١٢٩ مع تصحيح الترجمة.
- (xvi) ترجمة فهمي شتا - دار الضيافة للنشر والتوزيع - الأردن / عمان ١٩٨٥.
- (xvii) تؤكد الأناجيل ورسائل التلاميذ وبولس أن المسيح تنبأ بعودته سريعا إلى الأرض بعد أن ينهدم النظام الكوني " النجوم تسقط من السماء وقوات السماء تنزع " وأن ذلك سوف يحدث قبل أن يموت الجيل الذي عاصره (متى ٢٤ : ٣) ، من ثم فليساوا في حاجة إلى معز. أنهم في حاجة إلى رسول يطمئهم الحق بعد أن أثبت الواقع استحالة تحقيق تلك النبوءة التي ألحقت ظلما بالمسيح.
- (xviii) الصف : ٦.
- (xix) ﴿ إن الله لا يفرق أن يشرك به ويفتر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (النساء : ٤٨ ، ١١٦)
- (xx) محمد في الكتاب المقدس : عبد الأحد داود . ص ٢٠٢ - ٢٢٩.
- (xxi) المرجع السابق . ص ٢١٩.
- (xxii) من كتاب " خلاصة سيف المسلمين " - تأليف حيدر علي القرشي ، مطبعة أنتوني بورتولي ، ص ٦٣ ، ٦٤.

**(البشارات في بعض أسفار أهل الكتاب
وأشباههم عدا التوراة)
(وتعاضدها مع نظيراتها في الأخيرة)**

أ. هشام محمد طلبة

مختصر البحث

هذا البحث يعني بالبشارات بمقدم خاتم الأنبياء والمرسلين صلي الله عليه وسلم في الأسفار غير المطروقة من كتب أهل الكتاب وهي تطبع للنخبة وأهل التخصص، وهي كتب سابقة للقرآن من ناحية الزمن يعتد بها تمامًا وإن لم يتعد بها، وهذا لا يقدر فيها لأنه لا يدع مدع أنها قد دُست علي أهل الكتاب.

كما يعني البحث أيضًا بالبشارات في كتب من لهم شبهة كتاب وهما الصابئة والزرادشتية، وسنعجب حين نجد تعاضدًا بين النبوءات عن رسول الله صلي الله عليه وسلم عندهم وعند اليهود والنصارى سنعرض له في حينه، ولم نتطرق إلي البشارات في التوراة إلا لربطها بمثلتها في الكتب سألقة الذكر وبيان تعاضدها معها.

وفي ذلك بيان بأن مقتضى الكتب المقدسة يحتم التصديق بسيدنا محمد صلي الله عليه وسلم بالتصريح والتلميح وبالنص ولوازم النصوص.

وسيكون منهجنا ياذن الله موضوعيًا، إذ نذكر بشارة محددة ثم نتبع نصوصها في كل كتاب علي حدئى بادئين بذكر النص القرآني ثم تفسيره في كتب المفسرين المسلمين الثقات ثم نستعين بالنص الكتابي سواء بالعربية أو بالأصل الإنجليزي.

وسيسبق كل هذا فصل يشرح فيه أسماء بعض الكتب التي قد تكون جديدة علي القارئ العربي المسلم. ثم نختم عملنا بفرضية مفادها أن فرض عدم صدق النبي محمد صلي الله عليه وسلم يترتب عليه الخال.

* * *

المقدمة

لا يكاد يخلو سفر من أسفار أهل الكتاب من نبوءة عن نبي يظهر في آخر الزمان. بل إن ذلك قد تعدي أهل الكتاب لكتب أشباه الكتابين⁽¹⁾. مثل كتاب (كراربا) عند الصابئة، (زند أفتستا) عند الزرادشتية (المجوس) وكذلك كتاب (فيدا) عند الهندوس وغيرها.

ولعل أكثر الأسفار ذكراً له صلي الله عليه وسلم هو (التوراة) ونعني بها في بحثنا هذا: التوراة والإنجيل معاً، أي ما يسميه النصارى (الكتاب المقدس).

والحق أن هناك توافقاً شديداً بين ما ذكرته الكتب السابقة عن النبي المنتظر وما ذكره القرآن بل وما ذكره التاريخ عن نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام.

وقد خاض في هذا الباب كثير من علماء الإسلام منذ قرون، وهي أعمال جليلة وجهود مشكورة. لكن النصوص الكتابية التي استعانوا بها ليست بين أيدينا الآن نظراً لشدة تحريف النصوص والطبعات المتتالية من التوراة، كما أن ما كتبوا عنه ظل محصوراً في التوراة والإنجيل أو كما يسميه النصارى (الكتاب المقدس)، مع شيء يسير من بعض النبوءات في كتب المجوس والهندوس. وقد فتح الله علينا بالبحث في طائفة من الكتب السابقة للإسلام لم تُطرق من قبل من قبل المسلمين — وهو ما سينحصر فيه بحثنا إلا ما له علاقة بشيئه له في التوراة يعضده — ألا وهي طائفة الكُتب التي يُعتد بها ولكن لا يُتعبّد بها عند أهل الكتاب؛ مثل التلمود والترجوم والميدراش وغيرها... هذه الكتب غاية في الأهمية لأنها لا تُطبع كثيراً؛ لأنها لا تقرأ إلا من علمائهم وبالتالي يُرجح أن يكون الإخفاء والتحريف فيها أقل من الكتب المتعبّد بها (الكتاب المقدس) كما أنها مجال بكر تماماً. ولا يُقدح في تلك الكتب أنها لا يُتعبّد بها لأنها رغم ذلك تستخدم عندهم في علوم اللاهوت وتفسير الكتاب المقدس.. كذلك لم يدع مدّع منهم أنها قد دُست عليهم من غيرهم [مثل إنجيل برنابا الذي ادّعوا أنه دُس عليهم من المسلمين] وهذا هو الأهم.

إذن فكتب اليهود والنصارى عندهم ثلاث فئات: كتب مقدسة (مثل التوراة والإنجيل الحاليين) أي قانونية، وكتب أخرى غير قانونية (أي لا يتعبّد بها)، وكتب أخرى (حائرة) أي تارة تدخل ضمن القانون (القداسة) وتارة يخرجونها منها، مثل رسالة يعقوب ويهوذا وبطرس الثانية والرسالة إلي العبرانيين والراعي هرمس وغيرها.. * تلك الكتب كثيرة جداً. بل إن الكتاب الواحد نجد له أكثر من نص مختلف. الكتاب المقدس (الإنجيل) نفسه له ستة نصوص أساسية: (العبرية القياسية — البشيتا السريانية — السبعينية اليونانية — الفولجاتا اللاتينية — السامرية — الترجوم الآرامي).

والنص العبري نفسه وهو أهم النصوص نجد له ثلاثة نصوص (الإلهوي - اليهودي - الكهنوتي)، علاوة على عدد كبير من النصوص غير الأساسية. وكل ناشر لأية طبعة جديدة من (الكتاب المقدس) أو التوراة لابد وأن يستعين بكثير من تلك النصوص محاولاً الوصول لنص أقرب ما يكون للنص الأصلي المفقود. وذلك في علم يسمونه علم نقد النصوص⁽ⁱⁱ⁾.

* تلك الكتب كذلك لم تكن بلغة واحدة. بل منها ما كتب بالعبرية وما كتب بالسريانية أو الآرامية أو المندائية أو القبطية أو اليونانية أو الحبشية أو اللاتينية أو غيرها، عدا العربية.

* كما أن تلك الكتب لم تصح معرفة لعلمائهم إلا عبر وقت طويل جداً. فإنا لم نجد تلك الكتب مرة واحدة. بل جمعت منذ القرن الرابع الميلادي وحتى الآن لا تزال نكتشف مزيداً من المخطوطات.

وقد وصلت إلينا إما عن طريق وراثة جيل من جيل أو التنقيب عن المخطوطات أو اكتشاف مخطوطات مجهولة كانت مخفية داخل مخطوطات معروفة.

لعل آخر ما وصل إلينا هو مخطوطات البحر الميت ١٩٤٧م إلى ١٩٥٨ أي بعد وفاته صلى الله عليه وسلم بأكثر من ١٣ قرناً. وكذلك مخطوطات نجع حمادي.

* تلك الكتب لم نجدها في مكان واحد بل وجدناها في أماكن متفرقة، في سيناء، نجع حمادي، القاهرة (جنيزة)، كهوف البحر الميت، الحبشة، الفاتيكان، العراق، اليونان، الهند، مكتبات نبلأ أوروبا وغيرها.

* تلك الكتب في الماضي كانت نادرة جداً لأن النسخ كان يدوياً، كما أن كثيراً من الطوائف صاحبة الكتب تعرضت للاضطهاد وحرقت كتبها. فكيف نتصور أن يحصل شخص واحد على نسخة من كل كتاب من ذلك العدد الكبير من الكتب.

* حجم هذه الكتب في الماضي كان كبيراً جداً وعلى هيئة قراطيس من المستحيل تداولها سراً. إذ كان يحمل البعير كتاباً واحداً أحياناً.

* عدد كبير من هذه الكتب كان أسراراً (أبو كريفا) Apocrypha. وكان لكل طائفة كتبها السرية. ولم يكن مسموحاً لأي من الطوائف الأخرى الاطلاع عليها حتى ولو من نفس الديانة.

يتبين جلياً لما سبق أنه يستحيل أن يدعى مُدَّع أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد قرأ في كتب أهل الكتاب صفات نبي آخر الزمان فأثبتها في القرآن لنفسه.. وهو الأمي.. ثم ما قولهم فيما كتب في الكتب السابقة عن مسار حياة النبي المنتظر وثبت محمد صلى الله عليه وسلم؟ هل تحكّم محمد صلى الله عليه وسلم في مسار حياته ليثبت ما كتب في كتبهم عنه!!

وقد اجتهدت في هذا العمل ألا أكتب إلا ما رأته عيني من مصادر أصلية وتحريث التوثيق حتى يتثبت من أراد التثبت، لذلك لم أتطرق إلي كتب الهندوس (الفيديا) مثلاً، أو البوذيين، لعدم حصولي على النص الأصلي.

وسنعب حين نجد نبوءات أوضح من الشمس فى كبد السماء عن الكعبة والكوثر والقرآن وخاتم النبوة بين كنى نبي آخر الزمان والمصطلح (إسلام). كما ستجد نبوءات قاطعة عن تاريخ ميلاد وصفات وألقاب، بل واسم رسول الله صلى الله عليه وسلم. أغلب هذه النبوءات لم تذكر من قبل.

ولن أكون مبالغاً لو قلت أن هذا العمل يحتوى على (قنبلة نبوية) ولن نقول لاهوتية — حسب اصطلاح علماء أهل الكتاب — الذين قالوا ذلك عقب ظهور مخطوطات البحر الميت. وهى مخطوطات أكتشفت فى أواسط القرن العشرين فى كهوف البحر الميت عمرها ألفان من السنوات — قالوا فى مؤتمر عنها عام ١٩٩١م إنفا لا تحتوى على (قنبلة لاهوتية) لأن النصارى كانوا يطمعون أن يجدوا فيها ما ينصر معتقدتهم. ولكنهم غفلوا أو تغافلوا عن وجود (قنبلة نبوية) تؤيد تماماً دعوة الإسلام وتبشر بشكل قاطع بنبي الإسلام صلى الله عليه وسلم بتاريخ ميلاده وكثير من صفاته كوجود خاتم النبوة بين كنىه صلى الله عليه وسلم وغير ذلك.

بعض المصطلحات

(١) الترجوم:

هو الترجمة الآرامية للتوراة (المكتوبة أساساً بالعبرية) وهى ليست ترجمة حرفية بل تفسيرية تحوي إضافات للتوراة العبرية وقد تحذف منها فقرات. ولا يخفى قرب لفظ (ترجوم) من كلمة (ترجمة) العربية. إذ أن اللغة العربية إلى جانب اللغة الآرامية والعبرية كلها لغات سامية قريبة فى ألفاظها. والترجوم ليس نصاً واحداً فهناك ترجوم أونكيلوس وترجوم جوناثان (وهى النصوص السابقة للقرآن الكريم) كذلك هناك نصوص أخرى غيرهما لكنها كتبت بعد ظهور الإسلام ولا تعيننا هنا.

(٢) التلمود:

هو الكتاب الأكثر قداسة عند اليهود (فيما عدا طائفتى القرآنيين والسامريين). ويروونه الحاوي للتعاليم الشفهية الشارحة للتوراة والتي نقلت عن موسى — فى اعتقادهم — مثل التوراة. يتكون التلمود من جزئين، (المشنا) و (الجمارا) الأول مشتق معناه من تكرار الدرس والثاني من تكملة الدرس. وقد تعددت نصوص المشنا كثيراً حتى اجتمع اليهود على تنقيح العالم يهوذا هاناسى الذى اعتمد أكثر ما اعتمد على نسخة منير للمشنا.

والحق أن التلمود كتاب ضخم له حجم دائرة معارف. كتب بلغة عبرية خاصة تسمى اللغة الربانية. إضافة لعظم حجم التلمود فإنه ليس نصاً واحداً فهناك:

(١) (التلمود الفلسطيني) (تلمود بيت المقدس) أو (التلمود الأورشليمي) **Yerushalmi Talmud** (كتب من القرن الثاني إلي الخامس الميلادي). وهناك:

(٢) (التلمود البابلي) **Talmud Babli** وهو الأكبر والأهم وقد كتب في بابل (العراق). إضافة لمذنب النصين الأساسيين هناك ملخصات التلمود القديمة. مثل هالا خوث **Halakoth** وهو بمثابة تلمود صغير (١٠٣٢م)، كذلك هناك اختصار العالم الشهير (موسي بن ميمون) (١١٨٠م) أسماه (مشناه تورا).

* هذا ولا يعني بحثنا إلا بالنصوص السابقة للقرآن الكريم. ملحوظة: كلمة تلمود من فعل (لاماد) أي تعلم بالعبرية.

(٣) الميذارش:

هو مجموعة من الكتابات اليهودية فيما بعد الميلاد تحوي دراسات لعلمائهم (الربيين) حول التوراة بشكل يكون معاصراً للناس في: (أ) الشريعة، يسمى هنا (ميذارش هالاكه) وفي (ب) سير الرجال العظام المذكورين في التوراة، ويسمى هنا (ميذارش هجاده) وفي (ج) تحقيق النبوءات المذكورة في الكتب المقدسة؟ وهنا يسمى (ميذارش ييشر).

واستمرت كتابات الميذارش لعدة قرون بعد الميلاد. لا يعنينا في بحثنا إلا ما كتب قبل الجعثة النبوية.

(٤) الأبوكريفا **Apocrypha**:

الكلمة تعني في حرفيتها: (الكتب المخفية) **Hidden books** أو كتب (الأسرار) **Secret books** وهي مجموعة كتب نسبت إلي العهد الجديد (راجع مصطلح الكتاب المقدس) منها الأناجيل مثل إنجيل مريم وإنجيل المصريين وإنجيل العبرانيين وأناجيل الطفولة وغيرها، ومنها الرسائل (الراعي هرمس) و (رسالة يعقوب) اعتبرت هذه الكتب فيما بعد القرن الرابع الميلادي كتباً منحولة أو مزورة لا يسمح بتداولها إلا بين كبار العلماء. فهي إذن مخفية عن الناس. والعجيب أن عدداً كبيراً من هذه الكتب ظل فترة طويلة مقدساً عند النصاري فهو إذن ضمن القانون (كما يسمونه أي يسمح بالتعبد به) (العهد الجديد) مثل الراعي هرمس و (رسالة كلمنت الأولي) و (رسالة برنابا) و (رويا بطرس) هذه الكتب يسمونها المؤلفات الخاترة (الكتاب المقدس طبعة دار المشرق — مدخل إلي العهد الجديد ص ١٠ طبعة ١٩٨٩م).

وعلي الجانب الآخر هناك العديد من الرسائل المعتمدة حاليًا في العهد الجديد ظلت زمانًا مشكوكًا في صحتها. (فرسالة العبرانيين) أنكرت في الغرب وفي الشرق أنكروا سفر الرويا ولم تقبل رسالتنا يوحنا الثانية والثالثة إلا ببطء وكذلك رسالة بطرس الثانية ورسالة يهوذا إلي أن عقد مجمع في القرن الرابع في شمال أفريقيا (قرطاجنة) ألف قانونًا للعهد الجديد الذي نعرفه اليوم ما عدا التردد في ترتيب الأسفار (المصدر السابق).

وقد ظهرت مخطوطات في أواسط القرن العشرين أظهرت أن مصطلح كتب مخفية لم يقتصر علي ما ذكرناه آنفًا. فمخطوطات مجمع حمادي لطائفة الغنوصيين حوت العديد مما يسمونه الرسائل السرية **Apocrypha** مثل (رسالة جيمس السرية) (ورسالة جون السرية) ولم يسمح لغيرها من الطوائف بقراءة كتبها وهكذا.

وهذه الطائفة من الكتب (الأبوكريفا) ليست كمًا مهملاً عند النصاري حاليًا بل إنهم يستخدمونها في علوم اللاهوت والتفسير إلا أنهم لا يسمحون للعامة بالتعبد بها. إلا ما اعتبروه منها — في رأيهم — مدسوسًا عليهم مثل (إنجيل برنابا) (الذي يذكر النبي صلي الله عليه وسلم بشكل قاطع) الذي يعيننا في عملنا هذا ما اعتد به من تلك الكتب وإن لم يتعبد به، أما ما اعتبروه قد دُسَّ عليهم فليس هذا مجالنا.

— ملحوظة: البروتوستانت يطلقون كلمة أبوكريفا علي أسفار العهد القديم الزائدة عند الكاثوليك.

(٥) السودبيجرافا "Pseudepigrapha":

الترجمة الحرفية للكلمة تعني الكتابات الكاذبة. ويقصد بها تلك الكتب التي نسبت إلي العهد القديم (التوراة) ولم يعترف بها فيما بعد مجمع (جنيا) (في أواخر القرن الأول الميلادي) بالرغم من أن عددًا كبيرًا منها قبل هذا التاريخ — بل وبعده أيضًا — كان ذا أثر بالغ وقداسة قاطعة عند طوائف عديدة ففي المجمع المذكور آنفًا اعتمدت بشق الأنفس أسفارًا متنازع عليها مثل (استير — حزقيال — نشيد الانشاد) وكذلك سفر دانيال الذي اعترفت بسلطته طائفة القريسيين اليهودية، أما طائفة الصدوقين اليهودية أيضًا فلم يعترفوا به دون شك (المصدر السابق — المجلد الأول ص ٤٩) أما بالنسبة لكتب التوراة عند النصاري (العهد القديم) فلم يسلموا بمجمع (جنيا) اللهم إلا البروتوستانت. أما الغربيون منهم وشمال أفريقيا فانتظروا حتى القرن الرابع وأقرّوا ما في مجمع قرطاجنة المذكور من قبل. وأما الشرقيون منهم (الكنايس الشرقية الناطقة باليونانية) فلم يكن لها تنظيم شرعي علي مر العصور إلي يومنا هذا. (المصدر السابق).

وعلي الجانب الآخر هناك كتب كانت ذات شأن عظيم نسبت للتوراة وحذفت من القانون (مجموع الكتب المعتمدة) (سودبيجرافا) وإن اعترف أن لها شأنًا عظيمًا لبنيان المؤمن (المصدر السابق) هذه الكتب أمثال: (سفر أخنوخ — اليوبيلات — رؤيا باروك — عهود الأسباط — عهد إبراهيم — عهد موسى — رؤيا إبراهيم — كتاب آدم وحواء).

هي كتب إذن يعتد بها وإن لم يسمح بالتعبد بها. ولم يدع أحد مطلقًا أنها دست علي أهل الكتاب من غيرهم (iii).

(٦) مخطوطات البحر الميت:

هي أهم المخطوطات الدينية لدى اليهود والنصارى على الإطلاق. ذلك لقدمها (مائة سنة قبل الميلاد حتى مائة سنة بعد الميلاد) ولحدائثة اكتشافها (من سنة ١٩٤٧م إلى سنة ١٩٥٨م) وكذلك لعظم حجمها (تتألف من ثلاث مجلدات كبار).

وقد اكتشفت في كهوف قرب البحر الميت في موقع خربة (قمران) لذلك فهي تسمى أيضاً (مخطوطات قمران) أو (لفائف قمران).

وهي تتبع طائفة يهودية هي طائفة (الأسينيين) التي انعزلت عن بقية المدن اليهودية وبنيت مدينة صغيرة في هذا المكان لكنها تحطمت بفعل زلزال (عام ٣١ ق. م) وأعيد بناء الموقع عام ٤ ق. م. لكن الرومان أحرقوه عام ٦٨م. والمرجح أن أفراد هذه الملة لم يكونوا يعيشون في هذه الأبنية، بل في المغائر المجاورة وفي أكواخ أو خيام من الجلود والطين.

وقد اكتشف أول جزء من هذه المخطوطات بعض البدو صدفة في مغارة أثناء بحثهم عن ماعز ضلت منهم فباعوها لبائعين سوريين حملوها لمطراهم الأرثوذكسي الذي حملها بدوره إلى الولايات المتحدة عام ١٩٤٨م. ثم حدث أن إسرائيل احتلت القدس والضفة الغربية عام ١٩٦٧م. وهكذا أصبح موقع قمران والمدرسة التوراتية الفرنسية ومتحف (روكفلر) أو (المتحف الوطني) في القدس تحتوي على بقية المخطوطات التي لم ترحل لأمريكا تحت السيطرة الإسرائيلية وأصبح العلماء العاملون في هذه المخطوطات رهن الاختيار والسيطرة الإسرائيلية. ورأي سائر العلماء أن هناك تعمدًا وتحريضًا لتأخير نشر المخطوطات. ونشر هذا الاتهام في المجلات المختصة خاصة الأمريكية مثل مجلة:

(BAR) "Biblical Archaeology" التي شنت حملة علي وزارة الآثار الإسرائيلية متهمه إياها بالاحتمول.

ودعا علماء جامعة أكسفورد إلى ندوة دولية في لندن يشارك فيها جميع الباحثين في هذه المخطوطات في لندن وقد حضر منهم اثنان فقط.

ثم حدث عام ١٩٩١ أن قررت مكتبة (هانجتون) في كاليفورنيا — أمريكا التي كانت إحدى أربع مكتبات في العالم (ثلاثة منها في الولايات المتحدة وواحدة في أكسفورد — إنجلترا) تبين أنها تملك ميكروفيلومات للمخطوطات بالسماح للباحثين جميعًا باستخدامها^(١٧).

وثارت ثائرة الإسرائيليين علي هذه المكتبة إذ أحلت باتفاقها معهم (جريدة (الحياة) اللندنية. أيلول — الأحد — ملحق آفاق ١٩٩١م).

** والحق أن علماء اللاهوت والآثار النصارى قد ثارت ثائرتهم بسبب إخفاء تلك المخطوطات ليس فقط بسبب التشوق العلمي ولكن الأهم هو ظنهم أنها تحتوي علي ما ينصر عقيدتهم ويخفي اليهود، خاصة أنه في عام ١٩٩٠ قيل إن صحفياً إسرائيلياً أجري لقاء مع (سترنجل) — من أهم العلماء الذين بحثوا في المخطوطات قبل نشرها — فتكلم وهو في حالة سكر مندبّر فتهجم علي اليهودية ودعا اليهود كلهم للاهتداء إلي المسيحية. ونقل ذلك إلي الصحافة العالمية ومجلة (BAR) فنقل بعد فترة وجيزة إلي مصحة للأمراض النفسية.

فظن علماء النصارى أن هذه المخطوطات بالفعل تحوي ما ينص علي ألوهية عيسى أو غيرها من عقائدهم فضغطوا علي اليهود للإفراج عنها لكنهم اكتشفوا أنها لا تحوي (قنبلة لاهوتية) حسب ما زُعم وأعلن ذلك في مؤتمر عقده في (الإسكوريال) في نفس عام النشر ١٩٩١م^(٧).

بقي أن نذكر أن هذه المخطوطات كتبت بالعبرية والآرامية وكذلك اليونانية وبقي أيضاً أن نذكر أن اليهود الأسينيين أصحاب هذه المخطوطات قد خرجوا في هذه الصحراء وفي ذلك الوقت انتظاراً للخلاص علي يد مسيح أرضي وروحي معاً وقد عاشوا تقشفاً وزهداً مؤمنين بالله الواحد ويوم الحساب.

فإن هذه المخطوطات تحتوي بالفعل علي (قنبلة) ليس كما ظن علماء اللاهوت النصارى وثبت فشله لكنها قنبلة إسلامية، ذلك لذكرها رسول الله صلي الله عليه وسلم ذكراً لا لبس فيه.

فخاتم النبوة وتاريخ ميلاده صلي الله عليه وسلم — بأكثر من طريق — وكونه صلي الله عليه وسلم من نسل إبراهيم وفي نفس الوقت يخرج من وسط المشركين الذين يكذبونه ويماربونه في أول الأمر ثم يتبعونه وكونه صلي الله عليه وسلم محرر أبناء إبراهيم من الوثنية كل هذا وغيره يذكر في مخطوطات البحر الميت.

(٧) مخطوطات نجع حمادي:

هي مجموعة مخطوطات اكتشفت قريباً من بلدة نجع حمادي في صعيد مصر عام ١٩٤٥م، بطريقة تكاد تتطابق مع الطريقة الغريبة التي اكتشفت بها مخطوطات البحر الميت.

تلك المخطوطات تتبع طائفة نصرانية منقرضة تسمى (الغنوص) Gnostic. عاشت هذه الطائفة من قبل القرن الرابع الميلادي، وانقرضت فيه، وقد كتبت هذه المخطوطات باللغتين القبطية واليونانية، وهي تحوي العديد من الأناجيل المختلفة عن الأناجيل المعتمدة عند النصارى حالياً، مثل إنجيل (توماس) وإنجيل (فيليب) وإنجيل (مريم) وإنجيل (المصريين). كذلك بها العديد من الرسائل السرية (أي لا يسمح باطلاع الطوائف الأخرى عليها).

هذه الكتب تحتوي علي كثير من التفاصيل تختلف تمامًا مع الأناجيل المعتمدة وفي نفس الوقت تتفق مع القرآن الكريم!!! مثل إتيان الملائكة بالطعام لمريم، ومثل إيواء عيسي وأمه إلي ربوة ذات قرارٍ ومعين، وكلام عيسي في المهدي، وغير ذلك.

طائفة الغنوص صاحبة المخطوطات اضطهدت مع دخول روما في النصرانية، فرحلت وتركت مخطوطاتها.. هذه الطائفة كان عندها تثليث يختلف عن تثليث النصارى الحالي، إذ كانوا يقولون: بالآب والابن والأم!! الذي يهمننا في هذه المخطوطات أن بها ذكر للرسول صلي الله عليه وسلم، إذ نجدها تذكر — متفردة من بين كل النصوص الأخرى — المثل القرآني للنبي صلي الله عليه وسلم وصحبه.. {وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ} [الفتح: ٢٩] ^(vi).

(أ) تاريخ ميلاده وملكه وعلاماتهما (١) الساعة ١٢

{وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٨٩].

تتكلم الآية السابقة عن حال اليهود لما جاءهم القرآن الكريم وعرض عليهم وقد كانت عندهم صفات هذا الكتاب الكريم وصفات وزمان النبي الذي يأتي به إذ عندما جاءهم ذلك كفروا بكلاهما؟ أي كفروا بالنبي والكتاب الذي هو من عند الله.. وقد كانوا من قبل يترقبونهما.

والاستفتاح) لغةً، هو: طلب الفتح أي النصر من الله، أو الإخبار والإعلام والتعريف (كمن يفتح علي القارئ).

أو طلب الفصل أو الحكم والقضاء..

وهذا الثالث لا مكان له في هذه الآية..

أما الأولان فتحتمل الآية كليهما وهو ما ذهب إليه مفسرو القرآن الكريم منذ ابن كثير ومن تبعه.. إذ إن اليهود كانوا يخبرون أهل المدينة في الجاهلية عن زمان خروج النبي صلي الله عليه وسلم وفي نفس الوقت يطلبون النصر من الله بذلك النبي علي المشركين، يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: (قال محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمرو عن قتادة الأنصاري عن أشياخ منهم، قال فينا والله وفيهم يعني في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة.. قالوا كنا قد علوناهم قهراً دهرًا في الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل

كتاب وهم يقولون إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به، كما قال الزمخشري في الكشاف: [.. ويقولون (أي يهود المدينة) لأعدائهم من المشركين: قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم.. وقيل معني {يستفتحون}: يفتحون عليهم ويعرفونهم أن نبياً يبعث منهم قد قرب أوانه].

ومثل ذلك ذهب إليه محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره (التحرير والتنوير) الذي ذكر أن اليهود كانوا بذلك يترقبون ذلك النبي وهذا ما ذهب إليه أيضاً صاحب الظلال، رحمهم الله جميعاً رحمة واسعة.. والحق أن بعض علماء مقارنة الأديان من المسلمين قد خاضوا من قبل في هذا الموضوع وذكروا نصوصاً في الكتاب المقدس تشير في رأيهم إلي زمان خروج النبي الآخر صلي الله عليه وسلم وقد خاضوا في هذا الأمر علي وجهين: الأول: الإخبار بعلامات مجيء وزمان ليس محددًا تحديداً دقيقاً وقد أصابوا فيه. والوجه الثاني: هو التحديد الدقيق لتاريخ الميلاد أو البعثة.

أما الوجه الأول: فلم يتعد نبوءة في العهد الجديد (الأنجيل والرسائل الملحقة بها) علي لسان المسيح عيسى... يتكلم فيها عن علامات مجيء المسيح المنتظر، يفسرها النصاري علي أنها علامات عودة عيسى إلي الدنيا مرة أخرى. والحق أن العهد الجديد من عاداته أن ينسب كل نبوءة وردت من قبل في العهد القديم (التوراة) عن النبي المنتظر ولم تتحقق في عيسى، ويقول سيتحقق هذا حين يعود عيسى إلي الدنيا مرة أخرى، ويسمون هذا (المجيء الثاني). وهي في إنجيل (متي ١: ٢٤ - ٢٧).

أما الوجه الثاني في الإخبار بعلامات زمان خروج النبي صلي الله عليه وسلم في كتب أهل الكتاب — عند الكتاب المسلمين — وهو التحديد الدقيق في (الكتب القانونية) أي (الكتاب المقدس) عند الكتاب المسلمين فالحق أن فيه بعض المبالغات، الإسلام ليس مضطراً لها.

* أما ذلك التحديد الدقيق لهذا الزمان فلا نجده إلا في كتب أخرى قديمة لا تطبع كثيراً ولا يهتم بها إلا المتخصصون، بعضها لم نجده إلا متأخراً جداً (أواسط القرن العشرين). هذه الكتب يُعتد بها تماماً عن أهل الكتاب (وإن لم يُتعبد بها) فهم مكتشفوها وحازوها ولم يدع منهم مدعٍ أنها قد دُست عليهم من غيرهم.

* ومن فضل الله عليّ أن يسّر لي قراءة كتاب من كتب السويديين "Pseudepigrapha" غير القانونية اسمه (رؤيا إبراهيم) **Apocalypse Of Abraham** كتب هذا الكتاب في القرن الأول أو الثاني الميلادي^(vii)، رغم ذلك فإن أقدم مخطوطاته تعود للقرن الرابع عشر الميلادي^(viii) (ولم يعرف في الأوساط العلمية إلا في القرن الحادي عشر أو الثاني عشر) أي أنه ظل مجهولاً لما لا يقل عن عشرة قرون^(ix) ولا يوجد له سوى ترجمة واحدة أي نص واحد باللغة السلافية^(x) فلا يعقل مثلاً أن يقول قائل إن محمداً صلي الله عليه وسلم تحصل علي نسخة من هذا الكتاب قبلنا وأدرك تلك الصدفة وذلك التطابق بينه وبين الشخصية صاحبة النبوءة فاعتزم ادعاء النبوءة!!

(... يحكي هذا الكتاب قصة معراج نبي الله إبراهيم حيث رأي فيما رأي أحفاداً له يعبدون أصناماً داخل هيكل عظيم وله جمال المعبد السماوي القائم تحت عرش الله (البيت المعمور) يقدمون لها ذبائح بشرية^(xi). ونتيجة لهذه الجريمة ينتقم الله منهم ببعثه عليهم جيشاً من الوثنيين يحرقون هذا المعبد ويقتلون بعضهم (بعض أحفاد إبراهيم) ويأسرون الباقين^(xii). ثم يخرج الله في الساعة الثانية عشرة (الساعة تمثل قرناً من الزمان كما ذكر الفصل ٢٨) من هذه الحادثة رجلاً من نسل إبراهيم ومن وسط الوثنيين يعيد السيادة للموحدين. يهان ويضرب في أول الأمر من الوثنيين ثم يثقون فيه ويعزرونه. وسوف يتبعه بعض أبناء إبراهيم ويهينه ويضربه بعضهم أيضاً^(xiii)، وهو محرر أبناء إبراهيم من الوثنية^(xiv)....).

How long a time is an hour of the age? And he said. "I decreed to keep twelve periods of the impious age among the heathens and among your seed and what you have seen will be until the end of the time....

And I looked and saw a man going out from the left; the heathen side. from the side of the heathen went out men and woman and children a great crowd; and they worshipped him. ... and I said' Eternal Mighty one! who is this man insulted and beaten by the heathen. and He answered and said "Hear Abraham; the man whom you saw insulted and beaten and again worshipped is the liberation from the heathen for the people who will be (born) from you. In the last days, in this twelfth hour of impiety, in the twelvth period of the age of my fulfillment, I will set up this man from your tribe. ... many of the heathen will trust in him. And those of your seed... some insulting him, some beating him, and others worshipping him, many of them shall be offended because of him, It is he who will test those of your seed who have worshipped him in the fulfillment of the twelfth hour.(chapter 29) ["the Old Testament pseudepigrapha" (charles) p.681

لا جدال أن هذه القصة تحدث عن النبى المنتظر الذى يظهر فى الساعة الثانية عشرة أى القرن الثانى عشر (بتفسير الكتاب نفسه) من تاريخ خراب شامل لليهود فما هو هذا الخراب؟ ومتى حدث؟

أمانا ثلاثة احتمالات:

١ — سقوط السامرة ومملكة إسرائيل (الشمالية) فى يد شلناسر ملك آشور وسبي أهلها. (سفر الملوك الثانى. الإصحاح ١٦ — الكتاب المقدس).

٢ — سقوط أورشليم (القدس) نفسها فى يد (نبوخذنصر) ملك بابل وسبي أهلها أيضاً نتيجة عبادتهم الأوثان وتقديم القرابين بل والذبائح البشرية لها. فدخل ذلك الملك أورشليم ويهدم هيكل اليهود ويقتل بعضهم ويسبي الآخرين — هذه الحادثة من أهم الأحداث فى تاريخ اليهود — (سفر الملوك الثانى. الإصحاح ٢١ — ٢٥). (وبنى (الملك منسى) فى دراري هيكل الرب مذابح لكل كواكب السماء. وأجار ابنه فى النار... ونصب تمثال (عشتاروث) الذى صنعه فى الهيكل.. فارتكبوا (بنو إسرائيل) ما هو أقبح مما تركبه الأمم التى طردها الرب. (إصحاح ٢١: ٥ — ٩).. وأضلّ يهوذا فجعله يأثم بعبادة أصنامهم، لذلك يقول الرب إله إسرائيل: ها أنا أجلب شراً على أورشليم ويهوذا.. وأمسخ أورشليم من الوجود.. وأنبذ بقية شعبي وأسلمهم إلى أيدي أعدائهم، فيصبحون غيمة وأسرى لهم.. (إصحاح ٢١: ١١ — ١٥).... ثم تذكر التوراة ستة ملوك بعدد (منسى) واحد فقط منهم (عمل ما هو صالح فى عيني الرب)، أما الخمسة الباقون فكل واحد (ارتكب الشر فى عين الرب) وتبعهم الشعب فكانت النتيجة التى تنبأت بها التوراة (وفى اليوم.. من حكم الملك) نبوخذنصر ملك بابل، قدم (نبوزرادان) قائد الحرس الملكى من بابل إلى أورشليم وأحرق الهيكل.. وكل منازل العظماء، وهدمت جيوش الكلدانيين... جميع أسوار أورشليم وسبي (نبوزرادان) بقية الشعب واستولوا أيضاً على القدور والرفوش والمقاص والصحون وجميع آنية النحاس التى كانت تستخدم فى الهيكل (إصحاح ٢٥: ٨ — ١٤).

٣ — الاحتمال الثالث هو تدمير الهيكل على يد الرومان وحرثه فى القرن الأول والثانى الميلادى. وهذه الحادثة أيضاً من أهم الأحداث فى تاريخ اليهود. أما الاحتمال الأول فيرفض لأنه لم يهدم فيه الهيكل كما ذكرت هذه النبوءة وأما الاحتمال الأخير فيرفض أيضاً لأنه لم يحدث نتيجة عبادة اليهود للأوثان.

لم يبق أمامنا سوى الاحتمال الثاني لأنه الوحيد الذي حقق جميع الشروط. إذ حدث نتيجة عبادة الأوثان وتقديم الذبائح البشرية لها. وكذلك حدث فيه السبي وهدم الهيكل العظيم. وهذا ما تقوله التوراة أيضاً عقب عبادة بني إسرائيل للأصنام في عهد الملك (منسي) (ملوك الثاني: ٢١ : ١١ - ١٥).

يبقى أمامنا الجزء الثاني من السؤال؟ متى حدث ذلك الخراب؟ لم يذكر أي كتاب من كتب تاريخ اليهود والتوراة تاريخاً بعد القرن السادس قبل الميلاد^(xv).

ذكرنا من قبل أن النبي المنتظر (حسب نبوءتنا هذه) يظهر في القرن الثاني عشر من هذه الحادثة. إذن يظهر في القرن السادس الميلادي (سنة قبل الميلاد وستة بعد الميلاد).

ومن المعروف تماماً أن نبي الإسلام صلي الله عليه وسلم قد ولد عام ٥٧٠ أو ٥٧١ ميلادياً، أي في القرن السادس الميلادي.

والغريب أن بقية الصفات التي ذكرتها النبوءة تتطابق تماماً مع صفاته عليه الصلاة والسلام إذ أنه صلي الله عليه وسلم خرج من وسط المشركين (وهو من نسل إبراهيم) ثم أهانه العرب المشركون ثم آتبعوه. وقد آتبعه بعض أبناء إبراهيم (العرب أبناء إسماعيل) وبعض اليهود (من أبناء إسحاق) ورفضه بعض أبناء إبراهيم (اليهود). كما أنه هو صلي الله عليه وسلم محرم أبناء إبراهيم من الوثنية، بل إن التاريخ بطوله لم يشهد محرراً للبشرية كلها من الوثنية مثل محمد (صلي الله عليه وسلم).

= ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن مسألة أسلاف النبي محمد صلي الله عليه وسلم أو أسرته علي وجه الدقة المذكورة بشكل واضح في كتاب آخر قديم من كتب اليهود وهو (ترجوم بسود وجوناثان) أو (الترجوم الأورشليمي ١) وكذلك (الترجوم الأورشليمي ٢) وهذا ما ذكرته الموسوعة الفرنسية المسماة: (Encyclopaedia universalis) طبعة ١٩٩٦، المجلد ٤ ص ٨٦.

(ب) (٢) ٢٥٠ أسبوعاً

ليست النبوءة السابقة هي البشارة الوحيدة لزمان ميلاد أو مجيء النبي المنتظر. بل هناك نبوءة أخرى نجدها في كتاب آخر من كتب (السودبيجرفا)^(xvi). هو كتاب (عهد موسي) The Testament Of Moses يحكي هذا الكتاب عن إعطاء موسي لتابعه يوشع بن نون كتاباً قبل موته ينبئ بما سيحدث لليهود في العصور اللاحقة. فيتحدث عن خراب أول لليهود نتيجة فساد علي يد ملك من المشرق حيث يحرق معبدهم العظيم ويسبيهم لبلادهم. ثم يعيدهم الله للأرض الموعودة علي يد ملك يرأف بهم ويعاد بناء الهيكل ويمدهم الله بالبنين

والنفير. لكن الإسرائيليين يعودون لمعصية الله فبيعت عليهم ملكًا من المغرب فيخرب بيت المقدس خرابًا ثانيًا ويحرق جزءًا من الهيكل المقدس. وهذا الخراب الثاني أشد من الخراب الأول. ثم تمر بعض الأحداث ثم يظهر النبي المنتظر ومملكته (دولته) الإلهية بعد ٢٥٠ أسبوعًا^(xvii) من وفاة موسى عليه السلام.

اكتشف هذا الكتاب عام ١٨٦١م في مدينة (ميلانو) الإيطالية داخل مكتبة " Ambrosian Library" تعود مخطوطته إلى القرن السادس الميلادي — أي أنه ظل مجهولاً عن أصحابه أكثر من ثلاثة عشر قرنًا من الزمان — ولم نجد حتى الآن سوي هذه المخطوطة لهذا الكتاب. وقد كتبت باللاتينية عن أصل عبري أو آرامي كتب في القرن الأول الميلادي. ويرجح العلماء أن يكون تابعًا لطائفة اليهود الأسينيين. (نقلًا عن مقدمة هذا الكتاب في:

" The Old Testament Pseudepigrapha."

"then Moses spoke to Joshua this word:...,but(you) take this writing so that later you will remember how to preserve the books which I shall entrust to you... (chapter 1:10, 16)..... they will offer their some to foreign gods and they will set up idols in the temple... (chapter 2:8)... In those days a king against them from the east and (his) cavalry will overrun their land. And with fire he will burn their city with the holy temple of the lord and he will carry off all the holy vesssels. And he will exile all the people and will lead them to his own land, yea the two tribes he will take with him.

(chapter 3: 1-3)... then God will remember them because of the covenant which he made with their fathers... And in those time he will inspire a king to have pity on them and send them home to their own land.... But the ten tribes will grow and spread out among the nations during the time of their captivity. (chapter : 5-9) And when the times of exposure come near and punishment arises through kings who (though) sharing their crimes yet punish them... consequently the word was fulfilled that they will avoid justice and approach iniquity (chapter 5:1-3).. and a powerful king of the west shall come, who shall conquer them, and he shall take them captives, and a part of their temple he will burn with fire. He will crucify some of them around their calony.(chapter 6:8,9)... And there shall

come upon them a second visitation and wrath.. He will stir up against them the king of the kings of the earth.. (ch.8:1,2).... behold a second punishment has befallen the people.. exceeding the former one.(ch (٩:٢) then his kingdom will appear throughout his whole creation. then the evil will have an end. (ch.10:1) ...for from my death and burial until his coming there will pass 250 times (c c l times) [i.e.250 year weeks, or 1750 years] (ch.10:11-page 422.^(xviii)(٤٢٣،

ثم تكلم موسى ليوشع: ... خذ هذا الكتاب حتى تتذكروا فيما بعد كيف تحفظوا الكتب التي أعهد بها إليكم ... (فصل ١ : ١٠ ، ١٦) ... سوف يقدمون أبناءهم قرابين لآلهة غريبة وسوف يقيمون أوثاناً في المعبد ... (فصل ٢ : ٨) ... في هذه الأيام سيقوم عليهم ملك من الشرق وسوف تجتاح جيوشه أراضيهم. وبالمنار سوف يحرق مدينتهم مع معبد الرب المقدس. وسوف يحمل معه الآنية المقدسة. وسوف يجلي كل الشعب ويقودهم لأرضه .. القبيلتان سوف يأخذهم معه. (فصل ٣ : ١ - ٣) ... ثم يتذكروهم الرب بسبب عهده مع آبائهم ... وفي هذه الأيام سيلهم الرب ملكاً ليعطف عليهم ويعيدهم لأرضهم. ... لكن القبائل العشرة سوف تكبر وتنتشر في الأمم خلال وقت السبي (فصل ٤ : ٥ - ٩) وجيش يقترب زمن التخلي (عنهم) ويتصاعد العقاب من خلال ملوك يشاركونهم جرائمهم ... تباعاً تتحقق الكلمة من أنهم سوف يتجنبون العدل ويصلون للظلم (فصل ٥ : ١ - ٣) ..

وسوف يأتي ملك قوي من الغرب، يغزوه ويأخذهم أسري، وسوف يجرم جزءاً من معيدهم. سوف يصلب بعضهم أمام قبائلهم (فصل ٦ : ٨ ، ٩) ... ثم تأتي عليهم زيارة ثانية وغضب إلهي ... سوف يثير عليهم ملك ملوك الأرض .. (فصل ٨ : ١ ، ٢) ... انظروا، عقاباً ثانياً سوف يقع للشعب .. يفوق العقاب الأول (فصل ٩ : ٢) . ثم تظهر مملكته (مملكة الله) في كل مكان من خلقه. ثم ينتهي الشر .. (فصل ١٠ : ١) ... لأنه من دفني (دفن موسى) حتى مجيئه (مجيء نبي آخر الزمان) سوف يمر مئتان وخمسون زمناً [أي ٢٥٠ أسبوعاً من السنين أي ١٧٥٠ سنة: التعليق من كتاب "Charles" نفسه] (فصل ١٠ : ١١ - ص ٤٢٢ - ٤٢٣)^(xix) . [الترجمة من عندنا] .

— هذه النبوة فيها الكثير من المباحث. أولها وقبل الخوض في أية تفاصيل بشائرية حيث أنها تذكرنا تماماً بأوائل سورة الإسراء، التي يقول فيها ربنا تبارك وتعالى: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلمن علوماً كبيراً (٤) فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدنا مفعولاً (٥) ثم رددنا لكم الكثرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً (٦) إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تبييراً (٧) عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾ [الإسراء: ٤ — ٨].

هذه الفقرة ترد كما تري في سورة الإسراء وهي سورة عظيمة تبدأ بتسبيح الله تعالى، وفي ثناياها، كما ذكر صاحب الظلال، ثم تختتم بحمده تعالى وتكبيره.. لهذه السورة، إذن محوران، أولهما: ذكر تاريخ مجمل لبني إسرائيل بعد خروجهم من مصر، وقد بدأت بذلك أيضاً وعرجت في ثناياها عليه ثم ذكرت كذلك قرب الختام، والخور الثاني هو ما ذكرناه من قبل؛ تعريه الذات الإلهية وهذا من الإعجاز البياني أن يكون للسورة موضوع محدد.

وقد فسر المفسرون الأقدمون وجّلّ المحدثين هذه الفقرة علي أن الحدين قد مضيا لكنهم اختلفوا في الفرق المنتصرة علي اليهود، فصاحب (التحرير والتنوير) يري أن المرة الأولى هي مجموع غزوات (بمختصر) ملك بابل وآشور لأورشليم حيث انتهى بسبيهم، وأما المرة الثانية فهي سلسلة غزوات الرومان (وقد انتهت بحرق الهيكل) وقد اقرب صاحب (الكشاف) من هذا الرأي وهذا ما يميل إليه صاحب هذا البحث.. كما فسر قليل من المحدثين الحدث الأول علي أنه حدث لليهود علي يد المسلمين في عهد عمر وأن الآخر سيحدث لهم علي أيدي المسلمين أيضاً في آخر الزمان

أما صاحب الظلال فاكتفي بأن الحدين قد مضيا ولكن لم يخض في أسماهم.

يجب علينا تفسير نبوءة الكتاب الأول: "The Testament Of Moses" من التوراة نفسها. الخراب الأول الذي حدث علي يد ملك من الشرق لن يعدو خراب المملكة الإسرائيلية الشمالية علي يد الملك الآشوري شلمناسر (ملوك ثاني ١٧: من التوراة) أو خراب مملكة يهوذا الجنوبية علي يد نبوخذ نصر البابلي (ملوك ثاني ٢١: من التوراة) كلا الملكين من الشرق (شرق فلسطين) لكن المرجح جداً هو الملك البابلي لأن تلك الحادثة أعظم وأشهر وهي التي خرب فيها الهيكل كما ذكرت النبوءة (لم نذكر في ملخصنا لكتاب عهد موسى أن السبي قد حدث لسبط يهوذا — وهذا يؤيد أن الملك البابلي هو المقصود).

وأما الخراب الثاني فلا يمكن أن يكون إلا ذلك الذي حدث علي يد قيصرية الروم عام ٧٠م القيصر طيطس وعام ١٣٥م القيصر هادريان^(xx) وهم ملوك من الغرب كما ذكرت النبوءة وقد هدموا الهيكل مرة أخرى كما ذكرت أيضاً. (ينظر (جدول تاريخي) في مقدمة الكتاب المقدس طبعة دار الشرق).

— نعود مرة أخرى إلى تفسير الفقرة القرآنية سالفة الذكر. فقد رأينا أن التوراة وكتب التاريخ تقول بأن الخراب الأول قد حدث علي يد البابليين وأن الثاني حدث علي يد الرومان. والعجيب أن التوراة أطلقت لقب عبد الله^(xxxi) علي الفاتح البابلي وهذا يتوافق مع وصف القرآن بالمتصرين أول مرة علي اليهود {عبادًا لنا أولي بأس شديد} بل لقد طلب النبي أرميا من اليهود عدم مقاومة^(xxxii) الفاتح البابلي لأن الله هو الذي بعثه. لعل هذا يرد علي بعض المفسرين المسلمين الذين رأوا في إطلاق لفظ {عبادًا لنا} = (عباد الله) دليلًا علي أن المتصرين أول مرة علي اليهود كانوا هم المسلمون إذ إن لفظ عباد الله أو عباد الرحمن^(xxxiii) لا يطلق إلا علي المتقدين لطاعة الله. وقد أطلق القرآن هذا اللفظ علي الكافرين في الآخرة^(xxxiv) إذ إنهم لا يملكون آتئذ إلا طاعة الله. فما المانع أن يكون (نبوخذ نصر) قد خرج لحرب اليهود بأمر من الله وإن كان كافرًا لتأديبهم. عندئذ يصح إطلاق لقب عباد الله علي أفراد جيشه. هذا عن استخدام لفظ {عبادًا لنا} = (عباد الله) للمتصرين أول مرة علي اليهود.

العجيب في الفقرة القرآنية ذكر أن اليهود بعد انتصارهم علي هازمهم أول مرة قد صاروا أكثر نفيًا أي معينا وقد ذكرت التوراة أن اليهود قد عادوا من سبي بابل بمعونة الملك الفارسي (كورش)^(xxxv). ثم إن قوله عزَّ وَجَلَّ {فجاسوا خلال الديار} من الممكن جدًا أن يستشف منه سبي اليهود من ديارهم — والله أعلم.

هذا يجعلنا نرجح تمامًا التفسير القائل بأن الحدين قد مضيا وأن المخرب الأول هم البابليون والمخرب الثاني هم الرومان عام ٧٠٠م^(xxxvi). يؤيد ذلك أيضًا قوله تعالي بعد سرده تلك القصة {عسى ربكم أن يرجحكم وإن عدتم عدنا} أي: إن الله تعالي قد يعود بخراب جديد لهم غير الخرابين المذكورين. في تلك الفقرة بالذات {عسى ربكم أن يرجحكم}. لعله يريد أن يقول لهم: إن لم تؤمنوا بالنبي المنتظر المكتوب عندكم الذي يخرج بعد الخرابين (كما ذكر كتاب:

"The Testament Of Moses"

{وَقَصَّيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ} ثم نقرأ في سوف نعود لعذابكم. ومن الغريب أن يقول القرآن:

كتاب عهد موسي أن تلك النبوءة قد تركها موسي ليوشع مكتوبة في كتاب.

أو لعل تلك الفقرة كانت في التوراة الأصلية الحقيقية ثم ضلت طريقها إلي مخطوط هذا الكتاب مثل كثير من تفاصيل التوراة غيرها التي وجدت بعد ذلك في كتب (الترجوم) ومخطوطات قمران وغيرها..

أو كما قال صاحب (التحرير والتنوير).. (ويجوز أن يكون الكتاب بعض كتبهم الدينية) [مثل كتاب (عهد موسي)] والحق أن سفر أشعيا في العهد القديم خاصة الفصل العاشر يورد كلامًا قريبًا من ذلك إلا أن كتاب عهد موسي يحوي تفاصيل أدق تكاد تتطابق مع التاريخ والنص القرآني كذلك.

* إذن هذه الفقرة القرآنية (آية ٤ — ٨ من سورة الإسراء) تكاد تتطابق مع كتاب (عهد موسي) الذي لم نجده إلا في القرن التاسع عشر.

* أما عن ذكر زمن خروج النبي المنتظر — وهذا هو موضوعنا — فكتاب عهد موسي يذكر أولاً أن النبي المنتظر لن يخرج قبل الخراب الثاني أي بعد عام ١٣٥٠م كما ذكرنا^(xxvii).

بل إن كتاب (عهد موسي) قد حدد (السيح سنين) التي يولد فيها ذلك النبي. إذ يقول موسي ليوشع إن نبي آخر الزمان لن يظهر قبل مرور (٢٥٠ أسبوعاً) من وفاته — أي وفاة موسي — والأسبوع في كتب نبوءات اليهود تعني سبع سنين^(xxviii) يكون المجموع إذن (١٧٥٠ سنة).

وقد قالت النبوءة إنه سيمر ٢٥٠ أسبوعاً (من السنين) بعد موت موسي حتى يظهر نبي آخر الزمان أي إن نبي آخر الزمان سيولد في الأسبوع الـ ٢٥١ أي خلال الفترة ١٧٥٠ إلى ١٧٥٧ من وفاة موسي عليه السلام. وقد حاولت إيجاد تاريخ وفاة موسي من ميلاد المسيح عيسي عليهما السلام فلم أجده محسوباً لكنني وجدت مفتاحاً لحسابه ألا وهو تاريخ وفاة الفرعون رمسيس الثاني الذي لا يكاد يختلف فيه المؤرخون من المسيحيين واليهود علي أنه هو فرعون موسي (انظر علي سبيل المثال (جدول تاريخي) في مقدمة الكتاب المقدس طبعة دار المشرق) كما وجدت في دائرة المعارف اليهودية "Judaica" في باب Ramses II تاريخ وفاة هذا الفرعون وهو ١٢٢٣ ق. م. ولا بد أن يكون موسي قد مات بعد ذلك بأربعين عاماً علي الأقل (زمن التيه كما ذكر في القرآن [المائدة: ٢٦] وسفر العدد في التوراة ٣٣: ١٤) إذن ١٢٢٣ — ٤٠ = ١١٨٣.

إذن فقد مات موسي عليه السلام عام ١١٨٣ ق. م. أو بعده بقليل ولو أردنا حساب تاريخ ميلاد النبي المنتظر من ميلاد المسيح عيسي. نطرح تاريخ وفاة موسي (١١٨٣) من تاريخ الميلاد للنبي المنتظر في النبوءة ١٧٥٠ — ١٧٥٧ فيكون ميلاد ذلك النبي:

$$١٧٥٠ - ١١٨٣ = ٥٦٧م.$$

$$١٧٥٧ - ١١٨٣ = ٥٧٤م.$$

$$\text{بين عام } ٥٦٧\text{م إلي عام } ٥٧٤\text{م.}$$

والمعلوم أن نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام قد ولد عام ٥٧٠م. أي خلال تلك الفترة.

مملكة الله (الدولة الإلهية)

ذكر في آخر النبوءة السابقة المدونة في كتاب (عهد موسى) .. (ثم تظهر مملكته (مملكة الله) في كل مكان من خلقه).

فما هي مملكة الله؟

وما هي علاماتها؟

مملكة الله أو مملكة الرب أو مملكة السماء في التوراة كل هذا يعني بلا ريب الدولة التي تحكم بشرع الله ويعيش فيها المؤمنون به وبكتبه وأنيابه ويقتفون أثرهم؛ هي إذن الدولة الإلهية .. يؤيد ذلك النصوص الآتية: (... اصطفى سليمان ابني ليجلس علي عرش ملك الرب علي إسرائيل (أخبار أيام أول ٥: ٢٨).

(عرشك يا الله إلي دهر الدهور وصولجان ملكك عادل ومستقيم (مزامير ٦: ٤٥).

ومثل ذلك كثير في العهد القديم. وقد وردت في الأصل بصيغة (مملكة) كما وردت بصيغة (ملكوت) الآرامي^(xxix). وصيغة (ملكوت).

أما في العهد الجديد (الأنجيل والرسائل الملحقة) فلم ترد إلا بصيغة المبالغة (ملكوت) في الترجمات العربية ذلك لأن مفهوم مملكة السماء عندهم أنها روحية غير مادية في تناقض واضح مع العهد القديم ... ويدعون أن المسيح عيسى (طلب من تلاميذه ومن غيرهم ألا يظهره لوجود الفرق بين الهوة السحيقة بين ما كان يعتقد اليهود عن المسيا وبين ما يفهمه هو من عمل المسيا ... وعندما يموت ويقدم في مجد عندئذ يستطيع التلاميذ أن يعلنوه أنه هو المسيا المخلص^(xxx).

ويا له من رأي عجيب أليس من عمل الأنبياء توضيح الأمور المهمة للناس؟ وأليس من عمل الكتب السماوية ذلك أيضاً؟ ثم لماذا يقبل النصاري هذا التناقض الواضح في العهد القديم (التوراة) ومع ذلك يقدسونه ويضمونه لكتابهم المقدس؟

والأعجب أنهم يتكلمون بعد ذلك عن فقرات في العهد القديم تتكلم عن مسيح متألم [أشعيا ٥٢: ١٣، ٥٣:

١٢] ويقولون هذه إشارة لصلبه وتألمه!؟

أليس هناك معنى للألم إلا الصلب؟ ثم لماذا الآن توضح التوراة هذا وتناقض أن مملكة الله روحية فقط حسب زعمهم؟

يجدر بنا أن نشير إلي أن قول النصاري في ملكوت السماوات ليس واحداً.. بل هناك ما لا يقل عن خمسة أقوال:

فمنهم من قال: إن المسيح عيسى لم يظهر الملكوت بل تنبأ به ومنهم من يقول أنه أعلنه كحقيقة واقعة^(xxxix). ومنهم من يراه سلطان المسيح المستمر بالصليب ومنهم من يراه الضمير، ومنهم من يراه نزول الروح القدس علي جماعتهم في اليوم الخمسين لرفع المسيح، ومنهم من يري أنه لم ينو إقامة مجتمع أرضي (ملك أرضي) ومنهم من يري (سابقى الألف سنة) أنه جاء ليقيم ملكوت الله علي الأرض (وحاول ذلك بكل جهده، ولكن لأسباب دينية واجتماعية كف عن هذه المحاولة لأنه لم يستطع إقامته، فأجل الملكوت إلي حكم الألف سنة عند مجيئه الثاني وأقام الكنيسة بدلاً منه)^(xxxix).

ثم يختلفون في هذا الرأي الأخير.. هل يأتي المسيح بعد الألف سنة أم قبلها؟!^(xxxiii)

أما الاختلاف الأكبر فيأتي من طائفة اليسوعيين الذين يروا — وحدهم — أن الملكوت مادياً وقد تحقق وهو الدولة البيزنطية.

يتضح مما سبق كم تلبس الأمر علي النصاري في هذا المجال (تفسير (ملكة الله)) وكم هو غامض ذلك لأهم بعدوا عن التفسير الحق. فهي الدولة الإلهية التي يقيمها نبي آخر الزمان وتلتزم بشرع الله ويعيش فيها الموحدون لله توحيداً خالصاً.

أما عن علامات وتاريخ هذا الملك الرباني، وهو السؤال الذي بدأنا به هذا الفصل. وقد تكلمنا قبله مباشرة عن تاريخ ميلاد نبي آخر الزمان ونبوءات ذلك.. ونتكلم الآن عن نبوءات تاريخ ملك نبي آخر الزمان. وهو أوضح ما يكون في العهد القديم في سفر دانيال:

(الفصل الثاني، الأعداد ٣١ — ٤٥): (رأيت أيها الملك وإذا بتمثال عظيم ضخم كثير البهاء واقفاً أمامك وكان منظره هائلاً. وكان رأس التمثال من ذهب نقي، وصدرة وذراعه من فضة، وبطنه وفخذه من نحاس، وساقاه من حديد، وقدماه خليط من حديد ومن خزف. وبينما أنت في الرؤيا انقض حجر^(xxxiv). لم يقطع بيد إنسان، وضرب التمثال علي قدميه المصنوعتين من خليط الحديد والخزف فسحقهما فتحطم الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معاً، وانسحقت وصارت كعصافاة البيدر في الصيف، فحملتها الرياح حتي لم يبق لها أثر. أما الحجر الذي ضرب التمثال فتحول إلي جبل كبير وملاً الأرض كلها. هذا هو الحلم).

(فما تفسيره فهذا ما نخبر به الملك: أنت أيها الملك هو ملك الملوك، لأن إله السماوات أنعم عليه بمملكة وقدرة وسلطان ومجد، وولاك وسلطك علي كل ما يسكنه أبناء البشر ووحوش البر وطيور السماء. فأنت الرأس الذي من ذهب. ثم لا تلبث أن تقوم من بعدك مملكة أخرى أقل شأناً منك، وتليها مملكة ثالثة أخرى ممثلة بالنحاس

فتسود علي كل الأرض. ثم تعقبها مملكة رابعة صلبة كالحديد الذي يدق ويسحق كل شيء. وكما رأيت أن القدمين والأصابع هي خليط من خزف وحديد، فإن المملكة تكون منقسمة فيكون فيها من قوة الحديد، بمقدار ما شاهدت فيها من الحديد مختلطاً بالخزف).

(وكما أن أصابع القدمين بعضها من حديد والبعض من خزف، فإن بعض المملكة يكون صلماً والبعض الآخر هشاً. وكما رأيت الحديد مختلطاً بخزف الطين، فإن هذه المملكة تعقد صلوات زواج مع ممالك الناس الأخرى، إنما لا يلتحمون معاً، كما أن الحديد لا يختلط بالخزف. وفي عهد هؤلاء الملوك يقيم إله السماوات مملكته لا تنقرض إلي الأبد، ولا يترك ملكها لشعب آخر، وتسحق وتبيد جميع هذه الممالك. أما هي فتخلد إلي الأبد).

يشرح النبي دانيال هنا ويفسر حلماً للملك نبوخذ نصر البابلي الذي حرب أورشليم — بيت المقدس — في القرن السادس قبل الميلاد وأخذ اليهود سبانيا، لم يختلف مفسر قديم أو حديث علي أن المملكة الأولى هي مملكة بابل أما الخلاف فسيكون بين التأخرين والمحدثين في تفسير الممالك الأخرى. حيث يفسر علماء الكتاب الحاليين المملكة الثانية بمملكة فارس والثالثة بمملكة ميديا^(xxxv) (مع أن فارس وميديا مملكة واحدة) والمملكة الرابعة مملكة اليونان. اختلف علي هذا التفسير من المحدثين الطبعة القديمة لطبعة اليسوعيين للكتاب المقدس، حيث يرون المملكة الثانية هي مملكة فارس وميديا^(xxxvi) والمملكة الثالثة اليونان والرابعة الرومان. وهذا التفسير الأخير يتفق وكتب الآباء الأولين^(xxxvii) وكتب السويديجرافا، ففي سفر عزرا الرابع^(xxxviii)، وهو سفر هام دخل في نص من أهم نصوص العهد القديم (الفولجاتا — النص اللاتيني) — كملحق — لكنه اختفي في النصوص اللاحقة^(xxxix).

في هذا السفر، تفسر لنا رؤيا رآها عزرا نفسه حيث رأي نسرًا يخرج من البحر، هذا النسر فسر علي أنه المملكة الرابعة التي تكلم عنها دانيال (سفر عزرا الرابع — الفصل ١٢ العدد ١١ — ١٣) والنسر كما نعلم هو رمز الإمبراطورية الرومانية.

وهذا أيضًا تفسير العلامة (تشارلز) الذي استعرنا من كتابه نصوص سفر عزرا الرابع (ص ٥٦٩).

بل إن التلمود نفسه "T.B.Aboda "Zara Ib" أول تلك المملكة الرابعة علي أنها الإمبراطورية الرومانية^(xl).

ومن الكتب الأخرى التي تذكر أن المملكة الرابعة هي الإمبراطورية الرومانية التي سيحطمها النبي المنتظر (الميدراش) (بسكيترابني) (٨٨، ٥ — ٦) وكتاب المؤرخ اليهودي القديم (يوسيفوس) (العاديات اليهودية) الجزء الثاني (٢/٥). كذلك (ترجوم يروشالمي) (تكوين ٤٠، ٢٠).
(Vol. II. P. 62. The legends Of The Jews).

* لماذا إذن يفسر مفسرو العصر الحالي من علماء أهل الكتاب المملكة الرابعة علي أنها المملكة اليونانية مخالفين في ذلك كتبهم المقدسة وشبه المقدسة؟

= يتضح من نص دانيال (٣١/٢ - ٤٥) أن المملكة الرابعة ستتحطم علي يد مملكة السماء (دولة النبي المنتظر) فلما رأى اليهود المعاصرون لنهاية الإمبراطورية الرومانية وما بعدها أن الإمبراطورية قد تحطمت دون أن يظهر المسيا (حسب اعتقادهم) قالوا: المملكة الرابعة لم تأت بعد. كذلك النصارى قبل تحطيم الإمبراطورية قالوا: سيأتي يسوع (المسيح عيسى) مرة أخرى ليحطم الإمبراطورية الرومانية (المملكة الرابعة حسب دانيال ٢ و ٧).

مثل هذا القول نجده في كتابات الآباء الأقدمين؛ كيرلس الأورشليمي علي سبيل المثال - فلما انتهت الإمبراطورية دون انجاء الثاني للمسيح عيسى لم يعد مقبولاً أن تكون الدولة الرومانية هي مملكة دانيال الرابعة وإلا صار محطموها - وهم غير المسيحيين - أتباع النبي المنتظر ولم يعد يسوع نفسه المسيا المنتظر فقالوا بتفسيرين:

التفسير الأول: المملكة الأولى عند دانيال هي بابل والثانية فارس والثالثة ميديا (وفرقوا بين فارس وميديا مع أهما مملكة واحدة). والرابعة اليونان - وهذا التفسير هو الأشهر الآن.

التفسير الثاني: المملكة الرابعة هي فعلا الدولة الرومانية.

وتحطمت فعلاً علي يد أتباع يسوع .. ولكن كيف؟

بأن تحطمت الوثنية وانتصرت المسيحية في تلك الدولة ... ذلك الرأي نجده في هامش دانيال ٢: ٤٤ - ٤٥ في الكتاب المقدس طبعة دار المشرق ١٩٨٦ - وهذا التفسير يكاد يتقرض الآن.

= الواقع والتاريخ يقولان إذن أن المملكة الرابعة التي تكلم عنها دانيال هي الإمبراطورية الرومانية.

خاصة أن تلك المملكة الرابعة تحطم بعد بداية تقسيمها (وهو قدما التمثال) إذ منه جزء قوي (من الحديد) وجزء ضعيف (من الخرف) من المعروف أن الرومان لم يكونوا قد انقسمت ممالكهم أيام سيدنا عيسى بل حدث ذلك قبل بعثة النبي بزمن وقد حطم أتباعه المملكة البيزنطية الرومانية.

فمن تكون مملكة إله السماء التي تكلم عنها دانيال في نهاية النبوءة؟

إنها الدولة التي حطمت الدولة الرومانية. فمن تكون؟

التاريخ يقول إنها الدولة الإسلامية. علي ذلك هي دولة النبي المنتظر الذي يجب أن يكون إذن هو سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم.

** نبوءة دانيال هذه وتفسيرها الذي فسرنا له ما يؤيده في كتاب آخر من الكتب السابقة للإسلام، الزندافستا (الكتاب المقدس عند الزرادشتية - المجوس).

حيث يمثل تطور مستقبل الإمبراطورية الفارسية والديانة الزرادشتية بفروع شجرة مكونة من معادن مختلفة (مثل نبوءة دانيال). الفرع الأول من ذهب يمثل العصر الذهبي وهو تحت حكم الملك **Gushtasp**، الفروع الفضية والفولاذية ترمز لهرم (المخدر) الإمبراطورية. أما الفرع الحديدي فيرمز للكارثة التي ستغمر ليس الإمبراطورية الفارسية وديانتها وحدها بل العالم كله سوي انتصار الحق والفضيلة في آخر الزمان^(xli) أي أن الحق والفضيلة سينتصران في آخر الزمان علي الديانة الزرادشتية وإمبراطوريتها والممالك الأخرى. الغريب أن يصف كتاب الزرادشتية المقدس محطم إمبراطوريتها بالحق والفضيلة. من حطم الإمبراطورية الفارسية تماماً والممالك الكبرى المعاصرة لها؟ إنه جيش محمد صلي الله عليه وسلم. إنه جيش الحق والفضيلة (كما تصفه كتب الزرادشتية).

= كما أن نبوءة خلافة العرب لملوك الفرس قد وردت في كتاب الصابئة المقدس، (الكوه ربه) في الكتاب الثامن العشر^(xliii). كما ذكر في نفس الكتاب، كوه ربه أن ملك العرب المسمى (سيهولدايو) أي تالي الأنبياء يخرج في زمن ملك الفرس أزدجر^(xliiii).

(ب) أمثلة ملكه صلي الله عليه وسلم اللبنة

يروى عن رسول الله صلي الله عليه وسلم قوله: (مثلي في النبيين كمثلي رجل بني داراً، فأحسنها وأكملها وأجلها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها، فجعل الناس يطوفون بالبنيان، ويعجبون منه ويقولون: لو تم موضع هذه اللبنة، فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة)^(xliiv). تكلمت نبوءة دانيال المذكورة في الفصل السابق عن حجر متميز يحطم التمثال الذي يمثل الممالك القديمة — كما فسرت نفس النبوءة .. وبينما أنت في الرؤيا انقض حجر لم يقطع بيد إنسان، وضرب التمثال علي قدميه مصنوعتين من خليط الحديد والخزف فسحقهما، فتحطم الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معاً ...). هذا الحجر يمثل مملكة الله (مملكة النبي المنتظر) .. (وفي عهد هؤلاء الملوك يقيم إله السماوات مملكة لا تنقرض إلي الأبد، ولا يترك ملكها لشعب آخر، وتسحق وتبيد جميع هذه الممالك. أما هي فتخلد إلي الأبد). الواقع أن هذا الحجر المميز أو في معنى آخر قريب (اللبنة) كما ذكر الحديث النبوي المذكور أعلاه سنجدته يتكرر في مواضع كثيرة من العهد القديم والعهد الجديد وفي كتاب الصابئة المقدس (الكواربا). ففي إنجيل متى ٢١: ٤٢ — ٤٤ (ألم تقرأوا في الكتاب: الحجر الذي رفضه البنائون هو نفسه صار حجر الزاوية الأساسي ...

إن ملكوت الله سيرع من أيديكم ويسلم إلى شعب يؤدي ثمره. فأي من يقع على هذا الحجر يتكسر، ومن يقع الحجر عليه يسحقه سحقاً)

هذه الفقرة بلا شك تشير إلى المزمور ١١٨: ٢٢ في العهد القديم: (الحجر الذي رفضه البناءون قد صار رأس الزاوية)... كما تشير إلى (حجر الأساس) في سفر أشعيا ١٦/٢٨. الملفت للنظر هنا وصف الحجر بكونه رأس الزاوية وذلك كما أشارت إحدى روايات الحديث النبوي سالف الذكر (إلا موضع لبنة في زاوية من زواياه).

** أما الكراربا، كتاب ديانة الصابئة المقدس، فأورد نبوءة عجيبة عن تلك اللبنة: ففي ديوان (حوران كويشة) يجعل لحكم العرب ٤٠٠٠ سنة قبل المسيح الكذاب، ولكنه يطابقه في قوله: (بأن اللبنة في الجدار ستنادي به) ^(xlv) أي تنادي بحكم العرب.

— إذن اللبنة كما ذكرها الحديث النبوي لها أربع قرائن في الزمير ودانيال وإنجيل متي وكتاب الصابئة المقدس. وإن كان كتاب الصابئة أشد صراحة في نسبة هذا الحجر أو اللبنة للعرب. لكن النص الموجود في إنجيل متي كذلك يشير لنبي من غير اليهود (إن ملكوت الله سيرع منكم) وهذه الغيرية تتفق مع حجر الزاوية المرفوض أي من غيرهم أيضاً).

زرع أخرج شطاه

يقول ربنا تبارك وتعالى في محكم كتابه:

{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطَاةً فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلِظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح: ٢٩].

قبل أن نخوض في المثليين يستلفت نظرنا المصطلح الذي عبر به عن الدولة الإلهية {محمد رسول الله والذين معه} فهذا المصطلح استعمل في كتب اليهود القديمة.

علي سبيل المثال، كتاب عزرا الرابع (٤ : ٢٨) (المسيا (الذين معه)، بل في إنجيل متى (٣١ : ٢٥): (وإذا جاء ابن الإنسان في مجده تواكبه جميع الملائكة) (أي أتباعه الملائكين)، وهو نفس المصطلح المستخدم في نبوءة (ثنائية ٢ : ٣٣): (ومعه عشرات الألوف من الملائكة)، كذلك في كتاب (الزندافتسا) المقدس عند الزرادشتية (المجوس) نجد دائماً كلاماً كثيراً عن (النبي المنتظر ورفاقه).. " Soshyos And His " "Companions"^(xlvii). ولفظ (سوشيوس) هذا يعني في الفارسية القديمة: الباحث عن الأصول. تتكلم الآية السابقة عن مثلين للنبي صلي الله عليه وسلم وأصحابه (الدولة الإلهية) يتحدي الله بوجودهما في كتب السابقين: التوراة والإنجيل.

أما المثل الأول فنجده بالفعل في كتاب من كتب التوراة (العهد القديم) ألا وهو المزامير (١٤٩) في نبوءة عن أتباع المسيح المنتظر (باتفاق مفسري الكتاب المقدس) (ليسبحوا اسمه بالرقص ليغموا له علي عزف الدف والعود)^(xlvii): الرب يسر بشعبه، يجمل الودعاء بالخلاص ليهتج الأتقياء بهذا المجد. يرمون علي أسرهم^(xlviii). ليهتفوا مسبحين الرب ملء أفواههم وليتقلدوا بسيف ذي حدين في أيديهم، لتنفيذ الانتقام في الأمم، ومعاقبة الشعوب) (١٤٩ : ٣ - ٧) أولئك (المسبحين الرب ملء أفواههم) وفي نفس الوقت (يتقلدون بسيف ذي حدين)^(xlix) هم (الأشداء علي الكفار) وفي نفس الوقت {رحماء^(l) بينهم تراهم ركعاً سجداً}. أما المثل الثاني في الآية القرآنية السابقة {مثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه} فكنا نري مثلاً قريباً منه في أناجيل متي ومرقص ولوقا، ألا وهو مثل بذرة الخردل، (وقال الرب: ماذا يشبه ملكوت الله^(li)؟ وبماذا أشبهه؟ إنه يشبه بذرة خردل أخذها إنسان وألقاها في بستانه، فنبت وصارت شجرة عظيمة، وأوت طيور السماء في أغصانها) (لوقا ١٣ : ١٨، ١٩).

* أما الآن وبعد اكتشاف مخطوطات نجع حمادي عام ١٩٤٥ م . (أي بعد وفاته صلي الله عليه وسلم بأكثر من ١٣ قرناً) فقد وجدنا في إحدى تلك المخطوطات^(lii) تشبيهاً يكاد يتطابق مع المثل القرآني . تلك المخطوطة هي (رسالة جيمس السرية) ("The Apocryphon Of James"^(liii)) (حيث يشبه المؤلف مملكة السماء - وهي دولة المسيح المنتظر، انظر الهامش رقم ٣ - يشبهها بنخلة خرج منها شطأ، والشطأ كما في لسان العرب) لابن منظور هو: فرخ الزرع والنخل. ثم تدلي من هذا البرعم ثمار حوله، وأخرجت هذه الثمار ورقاً. وحين شبت استغلظت هذه الثمار تسببت في جفاف منبعها. وأصبحت هذه الثمار (الخارجة من البرعم) مع تلك الخارجة من الشجرة الأصلية.

"Do not allow the kingdom of heaven to wither; for it is like a palm shoot whose fruit has dropped down around it . They (i.e, the fallen fruits) put forth leaves, and after they had sprouted, they caused their womb to dry up. So it is also with the fruit which had grown from this single root"

يختلف هذا التشبيه عن مثل حبة الخردل في أنه بدأ بالزرع (الشجرة) كما بدأ المثل القرآني ولم يبدأ بالبذرة. كما أنه يذكر الشطأ (البرعم) وقد ذكر الكتاب (رسالة جيمس السرية) أمثلة أخرى للملكوت السماء عدا مثل (برعم الشجرة)، وعد منها مثل الحبة — أي أن الكتاب فرق تمامًا بين المثلين. العجيب أيضًا أن تكون الشجرة التي يخرج منها البرعم نخله وهي الشجرة التي يشبه النبي صلي الله عليه وسلم المؤمن بها (مثل المؤمن مثل النخلة، ما أخذت منها من شيء ينفعك) ^(liv). ومن الطريف أيضًا أن سفر أشعيا (٤: ٢) في نبوءة مسيحانية يعبر عن المسيا بالشطأ: (في ذلك اليوم يكون نبت الرب بماء). فالكلمة الأصلية في العبرية لنبت هي (صمخ) وهي تعني أولاً الشطأ أو البرعم!!

(ج) الدين الذي يأتي به صلي الله عليه وسلم الإسلام [أمر جديد]

يتضح بشكل قاطع من النبوءات المسيحانية [أي المتعلقة بالمسيح المنتظر أو نبي آخر الزمان] أنه فيما يتعلق به هناك أمر جديد أو مشروع آخر يختلف عما سبقه في أمور أهل الكتاب السابقة (ها أنا أنجز أمرًا جديدًا ينشأ الآن، ألا تعرفونه أشق طريقًا في البرية) (أشعيا ٤٣ : ١٩).

* (١) فهناك مكان آخر للسجود لاتباع ذلك النبي .. (أي القبلة التي يكون فيها المعبد الأعظم قدسية) ... (٢) فقال لها المسيح: إن الساجدين الحقيقيين لن يكونوا في أورشليم ولا في جبل جرزيم. (قالت المرأة يا رب أري أنك نبي. تعبد آباؤنا في هذا الجبل (جبل جرزيم)، وأنتم (أي اليهود) تقولون إن المكان الذي فيه يجب التعبد هو أورشليم (القدس). قال لها يسوع: صدقيني أيتها المرأة .. تأتي ساعة فيها تعبدون الآب (أي الله) لا في هذا الجبل ولا في أورشليم ..) ^(lv) (يوحنا ٤ : ١٩ — ٢١).

[سنري في فصل لاحق كيف أن هناك نبوءات واضحة علي كون الكعبة هي قبلة النبي الآخر].
 * (٢) = وهناك تعמיד^(dvi) آخر للمؤمنين أتباع ذلك النبي (صبغة) (أجاب يوحنا الجميع قائلًا: أنا أعمدكم بالماء، ولكن سيأتي من هو أقدر مني، من لا أستحق أن أحل رباط حدائه: هو سيعمدكم بالروح القدس وبالنار) (لوقا ١٦: ٣)^(dvii).

المعروف أن النصراري حتي الآن يصبغون بالماء ولم يتغير الحال ... أما في القرآن فنقرأ ... {فَإِنْ آمَنُوا بِمَثَلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ} [البقرة: ١٣٧، ١٣٨] أي أن الصبغة الإلهية أو التعميد الإلهي هو ما آمن به المسلمون. من إيمان بالله ورسله دون تفرقة، وهو إذن تعמיד معنوي لا حسي مثل الماء كما أشارت الفقرة الإنجيلية.

— وهذا ما عليه كل المفسرين.

* (٣) = وهناك لغة أخرى يخاطب الله بها اليهود من ذلك النبي (سيخاطب الرب هذا الشعب بلسان غريب أعجمي) (إشعيا ٢٨: ١١)^(dviii).

* (٤) = وهناك شعب آخر يخرج منه ذلك النبي ويتبعه. يقول عيسي مخاطبًا اليهود: (إن ملكوت الله سيرع من أيديكم ويسلم إلي شعب يؤدي ثمره) (متي ٢١: ٤٣) (ملكوت الله أو مملكة الله كما ذكرنا هو نبي آخر الزمان وأتباعه).

(هكذا قال السيد الرب إني أنزع العمامة وأرفع التاج. هذه الحال لا تبقي بل أعلي السافل وأسفل العالي. وأجعل انقلابًا علي انقلاب علي انقلاب. هذه الحال لا تكون وذلك إلي أن يأتي (شيلوه) [الذي له الحكم] فأجعله له). (حزقيال ٢١: ٢٦، ٢٧).

واضح تمامًا توافق المعني بين فقرة حزقيال هذه وسابقتها فقرة متي. فالرع هو الرع. إذن (العمامة والتاج) هما (ملكوت الله) أي الملك والنبوة. وذلك منطقي. فالتاج معروف أنه رمز الملك وذلك أيضًا تفسير النصراري في هذه الفقرة. لكنهم يقفون عند تفسير العمامة التي لا بد أن تكون ترمز للنبوة — وقد ذكر ذلك بعض علماء الأديان المسلمين السابقين — أي أن بني إسرائيل يرع منهم الملك والنبوة وليس الملك فقط كما أراد تفسير النصراري لهذه الفقرة إذ فسرها لزوال ملك اليهود علي يد مختصر البابلي وغيره إلي أن يأتي نبي آخر الزمان (شيلوه) ولكن أليس لليهود اليوم ملكًا قبل مجيء المسيا الذي ينتظرونه؟ الحق أنه جاء وتغافلوا عنه (صلي الله عليه وسلم).

= من صفات هذا الشعب أنه:

(أ) من إخوة بني إسرائيل (لهذا أقيم لهم نبياً) من بني إخوهم^(lix) مثلك (مثل موسى) وأضع كلامي في فمه) (تشية ١٨ : ١٨). أي من بني عمومة اليهود وهم بنو عيسو أو بني إسماعيل.

= من صفات هذا الشعب أنه:

(ب) شعب وثني (ثم رأيت رجلاً (المسيا) يخرج من وسط الوثنيين.. سوف أقيم هذا الرجل من نسلك (نسل إبراهيم).. كثير من الوثنيين سوف يتقون فيه ..) (مخطوطات البحر الميت — رؤيا إبراهيم — فصل ٢٩) كذلك في التوراة أشعيا (١ : ٦٥ — ٣) (وجدني من لم يطلبني.. شعب يثابر علي إعاظتي في وجهي، إذ يقرب ذبائح لأصنام).

= من صفات الشعب المتبع للنبي الآخر كذلك أنه:

(ج) شعب يسكن الصحراء (ها أنا أنجز أمراً جديداً) ينشأ الآن، ألا تعرفونه؟ أشق في البرية طريقاً وفي الصحراء أهزاراً، فيكرمني وحسن الصحراء: الذئاب والنعام لأني فجرت في القفر ماء)، وفي الصحراء أهزاراً لأسقي شعبي الذي اخترته، وجبلته لنفسي ليذيع حمدي) (شعيا ٤٣ : ١٩ — ٢١) العجيب أن الصحراء تذكر في أغلب النبوءات المسيحانية.

= من صفات ذلك الشعب أيضاً أنه:

(د) لم يرسل فيه نبي من قبل .. هذا يتضح كذلك تماماً من فقرة سفر شعيا المذكورة آنفاً .. إذ قصد كذلك بالصحراء أنه لم يكن في العرب ساكني الصحراء من قبل نبياً وقصد بالأهبار — كما واضح — رسالة السماء.

= من صفات ذلك الشعب أيضاً أنه:

(هـ) متمرد وضال وأحمق .. (سقط يدي اليوم لشعب متمرد سلك في طريق طالح، ضالاً وراء أوهامه... (شعيا ٦٥ : ٢).. (لذلك سائر غيرهم بشعب متوحش وأغيظهم بأمة حقاء (تشية ٣٢ : ٢١) لم يكن هناك أشد تمرداً ولا أحمق ولا أجهل من العرب قبل الإسلام .. وذلك شهادة التوراة نفسها ..) (قد جلست لهم علي قارعة الطريق كالأعرابي في البادية ودنست الأرض بزناك وعهارتك ..) (إرميا ٣ : ٢) بينما رأي العهد الجديد في اليونان وهم المتبعون الجدد للنصرانية أنهم أهل حكمة ..) (إذ إن اليهود يطلبون آيات، واليونانيين يبحثون عن الحكمة..) (كورنثوس ١ : ٢٢).

* (٥) = وهناك اسم آخر يطلق علي الداخلين في دين النبي الآخر ..

يقول شعيا في الإصحاح الخامس والستين في آخر نبوءة طويلة عن شعب جديد يتقرب إلي الله بعد أن كان جاهلاً كافراً يتعد عن الله هكذا يقول في آخر النبوءة غائظاً اليهود.

(وتخلفون اسمكم لعنة علي شفاه مختاري^(lx) ويميتكم الرب ويطلق علي عبده اسماً آخر) (شعيا ٦٥ : ١٥).
 ** لا يمكن أن يقبل تفسير النصاري أن هذا الاسم هو (المسيحيون) لأن — هذا الاسم لم يطلق إلا متأخراً بل إنهم كانوا يعتبرون في أول الأمر فريقاً من اليهود. نقرأ في العهد الجديد؛ سفر أعمال الرسل (وفي أنطاكية أطلق علي تلاميذ الرب أول مرة اسم المسيحيين) (١١ : ٢٦).
 الحق أن هذه إشارة إلي الإسلام.

* وقد ذكرت الموسوعة اليهودية *Encyclopaedia Judaica* في باب *Abraham* إن التعبير (مسلمين): (أو تلك الذين يكرسون *Dedicate* أنفسهم لله) يعود إلي (ترجوم أو نيكيلوس) (تكوين ١٧ : ١).
 حيث أمر الله إبراهيم أن يكون مستسلماً (مكرساً) له، "*Become Shelim*" أي أن الكلمة تنطق بالآرامية (شليم)^(lxi) والمعروف أن اللغة الآرامية التي كتب بها الترجوم قريبة جداً من اللغة العربية، وتنطق هي وأختها العبرية (السين): (شينا) فمن اليسير إذن أن تنطق الكلمة (سليم) قريبة جداً من لفظ (مسلم).

* العجيب أن الفقرة المذكورة في (الترجوم) حيث يقول الله لإبراهيم: كن مسلماً (أو مستسلماً لله) نجدها في القرآن الكريم، {وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠)} إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ {البقرة: ١٣٠، ١٣١}. هذا ما نقرأه تماماً في (الترجوم) (١٧: ١): "*And god said to Abraham be shelim*".

— والقرآن ينص علي أن هذا المصطلح (إسلام) (مسلمون) لم يكن محمداً عليه الصلاة والسلام أول من استخدمه. بل إن إبراهيم هو أول من استخدمه. {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ} [الحج: ٧٨].
 لذا لم يكن غريباً أن يقول القرآن: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [آل عمران: ٦٧].

= لم تكن هذه هي كل المواضع في كتب أهل الكتاب التي يذكر فيها اللفظ (إسلام).

* فإن كتاب (الكواربا) المقدس لدي طائفة الصابئة يعبر عن المؤمنين به بالمسلمين (أيها المسلمون المؤمنون وأيها المؤمنون المسلمون لا تراجعوا عن عهدكم الذي عاهدتم الله عليه)^(lxii) كذلك تعتبر كتب الصابئة المقدسة إسماعيل (أبو جميع المسلمين)^(lxiii).

(د) قبلته صلى الله عليه وسلم الكعبة

يقول ربنا تبارك وتعالى:

{وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون (١٤٤) وَلَمَنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَمَنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ مَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنْ فَرِيقًا
مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٤٤ - ١٤٦].

** قوله عز وجل: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ} يعود كما يتضح من السياق علي مسألة تحويل القبلة.. أي
أن كتب أهل الكتاب فيها ما يدل علي تحويل قبلتهم لقبلة أخرى هذا الذي نقرؤه في الفقرة التالية ..
والحق أن جلّ المفسرين فسروا {يَعْرِفُونَهُ} بأنما تعود علي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا لا أرفضه لكن
السياق يشمل أيضًا ما يجيء به هذا النبي من أمور خاصة تحويل القبلة أو أحقية الكعبة كقبلة لأن الفقرة
القرآنية منذ قوله تعالى: {سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها} الآية ١٤٢ إلي
الآية ١٥٠ وهي فقرة طويلة يكاد يكون موضوعها البحث هو القبلة، والآية المذكورة تتوسط تلك الفقرة
تمامًا، يكاد أن يكون هذا ما ذهب إليه صاحب تفسير (الأساس) كما يقول صاحب الظلال — رحمه الله — في
تفسير ذلك : (الحق في هذا الشأن وفي غيره هو ما جاء به القرآن، وما أمر به الرسول، ولكنهم يكتُمون الحق
الذي يعلمونه... فإذا كان أهل الكتاب علي يقين من الحق الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ومنه هذا
الذي جاء به في شأن القبلة).. وقد اختلف في ذلك صاحب (التحرير والتنوير) إلا أنه فسّر الآية الأولى في
الفقرة الآية ١٤٤، {وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم} فسّر الضمير في (أنه) عائداً علي
استقبال الكعبة، وهو ما عليه كل المفسرين بلا استثناء، إلا أن يقول أحدهم تحويل القبلة إلي الكعبة.
= (فقاتلت له المرأة (السامرية): يا سيد أري أنك نبي. آباؤنا عبدوا الله في هذا الجبل (جززيم)، وأنتم اليهود
تصرون علي أن أورشليم يجب أن تكون المركز الوحيد للعبادة. فأجابها يسوع: صدقيني يا امرأة، ستأتي الساعة
التي فيها تعبدون الآب لا في هذا الجبل ولا في أورشليم فستأتي ساعة، لا بل هي الآن، حين يعبد العابدون
الصادقون الآب بالروح وبالحق). (يوحنا ٤ : ١٩ - ٢٣).

هذه الفقرة في العهد الجديد ذكرها العديد من علماء مقارنة الأديان المسلمين علي أنها إشارة للكعبة وبيت الله الحرام. والحق أن المعني ليس بالوضوح الكافي.

لكنني وجدت في مواضع أخرى في كتب السويديجغرافيا^(lxiv) كلاماً صريحاً عن المسجد الحرام. * ففي كتاب (آدم وحواء)^(lxv):

يقول آدم لابنه شيث: إن الله سوف يدل الناس الأمتاء علي المكان الذي يبنون فيه بيته (بيت الله). (كتاب آدم وحواء - ٢٩ : ٥ - ٧) وقد علق العلامة (تشارلز) - صاحب الكتاب الذي حوي الترجمة الإنجليزية لهذا الكتاب علق علي هذه الفقرة قائلاً^(lxvi): عدم ذكر معبد أورشليم في الفصل ٢٩ (المذكور فيه بيت الله) يدل علي أن هذا الكتاب كتب في مدينة غريبة. واكتفاء الكتاب بقوله: المكان الذي اعتاد الصلاة فيه هو الذي تعلم المسلمون أن يبنوا عليه احترامهم للكعبة.

أي أن هذا العلامة رأي فعلاً هذا التشابه بين الكعبة في القرآن والفقرة المذكورة في كتاب آدم وحواء فادعي أن المسلمين (لابد أنه يقصد النبي عليه الصلاة والسلام) اقتبسوها.

* والحق أن هذا التشابه قائم بوضوح. يتبين ذلك في قوله تعالي: {وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت...} [الحج: ٢٦]. أي أن الله عز وجل بين لإبراهيم المكان الذي يبنى فيه الكعبة. وهذا يكاد يتطابق مع الفقرة المذكورة في كتاب (آدم وحواء).

وتفسيرنا لكلمة {بوأنا} بأنها بيّنا أو دللنا هو ما ذهب إليه ابن كثير (أي أرشده إليه وسلمه له وأذن له في بنائه) وتبعه في ذلك أكثر المفسرين، كما يقول ابن منظور في لسان العرب: (تبوأ فلان منزلاً إذا نظر إلي أسهل ما يري وأشدّه استواءً وأمكنه لمبيته فاتخذة).

* توجد إشارة أخرى قوية في كتاب من كتب (السويديجغرافيا) أيضاً كتاب (اليوبيلات) "The Book Of The Jubilees" علي لسان إبراهيم الخليل (لقد بنيت هذا البيت لنفسي لأضع اسمي علي الأرض وسوف يسمى (بيت إبراهيم) (٢٢ : ٢٤).

* آخر القرائن التي وجدناها في هذا الباب. حوار دار بين إبراهيم والنمرود. قدم فيه إبراهيم نفسه علي أنه سادن بيت الله

.The Steward Of God's House": The Legends Of The Jews"

* ولم نذهب بعيداً إن التوراة نفسها تذكر (مكة) لكن باللفظ الذي ذكر في القرآن (بكة) ولعل القرآن اختار هذا اللفظ دون الأول حتى يتذكره أهل الكتاب... إذ تتكلم التوراة (مزامير ٨٤: ٥، ٦) عن فرحة حاج يؤدي مناسك حجه (هو في تفسيرهم داود) إلي بيت الله. وكيف أن هناك عيون ماء لسقيا الحجيج (بذكرنا ذلك بينر زمزم في المسجد الحرام).

(طوبى لأناس أنت قوهم. المتلهفون لاتباع طرقت المفضية إلي بيتك المقدس وإذ يعبرون في (وادي البكاء) الجاف، يجعلونه ينابيع ماء، ويغمرهم المطر الخريفي بالبركات) (مزامير ٥: ٨٤، ٦)

لفظ (وادي البكاء) هنا ترجمة لاسم مكان، والأسماء لا تترجم فإن العالم الشهير (أينشتاين) لا ترجمه إلي العربية فيصبح (الصخرة الواحدة) بل ندعه كما هو. لذلك الترجمات الإنجليزية لهذه الفقرة تقول **The Valley Of Baca** أي (وادي بكة) وهذا أقرب إلي الأمانة العلمية في الترجمة.. لكن يبدو أن الترجمات العربية خشيت من هذا التشابه بل التطابق بين تلك الكلمة ومدينة الإسلام المقدسة. الغريب أننا لا نعرف حتى الآن في القدس (وهي المدينة التي يحج إليها أهل الكتاب) وادياً يسمى وادي البكاء أو وادي بكة. هذا ما نقرأه في المرجع التالي

(67Young's Concordance P)

(Baca : weeping valley near Jerusalem , and the valley of Rephaim
whose exact locality is uncertain)

= كذلك نجد تلميحاً واضحاً عن الكعبة في كتاب مهم من كتب النصاري وهو كتاب (الراعي) (هرمس) الذي [لاقي نجاحاً كبيراً ورواجاً منقطع النظير بحيث أن إيريناوس وإقليمندس الإسكندري و (أوريجينوس) كانوا يضعونه في مستوى الكتب المقدسة. وفي أوائل القرن الرابع ذكر أوسابيوس أن (الراعي) يتلي في بعض الكنائس ويستخدم في تعليم الموعوظين أو طالبي العماد] (lxvii). حيث يصف هرماس كيف أخذه الملاك فوق جبل وأراه سهلاً حوله اثنا عشر جبلاً. وفي وسط السهل [صخرة كبيرة بيضاء كانت تقوم مرتفعة، وكانت أعلي من الجبال ومربعة، ومن الوسع بحيث يمكنها أن تحوي العالم بأسره. كانت هذه الصخرة قديمة وبها باب محفور، ويبدو أن الباب كان حديث الحفر، وكانت تسطع أكثر من الشمس وكنت أعجب لضيائها. وكانت تقف حول الباب اثنا عشرة عذراء... كن يرتدين أقمصاً من كتان بزئار ظريف، ويظهرن أكتافهن اليمني كما لو كن يتأهبن لرفع حمل ثقيل] (lxviii). البناء المربع وسط الجبال له باب حوله الطوافين الذين يكشفون كُفّاً واحداً. ألا يذكرنا ذلك بالكعبة المشرفة؟.

الكلام عن البيت الحرام يستدعي الكلام عن البيت المعمور وهو في عرف الإسلام في السماء السابعة يقابل الكعبة في الأرض. ففي حديث النبي عليه الصلاة والسلام عن المعراج.

(... ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه). (رواه أحمد ومسلم عن أنس).

وقد كنت أقرأ في سفر الرؤيا ٢١ (العهد الجديد) وصفاً لأورشليم الجديدة ولو أنه يتكلم عن مدينة لا يبيت عبادة فأقول في نفسي: هذا الكلام كان في أصله عن البيت المعمور.

* فقول رؤيا يوحنا إن هذه المدينة الجديدة متساوية الطول والعرض والارتفاع (٢١: ١٦)؟! يدعوننا للدهشة فهذا لا ينطبق إلا على بناء مكعب لا مدينة.

* وقد وجدت في كتاب من كتب السويديجغرافيا، وهو كتاب أخنوخ وصفاً لبيت عبادة سماوي يكاد يتطابق مع الوصف الإسلامي وفي نفس الوقت له قرائن مع أورشليم الجديدة في سفر الرؤيا.

يصف هذا الكتاب معراجاً للنبي أخنوخ (لعله إدريس) وحين يصل إلى سماء السماوات (السماء السابعة) يجد بناءً من البللور.

هذا البيت له أربعة أركان يدخله الملائكة ويطوفون حوله (9 - LxxT 71:5).

— هذه الفقرة تختلف مع تلك في رؤيا يوحنا في وصفها بيتاً (بناءً) بينما تقول رؤيا يوحنا لا يوجد هيكل في أورشليم (القدس) الجديدة (٢١: ٢٢) وهذا الذي اتفقت فيه مع الرؤية الإسلامية إلى جانب ذكر المكان الذي

— يوجد فيه البيت (السماء السابعة) وأن الملائكة هم الذين يدخلون هذا البيت ويطوفون حوله .. عبادة الطواف لا توجد إلا عند المسلمين.

— أما الذي لم يذكره كتاب أخنوخ فهو شكل هذا البناء وذكرته رؤيا يوحنا (مكعب الشكل). إذن الوصف الإسلامي فيه من هذين السفرين.

— وقد ذكر المعبد السماوي (Heavenly Temple) هذا في كتب أخرى من كتب اليهود القديمة (والكتب المخفية) "Apocrypha" راجع في ذلك:

"The legends of the Gews" ginzberg / Adam 49."

(هـ) الكتاب الذي يأتي به صلي الله عليه وسلم (القرآن) كتاب تذكرة

يقول ربنا تبارك وتعالى:

{نُزِّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ} [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٦].

جل العلماء المفسرين من لدن ابن كثير يرون أن الضمير في {وإنه} تعود علي القرآن إلا أن البعض مثل الزمخشري يري أنه يعود علي النبي صلي الله عليه وسلم وهذا غريب، والحق أن هناك شاهد آخر في القرآن لا خلاف فيه يذكر أن القرآن مذكور في كتب السابقين وهو قوله تعالى: {ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون علي الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله علي الكافرين} [البقرة: ٨٩].

= هكذا يشير القرآن إلي أن الكتب السماوية السابقة تورد إشارات عن القرآن نفسه (كتاب نبي آخر الزمان) .. وقد تكلم بعض علماء المسلمين حول فقرة في سفر شعيا (في التوراة) (وصارت لكم هذه الرؤيا جميعها كظلمات كتاب محتوم، حين يناولونه لمن يتقن القراءة قائلين: اقرأ هذا يجيب: لا أستطيع لأنه محتوم. وعندما يناولونه لم يجهل القراءة قائلين: اقرأ هذا يجيب: لا أستطيع القراءة). (شعيا ٢٩: ١١، ١٢).. قال الشيخ أحمد ديدات وقيس الكلبي (من علماء المسلمين) أن الكتاب المحتوم هنا هو القرآن حين عرض علي أنبياء بني إسرائيل لم يفهموه لأنه بالعربية فهي ليست لغتهم. فالكتاب لهم (محتوم). وأما من عرض عليه وقال: لا أستطيع القراءة فهو النبي الأمي محمد صلي الله عليه وسلم. وهذا كما هو معروف ما حدث له (صلي الله عليه وسلم) في غار حراء مع الملاك جبريل.. والحق أن هذا قد يكون تحميلاً للكلمات أكثر مما تحتل من معاني إلا أن يكون قد حدث نوعاً من الطمس سواء غير المقصود أو المقصود.

= أما — في رأينا — الفقرة التوراتية في هذا المجال التي لا زالت تحتفظ بوضوح معانيها فهي الفقرة الآتية: (حينئذ تكلم خائفو الرب الواحد مع صاحبه وأصغى الرب وسمع وكتب كتاب تذكرة أمامه لخائفي الرب المتفكرين في اسمه (١٦) إنهم سيكونون خاصة لي قال رب الجنود يوم أعمل وأشفق عليهم كما يشفق الإنسان علي ابنه الذي يخدمه (١٧)، فتتوبون وتميزون^(lxxix) بين الصديق والنافق. بين الذي يعبد الله والذي لا يعبده فإنه هو ذا يأتي اليوم المضطرم كالتنور فيكون جميع المتكبرين وجميع صناعي النفاق عصابة فيحرقهم اليوم الآتي قال رب الجنود حتي لا يستحي لهم جرثومة ولا أفناناً وتشرق لكم أيها المتقون لاسمي^(lxxx) شمس البر والشفاء في

أجنتها فتسرحون وتطرفون كعجول المعلق وتطأون المنافقين وهم رماد تحت بطون أقدامكم يوم أعمل أنا قال رب الجنود. اذكروا شريعة موسى عبدي التي أوصيته بها في حوريب إلي جميع إسرائيل رسوماً وأحكاماً (ملاخي ٣: ١٦، ١٨، ٤: ١ - ٤) كتاب اليسوعيين).

= تتحدث هذه الفقرة من التوراة عن فريق من اليهود الأتقياء يذكرون الله فيما بينهم ويسمع الله لهم ويكتب لهم كتاب تذكرة فيتوبون ويميزون مرة ثانية بين الصالح والطالح.

ثم تذكر الفقرة بعد ذلك مباشرة مجيء المسيح المنتظر وانتصاراته، ثم أخيراً وصيته باتباع تعاليم موسى. وقد أجمعت تفاسير النصارى للكتاب المقدس على أن كتاب التذكرة هذا ليس إلا (لستة) تدون فيها أسماء خائفي الرب. وأن صفة التذكرة للكتاب ليست إلا لإنعاش ذاكرة الرب (تعالى عن ذلك).

وأن كلمة (تميزون بين الصديق والمنافق) تعني ترون الفارق بينهما إذ يدخل الأول في ملكوت الرب بينما يعذب الآخر.

تأملت هذه الفقرة ووقفت عند كلمات. كتاب تذكرة .. تميزون .. مرة ثانية .. ونظرت في تفسيرات النصارى فما وجدتها مقنعة. فالرب لا يحتاج لتذكرة من كتاب أو من غيره. كما أن كلمة تميزون لا تعني أبداً: ترون هذا يعذب وهذا يُنعم.

= ثم خطر لي أن كتاب التذكرة هذا ليس إلا القرآن الكريم، فقد سمي القرآن نفسه بالذكر والتذكرة والذكري في عشرات المواضع منه {ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ} {آل عمران: ٥٨}، {إِنَّا نَحْنُ نُزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} {الحجر: ٩}، {وَإِنَّهُ لَتَذْكُرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ} {الحاقة: ٤٨}، {كَلَّا إِنَّهُ تَذْكُرَةٌ} [المدثر: ٥٤]، {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} [الأنعام: ٩٠].

وأن هذه الفقرة نبوءة عن الكتاب الذي يأتي به النبي المنتظر وقد بشر به خائفو الرب من يهود فيميزون مرة ثانية (المرة الأولى أيام موسى)، بين النبي الحق (المسيا) والدعي ثم يسود هذا النبي وأتباعه. وعلي خائفي الرب هؤلاء، أن يعملوا بشريعة موسى حتى يأتي المسيا.

الدليل علي هذا التفسير هو ما يلي:

١ — صفة التذكرة في الكتاب لا بد أن تكون لخائفي الرب لأن الرب لا يحتاج لتذكير وليس هناك احتمال ثالث.

٢ — تسمية القرآن نفسه بهذا الاسم كثيراً كما أوردنا.

٣ — التوبة والتميز في كلمة (فتوبون وتميزون) مرتبطة بوضوح بكتاب التذكرة والتفسير المسيحي لا يعطينا هذه الرابطة.

٤ — الكلام عن يوم مجيء المسيا وانتصاراته عقب ذكره كتاب التذكرة فالتوبة والتميز. فبعد كتاب التذكرة قال: (فتوبون وتميزون ...) ثم قال مباشرة (فإنه هذا يأتي اليوم ...) وهو باتفاق التفسير يوم مجيء المسيا الذي هو في نظر النصارى المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام.

هذا يبين علاقة كتاب التذكرة هذا بالمسيا. تقوي هذه العلاقة معرفتنا أن الآية الثانية من الإصحاح الرابع تتكلم عن منتظري المسيا من اليهود^(lxxii) وهم (المتقون لاسم الرب) أو (خائفو اسم الرب) كما في الترجمة الإنجليزية. الذين لا بد أن يكونوا هم (خائفو الرب) المذكورون في أول النبوءة والذين كتب لهم كتاب التذكرة.

يكون معنى النبوءة إذن: كتب (أو سيكتب) الله كتاب تذكرة لخائفيه منتظري المسيا، نتيجة ذلك يتوبون ويميزون مرة أخرى النبي من الدعي وهو هذه المرة المسيا نفسه.

وكتاب التذكرة الذي كتب لمنتظري النبي المنتظر والذي نتيجة له يتوب.

ويميز الفريق النقي من اليهود لا بد أن يكون القرآن إذن:

٥ — التذكير بشريعة موسى في آخر النبوءة. ولو أن تفسير الكتاب المقدس المعنون:

"International Critical Commentary"

يري هذه الفقرة لا علاقة لها بما قبلها — وذلك للعمل بتلك الشريعة حتى يأتي كتاب التذكرة. يتضح ذلك أكثر في (وثيقة دمشق)^(lxxiii) وهي مخطوطة من أقدم المخطوطات اليهودية وقد وجدت في مخطوطات البحر الميت التي توصي باتباع الشريعة القديمة وطاعة المسيا والعمل بشرائعه. وذلك عقب ذكرها لنفس سياق كتاب التذكرة.

* ومن المفيد هنا أن نذكر ترجمة ذلك الجزء من (وثيقة دمشق) الذي — يقابل النبوءة (لكن أولئك الذين تحولوا عن خطيئة يعقوب الذين يحفظون عهد الله سوف يتكلم الواحد (١٧) منهم مع صاحبه ليحفظوا صدقهم وسلامة خطواتهم علي طريق الله وسوف يصغي الرب (١٨) ويسمع. وسوف يكتب كتاب تذكرة (أمامه) لخائفي الرب المتفكرين في اسمه (١٩) حتى يوحى الخلاص والصدق لخائفي الرب. وسوف يميزون مرة ثانية بين البريء (٢٠) والمذنب (أو الصديق والمنافق) بين الذي يعبد الله والذي لا يعبد... (٢١). وسوف يظهر الرحمة (لآلاف) لأولئك الذين يحبونه وأولئك الذين ينتظرون من أجله (لآلاف الأجيال ... (٢٢).

وأولئك الذين تعدوا الحدود سوف ينفصلون من المعسكر وفاعلو الشر من أبناء يهوذا (٢٦) [كان أصحاب هذه الخطوط فريقاً من اليهود يعيشون في البرية بعيداً عن بقية بني إسرائيل في معسكرات] لكن أولئك الذين يتمسكون بالشرائع الأولى. (٢٧) ويطيعون المعلم (النبي المنتظر) ويعترفون أمام الله (٢٨): لقد ارتكبنا الإثم نحن وآباؤنا في سيرنا علي غير ما يقول العهد (٢٩) أحكامك علينا صادقة وصحيحة) ولا يرفعون يداً علي شرائعه المقدسة (٣٠) وأحكامه الصادقة وبراهينه الصحيحة واثتمروا بقوانينه (٣١) التي يحتكم بها رجال الجماعة (معسكر هذا الفريق من اليهود) وأطاعوا معلم الصدق (المسيا) ولم يرفضوا الشرائع (٣٢) الحققة حين يسمعونها. أولئك الرجال سوف يتتهجون ويسعدون، سوف يصبح قلبهم قوياً وسوف يظهرون (٣٣) (يسودون) فوق كل سكان العالم، سوف يغفر الله لهم وسوف يرون خلاصة لأفهم اعتصموا في اسمه المقدس (lxxiv) (وثيقة دمشق (١٨: ١٧ - ٣٤).

= هذه الفقرة من وثيقة دمشق تؤكد ما ذهبنا إليه في تفسيرنا.

... فقوله في أول الفقرة إن كتاب التذكرة سوف يكتب حتى يوحى الخلاص والصدق لخائفي الرب يفهم منه أن هذا الكتاب سوف يكتب ويكون عند الرب حتى يكون إذنه بوحى الخلاص والصدق إلي المسيا وبالتالي إلي منتظره. بذلك يخرج هذا الكتاب ويتحرر .. وطالما هذا الكتاب هو وحي الله لاتباع المسيا فلا بد أن يكون القرآن الكريم.

.. كذلك تتكلم هذه الفقرة بوضوح من أولها لآخرها عن منتظري المسيا (الذين ينتظرون من أجله) — (يطيعون المعلم) — (أطاعوا معلم الصدق) وهذا يؤكد أن كتاب التذكرة خاص بهم كما أكد من قبل (آدم كلارك) في تفسيره لنبوءة (ملاخي) كما أسلفنا.

* كذلك هذه الوثيقة تحمل إشكالية كلمة (تميزون مرة ثانية) لأنها تدعو إلي التمسك بالشرائع الأولى أولاً وطاعة شرائع معلم الحق (المسيا) ثانية. (٢٧، ٢٨).

أيضاً توصي هذه الفقرة باتباع النبي المنتظر وعدم رفض شرائعه المقدسة والبراهين التي يأتي بها وهذا مستغرب إذ أن اليهود ينتظرون المسيا بفارغ الصبر فكيف يكذبونه. لكن هذا ما حدث بالفعل مع محمد صلي الله عليه وسلم إذ كفر به اليهود ولم يتبعه إلا فريق صغير منهم كما ذكرت أيضاً (هذه الفقرة من وثيقة دمشق).

.. ومن غريب أن هذه الوصية تجدها في القرآن الكريم إذ دعا موسى ربه ورد عليه المولي عز وجل — وكان معه سبعين رجلاً (اختارهم فقال):

{وَأَكْتُبُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُنَا عَلَيْكَ قَالَ عَدَايَ أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

ذكرت هذه الفقرة القرآنية أيضاً (أن من صفات النبي المنتظر في التوراة أن يأتي بشريعة (أمر وهي) تماماً كما ذكر في وثيقة دمشق التي نحن بصدها (٢٨، ٣١ - ٣٣) ففيها أمر باتباع الشرائع السابقة واتباع شريعة المسيا كذلك.

ومن القرائن أيضاً في هاتين الآيتين دعاء موسى بحسني الدنيا والآخرة الذي نجده في وعد الله في آخر وثيقة دمشق (٣٣ - ٣٤) وسوف يظهرهون فوق كل سكان الأرض، سوف يغفر الله لهم).

= هذه الفقرة من وثيقة دمشق بما العديد من المواضع الأخرى تتكلم فيها عن منتظري نبي آخر الزمان كما تكلم القرآن عن منتظري النبي صلي الله عليه وسلم من أهل الكتاب فأخر العدد ٣٢، ٣٣ (... ويطيعون معلم الصدق (المسيا) ولا يرفضون الشرائع الحققة حين يسمعوها...).

تذكرنا بقوله تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُنزلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [القصص: ٥٢ - ٥٤].

— كذلك بقية العدد ٣٣ (... أولئك الرجال سوف يبتهجون ويسعدون وسوف يصبح قلبهم قويا...) يذكرنا مباشرة بقوله تعالى: {وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ آوَوْا أَلَمْ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الحج: ٥٤].

— وقوله في آخر ٣٣، ٣٤ (... سوف يظهرهون فوق كل سكان الأرض..) تذكرنا بآخر سورة الصف) {... قَامَتِ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} [الصف: ١٤].

— كما توجد فقرة قرآنية أخرى في هذا المجال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ وَرَاءَ مُبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا} [النساء: ١٧٤، ١٧٥].

— وقوله تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ} تذكرنا بكون منتظري المسيا في العدد ٣٠، ٣١ لا يرفعون يداً علي البراهين الصادقة حين يسمعوها وقوله: {وَاعْتَصَمُوا بِهِ} يذكرنا بآخر وثيقة دمشق (... لأنهم اعتصموا في اسمه المقدس).

(و) حوضه في السماء صلي الله عليه وسلم الكوثر

يقول ربنا تبارك وتعالى:

{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأُتْرُقُ} [سورة الكوثر].

— (إني لبعقر حوضي يوم القيامة أذود الناس لأهل اليمين وأضرهم بعصاي حتى يرفضن (يزيد). فسئل عن حوضه فقال: من مقامي إلى عمان. شرابه أشد بياضاً من اللبن وأحلي من العسل ...) [رواه أحمد ومسلم عن ثوبان].

— (بينما أنا أسير في الجنة إذ عرض لي نهر حافته قباب اللؤلؤ الجوف، قلت يا جبريل ما هذا؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاكه الله ..) (رواه البخاري ومسلم عن أنس).

الكوثر نهر في الجنة يسقي منه النبي صلي الله عليه وسلم أتباعه. يوصف ماء هذا النهر كما ورد في الحديث المذكور بأنه أشد بياضاً من اللبن وأحلي من العسل.

وقد كنت أقرأ فقرة في العهد الجديد في رؤيا يوحنا أحسبها عليه:

(وكان يبدو وكأنه بحرًا شفافاً مثل البللور يمتد أمام العرش) (رؤيا يوحنا ٤ : ٦) لكنني وجدت بعد ذلك في بعض كتب الأبوكريفا^(Lxxv) أوصافاً أكثر دقة. فكتاب (رؤيا بولس) "Apocalypse Of Paul" يذكر في آخر الفصل الثاني والعشرين أن بولس رأى في معراج له إلى السماء نهرًا ماؤه أشد بياضاً من اللبن واسمه (أكروصه) Acherusa ويقع في مدينة المسيح.

And after that he took me out of that place where I saw these things, ... , and the waters of it were white exceedingly, more than milk, and I said to the angel: what is this? and he said to me: this is the lake Acherusa where is the city of christ?

وقد ذكر اسم هذا الحوض كذلك في رؤيا بطرس.

وهو من كتب الأبوكريفا كتب في القرن الثاني.

= التطابق في الصفة واضح بين المصادر الإسلامية والكتابية. كما يوجد شبه في الاسم كذلك (الكوثر — أكروصه) وإن كانت الكتب المسيحية قد كتبت باليونانية.

— وقد وجد ذكر هذا الحوض باسمه أيضاً في بعض كتب اليهود والتي كتبت في الأصل بالعبرية القريبة من العربية.

فكتاب (آدم وحواء) (lxxvi) المكتوب في الأصل بالعبرية ذكر فيه الحوض (وقد علق العلامة (تشارلز) في كتابه المذكور في هامش علي هذا الاسم بأن المحتمل أنه الأصل لذلك المذكور في رؤيا بولس. وذكر في هامش صفحة ١٣٠ أن مترجم الكتاب من اللغة السامية (عبرية أو آرامية) إلى اللاتينية قد أخطأ في ترجمة بعض الفقرات. فليس بعيد أن تكون (الكورث) قد حرفت إلي (أكبروصه). خاصة حين نعلم أن كلمة (كيور رحصه) العبرية تعني مغسلة، مثلها في ذلك مثل كلمة (كيور) التي تعني حوض أو مغسل. أما كلمة (رحصه) فتعني: استحمام أو اغتسال أو مكائهما فإذا أضفنا أداة التعريف في اللغة العبرية وهي إما (ها) أو (أل) صارت (ها كيور رحصه) أو (الكيور رحصه) وهذه الأخيرة نري مدي اقترابها من كلمة (أكبروصا).

خاصة حين ندغم حرف اللام كالعتاد في اللغة العربية فتصير (أكيور حصه) يتقبل هذا الاختلاف البسيط حين نعلم أن تحويل الحروف السامية إلي اللاتينية يقتضي ذلك التبسيط. يرجع في ذلك إلي قاموس (كوجمان).

هذه الفقرة في كتاب آدم وحواء تتكلم عن تغسيل آدم بواسطة الملائكة بعد وفاته في بحيرة هي: **Acherusian Lake** بحيرة أكبروصه (lxxvii).

العجيب أن هذه القصة ذكرت في الحديث الشريف الصحيح: (لما توفي آدم غسلته الملائكة بالماء وتراً وألحدوا له وقالوا: هذه سنة آدم في ولده) (رواه الحاكم في المستدرک عن أبي وصححه الألباني).

(ز) خاتم النبوة

كما وجدنا من قبل ذكر في كتب أهل الكتاب لصفات النبي صلي الله عليه وسلم معنوية، وجدنا كذلك بعض صفاته الجسدية، مثل خاتم النبوة...

ذكر شعيا في سفره نبوءة عن إحدی صفات النبي المنتظر فقال:

(لأنه يولد لنا ولد ويعطي لنا ابن (lxxviii) يحمل الرياسة علي كتفه) (شعيا ٦: ٩). كما ذكر يوحنا ذلك أيضاً: (لا تسعوا وراء الطعام الفاني بل وراء الطعام الباقي إلي الحياة الأبدية، والذي يعطيكم إياه ابن الإنسان (lxxix)، لأن هذا (lxxx) قد وضع الله ختمه عليه) (يوحنا ٦: ٢٧).

يفسر أهل الكتاب هذا الخاتم تفسيراً معنوياً لا مادياً. أي إنه دليل عظمة ورياسة فقط. والحق أن المعنى في الموضوعين السابقين يحتمل هذا وذاك.

*** يفصل في هذا الأمر، الخاتم جسدي أم معنوي. المخطوطات الكتابية المكتشفة حديثاً ألا وهي مخطوطات البحر الميت المكتشفة عام ١٩٤٧م التي كتبت في خلال القرن الأول قبل وبعد ميلاد المسيح عيسى. ذكرت هذه المخطوطات (Messq 1:2 ٤٠) أن هناك علامات علي جسد النبي المنتظر تشبه حبات العدس. كذلك ذكر في كتاب من كتب اليهود القديمة (كتب المركبة) (Seper Assap) ذكر في هذا الكتاب أن هذه العلامات الجسدية بعضها مثل حبات العدس وبعضها مثل بذور الخيار (bxxxi).

هذا يتفق تماماً مع نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام. فمن المعروف عنه وجود خاتم النبوة بين كتفيه. ذكر ذلك الصحابي سلمان الفارسي في نهاية سرده لقصة إسلامه بعد بحثه الطويل عن الحقيقة الذي دفعه إلى ترك ثراء أبيه ودفعه للرق ثم اتبع النصاري الموحدين وعلم منهم صفات نبي آخر الزمان ثم اختبر محمداً عليه الصلاة والسلام في هذه الصفات وكان آخرها خاتم النبوة (... ثم أتيته فوجدته في البقيع قد تبع جنازة وحوله أصحابه وعليه شملتان مؤتزراً بواحدة، مرتدياً الأخرى، فسلمت عليه، ثم عدلت لأنظر أعلي ظهره، فعرف أني أريد ذلك، فألقي برדתه عن كاهله، فإذا العلامة بين كتفيه .. خاتم النبوة، كما وصف لي صاحبي ..) (رواه أحمد والطبراني وابن سعد عن ابن عباس).

ذكر ذلك أيضاً الصحابي عبد الله بن سرجس: (أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ناس من أصحابه، فدرت خلفه هكذا، فعرف الذي أريد، فألقي الرداء عن ظهره، فرأيت موضع الخاتم علي نفض كتفه مثل الجمع حوله خيلان، كأنها التأليل) (bxxxi) رواه مسلم والترمذي والنسائي.
= قليل من التأمل يظهر لنا التطابق بين ما ذكر في هذين الحديثين وما ذكر في كتب اليهود المذكورة قبلها خاصة كتاب (Seper Assap) الذي يذكر أن خاتم النبوة مكون من جزئين. كما روي عبد الله بن سرجس.

(ج) ألقابه صلى الله عليه وسلم الأمين الصادق

= (ثم رأيت السماء مفتوحة، وإذا حصان أبيض يسمى راكبه (الأمين الصادق) الذي يقضي ويحارب بالعدل... وكان يخرج من فمه سيف له حدان ليضرب به الأمم ويحكمهم بعضا من حديد) (رؤيا ١٩: ١١، ١٥).

= حين وقعت عيني علي هذه الفقرة خاصة اللقب المركب (الأمين الصادق) قلت لا بد أن هذه النبوءة تخصه عليه الصلاة والسلام، فمن المعروف جدًا أن أهل مكة قد سموا محمدًا صلى الله عليه وسلم من قبل النبوة الصادق الأمين — نجد ذلك في كل كتب السيرة — ولكن هذه النبوءة ليست من نبوءات العهد القديم التي تتكلم عن النبي المنتظر. بل هي من العهد الجديد وتتكلم بوضوح عن المسيح عيسي في الجيء الثاني — حسب اعتقادهم — وإن كان غريبًا أن يسمى عيسي في الآخرة بلقب هو صفة نبوية مجتمة. وهذا لقب لم يطلق عليه في الدنيا أبدًا ... الأمين الصادق.

= زال هذا اللبس عندي حين قرأت كتاب (أنجيل الطفولة) للأب (جان دانيالو) إذ نقد هذا العالم كثيرًا من أحداث طفولة يسوع المروية في إنجيلي متي ولوقا خاصة حادث زيارة المجوس وسجودهم عند عيسي الذي يراه نوعًا من أنواع الميذراش هجاده^(bxxxiii) أي إعادة كتابة العهد القديم مع تعديلات.

وذكر أن مؤلف تلك الفقرة قد استوحاها من قصص سابقة في كتب اليهود غير التوراة مثل كتاب اليوبيلات والعاديات اليهودية ونصوص قمران التي تكلمت عن برج الملك المسيحاني أي النجم الدال علي ميلاد المسيح المنتظر تمامًا مثل ما ذكر في حادثة المجوس هذه^(bxxxiv).

كما ذكر أن هذه الميذراشيم (جمع ميذراش) تتميز بأنها مطعمة بنصوص من العهد القديم^(bxxxv).

= قلت في نفسي هذا بالضبط ما حدث في الفقرة المذكورة من رؤيا يوحنا. لا جدال هذا الوصف كان للمسيح المنتظر في بعض كتب الربيين اليهود القدماء ثم طبَّقه مؤلف الرؤيا علي يسوع لأنه يراه ذلك النبي المنتظر. يؤيد ذلك فقرات من هذه النبوءة موجودة في العهد القديم خاصة بالمسيا تمامًا مثل الميذراش الذي تكلم عنه جان دانيالو في كتابه (أنجيل الطفولة) فذلك النص يذكرنا بقول شعيا عن المسيا (إنما يقضي بعدل للمساكين، ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض، ويعاقب الأرض بقضيب فمه، ويميت المناقق بنفخة شفثيه، لأنه سيرتدي البر ويتمنطق بالأمانة)^(bxxxvi) (شعيا ٤: ١١) كذلك مزامير ٢: ٩ — كذلك الآية الرابعة في مزامير ٤٥ (اركب ظافرًا لأجل الحق والوداعة والبر)^(bxxxvii) تذكرنا بقول الرؤيا: يقضي ويحارب بالعدل. كذلك الآية السادسة في مزامير ١٤٩ التي تتكلم عن أصحاب المسيا (ليهتفوا مسبحين الرب ملئ أفواههم وليتقلدوا بسيف ذي حدين في أيديهم) تذكرنا بقول الرؤيا (وكان يخرج من فمه سيف له حدان).

** = وقد اجتهدت في كتب اليهود القديمة غير التوراة فوجدت في كتاب من كتب السوديبيجرافا^(bxxxviii) (كتاب أخنوخ) (Book Of Enoch) ففي الفصل الثامن والثلاثين في هذا الكتاب^(xc) وفي العدد الثاني يلقب مؤلف (كتاب أخنوخ) النبي المنتظر (الصادق).

"And when the righteous one shall appear before the eyes of the righteous" ..

[و حين يظهر الصادق أمام أعين الصادقين].

وقد ذكر مؤلف الكتاب الذي استعرنا منه هذه الفقرة^(xci) وفي هامش نفس الصفحة أن هذا هو لقب المسيا وينطق بالعبرية Sadeq أي كما ينطق بالعربية تمامًا، فكما نعرف العربية والعبرية ينتميان لعائلة واحدة من اللغات، اللغات السامية.

والحق أن هذه الفقرة تذكرنا تمامًا بقوله تعالي عن النبي صلي الله عليه وسلم وأصحابه {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [الزمر: ٣٣].

= أما اللَّقَبُ الآخر (الأمين)، فقد اجتهد فيه القسيس المهتدي البروفسور عبدالأحد داود — القرن التاسع عشر — فذكر في كتابه (محمد في الكتاب المقدس)^(xcii) في باب (محمد هو الشيلوه). يقصد بها نبوءة سفر التكوين الإصحاح ٤٩ : ١٠ . (لا يزول صولجان من يهوذا أو مشتريه من قدميه حتى يأتي (شيلوه) ويكون له خضوع الشعوب) وهي نبوءة تتكلم بوضوح عن النبي المنتظر وقد اختلف في تفسير شيلوه — ذلك لأن اللغة العبرية تحمل الكلمة الواحدة فيها أكثر من معنى. تفسير ترجمتها (الذي له) — أي (له الصولجان والملك).

والتفسير الثاني^(xciii) للكلمة الرباعية Shilh وتلفظ شيلوه ذو أهمية مساوية لصالح محمد، فكما وصف آنفًا أنه هادئ مسالم أمين وديع وهكذا — . والصيغة الأرامية للكلمة هي شليا Shilya وفعل الأمن العربي مثل فعل أمان العربي معناه: ثابت، مستمر، مأمون ولذلك فإن الهدوء والأمانة والثقة ترينا أن كلمة (أمين) مساوية تمامًا لشيلوه^(xciv).

خاتمة

وبعد فكل ما ذكرناه من بشارات بمقدم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو غيض من فيض. ولا أدعي أنني اطلمت علي كل كتب أهل الكتاب ومخطوطاتهم .. كما أنني لم أقرأ فيها إلا ما طبع بالعربية أو الإنجليزية ثم الاستعانة — عند الضرورة — بأساتذة اللغات الشرقية وقاموس فوجان الشهير. كما أن العديد من المخطوطات المكتشفة لا زالت حبيسة الأدرج خاصة حوالي ١٠% من مخطوطات البحر الميت التي لم يفرج عنها بعد.

وإني لعلي يقين أن هذه — الأخيرة بما بشارات لا تقل إن لم تزد في القوة عما ذكرناه.

كذلك هناك مسألة جديرة بالتأمل، وهي أن أغلب الكتب التي خضنا فيها كانت أسراراً Apocrypha أو مخطوطات اكتشفت حديثاً فلا يستطيع أن يدعي مدّع أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد اطلع مثلاً علي نبوءات مثل خاتم النبوة والكوثر وصفة القرآن ثم نسبها لنفسه.

ثم ما بالنا بالبشارات التي تتعلق بأمور كونية كتاريخ ميلاده صلى الله عليه وسلم أو تحطيمه للممالك القديمة؟ فهل تحكم في مسار حياته ليوافق ذلك؟ ثم إن هذه الكتب وغيرها من الكتب القانونية تعج بتفاصيل عديدة غير منطقية لا تجد أيًا منها في القرآن {أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً} [النساء: ٨٢]، ولا يحتمل بحثنا الخوض في الإعجاز البياني والعلمي والتاريخي (الغيبى) والتشريعي وغير ذلك للقرآن الكريم، وهو من جملة صدق نبوته صلى الله عليه وسلم.

— هذا النبي صلى الله عليه وسلم قد جاءنا بدين (رفيع لا يعرض عنه إلا مطموس، ولا ينتقصه إلا منكوص ولا يحاربه إلا موكوس). كما قال سيد قطب رحمه الله.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية:

القرآن الكريم

كتب التفسير

- ١ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم
- ٢ - سعيد حوي: الأساس في التفسير.
- ٣ - الزمخشري: الكشاف عن حقائق التريل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل.
- ٤ - أبو بكر الجزائري: أيسر التفاسير.
- ٥ - سيد قطب: في ظلال القرآن.
- ٦ - محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير.

كتب السنة الشريفة:

- ١ - الألباني: صحيح الجامع الصغير.
- ٢ - النسائي: تفسير النسائي (صاحب السنن).

المصادر الأخرى

- ١ - الكتاب المقدس: طبعة كتاب الحياة.
- ٢ - الكتاب المقدس: طبعة دار المشرق ١٩٨٩ - بيروت.
- ٣ - التوراة - كتابات ما بين العهدين - مخطوطات قمران. ترجمة وتقديم: موسى ديب خوري [دار الطليعة الجديدة - دمشق].
- ٤ - (تفسير جون وسلي).
- ٥ - إقليمنس الروماني، (راعي هرمانس): سلسلة أقدم النصوص المسيحية، تعريب الأب: جورج نصّور.
- ٦ - الليدي دراور: (الصابئة المندائيون).
- ٧ - د. عبد الأحد داود: محمد في الكتاب المقدس - ترجمة فهمي شما، دار الضياء، الأردن.
- ٨ - عبد الحميد بكر: (مندالي).
- ٩ - د. علي عبد الواحد وافي: (اليهودية واليهود).
- ١٠ - د. فهم عزيز: (ملكوت الله).
- ١١ - (كيرلس الأورشليمي): العظات، تعريب الأب: جورج نصور.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

- .1 - The Bible "R.S.V
- .2 - The Holy Bible "King James Version
- .3 - Adam Clarke Commentary
- .4 - International Critical Commentary
- .5 - Young's Analytical concordance to the Bible
- .6 - Encyclopaedia Judaica
- .7 - Encyclopaedia universalis
- .8 - The International Standard Bible Encyclopaedia
- .9 - Bernard Grossfeld, "the Targum Onqelos to genesis
- 10 - Charles, "the Apocrypha and pseudepigrapha of the old
."Testament
- .11 - Dhalla, "History of Zoroastrianism
- .12 - Ginzberg, "the Legends of the Jews"
- .13 - Phillip R. , "the Damascus Covenant
- .14 - Robinson, James M. , "The Nag Hammadi Library
- .15 - Schneemelcher, "Pseudepigrapha of the old testament

الهوامش

- (١) أشباه أهل الكتاب: مصطلح أطلقه العلامة الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل) على الزرادشتية والنوبية (الذين يقولون بالهين) علي أساس أن لهم كتبًا فيها من العمليات (تقرير الخلق والإبداع) والعمليات (الأوامر الإلهية) كما ذكرت سورة الأعلى.
- وفي عملنا هذا نطلق لفظ أشباه أهل الكتاب علي الزرادشتية والصابية لأن الصابية لهم كتاب كذلك (الكواربا) وفيه من العمليات والعمليات.
- (٢) الكتاب المقدس — دار المشرق ١٩٨٩م — مدخل إلي العهد الجديد (بتصرف).
- (٣) لمزيد من المعلومات يرجع في ذلك إلي المراجع الآتية:
- (١) "The International Standard Bible Encyclopaedia"
- (٢) "Introduction to the Talmud and Midrash"
- (٣) "Encyclopaedia Judaica"
- (٤) الكتاب المقدس — طبعة دار المشرق ١٩٨٩م.
- (٥) أناجيل الطفولة (القس حان دانيال).
- (٦) الكثر المرصود في فضائح التلمود — د. محمد عبد الله الشرفاوي.
- (٧) مستخلص من مقدمة كتاب (التوراة — كتابات ما بين العهدين — مخطوطات قمران) ترجمة وتقديم: موسى ديب خوري — [دار الطليعة الجديدة — دمشق].
- (٨) المصدر السابق ص ٣٢.
- (٩) يرجع في المعلومات السابقة إلي: "James M. Robinson "The Nag Hammadi Library"
- (١٠) "P. 681 "The old testament Pseudepigrapha"
- (١١) مثل رقم (٢).
- (١٢) المرجع السابق.
- (١٣) مثل (٢).
- (١٤) الفصل (٢٥) من رؤيا إبراهيم.
- (١٥) الفصل (٢٧).
- (١٦) الفصل (٢٩).
- (١٧) الفصل (٢٩). هذا النص وجد كذلك في مخطوطات قمران (التوراة، كتابات ما بين العهدين) ترجمة موسى ديب خوري جزء ٣ ص ٥٨٢.
- (١٨) ٥٨٧ ق. م. (جدول تاريخي) في مقدمة الكتاب المقدس طبعة الآباء اليسوعيين ١٩٨٩م. — دار المشرق.
- (١٩) انظر (بعض المصطلحات) في أول هذا العمل.
- (٢٠) هذه النبوءة الرقمية نجدها أيضًا في التلمود (سنهدين ٩٧) وفي كتاب: (١١:١٢) (The assumptions of Moses).
- (٢١) (Charles) "The Apocrypha and Pseudepigrapha of the old testament".
- (٢٢) (Charles) "The Apocrypha and Pseudepigrapha of the old testament".
- (٢٣) خراب هادريان هو المرجح لأنه كان أشد وسبق اليهود فيه أسري. ذلك هو أيضًا رأي د. علي عبد الواحد وافي في كتابه (اليهودية واليهود) إذ يرى أن الخراب الأول الذي يعنيه القرآن هو خراب بختنصر وأن الثاني خراب هادريان ص ١١٦، ص ١١٧.
- (٢٤) (لذلك هكذا يقول الرب القدير: لأنكم عصيتكم كلامي، فما أنا أحد جميع قبائل الشمال بقيادة نبوخذ نصر عيدي) (أرميا ٢٥:٩).

(xxii) أرميا ٢٧.

(xxiii) سورة الفرقان ٦٣.

(xxiv) ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَقُولُ أَتُمْ أَضَلُّمٌ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ [الفرقان: ١٧]

(xxv) (التوراة - أخبار الأيام الثاني (٣٦: ٢٢ - ٢٣).

(xxvi) يتوافق هذا مع رأي الدكتور علي عبد الواحد وافي في كتابه.

(xxvii) يفهم ذلك أيضاً من إنجيل متى ٢٤: ١٥ - ٣٥ حيث بنى المسيح عيسى بخراب آخر لمبكل اليهود ثم بوضع رحمة في المبكل وهي أصنام الرومان

(تفسر جون وسلي) ثم ظهور دابن الإنسان (تفسره النبي المنتظر في التوراة) لكن للمسيحين يفسرونه علي أنه انبيء الثاني للمسيح عيسى (حسب اعتقادهم) مع

أن رحمة الخراب هذه قد ذكرت في التوراة (دانيال ٩) في معرض الكلام عن زمن خروج النبي المنتظر.

(xxviii) The Apocrypha and Pseudepigrapha of the old Testament, (Charles) P. 423 (تفسير جون وسلي).

(xxix) (ملكوت الله) د. فهم عزيز ص ١٠.

(xxx) المصدر السابق: ص ١٦٨ - ١٦٩.

(xxxi) المصدر السابق: ص ٣٣.

(xxxii) المصدر السابق: ص ٢٠٥.

(xxxiii) المصدر السابق: ص ٢٤٨.

(xxxiv) هذا الحجر هو حجر الزاوية المذكور في (الزمائر) ٢٢/١١٨، وهو (حجر الأساس) في سفر أشعيا (المعهد القديم) ١٦/٢٨.

(xxxv) حواشي الكتاب المقدس - دار المشرق - الطبعة ١٩٨٩.

(xxxvi) حواشي الكتاب المقدس - دار المشرق ١٩٨٦.

(xxxvii) (كولس الأورشليمي) (٣١٤م - ٣٨٧م) - العظات - رابطة معاهد اللاهوت في الشرق الأوسط - تعريب الأب جورج منصور. ص ١٩٦ (المصا

من حديد (من ٧/٢ - ٩) ترمز بوضوح إلى المملكة الرومانية التي يتحدث عنها دانيال أيضاً).

(xxxviii) "Charles" (The Apocrypha and Pseudepigrapha of the old testament).

أهم نصوص سفر عزرا الرابع النص اللاتيني ويوجه كذلك السرياني والأثيوبي والعربي والآرامي. أقدم مخطوطاته ترجع للقرن التاسع وقد كتب في الأصل بالعبرية

عام ١٠٠م (مقدمة هذا السفر في الكتاب سالف الذكر).

(xxxix) المرجع السابق - ص ٤٢٢.

(xl) المرجع السابق - ص ٦١٣ (هامش).

P. 423: Dhalla: History of Zoroastrianism (xi)

(By t. 1,2 - 5; 2.14 Zend Avesta).

(xlii) (الصافية المندائيون) ص ٦٥ - الليدي دراور.

(xliii) (مندالي) ص ٢٦ - عبد الحميد بن بكر.

(xliv) رواه ابن حنبل والترمذي عن أبي بن كعب، والبخاري ومسلم والترمذي عن جابر، وابن حنبل ومسلم والبخاري عن أبي هريرة (صحيح الجامع الصغير

ص ١٠١٩).

- في إحدى تلك الروايات نجد (في زاوية من زواياه) بعد كلمة (اللبنة).

(xlv) (الصافية المندائيون) ص ٤٥ تأليف الليدي دراور.

History of Zoroasterianism "P. 423 - 431. (xlv)

(^{xlvi}) هذه الفقرة لا نجدها في القرآن بالطبع.

(^{xlvi}) تذكرنا بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُسُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ...﴾ [آل عمران: ١٩١].

(^{lix}) ذلك السيف كان مشهوراً عند العرب.

(^l) الرجاء هم الودعاء حسب النص التوراتي (المزامير ١٤٩).

(^l) مع أن العهد القديم يفهم منه عموماً أن مملكة الله أو ملكوت الله هو دولة الله أو الدولة الإلهية .. لأن الرب رزقي بنين كثيرين اصطنعي سليمان ابنى ليجلس علي عرش ملك الرب علي إسرائيل) (أخبار أيام أول ٢٨:٥)، وإذا ذكرت مملكة الله في صيغة نبوءة قصد لها تلك الدولة التي يقيمها نبي آخر الزمان، مزامير ٤٥: ٦ ومزامير ١٤٥: ١١ - ١٣ وغيرها. ورغم ذلك يفسرها بعض النصارى (علي أنها حنة سماوية لا مجال للمجتمع فيها بينما يفسرها فريسي آخر (الألفسين Premillennium) علي أنها مملكة أرضية سوف يقيمها المسيح عيسى عندما يجيء ثانية حسب اعتقادهم (ملكوت الله): د. فهم عزير ص ٢٠٤ و ص ٢٠٥ (بصرف).

(^{lii}) مخطوطات نجح حمادي دفنت في القرن الرابع الميلادي وتتبع طائفة الغنوص Gnostic للمسيحية المنقرضة (يراجع في ذلك آية دائرة معارف حديثة) تلك الطاقة كان عندها تثلث يختلف عن تثلث النصارى الحالي إذ كان عندهم الأب والابن والأم لا الروح القدس (The Nag Hammadi Library - J. M. Robinson p. 208)

وقد كتبت تلك المخطوطات في القرن الأول والثاني الميلادي في الأصل باليونانية ثم ترجمت إلي القبطية (اللغة التي وجدت مكتوبة لها) في عدد من الأماكن في مصر وقد استغرقت عملية الترجمة هذه أكثر من قرن من الزمان (المرجع السابق ص ١٤) وقد دفنت هذه المخطوطات في تلال نجح حمادي في صعيد مصر مخافة بطش الرومان الذين كان لهم عقيدة نصرانية مختلفة (المرجع السابق ص ٥ - ٢٣).

(^{liii}) كلمة Apocryphon تعني كتاب سري - المرجع السابق ص ٢٩ - أي يمنع أي فرد من غير طائفة الغنوص الاطلاع عليها.

(^{liv}) حديث صحيح رواه الطبراني عن ابن عمر (صحيح الجامع الصغير وزيادته - للألباني المجلد الثاني ص ١٠١٨).

(^{lv}) تفسير النصارى لذلك أن العبادة لن تكون في أي مكان محدد بل هي بالروح فقط.

(^{lvi}) التعميد أو الصبغة أو التططيس هو غمر الأفراد في الماء وهي عبادة قديمة لمغفرة الخطايا، ولفظ صبغة هو اللفظ الأقدم والمستخدم عند النصارى في كتاب التقليد القديم (الدسقولية) والمستخدم كذلك عند الصابئة المندائية حتى الآن.

(^{lvii}) النصارى كانوا ولا زالوا يصفون بالماء مثل وقت يوحنا (يحيى) ولم يمارسوا تعميداً آخر.

(^{lviii}) تفسير النصارى لذلك مجده في سفر الأعمال (٢: ١ - ٤) (ولما حضر يوم الخميس (أي من رفع المسيح عيسى) كان الجميع (أتباع يسوع) ممّا بنفس

واحدة وصار بقتة من السماء صوت كأنه دوي ريح عاصفة، فملاً البيت الذي كانوا جالسين فيه. ثم ظهرت لهم السنة !! كأنها من نار، وقد توزعت وحلت

علي كل واحد منهم، فامتلاؤا جميعاً من الروح القدس، وأخذوا يتكلمون بلغات أخرى.

(^{lix}) يفسر اليهود والنصارى (إخوهم) هنا أي نفس بني إسرائيل مع أن التوراة تقول في موضع آخر (ها أنتم عابرون بتخوم إخوتكم بني عيسو) (تثنية ٢: ٤)

وغير ذلك كثير مثل (شعيا ٦٦: ٢٠) إذ يُعبر علي بني العمومة بالإخوة.

(^{lx}) لعن اليهود في القرآن وعلي لسان النبي صلى الله عليه وسلم مرات لا حصر لها. وكلمة مختاري في النبوة تعني النبي المنتظر.

(^{lxi}) He (Abraham) called you muslimin I.E. those who dedicate themselves to God. this expression goes back to genesis (17:1) in the version of targum Onkelos. where Abraham is admonished by God to be shelim (Judaica vol I Abraham).

(^{lxii}) (الصابئة المندائيون) سليم برنجي - ترجمة جابر أحمد - دار الكنوز الأدبية ص ٤٢.

(^{lxiii}) (الصابئة المندائيون) سليم برنجي - ترجمة جابر أحمد - دار الكنوز الأدبية ص ٦٩.

(lxiv) ارجع (لبعض المصطلحات) في مقدمة هذا العمل.

(lxv) (تكلما عنه في باب الكوثر.

(lxvi) مقدمة كتاب آدم وحواء:

P. 152. Apocrypha and Pseudepigrapha Of The Old Testament

(lxvii) (أقدم النصوص المسيحية) — أقلمينس الروماني — راعي هرمانس/ تعريب الأب جورج نصّور — رابطة الدراسات اللاهوتية في الشرق الأوسط. ١٩٧٥ ص ٨٠.

(lxviii) المصدر السابق ص ٢٠٥.

(lxix) في طبعة كتاب الحياة نجد: (فتشرون ثانية في التمييز بين الصالح والطالح) وقد ورد في تفسير الكتاب المقدس:

(The International Critical Commentary) أن كلمة (ثانية) هي الأكثر انتشاراً في المخطوطات القديمة.

(lxx) في الترجمة الإنجليزية (يا من تخافون اسمي).

The International Critical Commentary (lxxi)

(lxxii) Adam Clarke — وسوف يؤكد ذلك أيضاً (وثيقة دمشق) وهي مخطوطة قديمة لهذا النص سنذكرها لاحقاً) — وهي من مخطوطات البحر الميت.

(lxxiii) الإصحاح ١٨: ٢٧ — ٣٣.

"The Damascus Covenant" by Philip R (lxxiv)

(lxxv) راجع باب (بعض المصطلحات) وقد كتب هذا الكتاب في القرن الرابع الميلادي.

(lxxvi) من كتاب السوذيبيجرافا. كان متداولاً بين اليهود وأحذه عنهم النصارى أقدم مخطوطة له تعود للقرن الثامن أو التاسع. كتب في الأصل في القرن

السابع مئياً علي مصدر عبري أو آرامي أقدم — مقدمة كتاب آدم وحواء في كتاب: Pseudepigrapha of The Old Testament

(lxxvii) الفقرة ٣٧ من كتاب آدم وحواء نص Apocolypsis Moses

(lxxviii) يستخدم (اليهود لفظ ابن الله وأبناء الله علي سبيل المجاز) إنكم أبناء الله تدعون.

(lxxix) تعبير يذكر في العهد القديم لني آخر الزمان.

(lxxx) أضاف طبعة كتاب الحياة للكتاب المقدس كلمة (الطعام) بعد (هذا) حتي يكون الطعام هو المقصود بالخطم بخالفة بذلك الطبعات الأخرى التي تقول: إن المقصود هو ابن الإنسان.

(lxxxi) مقدمة سفر أحنوخ الثالث في كتاب: Schneemelcher P. 250 Pseudepigrapha of The Old Testament

(lxxxii) نقض كفه: أعلي كفه وقيل هو العظيم الرقيق الذي علي طرفه.

الجمع: جمع الكف هو أن يجمع الأصابع وضمها.

التأكل: الحية في الجلد كالمحصنة فما دونها.

(lxxxiii) ص ٥٤، ٥٥.

(lxxxiv) ص ٥٤.

(lxxxv) ص ٥٥.

(lxxxvi) المعجب أن كلمة (الر) في أصلها العبري تنطق Tsedeq (صدق) يرجع في ذلك إلي كتاب "Young's Concordance" وهي تعني بالمريسة

أيضاً الصدق. وبذا يمكن أن نقرأ تلك الفقرة: لأنه سرتدي الصدق بالأمانة.

(lxxxvii) كلمة (الر) في الأصل هنا أيضاً (الصدق) كسابقها.

(lxxxviii) راجع (بعض المصطلحات).

(lxxxix) اكتشف هذا الكتاب الرحالة (بروس) في الحبشة في القرن التاسع عشر. وقد كتب أصلاً في القرن الثاني قبل الميلاد بعضه بالأرامية وبعضه بالعبرية. اعتبر

قانونياً عند الآباء الأولين للكنيسة (كلمنت — أريانوس). اختفي بعد القرن الثالث الميلادي إلى أن ظهر في القرن التاسع عشر (ملخص من ص ١٦٣ — ص ١٦٥

من كتاب:

"The old Testament Apocrypha and Pseudepigrapha" (Charles)

(xc) ص ٢٠٩ من المصدر السابق.

(xci) المصدر السابق.

(xcii) نشر دار الضياء — الأردن — ترجمة فهمي شما.

(xciii) وقد قرأت بنفسي في التلمود — سنهدين ٩٨ ب ص ٦٦٧ أن من أسماء المسيا Shiloh.

(xciv) هذا هو نص كتاب عبد الأحد داود ص ٨٢، ٨٣.

المحور السادس

علوم النبات والحيوان



- (١) الإعجاز التشريعي في تحريم لحم الخنزير.
- (٢) الإعجاز العلمي في القرآن الكريم في عالم الأنعام.
- (٣) وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت).
- (٤) (فأصابه وابل فتركه صلدا) تأثير التعرية المطرية على التربة.
- (٥) النظام الزراعي في القرآن والسنة بين مظاهره الإعجازية وأشكاله التطبيقية.
- (٦) الإعجاز العلمي في تصميم مزارع الأعناب.
- (٧) الشجرة المباركة من خلال يقين القرآن وبحوث العلماء.

الإعجاز التشريعي في تحريم الخنزير

د. فهمي مصطفى محمود

مقدمة

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان وهو عالم بكل ما يصلح له وما لا يصلح له، ما يضره وما ينفعه. وأنزل الحق تبارك وتعالى الشرائع كلها لحفظ مصالح الناس في دنياهم، ولسعادتكم في آخرهم. وهدفت هذه الشرائع السماوية إلى حفظ الضرورات الخمس: الدين والنفس والعرض والمال والعقل.

إنّ دين الإسلام هو خاتم هذه الشرائع السماوية وأعظمها. ففاق جميع ما سبقه من شرائع، وبلغ الذروة في كل تشريعاته. وأكد الإسلام على حفظ الضرورات الخمس، وحرص كل الحرص على صحة الإنسان وحياته من كل ما يضر جسده ويفسد روحه.

لقد بينت النصوص القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، ما يحل وما يحرم من الأطعمة والأشربة. وأكد الحق جل وعلى في كتابه العزيز، حقيقة أزلية خالدة إلى يوم الدين، مؤداها أنّ كل طيب حلال، وأنّ كل حرام خبيث.

قال المولى تبارك وتعالى في الطيبات: ﴿يسألونك ماذا أحل لهم، قل أحل لكم الطيبات﴾^(١). وقال أيضاً: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾^(٢). وقال أمراً جميع البشر بأكل الطيب (الحلال) من الأطعمة، ومنفراً إياهم من خلاف ذلك: ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنّه لكم عدو مبين﴾^(٣).

وقال تعالى محذراً المؤمنين من الخبائث، ومنفراً أصحاب الطبع السليم منها: ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾^(٤). وقال أيضاً: ﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذيّه إلا أن تغمضوا فيه﴾^(٥).

وجمع الله تبارك وتعالى الأمرين معاً (الترغيب في الطيبات والتنفير من المحرمات)، في جزء من آية واحدة، فبين -سبحانه- بذلك جانباً من جوانب إعجاز هذا القرآن التي لا تعدّ ولا تحصى، حين قال: ﴿ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾^(٦).

هذه الكلمات الست المعجزات، وضع المشرع سبحانه وتعالى للبشرية جمعا، قانوناً ثابتاً وميزاناً دقيقاً، يمكنهم من أن يزنوا به كل المستجدات التي طرأت بعد زمن الرسول الكريم ﷺ وحتى قيام الساعة، ليعرفوا طيبها من خبيثها، ونافعها من ضارها، فيقبلوا على الطيبات ويتعدوا عن الخبائث المحرمات، فأكد بكل وضوح وجلاء أن شريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان.

وستناول في هذا البحث بعضاً من الأسباب العديدة التي من أجلها حرم الله تعالى الخنزير، مؤكداً في هذا الصدد أن الدراسات المنشورة-على كثرتها-لا تظهر إلا نزريراً يسيراً من مزار أكل لحم الخنزير، والتعايش مع هذا الحيوان الموغل في القذارة. ونحن على يقين تام بأن السنوات القادمة ستكشف للناس مزيداً من جوانب الإعجاز التشريعي في تحريم الخنزير. لكن مهما بلغ التقدم العلمي، فسيبقى علم البشر قاصراً، وإدراكهم محدوداً، والله هو العليم الحكيم.

تحريم الخنزير في القرآن الكريم.

أورد القرآن الكريم تحريم لحم الخنزير في أربعة مواضع:

١. قوله سبحانه وتعالى: ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله﴾^(٧).
٢. وقوله تعالى: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم﴾^(٨).
٣. وقوله تعالى: ﴿قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس﴾^(٩).
٤. وقوله تعالى: ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم﴾^(١٠).

ولم يورد القرآن الكريم كلمة "خنزير" بصيغة الأفراد إلا في هذه المواضع الأربعة، لكنه أوردتها بصيغة الجمع في موطن آخر لا غير، وهو قوله تعالى معرضاً باليهود الذين تنكروا لدعوة الرسول الكريم: ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضبه عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل﴾^(١١).

ولو رجعنا إلى الآيات الأربع لوجدنا أن تحريم لحم الخنزير كان قطعياً فيها جميعاً، من أول آية نزلت إلى آخر آية. فلم يحرم المشرع سبحانه لحم الخنزير بالتدرج كما حرّم الحمرة مثلاً، ليدلّل بذلك على مدى الضرر الذي يسببه هذا الحيوان لأكله من البشر.

وبالنظر إلى الآيات الأربع مرة أخرى، نجد أن آية سورة الأنعام هي الوحيدة التي تعلل سبب تحريم لحم الخنزير، حيث قوله تعالى: ﴿أولم يختر الله غيره فإنه رجس﴾^(١١). فوصف الخنزير بأنه "رجس". قال الفيروزآبادي: الرجس القذر^(١٢). وقال البيضاوي في تفسيره: الرجس القذر، وسمي بذلك لتعوده أكل النجس^(١٣).

يقول الشيخ مصطفى الزرقا رحمه الله: "التعليل العام الذي ورد في تحريم المحرمات من المأكول والمشرب ونحوهما يرشد إلى حكمة التحريم في الخنزير، وذلك التعليل العام هو قول الله تعالى: ﴿ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾. فهذا يشمل بعمومه تعليل تحريم لحم الخنزير، ويفيد أنه معدود في نظر الشريعة الإسلامية من جملة الخبائث. والخبائث في هذا المقام يراد بها ما فيه فساد لحياة الإنسان في صحته أو في ماله أو في أخلاقه، فكل ما تكون مغبته وعواقبه وخيمته من أحد النواحي الهامة في حياة الإنسان، دَخَلَ في عموم الخبائث"^(١٤).

ويقول سيد قطب رحمه الله في تفسير الآية ٣ من سورة المائدة: "وسواء وصل العلم البشري إلى حكمة هذا التحريم أم لم يصل، فقد قرر العلم الإلهي أن هذه المطاعم ليست طيبة، وهذا وحده يكفي. فالله لا يحرم إلا الخبائث، وإلا ما يؤدي الحياة البشرية في جانب من جوانبها. سواء علم الناس بهذا الأذى أو جهلوه. وهل علم الناس كل ما يؤدي وكل ما يفيد؟!"^(١٥).

ونقل ابن كثير رحمه الله عن بعض أهل العلم قوله: "فكل ما أحل الله تعالى من المأكول طيب نافع في البدن والدين، وكل ما حرّمه فهو خبيث ضار في البدن والدين"^(١٦).

وينبه الدكتور عبد الحافظ حلمي إلى علة تحريم الخنزير قائلاً: "وينبغي الالتفات إلى أن لحم الخنزير ينفرد من بين جميع اللحوم المذكورة في آيات التحريم بأنه حرام لذاته، أي لعله - أو علل - مستقرة فيه أو وصف لاصق به، أما أنواع اللحوم الأخرى فهي محرمة لعله عارضة عليها ولكنها تكون حلالاً طيباً إذا ذكيت بالطريقة المشروعة"^(١٧).

أما ما يحرم من الخنزير، فلا خلاف بين علماء المسلمين قاطبة في تحريم الخنزير بجميع أجزائه، الشحم واللحم والأحشاء والعظم والجلد والغضاريف وغير ذلك. لكنهم اختلفوا في بعض الجزئيات اليسيرة - كالشعر مثلا - هل يجوز استخدامه أم يحرم ذلك.

قال الفخر الرازي رحمه الله: أجمعت الأمة الإسلامية على أن الخنزير بجميع أجزائه محرم وإنما ذكر الله تعالى اللحم لأن معظم الانتفاع يتعلق به (١٨).

قال القرطبي رحمه الله في تفسيره الجامع لأحكام القرآن: "لا خلاف أن جملة الخنزير محرمة إلا الشعر فإنه يجوز الخرازة به. وقد روي أن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن الخرازة بشعر الخنزير، فقال: لا بأس بذلك، ذكره ابن خوير منداد، قال: ولأن الخرازة على عهد رسول الله ﷺ كانت، وبعده موجودة ظاهرة، لا نعلم أن رسول ﷺ أنكرها ولا أحد من الأئمة بعده. وما أجازة الرسول ﷺ فهو كابتداء الشرع منه" (١٩).

وقال ابن حزم الظاهري في المحلى: "لا يحل أكل شيء من الخنزير لا لحمه ولا شحمه ولا جلده ولا عصبه ولا غضروفه ولا حشوته ولا مخه ولا عظمه ولا رأسه ولا أطرافه ولا لبنه ولا شعره، الذكر والأنثى، والصغير والكبير سواء. ولا يحل الانتفاع بشعره لا في خرز ولا غيره". ثم يقول "فالخنزير بعينه رجس وهو كله رجس. وبعض الرجس رجس حرام يجب اجتنابه" (٢٠).

تحريم الخنزير في الحديث النبوي الشريف.

وردت كلمة خنزير ومشتقها أكثر من مائة مرة في السنة النبوية المطهرة، كلها في مجال الدم والقدح والتكيل والتحذير. وسوف نقتصر على ذكر حديثين منها، ففيهما ما يكفي للدلالة على موقف الشريعة الإسلامية من هذا الحيوان القميء.

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "مَنْ لَعِبَ بِالْتَّرْدَشِيرِ فَكَأَنَّمَا صَبَّغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَدَمِهِ" (التَّرْدَشِيرِ: الزهر) (٢١).

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَامَ الْفَتْحِ وَهُوَ بِمَكَّةَ: إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ. فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ، فَأَلْهَى يَطْلِي بِهَا السُّفْنُ، وَيُدْهَنُ بِهَا الْجُلُودُ، وَيَسْتَصْنَعُ بِهَا النَّاسُ. فَقَالَ: لَا هُوَ حَرَامٌ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: قَاتِلِ اللَّهُ الْيَهُودَ إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ شُحُومَهَا جَمَلُوهَا ثُمَّ بَاعُوه فَأَكَلُوا لِمَنَّهُ" (٢٢).

فالحديث الأول يذم ذماً شديداً كل من يلعب بالنردشير، لدرجة تشبيهه بمن يصيغ يده في لحم الخنزير ودمه. فإذا كان هذا حال من يصيغ يده بلحم الخنزير، فكيف يكون حال من يأكل لحم هذا الحيوان؟! قال ابن كثير: فإذا كان هذا التنفير مجرد اللمس فكيف التهديد والوعيد من أكله والتغذي به؟ وفيه دلالة على شمول التحريم على شمول التحريم لجميع أجزائه من لحم و شحم وغيره (٢٣).

أما الحديث الثاني، ففيه تصريح بتحريم بيع الخنزير أو الاستفادة من أي جزء منه. فقد دعاء النبي الكريم ﷺ على اليهود بسبب تحايلهم على شرع الله، وذلك بمحاولتهم الاستفادة مما حرم الله عليهم أكله، عن طريق تحويله إلى شكل آخر.

صفات الخنزير وطباعه.

الخنزير حيوان عشبي لاحم (omnivore) خبيث الطبع، تجتمع فيه صفات السباع اللائحة و صفات البهائم العشبية. وهو علاوة على ذلك حيوان فهم كانس، يكنس الحقل والزريبة ويأكل كل شيء. فيأكل القمامات، ويأكل الفضلات بما في ذلك فضلاته البرازية، كما يأكل القاذورات والديدان وكل النجاسات. والخنزير حيوان فهم شره لا يمتنع عن أكل أي شيء، فيأكل الجردان والفئران والجيف المتعفنة، وحتى جيف أقرانه (٢٣-٢٦).

يروى الدكتور هانس هايتزش قصة طريفة تدل على فهم الخنزير وشرهته. جرت هذه الواقعة في أحد المشافي العسكرية، حيث كانت هناك حظيرة للخننازير ملحقة بالمشفى، لإعداد الطعام للمرضى والعاملين في المشفى. وفي أحد الأيام تدافعت الخننازير على الفرن المملوء بالضمادات المضمخة بالقيح والمهيسة للحرق فالتهمتھا. وتوفيراً للعلف قررت إدارة المشفى أن يصبح نصف الضمادات المبللة بالقيح والأوساخ طعاماً للخننازير. وهكذا أصبح مرضى ذلك المشفى يغذون بلحم خننازير مفعمة بالسموم والذيفانات (٢٣)!!!

تبلغ أنثى الخنزير الأمريكي والأوروبي بعد خمسة أشهر من ولادتها وتصبح قادرة على الحمل والإنجاب. لكن عمر البلوغ لأنثى الخنزير الصيني أقل من ذلك، إذ تصبح قادرة على الحمل بعد ثلاثة أشهر فقط من ولادتها. وتكرر دورة الشبق لها مرة كل ٢١ يوماً (٢٥). وتبلغ مدة الحمل ٣ أشهر و ٣ أسابيع و ٣ أيام، أي ١١٤ يوماً (٢٤، ٢٥).

وتضع الأنثى بين ٣-١٢ خنوصاً في كل مرة، ويمكنها أن تلد ثلاث مرات في السنة (٢٤). ويتراوح معدل الإنجاب لأنثى الخنزير الواحدة ١٥-٣٠ خنوصاً في العام الواحد. وتحتاج الأنثى ٢١ يوماً لإرضاع صغارها، و ٥ أيام للعودة إلى دورة الشبق (٢٧).

والخزير حيوان سريع النمو، فهو يزن عند الولادة حوالي ٢ كلف، لكنّ وزنه يتضاعف أكثر من ٥٠ مرة، ليصل في غضون ستة أشهر إلى قرابة ١١٢ كلف. ويرجع سبب هذا النمو السريع إلى الزيادة الكبيرة في إفراز هرمون النمو عند الخزير^(٢٨،٢٦).

الأمراض التي ينقلها الخنزير للإنسان.

يبلغ عدد الأمراض التي تصيب الخنزير ٤٥٠ مرضاً^(٢٣)، منها ٥٧ مرضاً طفيلياً تنتقل منه إلى الإنسان^(٢٣،٢٩)، بعضها خطير بل وقاتل. ويختص الخزير بمفرده بنقل ٢٧ مرضاً وباتياً إلى الإنسان، وتشاركه بعض الحيوانات الأخرى في نقل بقية الأمراض، لكنه يبقى المخزن والمصدر الرئيسي لهذه الأمراض. هذا عدا عن الأمراض الكثيرة التي يسببها أكل لحمه كتليف الكبد، وتصلب الشرايين، وضعف الذاكرة، والعقم^(٢٩)، والتهاب المفاصل، والسرطانات المختلفة،.... وغيرها مما سيأتي الحديث عنه في هذا البحث. ونحن على يقين بأن عدد الأمراض سيزداد مع مرور الأيام، وأن السنوات القادمة ستكشف أمراضاً جديدة تنتقل من الخنزير إلى بني البشر.

أولاً: البريونات (Prions).

١- مرض جنون البقر. يسبب هذا المرض الفتاك أجسام بروتينية صغيرة تسمى البريونات. هذه الأجسام لها قدرة على إحداث أمراض خطيرة للحيوانات وللشعر أيضاً. ومصدر الخطورة يكمن في قدرة البريونات على تغيير شكل البروتينات الطبيعية الموجودة في خلايا مناطق حساسة- كالدماغ مثلاً- وتحويلها إلى بريونات، مسببة تلف الدماغ، فالجنون ثم الموت. لقد أثارت هذه الأجسام موجة شديدة من الذعر للبشر، عندما أعلن الأطباء عن أول إصابة بين البشر بمرض جنون البقر الذي تسببه البريونات. لقد أكدت التقارير العلمية أنّ الخنازير تصاب بهذا المرض، مما يجعل امكانية انتقاله إلى آكلي لحوم الخنزير عرضة للإصابة بالمرض^(٣٠-٣٣).

ومما يبعث الملح في النفوس، أنّ البريونات لا يمكن القضاء عليها بالطبخ ولا بطرق التعقيم الطبية الحديثة، وفترة كمونها في الجسم قد تمتد لسنوات طويلة (تراوح بين ٥-٢٠ سنة)، ولا يوجد علاج لما تسببه من أعراض مرضية في الوقت الراهن، والوسيلة الوحيدة لمنع انتقالها هي القضاء على الحيوانات المصابة^(٣٥). يذكر أنّ مرض جنون البقر لم يكن معروفاً قبل عام ١٩٨٢م، وأنه تسبب في موت عشرات الأشخاص في بريطانيا خلال العام ٢٠٠٠م^(٣٥).

لقد كشف مرض جنون البقر حقائق مريعة للمدى الذي يمكن أن يصل إليه البشر من أجل زيادة الدخل المادي، دون اعتبار للقيم والأخلاقيات الإنسانية، ودون اكتراث بالنتائج المترتبة على هذه التصرفات اللامسؤولة. لقد تبين أن مربّي الحيوانات اللاحمة يسمونها على بقايا الحيوانات اللاحمة، فيطعمون الأبقار والأغنام والدجاج والخنازير، لحوم الماشية والخنازير ومخلفات المسالخ^(٣٥-٣٨)!!!

ثانياً: الفيروسات (Viruses).

يصيب الخنزير مجموعة كبيرة من الفيروسات، منها ما تنقله الخنازير إلى الإنسان، فيسبب له أمراضاً فيروسية خطيرة، مثل:

٢- فيروس الأنفلونزا. لقد تمّ عزل فيروس الأنفلونزا من عينات أخذت من الإنسان والخيول والخنازير والطيور الداجنة والبرية، وحتى من بعض الثدييات البحرية^(٣٩-٤٢). وكان أخطر وباء أصاب العالم من هذه الأنفلونزا، الوباء الذي حدث عام ١٩١٨م، وأطلق عليه آنذاك اسم "الإنفلونزا الإسبانية". فقد تفشى هذا الوباء في شتى أنحاء المعمورة، مخلفاً وراءه ملايين الجثث، وناشراً الذعر والهلع غي كل مكان.

يذكر أنّ وباء الإنفلونزا الذي لم يشهد القرن العشرين له مثيلاً في الحدة والانتشار، أدى إلى إزهاق أكثر من ٢٠ مليون نسمة خلال عامي ١٩١٨-١٩١٩م، وأنه حصد في الولايات المتحدة أرواح ٥٥٠ ألف نسمة خلال عام واحد، أغلبهم من الشباب، وهو ما يوازي عشرة أضعاف الأمريكيان الذين قتلوا خلال الحرب العالمية الأولى^(٤٢، ٤٣). ويؤكد بعض الباحثين، بأنّ الفيروس المسبب لهذا الوباء المهلك تحوّر عن فيروس إنفلونزا الخنازير في الولايات المتحدة^(٤٤، ٤٥)، ومن ثمّ انتقل بواسطة الجنود الأمريكيين إلى شتى بقاع الأرض^(٤٥). ومنذ ذلك الحين، تعرض العالم لموجتين من الإنفلونزا، كانت الأولى عام ١٩٥٧ ذهب ضحيتها ٧٠ ألفاً، والثانية عام ١٩٦٨ ذهب ضحيتها قرابة ٤٧ ألفاً^(٤٢، ٤٣).

٣- فيروس نيبا (Nipah virus). لم يعرف العالم هذا الفيروس المميت قبل أكتوبر/ تشرين أول من عام ١٩٩٨م. فقد عاج الأطباء في ماليزيا ٣٠٠ إصابة بما يشبه أعراض الإنفلونزا، سرعان ما توفي ١١٧ مريضاً منهم بفيروس "نيبا" الغامض، وأصيب العشرات منهم بتلف دماغي. ويعتقد الأطباء الماليزيون أنّ الفيروس الخطير ربما انتقل من خفاش الفواكه إلى الخنازير، ومنها إلى الإنسان^(٤٥-٥٠)، حيث أظهرت المتابعات الطبية أنّ جميع المصابين بالمرض كانت تربطهم علاقة قوية بالخنازير^(٤٦)، مما حدا بالدوائر الصحية في ماليزيا إلى قتل مليون خنزير^(٥١).

٤- فيروس التهاب الرئوي الحاد (SARS coronavirus/ سارس). لا أعتقد أننا بحاجة لتوضيح خطورة هذا المرض الفيروسي القاتل، فالملح الذي تسببه كلمة "سارس" في كافة دول العالم، يغينا عن ذلك. لكن ما يعنينا في هذا المقام هي الحقائق المتعلقة بظهور هذا المرض الخطير. فقد ذكرت التقارير أن المرض ظهر أولاً في الصين، وأن ٣٠% من أصيب بالمرض في بداية الأمر كانوا من المتعاملين بالأطعمة، وأنه تم عزل الفيروس من الأفاعي والخنزير البرية والقردة والخفافيش^(٥٢-٥٤). وإذا أضفنا إلى ذلك أن الصين هي أكبر مستهلك للخنزير على وجه الأرض، إذ يبلغ استهلاكها نصف استهلاك العالم^(٥٢)، ظهر لنا بوضوح علاقة الخنزير بمرض سارس.

٥- فيروس الحمى القلاعية (Foot & Mouth Disease). فيما يبدو ليس من سبيل إلى وضع حد لوباء الحمى القلاعية التي أهلكت الثروة الحيوانية البريطانية في بداية عام ٢٠٠١م. فبعد أيام قليلة على تشخيص الأطباء البيطريين ٢٧ إصابة بين خنازير إحد المساخ الريفية، فرضت الحكومة حظراً على كافة عمليات نقل الحيوانات. لكن هذا الإجراء لم يحل دون انتشار المرض خارج بريطانيا، فسرعان ما انتشر الوباء في القارة الأوروبية. ولم يجد البريطانيون مناصاً من القيام بحملة واسعة النطاق للقضاء على الخنازير المصابة، ذهب ضحيتها ٣,٧٥ مليون من حيوانات المزرعة وألحق أضراراً بالغة بسبل معيشة آلاف المزارعين وبالاقتصاد الريفي وبقطاع السياحة^(٥٥). يذكر أن مرض الحمى القلاعية انتشر عام ١٩٩٧ في جزيرة تايوان برمتها، في أقل من شهرين وطالت آثاره المدمرة ٦٠٠٠ مزرعة، وأسف عن ذبح ٣,٨ مليون خنزير^(٥٥). ومن المعروف علمياً أن المرض ينتقل من الخنازير إلى الإنسان^(٥٦,٥٧).

٦- فيروس مرض الكلب (Rabies virus). هذا الفيروس يصيب الحيوانات آكلة اللحوم، وينتقل منها بواسطة العض إلى الحيوانات الأخرى بما في ذلك الإنسان. والخنزير من الحيوانات المفترسة التي تأكل الجردان والجيف. لذا فهو عرضة لهذا المرض، والناس الذين يربون الخنازير أو يأكلون لحومها ومنتجاتها أيضاً معرضون للإصابة بداء الكلب^(١٧,٢٣).

٧- فيروس التهاب الدماغ الياباني (Japanese encephalitis). ينتشر هذا الفيروس بين مربي الخنازير في مناطق شرق آسيا، وهو يصيب الطيور، وينتقل منها بواسطة البعوض إلى الخنازير، التي بدورها تنقله إلى الإنسان. ويسبب هذا الفيروس التهاب الدماغ في الإنسان، الذي يكون مميتاً في بعض الأحيان^(٥٦).

٨- فيروس حمى نهر روس (Ross River fever Virus). يسبب هذا الفيروس آلاماً وحمى وانتفاخاً في المفاصل وهولاً. وقد تستمر هذه الأعراض عدة أسابيع. ففي عام ١٩٩٦م، أصيب بهذا المرض أكثر من ١٠٠٠ أسترالي في مقاطعة نيو ساوث ويلز^(٥٨). يعيش هذا الفيروس في الخنازير وغيرها، ويقوم البعوض بنقله إلى الإنسان^(٥٦).

٩- فيروس الخنزير التفروحي (Swine Vesicular Virus). سُجِّل أول ظهور لهذا الفيروس عام ١٩٦٦م في إيطاليا، ليظهر بشكل وبائي في بريطانيا عام ١٩٧٢، حيث أصاب خلال السنوات العشر التالية أكثر من ٣٢٢ ألف خنزير في بريطانيا وحدها^(٥٩). ينتقل هذا الفيروس من الخنازير إلى البشر عن طريق المخالطة، حيث يسبب حمى وآلاماً في المفاصل والعضلات^(٥٩، ٦٢). يذكر أن الخنزير هو العائل الطبيعي الوحيد لهذا الفيروس^(٦٢).

١٠- فيروس تقرُّح الفم (Vesicular Stomatitis Virus). تشبه أعراض هذا المرض أعراض مرض الحمى القلاعية، حيث يسبب تقرحات الفم واللسان والأرجل والأظلاف، كما يسبب ارتفاعاً في حرارة الجسم^(٦٤، ٥٦).

١١- فيروس التهاب الدماغ والقلب (Encephalomyocarditis). تعتبر الجرذان مستوع هذا الفيروس الخطير، كما تعتبر الخنازير أكثر حيوانات الحظيرة إصابة بالمرض. وعادة ما تنتقل العدوى من الجرذان إلى الخنازير. يسبب هذا الفيروس التهاب الدماغ والقلب، مما قد يؤدي بحياة المرضى^(٦٥، ٥٦).

١٢- فيروس الجدري (Small pox virus). يصيب الخنازير ويمكن أن يعدي البشر^(٦٦).

١٣- فيروس الحمى الصفراء (Yellow fever virus). يمكن أن ينتقل إلى البشر من الخنازير^(١٧، ٦٣).

ثالثاً: البكتيريا (Bacteria).

يصيب الخنزير مجموعة كبيرة من البكتيريا، حيث تنتقل منها إلى الإنسان، مسببة له أمراضاً خطيرة، بل وقاتلة. وسنستعرض باختصار أهم الأنواع الممرضة وعلاقتها بالخنزير ونقلها إلى الإنسان.

١٤- بكتيريا الحمى المالطية (*Brucellosis*). تسبب مرض الحمى المالطية ثلاثة أنواع من البكتيريا، وهي تصيب الماشية والخنازير، حيث تنتقل منها إلى الإنسان. لكن أخطر الثلاثة هو النوع الذي يصيب الخنازير (*Brucella suis*)، إذ إنه يسبب للمصابين به من بني البشر التهاب السحايا، التهاب عضلة القلب، التهاب المفاصل، تورم الطحال، وغير ذلك من الأمراض الخطيرة^(٢٦، ٥٦، ٦٧).

١٥- بكتيريا السالمونيلا (*Salmonellosis*). تسبب هذه البكتيريا للإنسان عدة أمراض، مثل التيفويد وبارا التيفويد والتسمم الغذائي^(٥٦). ظهرت في بريطانيا عام ١٩٩٠م فصيلة جديدة من بكتيريا السالمونيلا عرفت بـ (*Salmonella serotype DT 104*)، سرعان ما أصبحت مصدر قلق للأوساط الطبية هناك. فهي مقاومة لكثير من المضادات الحيوية، علاوة على شدة فتكها بالمصابين بها. والملفت للنظر أن جُلَّ مرضى السالمونيلا البريطانيين، كانوا من أصحاب الحظائر، أو المتعاملين بلحوم الأبقار والخنازير والدواجن، أو المستهلكين لها^(٦٨). وهنا أيضاً يبدو الارتباط واضحاً بين تربية الخنازير أو أكل لحومها ومنتجاتها، والإصابة بالسالمونيلا.

١٦- بكتيريا اليريميات (*Leptospira interrogans*). يسبب هذا النوع من البكتيريا مرضاً يعرف بـ داء اليريميات (*Leptospirosis*). وتتراوح أعراض هذا الداء في الإنسان، بين خفيفة (كارتفاع طفيف في حرارة الجسم)، وخطيرة (نحو الفشل الكلوي)^(٦٩). أما في الخنازير، فتحدث البكتيريا اضطراب الجهاز التناسلي فيها. ويمكن للخنازير نقل هذا المرض إلى الإنسان^(٦٩، ٧٠).

١٧- بكتيريا لستيريا (*Listeria monocytogenes*). تسبب هذه البكتيريا مرض التهاب السحايا الدماغية، وموت الأجنة، وتسمم الدم^(٧١، ٧٢). ولم تكن بكتيريا لستيريا معروفة قبل عام ١٩٦٨، حين وقعت حالات غامضة من الوفيات في الداغمارك وهولندا. وقد تبين أن هذه الجراثيم شديدة الفتك بالإنسان، إذ تسبب له التهاب السحايا، كما تفرز سموماً في دم المصاب، كما تبلغ نسبة الوفاة بالمرض ٤٠% من الحالات الشديدة. والذين أصيبوا بهذا المرض ونجوا من الموت بعد علاج شاق، عانوا الصمم الدائم وفقدان التوازن^(٧٣). يذكر أن دراسة أجراها مركز مراقبة الأمراض في الولايات المتحدة، أظهرت أنه في المتوسط، يصاب ١٦٠٠ مواطناً بالمرض كل عام، يتوفى منهم ٤١٥ مريضاً^(٧٢). وفي ولاية البنغال الهندية، أدى وباء اللستيريا إلى وفاة آلاف الهنود عام ١٩٨٤^(٥٦). يشار إلى إن الإصابة الوبائية بهذا المرض مرتبطة بالوجبات السريعة، كما يعتبر الخنزير أكثر الحيوانات نقلاً لبكتيريا لستيريا إلى الإنسان^(٦٩، ٥٦، ٧١).

١٨- بكتيريا الجمرة الخبيثة (*Bacillus anthracis*). تنتقل بكتيريا الجمرة الخثريرية الخبيثة من الخنزير إلى اللحامين والدباغين وسواهم وتكون بشكل لوحة محمرة مؤلمة جداً، وحرارة على الأيدي مع ارتفاع الحرارة والقشعريرة، والتهاب العقد والأوعية اللمفاوية (٧٣، ٧١، ٥٦، ٢٣، ٢٦).

١٩- بكتيريا القولون (*Escherichia coli O157:H7*). كانت بداية ظهور هذه الفصيلة من بكتيريا القولون في الولايات المتحدة عام ١٩٨٢م، على أثر موجتين وبائيتين، ارتبطتا بساندويشات الهامبورغر. بعد ذلك التاريخ، غدا هذا النوع من البكتيريا أحد أبرز مسببات الإسهالات المصحوبة بالدم في الولايات المتحدة، إذ تُسجَّل ٢٠ ألف إصابة سنوياً، ينجم عنها ٢٥٠ وفاة. أما في الأطفال، فتسبب البكتيريا مرض البول الدامي الذي يُعتبر أحد مسببات الفشل الكلوي الحاد في أمريكا (٧٦-٧٤).

٢٠- بكتيريا يرسينيا (*Yersinia enterocolitis*). يصيب الإنسان نوعان من بكتيريا يرسينيا هما: (*Yersinia enterocolitis*) التي تسبب في الأطفال الإسهالات المصحوبة بالدم والمخاط. أما النوع الثاني فهو (*Yersinia pseudotuberculosis*) الذي يسبب أحياناً تسمم الدم والتهاب المفاصل، كما يسبب أيضاً ألماً معوياً يشبه إلى حد كبير إتهاب الزائدة الدودية، الأمر الذي قد يلتبس على الأطباء فيخطئون التشخيص. ويعتبر الخنزير أكثر الحيوانات نقلاً لنوعي يرسينيا للإنسان، حيث يصاب المتعاملون بلحوم الخنازير وأكلوها بنوعي بكتيريا يرسينيا (٧٨، ٧٧، ٥٦).

٢١- بكتيريا كلوستريديوم (*Clostridial species*). يصيب الإنسان نوعان من بكتيريا كلوستريديوم هما: (*Clostridium botulinum and Clostridium perferingens*) اللذان يسببان التسمم الغذائي. وقد وُجد ما بين ٣٠-٨٠% من الخنازير المذبوحة تحوي (*Clostridium perferingens*)، وأن هذا النوع لا يتأثر بالطبخ العادي (٥٦).

٢٢- بكتيريا التقرحات الجلدية (*Fusiformis necrophorum*). يصيب هذا النوع من البكتيريا الخنازير والماشية، حيث ينتقل منها إلى الإنسان. تسبب هذه البكتيريا تقرحات وخراجات في الجلد والفم والكبد والقناة الهضمية والشرج والأعضاء التناسلية، كما تسبب تسمم الدم، وأمراضاً عديدة أخرى، وهي مقاومة لكثير من المضادات الحيوية (٨٥-٧٩، ٥٦).

٢٣- بكتيريا الحُمرة الجلدية (*Erysipelothrix rhusiopathiae*). يصيب هذا النوع من البكتيريا الخنازير والخيول والديك الرومي، وينتقل منها إلى الإنسان، فيسبب له تهيجاً في الجلد، ويخلف وراءه بقعاً حمراء مخيفة المنظر (٥٦، ٨٦، ٨٧).

٢٣- بكتيريا السل الرئوي (*Mycobacterium tuberculosis*). يسبب السل الرئوي ثلاثة أنواع من بكتيريا (*Mycobacterium*) نعتبر من الجراثيم الخطيرة جداً، إذ تسبب في موت ما يربو على ٣ ملايين نسمة سنوياً، أغلبهم من الدول الفقيرة. تغزو البكتيريا الجهاز التنفسي، وتقوم بتدمير الحويصلات الهوائية، مسببة موت الكائن. ينتقل مرض السل الرئوي عن طريق مخالطة المرضى أو الكائنات المصابة، والتي تضم بينها الخنازير والأبقار والطيور. ويصاب الخنزير بأنواع البكتيريا الثلاثة. ونظراً لخطورتها، فقد قامت عدة مختبرات عالمية بتحليل المادة الوراثية لها لمعرفة الوسائل المثلى لمكافحةها (٥٦، ٨٨-٩٠).

٢٤- بكتيريا الإنسمام الدموي (*Melioidosis*). يسبب هذا المرض الخطير نوع من البكتيريا تسمى (*Pseudomonas pseudomallei*). وينتشر هذا المرض في جنوب شرق آسيا وشمال أستراليا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية ومناطق أخرى من العالم. ويبدأ المرض حين تتمكن البكتيريا من دخول الجسم عن طريق الجلد المتهتك، لتحدث تسمم الدم خلال فترة قصيرة لا تتجاوز أحياناً ٤٨ ساعة. وتستطيع البكتيريا الانتقال عبر الدم لتصل إلى القلب والدماغ والرئتين والكبد والكلى والعيون، فيسبب تقرحات خطيرة. ونوه هنا إلى أن نسبة الوفاة بالمرض قد تصل إلى ٦٥%، وبأن نصف هؤلاء يموتون في غضون ٤٨ ساعة من الإصابة. بقي أن نذكر أن المرض يصيب الخنازير وينتقل منها إلى الإنسان (٥٦، ٩١-٩٣).

٢٥- بكتيريا الإنسمام الدموي (*Melioidosis*). يسبب هذا المرض الخطير نوع من البكتيريا تسمى (*Pseudomonas pseudomallei*). وينتشر هذا المرض في جنوب شرق آسيا وشمال أستراليا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية ومناطق أخرى من العالم. ويبدأ المرض حين تتمكن البكتيريا من دخول الجسم عن طريق الجلد المتهتك، لتحدث تسمم الدم خلال فترة قصيرة لا تتجاوز أحياناً ٤٨ ساعة. وتستطيع البكتيريا الانتقال عبر الدم لتصل إلى القلب والدماغ والرئتين والكبد والكلى والعيون، فيسبب تقرحات خطيرة. ونوه هنا إلى أن نسبة الوفاة بالمرض قد تصل إلى ٦٥%، وبأن نصف هؤلاء يموتون في غضون ٤٨ ساعة من الإصابة. بقي أن نذكر أن المرض يصيب الخنازير وينتقل منها إلى الإنسان (٥٦، ٩١-٩٣).

٢٦- بكتيريا (*Pasteurollosis*). تسبب البكتيريا تسمم الدم والالتهاب الرئوي والتهاب المفاصل والكلبي، وتصيب الخنازير والكلاب والقطط والجردان والماشية والطيور. تنتقل البكتيريا من هذه الكائنات إلى الإنسان بطريق المخالطة^(٥٦).

٢٧- بكتيريا والالتهاب الرئوي (*Mycoplasmosis*). تسبب بكتيريا (*Mycoplasma suis*) هذا المرض. وتصاب الخنازير بذات الرئة، الذي يمكن أن ينتقل منها إلى الإنسان بطريق المخالطة^(٥٦).

رابعاً: الأوليات/ وحيدة الخلية (*Protozoa*).

ينقل الخنزير للإنسان مجموعة من الكائنات الأولية، بعضها يحدث اضطرابات خفيفة له، والبعض الآخر يسبب أمراضاً خطيرة ومميتة. وسنستعرض في الصفحات التالية أبرز الأمراض التي تسببها هذه الأوليات، ودور الخنزير في نقلها إلى الإنسان.

٢٩- الزحار البلنتيدي/ الزقي (*Balantidial Dysentery*). الطفيلي المسبب لهذا المرض هو نوع من الأوليات الهدبية (لها أهداب)، يعرف بـ (*Balantidium coli*). وهو أكبر الأوليات التي تصيب الإنسان، وهو النوع الوحيد من الأوليات الهدبية التي تصيب الإنسان، كما إنه من طفيليات الأمعاء الغليظة (القولون) في الخنازير والقردة وبخاصة الشمبانزي. ولأنّ فرص اتصال الإنسان بالقردة ضئيلة، فتبقى الخنازير من الناحية العملية المصدر الوحيد لعدوى الإنسان. ويوجد هذا الميكروب في براز الخنزير وينتقل إلى طعام الإنسان بطرق عديدة، ليستقر في الأمعاء الغليظة، فيحدث إسهالاً مصحوباً بالمخاط والدم، قد يؤدي للوفاة. وعادة لا ينتشر الزحار البلنتيدي إلا بين مربي الخنازير أو المتعاملي معها (ذبحها ونقلها وتجارتها)، فتتلوث أيديهم بمجوسلات الطفيلي المعدية^(١٧، ٢٣، ٩٤).

٣٠- داء النوم الإفريقي (*African Sleeping Sickness*). الطفيلي المسبب لهذا الداء الفتاك هو (*Trypanosoma gambiense*). تنقل هذا الطفيلي ذبابة التسي-تسي بطريق الحقن، وذلك عندما تلدغ الإنسان. يسبب الطفيلي اضطراباً دماغياً، لا يلبث أن يتطور إلى مرض النوم. وفي حال إهمال معالجة المريض، فإنه يدخل في غيبوبة ويموت^(١٧، ٢٣، ٩٤-٩٦). بقي أن نؤكد على الدور التي تلعبه الخنازير في نقل هذا المرض للإنسان.

٣١- مرض شاغاس (*Chagas' Sickness*). هذا المرض أشد خطورة من النوع الأفريقي، والطفيلي المسبب له (*Trypanosoma cruzi*) أشد فتكاً. ينتشر هذا المرض في أمريكا الجنوبية والوسطى، وأعراضه مشابهة لإعراض داء النوم الإفريقي، لكنه أكثر شراسة منه (١٧، ٢٣، ٩٤، ٩٥). وتلعب الخنازير دوراً مهماً في نقل هذا المرض للإنسان.

٣٢- داء المقوسات (*Toxoplasmosis*). يسبب هذا المرض طفيلي يسمى (*Toxoplasma Gondii*). ينتقل هذا الطفيلي إلى الإنسان بطريقتين: إما عبر مشيمة الأم المصابة إلى الجنين، أو يُكتسب من أحد حيوانات المستودع مثل القطط، الكلاب والطيور، والمواشي، والخنازير. ومن آثاره إسقاط الجنين في المرأة الحامل، أو ولادة جنين تام النضج لكنه يعاني من استسقاء الرأس، والتهاب شبكية ومشيمة العين، وتكلسات دماغية. يبلغ معدل الوفيات حوالي ١٠%، أما الناجون فقد تظهر عليهم بعض الأعراض كاستسقاء الرأس والتخلف العقلي واضطراب الرؤيا (١٧، ٢٣، ٩٤، ٩٥).

٣٢- داء المقوسات (*Toxoplasmosis*). يسبب هذا المرض طفيلي يسمى (*Toxoplasma Gondii*). ينتقل هذا الطفيلي إلى الإنسان بطريقتين: إما عبر مشيمة الأم المصابة إلى الجنين، أو يُكتسب من أحد حيوانات المستودع مثل القطط، الكلاب والطيور، والمواشي، والخنازير. ومن آثاره إسقاط الجنين في المرأة الحامل، أو ولادة جنين تام النضج لكنه يعاني من استسقاء الرأس، والتهاب شبكية ومشيمة العين، وتكلسات دماغية. يبلغ معدل الوفيات حوالي ١٠%، أما الناجون فقد تظهر عليهم بعض الأعراض كاستسقاء الرأس والتخلف العقلي واضطراب الرؤيا (١٧، ٢٣، ٩٤، ٩٥).

٣٣- طفيل (*Iodamoeba bütschlii*). لا يسبب هذا الطفيلي أي مرض مزعج، لكنه يتشابه مع طفيل (*Entamoeba histolytica*) الذي يسبب الزحار الأميبي الخطير. ينتقل هذا الطفيلي إلى الإنسان بواسطة الخنازير والقردة التي هي مستودعات له (٩٦، ٩٧).

٣٤- طفيل (*Entamoeba polecki*). ينتقل هذا الطفيلي إلى الإنسان بواسطة مستودعاته من الخنازير والقردة، ولبس هناك دلائل تشير بوضوح إلى ارتباط هذا الطفيلي بمرض في الإنسان (٩٦، ٩٧).

٣٥- طفيل (*Endolimax nana*). لا يعرف مرض يسببه هذا الطفيلي للإنسان. ينتقل هذا الطفيلي إلى الإنسان بواسطة الخنازير (٩٦، ٩٧، ٩٨).

خامساً: الديدان المفلطحة (Trematoda).

ينقل الخنزير للإنسان عدداً من الديدان المفلطحة، غالبيتها يسبب له اضطرابات خطيرة. وأهم الديدان التي ينقلها الخنزير إلى الإنسان هي:

٣٦- البلهارسيا اليابانية (*Schistosoma japonicum*). تصيب البلهارسيا أكثر من ٢٠٠ مليون نسمة، ويموت بسببها قرابة المليون شخص سنوياً. تعيش هذه الدودة في الأوعية الدموية المعوية، حيث تضع بيوضاً تخترق هذه الأوعية الدموية، لتخرج إلى البيئة الخارجية. تعيش هذه الديدان في جسم الإنسان مدة تصل إلى ٣٠ سنة، وتحدث دماراً شديداً يؤدي أحيانا إلى الموت. يصاب الخنزير بديدان البلهارسيا اليابانية والتي تزل بويضاتها مع برازه، ومنه تنتقل للإنسان في كثير من بلدان العالم (١٧، ٢٣، ٩٨).

٣٧- الدودة المتوارقة البسكية (*Fasciolopsis buski*). وهي من الديدان المعوية-الكبدية، والخنزير هو العائل الرئيس لنشر العدوى. وتعيش الديدان البالغة في الأمعاء محدثة التهابات موضعية ونزوف وتقرحات في جذر المعى الدقيق، وتتسبب في حدوث إسهال مزمن وفقر دم وقد تحدث استسقاء البطن مؤدية إلى الوفاة. (١٧، ٢٣)

٣٨- الدودة الكبدية الصينية (*Chlonorchis sinensis*). تنتشر الدودة الكبدية الصينية في بلدان الشرق الأقصى كاليابان والصين، والخنزير العائل الرئيسي لها. تعيش هذه الديدان في القنوات الصفراوية الكبدية، حيث تتكاثر بأعداد كبيرة. وإذا ما كثرت أعدادها عند المصاب، أحدثت تضخماً في الكبد وإسهالاً مزمناً وبقاً شديداً ينتهي بالوفاة (١٧، ٢٣).

٣٩- دودة (*Paragonimus westermani*). يصيب هذا الطفيلي القطط والكلاب والخنزير وغيرها، وينتقل منها إلى الإنسان. وتعتبر هذه الدودة من أهم الديدان التي تصيب الرئة وتحدث فيها أضراراً تكون أحيانا جسيمة، كما تسبب الإلتهاب الرئوي ومرض السل (١٧، ٢٣، ٩٩).

٤٠- دودة (*Castrodiscoider hominis*). وهي من طفيليات الأمعاء التي تصيب الخنازير وغيرها، وتنتقل منها إلى الإنسان (١٧).

سادساً: الديدان الشريطية (*Cestoda*).

ينقل الخنزير للإنسان أنواعاً متعددة من الديدان الشريطية، بعضها بالغ الخطورة على حياته، والبعض الآخر يسبب له اضطرابات تتراوح ما بين الخفيفة والشديدة. وأهم الديدان الشريطية التي ينقلها الخنزير إلى الإنسان هي:

٤١- الدودو الشريطية المسلحة/تينيا سوليوم (*Taenia solium*). والمشهورة أيضاً بالدودة الوحيدة. يعيش طورها البالغ في أمعاء الإنسان، ويبلغ طولها من ٢-٣ أمتار، لها رأس أصغر من الدبوس مزود بأربع مصاصات ويطوق قمته طوق من الأشواك، يلي الرأس عنق قصير ينمو منه باستمرار قطع أو أسلات صغيرة تنمو كلما بعدت عن الرأس مكونة شريطاً يحتوي أكثر من ١٠٠٠ قطعة (١٧، ٢٣، ٩٧، ١٠٠-١٠٥).

وتنفصل الأسلات الناضجة الممتلئة بالآلاف البيوض، لتخرج مع براز المصاب، حيث تعيش في التربة الرطبة زمناً طويلاً إلى أن يأتي خنزير فيلتهمها وما فيها من بيوض. وتعمل عصابات أمعاء الخنزير الهاضمة على حل هذه البيوض لتنتقل منها الأجنة، فتنخرق جدار الأمعاء، لتسبح مع الدورة الدموية إلى كل أنحاء الجسم. وتستقر الأجنة في عضلات الخنزير مكونة حويصلات بطول ٦-١٨ ملم، في كل منها يرقانة لها رأس صالح لكي يكون دودة جديدة. فإذا ما تناول الإنسان من اللحم المصاب دون أن يتضح تماماً لقتل ما فيه من اليرقات، فإنها تنطلق من الحويصلات في أمعائه لتتنخرق جدارها، وتدخل إلى دورته الدموية، لتستقر بعد ذلك في العضلات أو الرئتين أو الكبد أو القلب أو العيون أو الدماغ. أن نحو هذه الحويصلات في المخ يؤدي إلى الإصابة بحالات من الصرع، وإلى شلل عضوي جزئي، مع دوار واضطرابات عصبية حسية. كما ينطلق منها إلى الدم ذيفانات سامة، قد تؤدي إلى الموت. ولا يعرف لهذا المرض علاج ناجح حتى يومنا هذا (١٧، ٢٣، ٩٧، ١٠٠-١٠٥).

صحيح أن البقر يصاب بدودة مشابهة هي الدودة الشريطية الغزلاء، وأن الإنسان يصاب بالطور البالغ من تلك الدودة، لكن الأمر الجوهري أن الإنسان لا يصاب مطلقاً بالحويصلات البقرية. ويعتبر الخنزير المصدر الوحيد لعدوى البشر. (١٧، ٢٣، ٩٤، ٩٧، ١٠٠-١٠٣).

٤٢- الدودة الشريطية العوساء العريضة (*D. latum*). يصاب الإنسان بالطور البالغ لهذه الدودة، التي تعتبر واحدة من الديدان المعوية. ويبلغ طول الدودة البالغة ١٠ أمتار، وتستطيع أن تضع عدداً هائلاً من البيوض، يصل إلى مليون بويضة كل يوم (١٧، ٢٣، ٩٤، ٩٩، ١٠٤) !!!

٤٣- الدودة شوكية الرأس (*Macracanthorynchus hirudinaceus*). هذا النوع من الديدان شائع في الخنزير، ولكنه أيضا يصيب الإنسان، فقد اكتشف بين فلاحى وادي الفولجا في جنوبي روسيا (١٧).

سابعاً: الديدان الخيطية أو الالاسطوانية (*Nematoda*).

الديدان الخيطية أو الالاسطوانية التي ينقلها الخنزير للإنسان متعددة الأنواع، ومتفاوتة الخطورة، لكنها جميعاً لا تخلو من إشكالات صحية تسببها للعائل. أما أهم هذه الديدان التي يرتبط نقلها إلى الإنسان بأكل لحوم الخنازير أو التعايش معها فهي على النحو التالي:

٤٤- الدودة الشعرية الحلزونية/ ترايكنيلاً (*Trichinella spiralis*). تعيش الديدان البالغة في أمعاء الإنسان والخنزير، وهي ديدان قصيرة يتراوح طولها بين ٢-٤ ملم. تتغفل الإناث المثقلة بالبيض بين الرغبات المعوية لتضع اليرقات هناك، فهي لا تضع بيضاً. تخترق اليرقات جدر الأمعاء إلى الدم وتطوف معه لتستقر في عضلات العائل، حيث تنمو إلى ١ ملم، ثم تلف على نفسها وتتحوصل. تظل اليرقات المكيسة داخل العضلات حية لمدة تصل إلى ٢٥ سنة في الإنسان، و ١١ سنة في الخنزير. وعندما يأكل إنسان لحم الخنزير المصاب، فإن الحويصلات تنحل في أمعائه، لتنتقل منها أجنة سرعان ما تتطور في أمعائه إلى الديدان البالغة. (١٧، ٢٣، ٩٤، ٩٧، ١٠٥)

والدودة الشعرية البالغة ليست مصدر الخطر الحقيقي على صحة الإنسان، بل اليرقات هي الخطر الداهم. فبعد التزاوج تموت الذكور، وتبقى الإناث الملقحة في جدران الأمعاء لتضع يرقاتها بعد أسبوع واحد. ولا تلبث هذه اليرقات وقتاً طويلاً قبل أن تخترق جدر الأمعاء، لتسير مع الدم إلى جميع أجزاء بدن الإنسان، حيث تستقر في عضلات الحجاب الحاجز والحنجرة واللسان والعين والقلب، محدثة الجنون أو الشلل أو العمى أو الإختناق أو الذبحة القلبية (١٧، ٢٣، ٩٤، ٩٧، ١٠٥، ١٠٨).

إن تناول لحوم تحتوي على ١٠ يرقات متحوصلة في كل غرام من اللحم، لا يسبب أعراضاً مرضية. لكن الأعراض تبدأ بالظهور إذا احتوى اللحم ١٠٠ يرقة متكيسة. وتصبح الأعراض شديدة وغالباً ما تؤدي إلى الوفاة إذا بلغ عدد اليرقات المتحوصلة ١٠٠٠ يرقة/غرام (١٠٦).

٤٥- ثعبان البطن الخريوي (*Ascaris suum*). تعيش الديدان البالغة في أمعاء الخريير، حيث تضع بيوضها، التي تخرج مع البراز إلى البيئة الخارجية. وإذا ما دخلت هذه البيوض جسم شخص ما (بطريق مخالطة الخنازير)، فإنها تنفقس وتخرج منها يرقات تخترق جدار الأمعاء، ثم تسير محمولة مع الدم حتى تصل الرئتين، فتثقب الأوعية الدموية وتموت داخل الرئتين، مسببة الالتهاب الرئوي الإسكاريسي الذي يعتبر من الأمراض القاتلة (١٠٩، ١٧).

٤٦- ثعبان البطن أو الإسكارس (*Ascaris lumbricoides*). تعتبر هذه الدودة أكبر الديدان الخيطية التي تصيب الإنسان، إذ يصل طول الأنثى فيها إلى ٤٠ سم، ومن هنا جاءت تسميتها "ثعبان البطن". وهي أكثر الطفيليات التي تصيب الإنسان قاطبة، إذ تقدر المنظمات الصحية الدولية عدد المصابين بها بما يزيد عن المليار وربع المليار نسمة. وتعيش الأنثى ملتصقة بواسطة الشفاة الثلاث بجدار الأمعاء. وتضع الأنثى الواحدة ٢٠٠ ألف بويضة كل يوم. تحدث الإصابة نتيجة لإبتلاع بويضات الإسكارس الناضجة مع الخضار النيئة المزروعة في التربة المخصبة بفضلات الحيوان، أو الأيدي الملوثة بفضلات الحيوانات المصابة. وبعد فقس البيوض، تبدأ اليرقات رحلة في جسم الإنسان لا يكاد يسلم منها عضو. وتتشابه أعراضها مع أعراض ثعبان البطن الخريوي، إلا أن اليرقات التي تثقب الرئتين لا تموت داخلهما، بل تتابع رحلتها حتى تعود مرة أخرى إلى الأمعاء، وتصبح دودة كاملة. ومن جهة أخرى، فبممكن للديدان البالغة أن تتواجد بكثرة في الأمعاء فتؤدي إلى انسدادها وموت المريض، أو أن تسبب إتهاب الزائدة الدودية، ونادراً ما تثقب الأمعاء فتسبب الريف (١١٠، ١٠٩، ١٧).

ثامناً: المفصليات (*Arthropoda*).

المفصليات التي تصيب الإنسان والخنزير متعددة الأنواع، ومتفاوتة الخطورة. وتشمل هذه المفصليات البعوض، البرغوث الشائع في الإنسان، أنواع من القمل، ذبابة تسي تسي الناقلة لطفيليات مرض النوم، أنواع من ذباب الجلد، وأنواع من الحلم. جميع هذه الطفيليات تتغذى على دم الإنسان والخنزير. ولا تكمن خطورة هذه المفصليات في التطفل على دم الإنسان والتغذية به، ولكن فيما تنقل إليه من أمراض فيروسية وأولية قاتلة ویرقات ديدان، كفيروس "نيبا"، وفيروس التهاب الدماغ الياباني، ومرض الملاريا، ومرض النوم الأفريقي، ومرض شاغاس، وغيرها من الطفيليات الضارة. ونحن نعتقد أن أعداد الطفيليات المنقولة من الخنزير إلى الإنسان بواسطة المفصليات، سيزداد كما ونوعاً مع مرور الوقت، وستغدو الخنازير مصدر خطر متنام على حياة الإنسان.

تاسعاً: أمراض جسمانية غير طفيلية.

يحتوي لحم الخنزير على أنواع عديدة من المركبات الكيميائية الضارة، التي لا تتناسب ولا تتسجم مع مركبات جسم الإنسان، وبالتالي فهي تسبب له أمراضاً وعلاً متنوعة، تزداد وطأها كلما تزايد استهلاك الشخص للحوم ومنتجات الخنزير.

تستخدم في الغرب جميع أجزاء الخنزير ولا تبقى منه أي فضلات. فمن الدم يصنع السجق الأسود وبعض أنواع البودنج، وتستخدم الأمعاء كغلاف للسجق. ويحوّل الدهن الزائد إلى شحم يستخدم في الطبخ، أو في صناعة الزيوت المزلقة، وزيوت التشحيم، وزيوت السفن، وصناعة الصابون وأدوات التجميل والمعاجين، والمضادات الحيوية، وأنواع الطعام والجلي، ومعاجين الأسنان. ويستخدم الشعر في المفروشات، وتحوّل العظام ونفايات الجلد إلى سماد، ويدبغ جلد الخنزير لصناعة الأحذية وغيرها، وتستخدم غدد الخنزير لاستخراج الهرمونات^(١١١).

ويعرف دهن الخنزير باسم لارد ويستخدم للطبخ، وصناعة الحلويات والشوكولاته، والجاتوه والآيس كريم. والأطعمة التي يدخل فيها الخنزير وشحمه واسعة جداً، بدءاً من الهامبورجر والسجق، إلى الأسماء غير الواضحة كالشورية والسلطة والمايونيز والمشروبات والدجاج^(١١١).

يستهلك الغربيون كميات هائلة من لحم ومنتجاته، فكل عام يستهلك الأمريكيون وحدهم قرابة ١٠٠ مليون خنزير^(٢٨) يبلغ مجمل وزنها ١٠ مليارات كيلوجراماً. فكان لا بدّ من أن تظهر فيهم أمراض عديدة. وسنعرض في هذه العجالة إلى بعض هذه الأمراض.

١- السرطانات. يحتوي جسم الخنزير كميات كبيرة هرمون النمو (Growth Hormone) والهرمونات المنمية للغدد التناسلية (Gonadotrophins). وهذا يفسر سرعة نموه الهائلة وسرعة بلوغه العجيبة. فوزن الخنوص يتضاعف أكثر من ٥٠ مرة خلال فترة قياسية تبلغ ٦ أشهر!!! وتصبح الأنثى قادرة على الحمل بعد ٤ أشهر فقط من ولادتها!!! لذا تزداد الإصابة بالسرطان لدى آكلي لحم الخنزير. فقد بينت الدراسات وجود علاقة قوية بين استهلاك لحم الخنزير وسرطان الأمعاء الغليظة والمستقيم، وسرطان البروستاتا، وسرطان الثدي، وسرطان البنكرياس، وسرطان عنق الرحم وبطانة الرحم، وسرطان المرارة، وسرطان الكبد^(١١٢، ١١١، ٢٣). لذا فإنني أثبتّه في هذا المقام إلى عدم اعتبار نسب الأمراض السرطانية في الدول الغربية، كمؤشر لنا في الدول الإسلامية التي تحرّم شريعته أي تعامل مع هذا الحيوان المليء بالمرض، فليس هناك وجه للمقارنة.

٢- السمنة وأمراض الشرايين والقلب. يوجد الدهن متداخلاً مع خلايا لحم الخنزير بكميات كبيرة، خلافاً للحم البقر والغنم والدجاج، والتي يكون فيها الدهن على شكل نسيج دهني شبه مفصول عن النسيج العضلي. وبالإضافة إلى ذلك فإن دهون الخنزير ترتبط بالمواد المخاطية النشوية، مما يجعل إزالتها من الجسم أمراً عسيراً^(١١١،٩٤،٢٣). ذلك لأن الدهون الغليسيريديّة الثلاثية للحيوانات آكلة العشب، تحتوي على حمض دهني غير مشبع على ذرة الجلسرول الثانية، وإنزيمات الإنسان الدهنية قادرة على هضمها بسهولة. أما الدهون الغليسيريديّة الثلاثية في الخنزير وفي آكلة اللحوم، فتحتوي على حمض دهني مشبع على ذرة الجلسرول الثانية، فلا تقدر إنزيمات الإنسان الدهنية على هضمها، وبذلك تترسب في جسم آكليها من البشر، محدثة أضراراً بليغة^(١١٣). ويسبب دهن الخنزير مجموعة من الأمراض نحو تصلب الشرايين، الذبحة الصدرية، جلطات القلب، ضغط الدم، سكري البول، وحصوات المرارة، وما يتبع ذلك من تعقيدات مرضية خطيرة^(٢٣).

٣- التهاب المفاصل. يحتوي لحم الخنزير على كميات كبيرة من حامض البولييك، ذلك لأن جسمه لا يتخلص إلا من قدر يسير من حامض البولييك، لا يتعدى ٣%، بينما يتخلص الإنسان من ٩٠% من نفس الحامض. ونظراً لهذه النسبة العالية من حامض البولييك، فإن آكلي لحم الخنزير يشكون عادة من آلام روماتيزمية، والتهابات المفاصل، ومشاكل في الكلى^(١١١،٩٤).

٤- الأمراض التحسسية. يحتوي لحم الخنزير على كميات عالية من مركبات الهستامين والإميدازول (**histamine and imidazole**)، تحدث عند آكليها أمراضاً تحسسية جلدية، مثل الأكزيما والشرى والتهاب الجلد العصبي والحكة وغيرها. وإذا امتنع آكلوا لحم الخنزير عن أكله بشكل مطلق، فإن هذه الأمراض التحسسية تتلاشى^(١١٥،١١٤،٢٣).

٥- أمراض أوتار العضلات والغضاريف. يحتوي لحم الخنزير على مواد مخاطية نشوية فيها مادة الكبريت، التي تترسب في أوتار العضلات والنسيج الغضروفي، مسببة رخاوة تلك الأنسجة ومحدثة تغيرات باثولوجية في المفاصل والعمود الفقري^(١١١). فالكبريت الموجود بكثرة في لحم الخنزير، يترسب في أوتار وأربطة العضلات وفي الغضاريف، فيحدث تغيراً في طبيعتها الشديدة الجامدة (المناسبة لوظيفتها)، لتصبح رخوة ومماثلة لمواد الخنزير المخاطية النشوية. ومن نتائج هذا التبدل أو الإحلال النسيجي، تآكل غضاريف الإنسان، وما يصحب ذلك من آلام مبرحة^(١١٥).

عاشراً: أمراض اجتماعية وخلقية.

يقول الإمام الدميري رحمه الله: إن الخنزير شرس الطباع شديد الجماع شبق، تكتنف حياته الجنسية الفوضى ولا يخصص لنفسه أنثى معينة^(٢٣). ويقول ابن خلدون رحمه الله: أكلت الأعراب لحم الإبل فآكسبوا الغلظة، وأكل الأتراك لحم الفرس فآكسبوا الشراسة، وأكل الإفرنج لحم الخنزير فآكسبوا الديانة (عدم الغيرة على العرض). يقول الفخر الرازي رحمه الله: قال أهل العلم الغذاء يصير جزءاً من جوهر المغتذي فلا بد أن يحصل له أخلاق وصفات من جنس ما كان حاصلاً في الغذاء، والخنزير مطبوع على حرص عظيم ورغبة شديدة في المشتبهات فحرم أكله لئلا يتكيف بتلك الكيفية^(٢٣).

هذه بخص أقوال علمائنا، تصف العلاقة الوثيقة بين أكل لحم الخنزير والانحلال الخلقي في المجتمعات. فمن الأمور المؤكدة، أن الإنسان يتأثر بما يأكل، وقد وجد علماء التغذية أن جسم الإنسان وطباعه هما نتاج ما يأكل، فقالوا: "Yor are what you eat"^(١٣). والناظر إلى مستوى الانحلال الخلقي في المجتمعات الغربية آكلة الخنزير، لا يحتاج إلى دليل ليدعم به هذه الحقيقة، فسلكياهم المشينة هي أكبر برهان على صحة ذلك.

خاتمة.

وبعد، فما بين أيدينا معجزة تشريعية جليلة، من معجزات كتاب الله المستمرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فلم يحرم الإسلام شيئاً من المأكولات والمشروبات إلا لضرر ينجم عنها، أو خبث محقق فيها، وهذا ما أكدته القرآن الكريم. فما حرم الشارع الحكيم إلا خبائث لا يليق بالعاقل أن يتناولها، وها هي الأبحاث الطبية الحديثة تؤكد على الضرر البالغ لكل من يأكل لحم الخنزير. وإنه لمن عظيم الإعجاز الإلهي أن تتوافق موازين الشرع، وموازن الطب في تحريم هذه الخبائث، فهل من مذكور.

المراجع

- ١- سورة المائدة : الآية ٤ .
- ٢- سورة المؤمنون : الآية ٢ .
- ٣- سورة البقرة : الآية ١٦٨ .
- ٤- سورة المائدة : الآية ١٠٠ .
- ٥- سورة البقرة : الآية ٢٦٨ .
- ٦- سورة الأعراف : الآية ١٥٧ .
- ٧- سورة البقرة : الآية ١٧٣ .
- ٨- سورة المائدة : الآية ٣ .
- ٩- سورة الأنعام : الآية ١٤٥ .
- ١٠- سورة النحل : الآية ١١٥ .
- ١١- سورة المائدة : الآية ٦٠ .
- ١٢- القاموس المحيط . محمد بن يعقوب الفيروزآبادي . مؤسسة الرسالة-بيروت . الطبعة الثانية، ١٩٨٧ . ص: ٧٠٦ .
- ١٣- تفسير البيضاوي . المجلد الأول .
- ١٤- <http://www.islam-online.net/iol-arabic/info/fatwa-27/fatwa-2.asp>
- ١٥- في ظلال القرآن . سيد قطب . الناشر دار الشروق-بيروت . الطبعة الثالثة عشر ١٩٨٧ . المجلد الثاني، ص ٨٤٠ .
- ١٦- تفسير القرآن العظيم . ابن كثير . الناشر دار المعرفة-بيروت . الطبعة السادسة ١٩٨٣ . المجلد الثاني، ص ٢٦٤ .
- ١٧- <http://www.islamset.com/arabic/ahip/immunity/ABDALHAFZ.html>

- ١٨- الكشف. الفخر الرازي. المجلد الأول.
- ١٩- الجامع لأحكام القرآن. للإمام القرطبي. المجلد الأول.
- ٢٠- المحلى بالآثار والحكم. ابن حزم الظاهري.
- ٢١- رواه مسلم (٤١٩٤) وأبو داود (٤٢٨٨) وابن ماجه (٣٧٥٣) وأحمد (٢١٩٠١، ٢١٩٤٧، ٢١٩٧٨، ٢٢٠٥٧).
- ٢٢- رواه البخاري (٢٠٨٢) ومسلم (٢٩٦٠) والترمذي (١٢١٨) والنسائي (٤١٨٣، ٤٥٩٠) وأبو داود (٣٠٢٤) وابن ماجه (٢١٥٨) وأحمد (٦٧٠٢، ١٣٩٤٨، ١٣٩٧١).
- ٢٣- <http://www.science4islam.com/html/3-1-04a.html>
- ٢٤- The Family Encyclopedia of Animal Life. The Hamlyn Publishing Com. 1982, pp.100
- ٢٥- <http://www.fao.org/docrep/t0690e/t0690e06.htm>
- ٢٦- <http://www.alsehha.net/fiqh/0090.htm>
- ٢٧- <http://www.ianr.unl.edu/PUBS/swine/g926.htm>
- ٢٨- <http://www.factoryfarming.com/pork.htm>
- ٢٩- <http://www.science4islam.com/html/3-1-01a.html>
- ٣٠- Biology. Neil A. Campbell, Jane B. Reece, and Lawrence G. Mitchell. Addisons-Wisely Publishing. Fifth edition, 1999, pp. 329.
- ٣١- <http://webapp.cdc.gov/sasweb/ncipc/leadcaus.html>
- ٣٢- <http://www-micro.msb.le.ac.uk/3035/prions.html>
- ٣٣- <http://humbolt1.com/~bri/madcow.htm>
- ٣٤- <http://www.curedisease.com/article7.html>

- http://www.iht.com/IHT/BJ/00/bj083100a.html -٣٥
- http://www.organicconsumers.org/madcow/prusiner52303.cfm -٣٦
- http://www.oneworld.org/news/reports/apr96_bse2.html -٣٧
- Michael Hornsby. Times of London: 11/13/98. -٣٨
- عبد الحافظ حلمي محمد. الزحار البليتيدي ومرض الديدان المثانية ومرض التريكيثا ثلاثة تهديدات محتملة للبلاد الإسلامية دراسة وبائية ورسالة تحذير
(http://www.islamset.com/arabic/ahip/immunity/ABDALHAFZ.html) -٣٩
- http://www.science4islam.com/html/3-1-04a.html -٤٠
- http://www.mrmcmed.org/pigs.html -٤١
- Nichol S.T., Arikawa J., and Kawaoka Y. (2000). Emerging Viral Diseases. *Natl. Acad. Sci. USA*, 97 (23): 12411-12412. -٤٢
- http://www.orphandoctor.com/medical/4_2_1_4.html -٤٣
- http://www.crt-online.org/042299.html -٤٤
- http://www.mrmcmed.org/pigs.html -٤٥
- Chua, K. B. , Goh, K. J. , Wong, K. T. , Kamarulzaman, A. , Tan, P. S. W. , Ksiazek, T. G. ,
Zaki, S. R, Paul, G. , Lam, S. K. & Tan, C. T. (1999) *Lancet* 354, 1257-1259. -٤٦
- Centers for Disease Control and Prevention. (1999) *Morbidity and Mortality Weekly Report*, 48, 335-337 -٤٧
- http://www.doh.gov.uk/hendra_nipah/ -٤٨
- http://news.bbc.co.uk/1/hi/sci/tech/979523.stm -٤٩
- http://www.xenodiaries.org/ec001122.htm -٥٠
- http://bmj.com/cgi/eletters/319/7220/1311 -٥١

- <http://aidsgate.blogspot.com/> -٥٢
- http://www.news24.com/News24/World/Sars/0,,2-10-1488_1368983,00.html -٥٣
- <http://www.rense.com/general38/voud.htm> -٥٤
- <http://www.fao.org/ag/ar/magazine/0206sp1.htm> -٥٥
- <http://www.islamset.com/hip/pork/index.html> -٥٦
- <http://www.islamonline.net/completesearch/arabic/mDetails.asp?hMagazineID=23592> -٥٧
- <http://www.mhcs.health.nsw.gov.au/health-public-affairs/mhcs/publications/4430.html> -٥٨
- <http://www.defra.gov.uk/animalh/diseases/notifiable/disease/swinevesicular.htm> -٥٩
- Loxam, J.G., and hedger, R.S. 1983. Swine vesicular disease: clinical signs, diagnosis, epidemiology and control. Rev. Sci. Tech. Off. Int. Epiz., 2(1) :11-24. -٦٠
- <http://www.multiplex-eu.org/svdiv.html> -٦١
- http://www.vet.uga.edu/vpp/gray_book/FAD/svd.htm -٦٢
- http://www.defra.gov.uk/animalh/diseases/notifiable/disease/vesicular_stomatitis.htm -٦٣
- http://www.oie.int/eng/maladies/fiches/A_A020.HTM -٦٤
- <http://www.thepigsite.com/DiseaseInfo/Default.asp?Display=35> -٦٥
- <http://www.webziner.com/islam/whypork.htm> -٦٦
- <http://www.ianr.unl.edu/PUBS/swine/g926.htm> -٦٧
- Threlfall EJ, Hampton MD, Schofield SL, Ward LR, Frost JA, Rowe B. Epidemiological resistant *Salmonella typhimurium* DT 104 by plasmid -application of differentiating multi profile. Commun Dis Rep CDR Rev 1996;6:R155-9. -٦٨

- http://www.findarticles.com/cf_dls/g2601/0008/2601000819/p1/article.jhtml -٦٩
- Boqvist, S., Chau, B.L., Gunnarsson, A., Olsson Engvall, E., Vågsholm, I. & Magnusson, U. -٧٠
2002. Animal- and herd-level risk factors for leptospiral seropositivity among sows in the
Mekong delta, Vietnam. *Preventive Veterinary Medicine* 53: 233-245.
- Schuchat A, Swaminathan B, Broome CV. Epidemiology of human listeriosis. *Clin Microbiol* -٧١
Rev 1991;4:169-83.
- المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي: أبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الرابع عن الطب الإسلامي ، -٧٢
١٩٨٦م ، ص ٧٣٢-٧٣٨.
- http://vm.cfsan.fda.gov/~mow/chap6.html -٧٣
- Berkelman RL, Bryan RT, Osterholm MT, LeDuc JW, Hughes JM. Infectious disease -٧٤
surveillance: a crumbling foundation. *Science* 1994;264:368-70.
- Riley LW, Remis RS, Helgerson SD, McGee HB, Wells JB, Davis BR, et al. Hemorrhagic -٧٥
colitis associated with a rare *Escherichia coli* serotype. *N Engl J Med* 1983;308:681-5.
- Boyce TG, Swerdlow DL, Griffin PM. *Escherichia coli* O157:H7 and the hemolytic-uremic -٧٦
syndrome. *N Engl J Med* 1995;333:364-8.
- Lee LA, Gerber AR, Lownsay DR, Smith JD, Carter GP, Puhr ND, et al. *Yersinia* -٧٧
enterocolitica O:3 infections in infants and children associated with household preparation of
chitterlings. *N Engl J Med* 1990;322:984-7.
- http://vm.cfsan.fda.gov/~mow/chap5.html -٧٨
- Amoako KK, Goto Y, Misawa N et al (1997). Interactions between *Fusobacterium* -٧٩
necrophorum hemolysin, erythrocytes and erythrocyte membranes. *FEMS Microbiolog Let*
150: 101-106.

- Bader-Meunier B, Pinto G, Tardieu M *et al* (1994). Mastoiditis, meningitis and venous sinus thrombosis caused by *Fusobacterium necrophorum*. *European J Ped* 153: 339-341. -٨٠
- Hagelskjaer L, Pedersen G (1993). *Fusobacterium necrophorum* septicemia complicated by liver abscess. A case report. *Acta Pathol Microbiol et Immunol Scand* 101: 904-906. -٨١
- Ieven M, Vael K, DeMayer M *et al* (1993). Three cases of *Fusobacterium necrophorum* septicemia. *European J Clin Microbiol Infect Dis* 1: 705-706. -٨٢
- sub-Saharan Africa. *Bull World Health* Enwonwu CO (1995). Noma: a neglected scourge of children in *Organ* 4: 73, 541-545. -٨٣
- meningitis and venous sinus thrombosis Bader-Meunier B, Pinto G, Tardieu M *et al* (1994). Mastoiditis, *necrophorum*. *European J Ped* 153: 339-341. caused by *Fusobacterium* -٨٤
- Falkler WA, Jr, Enwonwu CO, and Idigbe EO (1999). Microbiological understandings and mysteries of noma (cancrum oris). *Oral Diseases* 5, 150-155. -٨٥
- <http://coproweb.free.fr/pagbac/introbac/erysibac> -٨٦
- <http://www.brisbio.ac.uk/ROADS/subject-listing/erysipelothrix.html> -٨٧
- <http://www-micro.msb.le.ac.uk/video/Mtuberculosis.html> -٨٨
- Camus J.C., Pryor M.J., Medigue C., Cole S.T. (2002) Re-annotation of the genome sequence of *Mycobacterium tuberculosis* H37Rv. *Microbiology* 148:2967-2973. -٨٩
- Philipp WJ, Poulet S, Eiglmeier K, Pascopella L, Balasubramanian V, Heym B, Bergh S, Bloom BR, Jacobs WR Jr, and Cole ST. An integrated map of the genome of the tubercle bacillus, *Mycobacterium tuberculosis* H37Rv, and comparison with *Mycobacterium leprae*. *Proc. Natl. Acad. Sci. USA* 93:3132-3137 (1996) -٩٠

- <http://www.medicinenet.com/Melioidosis/article.htm> -٩١
- <http://www.pathfinder.com/asiaweek/98/0320/feat4.html> -٩٢
- [http://www.findarticles.com/cf_0/g2601/0008/2601000888/p2/article.jhtml?term=melioidosis+eomyelitis+abscesses ost](http://www.findarticles.com/cf_0/g2601/0008/2601000888/p2/article.jhtml?term=melioidosis+eomyelitis+abscesses+ost) -٩٣
- http://www.geocities.com/TIBNABAWI/new_page_12.htm -٩٤
- <http://www.drmhijazy.com/arabic/chapters/chapter12.htm> -٩٥
- http://www.arabinow.com/sn/health/conditions/inf_brain.htm -٩٦
- Bier JW, and Jackson GJ (2002). Parasites and the Food Supply. Orlandi PA, Chu DT, *FOODTECHNOLOGY* 56 (4): 72-81. -٩٧
- <http://www.biosci.ohio-state.edu/~parasite/schistosoma.html> -٩٨
- <http://www.path.cam.ac.uk/~schisto/OtherFlukes/Paragonimus.html> -٩٩
- <http://www.niaid.nih.gov/ictdr/projects/gilman.htm> ١٠٠
-
- <http://www.almodarresi.com/23moh22/alam/d70zxbwc.htm> ١٠١
-
- <http://www.biosci.ohio-state.edu/~parasite/a-z.html> ١٠٢
-
- <http://www.science4islam.com/html/3-1-04a.html> ١٠٣
-
- <http://www.biosci.ohio-state.edu/~parasite/diphyllobothrium.html> ١٠٤
-

- Stehr-Green JK, Schantz PM (1986). Trichinosis in Southeast Asian refugees in the United States. *Am J Public Health* 76:1238-9. -١٠٥
- http://makatoxicology.tripod.com/file_15.htm -١٠٦
- Collier's encyclopedia 1989 edition, Vol 22, page 468. -١٠٧
- Encyclopedia Britannica (1990). 15th edition, Vol 11, page 920. -١٠٨
- <http://www.biosci.ohio-state.edu/~parasite/enterobius.html> -١٠٩
- <http://www.biosci.ohio-state.edu/~parasite/ascaris.html> -١١٠
- (<http://www.islamset.com/arabic/ahip/sefean.html>) -١١١
- <http://members.aol.com/silence004/pork.htm> -١١٢
- <http://www.american.edu/projects/mandala/TED/saudpork.htm> -١١٣
- <http://www.unn.ac.uk/societies/islamic/misc/pork.htm> -١١٤
- <http://www.islam-usa.com/im19.html> -١١٥

من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم في عالم الأنعام

الشيخ / عبدالكريم بن حسن العثمان

تمهيد :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له والصلاة والسلام على النبي الأمي سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فهذا تطواف فكر متأمل في بعض جوانب هذا الوجود الواسع المليء ، نتجلى فيه عبراً ، ونأخذ منه عضات ودروساً وجه إليها كتاب ربنا جل ثناؤه أنظار من يتلو آياته الكريمة في القرآن ، ويطالع صفحات هذا الوجود الناطق بوحداية موجدته ومبدعه سبحانه وتبارك اسمه .

وهذا الجانب هو طائفة من أفراد المملكة الحيوانية ذات الشعب الواسعة ، والصفوف المتنوعة ، والرتب المتميزة ، بخصائصها وفصائلها وأجناسها ، وأعني بها عالم (الأنعام) ، الذي أفردت سورة في القرآن الحكيم لذكر كثير من أحكامها وأصنافها ، وهي " سورة الأنعام " ، وقد وردت إشارات موجزة ، وتفصيلات موسعة ، في سور أخرى لهذا العالم توميء إلى بعض نعم الخالق جل ثناؤه في هذا الجانب الضخم من جوانب الوجود الحي ، وسوف أقصر من هذه النصوص على بعضها .

١- قوله تعالى : ﴿و الأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالفيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤف رحيم﴾ سورة النحل الآيات (٥ — ٧)

٢- ﴿والله جعله لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾ سورة النحل الآية (٨٠) ، وقال أيضاً : ﴿ نسقيكم ماء في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون﴾ سورة المؤمنون الآية (٢١) .

٣- وقال سبحانه أيضاً : ﴿ الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجته في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ سورة غافر ، الآيات (٧٩ — ٨٠) .

فهذه المنافع العديدة التي أشارت إليها الآيات الكريمة من إنتاج اللحوم والألبان الغذائية ، ومن استخدامها في العمل ، وفي العالم الصناعي كصنيع الجلود والأصواف والأوبار والأشعار وغير ذلك مما جعلها علم الإنتاج الحيواني هدفاً جوهرياً له ، يعمل علماءه جاهدين لتحقيقها وهي تطويع الأنعام وخاصة الأبقار والأغنام لقوانين الوراثة التي توصلوا إليها على أسس علمية ، بحيث تلي هذه الحيوانات رغباتهم في تحقيق إنتاجهم بمستويات عالية كما ونوعاً .

وسوف يكون التركيز في هذا البحث على صفة إدرار اللبن في هذه الحيوانات إن شاء الله ، وذلك لأن نصوص الكتاب العزيز قد أكدت أن عبراً هامة نستخلصها من هذه الصفة — أعني صفة إدرار اللبن — كما تضمنت بعض تلك الآيات نقاطاً للإعجاز العلمي في كتاب ربنا الخالق يفهم من صياغه ، قوله تعالى : ﴿ وأن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴾ سورة النحل ، الآية (٦٦) .

وإنما كان التركيز على هذا الجانب من عطاءات آي الذكر الحكيم التي تحدثت عن الأنعام ، وهو جانب الإعجاز العلمي فيها من أجل أن هذا الإعجاز بذاته والتقصي لآفاقه ، وتحقيق مناطه ، وما منه هيئتنا المباركة بسبيل ، هو خير سفير لنا نحن المسلمين في عالم اليوم ، ذلك العالم الذي لم يعد يؤمن في الأغلب إلا باخسوس الظاهر ، والإعجاز العلمي يجعل الناس يلمسون لمساً حسيّاً تلك الحقائق ويتأملونها ، مما يفضي بهم إلى اليقين والإيمان .

ولقد صار من المسلمات المعاصرة أن الإعجاز العلمي قد قضت وقائمه وحقائقه على فكرة فصل الدين عن الحياة في أحص ما يزعمه أرباب هذه الفكرة ألا وهو العلم ، ولقد كان لهذا الإعجاز خاصة النصيب الأوفر في إيصال دعوة الإسلام إلى غير المسلمين ، وخاصة أن من يقوم بالبحث والتنقيب عن حقائق العلوم هم خواص الناس هؤلاء ، وعلمائهم ومقدمهم ، وقد بادر كثير من هؤلاء الراسخين في العلوم إلى إعلان دهشتهم في مؤتمرات الإعجاز العلمي العالمية في القرآن والسنة ، وليس يخفى على ناظر أنه ليس هنالك من شيء عندنا نحن المسلمين يصلح أن نقدمه إلى الغرب والشرق من علوم العصر الحديث وتقنياته المتطورة ، وليس عندنا أيضاً من شيء يجذبهم إلينا سوى هذا الإعجاز الرائع الذي يعظم أثره ويشع ضياؤه يوماً بعد يوم ، ويشتد عوده بحثاً بعد بحث ، ولعل هذه الحقيقة التي صارت اليوم من بدهيات العمل الدعوي الإسلامي هي ما يجعلنا نتمسك أكثر فأكثر بهذه الوسيلة المهمة في الدعوة إلى الله .

خطة البحث

١- مقدمة في منهج القرآن الكريم في الاستدلال على الله سبحانه وتعالى ، وعلى جملة من حقائق العقيدة الخفية وهو التفكير في آيات الله المبثوثة في خلقه .

٢- الفصل الأول : ويتعلق بتعريف هذه الطائفة من الحيوانات الفقرية ، وذلك من الناحية اللغوية والقرآنية ومن ناحية التصنيف العلمي لها في عالم الحيوان ، ثم بدراسة البنية التشريحية لبطن هذه الأنعام ، والتعرف على الأجواف التي يتكون منها بطن الحيوان الحلوب من المجترات ، وكذلك دراسة البنية التشريحية لجهاز الإدرار — أعني الضروع — وذلك كمقدمة لفهم قوله تعالى : ﴿ من بين فرث ودم ﴾ ، حيث الفرث هو محتوى كرش الحيوان المتوضع في بطنه ، والدم هو تيار الدماء المتدفق عبر ضروعها التي تستخلص منه عناصر اللبن الخالصة من كلا الخطين محتوي الكرش ومحتوي عروق الدم ، مع أشكال إيضاحية بياناها الكاملة .

الفصل الثاني : ويتصل بالمعاني اللغوية والفيزيولوجية لقوله سبحانه : ﴿ من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴾ ، ودراسة هذه الصفات الدقيقة لألبان المجترات والتي تميزت بصفتين أساسيتين نفهما من عبارتي (خالصا ، وسائغا للشاربين) ، وذلك بالاستعراض أقوال أهل العلم من المفسرين الأوائل ، وكذا باستعراض التركيب الكيميائي للحليب ، وبيان مكوناته الأساسية وأهميته الغذائية وأجهزة تصنيعه .

الفصل الثالث : وهو مختص بالنقاط الإعجازية العلمية في هذا الجانب مما لم يكون معلوماً للناس من قبل نزول هذا القرآن المعجز ، مثل الإعجاز الظاهر في الوصف التشريحي لمعدة الحيوان المجتر وأما تتكون من عدة بطون ، وكذلك توصيف عمليات التصفية من بين الفرث والدم مع التركيز على ظاهرة الاصطفاء الخلوي في غدة الثدي ، وأخيراً مفهوم الإساعة التي أشارت إليها الآية في نهايتها في قوله سبحانه : ﴿ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴾ .

الخاتمة : وتشمل موجزاً لفصول البحث الثلاثة وفيها يسلط الضوء على مناط الإعجاز العلمي بالتطابق بين الحقائق العلمية المستيقنة ونصوص الكتاب الكريم قطعية الدلالة ، ثم التنويه بالحواشي ومراجع البحث ومصادره والله الموفق .

مقدمة البحث

الحمد لله رب العالمين الذي بنعمته تتم الصالحات ، وجهنا إلى التفكير في جنبات الأرض وملكوت السماوات ، لنذكر بعض أسرار لطفه في ما أبدع من مخلوقات ، فقال جل ثناؤه : ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير ﴾ سورة العنكبوت ، الآية (٢٠) ، بل جعل التفكير في الكون وخلق أحيائه وأشياءه سيما خاصة بعباده الموفقين من أولي الألباب الذين وصفهم فقال : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب * الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقينا عذاب النار ﴾ سورة آل عمران ، الآيات (١٩١ — ١٩٢) ، والصلاة والسلام الاتقان الاكملان على نبينا محمد الذي بدأ طريق السير إلى الله في غار حراء بالتفكر في ملكوت السموات والأرض وعلى آله وصحبه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين . وبعد .

فلقد تأكد أن منهج القرآن العظيم في الاستدلال على وحدانية الله وعظميته هي آياته الكونية لمن يتأملها ، فقد عاب كتاب الله على بعض قاصري الفكر حين طلبوا خوارق حسية من نبينا محمد ﷺ يزعمون أنهم بما وحدها يؤمنون ، وتعتوا في هذا الطلب ، فصرّهم عن هذا الاقتراح إلى طريق آخر أدوم وأقوم ، وهو التأمل في جوانب هذا الوجود بأحيائه وأشياءه ، حيث قال جل ثناؤه : ﴿ وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون * وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾ سورة الأنعام ، الآيات (٣٧ — ٣٨) .

فالتطرق إلى الله سبحانه وتعالى هو آياته ليس إلا ، وربما يعجب الناظر في كتاب الله لآيات من سورة الأنعام ترد بشدة على هؤلاء القاصرين الذين تعنتوا بطلب الخوارق والآيات الحسية وجعلوها شرطاً لدخولهم في الدين ، ويبدوا أن نبي الله ﷺ قد مال إلى إجابتهم في بعض تلك الاقتراحات ، لعل فترة إعراضهم وخصوصاً أنهم تكون أقصر فكان جواب القرآن عجباً حيث قال له ربه جل ثناؤه : ﴿ وإن كان كبير عليك إعراضه فإن استطعت أن تبغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ﴾ سورة الأنعام ، الآية (٣٥) ، الله أكبر أنه لأمر عظيم وهول كبير يحمله هذا النص الإلهي موجهاً إلى نبيه المعصوم ورسوله الخاتم ﷺ وهو من أولي العزم من المرسلين وقد لاقى من عنت قومه ما لاقى صابراً محتسباً ، لم يدع عليهم دعوة نوح عليه الصلاة والسلام بالدمار ، وقد لقي منهم من الأذى ما يذهب بحلم الحليم حيث تضمن هذا النص ما مفهومه : تلك سنتنا يا محمد في من كان قبلك من المرسلين ، فإن

كان كبر عليك إعراضهم واشتد تكذيبهم لك ، وكنت ترغب في إتيانهم بما يقترحونه ، إذن فإن استطعت فابتغ لك نفقاً في الأرض أو اتخذ سلماً في السماء ، فأقم بخارقة حسية مما يقترحون بجهلهم ، أن هداية هؤلاء وكذلك جميع البشر لا تتوقف على رؤية الخوارق الحسية ، فليس الذي ينقصهم هو الآية التي تدلهم على الحق فيما تقول ، إنما الحجاب على قلوبهم بإعراضهم عن موحيات الهدى — وما أكثرها في جنبات هذا الكون العريض وساحاته الفسيحة — لو كانوا يتأملون .

وهكذا فطريق الإيمان الموصل إلى الله عموماً هو تدبر آياته في كتابه من جهة ، واستقراء آيات أكوانه المبتوثة في كل موقع ، واستنطاق الفطرة وشهادة العقل هذا كله سوف ينتهي بأربابه لا إلى الإيمان وحده فحسب ، بل إلى اليقين والطمئنينه إلى ربانية هذا الدين وأحقيته في قيادة الحياة والأحياء والسير بالإنسان إلى شاطئ النجاة والسعادة والاستقرار .

لقد كان هؤلاء الجهلة — وبعبير القرآن الكريم أكثرهم لا يعلمون — يطلبون آيات خارقة مثل الخوارق المادية التي صاحبت الرسالات السابقة كناقاة صالح عليه السلام وعصا موسى ، وتطيب عيسى بإبرائه الأكمة والأبرص ونحو ذلك ، ولا يقنعون بأية القرآن الباقية وهدية الخالد كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين * أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم أن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ سورة العنكبوت ، الآيتان (٥٠ — ٥١)

إن أي الذكر الحكيم هي الآيات الباقية التي تخاطب الإدراك البشري الراشد فتعلن عن الرشد الإنساني ، وتحترم هذا الرشد وتخاطبه الخطاب الراقى ، والتي لا تنتهي بانتهاء الجيل الذي يرى الخارقة بل تظل باقية تواجه الفكر البشري بإعجازها المتنوع إلى يوم القيامة ، كما قال الشاعر البوصري يرحمه الله يمتدح نبينا محمداً ﷺ بميزات معجزته القرآنية :

دامت لدينا ففاقت كل معجزة من النبيين إذ جاءت ولم تدم

الفصل الأول

ويتعلق بدراسة تعريفية لهذه الأحياء ، من الناحية اللغوية ومن الناحية الاصطلاحية الواردة في القرآن الكريم ، ثم دراسة البنية التشريحية لمعدة الحيوان المجتر وذلك في مطلبين اثنين :

المطلب الأول : تعريف الأنعام وذلك من ناحية اللغة فقد أورد صاحب القاموس المحيط معنى هذا الاصطلاح فقال : " والنعم ، وقد تسكن عينه الإبل والشاء ، أو خاص بالإبل ، ج أنعام ، جج أنا عيم " .
ومن ناحية الاصطلاح القرآني فقد ورد ذكر الأنعام في سور عدة منها الورود المجمل في سورة الزمر حيث قال جل ثناؤه ﴿ خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ سورة الزمر ، الآية (٦) ، ثم ورد تفصيل هذه الأزواج الثمانية من الأنعام في سياق مطول من سورة الأنعام حيث قال جل ثناؤه :

﴿ ومن الأنعام حمولة وفرشاً كلوا من رزق ربكم ولا تبغوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ﴾ سورة الأنعام ، الآيتان (١٤٢ — ١٤٣) ، ثم قال بعد ذلك : ﴿ ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين ﴾ سورة الأنعام ، الآية (١٤٤) ، وهكذا يتوضح أن الذي نذندن حوله في هذا البحث من الحيوانات هو الأنعام الحلوب المحددة في سورة الأنعام حصراً . وهي الضأن والمعز والإبل والبقر .

وقد ورد في القرآن العظيم ذكر طرف من منافعها والتي جعلها مادة لشكره جل ثناؤه وذلك في سياق الأمر بأداء نسك الحج في قوله تباركت أسماؤه : ﴿ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق * ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ سورة الحج ، الآيتان (٢٧ — ٢٨)

ومن الناحية التصنيفية العلمية : تنتسب هذه الأحياء — أعني الأنعام — إلى شعبة الفقريات من المملكات الحيوانية ، والتي تضم صفوفاً خمسة من الأحياء الفقرية أو الحبلية ، هي صف الأسماك برتبته الغضروفية والعظمية ، والبرمائيات والزواحف والطيور ، وصف الثدييات التي تنتمي إليها هذه الأنعام التي تتميز بأفها حلوب ، أو ما يعرف باسم الحيوانات اللبونة بمعنى أنها تنتج اللبن بأجهزة خاصة في أجسام إنائها البالغة تعرف بالأنداء أو الصروع ، وقد أناط بها الخالق الأعظم جل ثناؤه مهمة كبيرة جداً بل ومعجزة بأن واحد ألا وهي (تصنيع اللبن) ذلك الغذاء الكامل لصغار هذه المجموعة من الأحياء حيث تنمو الأجسام الضعيفة لصغارها على اللبن ويزيد إنتاج الأمهات عن حاجات الصغار ، فتقدم فضول الإنتاج إلى الإنسان ، وتستمر في هذا التقديم ما شاء ذلك لها الخالق الحكيم ، نعمة سابعة على الإنسان لينعم به لبناً خالصاً مغذياً ينتفع به صغار بني الإنسان وكبارهم على السواء فسبحان الذي أسبغ علينا نعمة ظاهرة وباطنة .

لكن الحيوانات التي يهمنها أمرها من ناحية الإعجاز العلمي هي تلك التي عنتها آيتان كريمتان من كتاب ربنا جل ذكره آية في "سورة المؤمنون" رقم (٢١) وآية "سورة النحل" رقم (٦٦) وقد وردتا سابقاً ، ومناط العبرة التي نستخلصها هنا من هذه الأحياء اللبونة أنها تتميز بصفتين التينين أولاهما أنها مأكولة اللحم ، وهي ما أشار إليها السياق في "سورة المؤمنون" في قوله : ومنها تأكلون والأخرى أن ألبانها يستسيفها الشاربون بعد خلوصها من كل شوائب الجهاز الهضمي وجهاز الدوران ودمائه ويخرج بالقيد الأول الثدييات غير مأكولة اللحم ، من مثل الحيوانات المفترسة كالأسود والنمور والفهود الخ وكذا أمثال الكلييات والهرريات والخنازير والبغال والحمير الخ فهي وإن كانت لبونة غير أنها لا تدخل ضمن مفهوم مصطلح (الأنعام) أو النعم القرآني . كما يخرج بالقيد الثاني ألبان بعض الثدييات العاشبة مأكولة اللحم مما لم يشملها نطاق مصطلح الأنعام ، وذلك مثل الأراب والغزلان الخ

وهكذا نخلص : في نهاية هذا المطلب إلى أن العبرة التي نلتبس تكشيفها هي في هذه الأزواج الثمانية المحددة ، وإذا تسألنا عن سبب هذا الحصر وجدنا جوابه في الفقرة التالية من هذا البحث وهي :

المطلب الثاني : وهي بنية تشريحية متميزة للمعدة وقنوات الهضم لهذه الأحياء ، فقد جعل الخالق الحكيم للحيوان المجتر من هذه المجموعة أكثر من معدة في تجويفه الغذائي أو بمعنى آخر جعل له أكثر من بطن ونفهم ذلك من آية سورة النحل (مما في بطونه) فهذا سبق قرآني لا شك فيه وإثباته لا يقبل الجدل ولا الريبة ، لذا فلنلق الآن نظرة على بعض الكشوف العلمية المستيقنة حول هذه البطون أو الأجواف حيث صرح القرآن الكريم بوجود أجواف عدة في معدة الحيوان الحلوب من المجترات كالأبقار والأغنام ، وبالفعل وجد علماء التشريح الحيواني أن لهذه الأحياء المجتررة تجاويف قد تصل إلى خمسة متباية الحجم والشكل والوظيفة ، وهي الكرش والشبكية والأنفحة والورقية بالإضافة إلى المعى فلو تأملنا إلى قناة الهضم عند الأبقار مثلاً لاحظنا وصفاً نوجزه بما كتبه الدكتور (BRUCE.L.LARSON) في كتابه (إدراك اللبن) ، ترجمة الدكتور سليمان سلهب ، والدكتور محمد السنوسي الأستاذين في كلية الزراعة بجامعة عمر المختار حيث ترجما وصف الدكتور المذكور لمعدة الحيوانات المجتررة في ص ١٣٦ بقوله : " تمتلك معدة المجترات أربع حجرات . تكون الأولى الشبكية وهي تحوي ثلاث فحات : تفتح الأولى في الكرش ، وتتصل الثانية مع المريء ، وتكون الثالثة فوهة الورقية الشبكية ، تكون الوظائف الرئيسية للشبكية هي التحكم في اتجاه سير كتلة الطعام ، وتشكيل لقمه لتعود مرة أخرى عبر المريء أثناء عملية الاجترار .

الحجرة الثانية والأكبر هي الكرش التي يحدث منها التخمر ، يكون جدار الكرش عضلياً وتفيد تخلصاته في خلط محتويات الكرش ، تغطي البطانة بحليمات وتقسم بزوائد تسمى الأعمدة ، تزيد الحليمات وبصورة كبيرة من المساحة السطحية للكرش ، وهي موضع امتصاص الأحماض الدهنية الطيارة .

الحجرة الثالثة هي الورقية ، التي تفتح أمامياً في الشبكية ، وخلفياً في الأنفحة تسمى الورقية أيضاً متعددة الطيات ، حيث يشير ذلك إلى العدد الكبير من الطيات ضمنها ، يعتقد بأن الورقية لها صلة بامتصاص الماء وبعض الأحماض الدهنية ، وذلك بواسطة الحليمات المتوافرة على الطيات ، تضخ الخلاصة الهضمية مباشرة من الورقية إلى الانفحة ، أو الحجرة الرابعة ، وهي تشبه المعدة البسيطة عند غير المجترات .

وأمامياً تتصل بالورقية ، وخلفياً بالأمعاء الدقيقة ، وهي موضع لإنتاج الحمض المعدي وبدء التحلل البروتيني ، ويشبه باقي قناة الهضم في المجترات مثلثتها عند غير المجترات ، وتتدفق الخلاصة الهضمية عبر الأمعاء الدقيقة والغليظة لإتمام عملية الهضم (انظر الشكلين التوضيحين : شكل رقم (١) المظهر الخارجي الأيمن لمعدة البقرة والمظهر الداخلي لها في الشكل رقم (٢) أدناه .

أما ناتج الهضم الخفيف الصافي وهو المسمى علمياً باسم الكيلوس بأنه يوجه للكبد فتطراً عليه عمليات تنقيه وتصفيه فيذهب العكر منه إلى الطحال ، ويستقر جزء في المرارة ، ويصفى الماء في الكليتين ، وتمتص المواد الغذائية النافعة والجهازية للنقل عبر جهاز الدوران في زغابات الأمعاء الدقيقة وتقع في الدم الذي ينقله إلى أقاصي الجسم لتعويض ما نقص من طاقة وترميم ما تقدم من أنسجة ، وذلك عبر حركة يؤمنها القلب الذي يضخ هذا التيار الحافل بمواده من الدم فبارك الله أعظم الخالقين وأحكم الحاكمين كيف أتقن بنية هذا الحيوان المجتر الذي وصفت أجواف معدته أو بطونه ، ويجزم بعض أهل الاختصاص بأنه خلال رحلة الطعام عبر هذه البطون المتعددة للحيوان تقضي الإنزيمات على أي أثر للمكروبات والطفيليات في الطعام ، ولذلك لا يحمل الحيوان المجتر الذي أحل الإسلام ذبحه وتناوله أي طفيليات يمكن أن تنتقل إلى جسم الإنسان ... بخلاف الخنزير مثلاً الذي حرم الإسلام أكله على المسلمين فإنه يحمل أدواء وديدان مهلكة للإنسان حين تنتقل إليه من تناوله للحم الخنزير فسبحان اللطيف الخبير ، هو أعلم بنا منا فباركت أسماؤه وعم ثاؤه .

الفصل الثاني

وهو فصل مختص بإيضاح جزء آية سورة النحل الخاص بقوله سبحانه تعالى :
 ﴿ من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴾ وفيه مطلبان :
 المطلب الأول : ويعرض لفهوم أهل العلم والمفسرين الأفاضل فيها :

-قال الإمام المفسر الفقيه أبو جعفر الطبري يرحمه الله في فهم معناها : (لأنه أراد مما في بطون ما ذكرنا) ، وقوله : ﴿ من بين فرث ودم لبناً خالصاً ﴾ يقول خلص من مخالطة الدم والفرث فلم يختلطا به ، ثم يقول : ﴿ سائغاً للشاربين ﴾ يقول : يسوغ لمن شربه فلا يفص به كما يفص الغاص ببعض ما يأكله من الأطعمة وقيل إنه لم يفص أحد باللبن قط . انظر تفسير الطبري م ٤ ص ١٣٣ .

-وقال الشوكاني يرحمه الله في تفسيرها : (الأنعام هي الإبل والبقر والغنم ويدخل في الغنم المعز) . ثم قال : (والظاهر أن العبرة هي قوله : ﴿ نسقيكم مما في بطونه ﴾ فذكر أنه يعود إلى الأنعام معللاً ذلك أن العرب تحب عن الأنعام بخير الواحد ، ولفظ الجمع يذكر ويؤنث ، وذهب بعضهم إلى أن معناه مما في بطون ما ذكرنا فهو عائد إلى المذكور عامة) ، ثم أيد هذا الفهم بذكر أمثلة في أي الذكر الحكيم كقوله جل وعز : ﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي ﴾ يعني هذا الشيء الطالع . وكذلك قوله : ﴿ إني مرسله إليهم مهدية فناظرة بما يرجع المرسلون ﴾ فلما جاء سليمان الآية ﴿ ولم يقل فلما جاءت وكذلك قوله : ﴿ كلا إنه تذكرة ﴾ فمن شاء ذكره ﴾ . وعن مفهوم الفرث والدم ذكر الشوكاني أن الفرث : الزبل الذي يسزل إلى الكرش ، فإذا خرج منه لم يسمى فرثاً ، ثم أشارا إلى بديع الصنعة الإلهية فقال : (فيكون أسفله فرثاً وأعلاه دماً وأوسطه لبناً خالصاً أي من حمرة الدم وقذارة الكرش بعد أن جمعها وعاء واحد (سائغاً للشاربين) أي لذيداً هنيئاً لا يفص به من شربه) انظر فتح القدير للشوكاني م ٣ ص ١٧٤ باختزال يسير .

-وقال العلامة الألوسي يرحمه الله في تفسيرها لبناً خالصاً أي مصفى عما يصحبه من الأجزاء الكثيفة بتضييق مخرجه أو صافياً لا يستصحبه لون الدمى أو رائحة الفرث (سائغاً للشاربين) سهل المرور في حلقهم لدهنيته) انظر روح المعاني م ٥ ج ١٤ ص ١٧٩ .
 -وذكر نحوه من ذلك الإمام الرازي في تفسيره حيث قال : (أي جارياً في حلقهم لذيداً هنيئاً) .
 انظر التفسير الكبير للرازي م ٧ ج ٢٠ ص ٢٣٢ .

- وذكر القرطبي في تفسيره نحواً مما ذكره الشوكاني فيها حول الضمير في قوله :

(بطونه) ، وعن الفرث ، ولكنه قال : (فاعلم الله سبحانه أن هذا اللبن يخرج من بين ذلك الفرث وبين الدم في العروق ، وقال ابن عباس : أن الدابة تأكل العلف فإذا استقر في كرشها طبخته فكان أسفله فرثاً وأوسطه لبناً وأعلاه دماً ، والكبد مسلط على هذه الأصناف فتقسم الدم وتميزه وتجريه في العروق وتجري اللبن في الضرع ويبقى الفرث كما هو في الكرش "حكمة بالغة فما تغني النذر" انتهى كلام القرطبي . م . ٥٠ ، ج ١٠ ، ص ١٢٦ .

-ولفت القاسمي في تفسيرها أنظار أهل الفكر في استدلال لطيف على البعث والنشور فقال : (إن

العشب الذي يأكله الحيوان إنما يتولد من الماء والتراب ، فقلب الطين نباتاً وعشياً ثم تبديله دماً في جوف الحيوان ، ثم تحويله إلى لبن أعظم عبرة على قدرته تعالى على قلب هذه الأجسام الميتة من صفة إلى صفة) ، ثم عرض لمسألة تذكير الضمير في آية النحل (بطونه) وتأتيه في آية المؤمنون (بطونها) ، فعلل هذا التانيث بمواقع الإضمار هنا بأن الأنعام اسم جمع ، فيذكر ويفرد ضميره باعتبار لفظه ويؤنث ويجمع باعتبار معناه .

المطلب الثاني : وفيه تأمل مواقع العبرة التي تضمنها البيان المعجز في قوله : ﴿ وأن لكم في الأنعام لعبرة ﴾ وذلك في السورتين المذكورتين حيث تأكد وجود العبرة بحرف التوكيد (إن) وكذلك بلام الابتداء _____ وهي اللام المزحلقة _____ بين اسم إن المؤكدة وخبرها ، وهي ترد أيضاً لتفيد معنى التوكيد ، ومواقع العبرة يمكن أن تكون في هذا اللبن ذاته ، مادته وأجهزة تصنيعه ، وكذلك تركيبه الكيميائي وكيفية تنقيته بحيث يصير سائغاً لمن يشربه .

فأما مصانع هذا اللبن فهي ضروع إناث المجترات من هذه الأنعام كما هو معلوم والثدي معتبر من الناحية العلمية والتشريحية غدة كبيرة مركبة ذات إفراز خارجي وهي تتألف من ثمانية عشر قسماً تدعى (أسناخاً أو فصيصات) لإنتاج اللبن وهي تتوزع داخل الأنسجة الضامة للثدي مع طبقات دهنية لينة ، وتكثر في هذه الأرضية الأعصاب والأوعية الدموية وقنوات اللمف (انظر الشكل التوضيحي رقم (٣)

وكل فصيص مكون من الآلف من الأسناخ اللبنية التي تفرز اللبن ، وتسمى باللغة الإنجليزية (alveoli System) ، وتحاط بخلايا الظهاره العضلية والتي تصب في القنيات ثم القنوات ثم الجيوب المنتجة للبن التي تنتهي في إحدى مسامات الحلمة لتصب داخل الحلمة في هالة الثدي (انظر الشكل رقم (٤))

والغدد الثديية هي التي تنتج اللبن ، ولكن الكثير من مكوناته يأتي من الخلاصات الغذائية الناتجة من عمليات الهضم ، ومن تيار الدماء التي تصل إلى الضرع ويصف الدكتور "محمد رشاد بعاج" هذا الإنتاج فيقول : (وتقوم الغدة اللبنية عند ابتداء نشاطها الإفرازي بإفراز الحليب الذي ينشأ ويتولد في فراغات صغيرة تبطن الخلايا الغدية جدرانها وهذه الفراغات تدعى بالأسناخ اللبنية التي تتصل مع القنوات الناقلة للحليب ومن ثم تتحد هذه القنوات أو القنيات فيما بينها لتشكيل قناة أكبر تفتح على الجيب أو التجويف الناقل للحليب في القسم العلوي من قاعدة حلمات الضرع) انظر الشكل رقم (٥) أدناه ، وكتاب الدكتور محمد رشاد بعاج المسمى " أمراض الجهاز التناسلي الأنثوي والغدة اللبنية " ، من منشورات كلية الطب البيطري بحماة ص ١٢٣

وأما عن مادة اللبن وتركيبه الكيميائي : فمع أن الإنسان قد عرف اللبن منذ القدم واتخذهُ إذا له ، إلا أن التركيب الكيميائي الكامل للبن لم يعرف إلا منذ حوالي قرن مضى ليس إلا ، ومع تقدم طرق التحليل المخبرية صرنا نعرف تركيب أنواع اللبن المختلفة ، ولتحديد مكوناتها الدقيقة بل ونسبها المثوية ، وتبين للباحثين أن تركيز المكونات الدقيقة لألبان الأنعام وغيرها يتأثر بعوامل الغذاء والبيئة من جهة ، وبنوع الحيوان من جهة أخرى ، ولتلق نظرة على هذه الأرقام التي تقارن بين أنواع ألبان الأنعام التي ندندن في الحديث حولها وذلك بعد الدراسة الموجزة للتركيب الكيميائي بشكل عام : فالمعلوم أن اللبن هو إفراز الغدد الخاصة لإناث الحيوانات الثديية وهو عبارة عن مستحلب من الدهون وشتاته غروية من البروتينات على جانب سكر اللبن **Lactose** الذي يوجد في محلول حقيقي ، وتوجد هذه المكونات الرئيسية مع مركبات عضوية مختلفة مثل حامض الستريك وبعض المركبات النيتروجينية ، ويعود اللون المعتم الذي يمتاز به اللبن أساساً محتواه في البروتينات وأملاح الكالسيوم ، ولكن العدد الضخم لكربات الدهن المعلقة في اللبن تعطيه لون البياض ، وكذا وجود بعض المواد الكبريتية والمعدنية يضيف عليه لون البياض وأهم مركبات اللبن وخواصها :—

١ — الماء : ونسبته هي الرئيسية بين مكوناته إذ تبلغ من ٨٠ — ٩٠% وهو الوسط الذي يحمل المركبات الأخرى ، إما ذائبة أو معلقة ويمكن فصله عن المركبات الأخرى بالتجفيف .

٢ — الدهن : ويوجد على شكل معلقات كروية صغيرة شفافة سائجة على شكل مستحلب وتختلف نسبة حسب نوع الحيوان ، وفي الدهن أحماض طيارة مثل حمض البيوتريك الخ ، وينسب إلى وجودها طعم ورائحة اللبن ومشتقاته . وفيه أحماض غير قابلة للتحلل في الماء مثل حامض الإستاتريك ، وبسبب من قلة كثافة الدهن بالنسبة لبقية مواد اللبن الأخرى ، فإنه يطفو على السطح مكوناً القشدة ، كما يمكن بالفراغات فصله عن بقية مكونات اللبن وإنتاج السمن ، والدهون تحتزن في الأنسجة الحية ، وتمد الجسم بالحرارة .

٣- البروتينات : وتتراوح نسبتها بين ٢,٥ — ٤,٢% وأهمها الكيزين والألبومين أو (زلال اللبن) الذي يتجمد بالحرارة ، بينما يتأثر الكيزين بالأنفحة وله أهمية في صناعة الأجبان / وللبروتينات أهمية بالغة في بناء العضلات والأنسجة الجديدة .

٤- سكر اللبن : أو اللاكتوز Lactose ويجود على حالة محلول شبيه بالسكر العادي ولكنه أقل حلابة وذوباناً ، ويتحلل بسهولة بالبكتيريا إلى حمض اللاكتيك ، وبمجرد تكوين كمية كافية من هذا الحمض فإن اللبن يتجبن ، وتقل فائدته ، وللسكريات أهمية في مد الجسم بالحرارة والنشاط .

٥- الرماد أو أملاح اللبن : ونسبتها صغيرة ، ولكنها ذات أهمية بالغة في صناعة الجبن ومن هذه الأملاح جزء ذائب وجزء على حالة معلقات ومن أهم أملاح اللبن أملاح الكالسيوم والبوتاسيوم والصوديوم والمغنيزيوم والكلور ، وهذه الأملاح أهمية في تكوين العظام والأسنان ولأداء وظائف الجسم الحيوية بانتظام .

٦- الفيتامينات : وهي متوفرة في اللبن بجميع أنواعها ، ولذا كان اللبن غذاء كاملاً من هذه الناحية . وللفيتامينات أهمية تغذوية بالغة ويؤدي نقصها إلى الإصابة بالأمراض كالكساح في الأطفال والبلاجرا والاسقربوط في الكبار ، وتتأثر مادة الفيتامينات بالحرارة ، ولذا كان استمرار الأطفال على التغذي باللبن المغلي أو المجفف الذي فقد الفيتامينات يولد فيهم الكساح إذا لم يعوض هذا النقص ببدائل كعصير الفواكه الغني بتلك الفيتامينات .

وهكذا يتبين لنا أن اللبن غذاء كامل لاحتوائه تلك المواد المذكورة كلها ، ويمكن للإنسان أن يقصر غذاءه عليه زمنياً طويلاً ، ولعل هذا من أسرار الإعجاز العلمي في حديث النبي ﷺ عن اللبن ((اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه ، فإنه ليس شيء يجزي من الطعام والشراب غير اللبن)) رواه أحمد وأبو داود ، ومن أجل مزيد من التدبر في الإعجاز العلمي بخصوص ألبان الأنعام أثبت فيما يلي جدولاً يوضح المواد الأساسية في تركيب ألبان تلك الأنعام مع نسبها المئوية للمقارنة بين أنواعها الأربعة وكذا بالنسبة لحليب المرأة أيضاً ، كما يلاحظ في الجدول أدناه .

نوع النعم	أجمالي المواد الصلبة	دهن	بروتين كازين	مصل اللبن	سكر اللبن	الرماد (الأملاح المعدنية)
الإبل	%١٣,٦	%٤,٥	%٢,٧	%٠,٩	%٥	%٠,٧
البقر	%١٢,٧	%٣,٧	%٢,٨	%٠,٦	%٤,٨	%٠,٧
الغنم	%١٩,٣	%٧,٤	%٤,٦	%٠,٩	%٤,٨	%١
الماعز	%١٣,٢	%٤,٥	%٢,٥	%٠,٤	%٤,١	%٠,٨
المرأة	%١٢,٤	%٣,٨	%٠,٤	%٠,٦	%٧	%٠,٢

وقد أخذت هذه الأرقام من مجلة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة من إصدارات الهيئة العالمية للإعجاز العلمي ، العدد الثالث عشر في رجب ١٤٢٣هـ .

ومن الأبحاث العلمية المشهورة بهذا الصدد أن الطبيب الروسي " بوجو ليبتز " صاحب الأبحاث في إعادة الشباب قد وجد أن إحدى القبائل المسلمة في يوغوسلافيا يزيد متوسط العمر فيها على ١٠٠ عام ، وظل يبحث عن السبب في ذلك فوجد أخيراً أنهم يعتمدون في غذائهم الرئيسي على لحم الغنم ، ولا يأكلون لحم الخنزير ، وكذا يعتمدون على العسل ، ولبن الماعز ، ولا يشربون الخمر .

فيا لله كم من عبرة في آيات الله القرآنية والكونية ، وكم أنعم علينا هذا الحنان المنان سبحانه من نعم لا نقدر على عددها ولا إحصائها .

الفصل الثالث

وهو مخصص لاستجلاء وجوه العبرة التي صرحت بها آية سورة (المؤمنون) و(النحل) ، بعد السرد المستقل لمفردات هذه العبرة من حيث وجود البطون المتعددة للحيوان المجتر ، وتكون الحليب عبر عمليتي تنقية من بين فرث ودم ، ثم تزويد هذا الحليب بصفات ومزايا تجعله خالصاً سائغاً للشاربين .

ومع المقارنة مع آخر المعطيات العلمية المستيقنة من حقائق العلوم التجريبية ، وسوف نقع على وقائع من الإعجاز العلمي لكتاب الله سبحانه في مقرراته التي أعلنها منذ مائة السنين قبل أن يعرف الناس شيئاً عنها ذلك بأن العناية بتكشيف هذه الجوانب ضرورية جداً لما ثبت أن علوم الإعجاز المتنوعة هي جزء من الخطاب الديني الشرعي الذي غلفه الحديث العلمي بغلاف يمكن فهمه من قبل أقوام صموا آذانهم ، وسدوا منافذ

حسهم فحاولوا بينها وبين التفاعل مع الخطاب الديني المباشر الذي قد رفضوه منذ زمان بعيد ، إذ أصبح الدين عندهم محصوراً في زاوية ضيقة لا يؤثر في سير الحياة ، فكيف يكون له تعلق بالعلوم الطبيعية والحيوية ، بل ويكون حضور في أدق الحقائق العلمية التي تكشفت في الآونة الأخيرة وهكذا نصل إلى نتيجة أن هذه الأبحاث التي تترا في مضمار الإعجاز العلمي في القرآن والسنة من أهم وسائل الدعوة الإسلامية في عصر العلم والتقنية وفيما يلي بضع نقاط بهذا الصدد تتصل بمسألة ألبان الأنعام وصفاً وتقنية وأعضاء إنتاج وسواها ، مما يعد إيضاحه سبقاً علمياً مبكراً أيدته الحقائق العلمية المستيقنة وهذا بذاته هو مفهوم الإعجاز العلمي في كتاب الله ، ولنبدأ على بركة الله :

١- نقطة الإعجاز الأولى : هي في قوله تعالى : (مما في بطونه) فقد نص صراحة على أن لهذا الحيوان اجتر بطناً عدة ، فأفادت بذلك أمراً تشريحيًا بداخل هذا الكائن الحي لم يكن معروفاً وقت نزول النص ولا بعده بزمن طويل ، ولقد مر بنا في حيثيات التفسير لمفردات هذه الآيات الكريمة أن هذه البطن هي أجواف الأربعة التي وصفها العالم الأوربي الدكتور " B.L.LARSON " وسماها بما ترجمت به بأسماء الشبكية ، الكرش ، الورقية والأنفحة ، وإذا كان الفهم العربي الأصلي لكلمة البطن إنما تعني جوف كل شيء كما صرح به صاحب القاموس المحيط ص ١٥٢٣ ، فإنما يعني أن القرآن العظيم صرح بأن بداخل هذا الكائن بطناً أو أجوافاً عديدة فقل لي بربك من الذي أنبا محمداً ﷺ وهو النبي الأمامي بهذه الحقيقة التشريحية بزمن مبكر كل التكبير ولم يطلع على العلوم من قبل لأنه كما وصفه ربه حيث قال جل ثناؤه : ﴿ وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لارتاب المبطلون * بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ سورة العنكبوت ، الآيات (٤٨ — ٤٩) .

وغني عن البيان أن البطن في آية (المؤمنون) قد أضيفت إلى ضمير جمع غير العاقلين — أعني قوله في بطونها — وبالتالي لإضافة اسم الجمع إلى ضمير جمع يجعل المعنى صادقاً على كل فرد من أفرادها ، فلكل فرد من الأنعام إذن بطن خاص ، ولكن الإضافة في آية (النحل) هي إلى ضمير مفرد (بطونه) على النحو الذي أوضحه الشوكاني والقرطبي في تفسيريهما ، وهذا صريح في معنى الإعجاز التشريحي الذي نحن بصدده ،

فالحيوان الحلوب المجتر الواحد يحوي جوفه على عدة بطون ، وإن شئت قلت يحوي بطنه على عدة أجواف ، وهذه نقطة اعجازية لا تحفى على ناظر الصلاة والسلام على المبلغ عن ربه وحيه ، سيدنا محمد النبي الأمي الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى .

٢ - نقطة الإعجاز الثانية : هي في البينية المفهومة من قوله جل ثناؤه : ﴿ من بين فرث ودم ﴾ فالظرف المكاني (من بين) يشير إلى المكان الذي تتم فيه عمليات التصفية والتنقية ، إما كون الدم محيطاً بالحليب داخل ضرع الحيوان فأمره ظاهر (انظر الشكل رقم (٦) ، وأما كون الفرث في جانب منه فهذا مفهوم لأن الأمعاء تقع في مؤخرة جسم الحيوان المجتر ، والدماء متوزعة في سائر البدن فهو بينهما من حيث المكان ... فكل في وعائه فلا الروث يختلط باللبن ، ولا الدم يتجاوز مواقعه في عروقه المتوزعة في جدار الضرع فلا يمتزج السائلان ، وبينهما برزخ من قدرة الخالق الحكيم لا يبيغان (تأمل بيانات الرسم الإيضاحي في الشكل رقم (٥) والشكل رقم (٦) .

وهكذا تتم التصفية والاستخلاص للبن المنقى من قذارة محتويات القرش ومن لون الدم وتنته دون أن يقع أدنى اختلاط بين المحتويات المهضومة في معدة الحيوان ، والحليب المستخلص ، ودون أي اختلاط أيضاً مع الدم المحيط بجدار الضرع فلا تند منه قطرة أبداً مع التجاور لدرجة بين تلك الخلايا المفزعة وبين مواقع تجمع الحليب وقنوات سيره فيها .

والخلاصة أن الحليب قبل أن يصبح في الثدي يمر عبر عمليتي تصفية أولهما تصفية مسن الفضلات وذلك بعد تمام الهضم ونزول السائل الكيلوسي إلى الأمعاء حيث يطرح في الدم الجاري بيدن الحيوان حيث يغذي قسم منه جسم الكائن الحي والقسم الآخر تصفية الغدد اللبنية من الدم وترسله إلى الضرع حليباً خالصاً سائغاً للشاربين .

أرأيت أيها الأخ كيف كشف العلم أن حليب الحيوان المجتر يصفى أولاً من الفضلات وثانياً من الدم وذلك بعد بحوث طويلة في العصور الأخيرة في الوقت الذي قال فيه القرآن العظيم منذ نزوله قبل أكثر من أربعة عشر قرناً قراره بوجود التصفيتين التي أشار إليهما قوله جل وعز : (من بين فرث ودم لبناً خالصاً) ، وليس يخفى عليك أخي الكريم أنه لولا هذه التنقية الحساسة من مرحلتها لكان فسد طعم الحليب أو تغيرت نكهته على الأقل مما كان يمكن أن ينتقل إليه من ربح محتويات الكرش القذرة ، أو تن تيار الدم في جدران غدد الضرع ، فسبحان من خلصه من كل ما يشوبه ويعكر طعمه ، وأنت خبير بأن الحليب سريع الامتصاص للغازات والروائح والجراثيم التي تكون على مقربة منه بالنظر إلى احتوائه على المواد الدهنية والسكرية والزلاية .

فهذه الحقيقة العلمية القرآنية لم تكن معروفة لبشر زمان نزول القرآن العظيم وما كان بشر في ذلك العهد ليتصور فضلاً عن أن يقررها بهذه الدقة العلمية الكاملة وما يملك إنسان يحترم عقله أن يماري في هذا أو يجادل ، فمن الذي أنبا النبي الأمي محمداً ﷺ بهذا كله ، وأنى لعصر محمد وبيئته الجاهلية في الجزيرة العربية أن تحيط بهذه الآفاق أو حتى أن تتصورها ؟ وبهذا يثبت أن هذا القرآن يصدق عليه قول الله تعالى :
﴿ قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ﴾ سورة الفرقان ، الآية رقم (٦) .

خاتمة البحث

وهكذا نخلص — بعد هذا التطواف — لاستجلاء بعض العبر التي صرح بها كلام ربنا المعجز في قوله تباركت أسماؤه : (وأن لكم في الأنعام لعبرة الآية) فلقد تكشف لنا في ثنايا هذا البحث وفصوله الثلاثة الماضية ، أعجاز مدهش سبق به كلام الله القدير كل ما جد في عالم الاكتشافات الحديثة والتقنيات المعاصرة ، وذلك من مثل أفراد عالم الأنعام بعناية خاصة حيث وصف أزواجه الثمانية ، وماز بنيانه التشريحي بميزات أفردته عن باقي أفراد صف الثدييات التي ينتمي إليها بشعبة الكائنات الحلية أو الفقارية بشكل أخص ، حيث صرحت آية (النحل) بأن للفرد من هذه الأنعام — وهو الأنثى طبعاً — بطوناً عدة داخل تجويفه البطني العام وقد رأينا أوصافها من خلال الإيضاحات النظرية والأشكال التقريبية بياناتها وتفصيلاتها التي استوعبها هذا البحث على وجازته.

كما توضحت لنا ملامح (البنية) التي تضمنها قول الحكيم العليم جل ثناؤه :

(من بين فرث ودم) ، أما تعني عمليتي التنصيف ومرحلتى التنقية ، تجري إحداهما في مستوى القناة الهضمية للحيوان المجتر حيث تبسط الجزينات الغذائية المعقدة في العلف محتوى الكرش إلى خلاصات بسيطة جاهزة لاجتياز جدار الوعاء الدموي والوصول عبر تيار النقل الدموي إلى مستوى الغدد اللبنية في الضرع ، لتبدأ لتوها في مرحلتها المعجزة الأخيرة حيث تصطفي عناصر الحليب المختارة بعناية من بين مواد الدم الكثيرة والمتناقضة في تركيباتها وطعومها وريحها ، لينتج عن ذلك اللبن الخالص من قذارة الفرث وبق الدم ، ثم جرت مناقشة أهل الشأن في مفهوم قوله تبارك وتعالى : (سائغاً للشاربين) من علمائنا الأفاضل المفسرين ومن أهل الاختصاص من الباحثين المعاصرين ، وقد حرصت — ما وسعني الجهد — على توضيح مفهوم الإساعة بدءاً من فهمهم أيام عصورهم السابقة ، وانتهاءً بما فتح الله على بعض عباده في العصر الراهن حيث تبين لنا أن شراب الحليب يجمع في تركيبه الكيميائي المتناقضين عادة عند الشرب وهما الطعم الحلو مثلاً بالسكر اللاكتوز ، والطعم المالح مثلاً بالأملاح المعدنية الوفيرة في تركيب الحليب ومع هذا التناقض فقد ساغ هذا الحليب لشاربيه ، وقد مررنا خلال ذلك على ما تعرض له بعض أحبائنا في هيئتنا الموقرة التي تضطلع — أعانها الله — برعاية هذه الأبحاث من أجل أبرز ملامح الإعجاز العلمي لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ورأينا تصافر الجهود في تفسير الإساعة بين أنظار الباحثين بالقديم والحديث .

فاللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك وصلى الله وسلم على معلم الناس الخير نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

(وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا
الْمَاءَ اهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ
زَوْجٍ بَهِيجٍ) سورة الحج (آية: ٥)

د. أحمد عبد العزيز مليجي

ملخص البحث:

إهتم علم الجيولوجيا منذ سنوات عديدة بملاحظات العمليات والظواهر الطبيعية التي تحدث علي الأرض والتي تؤثر علي الإنسان وبيئته، مثل العمليات الجيوكيميائية الخارجية " **Exogenous Geochemical Processes** " كالتجوية والتعرية وتبادل الكاتيونات وخلافه وذلك نتيجة لظهور المشاكل والملوثات البيئية المختلفة والتي أثرت علي المنظومة البيئية المتزنة لكل من الغلاف الصخري (**Lithosphere**)، الغلاف الجوي (**Atmosphere**)، الغلاف المائي (**Hydrosphere**)، وغلاف التربة (**Pedosphere**).

لقد أخبرنا الله عز وجل في القرآن الكريم بأسرار علمية عظيمة لم يكشف عنها العلم الحديث إلا في القرن العشرين، وما إن تجلت هذه العلوم للعقول مع تطابقها في كتاب الله حتى سارع بعض العلماء المسلمين إلي تفسير الآيات العلمية في القرآن الكريم، فاجتهدوا وأصابوا وأناروا القلوب من نور آيات الله عز وجل، وأثبتوا أن القرآن الكريم مول من عند الله سبحانه وتعالى بأقوي البراهين العلمية التي تتطابق مع آيات الله عز وجل. ولقد وقفت متفكراً متدبراً أمام كلمة واحدة من كتاب الله تعاملت معها في معظم أبحاثي وذلك علي مدار عشر سنوات، ألا وهي كلمة " وَرَبَّتْ " التي ذكرت في سورة الحج آية (٥) وهذا الإعجاز الإلهي في هذة الآية الكريمة يفسر حلقات التسلسل التي تحدث بعد سقوط الأمطار وأهتزازات التربة يليها عمليات الربو الناتجة من حدوث عمليات التفتت الصخري (**Disintegration**) والتي تزيد من مساحة الأسطح المعرضة للتفاعل الكيميائي (مساحة السطح النوعي = **Specific surface area**) والتي يتم فيها عمليتي التجوية الكيميائية الأبتدائية والثانوية والتي تجعل مساحة السطح النوعي للتربة تروبو وتربو مما يؤدي الي انفصال الكتيونات المغذية للنبات.

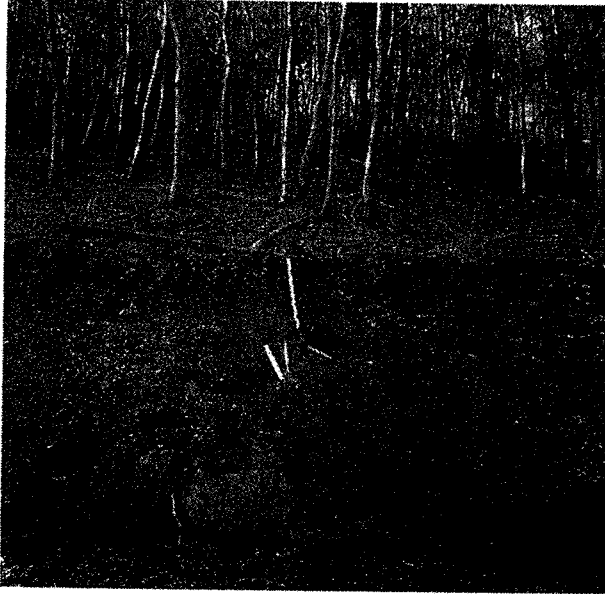
مقدمة:

ذكر ابن كثير (رحمه الله) قوله تعالى (وَكَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً) هذا دليل على قدرة تعالي على إحياء الموتى كما يحي الأرض الميتة الهامدة وهي المقحلة التي لاينبت فيها شئ. وقال السدي ميتة (فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) أي فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت وربت أي إرتفعت لما سكن فيها الثري ثم أنبت مافيهما من الألوان والفتون من ثمار وزروع وأشبات النباتات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها ولهذا قال تعالي (وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) أي حسن النظر وطيب الريح. ومن ناحية أخرى أكدت البحوث المنشورة في المؤتمر العلمي الأول في إسلام آباد من أن كلمة (اهْتَزَّتْ) في سورة الحج آية (٥) تخبرنا عن حقائق عرفناها نحن الآن ففي عام ١٨٢٧ م اكتشف عالم بريطاني اسمه براون أن ماء المطر إذا سقط على التربة أحدث لها اهتزازات تهتز لها حبيبات التربة. هذه الحبيبات الصغيرة التي تكون أكبر حبيبة بها قطرها ٣ مم، وتتكون هذه الحبيبات من المعادن المختلفة والتي تتركب من صفائح متراسة بعضها فوق بعض، فإذا نزل المطر تكونت شحنات كهربائية مختلفة بين الحبيبات بسبب اختلاف هذه المعادن، ويحدث تأين نتيجة لإختلاف الشحنات الكهربائية المتولدة فهتتز هذه الحبيبات نتيجة هذا التأين مما تؤدي بدورها على دخول الماء بين الصفائح المتراسة.

ويهدف هذا البحث أساسا الى التفسير العلمي لبيان الإعجاز القرآني في كلمة "وربت" التي ذكرت في سورة الحج آية (٥) والتي تؤكد على التسلسل الدقيق لإحياء الأرض الهامدة بعد نزول المطر واهتزازات التربة وربوها مما يؤدي الى إنفصال العناصر المغذية للنبات مما يجعله يصل في النهاية الى الإبداع الإلهي والتميز بحسن النظر وطيب الريح كما قال سبحانه وتعالى (وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ). نعم إنها الحقيقة التي أمكن التوصل إليها حديثا ولقد سبق القرآن الكريم بإقرارها قبل أربعة عشر قرنا أو يزيد، ولايمكن لعاقل أن يتصور مصدرا لتلك الإشارة القرآنية الباهرة غير الله الخالق (تبارك وتعالى)، فسبحان خالق الكون الذي أبدعه بعلمه وحكمته وقدرته، ولتبقى هذه الومضة القرآنية الباهرة مع غيرها من الآيات القرآنية، شهادة صدق بأن القرآن الكريم كلام الله، وأن سيدنا ونبينا محمدا (صلي الله عليه وسلم) كان موصولا بالوحي معلما من قبل خالق السموات والارض، وأن القرآن الكريم هو معجزته الخالدة إلى قيام الساعة.

الدلالة العلمية لعمليات التجوية التي تزيد من تكوين التربة

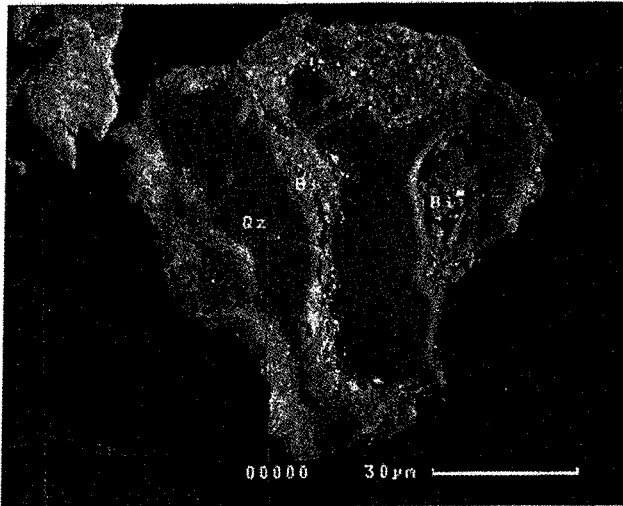
يمكننا في البداية تعريف كلمة التجوية أو التأثير الجوي، بأنها مجموعة العمليات التي تسبب تفتت الصخور، وتحللها، لكي تتمكن عمليات النقل بعد ذلك من حملها ونقلها إلى مقرها الأخير مما يؤدي إلى تكوين التربة. والتربة بالمعنى الجيولوجي والزراعي هي الطبقة السطحية من الوشاح الصخري سمكها في العادة لا يزيد عن عدة أقدام (شكل ١) وهي تتكون من خليط من جسيمات معدنية مختلفة تنتج من عمليتي التجوية الميكانيكية والكيميائية لمادة الأساس الصخري. وتتكون كذلك من المواد العضوية المتحللة التي تسمى بالسدبال (Humus) ومن الماء والعناصر الرئيسية المنفصلة من التجوية الكيميائية وهي الكالسيوم والبوتاسيوم والصوديوم والمغنسيوم.



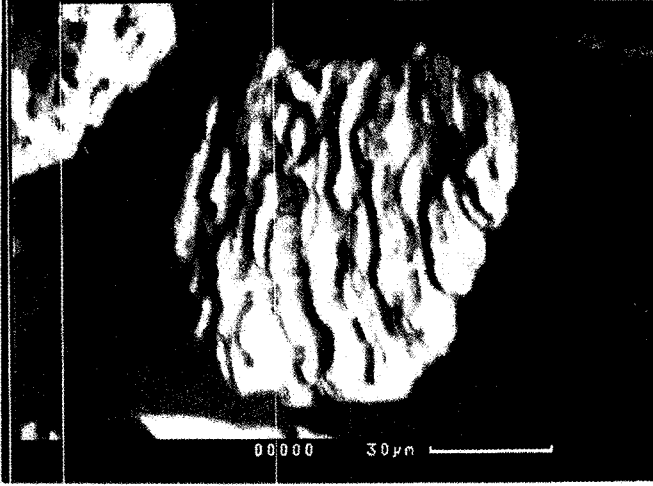
شكل (رقم ١) يوضح تكون وريبو التربة المنفصلة من الصخر الأساسي.

ومن أهم عوامل التجوية الطبيعية أو الميكانيكية (**Physical or Mechanical Weathering**) والتي تسبب التزايد والربو في تكوين التربة هي: إختلاف الحرارة (**Temperature variation**)، وإزالة الحمل (**Unloading**)، والجمد (**Frost**)، وقوى التبلور، والتشبع بالماء والجفاف (**Saturation and desiccation**)، و التأثير الميكانيكي للكائنات الحية، وأخيرا الجاذبية. أما من أهم العمليات الكيميائية التي تؤدي إلى تحلل الصخور هي: التحلل المائي (**Hydrolysis**)، الأكسدة (**Oxidation**)، الكربنة (**Carbonation**)، التمسوء (**Hydration**)، والذوبان (**Solution**). وضيق بنا المقام في شرح هذه العمليات بالتفصيل ولكنها ذكرت بالتفصيل في العديد من المراجع العلمية.

ومن الجدير بالذكر أن تحلل المعادن يتم بدرجات متفاوتة، فبعضها أكثر ثباتا مثل الكوارتز وبعضها أقل ثباتا مثل الأوليفين، وذلك حسب ترتيب جولديتش (**Goldich, 1945**) والذي قام بترتيب المعادن حسب درجة ثباتها حيث تبدأ المجموعة بأقل المعادن ثباتا وتندرج إلى أكثرها ثباتا وهو الكوارتز. ويوضح شكل (رقم ٢) قوة ثبات معدن الكوارتز ومقاومته لعمليات التجوية. بينما يوضح إستخدام المجس الدقيق (الميكروبروب) تحلل أجزاء كبيرة من الهورنبلند والبيوتيت مما يزيد علي ربو التربة (أشكال ٣، ٤).



شكل (رقم ٢): المجس الدقيق (الميكروبروب) يوضح قوة ثبات الكوارتز.



شكل (رقم ٣): المجس الدقيق يوضح عملية تحلل البيوتيت.



شكل (رقم ٤): المجس الدقيق يوضح عملية ذوبان أهورتلند.

ولقد ساهم المؤلف بأبحاث عديدة عن عمليات التجوية الجيوكيميائية وحساب معدلاتها وتأثيراتها، ولقد

قمت بتقسيم التجوية الجيوكيميائية أو ما يعرف باسم التجوية الكيميائية إلى قسمين:

أولاً: التجوية الجيوكيميائية الابتدائية (Primary Geochemical Weathering):

وهي أساسها تفاعلات كيميائية يتدخل فيها بعض من مكونات الجو ذات النشاط الكيميائي مثل الأكسجين وثاني أكسيد الكربون وبخار الماء والتي تغير من التركيب الكيميائي للمعادن الأصلية المكونة للصخور ومن أمثلتها تحلل الفلسبار إلى كاولين ، أو معادن طينية أخرى نتيجة للعمليات الكيماوية المتواجدة وذلك من خلال المعادلة التالية:

سليكات الألومنيوم والبوتاسيوم (أرثوكليز - فلسبار) + ماء + ثاني أكسيد الكربون = سليكات ألومنيوم مائية (كاولين أو معادن طينية) + كربونات بوتاسيوم + معدن الكوارتز أو السليكا الغروية.

ثانياً: التجوية الجيوكيميائية الثانوية (Secondary Geochemical Weathering):

وهي العملية التابعة للتجوية الجيوكيميائية الابتدائية والتي تعتمد على معدلات انفصال أو تبادل العناصر الرئيسية المغذية للتربة. أما عوامل ربو التربة بالعناصر الرئيسية المنفصلة نتيجة عملية التجوية الكيميائية والناجئة من تحول الصخر إلى فتات فإنه يزيد من مساحة السطح النوعي (Specific surface area) المعرضة لزيادة التفاعلات الكيميائية مما يؤدي بالتالي إلى انفصال العناصر المغذية للنبات وهي الكالسيوم والبوتاسيوم والمغنسيوم.

ولقد أوضحت دراساتي أن التجوية الجيوكيميائية الثانوية هامة للغاية حيث تعتبر المصدر الرئيسي لإنتاج

التربة الخصبة الغنية بالعناصر المغذية للنبات.

ولقد تم استخدام النماذج البيوجيوكيميائية الحسائية (Sverdrup, 1990) وذلك لتقييم معدلات التجوية الجيوكيميائية في أنظمة بيئية صغيرة حيث تمت دراساتي لتقييم معدلات التجوية الجيوكيميائية في منطقتين في الجمهورية التشيكية إحداهما ملوثة بمصانع عديدة وتقع عند حدود التشيك مع ألمانيا وتسمى يسأرجي (Jezeří) وهي تعاني من موت الأشجار والغابات (شكل رقم ٥) والأخرى منطقة محكومة بعيدة عن التلوث تسمى هارتفكوف (Hartvikov).



شكل (رقم ٥): دمار الغابات في الجزء الشمالي الغربي في الجمهورية التشيكية.

وباستخدام النماذج الحاسوبية وجد أن انفصال العناصر المغذية للتربة في المنطقة الصناعية الملوثة يقدر بحوالي (٦٢ و. كيلومكافى/هكتار/سنة)، وكانت معدلات انفصال العناصر الرئيسية المغذية للتربة كالتالي: ماغنسيوم (٢٧،٠ كيلومكافى/هكتار/سنة)، صوديوم (١٦،٠ كيلومكافى/هكتار/سنة)، بوتاسيوم (١٧،٠ كيلومكافى/هكتار-سنة)، كالسيوم (١١،٠ كيلومكافى/هكتار/سنة)، بينما وجد أن انفصال العناصر المغذية للتربة في المنطقة المحكومة كالتالي: ماغنسيوم (٨٤،٠ كيلومكافى/هكتار/سنة)، بوتاسيوم (٨٢،٠ كيلومكافى/هكتار/سنة)، صوديوم (١٦،٠ كيلومكافى/هكتار/سنة)، كالسيوم (٠٧،٠ كيلومكافى/هكتار/سنة)، وكانت معدل التجوية الكيميائية في المنطقة المحكومة عن مصادر التلوث أقل بكثير حيث قدرت بحوالي (١٧،٠ كيلومكافى/هكتار/سنة)

ولقد تسبب موت هذه الغابات نتيجة لزيادة معدلات التلوث الجوي واختلال التوازن الكمي الي دمار العديد من الهكتارات في الجمهورية التشيكية. ومن هنا تتضح عظمة الخالق سبحانه وتعالى حيث خلق الله كل شئ في هذا الكون بقدر معلوم ودقة بالغة وتوازن بيئي ، حيث قال عز من قائل: "إنا كل شئ خلقناه بقدر" (القمر: ٤٩).

العلاقة بين الإنسان وإختلال التوازن البيئي لزيادة العناصر الغذائية للنبات

أولاً: تأكيد القرآن الكريم علي التوازن الكوني الدقيق:

يؤكد القرآن الكريم علي أن كل مافي هذا الكون يسير في منظومة متزنة دقيقة تحقق السعادة للبشرية جمعاء ويتضح ذلك في عدد غير قليل من الآيات التي منها قوله (تعالى):
"وخلق كل شئ فقدره تقديراً"
(الفرقان: ٢)

وقوله (سبحانه وتعالى):
"والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبثنا فيها من كل شئ موزون"
(الحجر: ١٩)

وقوله (سبحانه):
"صنع الله الذي أتقن كل شئ"
(النمل: ٨٨)

وقوله (سبحانه وتعالى):
"وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم"
(الحج: ٢١)

وقوله (عز من قائل):
"إنا كل شئ خلقناه بقدر"
(القمر: ٤٩)

ثانيا: تأثير عوامل التجوية بمافسدة الإنسان علي الأرض:

والحقيقة أن الإنسان قد أستمتع بالمنظومة الكونية المتزنة حتى ظهور الثورة الصناعية منذ مايقارب قرنين من الزمان وتسمية الإنسان الصناعي "Industrial Man" الذي تسبب في حدوث تفاعل ديناميكي بينه وبين بيئته فحدثت زيادة انبعاث الملوثات الصناعية وأصبح التلوث يتزايد خطره يوما بعد يوم مما أدى إلى اهتمام متزايد في الأوساط العلمية نظرا لما تنطوي عليه من أخطار مباشرة تهدد جميع الأحياء التي تستوطن الأرض.

والحقيقة أنه من العوامل الرئيسية التي تسبب في اضطراب هذا التوازن الكمي الدقيق للمنظومة الكونية هو التلوث. قال تعالى: "ظهر الفساد في البر والبحر بماكسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون" (الروم: ٤١) وقوله (سبحانه وتعالى):

"ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين" (الاعراف: ٨٥)

ولقد أكدت دراساتي أن التجوية الجيوكيميائية الثانوية تتأثر تأثيرا بالغا بعمليات التحميض المتزايدة نتيجة لإنبعاث الملوثات الصناعية ومثال ذلك المصادر الملوثة في مناطق شمال شرق الجمهورية التشيكية التي تسببت في دمار آلاف الهيكترات من الغابات نتيجة زيادة إنفصال العناصر المغذية من التربة نتيجة لزيادة عملية التحميض. فكلما زادت عمليات التحميض كلما كان لها خطورتها البالغة حيث أنها تؤدي إلى ضعف خصوبة التربة ودمار الأشجار والنباتات.

وتعرف عمليات التحميض بأنها زيادة ثاني أكسيد الكبريت (ك ب ٢) والذي يسبب تكون حمض الكبريت (يد ب ك ب ٤)، وأكاسيد الأوزون المختلفة الذي يؤدي الي تكون حمض الأوزون (يدن م)، ومن هنا يتبين لنا أن الأمطار الحمضية تتشكل نتيجة لتلوث جو البلاد الصناعية بالغازات الحمضية كثنائي أكسيد الكبريت وأكاسيد الأوزون المختلفة والتي يعطي تفاعلها مع الرطوبة الموجودة في الغيوم قطرات الحموضة مع الأمطار أو الثلوج لتضاف الي المحتوى المائي على سطح الأرض كالبحيرات والأنهار مما يؤدي الي تلوثها. ولقد اثبتت البحوث ان كتل المياه السطحية والجوفية في الجمهورية التشيكية أصبحت ملوثة بالأحماض ، وان التأثيرات الضارة لحموضة المياه أخذت تتزايد لدرجة أنها بدأت تؤثر على المنشآت الحضارية كالأبنية والجسور وعلى المحيط الحيوي برمته حيث تهدد الغابات والمحاصيل الزراعية والتربة. والحقيقة ان مشكلة تزايد الأمطار الحمضية كانت من نواتج الملوثات الهوائية وماتحويه على أكسيد الكبريت وأكاسيد الأوزون بنسب عالية . وعندما تساقط الأمطار تتحول هذه الغازات الي أحماض تدوب في المياه ويبدأ تأثيرها الضار مباشرة. والحقيقة أن دورة

التفاعل تتم في طبقة التروبوسفير **Troposphere** وهي الطبقة السفلي من الغلاف الجوي وتبدأ السدورة كما يلي: يصدم فوتون من ضوء الشمس جزيئا من الأوزون (١٠). وهذا الجزيء من الأوزون إما أن يكون قد قدم من طبقة الأوزون الموجود في الطبقة الأعلى الستراتوسفير **Stratosphere** أي الغلاف الزمهرري أو يكون قد تشكل في طبقة التروبوسفير بتأثير الملوثات التي تحتوي آزوتا و كربونا. ومن جراء التصادم ينتج جزيء من الأوكسجين (١) وذرة أو كسجين مفردة عالية الفاعلية وسريع التفاعل. ثم تتحد هذه الذرة بجزيء من الماء (يد١) لتكون مجموعة الهيدروكسيل ويساعد هذا التفاعل الي تحول ثاني أوكسيد الكبريت الي حمض الكبريت ، وثاني أوكسيد الأزوت الي حمض الأزوت. ويمكن لحمض الكبريت والأزوت اللذين تكونا من الغازات الملوثة أن يجدا سبيلهما بيسر وسهولة الي الغيوم، بالاضافة الي أن جزء من حمض الكبريت يتم تكوينه مباشرة في قطرات الغيوم من تفاعل ثاني أوكسيد الكبريت مع فوق أوكسيد الهيدروجين (يد١٢). فمن ناحية نجد أن حمض الأزوت يذوب بسهولة في قطرات الغيوم الموجودة، بينما يتكاثف حمض الكبريت، الذي يتكون خلال تفاعلات الطور الغازي علي شكل قطرات تتراوح أقطارها من (٠,١) الي (٠,٢) ميكرون (الميكرون جزء من مليون من المتر). تتساقط هذه الأحماض على أوراق النباتات فسلفها وكذلك علي التربة فتزيد من عملية تحميص التربة التي تلتف الكثير من الغابات كما تم ذكره في منطقة يزرجي شمال شرق الجمهورية التشيكية.

الخلاصة:

هذه الاستنتاجات الكلية المهمة التي توضح أهمية التجوية الميكانيكية والكيميائية في زيادة التربة وربوها مما يساعد النبات علي إمتصاص العناصر الرئيسية المنفصلة والمغذية للتربة مما يساعد علي نمو النباتات في صورة رائعة بهيجة. ولقد وضع المولي عز وجل هذا التسلسل البديع في الآية القرآنية "وتري الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج" (سورة الحج: ٥). وهذه الآية القرآنية جاءت في مقام التسلسل الدقيق حيث جاءت في صياغة علمية غاية الدقة، ومحكمة غاية الاحكام، ولقد نزلت هذه الآية الكريمة في زمن لم يكن لأحد من الناس يعلم معنى كلمة "وربت" المذكورة في الآية القرآنية السابقة والتي تؤكد حدوث عمليات التجوية المختلفة والتي تزيد من مساحة السطح النوعي للتربة والمعرض للنشاط الكيميائي العالي الذي يؤدي الي زيادة انفصال العناصر الرئيسية المغذية للتربة، ولم يكن أحد يستطيع الإمام بتلك الحقيقية العلمية ولا يظرف منها، وظلت أجيال الناس جاهلة بمعناها وذلك لمدة قرون متطاولة بعد زمن الوحي حتي تم الإمام بشئ منها منذ عشر سنوات تقريبا. ومع افتراض أن أحدا من الناس قد أدرك منذ القديم معناها فإن من أوضح جوانب الإعجاز العلمي (أي: السبق العلمي) في هذه الآية الكريمة هو استخدام التحاليل الكيميائية الدقيقة للمكونات البيئية المختلفة كالتربة والماء والهواء وإدخال كل هذه النتائج في برامج علمية متطورة باستخدام أجهزة الحاسب الألي وذلك لتأكيد أن الله حقا قد خلق كل شئ في هذا الكون بميزان دقيق وبدقه متناهية كما قال عز من قائل "إنا كل شئ خلقناه بقدر" (القمر: ٤٩). وهذه حقيقة أمكن التوصل إليها وإدراكها منذ عشر سنوات تقريبا ولقد سبق القرآن الكريم بإقرارها قبل أربعة عشر قرنا أو يزيد، ولا يمكن لعاقل أن يتصور مصدرا لتلك الإشارة القرآنية الباهرة غير الله الخالق (تبارك وتعالى)، فسبحان خالق الكون الذي أبدعه بعلمه وحكمته وقدرته، ولتبقى هذه الومضة القرآنية الباهرة مع غيرها من الآيات القرآنية، شهادة صدق بأن القرآن الكريم كلام الله، وأن سيدنا ونبينا محمدا (صلي الله عليه وسلم) كان موصولا باوحي معلما من قبل خالق السموات والارض، وأن القرآن الكريم هو معجزته الخالدة إلي قيام الساعة.

المراجع:

أولاً - المراجع العربية:

١. القرآن الكريم
٢. تفسير ابن كثير
٣. مواقع الإنترنت المختلفة
٤. قواعد الجيولوجيا العامة والتطبيقية - د.محمد إبراهيم فارس - د.محمد يوسف حسن - د. مراد إبراهيم يوسف - ١٩٧٢.
٥. دكتور زغلول راغب النجار- من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم- مجلة القافلة-أرامكو السعودية- رمضان ١٤١٢ هـ - مارس ١٩٩٢
٦. محمد عبد القادر الفقي - القرآن الكريم وتلوث البيئة - الكويت - ١٩٨٥.
٧. د. رشيد حمد الحمد- الطاقة وتلوث البيئة - مجلة البيئة - العدد ٥٧ - إبريل ١٩٨٧.
٨. محمد محمود إبراهيم أستاذ الجيولوجيا وهندسة التعدين. من كتاب (إعجاز القرآن في علم طبقات الأرض).
٩. الأستاذ أحمد كامل ضو. (كتاب القرآن الكريم والعلوم الحديثة).
١٠. دكتور أحمد مليحي دكتوراه في الجيوكيمياء البيئية (بحوث).
١١. بحوث المؤتمر الأول للإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية - رابطة العالم الإسلامي - إسلام آباد - أكتوبر ١٩٨٧.

1. Acid Rain and Transported Air Pollutants, U.S.A Office of Technology Assessment, Washington, 1989.
2. Clayton, J.L., (1986): Plagioclase weathering in the Idaho batholith in rates of chemical weathering of rock and minerals (eds. S.Coleman and D. Dethier), chap. 19, pp.453-465. Academic Press.
3. GOLDICH, S.S. (1938): A STUDY IN ROCK WEATHERING. JOURNAL OF GEOLOGY 46: 17-58.
4. Melegy, A. (1998): "Biogeochemical mass balance and its relation to chemical weathering during acidification of soil environments". Ph.D. Thesis, Faculty of Natural Science, Charles University, Czech Republic.
5. Melegy, A. (2001): "Geochemical Mass Balance and Chemical Weathering Rates in A Small Agroecosystem in The Czech Republic". Egyptian Mineralogist, Volume 13, p. 313-325.
6. Melegy, A. (2003): Geochemical mass balance of some toxic heavy metals in small ecosystem, Egypt. Sedimentology of Egypt, vol. 11, p. 185-193.
7. Melegy, A. (2003): "Modeling biogeochemistry, the key for understanding environmental chemistry of a semi-Arid soil in Egypt" Chinese Journal of Geochemistry. Vol.22, No.2.P 150-155.

8. Melegy, A. and El-Agami, N.L. (2004): Factors controlling the chemistry and mineralogy of selected soil types of Czech Republic and Egypt". Bulletin of Geosciences, vol 79, No. 1, 2004.
9. Melegy, A. and Paces, T. (1996): "Anthropogenic Impact on Weathering Processes" ENVIWEATH96, IGCP Project No. 405 Books of Abstract, Brno, The Czech Republic.
10. Rietz, F. (1995): Modeling weathering and soil chemistry during Post-glacial period. Reports in ecology and environmental engineering. Lund Univ., Lund, Sweden.
11. Sverdrup, H. and Warfvinge, P. (1988): Weathering of primary silicate minerals in the natural soil environment in relation to a chemical weathering model. Water, air and soil pollution 38: 387-408.
12. Sverdrup, H. and Warfvinge, P. (1991): On the geochemistry of chemical weathering. In Chemical Weathering Under Field Conditions (ed. K.Rosen), Reports on Forest Ecology and Forest Soils 63: 79-118. Swedish University of Agricultural Sciences, Uppsala, Sweden.
13. Sverdrup, H., Warfvinge, P., Janicki, A., Morgan, R., Rabenhorst, M. and Bowman, M. (1992): Mapping critical loads and steady state stream chemistry in the state of Maryland. Environ.Pollut.77: 195-203.
14. Jackson, M.L., Hseung, Y. Corey, R.B., Evans, E.J. and Vanden Heuvel, R.C. (1952): Weathering sequence of clay-size minerals in soils and sediments. II. Chemical weathering of layer silicates. Soil Sci. Soc. Am. Proc. 16:3-6.

(فأصابه وابل فتركه صلباً)
تأثير التعرية المطرية في التربة

م. أحمد عامر الدليمي

لما حض الله المؤمن على التصدق والإنفاق، حذره من أن يؤدي التصدق عليه فضلاً عن شتمه أو ضربه، وقد أوسع الله مقام الإنفاق ترغيباً وترهيباً بأساليب مختلفة منبهاً من خلالها إلى شدة عناية الإسلام بالإنفاق فقوام الأمة ناشئ عن دوران أموالها بينها بل إن من أكبر مقاصد الشريعة الانتفاع بالثروة العامة بين أفراد الأمة وذلك بمراعاة العدل مع الذي سعى لجمع المال والإحسان لمن أبطأ به جهد قال تعالى: (كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) ومن أروع ما جاء في هذا الخصوص من مشاهد وأمثلة تصويرية ما ورد في سورة البقرة في قوله تعالى: (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حلیم ﴿٢١٧﴾ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالبن والأذى كالذي ينفق ماله ورثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثلته كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما سكبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ﴿٢١٨﴾ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير ﴿٢١٩﴾ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) (البقرة: ٢١٣ - ٢١٦).

وبالنظر لما في ضرب الأمثال من وقع في قلوب السامعين، وتذكير لمن كان له عقل راشد وعلم يهديه إلى سواء السبيل قال تعالى: (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعلقها إلا العالمون) (العنكبوت: ٤٣).

فقد نحت الآيات الكريمة هذا المنحى بضرب أجمل الأمثال وأحسنها في تشبيه حال الناس بالأرض المنتجة أو بأرض صماه صلدة لا تستجيب لماء السماء، ثم بأرض منتجة طيبة ولصاحبها فيها من كل الثمرات غير أنه قد أصابه من الضعف والوهن ما أعجزه عن القيام بها وإدامة خضرتها فاصفرت فاحترقت، وغيرها كثير في كتاب الله العزيز فقد جاء موضوع الجنة والثمرات موضوعاً رئيسياً في ضرب الأمثال، وسيأتي ذكر ذلك فيما بعد.

كما أننا ومن خلال عقد مقارنة موضوعية بين (صفوان عليه تراب) من جهة و (جنة بربوة) من جهة أخرى سنذكر عدداً من الحقائق العلمية التي أشارت إليها الآية الكريمة بشكل صحيح أو كناية يفهمها أصحاب الاختصاص، لتكون استنباطات علمية من القرآن الكريم يتطرق إليها المتخصصون في مجال الزراعة والسري وهندسة الأرض.

الجنة في القرآن:

ورد في القرآن الكريم معنيان للفظ (الجنة) فأما أن يقصد بها جنة الآخرة التي أعدها الله لعباده المؤمنين المتقين الصابرين ... إذ هي أصناف عدة فمنها جنة الفردوس وجنة المأوى وجنة عدن ... أو أن يأتي لفظ الجنة يراد به البستان (جنة الأرض) إذ هي موضوع بحثنا ومن ذلك قول الله تعالى في القرآن الكريم:
(أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً) (الإسراء: ٩١).
(وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابهه ...) (الأنعام: ١٤١).

(وفي الأرض قطع متجاورات وجات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ...) (الزمر: ٤).
(فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون) (المؤمنون: ١٩).
(وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون) (يس: ٣٤).

وآية أخيرة وردت في وصف الجنة لها خصوصية متميزة في بحثنا هذا هي: قوله تعالى: (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار لها فيها من كل الثمرات ...) (البقرة: ٢٦٦) وخصوصيتها تكمن في أنها وردت بعد آية الجنة في قوله تعالى: ((... كمثل جنة ربوة ...)) فكأنما جاءت مفسرة حقيقية تلك الجنة، إذ هي جنة من نخيل وأعناب فيها من كل الثمرات.

وفيما ذكر آنفاً من آيات الكتاب الحكيم في وصف جنة الأرض وما فيها من زروع وثمار وأشجار تميزت الأعناب والنخيل بوضوح ثم الزروع مختلفة الأكل بين أشجار النخيل والأعناب، إذ إن الجنة مكان من الأرض ذو شجر كثير بحيث يجن أي: يستر الكائن فيه فاسمها مشتقة من جن إذا ستر وأكثر ما تطلق الجنة في كلامهم (أي العرب) على ذات الشجر المثمر المختلف الأصناف فأما ما كان مفروساً نخيلاً بحثاً فإنما يسمى حائطاً، والمشتهر في بلاد العرب في الشجر المثمر غير النخيل هو الكرم. وثمره العنب أشهر الثمار في بلادهم بعد التمر، فقد كان الغالب على بلاد اليمن والطائف، ومن ثمارهم الرمان، فإن كان النخيل معها قيل لها جنة أيضاً^(١).

المعنى اللغوي لمفردات الآيات^(١):

صفوان : الصفات : الحجر الصلد الضخم لا ينبت ..

وابل : الوابل : المطر الشديد الضخم القطر. وبلت السماء تبل أمطرت.

صلداً : الأرض صلبت .. والصلداء بكسرهما الأرض الغليظة الصلبة .. وناقاة صلدة جلدة.

ربوة : (ربا) ربوا كملو ... والربو والربوة والرباوة مثلتين والرابية والرباه ما أرتفع من الأرض .. وفي الآية الكريمة ((إذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت)).

الطل: المطر الضعيف أو أخف المطر وأضعفه أو الندى أو فوقه ودون المطر.
في ظلال الآية الكريمة:
(صفوان عليه تراب):

(مثل حال الكافر الذي ينفق ماله رياء الناس بحال صفوان عليه تراب يغشيه يعني يخاله الناظر تربة كريمة صالحة للبذر، فتقدير الكلام عليه تراب صالح للزرع فحذفت صفة التراب إيجازاً).
ويظهر من سياق الآية أن طبقة التراب قليلة السمك بدليل أنها نسبت إلى الصفوان، فالصفوان هو الأصل والتراب هو الطارئ (المحدث) على المكان فربما قد نقل من مكان بعيد أو قريب بفعل الرياح وغيرها ليستقر على الطبقة الصفوان، فلا أصل لهذا التراب من الأرض المستقر عليها لذلك فهو ضعيف الارتباط بها زاحفاً عنها بين حين وآخر.
(فأصابه وابل فتركه صلداً)).
وفي هذا معان:

أولها : فأصاب التراب وابل فترك الصفوان صلداً.
ثانيها : فأصاب الصفوان وابل فتركه صلداً (أي ترك الواابل الصفوان صلداً).
ثالثها : فأصاب التراب وابل فتركه صلداً (أي ترك الواابل التراب صلداً).
ولنا في ذلك تفصيل علمي كالآتي:
المعنى الأول:

فأصاب التراب وابل فترك الصفوان صلداً وفيه معنيان:

- ١- فأصاب التراب وابل فترك التراب الصفوان صلداً.
 - ٢- فأصاب التراب وابل فترك ماء الواابل الصفوان صلداً.
- وكلا المعنيين يحقق مراداً واحداً هو أن ماء المطر الغزير كبير القطر قد أزال التراب تماماً عن الصفوان (الوجه الأملس من الأرض) وذلك بفعل:
- ١- قوة قطرات المطر النازلة. لقوله تعالى: ((أصابه وابل)).
 - ٢- قوة السيح السطحي المتكون من تجميع قطرات المطر. لقوله تعالى ((فتركه صلداً)).

مقولة العلم:

١- تأثير قطرات المطر النازلة.

يعد المطر أكثر عوامل التعرية أهمية في جميع الظروف الطبيعية جميعها ويعتمد التأثير المعري للمطر بصورة رئيسية على صفاته الفيزيائية، مثل : شدة وامتداد المطر وسرعة قطرات المطر واتجاه سقوطها ونمط التذبذب في المطر، وفترات إعادة حدوثه وعوامل أخرى. ويعد عدد من الباحثين الطاقة الحركية للمطر هي المسألة الأساسية. وهذا ما جاء به القرآن قبل أكثر من أربعة عشر قرناً إذ قال: (فأصابه وابل) والواابل كما ذكرنا في معاني المفردات هو المطر الضخم شديد القطر، وهذا ما يحقق الطاقة العالية لقطرات المطر المسببة لتعرية التربة. ويعد **Ellison** (١٩٤٤) أول من قرر بأن سقوط قطرة المطر يمثل كل عناصر التأثير المعري للمطر وبهذا يوافق ما جاء به القرآن في قوله تعالى (فأصابه وابل) ويظهر اهتمام الآية وإشارتها إلى التأثير المعري لقطرات المطر في لفظ (أصابه) وفيها إشارة إلى أهمية الطاقة الحركية لقطرة المطر في عدها العنصر الأساس والعامل المؤثر الأكبر في تعرية التربة (كما ذكرنا سابقاً) إلا إذا توافرت الوقاية المقدمة من قبل الغطاء النباتي الذي بدوره سيشتت الطاقة الحركية فيعندم تأثيرها أو يكاد.

لقد أشار (**Ellison ١٩٤٤**) من خلال دراسة مستفيضة للتعرية المطرية بأن تأثير المجاميع المسبب بقطرة مطر المرحلة الأولى لعملية التعرية، وبينت تحرياته التي أجراها على أساس القياسات المباشرة لتفتيت مجاميع التربة أنه على درجة انحدار ١ : ١٠ تم نقل ٧٥% من مادة التناثر إلى أسفل المنحدر و ٢٥% تحركت أعلى المنحدر وقد توصل باحثون آخرون إلى استنتاجات مشابهة مثل (**Ekern ١٩٥٠**) و (**Mihara ١٩٥٩**).

لقد عزي تفتيت مجاميع التربة بوساطة اصطدام قطرات المطر من قبل عدد من الباحثين إلى تعرية صادمة وتطاير للدقائق المنطلقة بالتناثر أو ما يسمى بالتعرية التناثرية، لذلك فقد عدت مجموعة من الباحثين (**Hudson ١٩٧١**)، (**Stallings ١٩٥٧**)، (**Ellison ١٩٤٤**) وآخرون) أن تأثير التعرية المطرية مستقل عن التعرية المائية (تعرية السيلح السطحي) إذ يمكن أن يحصل من دون عملية السيلح السطحي.

٢- تأثير السيلح السطحي:

قد تتبع تعرية قطرات المطر تعرية ناتجة عن سيلح ماء المطر ما يسمى بالتعرية السيلحية، أو تعرية جريان السطح. ومثلها في القرآن الكريم قول الله تبارك وتعالى (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً... (الرعد : ١٧).

إن شدة تعرية السيح السطحي تعتمد على نوع التربة السطحية ومقدار إحاطة السيح الذي بدوره يعتمد على عوامل منها شدة المطر خلال فترة زمنية محددة فضلاً عن شدة انحدار الأرض وقد تتداخل عوامل أخرى في زيادة أو تقليل آثار هذه الظاهرة كوجود النباتات وطريقة توزيعها وغير ذلك. ويمكن القول بأنه (كلما كبرت شدة السقيط ومن ثم السيح السطحي زاد حجم الدقائق والجاميع المنقولة، وخلال أمطار غزيرة، فإن كل التربة الزراعية تنجرف وبضمنها الصخور)، وهذا ما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى (فأصابه وابل فتركه صلداً)، أي فأصاب ماء وابل تراب الأرض فجرفه فترك ما تحته (الصفوان) صلداً لا يصلح للزراع.

وبذلك يمكن القول بأن هذا الفهم للآية الكريمة يؤكد حدوث عملية التعرية بسبب قوة قطرات المطر والسيح السطحي مع التأكد على دور قطرات المطر يكونه العامل المؤثر الأكبر.
المعنى الثاني:

فأصاب الصفوان وابل فتركه صلداً.

أي : فأصاب الصفوان وابل فترك ماء الواابل الصفوان صلداً وهذا المعنى يرشدنا إلى حالة الصفوان المغطى بطبقة رقيقة من التراب إذ أن تأثير قطرات المطر كبيرة الحجم تخترق طبقة التراب هذه وتصيب الطبقة الصخرية الملساء تحته (الصفوان) ثم تتركها بعد ذلك صلدة لا تراب عليها. وهذه كسابقتها فماء المطر وماء السيح يزيحان طبقة التراب تماماً فيجعلانها ملساء صلدة.

لذلك فإن ما يحدث في هذه الحالة هو تعرية بسبب سقوط قطرات المطر ثم تعرية ماء السيح، مع الإشارة إلى دور ماء السيح بوضعه عاملاً مؤثر أكبر.

المعنى الثالث:

فأصاب التراب وابل فتركه صلداً.

أي : فأصاب التراب وابل فترك الواابل التراب صلداً. ويعد هذا المعنى من المعاني الجديدة التي تناوها العلم الحديث فقد وصف الباحث (Stallings ١٩٥٧) هذه الظاهرة كما يأتي:

(إن الصدام الشديد عن ضرب القطرات للأرض العارية خلال عاصفة عنيفة، تمزق الكتل وفتات التربة، وتحطم تركيب التربة إلى ظروف تعجينية، إن فعل الضرب والمزج لهذه القطرات يؤدي إلى انضغاط الأجزاء المحطمة الصغيرة من التربة إلى طبقة لا مسامية للسطح المتعجن، هذه الطبقة السطحية المنضغطة تكون أكثف وأكثر صلابة).

فضلاً عن ذلك فإن ما يسمى بالتعرية الخصبية وهو تأثير التعرية في إزالة خصوبة التربة المعرارة إذ يتضمن ذلك انخفاضاً لعناصر التربة الغذائية والمادة الناعمة، فضلاً عن حدوث تغيرات فيزيائية وحيوية للتربة، وتغيير العمق لتربة المقد (مقد التربة) الناتج من عملية التعرية. لذلك فهذا المعنى يفيد حدوث نوعين من عمليات التعرية هما تعرية السقيط والتعرية الخصبية مع أهمية كل منهما بوضعه عاملاً مؤثراً ومستقلاً.

((وثبتنا من أنفسهم))

يقول صاحب التحرير والتنوير^(١) في قوله تعالى: (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم): (عطف مثل الذين ينفقون أموالهم في مرضاة الله على مثل الذي ينفق ماله رياء الناس، لزيادة بيان ما بين المرتبتين من البون وتأكيدهم للثناء على المنفقين بإخلاص، وتفننا في التمثيل، فإنه قد مثله فيما سلف بحجة أنبت سبع سنابل) قال تعالى: (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) (البقرة: ٢٦١).

فلما مثل حال المنفق رياء بالتمثيل الذي مضى أعيد تمثيل حال المنفق ابتغاء مرضاة الله بما هو أعجب في حسن التخييل).

وفي معنى قوله تعالى: (وثبتنا من أنفسهم) يقول: (التثبيت تحقيق الشيء وترسيخه، وهو تمثيل يجوز، أي يكون لكبح النفس عن التشكك والتردد، أي أنهم يمنعون أنفسهم من التردد في الإنفاق في وجوه البر ولا يتركون مجالاً لخواطر الشح، وهذا من قولهم ثبت قدمه أي لم يتردد ولم ينكص فإن ارضاء النفس على فعل ما يشق عليها لها أثر في رسوخ الأعمال حتى يعتاد الفضائل وتصير لها ديدناً^(٢)). ومن ذلك قوله تعالى: (يغشيكم العناس أمنة منه ويزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام) (الأنفال: ١١) فيظهر من الآية الكريمة أن الماء سبب في تثبيت الأقدام بدليل قوله تعالى (ويثبت به الأقدام) وقد يكون المراد تثبيتاً معنوياً في حمل النفس على الصبر والثبات أمام العدو، إلا أن معنى آخر يمكن فهمه من الآية الكريمة هو أن الماء النازل من السماء يعمل على سبك حبيبات التربة الرملية فتثبت عليها الأقدام.

وقد يكون للعبارة القرآنية فهم آخر، فمعنى قوله تعالى (وثبتنا من أنفسهم) أي أنهم ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وينفقون أموالهم تثبيتاً لأنفسهم من أنفسهم فعملهم صادر من أنفسهم وتعود منفعة إلى أنفسهم. وشبه الله تعالى ذلك بـ (جنة بربوة أصابها وابل) وإذا ما عقدنا مقارنة بين الآيتين في قوله تعالى: (صفوان عليه تراب فأصابه وابل) وقوله: (جنة بربوة أصابها وابل لتحديد مواضع التطابق والاختلاف، فيمكن أن نحدد وبسهولة أن كلاً الأرضين قد أصابها وابل وهذا موضع التطابق إلا أن الأرضين تختلفان في طبيعة تكوينهما وشكليهما وبنائهما وهذا موضع الاختلاف.

والوابل هنا مشبه به والإنفاق مشبه، وتقدير الكلام (إنفاقهم كالوابل)، قال النسفي في تفسيره: (مثل حالهم عند الله بالجنة على الربوة ونفقتهم القليلة والكثيرة بالوابل والطل وكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكل الجنة فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة).

والإنفاق عملية يقوم بها كل من المرابي والمؤمن. أما الأرض فهي النفس المستقبلية لماء السماء فأما أن تكون لمؤمن أو لمراء، وهي للمؤمن جنة بربوة وهي للمرابي صفوان عليه تراب، فمن هنا نعلم مدى أهمية أن تكون أرض المؤمن جنة فيها أصناف النبات والشجر، إذ أن النبات هو السر الأكيد في حماية تربة الأرض وتثبيتها وبذلك يتحقق معني قوله (وتثبيتاً من أنفسهم) فما دام الإنفاق مستمر والوابل متتابعاً ونمو الشجر والزرع متجدداً في كل وقت وحين فالتثبيت واقع، إذ أن هذا النمو للنبات يحقق ثباتاً للتربة سطحيها وعميقها، فسطحها يحمي بأوراق وجذوعه النبات من تأثير قطرات المطر الساقط، وعميقها يتماسك بتماسك جذورها وتغلغلها حتى تجعل منها كتلة واحدة متماسكة تحميها من تأثير السيل الجارف.

مقولة العلم:

وللعلم في ذلك تفصيل إذ يمكن تلخيص أهمية الغطاء النباتي في مسك التربة وتثبيتها ومنع تعريتها بما

يأتي:

أولاً: يحمي التربة ضد فعل سقوط قطرات المطر.

ثانياً: يزيد درجة غيض الماء في التربة، فتزداد الفائدة من المطر النازل.

ثالثاً: يحفظ خشونة سطح التربة.

رابعاً: يقلل سرعة السيل السطحي فيقل تأثير التعرية الناتجة عنه.

خامساً: يربط التربة ميكانيكياً فتقاوم التعرية بفعل السقوط وبفعل السيل.

سادساً: يقلل من تغيرات مناخ الموقع في الطبقات الأعلى للتربة.

سابعاً: يحسن الخواص الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية للتربة.

فأينما تكون هناك ظروف مفضلة لتكون غطاء نباتي مستديم فإن مدى التعرية يكون أقل بكثير من المستويات الخطرة انظر الجدول (١):

نوع الأرض	إزالة التربة	النسبة المئوية %
بور	١٢٥,٩	١٠٠
تربة محمية بغطاء نباتي (جزئياً)	١٩,٧	١٥,٦
تربة محمية بغطاء نباتي (كلياً)	٠,٢	٠,١٦

وأخيراً نقول إن الفرق في مقدار التعرية بين أرضين إحداهما محمية بالنبات وأخرى غير محمية تكون عالية وتصل إلى ٦٣٠ مرة إذ يزداد تأثير صيانة التربة طردياً مع كثافة النبات وغطاء الظلة، فالنباتات المتقاربة تماماً تحمي التربة كلياً وتؤدي إلى اختزال التعرية إلى مستوى دون أي ضرر.

((الذي ينفق ماله ... الذين ينفقون أموالهم ...))

لقد جاء الإنفاق في وصف مال المرئي مفرداً وذلك في قوله تعالى: " كالذي ينفق ماله رياء الناس " وجاء في وصف مال المؤمن جمعاً وذلك في قوله تعالى: " ومثل الذين ينفقون أموالهم " وقد يكون ذلك إشارة إلى أن انفاق المرئي يكون في حالة واحدة لا ثاني لها إذ أنه ينفق ماله أمام الناس وبحضورهم، وأما المؤمن فإنفاقه قائم في كل حال أمام الناس ودونهم إذ أنه لا يبتغي من ذلك إرضاء الناس إلا الله، بل تلو وابل فآتت أكلها ضعفين. والله أعلم.

ثم إن حرف الفاء في قوله تعالى (كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل) يفيد الترتيب والتعقيب، أي أنه يفيد حدوث الحدث (سقوط الوابل) مرة واحدة فقط، أما في قوله تعالى (كمثل جنة ربوة أصابها وابل ...) فلم يأت حرف الفاء هنا وبذلك أطلق الفعل من حدوثه لمرة واحدة، فأصبح احتمال حدوثه مرة تلو مرة وارداً - والله أعلم.

((فآتت أكلها ضعفين)).

قول الله تعالى في الآية الكريمة: (أصأبها وابل فأتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل) يبين أهمية كفاية الماء ودوره في زيادة الإنتاج إذ أن الحديث هنا عن موسم كامل بل مواسم مختلفة لكل نوع من أنواع الشجر والزرورع والثمار، ولما كانت الجنة قد أصأبها وابل وبالتأكيد أنه وابل، إذ أن وابلأ واحداً لا يغطي الحاجة المائية للجنة وزروعها وأشجارها طوال مواسم النمو والأزهار والأثمار والنضوج فكان لابد من تتابع الأمطار الغزيرة أو الخفيفة، قال تعالى: (فإن لم يصبها وابل فطل).

مقولة العلم:

ينبغي أن لا ننسى أن الواابل الذي يصيب الجنة يتحول الكثير من مائه إلى فواقد على شكل جريان سطحي أو فواقد التخلل العميق.

ويؤكد أستاذ الري الدكتور أحمد حاجم⁽¹⁾ في كتابه هندسة نظم الري الحقلية هذا الكلام قائلاً: (من المعروف أنه ليس كل ما يسقط من مطر على الحقل يستخدمه النبات لتلبية بعض أو جميع متطلبات الاستهلاك المائي ذلك أن قسماً من المطر الساقط يذهب كضائعات سيح سطحي (إذا كانت شدة المطر تزيد على قابلية ارتشاح التربة) أو ضائعات تخلل عميق (إذا كانت قابلية الخزن في العمق الفعال للمنطقة الجذرية محدودة). ومما يظهر في وصف الآية الكريمة للجنة أ، كلاً من هاتين الحالتين موجود فالحالة الأولى متحققة في قوله تعالى (أصأبها وابل) والواابل كما ذكرنا هو المطر الغزير عظيم القطر، وبالتأكيد فإن شدة المطر هذه ستزيد عن قابلية ارتشاح التربة (كمية الماء الداخلة إلى التربة) فيجري الكثير منه كضائعات سيح سطحي. والحالة الثانية متحققة هي الأخرى في كون الجنة ربوة، إذ أن الماء الداخل إلى التربة بالرشح سوف يبزل طبيعياً فيذهب كضائعات تخلل عميق. كما أن الزخات المطرية الغزيرة المتتالية وعمليات البزل الطبيعي للمياه الزائدة توفر أفضل ظروف ري وبزل لهذه الجنة.

المصادر والمراجع:

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- ابن عاشور، محمد الطاهر، "تفسير التحرير والتنوير"، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٩.
- ٣- بنداقي، محمد صالح، "هداية الرحمن لألفاظ آيات القرآن"، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ١٩٨١.
- ٤- حاجم، د. أحمد يوسف، ياسين، حفي إسماعيل، "هندسة نظم الري الحقلي"، جامعة الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٩٢.
- ٥- الدليمي، أحمد عامر، "المياه في القرآن"، كتاب معد للطبع، عالم الكتب، بيروت، لبنان.
- ٦- زاخار، دي.، "تعرية التربة"، ترجمة: د. نبيل إبراهيم الطيف، د. حسوني جدوع، مطابع التعليم العالي، جامعة بغداد، العراق، ١٩٩٠.
- ٧- عبد الباقي، محمد فؤاد، "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم"، دار الحديث، القاهرة، ١٩٨٨.
- ٨- الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، "القاموس المحيط"، دار الجليل، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
- ٩- النسفي، عبدالله بن أحمد بن محمود، "تفسير النسفي"، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- ١٠- ويدرز بروس، فيبوند، ستانلي، "الري تصميم وممارسة"، ترجمة د. أحمد يوسف حاجم، سعد سعيد الديوجي، دار الكتاب للطباعة والنشر، الموصل العراق، ١٩٩٠.

الهوامش

(1) التحرير والتتوير، ٥٣/٣.

(1) المعجم الوسيط.

(1) التحرير والتتوير، ٥٣/٣.

(2) المصدر نفسه.

(1) رئيس قسم الري والبزل في كلية الهندسة - جامعة الموصل.

**النظام الزراعي في القرآن والسنة
بين مظاهره الإعجازية وأشكاله
التطبيقية**

م. محمد بن الهادي الشيخ



الفهرس

النظام الزراعي في القرآن والسنة بين مظاهره الاعجازية وأشكاله التطبيقية

المقدمة :

الجزء الأول : مدخلا لدراسة النظام الزراعي في القرآن والسنة ومظاهره الاعجازية

I-1- المبادئ العامة للنظام الزراعي في القرآن والسنة

I-2- آليات النظام الزراعي في القرآن ومظاهرها الاعجازية

I-3- بعض النواحي التشريعية في النظام الزراعي في القرآن ومظاهرها الاعجازية

I-4- الأبعاد الروحية للنظام الزراعي في القرآن والسنة

I-5- خاتمة

الجزء الثاني : محاولة لصياغة الأشكال التطبيقية لنظام زراعي خاص بالبيئة الصحراوية يستمد قواعده الأساسية من القرآن الكريم

II-1- مدخل

II-2- المقومات الأساسية للنظام الزراعي المقترح جنان الصحراء

II-3- الفوائد والتأثيرات العامة لهذا النظام الزراعي المقترح

II-4- الشكل التطبيقي لهذا النظام الزراعي

II-5- ملامح المزارع النموذجية المنبثقة عن هذا النظام الزراعي

II-6- خاتمة

ملخص

يمثل هذا البحث مدخلا لدراسة الإعجاز الزراعي في القرآن والسنة. ولقد انطلقنا من بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لصياغة الملامح العامة لنظام زراعي يستمد قواعده الأساسية من هذين المصدرين الشريفين. فكان نظاما متوازنا، متكاملا من حيث الانتاج النباتي والحيواني، ذات محاصيل متنوعة ورؤية متجددة ومتطورة حسب الواقع الميداني. كما سلطنا الضوء على بعض المظاهر الإعجازية في آليات عمل هذا النظام ونواحيه التشريعية وأبعاده الروحية.

وانبثق من هذا النظام الزراعي العام، نظام زراعي خاص بالمناطق الصحراوية، حيث حاولنا بلورة أشكالها التطبيقية على أرض الواقع حسب الوسائل التكنولوجية المتوفرة والمعادلات السوسيواقتصادية لهذه المنطقة في إطار من التدرج المنطقي والتناسق الايكولوجي. فكان هذا النظام الزراعي، والذي أطلقنا عليه اسم جنان الصحراء، محاولة جديّة وقيمة لترشيد الاستصلاح الزراعي الذي يعاني من العديد من المشاكل والصعوبات الفنية والاقتصادية بهذه البيئة الجافة والقاسية. ولقد حاولنا تفصيل بعض الجوانب التقنية للمزارع النموذجية المنبثقة من هذا النظام على أمل اعتمادها كوثيقة نظرية جد هامة لإرساء أي مشروع زراعي بهذه المناطق من طرف المستثمرين المختصين.

ولا يسعني إلا أن أحمّد الله على إتمام هذا العمل راجيا منه أن ينفع به الأمة الإسلامية ويساهم في نمطتها ورفيها.

المقدمة

في هذه الظروف الحرجة التي تمر بها الأمة الإسلامية وفي خضم هذه الأزمات الحانقة، ليس لنا من مخرج ولا سبيل إلا بالعودة إلى كتاب الله وسنة نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام. وهو القائل: "تركتم فيكم ما إن تمسكتكم بهما لن تضلوا من بعدي أبدا : كتاب الله وسنتي، عضوا عليهما بالتواجد". ومن شروط العودة إلى الكتاب والسنة : المعرفة" بما حق المعرفة أولا، ثم الحزم في تلقي التعاليم وتنفيذها على أرض الواقع. كما قال تعالى" يا يحيى خذ الكتاب بقوة" مريم ١١ وليكن شعارنا في هذه العودة" ما فرطنا في الكتاب من شيء". فمن أراد سعادة الدارين فليس له إلا دستور وحيد تلتحم فيه تعاليم السماء مع واقع الأرض، وتتعاقد فيه شريعة الله مع قوانين الكون لتسلك بالمؤمن سبيل النجاح والامتياز. ومن تعاليم هذا الدستور: "فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون" التوبة ١٢٣ ومن هديه صلى الله عليه وسلم " كلكم على نغرة من نغرة الإسلام، فليحذر أحداكم أن يؤتي الإسلام من قبله" الحديث.

إذن كل من موقعه وكل على حسب طاقته. ولا نخقر من المعروف شيئا، كما قال عليه الصلاة والسلام: " اتق النار لو بشرت قمره" الحديث.

ففي هذا الإطار تتوَلَّ هذه المساهمة المتواضعة والتي أردت أن أشير فيها إلى مظاهر الإعجاز الزراعي في القرآن الكريم والسنة. أسأل الله أن تكون خالصة لوجهه الكريم.

فموقعي هو تخصصي العلمي وهو الهندسة الزراعية والعلوم البيئية والبيولوجية، وثنغري، في هذه المرحلة، التي أرجو الله أن يوفقني لسدها، هي: دراسة مقومات النظام الزراعي في القرآن والسنة، بين مظاهره الإعجازية وأشكاله التطبيقية.

ويتكون هذا البحث من جزئين. الجزء الأول كلاسيكي وتقليدي كباقي البحوث في الإعجاز القرآني حيث نطلق من الظاهرة العلمية، أو الحقيقة التي توصل إليها العلم الحديث ثم ندلل عليها بالآية القرآنية. ونقول : أنظر: هذه الحقيقة العلمية التي اكتشفها جون أو كلود قد جاء بها الإسلام قبل ١٤ قرن. هذا جيد وجميل، لكن غير كافي، خاصة في هذا الكم الهائل من التحديات التي تعترض الأمة الإسلامية. فوجب علينا في هذه المرحلة أن نغير قليلا من هذه الاستراتيجية الكلاسيكية ونتجه الطريق العكسي، أقصد أن نطلق من الآية القرآنية لاكتشاف الحقيقة العلمية، فيكون إنجازنا اسلاميا مائة بالمائة، وهذا لا يعني أن نصم آذاننا عن العالم الخارجي وتطوراته العلمية، فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها، وأن نأخذ بزمام المبادرة ونتحول من مستهلكين للمعارف إلى منتجين لها.

صحيح أن القرآن كتاب هداية وليس كتاب علمي بدرجة أولى، لكن جل الآيات القرآنية تدعونا إلى التفكير والتدبر والتعقل: أفلا تعقلون، أفلا يدبروا القرآن، أفلا تذكرون... هذا يعني أن ننطلق من الآية كمجرد إشارة أو تلميح ثم نعمل عقولنا وإمكاناتنا لإنتاج حقيقة علمية. ولسنا ندعي أن هذه الحقيقة العلمية التي توصلنا إليها هي التفسير الوحيد أو المعنى الحقيقي للآية القرآنية وإنما هي مجرد اجتهاد في الفهم. والمجتهد مأجور في كل الحالات بشرط الكفاءة. وهذه المنهجية الجديدة هي التي اعتمدها في الجزء الثاني من هذه الدراسة.

فالجزء الأول يمثل مدخلا لدراسة النظام الزراعي في القرآن والسنة ومظاهره الإعجازية. أما الجزء الثاني فهو محاولة لصياغة الشكل التطبيقي لنظام زراعي خاص بالبيئة الصحراوية، ويستمد قواعده الأساسية من القرآن الكريم. وبالله التوفيق.

الجزء الأول : مدخلا لدراسة النظام الزراعي في القرآن والسنة ومظاهره الإعجازية

I - ١ - المبادئ العامة للنظام الزراعي في القرآن والسنة :

(١) الله هو الفاعل الحقيقي والإنسان عليه العمل وبذل الجهد:

. يقول الله تعالى في سورة يس: " وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون لياكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون" يس (٣٢-٣٤). أقر الله سبحانه في هذه الآية انه هو الذي يحيي الأرض وهو الذي يخرج الحب ويجعل الجنات ويفجر الأنهار. فهو المزارع الحقيقي على الاطلاق والانسان مجرد وسيلة. فالله سبحانه نسب الثمر إليه فقال "من ثمره"، إذن فهو المالك الحقيقي وفي الآن نفسه أكد على حقيقة أخرى وهي دور الإنسان وأهمية جده واجتهاده فقال : وما عملته أيديهم".

إذن فهذه المعادلة هي التي تقوم عليها فلسفة النظام الزراعي وأدبياته : الله هو المزارع الحقيقي والإنسان عليه أن يتعاطى كل الأسباب بجده وجهده وعقله لإنجاح هذه العملية. فله الأمر من قبل ومن بعد. وهذا ما يقره حتى غير المسلمين والباحثون في العلوم الزراعية، فيقولون إن القطاع الزراعي جد مرتبط بالكوارث المناخية والظواهر الطبيعية. ونحن نقول مرتبط بالقدرة الالهية، ويؤكد الله سبحانه هذا المعنى في العديد من الآيات، في نبرة من التحدي، لترسيخ هذا المفهوم في نفوس العباد.

- "أفرايتم ما تحرثون أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون، لو نشاء لجعلناه حطاما فظلمت تفكهون إنا لمفرمون بل نحن محرمون" (الواقعة ٦٧-٦٩)
- "أمن خلق السماوات والأرض وانزل لكم من السماء ماء فأنتبنا به حدائق ذات بحة، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها، إلاه مع الله" النمل ٦٢.
- والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام والحب ذو العصف والريحان فبأي آلاء ربكما تكذبان" (الرحمان ١١-١٢).

٢- النشاط الزراعي تميل إليه نفوس الناس: يقول تعالى في سورة آل عمران: "زين للناس حب الشهوات من النساء، والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث." (الآية ١٤)

فالنشاط الزراعي تميل إليه النفس البشرية بحكم الفطرة التي فطرت عليها. لذا فإن من أقدم الأنشطة الاقتصادية في تاريخ البشرية هي الزراعة وتربية الماشية.

٣- الماء هو الركيزة الأساسية لأي نظام زراعي:

فعملية إحياء الأراضي واستصلاحها ترتبط بتوفر عنصر الماء أو عدمه.

- "وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً فأخرجنا به حياءً ونباتاً وجنات ألفافاً". النبا ١٥-١٦.

- "وأنزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد". ق ٩-١٠.

- "وجعلنا من الماء كل شيء حي" الأنبياء ٣٠. وفي هذا المجال مظاهر إعجازية هامة ذكرها العديد من العلماء واطالوا شرحها وأطلقوا عليها اسم الظاهرة المائية وعملية الإحياء.

٤- التنوع في المحاصيل النباتية

يقول تعالى في سورة المؤمنون "الآية ١٨-٢١ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فاسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون، وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكلين وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون.

ويقول تعالى في سورة النحل: هو الذي أنزل لكم من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات". الآية ١٠-١١

لقد بينت هذه الآيات ان النظام الزراعي في القرآن مبني على تنوع المحاصيل والمنتجات النباتية. ومن الأصناف التي ركزت عليها هذه الآيات: الزرع والزيتون والنخيل والأعناب. فهذه الأنواع تمثل مختلف الطبقات النباتية: العشبية، والجنبية والشجرية. وتواجد هذه الطبقات في النظام الزراعي يمكن من التوازن الايكولوجي في هذه النظام البيئي.

وفي التركيز على هذا التنوع البيولوجي داخل النظام الزراعي، تعريض غير مباشر على مساوى الزراعات الوحيدة (mono culture) والتي أظهرت التجارب الزراعية الحديثة البعض منها مثل افتقار التربة، كثرة الأمراض والآفات النباتية والحشرات واكتسابها المناعة ضد المبيدات. وهناك أيضا إشارة إلى ضرورة احترام الدورة الزراعية وتداول المنتوجات على المقسم الأرضي الواحد خلال السنوات، وما فيها من منافع : كخصوبة التربة وارتفاع الانتاج والقضاء على الآفات الزراعية والحشرات. ناهيك عن الفوائد الاقتصادية والتقنية التي تمتثل لـ

في الاستعمال الأمثل للأرض واليد العاملة طيلة السنة.

ونلاحظ أيضا أن القرآن ركز في العديد من المواقع على عدة أنواع من المحاصيل التي يعرفها العرب مثل الرمان، الزرع، العنب، الزيتون والنخيل وهي أصناف مقاومة للظروف المناخية الصعبة وتتلاءم مع مختلف أصناف التربة. والنخيل الذي أولاه القرآن عناية خاصة، فيه من الإعجاز ما أطال في وصفه الباحثون والعلماء.

٥- التكامل بين الانتاج النباتي والحيواني :

يقول الله تعالى في سورة النحل: الله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، إن في ذلك لآية لقوم يسمعون. وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لنا خالصا سائغا للشاربين ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا. إن في ذلك لآية لقوم يعقلون. وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتا. الآية ٦٥-٦٨.

في هذه الآيات ذكر الله تعالى عملية الإحياء وما ينتج عنها من انتاج نباتي ثم قرنه بالانتاج الحيواني (وإن لكم في الأنعام) وفي هذا دلالة على أن النظام الزراعي يقوم على ركيزتين : الإنتاج النباتي والحيواني. ثم أضاف نوع آخر من الانتاج الحيواني إلى جانب الأنعام وهي تربية النحل وما فيها من إنتاج للعسل الذي هو شفاء وغذاء.

كما أشارت هذه الآيات إلى نشاط تكميلي للنشاط الزراعي (ومن ثمرات..) وهو الصناعة الغذائية التحويلية مثل عملية التخمر لانتاج الخمور والخل والحيز وتخمر الحليب لانتاج اللبن واشتقاق العدين من المنتوجات الجديدة انطلاقا من هذه الثمرات (استخراج الزيت من الزيتون واللبس من التمر، وعصير الفلال والمشروبات، والمرببات وتصبير الزيتون واستخراج الدقيق من القمح...) وفي هذه الصناعات دورة اقتصادية هامة وريح اقتصادي عظيم عبر عنه القرآن بالرزق الحسن. والذي نراه الآن هو ثورة حقيقية في عالم الصناعات الغذائية وتنوع المنتوجات التحويلية وآلاف المؤسسات والمصانع المختصة في هذا المجال والتي تجني أرباحا طائلة من هذا النشاط.

٦- النظام الزراعي نظام متوازن :

يقول تعالى في سورة الحجر : " والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم". الآية (١٩-٢١)

في كلمتي : موزون، وقدر معلوم هناك دلالة واضحة على أن النظام الزراعي الذي يؤسسه القرآن هو نظام متوازن ومتكامل يقوم على التوسط والاعتدال في كل مراحل الانتاج ابتداء من الحرث والسقي إلى المداوات والتسميد والجنني. فلا إفراط ولا تفريط. فالتوازن هو الركيزة الأساسية لضمان النجاح والاستمرارية لكل نشاط زراعي.

وها نحن نرى الآن الاهتمام المتزايد بهذا النوع من الزراعة وهو ما يعبر عنه بالزراعة المستدامة أو الزراعة البيولوجية. كما ارتفعت هذه الأيام أصوات حماة البيئة للحد من التلوث والاستغلال المفرط لثروات الأرض. إذن فهذا النظام الزراعي له رؤية جديدة لزراعة متطورة و متوازنة في الآن نفسه.

II- ٢- آليات النظام الزراعي في القرآن ومظاهرها الاعجازية :

يقول الله تعالى في سورة عبس: " فلينظر الانسان إلى طعامه إنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شققا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم" الآية ٢١-٣١.

تبرز هذه الآيات العوامل الأساسية والآليات التي يقوم عليها هذا النظام الزراعي وهي :

- العوامل المناخية: " إنا صببنا الماء صبا: هنا إشارة إلى جل التأثيرات التي تساهم في إنزال الغيث وهي الرياح، والسحب، الحرارة، التبخر... فالآية الكريمة اختزلت كل هذه العوامل في نتيجتها الطبيعية وهي نزول المطر.
- عوامل التربة: ثم شققنا الأرض شققا: تشير الآية إلى دور التربة في النظام الزراعي ككل وطرق الحرث وقلب الأرض.
- النبات: فأنبتنا.. وهذا العامل الثالث الأساسي لتحديد مدى نجاح العملية الزراعية، ويشمل ظروف عملية الإنبات ونوع البذور المستعملة.

فهذه العوامل الثلاثة هي التي تحدد مدى نجاح أي عملية زراعية. فهي معادلة ذات ثلاث عناصر: المناخ، التربة والنبات. وهذه الحقيقة التي أقرتها هذه الآية منذ ١٤ قرناً، تُدرس حالياً في الجامعات في أساسيات علم الهندسة الزراعية. فقبل إنجاز أي مشروع زراعي لا بد من دراسة العوامل المناخية لتلك المنطقة وتحديد مصادر المياه وتحليل نوعية الماء ونسبة ملوحته. وتحليل التربة مع معرفة نسبة المواد العضوية والمعدنية ونسبة نفاذيتها، وقوامها وحموضتها ونوعية الطين والرمل والطمث ونسبهم في التربة. وعلى ضوء هذه المعطيات نقوم باختيار النبات المناسب والدورة الزراعية المناسبة، ونوعية البذور.

وبعد ان ذكرت الآية أصنافا كثيرة من الإنتاج النباتي، بينت مصير هذا الإنتاج: متاعا لكم ولأنعامكم" فهو للإنسان ثم للحيوان الذي بدوره مسخر للإنسان ومصيره إليه. وفي تقديم الانسان على الحيوان في هذا الموقع حكمة بالغة وهي أنه يمكن للإنسان أن يستفيد من الإنتاج النباتي بالقدر الذي يحتاج إليه ثم يعطي للأنعام مالا يحتاجه وهو ما يعبر عنه بمخلفات الإنتاج النباتي كالتبن والنخالة التي يطرحها الانسان ويأخذ القمح فقط، وأيضا رديء الثمار ونوى التمر وورديء التمر وأوراق الخضروات وقشور الثمار وغيرها مما يساهم مساهمة كبيرة في تغذية الحيوانات. ولا يوجد أي تعارض مع الآية الكريمة من سورة السجدة التي يقول الله فيها " أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زراعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون الآية ٢٧ هنا قدم الله الأنعام على الناس. لأن هنا ذكر الله الزرع فقط ولم يذكر الثمار، فتغذية الأنعام تعتمد بدرجة أولى على مخلفات الزرع والزرع ذاته، خاصة الشعير والذرة والبقول والصبوية في حين أن غذاء الإنسان لا يعتمد على الزرع فقط بل على العديد من المنتجات الأخرى من بينها الأنعام ولحومها. وأيضا في تقديم الأنعام في هذا الموقع على الناس حكمة عظيمة وهي أن هذا التقديم يفيد التأكيد : التأكيد على سنة كونية و قدسية المنهج الرباني في هذا الكون: فالأنعام نظام غذائها نباتي وليس حيواني أو مختلط : الأنعام تأكل الزرع: قانون كوني. لكن في هذه السنين الأخيرة، اخترق الانسان هذه السنة الكونية وراح يطعم الأنعام طحينا حيوانيا بحجة الرفع من مستوى الإنتاج. فكانت النتيجة كارثية. فقد ظهر مرض جنون البقر وتسبب في هلاك الملايين من رؤوس الماشية. لذلك عقب الله سبحانه، هذه الآية بـ " أفلا يبصرون" أي اعتبروا أيها الناس بهذا المنهج الرباني ولا تخالفوه.

- إذن إذا أردنا تلخيص آليات النظام الزراعي في القرآن وكيفية عمله لقلنا:

- مناخ + تربة + نبات ← إنتاج نباتي ← استهلاك انساني

إنتاج حيواني

فالانتاج النباتي والحيواني هما ركيزتا النظام الزراعي الذي يديره ويشرف عليه الانسان كي يتمكن من العيش وإعمار الأرض. ولمعرفة المزيد عن آليات هذا النظام الزراعي أود أن أقف على العوامل التي تحدد الانتاج النباتي لاستخراج كنوزها الاعجازية التي وردت في القرآن.

١- الماء والعوامل المناخية: قدينا أن كل عملية استصلاح زراعي مرتبطة بهذا العامل كما وكيفا

يقول الله تعالى في سورة الملك: "قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين": الآية ٣٠

وفي هذه الآية أعجاز كبير ففي هذه السنين ومع كثرة استعمال الآبار الارتوازية، نلاحظ أن ضغطها قد نقص وبعد ان كان الماء يتدفق بصفة تلقائية بفعل قوة الضغط الداخلي، أصبح المزارعون ينفقون أموالا طائلة وإمكانيات هائلة لاستخراج المياه بالمضخات. كما أن الدراسات الحالية تشير إلى نقص في المخزون المائي بالموائد المائية في باطن الأرض.

وهذا ما ورد أيضا في سورة المؤمنون: وأنزلنا من السماء ماء بقدر فاسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون" الآية ١٨ فهذه الآية تلخص علما بأكمله يدعي الهيدروجيولوجيا الذي يعنى بالموائد المائية وتحركات المياه داخل الأرض وكميته ونوعيته.. أما الآيات التي اعنتت بنوعية المياه فنذكر منها في سورة الواقعة "أفرأيتم الماء الذي تشربون أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجا فولوا تشكرون". فنسبة الملوحة في الماء جد هامة ولها تأثير مباشر على الإنتاج.

٢- التربة: أكد القرآن الكريم ان الأراضي تختلف من نوع إلى نوع فقال تعالى في سورة الرعد: "وفي الأرض قطع متجاورات" الآية ٤، ثم بين الله ان هذا الاختلاف في نوعية التربة له تأثير مباشر على مستوى الانتاج. فقال في سورة الأعراف: والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا. لقد سمى الله في هذه الآية التربة بالبلد، وهذا قمة في الاعجاز. إذ أن التربة بمكوناتها وكائناتها الحية تشبه البلد. فهي تحتوي على مليارات الحشرات الصغيرة وعلى مليارات الكائنات المجهرية كالفطريات والبكتيريا التي تغذى على المواد العضوية وتحولها إلى مواد معدنية في إطار دورات جيوكيميائية: كدورة الأزوت والفوسفور والكبريت، فهذه المصانع للتحويل تشتغل بدون انقطاع طيلة السنة. كما تحتوي التربة على قنوات مياه السيلان والتبخر وتحتوي على الهواء والأكسجين للتنهون وتحتوي على مساكن تؤوي هذه الكائنات (حبيبات الرمل والطين والطمث). إذن بكل هذه الشبكات من العلاقات والأنشطة الحيوية بين الكائنات ومحيطها تمثل التربة بلدا بأم معنى الكلمة.

وكما ان البلد يمكن ان يكون متوازنا، متحضرا، تحكمه المبادئ والقيم كالعدل والحرية فينتج جيلا متحضرا واقتصادا راقيا وتقدما علميا رائعا، او يكون مجتمعا جاهليا، متخلفا، قمعيًا، منحلا فينتج جيلا فاسدا خبيثا. كذلك التربة يكون نتاجها حسب الظروف التي تحكمها ونوعية الكائنات التي تقطنها. فالاناء بما فيه يرشح. وهذا بحر زاخر من العلوم يسمى بعلوم الايكولوجيا الحيوانية وايكولوجيا الأحياء الدقيقة، يدرس علاقة الكائنات الحية بمحيطها وعلاقتها فيما بينها كما عبرت الآية الكريمة من سورة الأنعام عن هذا المعنى الجليل "وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم" الآية ٣٩.

وفي موضع آخر من القرآن ضرب الله لنا مثلا راعيا في جودة الأرض والتربة ودورها المباشر في الرفع من مستوى الانتاج فقد قال الله تعالى في سورة البقرة: "ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتشيئا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل ففعل" الآية ٢٦٤ وقد اختلف المفسرون في كلمة ربوة فمنهم من قال الأرض المرتفعة ومنهم من قال الأرض الطينية.

وعلى كل حال فإن هذه الأرض الطيبة إن توفرت لها كل الظروف الملائمة فهي تنتج ضعفين وإن كانت هناك بعض المشاكل مثل نقص المياه فإمّا تتمكن من انتاجها العادي وهذا راجع إلى خصوبة تلك التربة وغناها وقدرتها على الاحتفاظ بالماء.

وأختم موضوع التربة هذا بإشارة اعجازية في سورة الرعد وهي قوله تعالى: "أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا راييا وما توفدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال" (الآية ١٩). لقد بينت الأبحاث و التجارب الزراعية ان الأراضي التي تقع بالقرب من الوديان ومصباتها تكون خصبة وغنية (Terres alluviales). فهذا الذي ينفع الناس هو إشارة إلى عامل (floculation) وهو عبارة عن التصاق حبيبات الطين مع جزيئات المواد العضوية بواسطة بعض المعادن مكونة بذلك ما يعرف باسم (Complexe argilo-humique) الذي هو أساس مصدر خصوبة التربة وقدرتها على احتفاظها بالماء. فالذي يمكث في الأرض وينفع الناس هو هذا الجزء الهام من التربة الخصبة.

٣- النبات: إذن بعد تحري الأرض الطيبة وتوفر الماء يأتي العامل الثالث وهو النبات وعملية الإنبات. وكما أن التربة يمكن ان تكون طيبة او خبيثة، فكذلك النبات يمكن أن يكون طيبا أو خبيثا. يقول الله تعالى في سورة ابراهيم عليه السلام: " ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون. ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار". الآية ٢٧-٢٨ وقد فسر بعض المفسرون الشجرة الطيبة بالنخلة والشجرة الخبيثة بالحنظل لكن المثل يبقى عاما.

ففي هذه الآيات بين الله سبحانه صفات النبات الطيب: أصله ثابت أي جذوره ضاربة في الأرض وسليمة من الآفات كما أن فرعها في السماء أي جهازها الخضري من أوراق وأغصان أيضا سليما وينمو جيدا كما أنها تثمر في وقتها ويكون ثمرها طيبا، بعكس النبات الخبيث تكون جذوره مجتثة فوق الأرض فيكون ثمره خبيثا.

وفي هذا تلميح أيضا إلى دور البذور في إنتاج الثمر. ونحن في عصرنا الحالي نشهد ثورة حقيقية في مجال انتاج البذور وتحسين الأصناف والمشاتل بواسطة الهندسة الجينية. وتصب كل الجهود في تحسين الجودة في هذه العوامل الثلاثة: جذور سليمة ومقاومة للأمراض، جهاز خضري هام وثمار جيدة وكثيرة. إذن فهذه مقومات النبات الطيب.

كما تحدث الله سبحانه وتعالى عن آليات عملية الانبات فقال في سورة الأنعام "إن الله فائق الحب والنوى، يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون" ٩٦ فعملية الانبات تمر أولا بعملية الفلق ثم إخراج النبتة الحية من البذرة الميتة. ويواصل الله سبحانه وصف هذه العملية في نفس السورة فيقول "وهو الذي انزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا" الآية ١٠٠ إذن فعملية الانبات مرتبطة ارتباطا كليا بتوفر الماء، ومن هذا الماء أيضا يتكون الخضر، وهنا إشارة إلى اليخضور (Chlorophyll). فالماء واليخضور مع وجود الضوء يكونان عملية التمثيل الضوئي التي هي أساس كل إنتاج نباتي. فقد لخصت هذه الآية عمليات فسيولوجية جد معقدة داخل النبات.

إذن كانت هذه بعض الملامح الاعجازية في آليات النظام الزراعي ويقي المجال مفتوحا لمزيد من الفهم والتدقيق.

I - ٣- بعض النواحي التشريعية للنظام الزراعي في القرآن ومظاهرها الاعجازية :

يقول الله تعالى في سورة الأنعام: " وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابهه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين" الآية ١٤٢-١٤٣

لقد بين تعالى أنه هو الذي أنشأ هذه الجنات والبساتين، إذن فهو الصانع الحقيقي، والصانع أدرى بصنعه وأحكامها وتشريعها. بعد هذا التذكير، شرع الله بعض الأحكام التي تتماشى مع هذا النظام الزراعي والتي من شأنها أن تحفظه من الهلاك والاضمحلال وتضمن نجاحه وديمومته وفاعليته. فبعد هذا النداء ولفت الانتباه، أمر الله عباده بخمسة أوامر تشريعية فيها من البلاغة والاعجاز ما يدعو للتبصر والاعتبار.

١- كلوا من ثمره إذا أثمر : أي أن الأكل لا يكون إلا عند تمام النضج والإثمار، فقد أثبت العلم الحديث ان القيمة الغذائية للثمرة لا تكون متوازنة إلا عند اكتمال النضج. فهناك من التفاعلات الكيميائية والإفرازات والتحويلات الانزيمية من لا تتم إلا بتمام النضج نذكر منها بالأخص زيادة نسبة السكريات عند تمام النضج. كما ان في هذا التشريع صيانة للمحصول من الغش والاحتكار من طرف التجار لأن الثمار في أول وقته يكون ثمنه أغلى.

٢- آتوا حقه يوم حصاده: حقه يعني زكاته كي يبارك الله لنا في هذه النعم ويحفظها من الزوال وتزيد وتنمو. وفي هذه الزكاة فوائد اجتماعية واقتصادية يطول شرحها وفي قصة أصحاب الجنة في سورة (ن) عبرة كبيرة لماعني الزكاة. ودعني أتوقف هنا قليلا عند "يوم حصاده" لأن الثمار سريعا ما تتلف خاصة التي تحتوي منها على نسبة عالية من الماء. وهناك العديد من العمليات والتفاعلات البيوكيميائية التي تحدث في الثمرة التي من شأنها أن تنقص من قيمتها الغذائية أو تقود إلى إتلافها بالعديد من الحشرات أو الفطريات. فكي تكون زكاة طيبة أمرنا أن نسرع بإخراجها قبل إتلافها. وفي هذا الإسراع أيضا إشارة إلى توفير تكاليف الخزن، ففي يومنا الحاضر صار هذا النشاط ذو أهمية اقتصادية كتقنيات التبريد والتكثيف والتعبئة واللف وغيرها. وهناك عدة عوامل تتحكم في عملية الخزن: كالحرارة والرطوبة والتهوية وصارت هذه التقنيات علما قائما بذاته.

٣- ولا تسرفوا: هناك من المفسرين من قال في الأكل وهناك من قال إن الأمر عام في كل شيء وهذا أقرب للصواب. ولنذكر في هذا السياق بعض مظاهر الإسراف في النظام الزراعي

- الإسراف في الأكل: وما ينجر عنه من امراض وتبلد الطبع.
- الإسراف في الأسمدة واستعمالها: لأن ذلك يحدث اضطرابات فيسولوجية للنبته ويتسبب في تلوث البيئة والمياه مثل مادة النترات التي أصبحت تهدد المياه الباطنية والسطحية.
- الإسراف في استعمال الأدوية والمبيدات: تسبب في تلوث التربة والمياه والهواء بهذه السموم القاتلة. كما ان الثمار صارت مسمومة بهذه المواد مما أدى إلى ظهور العديد من العوارض والأمراض نتيجة هذا الاستعمال المفرط للمبيدات. كما ان الاسراف في استعمال هذه المواد أدى إلى نقص المناعة الذاتية للنبات واكتساب الحشرات الضارة مناعة قوية ضد بعض المبيدات مما يستوجب استعمال مبيد آخر أكثر سمية وأعلى ثمنًا ومن ثم الدخول في حلقة مفرغة تنهك المزارع من حيث الجهود والانفاق :
مبيد ← مناعة ← مبيد آخر ← مناعة أقوى
- كما أن الاستعمال المفرط للمبيدات يؤدي إلى إبادة كلية للحشرة الضارة وبالتالي إلى إبادة الحشرة المفترسة فيختل التوازن البيئي بين هذه الكائنات.
- لذا فإن الاستراتيجية العلمية الحديثة لمكافحة الحشرات تعتمد على الحد من المداوات الكيميائية وتعويضها بالمكافحة المتعددة حيث تلعب المكافحة البيولوجية دورا هاما. وفي هذا المجال ظهرت مدارس بأكملها متخصصة فيما يسمى بالزراعة البيولوجية للحصول على منتج طبيعي غير ملوث بالمبيدات والأسمدة.
- الإسراف في السقي: يؤدي إلى تعفن الجذور والتربة وتؤخر موعد النضج وانتشار الأوبئة والحشرات الضارة. وهنا أشير إلى تطور وسائل الري التي تمكن من الاقتصاد في المياه مثل الري قطرة قطرة الذي يوفر نصف كمية المياه المستعملة للري.
- الإسراف في استعمال الآلات الميكانيكية والآليات الثقيلة: لأن ذلك يسبب ضغط التربة خاصة عندما تكون مبللة. ونذكر أيضا أن كثرة الحرث والإسراف فيه يؤثر على قوام التربة ويعرضها لكثير الانجراف ويكون طبقة من التربة غير نافذة للماء تؤثر سلبا على نمو النبات.
- الإسراف في الاهتمام بكمية الانتاج على حساب نوعية المنتج: وأقصد هنا المحاصيل المعدلة جينيا وما يمكن أن تسببه من كوارث بيئية وصحية. فقد ثبت في علم الجينات أن تطوير الجين المسؤول على كمية الانتاج يؤثر سلبا على جينات المقاومة للحشرات أو نقص المياه أو الملوحة.
- إذن في هذه الدعوة من المشرّع لعدم الإسراف رؤية جديدة لزراعة متطورة ومتوازنة في نفس الوقت.

٤- كلوا مما رزقكم الله: كرر الله سبحانه دعوته عباده للأكل بعد أن ذكر الأنعام وأن منها ما يركب ومنها ما يفرض للذبح كما أورده المفسرون في قوله (حمولة وفرشا) داحضا بذلك مزاعم من حرموا أكل اللحوم. وتجديد النداء للأكل هنا ليس من باب الصدفة أو العبث حاشا لله، إنما فيه اعجاز من نوع جديد وهو الإعجاز الغذائي. فقد دعانا أولا إلى أكل النبات، وثانيا إلى عدم الإسراف وثالثا إلى أكل الحيوانات. وبهذا يكون القرآن الكريم قد أسس لعلم التغذية الذي يشهد تطورا ملحوظا هذه الأيام وما نراه من أمراض وآفات جراء سوء التغذية. فخلاصة التغذية السليمة في القرآن تعتمد على التوازن بين الاستهلاك النباتي والحيواني وعدم الإسراف. وهذا ما توصلت إليه الأبحاث الأخيرة في علم الطب. فالجسم بحاجة إلى كلا الجنسين من الأطعمة النباتية والحيوانية لأن كليهما يختص بأنواع محددة من الحوامض الأمينية والحوامض الدهنية الأساسية، والفيتامينات والمعادن وغيرها.

وأیضا في تحريم بعض الأطعمة مثل الميتة والدم ولحم الخنزير فوائد صحية وغذائية جد هامة، لذا قال الله "مما رزقكم الله" فما لم يحله الله في الأكل فهو يضر بصحة الإنسان مثل الخمر أيضا.

٥- ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين: وللشيطان لعنة الله أبواب كثيرة وخطوات كثيرة في المجال الزراعي لا بد من الابتعاد عنها كي ينجح النظام الزراعي ويستمر، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

- تربية الخنزير

- زراعة المخدرات والدخان وعب الخمر وما ينجر عنها من كوارث صحية واجتماعية وأخلاقية.

- التعامل بالربا لتمويل المشاريع الزراعية. وهذه الطامة الكبرى التي دخلت مجتمعاتنا الإسلامية وقضت على الأخضر واليابس من اقتصادنا. الكثير من السياسات الزراعية في أوطاننا قد أخفقت إخفاقا مشينا بسبب هذه القروض الربوية. وهي خطوة خبيثة من الشيطان لفتح باب الحرب مع الله ورسوله: "فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله" البقرة الآية ٢٧٨. فالخمر، الحذر من هذه الآفة الخطيرة وبهذه المناسبة أدعو الميسورين من هذه الأمة وأصحاب الأموال الطائلة إلى غلق هذا الباب الشيطاني وفتح باب من أبواب الله وهو القرض الحسن، لتشجيع الشبان والمحتاجين للاستصلاح الزراعي في إطار شرعي بعيدا عن الربا وعن خطوات الشيطان.

- تغيير خلق الله: كما قال تعالى على لسان الشيطان في سورة النساء: "ولأمرهم فليتبكن آذان الأنعام ولأمرهم فليغيرن خلق الله". الآية ١١٨ مثل قضية الاستسناخ الحيواني والبذور المعدلة جينيا وما فيها من آثار سلبية على التنوع البيولوجي والتوازن البيئي. فالعديد من الحيوانات والنباتات باتت مهددة بالانقراض بسبب الانجراف الجيني.

I - ٤ - الأبعاد الروحية للنظام الزراعي في القرآن والسنة:

* اعتبر العمل الزراعي عبادة ووسيلة لمرضات الله قبل كل شيء وطاعة لأمر الله سبحانه وتعالى: "هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً، فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور" الملك ١٥ وفي الحديث: من غرس شجرة، فاكل منها إنسان أو طير أو حيوان إلا كانت له صدقة. أو كما قال صلى الله عليه وسلم (الحديث)

*التأكيد على شرف العمل الزراعي وديموميته إلى يوم القيامة. في الحديث: إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها، فالرسول صلى الله عليه وسلم له رؤيا استشرافية ثابتة للمستقبل فقد حثنا على إعمار هذه الأرض وعدم الاستسلام إلى اليأس والتواكل والكسل حتى في أصعب الأوقات وأحلكها وهي القيامة.

* في وصف الله البساتين والجنان وما فيها من أثمار وأثمار ومهجة للناظرين، إنما يلفت أنظارنا إلى الجنة الأخروية ونعيمها الدائم. فجنان الدنيا زائلة لا محالة، ولا يداي حسنها مهما عظم أدنى جنان الجنة الأخروية. فمن لم يكسب جنة في الدنيا فيامكانه اكتسابها في الآخرة بعمله الصالح وتقواه. "من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها" الشورى ١٨

قل أؤنبؤكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات آل عمران ١٥
* علينا أن لا نتكبر ولا نفتخر إذا رزقنا الله البساتين والجنان في الدنيا، فتكون عاقبتنا الخسران كصاحب الجنة الذي قص الله قصته في سورة الكهف: "ودخل جنته وهو ظالم لنفسه.. الآية ٣٤، بل علينا ان نتواضع ونحمد الله على نعمه.

* علينا ان لا نركن إلى هذه الجنان او الحقول أو الضياع، فالكل زائل ولا يبقى إلا وجه الله: "كل من عليها فإن يبقى وجه ربك، ذو الجلال والأكرام" (الرحمان ٢٤-٢٥)

"إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاهم أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كان لم تغن بالأمس" يونس ٢٤.

هذا التشبيه بين الحياة الدنيا والزرع نجد في العديد من السور: الفتح، الحديد، الكهف... فالدنيا تغر كما يغر الزرع بيهجته واخضراره وهي أيضا سريعة الزوال كالزرع الذي يصير حطاماً وتنطفئ زينته. وفي هذا تحذير من الركون إلى الدنيا أو الاطمئنان إليها، والالتجاء إلى الله دائماً وأبداً والتضرع إليه.

* إلى جانب النظام الزراعي الحسي واستصلاح الأراضي وإحيائها، يشير القرآن الكريم إلى نظام زراعي آخر روحي، في ذات الانسان يقول الله تعالى في سورة الأنعام "أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون." الآية ١٢٣. فكما أن عملية الإحياء في الانتاج النباتي تتطلب عنصريين وهما الماء والنور للقيام بعملية التركيب الضوئي التي هي الوسيلة الوحيدة لنمو النبات وإثماره ، فكذلك يتم إحياء قلب الانسان الذي هو كالبذرة في وسط الأرض بماء الإيمان ونور العلم فينمو زرعه الذي هو عمله الصالح ويثمر المقامات الشريفة كالتقوى والورع والخوف من الله ورجاؤه، والصبر والشكر والمحبة والرضى وغيرها. "إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي" وبالتالي يحيى المؤمن بين الناس كزهرة في بستان من الأنوار والأثمار. وقلب الكافر والعياذ بالله كصحراء ظلماء مقفرة ليس فيها لا ماء ولا نور ولا حياة. ومهما أظهر الكفار من ارتقاء مادي وترف في وسائل العيش ورفاهية فهم لا يشعرون بتلك الطمأنينة وتلك السعادة الروحية ولذة العيش مع الله وبالله. فهم كالأنعام بل هم أضل.

في الأخير أريد أن أشير إلى مقاربة لطيفة ذكرها الإمام الغزالي في كتابه احياء علوم الدين وهي تعاطي الأسباب والتوكل على الله في كل الأعمال الدنيوية والأخروية. فكما أن المزارع يشق الأرض ويبذر ثم يعهده ويسقيه حتى ينمو ثم يتوكل على الله في نتيجة الحصول، فكذلك المؤمن عليه أن يتخذ كل أسباب الطاعة من عمل صالح وتوبة وعبادات ثم يتوكل على رحمة الله ولا يقول الله غفور رحيم ويترك العمل، فمن زرع حصد.

I - ٥ - خاتمة:

إذن كانت هذه مجرد إشارات وهوامش وإيجآت أوحى لنا هذه الايات الكرميات لتصوغ لنا نظاما زراعيا متكاملا ومتوازنا فيه من الإعجاز ما يعجز عنه القلم ويغرس له اللسان ويخشع له الجنان. ولو خصصنا آلاف الصفحات والمجلدات ما أذينا حقها وما استوفينا معانيها. كما قال تعالى: " قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا" الكهف.

فنكتفي في هذه الورقات بهذه الإشارات ورب إشارة أبلغ من عبارة. وفي الختام أجدني مضطرا لأختم هذه الخاتمة بإشارة أخرى من هديه صلى الله عليه وسلم وهي حادثة التأبير المشهورة. فقد نهي الرسول صلى الله عليه وسلم أهل المدينة عن تأبير النخيل، فلما لم تنتج التمر وسألوه عن ذلك قال: أنتم أدرى بشؤون دنياكم. وفي هذا دلالة واضحة على أهمية اكتساب الخبرة ودور التجارب الميدانية والأبحاث العلمية في النهوض بالنظام الزراعي. فهذه الواقعة يعبر عنها في علم المنهجيات بالخطأ التعليمي، وهي منهجية علمية معتمدة كثيرا في التجارب الزراعية وعلم الإحصاء الحيوي: أي نفرق بين مقسم شاهد ومقسم معالج لنصل إلى نتيجة علمية. وبهذا يكون الرسول صلى الله عليه وسلم أول المؤسسين للمنهج التجريبي وأول من دعى إلى اعتماد البحث العلمي لتطوير النظام الزراعي.

"سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق" فصلت ٥٢.

الجزء الثاني : محاولة لصياغة الأشكال التطبيقية لنظام زراعي خاص بالبيئة الصحراوية يستمد قواعده الأساسية من القرآن الكريم

I - 1 مـدخـل

بعد التعرف على مقومات النظام الزراعي في القرآن والسنة ووضوح ملامحه و معالنه ارتأينا أن نخرج هذه الرؤيا العامة من عالمها النظري إلى واقعها التطبيقي. فالعلم النافع في الإسلام ليس العلم من أجل الترف المعرفي فقط بل هو الذي يلازمه العمل كما هو الشأن بالنسبة للعالم الغربي المتقدم الذي نجح في تحويل النظريات العلمية إلى تكنولوجيا، كانت ولا تزال قوام فضته. إذن فما هي مجالات وحدود تطبيق هذا النظام الزراعي العام على أرض الواقع.

فمن موقعي كمهندس زراعي متخصص في الزراعة الصحراوية، وبما أن معظم الأراضي العربية تقع في المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية. ارتأيت أن أوجه اهتمامي حول هذه البيئة الجافة، خاصة وان القرآن الكريم والسنة النبوية أولوا اهتماما بالغا بالنخيل الذي هو الميزة الأساسية لهذه المناطق. كما نلاحظ أن جل الآيات التي قدمناها في الجزء الأول من هذه الدراسة، ذكر فيها النخيل كركيزة أساسية للنظام الزراعي العام. إن معظم أراضي الوطن العربي تزخر بثروات مائية جد هائلة وسواعد قوية ماهرة غير أن هذه الأوطان تشكو حدة الجوع والفقر وعدم الاكتفاء الذاتي الغذائي ولا تزال تستورد قوتها من وراء البحار مما يهدد أمنها وسيادتها وحرمتها.... وهذا يفسر تبيعتها للغرب في شتى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية...وقد قيل: "السلاح الأخضر أقوى سلاح ومن أمثلكه ربح المعركة". والوطن العربي مؤهل أكثر من غيره أن يمتلك هذا السلاح، فكل العوامل متوفرة: الأرض، الماء، اليد العاملة.... لكن شريطة وجود إرادة صادقة وعمل جدي متواصل لكسب هذا الرهان، وهنا ومن باب التفاؤل لا بد من التذكير بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لن تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب جنات وعيون"

فالإنسان العربي منذ القدم دأب، بكل ما توفر لديه من وسائل مادية وتجارب ميدانية على تحقيق هذه الغاية، وكذلك في عصرنا هذا هناك عدة محاولات قيمة للاستصلاح الزراعي وتعمير الأراضي خاصة بعد ظهور التقنيات الفلاحية المعاصرة مثل الرش الحوري.

لكن يبدو أن طريقة إدخال هذه التقنيات لم تكن بصفة مدروسة ولم تراع خاصيات البيئة الصحراوية مما أدى إلى ظهور العديد من المشاكل التقنية والعوائق الاقتصادية.

فهذه الدراسة تعتبر محاولة لإعطاء نفس جديد لطريقة الإستصلاح الزراعي بالصحراء في إطار نظام زراعي جديد ومتكامل يوازن بين الخصائص البيئية للمنطقة ومتطلباتها السوسيوإقتصادية من جهة وبين التقنيات الفلاحية الحديثة من جهة أخرى ويستمد قواعده الأساسية من القرآن الكريم والسنة المطهرة. وقد ارتأينا أن نطلق على هذا النظام الزراعي اسم جنان الصحراء.

II 2- المقومات الأساسية للنظام الزراعي المقترح : جنان الصحراء

من أهم الخصائص التي تميز هذا النظام الزراعي أنه يستمد مبادئه الأساسية من القرآن الكريم ولا أتجور أن أقول بأنه التفسير القطعي والحقيقي للقرآن، إنما هو استقراء وإحفاء من بعض الآيات القرآنية التي من خلالها انطلقنا لإرساء القواعد العامة لهذا النظام الزراعي الجديد وهنا أركز على كلمة "جديد" لأنه في الحقيقة لم يسبق وجود مثل هذا النظام الزراعي لا نظريا ولا تطبيقيا. ونحن في مرحلة أولى سوف نقوم بالتنظير لهذا النظام وأساسه ودراسته دراسة موضوعية دقيقة على أن يتولى أصحاب القرار والمستثمرين في القطاع الفلاحي تجسيده ميدانيا على ارض الواقع.

يقول الله جل وعلا في سورة الرعد: " وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل" صدق الله العظيم

جاءت هذه الآيات لتبين طبيعة الاستصلاح الزراعي وترسم الملامح العامة لنظام زراعي شامل ومتكامل خاص بالبيئة الصحراوية حيث العوامل جد قاسية، فأقرت هذه الآيات بأن هذا النظام يتكون من ثلاثة عوامل أساسية النخيل، الزرع، الأعناب. في الآن نفسه تمثل هذه الزراعات نسيج إيكولوجي رائع متكون من ثلاثة طبقات نباتية مختلفة:

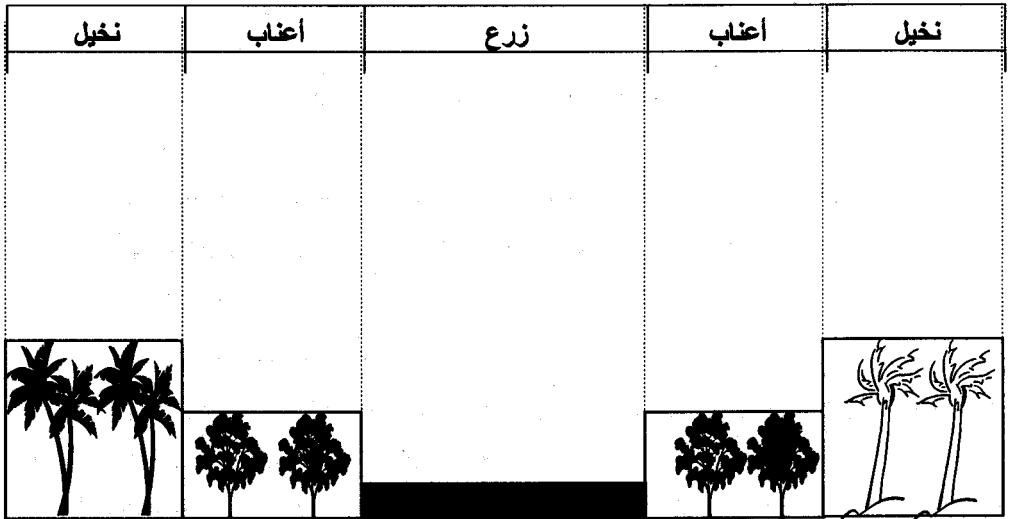
(١) الزرع : الطبقة العشبية

(٢) الأعناب : (او الأشجار المثمرة بصفة عامة) الطبقة الجنبية

(٣) النخيل : الطبقة الشجرية

لكن هذه الآية لم تبين طريقة ترابط هذه الطبقات الثلاثة ولا العلاقة التفاعلية بينها فجاءت الآيات من سورة الكهف لتبين مواقع هذه الطبقات الثلاثة وتصوغ الملامح النهائية لهذا النظام الزراعي المتكامل في إطار من التدرج المنطقي والإنسجام الإيكولوجي لا مثيل لهما في أي نظام زراعي آخر. واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحققناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً كلنا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نهراً.

أقرت الآية بأن النظام الزراعي المقترح يتكون أساساً من جنتين من أعناب (الطبقة الجنبية) يحيط بهما النخيل (الطبقة الشجرية)، وبين هاتين الجنتين الزرع (الطبقة العشبية). كما بينت الآية الكريمة النتيجة الحتمية لهذا الترابط بين الطبقات النباتية الثلاثة وهي الرفع من مستوى الانتاج (كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً) أي أنه لا يوجد خسائر في الانتاج نتيجة توفير كل العوامل الملائمة لإنتاج جيد كما وكيفا. ولو أردنا أن نرسم شكلاً مبسطاً لهذا النظام لكان كالآتي: (رسم رقم ١)



رسم رقم ١. شكل مبسط للنظام الزراعي المقترح

II - 3- الفوائد والتأثيرات العامة لهذا النظام الزراعي

يعد هذا النظام الزراعي تركيبة نباتية فريدة من نوعها لها فوائد وتأثيرات جد إيجابية على مستوى المناخ والتربة مما يساهم مساهمة فعالة في الرفع من مستوى الإنتاج من ناحية وتحقيق التوازن الأيكولوجي لجميع الكائنات المتواجدة بهذه المنطقة.

(1) الفوائد المناخية :

- إحداث مناخ مصغر ذات عوامل مناخية أقل حدة من المناخ العام السائد
- التخفيف من حدة الرياح: عامل الرياح يمثل أخطر العوامل التي تهدد الانتاج النباتي بالمنطقة خاصة بالنسبة للطبقة العشبية (الزرع). في هذا النظام يلعب التخييل دور جدار أولي من مصدات الرياح لحماية الأشجار المثمرة إذ أنه يآثر على ارتفاع هام في حين أن نفاذية منطقة الجذع تعتبر جد هامة. فتأتي الطبقة الجنبية (الأشجار) لتكوّن جدارا ثانيا من مصدات الرياح ذات نفاذية منخفضة وارتفاع منخفض وبالتالي فإن نسبة الرياح الواصلة إلى الطبقة العشبية (الزرع) غير معتبرة وفعاليتها جد ضعيفة، علما وأن هذه الطبقة هي أكثر الطبقات حساسية ضد الرياح.
- التخفيض من حدة جفاف الهواء: هذا النظام بتركيبته هذه وطبقاته النباتية يوفر جواً أكثر رطوبة.
- التخفيض من درجة الحرارة والفارق الحراري بين الليل والنهار.
- التخفيض من نسبة التبخر وبالتالي اقتصاد أكثر في نسبة مياه الري.

(2) التأثيرات على مستوى التربة :

- * تعديل درجات حرارة التربة والتقليص من الفارق الحراري يؤدي إلى تحسين حركة الكائنات المجهرية داخل التربة وبالتالي تحسين في نسبة تحلل المواد العضوية.
- * إن هذه الطبقات النباتية لها ثلاث مستويات للامتصاص وبالتالي هناك نوع من توازن المواد الكيميائية في هذه المستويات المختلفة من التربة.

(٣) الفوائد السوسيو اقتصادية :

* تنويع الإنتاج بالمناطق الصحراوية يؤدي إلى الاكتفاء الذاتي الغذائي للسكان وبالتالي توفير مصاريف النقل من أماكن بعيدة.

* توزيع المحاصيل بالمزرعة يساهم في تخفيف الخسائر في حالة الكوارث الطبيعية والتقلبات المناخية والاقتصادية.

* استعمال أمثل للأرض واليد العاملة طيلة أيام السنة.

* تناسق هذه الطبقات النباتية الثلاثة يعطي منظرا طبيعيا رائعا وظروف عيش أكثر رفاهية وجمالا.

II-٤- الشكل التطبيقي لهذا النظام الزراعي المقترح : جنان الصحراء

إذا أردنا إسقاط النظرية وتطبيق هذا النظام على الواقع وبلورته في شكل مزرعة نموذجية، آخذين بعين الاعتبار الوسائل التقنية الموجودة في الميدان الفلاحي، لخلصنا إلى صياغة وحدة انتاجية تمثل الوحدة الأساسية المكونة لأي مشروع استثماري في الميدان الفلاحي بالمناطق الصحراوية.

تتكون هذه الوحدة الانتاجية من :

(١) الزراعات الكبرى

تتوسط المزرعة وتكون على شكل دائري نظرا لوسائل الري المتوفرة: اخور الرشاش. ويمكن زراعتها بعدة محاصيل حقليّة مثل: قمح- شعير- علف- برسم- لفت سكري أو علفي- بطاطا- ذرة- فول- حمص- شوفان - كاكاو.

ويجب أن نعتد دورة زراعية معينة ونلتزم بها لتفادي السلبات الزراعية مثل الأمراض، الأعشاب الضارة و نقص المرودية.

(٢) الأشجار المثمرة

تتكون من قطعتين (جنتين) تحيطان بالمساحة الدائرية. وتتكون كل قطعة من المساحتين الجانبيتين اللتين تحيطان بالمساحة الدائرية المخصصة للزراعات الكبرى وشريط مستطيل عرضه شعاع الدائرة وطوله قطر الدائرة (أنظر الرسم رقم ٢).

وفي هذه المساحة يمكن غراسة العنب، الزيتون الرمان، التين... وتكون طريقة الري قطرة قطرة للاقتصاد في كمية المياه المستعملة.

وحرصا لتنويع المحاصيل الزراعية بهذه الوحدة الانتاجية ارتأينا أن نقم الزراعات البلاستيكية وتربية الماشية. ولأسباب فنية وتقنية ارتأينا أن نخصص المساحة الجانبية للدائرة للقيام بهذه الأنشطة.

فتكون المساحة موزعة كالتالي:

- جانبان مخصصان للزراعات البلاستيكية مثل الطماطم، الفلفل، القرع، البطيخ، الخيار، الفراولة، حيث نستعمل طريقة الري قطرة قطرة.

وهكذا تكون البيوت البلاستيكية محمية من الرياح (بالأشجار والنخيل) وفي الآن نفسه معرضة بصفة كلية لأشعة الشمس.

- جانب ثالث مخصص للمخازن وماوى للآلات الفلاحية.

- جانب رابع مخصص لزرائب الحيوانات مثل الأبقار، الأغنام والدجاج...

إذ أنه في هذا الموقع تكون الظروف الحياتية أقل حدة وأكثر ملاءمة لمتطلباتها الفزيولوجية: محمية من الرياح وأقل جفافا وحرارة وفي الآن نفسه قريبة من المساحة المخصصة للزراعات الكبرى والعلفية لسهولة الرعي ونقل القطعان.

وبهذا نكون قد أقحمنا الانتاج الحيواني مع الانتاج النباتي، مستفدين بذلك من كل الفوائد الزراعية الناتجة عن هذه العلاقة التكاملية مثل توفير الغبار الطبيعي لتسميد الأرض واستغلال مخلفات المحاصيل لتغذية الحيوانات.

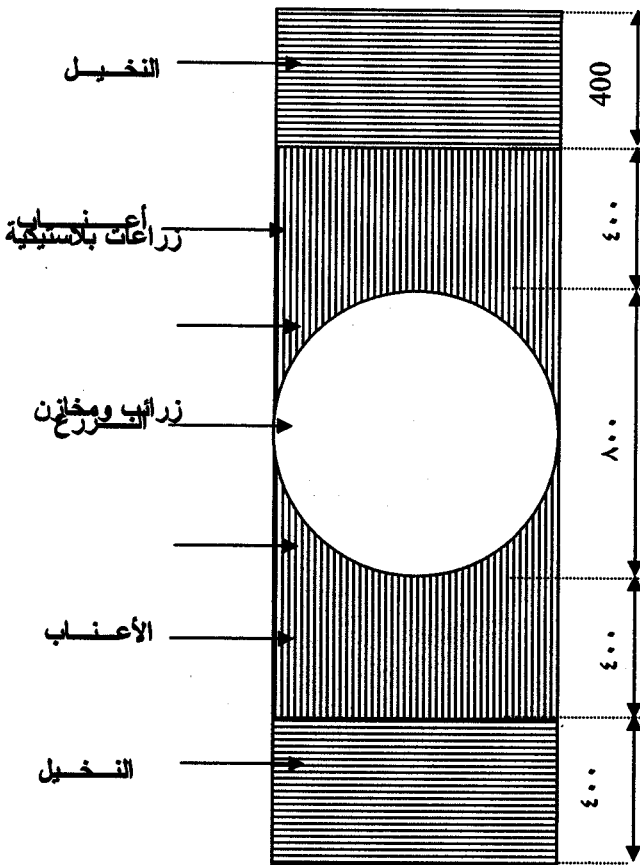
٣) النخيل :

تتكون المساحة المخصصة للنخيل من شريطين مستطيلين يحيطان بالمساحة المخصصة للأشجار المثمرة ويكون عرض كل شريط : شعاع الدائرة. (رسم ٢)

وبهذه الطريقة يكون هناك توازن بين المساحات المخصصة للأشجار والزرع والنخيل. فالآية ذكرت لفظ جنتين من أعناب (مثنى) والزرع والنخيل مفردين ونكرتين فارتأينا أن تكون المساحة المخصصة للأشجار هي الأهم مقارنة بالأصناف الأخرى وهناك تقارب في المساحة بين النخيل والزرع.

وحسب الشكل العام للوحدة الانتاجية فإن شعاع الدائرة المخصصة للزراعات هو الذي يحدد مساحة كل صنف من الأصناف.

مثال : قطر دائرة اعمور الرشاش ٨٠٠م، أي أن الشعاع: ٤٠٠م، فتكون مساحة الدائرة ٥٠ هـ ومساحة الأشجار المثمرة ٧٨ هـك، منها ١٤ هـ المساحة الجانبية للدائرة، ومساحة النخيل ٦٤ هـك، والمساحة الجمالية ١٩٢. إذن نلاحظ أن هناك نوع من التوازن بين المساحات مع تفوق ملحوظ للأشجار بالنسبة للنخيل والزرع.



هكذا نكون قد حصلنا على وحدة انتاجية نموذجية، متكاملة الانتاج النباتي والحيواني، طبقا للنباتية منسجمة ومتناسقة، مسخرين في ذلك "كل تطور علمي وتقني في الميدان الفلاحي.

(أنظر الرسم رقم ٢)

الرسم رقم ٢: الخطل العام للوحدة الانتاجية النموذجية

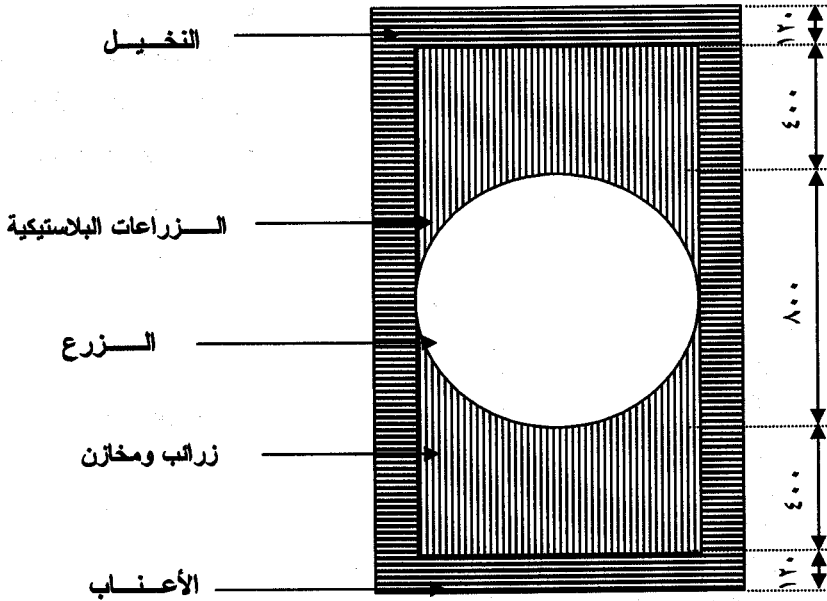
II-5- ملامح المزارع النموذجية المنبثقة عن هذا النظام الزراعي :

١- المزارع النموذجية ذات الحجم الصغير : وهي المزارع التي تتكون من وحدة إنتاجية نموذجية واحدة. في هذا النوع من المزارع يجب علينا أن نغير قليلا من شكل الوحدة ونجعل من النخيل يحف كلا الجنين من كل الجوانب فوجب علينا أن نخفض قليلا من عرض شريط النخيل.

مثال: شعاع دائرة المحور الرشاش ٤٠٠ م. (رسم رقم ٣)

مساحة الزرع : ٥٠ هـ - مساحة الأشجار : ٧٨ هـ

مساحة النخيل : ٦٤ هـ. وتتكون المساحة المخصصة للنخيل من شريط عرضه ١٢٠ م تقريبا يلف كل المزرعة. إذن نلاحظ ان عرض الشريط قد أصبح ١٢٠ م بعد أن كان في الوحدة النموذجية ٤٠٠ م. إذن فهو نظام مرن حسب مساحة المشروع المزمع بعثه، المهم ان نحترم موقع الطبقات النباتية بعضها البعض والتناسب بين المساحات.



الرسم رقم ٣، الشكل العام لمزرعة نموذجية صغيرة

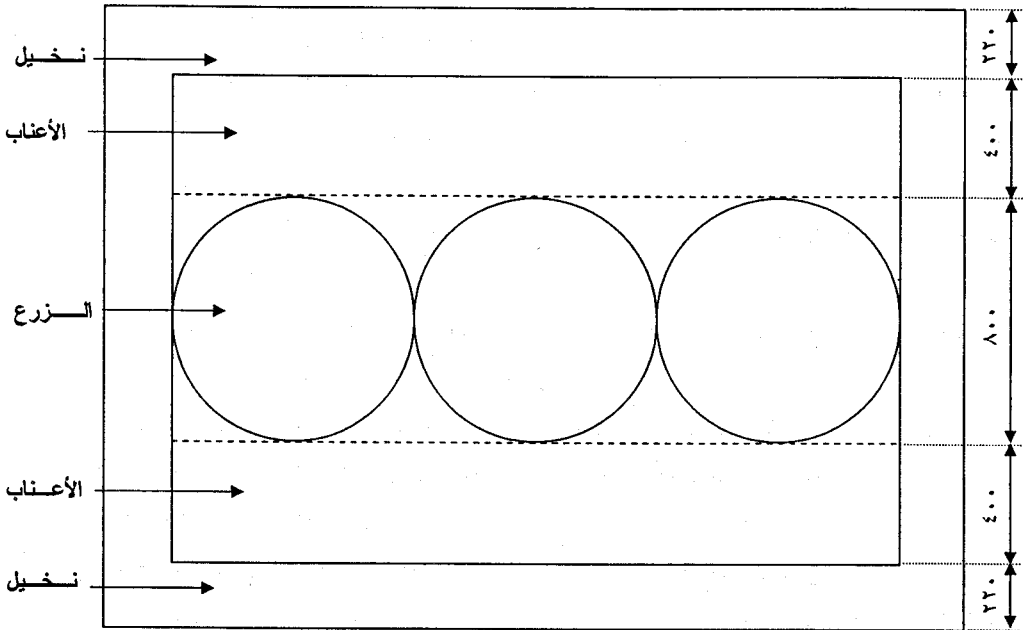
٢- المزارع النموذجية ذات الحجم المتوسط : وهي المزارع التي تتكون من وحدتين نموذجيتين فأكثر. ولا يتجاوز عددها ١٥ وحدة لأن المزارع التي تنظم ١٦ وحدة تنطوي تحت المزارع العملاقة التي سنتحدث عنها آنفا.

مثال: مزرعة نموذجية تتكون من ٣ وحدات إنتاجية نموذجية. (رسم رقم ٤)

- مساحة الزرع: $3 \times 50 = 150$ هك . شعاع محور الرشاش : ٤٠٠ م

- مساحة الأشجار : $3 \times 78 = 234$ هك . عرض الشريط : ٤٠٠ م

- مساحة النخيل : $3 \times 64 = 192$ هك . عرض الشريط : ٢٢٠ م تقريبا



الرسم رقم ٤: الخلل العام لمزرعة نموذجية متوسطة الحجم

٢- المزارع النموذجية العملاقة :

تندرج هذه المزارع في إطار إحياء الأراضي على نطاق واسع وإنشاء القرى الفلاحية. وتتطلب رؤوس أموال طائلة إلا أن لها أهمية قصوى في مجال تعمير الأراضي والاكتفاء الذاتي الغذائي وكذلك امتصاص اليد العاملة التي تعاني من البطالة. وتتكون المزرعة النموذجية العملاقة من ١٦ وحدة إنتاجية نموذجية فأكثر.

وفي صياغة هذه القرى الفلاحية علينا أن نراعي المبادئ العامة للنظام الزراعي المعتمد وفي الآن نفسه علينا ان نعقد عاملا جديدا ذات أهمية قصوى وهو عامل الإنسان وقيمة ظروف عيشه، فلا بد إذن من إدخال حي سكني تتوفر فيه المقومات الأساسية للحياة العادية لأي إنسان. كما يمكن أن تضم هذه القرى الفلاحية مجموعة من المصانع لتعبئة وتعليب المنتجات الفلاحية كمصانع التمور ومراكز تجميع الحليب ومحطات تخزين وتبريد. ويكون الشكل العام للقرية الفلاحية كما يلي:

الحي السكني يكون متمركزا في وسط القرية ويحيط به حزام من النخيل ثم من الأشجار المثمرة ثم تأتي بعد ذلك المساحة المخصصة للزراعات الكبرى ثم من جديد حزام من الأشجار المثمرة وأخيرا تأتي مساحة النخيل لتلف كل القرية. وبهذا نكون قد حققنا فوائد عدة.

- لقد حافظنا على المبادئ العامة للنظام الزراعي المتبع : فالزراعات محاطة بالأشجار من الجانبين وهذه الأخيرة محاطة أيضا بالنخيل من الجانبين.

- المنطقة السكنية بحكم موقعها، تمتاز بظروف مناخية أقل حدة فهي محمية من الرياح وخاصة الرياح الرملية، والجو أكثر لطفا بسبب الطبقات النباتية التي تحيط بها.

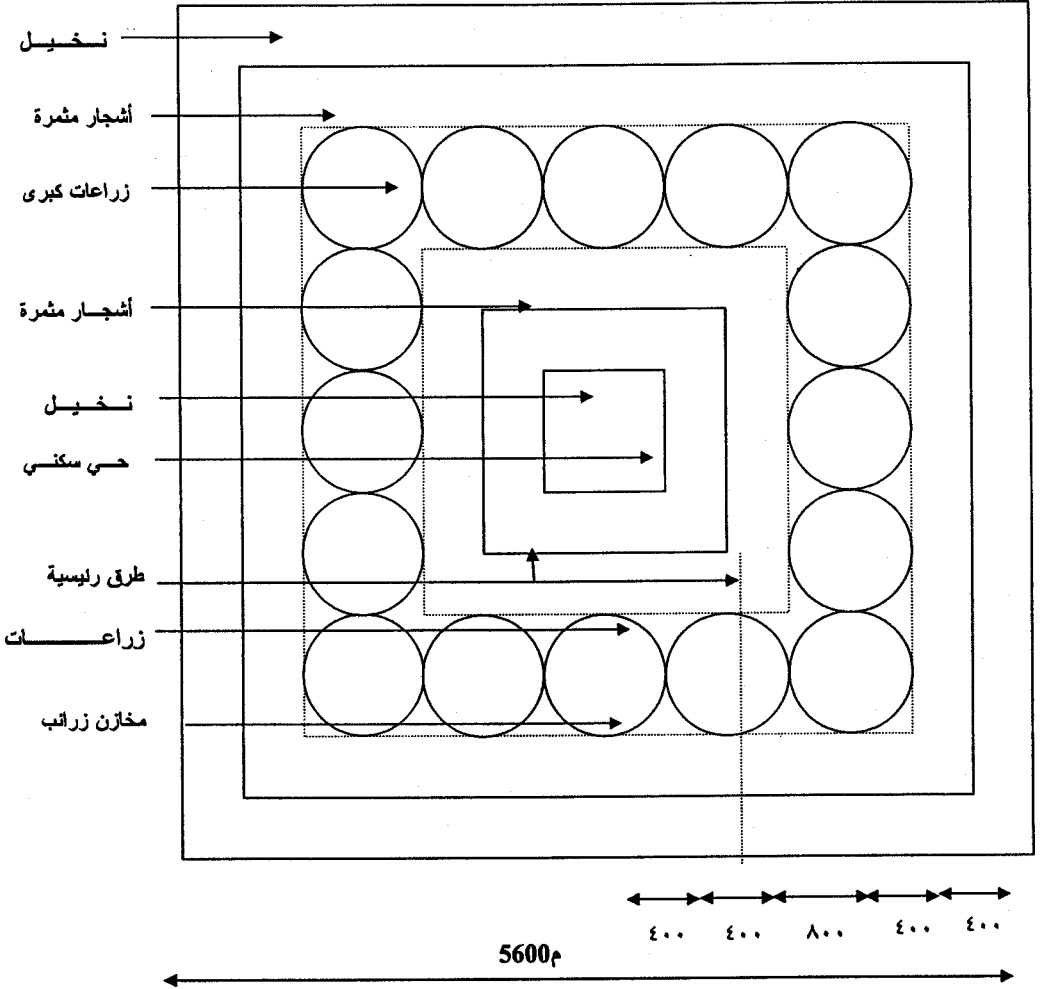
- بالنسبة للمساحة المخصصة لكل نوع من المنتجات فهي أيضا متوازنة ولا توجد أي صعوبة في حساب الأبعاد والقياسات : فعزام الأشجار المثمرة والنخيل يكون عرضه مساويا لشعاع الدائرة التي تكون الوحدة الإنتاجية النموذجية المستعملة.

- ولزيتون من الإيضاح، لنفترض قرية فلاحية تتكون من ١٦ وحدة إنتاجية نموذجية.

وتكون القرية الفلاحية على شكل مربع يتكون ضلعه من ٥ وحدات إنتاجية ويتمركز الحي السكني في وسط ذلك المربع وتكون مساحته حسب هذا التصميم ثلث مساحة للوحدة الإنتاجية المستعملة (أنظر رسم رقم ٥).

- ❖ مساحة المزرعة : ١٦ X مساحة (و.إ.ن) = ١٩٢ X ١٦ = ٣٠٧٢ هك
- ❖ مساحة الحمي السكني ١/٣ X مساحة (و.إ.ن) = ١/٣ X ١٩٢ = ٦٤ هك
- ❖ المساحة الجملية للقريبة الفلاحية = ٣٠٧٢ + ٦٤ = ٣١٣٦ هك
- ❖ مساحة الزراعات ٨٠٠ هك
- ❖ مساحة الأشجار : ١٢٤٨ هك
- ❖ مساحة النخيل : ١٠٢٤ هك

وتبقى هذه الطريقة في الحسابات هي نفسها مع مراعات اختلاف عدد الوحدات المستعملة ونوع الوحدة المستعملة أيضا.



الرسم رقم 5، مزرعة نموذجية عملاقة (قرية بلاحية)

II - ٦ - خاتمة :

في هذه الدراسة، انطلقنا من آيات قرآنية كريمات لنشيد صرحا عظيما في مجال الاعجاز الزراعي في القرآن والسنة النبوية. وتمكنا بفضل الله سبحانه من بلورة الملامح الأساسية لنظام زراعي يستمد مقوماته الأساسية من القرآن والسنة. وانبثق من هذا النظام العام شكلا تطبيقيا خاصا بالمناطق الصحراوية أطلق عليه اسم جنان الصحراء، يوازن بين خاصيات البيئة الجافة ومتطلبات العصر التكنولوجية والسوسيو اقتصادية في إطار من التدرج المنطقي والتناسق الايكولوجي.

لقد قدمت هذه الدراسة الفوائد المناخية والبيئية والسوسيو اقتصادية والتأثيرات الإيجابية على التربة مما يساهم في الرفع من مستوى الإنتاج وتحسين مردودية المحاصيل، كما شكلت الرسم التطبيقي للمزارع النموذجية المنبثقة عن هذا النظام والخاصة بكل أحجام المشاريع : الصغرى والضحمة والعملاقة.

لكن بالرغم من الأدلة الموضوعية والمنطقية التي قدمناها، تبقى هذه الدراسة وثيقة نظرية جد هامة لأي مشروع استثماري تحتاج إلى تطبيقها على أرض الواقع وملامسة فوائدها الاقتصادية ميدانيا لا نظريا فقط. كما انه لا بد من دعمها بدراسة تقنية واقتصادية جد مفصلة لتحديد كل الوسائل والمقاييس التي يمكن استعمالها، وتعيين كلفة المشروع والمصاريف اللازمة وكذلك قيمة الأرباح والعوائد الاقتصادية.

كما أن هذه الدراسة لا تخلو من الثغرات والنقائص، لذا فإنني أوجه الدعوة لكافة المتخصصين وذوي الخبرة في الميدان الفلاحي لنقد هذه الدراسة وتقديم الاتراءات اللازمة والإضافات البناءة. كما أدعو كافة المستثمرين في الميدان الفلاحي إلى اعتمادها كوثيقة أساسية لإنجاز مشاريعهم الاستثمارية.

تمت بفضل الله وحمده في الثالث من رمضان ١٤٢٤

المراجع

- مختصر تفسير ابن كثير : ابن كثير
- صفة التماسك : محمد بن علي الصابوني
- تفسير الجلالين : جلال الدين بن أحمد الخلي
- جلال الدين بن ابن بكر السيوطي
- مختصر تفسير القرطبي : الإمام القرطبي
- آيات التوحيد : د/ محمود سراج الدين عفيفي
- توحيد الخالق : عبد الحميد الزنداني
- الإشارات العلمية في القرآن الكريم : د/ كارم غنيم
- بين النظرية والتطبيق

: عبد الله عبد الرازق السعيد

- الرطب والنخلة في الإعجاز الطبي في
القرآن الكريم

: د/ كمال الدين حسن البتانوي

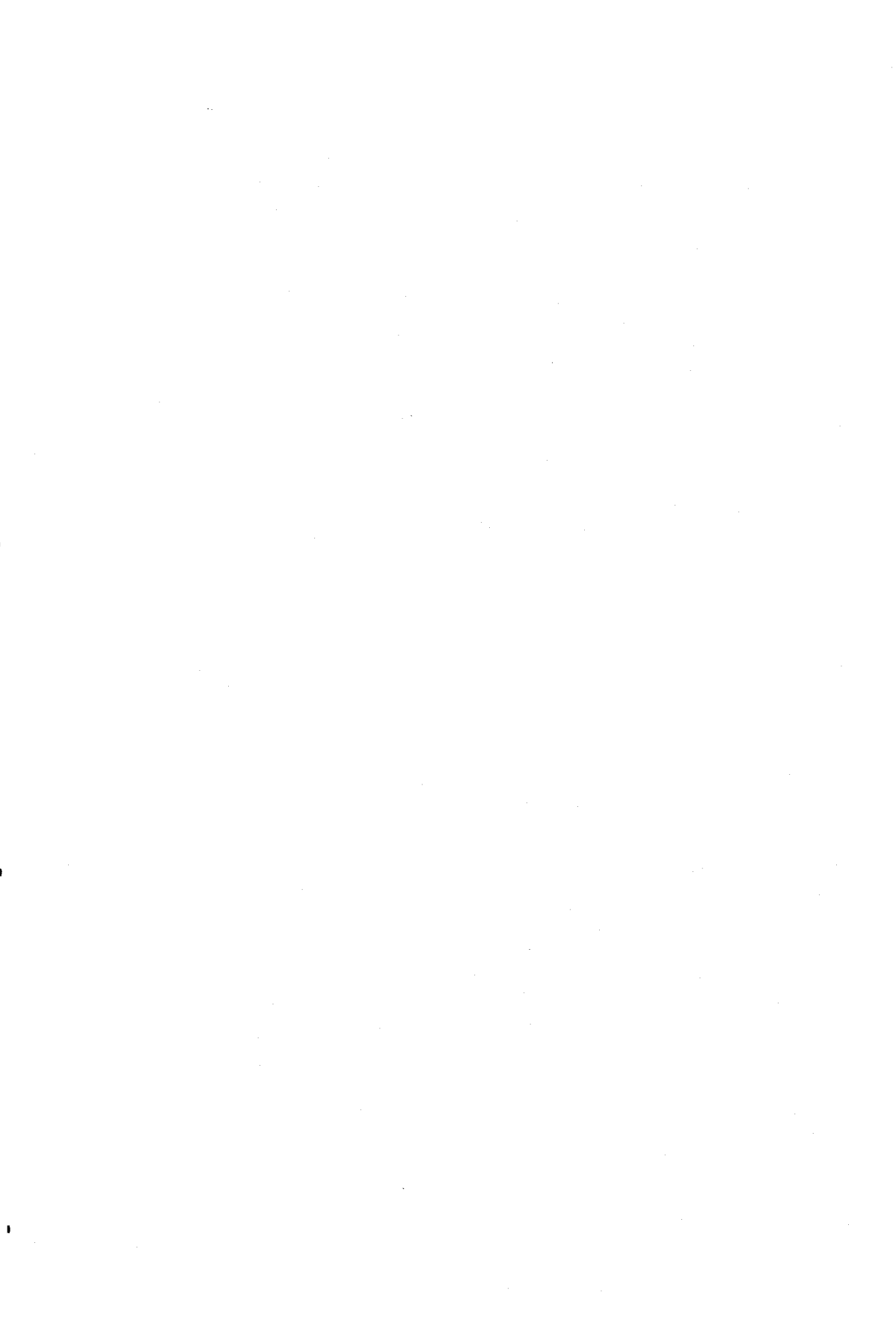
- نباتات في أحاديث الرسول صلى الله عليه
وسلم

: الإمام أبي حامد الفزالي

- إحياء علوم الدين

الإعجاز العلمي في تصميم مزارع الأعناب

أ. محمد طاهر موسى



مقدمة

ربما كان العنب -وهي رسول الله ﷺ عن تسميته الكروم- من أقدم النباتات التي عرفها الإنسان ، فلقد عرفت أنواع منه منذ عهد سيدنا نوح عليه السلام ، وهو نبات متسلق عن طريق الخاليق المتحورة عن البراعم الطرفية ويتبع العائلة العنبية، والعنب الذي عرف الأقدمون قيمته الطبية وفوائده التي لا تحصى ، ويكفي أن العنب من أفضل الفواكه وأكثرها منافع ، فهو يؤكل رطباً ويابساً وأخضراً ويانعاً ، وهو فاكهة مع الفواكه ، وقوت مع الأقوات ، ودواء مع الأدوية ، وشراب مع الأشربة . العنب من أجود الفواكه غذاء ، يسمن ويعالج الهزال ، ويصفي الدم ، وينظف القناة الهضمية ، ونافع للأمراض المعدية والإمساك. لا يخلو كتاب من كتب الطب الشعبي من عشرات الوصفات العلاجية التي يدخل ضمنها العنب، ولكني هنا أريد أن أركز على استخدامات (عصير العنب) في الطب الشعبي . يقول المجربون : إن تناول كوب من عصير العنب في الصباح قبل الإفطار وآخر في المساء قبل العشاء يساعد كثيراً في علاج مرضى البواسير وعسر الهضم وحصى الكلى والمرارة. وإذا كنت ممن أصيبوا بالأرق وتبحث عن النوم الهادئ فما عليك إلا أن تجرب تناول نصف كوب من عصير العنب وتستكمل الكوب بالماء الساخن قبل نومك بنصف ساعة. ولا يمكن أن نتحدث عن عصير العنب وننسى استخدامه كمطرب للوجه وصديق للجمال.

من المعروف أن أكثر العوامل البيئية تأثيراً على زراعة الفاكهة عموماً والعنب خصوصاً هي التربة التي ينمو فيها النبات، ويعيش ويستمد كافة إحتياجاته الغذائية والمناخ بعنصرة المختلفة من حرارة ورطوبة ورياح وضوء والتي تؤثر تأثيراً مباشراً على نمو النبات، وأن هذه العوامل تتداخل فيما بينها، وأن إرتباطها بشكل جيد يزيد من إنتاجية وجودة العنب، كما وأن التقلبات الجوية والسنوية تؤثر على نضج العناقيد، وبطريقة غير مباشرة، على تطور وانتشار الأمراض والأفات، فيؤدي إلى ظهور إختلافات في نوعية العنب.

وأثبتت التجارب أن تعرض سطح التربة الزراعية للحرارة والرطوبة يؤثر على خواصها الطبيعية والكيميائية، كما يعرضها للتعرية وقد وجد أنه من الأفضل زراعة محاصيل تغطية تحمي التربة، وجذور العنب من الجفاف والتعرض المباشر للضوء والحرارة، كما أن زراعة مصدات للرياح من شأنه حماية التربة والنباتات من العواصف الصحراوية الشديدة التي تقتلع الأشجار، وأوصت هذه الأبحاث بضرورة زراعة محاصيل تغطية شتوية حينما تساقط أوراق العنب لتزيد من خصوبة التربة وتساعد على دوران العناصر بها ونشاط الكائنات الدقيقة النافعة ومكافحة الآفات وكذلك مصدات للرياح لحماية العنب من تساقط الأزهار والعقد وتثبيت التربة وحفظها من عوامل التعرية وبشرط توفير الإضاءة اللازمة للنبات لحاجته إليها لأن التظليل يضرها كثيراً حيث لا يتحمل العنب سوى ظله فقط.

يُلقى البحث الضوء على جوانب من الإعجاز العلمي الذي تحدث عنها القرآن في وصف جنات العنب وطرق تصميمها بما يفوق ما تم التوصل إليه الآن ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْتَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ الكهف: ٣٢، وما أثبتته العلم الحديث من أهمية وضع سياج حول مزارع العنب لحمايتها من عوامل التعرية والعواصف الشديدة التي تؤدي إلى تحطم مزارع العنب مع عدم منع الضوء عنها لحاجتها إليه ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾، كذلك زراعة محاصيل التغطية ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ لم لها من أهمية في حفظ جذور النباتات من التعرض المباشر للحرارة والضوء. الإعجاز في قوله تعالى ﴿وَفَجَّرْنَا خَلَاءَهُمَا نَهْرًا﴾ الكهف: ٣٣ أن مزارع العنب في إحتياجها للماء لا يكون في صور أمطار خصوصا في فصل الصيف لأنها تكون في مرحلة الإثمار، فكانت مشيئة الله أن يتدفق نهر خلال الجنتين.

التفسير القرآني :

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْتَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ الكهف: ٣٢

قوله تعالى ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ﴾ هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا ويستتكف عن مجالسة المؤمنين، وهو متصل بقوله ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ الكهف : ٢٨. واختلف في اسم هذين الرجلين وتعيينهما؛ فقال الكلبي : نزلت في أخوين من أهل مكة مخزوميين، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبدالله بن عبدالأسد بن هلال بن عبدالله بن عمر بن مخزوم، زوج أم سلمة قبل النبي صلى الله عليه وسلم. والآخر كافر وهو الأسود بن عبدالأسد، وهما الأخوان المذكوران في قوله ﴿قَالَ قَاتِلْ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ الصافات : ٥١، ورث كل واحد منهما أربعة آلاف دينار، فأنفق أحدهما مال في سبيل الله وطلب من أخيه شيئا فقال ما قال... ذكره الثعلبي والقشيري. وقيل : نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وأهل مكة. وقيل : هو مثل لجميع من آمن بالله وجميع من كفر. وقيل : هو مثل لعبيبة بن حصن وأصحابه مع سلمان وصهيب وأصحابه؛ شبههم الله برجلين من بني إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا؛ في قول ابن عباس. وقال مقاتل : اسمه تملیخا. والآخر كافر واسمه قرطوش. وهما اللذان وصفهما الله تعالى في سورة الصافات. وكذا ذكر محمد بن الحسن المقرئ قال : اسم الخير منهما تملیخا، والآخر قرطوش، وأنها كانا شريكين ثم اقتسما المال فصار لكل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار، فاشترى المؤمن منهما عبدا بألف وأعتقهم، وبالألف الثانية ثيابا فكسا العراة، وبالألف الثالثة طعاما فأطعم الجوع، وبني أيضا مساجد، وفعل خيرا. وأما الآخر فكح بحاله نساء ذوات يسار، واشترى دواب وبقرا

فاستنتجها فنمت له نماء مفرطاً، وأتجر بباقيها فربح حتى فاق أهل زمانه غنى؛ وأدركت الأول الحاجة، فأراد أن يستخدم نفسه في جنة يخدمها فقال : لو ذهبت لشريكي وصاحبي فسألته أن يستخدمني في بعض جناته رجوت أن يكون ذلك أصح بي، فجاءه فلم يكذب لي من غلظ الحجاب، فلما دخل عليه وعرفه وسأله حاجته قال له : ألم أكن قاسمتك المال نصفين لما صنعت بمالك؟ قال : اشتريت به من الله تعالى ما هو خير منه وأبقى. فقال : إنك لمن المصدقين، ما أظن الساعة قائمة وما أراك إلا سفيهاً، وما جزاؤك عندي على سفاهتك إلا الحرمان، أو ما ترى ما صنعت أنا بما لي حتى آل إلى ما تراه من الثروة وحسن الحال، وذلك أتي كسبت وسفقت أنت، أخرج عني. ثم كان من قصة هذا الغني ما ذكره الله تعالى في القرآن من الإحاطة بشمره وذهابها أصلاً بما أرسل عليها من السماء من الحسبان. وقد ذكر الثعلبي هذه القصة بلفظ آخر، والمعنى متقارب. قال عطاء : كانا شريكين لهما ثمانية آلاف دينار. وقيل : ورثاه من أبيهما وكانا أخوين فاقسماها، فاشتري أحدهما أرضاً بألف دينار، فقال صاحبه : اللهم إن فلانا قد اشترى أرضاً بألف دينار وإني اشتريت منك أرضاً في الجنة بألف دينار فتصدق بها، ثم إن صاحبه بنى داراً بألف دينار فقال : اللهم إن فلانا بنى داراً بألف دينار وإني اشتري منك داراً في الجنة بألف دينار، فتصدق بها، ثم تزوج امرأة فأنفق عليها ألف دينار، فقال : اللهم إن فلانا تزوج امرأة بألف دينار وإني أخطب إليك من نساء الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار. ثم اشترى خدماً ومتاعاً بألف دينار، وإني أشتري منك خدماً ومتاعاً من الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار. ثم أصابته حاجة شديدة فقال : لعل صاحبي يتألني معرفته فاتاه فقال : ما فعل مالك؟ فأخبره قصته فقال : وإنك لمن المصدقين بهذا الحديث والله لا أعطيك شيئاً ثم قال له : أنت تعبد إله السماء، وأنا لا أعبد إلا صنماً؛ فقال صاحبه : والله لأعظنه، فوعظه وذكره وخوفه. فقال : سر بنا نصطد السمك، فمن صاد أكثر فهو على حق؛ فقال له : يا أخي إن الدنيا أحقر عند الله من أن يجعلها ثواباً لحسن أو عقاباً لكافر. قال : فأكرهه على الخروج معه، فابتلاهها الله، فجعل الكافر يرمي شبكته ويسمي باسم صنمه، فتطلع متدفقة سمكاً. وجعل المؤمن يرمي شبكته ويسمي باسم الله فلا يطلع له فيها شيء؛ فقال له : كيف ترى أنا أكثر منك في الدنيا نصيباً ومزلة ونفراً، كذلك أكون أفضل منك في الآخرة إن كان ما تقول بزعمك حقاً. قال : فضج الملك الموكل بهما، فأمر الله تعالى جبريل أن يأخذه فيذهب به إلى الجنان فيريه منازل المؤمن فيها، فلما رأى ما أعد الله له قال : وعزتك لا يضرك ما ناله من الدنيا بعد ما يكون مصيره إلى هذا؛ وأراه منازل الكافر في جهنم فقال : وعزتك لا ينفعه ما أصابه من الدنيا بعد أن يكون مصيره إلى هذا. ثم إن الله تعالى توفي المؤمن وأهلك الكافر بعد ما عنده، فلما استقر المؤمن في الجنة ورأى ما أعد الله له أقبل هو وأصحابه يتساءلون، فقال ﴿ قَالَ قَاتِلْ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَنتَ كَمَنْ الْمُصَدِّقِينَ ﴾ الصافات الآيتان ٥١ ، ٥٢ ، فنادى مناد : يا أهل الجنة هل أنتم مطلعون فأطلع إلى جهنم فرآه في سواء الجحيم؛ فقلت ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا ﴾.

بين الله تعالى حال الأخوين في الدنيا في هذه السورة، وبين حالهما في الآخرة في قوله ﴿ قَالَ قَاتِلْ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ * يَقُولُ أَنْتَ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ - إلى قوله - لِمَثَلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ الصافات : ٥١ - ٦١ . قال ابن عطية : وذكر إبراهيم بن القاسم الكاتب في كتابه في عجائب البلاد أن بحيرة تيس كانت هاتين الجنتين، وكانتا لأخوين فباع أحدهما نصيبه من الآخر فأنفق في طاعة الله حتى عيره الآخر، وجرت بينهما المحاوره ففرقها الله تعالى في ليلة، وإياها عني هذه الآية. وقد قيل : إن هذا مثل ضربه الله تعالى لهذه الأمة، وليس بخبر عن حال متقدمة، لتزهد في الدنيا وترغب في الآخرة، وجعله زجرا وإنذارا؛ ذكره الماوردي. وسياق الآية يدل على خلاف هذا، والله أعلم.

قوله تعالى ﴿ وَحَفَفْنَا هُمَا بِنَخْلٍ ﴾ أي أطفناهما من جوانبهما بنخل. والحفاف الجانب، وجمعه أحفاه؛ ويقال : حف القوم بفلان يحفون حفا، أي طافوا به؛ ومنه ﴿ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾ الزمر : ٧٥ ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴾ أي جعلنا حول الأعناب النخل، ووسط الأعناب الزرع.

وقوله تعالى: ﴿ كَلْنَا الْمُجْتَنِينَ آتَى أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلَمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نُهْرًا ﴾ * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا ﴾ الكهف: ٣٣-٣٤ . قوله تعالى ﴿ كَلْنَا الْمُجْتَنِينَ ﴾ أي كل واحدة من الجنتين، واختلف في لفظ (كلنا وكلا) هل هو مفرد أو مثنى؛ فقال أهل البصرة : هو مفرد؛ لأن كلا وكلنا في توكيد الاثنين نظير (كل) في الجموع، وهو اسم مفرد غير مثنى؛ فإذا ولي اسما ظاهرا كان في الرفع والنصب والحذف على حالة واحدة، تقول : رأيت كلا الرجلين وجاءني كلا الرجلين ومررت بكلا الرجلين؛ فإذا اتصل بمضمر قلبت الألف ياء في موضع الجر والنصب، تقول : رأيت كليهما ومررت بكليهما، كما تقول عليهما. وقال الفراء : هو مثنى، وهو مأخوذ من كل فخفضت اللام وزيدت الألف للتثنية. وكذلك كلنا للمؤنث، ولا يكونان إلا مضافين ولا يتكلم بواحد، ولو تكلم به لقال : كل وكلت وكلان وكلتان. واحتج بقول الشاعر :

في كلت رجلها سلامي واحده

كلتاها مقرونة بزائده

أراد في إحدى رجلها فأفرد. وهذا القول ضعيف عند أهل البصرة؛ لأنه لو كان مثنى لوجب أن تكون ألفه في النصب والجر ياء مع الاسم الظاهر، ولأن معنى (كلا) مخالف لمعنى (كل) لأن (كلا) للإحاطة و(كلا) يدل على شيء مخصوص، وأما هذا الشاعر فإما حذف الألف للضرورة وقدر أنها زائدة، وما يكون ضرورة لا يجوز أن يجعل حجة، فثبت أنه اسم مفرد كعمى، إلا أنه وضع ليدل على التثنية، كما أن قولهم (نحن) اسم مفرد يدل على اثنين فما فوقهما، يدل على ذلك قول جرير

وإن لم نأقما إلا لماما

كلا يومي أمامة يوم صد

فأخبر عن (كلا) بيوم مفرد، كما أفرد الخبير بقوله (آتت) ولو كان مثنى لقال آتتا، ويوما. واختلف أيضا في ألف (كلتا)؛ فقال سيويه : ألف (وكلتا) للتانيث والتاء بدل من لام الفعل وهي واو والأصل كلوا، وإنما أبدلت تاء لأن في التاء علم التانيث، والألف في (كلتا) قد تصير ياء مع المضمرة فتخرج عن علم التانيث، فصار في إبدال الواو تاء تأكيد للتانيث. وقال أبو عمر الجرمي : التاء ملحقة والألف لام الفعل، وتقديرها عنده : فَعْتَل، ولو كان الأمر على ما زعم الجرمي : التاء ملحقة والألف لام الفعل؛ وتقديرها عنده : فَعْتَل، ولو كان الأمر على ما زعم لقالوا في النسبة إليها كلتوي، فلما قالوا كلوي وأسقطوا التاء دل على أنهم أجروها مجرى التاء في أخت إذا نسبت إليها قلت أخوي؛ ذكره الجوهري. قال أبو جعفر النحاس : وأجاز النحويون في غير القرآن الحمل على المعنى، وأن تقول : كلتا الجنتين آتتا أكلهما؛ لأن المعنى المختار كلتاها آتتا. وأجاز الفراء : كلتا الجنتين آتى أكله، قال : لأن المعنى كل الجنتين. قال : وفي قراءة عبدالله (كل الجنتين آتى أكله). والمعنى على هذا عند الفراء : كل شيء من الجنتين آتى أكله. والأكل (بضم الهمزة) ثمر النخل والشجر. وكل ما يؤكل فهو أكل؛ ومنه قوله تعالى ﴿ أَكَلَهَا ذَاتِمٌ ﴾ الرعد : ٣٥ وقد تقدم. ﴿ آتتْ أَكَلَهَا ﴾ تاما ولذلك لم يقل آتتا. ﴿ وَكَمْ تَظَلَّمُ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴾ أي لم تنقص.

قوله تعالى ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴾ أي أجرينا وشققنا وسط الجنتين بنهر. ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة وعاصم ويعقوب وابن أبي إسحاق ﴿ ثَمَرٌ ﴾ بفتح التاء والميم، وكذلك قوله ﴿ وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ الكهف : ٤٢ جمع ثمرة. قال الجوهري : الثمرة واحدة الثمر والثمرات، وجمع الثمر ثمار؛ مثل جبل وجمال. قال الفراء : وجمع الثمار ثمر؛ مثل كتاب وكتب، وجمع الثمر أثمار؛ مثل أعناق وعنق. والتمر أيضا المال المتمر؛ يخفف ويثقل. وقرأ أبو عمرو ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ ﴾ بضم التاء وإسكان الميم، وفسره بأنواع المال. والباقون بضمها في الحرفين. قال ابن عباس : ذهب وفضة وأموال. وقد مضى في (الأنعام) نحو هذا مبينا. ذكر النحاس : حدثنا أحمد بن شعيب قال أخبرني عمران بن بكار قال حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدي قال حدثنا شعيب بن إسحاق قال هارون قال حدثني أبان عن ثعلب عن الأعمش أن الحجاج قال : لو سمعت أحدا يقرأ ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ ﴾ لقطعتم لسانه؛ فقلت للأعمش : أتأخذ بذلك؟ فقال : لا؟ ولا نعمة عين. فكان يقرأ ﴿ ثَمْرٌ ﴾ ويأخذه من جمع الثمر. قال النحاس : فالتقدير على هذا القول أنه جمع ثمرة على ثمار، ثم جمع ثمار على ثمر؛ وهو حسن في العربية إلا أن القول الأول أشبه والله أعلم؛ لأن قوله ﴿ كُلْنَا الْجَنَّتَيْنِ آتتْ أَكَلَهَا ﴾ يدل على أن له ثمرا.

قوله تعالى ﴿ فَقَالَ لَصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾ أي يراجعه في الكلام ويجاوبه. والمحاورة المجاوبة، والتحاوير التجاوب. ويقال : كلمته فما أحرار إلي جوابا، وما رجع إلي حويرا ولا حويرة ولا محورة ولا حوارا؛ أي ما رد جوابا. ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا ﴾ النفر : الرهط وهو ما دون العشرة. وأراد ههنا الاتباع والخدم والولد، حسبما تقدم بيانه.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا* وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ الكهف: ٣٥ ، ٣٦

وقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ أي بكفروه وتمرده وتجبره وإنكاره المعاد، ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ وذلك اغترار منه، لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأثمار المطردة في جوانبها وأرجائها ظن أنها لا تفتى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف، وذلك لقله عقله وضعف يقينه بالله وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفروه بالآخرة، ولهذا قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي كائنة، ﴿وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ أي ولئن كان معاد ورجعة إلى الله ليكونن لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْخُسْتَىٰ﴾ فصلت: ٥٠، وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ مريم: ٧٧

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا* لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا* وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقْلَ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا* فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا* أَوْ يُصْبِحُ مَاءً غُورًا فَلَنْ نَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ الكهف ٣٧-٤١

يقول تعالى مخبراً عما أجاه به صاحبه المؤمن واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾، وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه، وابتداء خلق الإنسان من طين وهو آدم، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ البقرة: ٢٨، أي كيف تجحدون ربكم، ودلالته عليكم ظاهرة جليلة، ولهذا قال المؤمن ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ أي لكن لا أقول بمقاتلك بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية، ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أي بل هو الله المعبود وحده لا شريك له، ثم قال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقْلَ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ هذا تخصيص وحث على ذلك، أي هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك، وقلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ولهذا قال بعض السلف من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة. وقد روي فيه حديث مرفوع عن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فيرى فيه آفة دون الموت) أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي وكان يتناول هذه الآية: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ ، وقد ثبت في الصحيح عن أبي

موسى أن رسول الله ﷺ قال له: (ألا أدلك على كثر من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله).؟ وقال أبو هريرة، قال لي رسول الله ﷺ: (يا أبا هريرة ألا أدلك على كثر من كنوز الجنة تحت العرش؟) قال، قلت: فذاك أبي وأمي، قال: (إن تقول لا قوة إلا بالله). قال أبو بلخ وأحسب أنه قال: (فإن الله يقول أسلم عبدي واستسلم) "أخرجه الإمام أحمد في المسند". وقوله: (فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ) أي في الدار الآخرة، ﴿وَيُرْسِلْ عَلَيْهَا﴾ أي على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبيد ولا تفتى ﴿حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ﴾، قال ابن عباس والضحاك: أي عذاباً من السماء، والظاهر أنه مطر عظيم مزعج، يقلع زرعها وأشجارها، ولهذا قال: ﴿فَتُصْبِحُ صَعِيدًا رَلَقًا﴾، أي بلقعا تراباً أملس، لا يثبت فيه قدم. وقال ابن عباس: كالجرز الذي لا يثبت شيئاً، وقوله: ﴿أَوْ يُصْبِحُ مَاءً هَازِلًا فَغُورًا﴾ أي غائراً في الأرض وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض. فالغائر يطلب أسفلها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاءُكُمْ غُورًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ الملك: ٣٠ أي جار وسائح، وقال ههنا: ﴿أَوْ يُصْبِحُ مَاءً هَازِلًا فَغُورًا فَلَنْ نَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾، والغور مصدر. بمعنى غائر، وهو أبلغ منه كما قال الشاعر:

تظل جياده نوحاً عليه

تقلده أعتتها صفوفاً

بمعنى نائحات عليه.

﴿وَأَحِيطَ بِمَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ الكهف: ٤٢-٤٣

يقول تعالى: ﴿وَأَحِيطَ بِمَمَرِهِ﴾ بأمواله وبمماره ما كان يحذر مما خوفه به المؤمن، من إرسال الحسبان على جنته التي اغتر بها وأهته عن الله عز وجل، ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾، وقال قتادة: يصفق كفيه متناسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها، ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ﴾ أي عشيرة أو ولد كما افتخر بهم واستعز ﴿يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾. هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقُّ ﴿الكهف: ٤٣-٤٤﴾، أي الموالاتة لله، أي هنالك كل أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّةً وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ غافر: ٨٤ وكقوله إخباراً عن فرعون ﴿حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ أَنْفَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يونس: ٩٠ ومنهم من كسر الواو من {الولاية} أي هنالك الحكم لله الحق، كقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ الأنعام: ٦٢. ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ نَوَابِئًا﴾: أي جزاء ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي الأعمال التي تكون لله عز وجل نوابها خير، وعاقبتها حميدة رشيدة، كلها خير.

تنتهى قصة الجنتين بإعجاز كبير فالماء الذى هو مصدر الحياة لكل الكائنات كان سبب الهلاك ، وأصبحت الجنان خاوية على عروشها، لأن العنب لا يحتاج الماء إلا بقدر معلوم، ولذا كان الماء يتفق من العيون والأفكار الجارية، كما يحتاج النبات للرى عن طريق الجذر، أما عندما يأتى المطر الغزير من السماء، فذلك هو الدمار بعينه ﴿ وَيُرْسِلْ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ ، أو لا يجد الماء الذى هو عنصر الحياة ، وتلقى نفس المصير الموعود ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاءً غُورًا فَلَن نَسْتَطِيعَ لَهُ طَلِبًا ﴾ . وسبحان من بيده مقاليد كل شيء، وهو على كل شيء قدير. وهكذا يكون الماء هلاك كل جنان الدنيا من أهل سبأ ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ سبأ: ١٦، وأصحاب الجنة فى سورة القلم ﴿ فطف عليها طائف من ربك وهم نائمون * فأصبحت كالصريم ﴾ القلم: ١٩-٢٠ ، وصاحب الجنتين هنا .

الجانب العلمى والإعجاز (العوامل البيئية التى تؤثر على زراعة العنب) أولاً: العوامل المناخية

١- درجة الحرارة

تعتبر درجة الحرارة من أهم العوامل الجوية، فى تحديد زراعة العنب حيث يحتاج النبات إلى صيف دافئ جاف نسبياً، والشتاء المعتدل، ولا توافق زراعته الصيف الرطب، نتيجة لقابلية ثمار العنب للإصابة بعدد من الأمراض الفطرية والحشرية التى يزيد إنتشارها فى الجو الرطب، كما لا يقاوم العنب الشتاء الشديد البرودة، وكما ذكرت كتب التفسير فإن القصة التى حكهاها القرآن كانت فى منطقة تتوافر فيها كل العوامل الى ذكرناها سابقاً.

٢- الضوء

كما هو معلوم أن الشمس، هى مصدر الحرارة، والضوء، وتأثيرها هو الأكثر على النبات مقارنة بالظواهر الجوية الأخرى، والعنب من النباتات المحبة للشمس، ولذا تنجح زراعة فى المناطق المشمسة، فالمضاءة كثيراً، وعلى ذلك فوجود اى من الأشجار الكبيرة، من أى نوع تصبح ضارة للكروم، وذلك بسبب تظليلها لها، لأنها كما يقال لا تتحمل إلا ظلها الخاص، وتنجح بصورة جيدة فى المناطق التى تسطع بها الشمس طوال النهار، حيث تستعمل الطاقة الحرارية والضوئية بصورة جيدة، فقد وجد ان السنين ذات السطوع الكبير للشمس، تعطى عناقيد، تحتوى بصورة إعتيادية على ١٧٠-٢٨٠ جم/لتر من العصير سكر، مع حموضة قليلة وبالعكس.

ويؤثر الضوء مع درجة الحرارة بقوة، على وظائف الكرمة، وبصورة خاصة على عملية التمثيل الضوئي، وهذا ما ينعكس على النمو والإثمار، أما الظل فإنه يؤدي على إبطاء عملية التمثيل الضوئي، ويعوق العمليات الحيوية للكرمة، والذي يؤدي بدوره إلى قلة الاثمار، وقد وجد أن الإضاءة الشديدة ولمدة طويلة تؤدي إلى إطالة الفترة الخضرية، وإطوارها، ويؤخر من عملية نضج الحبات، ونضج الخشب، وبالتالي تقل مقاومة الكروم للصقيع. ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْتَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا﴾ الكهف: ٣٢

٣- الرطوبة والأمطار

تحتاج زراعة العنب إلى صيف جاف، أي نسبة رطوبة منخفضة، في فترة تكوين الثمار، أما في فترة الشتاء، فلا مانع من توفر نسبة رطوبة عالية، خصوصا على هيئة أمطار، في المواقع التي تعتمد عليها زراعة العنب، ويلاحظ ان الأصناف المتأخرة، تتعرض للإصابة الشديدة بالأمراض الفطرية، وخصوصاً مرض البياض الزغبي والدقيقي، مما يعمل على تلف المحصول، وقد وجد أن فاعلية الأمطار الساقطة تتأثر برطوبة التربة، والحرارة وطبيعة التربة، وتركيبها، وعمق الماء الأرضي، ولا تؤثر امطار الشتاء مباشرة، على الكروم، ولكن يمكن إعتبارها كإحتياطي ماء متجمع في التربة، فإذا كانت كمية المطار الساقطة في الشتاء، أقل من ١٥٠ ملليمتر، يجب الري قبل بدء الدورة الخضرية، حتى يكون هناك أحتياطي كافي من الماء للنمو ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَابَهُمَا نَهْرًا﴾

٤- الرياح

تتأثر زراعة العنب بفعل الرياح، ويتوقف هذا التأثير على إتجاهها، وشدتها، وسرعتها، والفصل الذي قب فيه، فالرياح الباردة القوية، والمصحوبة بالأمطار أو الجافة، تكون ذات تأثير ضار يمكن تقسيم الضرر إلى:

أ- ضرر ميكانيكي: حيث أن الرياح الشديدة، قد تعمل على إقتلاع الأشجار حديثة الزراعة بأكملها، حيث يكون المجموع الجذري فيها سطحي، والجذور لم تثبت بعد في التربة، ويحدث ذلك بكثرة في الأراضي الرملية والخفيفة.

ب- عامل التعرية: حيث تسبب الرياح الشديدة، إزاحة طبقات التربة السطحية حول المجموع الجذري، مما يسبب جفاف الجذور، وضعف التربة حول الأشجار.

ج- الضرر الفسيولوجي: ويحدث ذلك، عند هبوب رياح جافة، حيث يحدث إختلال في التوازن المائي، من جراء زيادة نسبة النتح عن الإمتصاص، ولهذا تتساقط نسبة كبيرة من الأزهار، والثمار وبالتالي تقل نسبة المحصول.

لهذا يجب مقاومة فعل الرياح، بزراعة مصدات الرياح في الجهات التي تهب منها، عند إنشاء المزرعة، وفي المناطق الصحراوية يجب زراعة أكثر من صف واحد. وسبحان العلي القدير ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ .
ثانياً: التربة

يزرع العنب في كثير من أنواع الأراضي، بشرط أن تكون مفككة، جيدة الصرف، مع الإحتفاظ بالرطوبة اللازمة ويساعد على ذلك وجود محاصيل تغطية لتزيد الرطوبة، والخصوبة خصوصاً فترة الصيف، ويزيد النشاط الميكروبي النافع، ويمنع التعرية و يساعد على دوران العناصر الغذائية، التي يحتاج إليها نبات العنب، وقد ثبت أن العنب تنجح زراعته في الأراضي الرملية، والجريرية المحتوية على نسبة معقولة من الجير.

خاتمة

أثبتت التجارب الحديثة أن تعرض سطح التربة الزراعية للحرارة والرطوبة يؤثر على خواصها الطبيعية والكيميائية، كما يعرضها للتعرية وقد وجد من الأفضل زراعة محاصيل تغطية تحمي التربة، وجذور العنب من الجفاف والتعرض المباشر للضوء والحرارة، كم أن زراعة مصدات للرياح من شأنه حماية التربة والنباتات من العواصف الصحراوية الشديدة التي تقتلع الأشجار، وأوصت هذه الأبحاث بضرورة زراعة محاصيل تغطية شتوية حينما تساقط أوراق العنب لتزيد من خصوبة التربة وتساعد على دوران العناصر بها ونشاط الكائنات الدقيقة النافعة ومكافحة الآفات وكذلك مصدات للرياح لحماية العنب من تساقط الأزهار والعقد وتثبيت التربة وحفظها من عوامل التعرية وبشرط توفير الإضاءة اللازمة للنبات لحاجته إليها لأن التظليل يضرها كثيراً حيث لا يتحمل العنب سوى ظله فقط.

بالنظر إلى كل ما سبق من أبحاث ودراسات وإستنتاجات وبالعودة إلى كتاب ربنا الكريم نجد أن القرآن سبق هذه الإستنتاجات في كلمات وبديعة تتأمل قول الله تعالى ﴿وَاصْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا﴾ الكهف: ٣٢ فسبحان ربنا العظيم هذا الإعجاز الدقيق للجنتين تحفها النخل (مصدات الرياح) تحمي من العواصف وتثبت الرمال وهي نبات مثمر جذوره ليفية رغم إرتفاع النبات الشاهق فلا تؤذي النباتات المجاورة بالمنافسة على الغذاء ولا بظلمها الكثيف خصوصاً ان العنب يحتاج للضوء كثيراً، ولنتدبر قول العلي القدير ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا﴾ (نباتات التغطية) التي تحمي التربة من التعرية وتحفظ رطوبة التربة وتزيد من المواد العضوية بها، ومن الإعجاز في قوله تعالى ﴿وَفَجَّرْنَا خَلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ أن مزارع العنب في إحتياجها للماء لا يكون في صور أمطار خصوصاً في فصل الصيف لأنها تكون في مرحلة الإثمار، فكانت مشيئة الله أن يتدفق نهر خلال الجنتين.



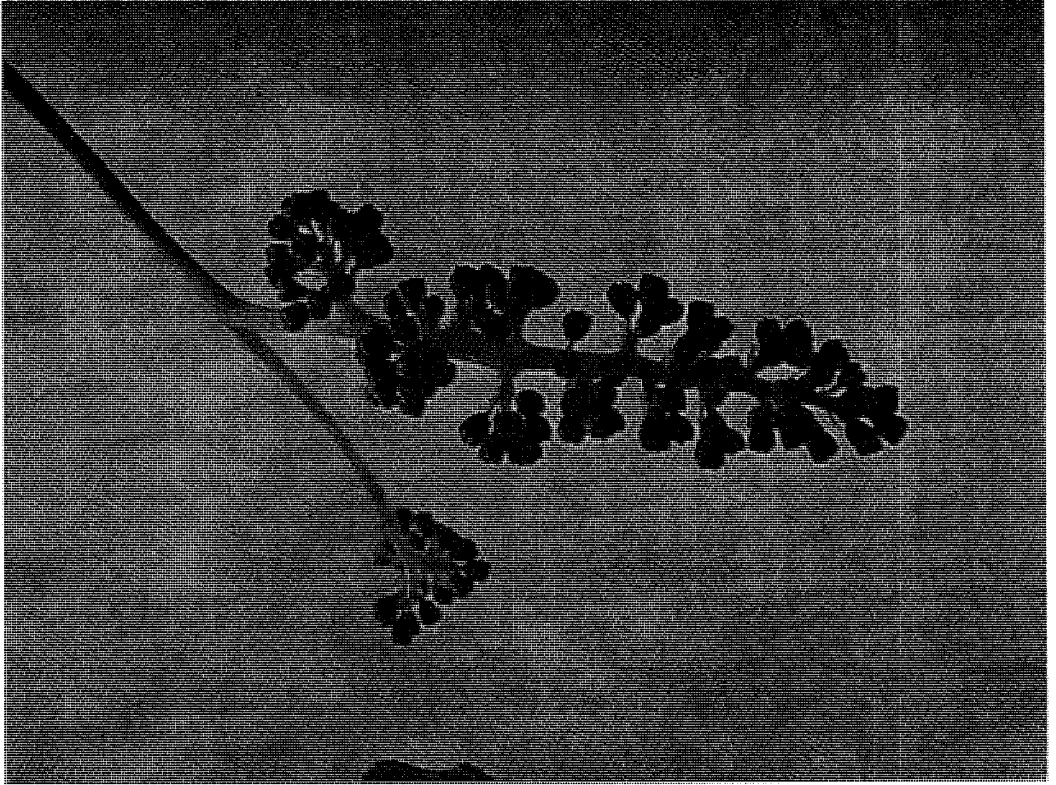
العنب (نبات في مراحل النمو الخضري)



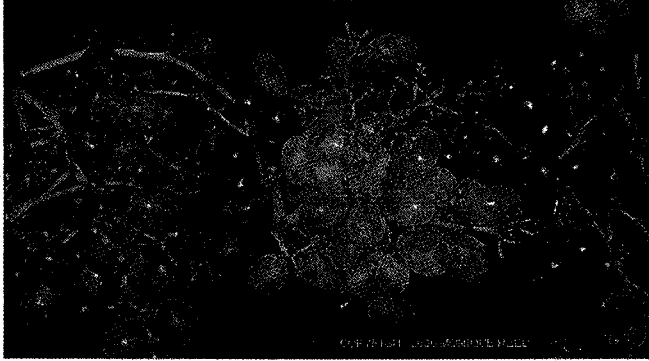
مزرعة عنب في الشتاء يلاحظ تساقط الأوراق



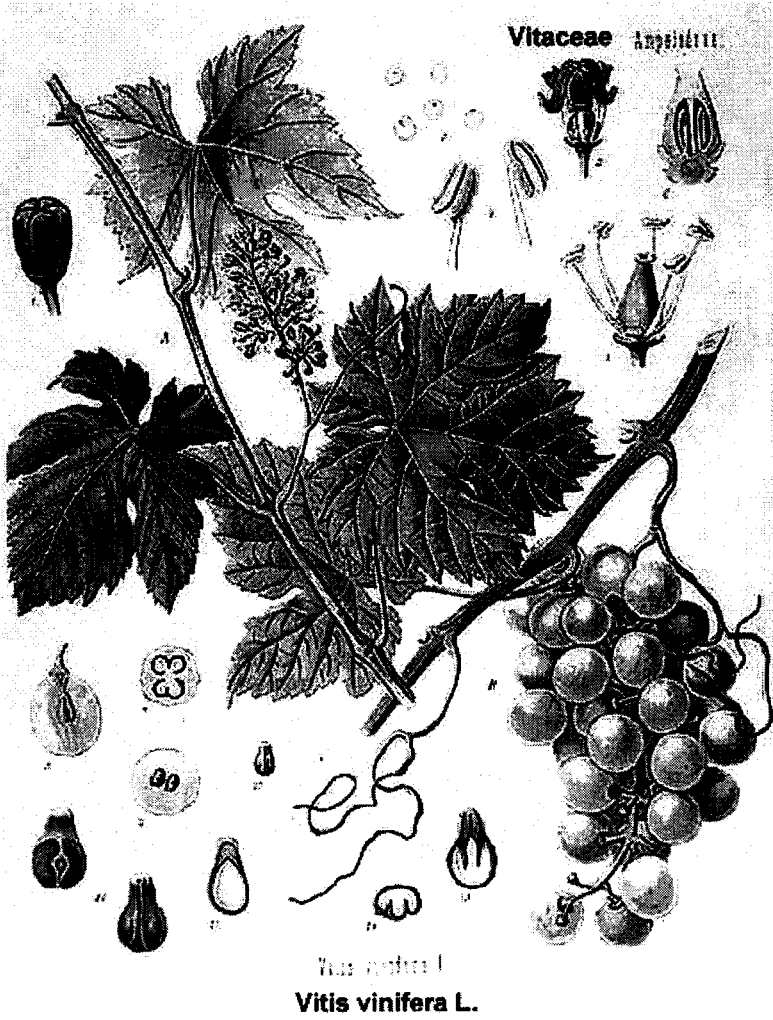
مزرعة عنب يلاحظ بها محاصيل النغطة بين الأشجار ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾



بداية مراحل الإثمار



العنب (ثمار ناضجة)



صورة توضح جزء من نبات العنب مع الأزهار والثمار



النخل واستخدامه كمصدات للرياح



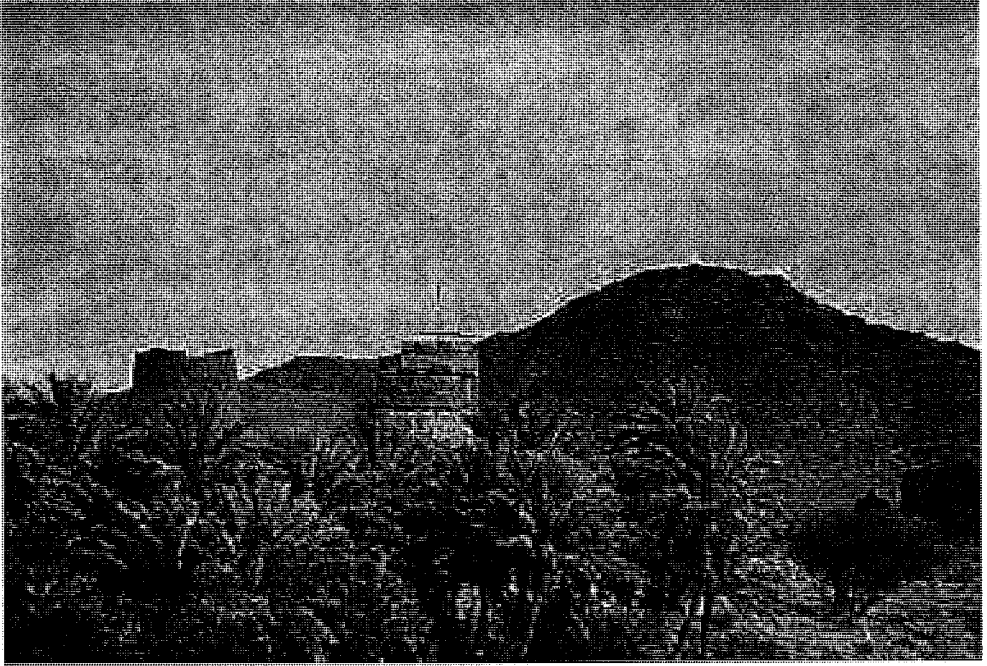
صورة توضح جذع النخلة وتظهر الجذور الليفية



زراعات النخل الكثيفة تعد مصدات جيدة للرياح ﴿وَحَفَفْنَاهُمَْا بِنَخْلٍ﴾



يستخدم النخل في حماية مزارع الفاكهة بالإضافة إلى أهميته كمصدر غذائي هام



نخيل التمر وانتشار واسع في أرجاء شبة الجزيرة العربية

المراجع

المراجع العربية:

- ١- فتح الباري على شرح صحيح البخاري : الفهارس جمع و إعداد و ترتيب خالد عبد الفتاح شبل أبو سليمان. بيروت، لبنان : دار الكتب العلمية، ١٩٩٢.
- ٢- الطب النبوي شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي ابن قيم الجوزية ؛ كتب المقدمة و راجع الأصل و صححه و أشرف على التعليقات عبد الغني عبد الخالق ؛ وضع التعليقات الطبية عادل الأزهري ؛ خرج الأحاديث محمود فرج العقدة. القاهرة، مصر : دار الكتب العربية، ١٩٥٧
- ٣- المناخ و زراعة العنب في الطائف : المملكة العربية السعودية صقر علي العمري. الكويت : الجمعية الجغرافية الكويتية، ١٩٩٩.
- ٤- الوجيز في أمراض العنب روجر بيرسون، أوستين جوهين ؛ ترجمة و مراجعة جميل فهم سوريال، أحمد زكي علي. القاهرة، مصر : المكتبة الأكاديمية، ١٩٩٦
- ٥- الأساليب الحديثة في زراعة و إنتاج العنب محمد عبد الحلیم حسن الأشرم. القاهرة مصر : دار الفكر العربي ١٩٩٣
- ٦- فاكهة المناطق الصحراوية محمد منير محمد فؤاد، السيد إبراهيم بكر، محمد عبد الجواد شاهين ؛ مراجعة جورج رمزي ستينو. القاهرة، مصر : جامعة القاهرة، ١٩٩٢.
- ٧- العنب : زراعته، رعايته و إنتاجه محمد نظيف حجاج خليف، عاطف محمد إبراهيم، عبد الفتاح عبد الحكيم عثمان. الإسكندرية، مصر : منشأة المعارف، ١٩٩١.
- ٨- مزارع العنب عز الدين فراج. القاهرة، مصر : مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٨.
- ٩- كروم العنب و طرق إنتاجها جميل فهم سوريال ..نيوقوسيا، قبرص: الدار العربية، ١٩٨٦
- ١٠- الأسس العلمية و الفسيولوجية لنبات العنب محمد عبد الحلیم الأشرم، كريم صالح عبدول. بغداد، العراق : وزارة التعليم العالي، ١٩٨٥.
- ١١- زراعة و إنتاج الكروم إبراهيم حسن محمد السعيد. الموصل، العراق : جامعة الموصل، ١٩٨٢.
- ١٢- إنتاج الفاكهة النفضية جبار حسن النعيمي، يوسف حنا. البصرة، العراق : جامعة البصرة، ١٩٨٠.
- ١٣- طبائع التخيل و معاملاتها تأليف سعد بن خلف العفنان. حائل، السعودية : د.ن.، ١٩٩٤ حائل، السعودية : مطابع المحيسن الحديثة.

- ١٤- نخلة التمر : زراعتها، رعايتها و إنتاجها في الوطن العربي . عاطف محمد إبراهيم، محمد نظيف حجاج خليف. الإسكندرية، مصر: منشأة المعارف، ١٩٩٣
- ١٥- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، قدم له خليل محي الدين الميس ؛ ضبط و مراجعة على الأصول صدقي جميل العطار ؛ خرج حديث عرفان العشا. بيروت : دار الفكر، ١٩٩٩.
- ١٦- النباتات الزهرية: نشأتها-تطورها- تصنيفها. د. شكرى إبراهيم سعد، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٩٤

المراجع الأجنبية

- 1- Allison, F.E.1973.Soil Organic Matter and Its Role in Crop Production. Elsevier Scientific Pub.Co.Amsterdam.637 p.
- 2- May,J.T.1981.Organic matter in nursery soils.p.52-59.In:Proceedings of the 1981 Southern Nursery Conference.
- 3- McLeod,E.1982.Feed the Soil Organic Agriculture Research Institute, Graton, California.209 p.
- 4- Olmstead, M.A., Wample, R.L., Greene, S.L. and Tarara, J.M. (2001). Evaluation of Potential Cover Crops for Inland Pacific Northwest Vineyards .Am.J.Enol.Vitic.52(4):292-303.
- 5- Piper, C.V. ,and A.J.Pieters.1922.Green Manuring USDA Farmer's Bulletin 1250. 45 p.

- 6- Rasmussen, R.R. et al.1980.Crop residue influences on soil carbon and nitrogen in a wheat-fallow system Soil Science Society of America Proceedings Volume 44.p.596-600.
- 7- Sarrantonio,Marianne.1994.Northeast Cover Crop Handbook Rodale Institute, Emmaus,Pennsylvania.118 p.
- 8- Schmid, O., and R.Klay.1984.Green Manuring Principles and Practice Woods End Agricultural Institute, Mt. Vernon, Maine Translated by W.F. Brinton, Jr., from a publication of the Research Institute for Biological Husbandry Switzerland. 50 p.
- 9- Sullivan,P.G.1990.Rye and Vetch Intercrops for Reducing Corn N Fertilizer Requirements and Providing Ground Cover in the Mid-Atlantic Region. Ph.D. dissertation, Virginia Polytechnic Institute and State University, Blacksburg, Virginia.149 p.

الشجرة المباركة من خلال يقين القرآن و بحوث العلماء

أ.د. محمد محمد فائد

ما خلق الله سبحانه وتعالى الكون إلا لحكمة كما يقول في سورة القمر "إنا كل شيء خلقناه بقدر وما أمرنا إلا واحدة كلمح البصر" ولم يأت القرآن مخالفا للسنن الكونية، بل كل السنن الشرعية توافق قوانين السنن الكونية. ولم يزل القرآن ليهلك الناس وإنما رحمة من الله كما يقول العزيز جل جلاله في سورة طه "طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى" فلا يمكن أن يشقى الناس بالقرآن، وليبان ذلك ارتأينا في بحثنا هذا أن نتناول موضوع الأطعمة في القرآن الكريم، واخترنا لذلك مادة غذائية جعلها الله غذاء ودواء ووقى بها أجسامنا من الأمراض العديدة. فلا يجب أن نفعل مثل بنو إسرائيل مع المن والسلوى، فنستبدل هذه المادة بمواد أخرى فنشقى في أبداننا بالأمراض وفي أموالنا بشراء الأدوية الكيماوية لعلاجها. سنتكلم بعون الله عن زيت الزيتون وعن هذه الشجرة المباركة ونقف عند المزايا التي تبينت علميا في ميدان التغذية والطب الوقائي. لكن تبقى هناك حقائق لن تقدر العلوم على تبيانها، فهل نتظر العلوم أم نرجح كلمات القرآن؟.



لا بد للحديث عن الزيتون من الرجوع إلى الآية الكريمة التي تعرف شجرة الزيتون تعريفا علميا إعجازيا. حيث يقول الجليل في سورة المؤمنون: **وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْئَانَ نَبْتٌ بِالذُّهْنِ وَصَنِيعٌ لِلتَّالِكِينَ (20)**. إذا تأملنا هذه الآية الكريمة من حيث كلماتها وألفاظها، نجدها سهلة التعبير ومفهومة المعنى، ولا تكاد تخفي شيئا وراء كلماتها من الناحية اللغوية، فكل أطرافها معهودة، وكل ألفاظها مألوقة.

وجاءت هذه الآية الكريمة في سورة المؤمنون بعد ذكر الأشجار الأخرى كالنخيل والأعناب حيث يقول الباري سبحانه: **أَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهِ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (19)**.

وذكر النخيل والأعناب في هذه الآية يخص الأكل، لأن الصيغة جاءت بكلمة تأكلون، وفي آية أخرى من سورة النحل نجد نفس الثمار لكنها ذكرت للشراب حيث يقول سبحانه: **وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67)**

وحسب ما جاء في الآية الكريمة التي تخص الزيتون فإن الزيت يصنف مع الأكل، لقوله تعالى للاكلين، والصيغة واضحة باللفظ. ومن عظمة القرآن الكريم، اليسر في الفهم كما قال سبحانه في سورة القمر: **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (17)**، وقد يفهم كل إنسان هذه الآية على قدر مستواه من الإدراك، فقد يفهمها العالم باللغة على مستواه من البلاغة، أو قد يفهمها العالم الكوي على مستواه من العلم، فيظل كلام الله سبحانه وتعالى يساير العصور بتقدمها ويأجوازها العلمية المختلفة، لكن رغم كل هذه المستويات، لا نجد تفسيراً نهائياً لكل الحقائق العلمية، لتظل معجزة القرآن قائمة وثابتة، بينما تظل الحقائق العلمية نسبية ومتغيرة.

ونفهم بقدر علمنا أن الشجرة التي جاءت في الآية هي شجرة الزيتون، كما ثبت عند علماء التفسير بالإجماع. وتبين الآية الكريمة منشأ أو أصل هذه الشجرة التي تخرج من طور سيناء، وهو الجبل الذي كلم الله عليه سيدنا موسى عليه السلام. وهذه النقطة الدقيقة في بيان أصل شجرة الزيتون ثابت في العلوم الأحيائية، وهو أن أصل الأنواع والأصناف في عالم النبات ينحدر من المنطقة الممتدة من فلسطين إلى شمال إيران. وأغلب الأنواع وجد في المنطقة الممتدة حالياً بين فلسطين والأردن ولبنان وسوريا. وهي المنطقة التي أخذ منها المسلمون الأغراس إلى المغرب العربي والأندلس. وكلمة شجرة في الآية أتت نكرة تامة، بمعنى أي شجرة إذ اقتصر التعبير على ذكرها دون نعتها، لكنها معرفة تعريفياً علمياً، من حيث أن الأصل لهذه الشجرة هو جبل طور سيناء، وهو الموقع الأصلي لعدة أشجار أخرى أيضاً، فقد تكون شجرة أخرى لها نفس الأصل كشجرة التين مثلاً، لكن الصفة الثانية، وهي الإنبات بالدهن، يجعل المعنى يقتصر على الأشجار الزيتية، ومنها كذلك اللوز والجوز وما إلى ذلك، لكن هذه الأشجار تعطي الدهن دون الصيغ، فكانت كلمة الصيغ التي جاءت في الآية هي التي تعرف شجرة الزيتون تعريفاً دقيقاً، لأنها هي الشجرة الوحيدة التي تعطي الدهن والصيغ دون غيرها، فالإشارة إلى شجرة الزيتون دون ذكرها إشارة بلاغية من حيث المعنى، وإشارة علمية كذلك لأن الخصائص العلمية التي تجعل هذه الشجرة هي شجرة الزيتون، هي خصائص ثابتة، وتحص النوع وهو الأساس التي تركز عليه العلوم الوراثية لتصنف الأنواع والأصناف على خصائصها الوراثية الثابتة، ولو اقتصرنا على المعنى اللغوي لبقيت الأمور مبهمة يسودها الشك، وقد تعصف بها التأويلات اللغوية إلى ما لا يمكن حصره بالعين.

ونقف عند هذه الكلمة البسيطة، التي جاءت في هذه الآية، والتي لم تلفت نظر العلماء المسلمين طوال القرون العديدة التي مرت، هي كلمة "الصيغ" وكان على الباحثين المسلمين أن يأخذوا بحقيقة القرآن حتى لا يزلقوا مع بعض مفاهيم البحث العلمي الصرفة.

ولماذا يجب أن نقف عند هذه الكلمة وهي كلمة الصيغ؟ لأن هناك معجزة علمية لو أدركها العلماء من قبل لكان خيرا للبشرية جمعاء. فالقراءة اليسيرة للآية هي أن هذه الشجرة المباركة، أو شجرة الزيتون، تنبت بالدهن، وهي المادة الدسمة السائلة التي نسميها الزيت، لكن الدهن يعني الزيت ومواد أخرى، كما نقول في علوم التغذية (Lipid)، فكان الوصف بالدهن وليس بالزيت، لأن الدهن يشمل الزيت وكل المواد الأخرى التي تمر أثناء العصر، وهنا نجد أن التفسير الذي جاء به العلماء في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، يجعل الصيغ يدخل مع الدهن، وهو ما لا يتفق مع العلوم، لأن الدهن فيه زيت وصيغ، لكن الصيغ الذي جاء في الآية ليس الصيغ الذي يدخل في الدهن، ولذلك يظهر حسب تقديرنا أن هناك قصور في فهم الآية من الناحية العلمية، فلم ينتبه الباحثون إلى هذه الخاصية، الشيء الذي أدى إلى ضياع كبير في الميدان الغذائي والطبي، وهذا القصور أو الجهل جعلنا لا نستفيد من الصيغ الذي يفصل عن الزيت أثناء استخراجه، وهو شيء نافع للإنسان، كما قد اتضح في الميدان الطبي في السنوات الأخيرة. ولا تزال الأبحاث سارية حول الموضوع، لتقترب من السوحي فيستفيد الناس من الصيغ لأغراض طبية واستشفائية محضة.

ونعود لناخذ بالتفصيل كل ما تنطوي عليه الآية الكريمة من حقائق علمية في ميدان علم الأحياء على الخصوص. ونفصل الآية حسب مجيئها في التعبير القرآني، حيث يقول الجليل جل جلاله "وشجرة تخرج من طور سيناء" فجاء التعبير عن خروج هذه الشجرة من طور سيناء، وقد يعني التعبير هنا شيئين في الزمان والمكان.

أولاً: ربما يعني خروج شجرة الزيتون من جبل الطور لأول مرة، ومعنى فعل "خرج" هنا "ظهر".
ثانياً: قد يعني الخروج الإنبات، وهو ظهور الشجرة من الشتائل التي تزرع أو تنبت في الأرض، وهذا المعنى هو المفهوم من الآية عند عامة الناس، وكذلك هو ما يصرف إليه التفكير عند قراءة الآية. لكن لما نتمعن في التعبير القرآني نجد أن الله سبحانه وتعالى وصف طورين مختلفين بكلمتين بسيطتين، حيث استعمل كلمة تخرج، ثم تنبت، ولم يعطف جملة "تنبت" على جملة "تخرج" حيث يقول سبحانه: **وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَيِّغٌ لِلنَّكَلِينَ (20)**.

فترى أن هناك طوران: الأول خروج الشجرة والثاني الإنبات، وهما حدثان يفصلهما وقت طويل، ولذلك وصف الحق سبحانه مرحلتين في علم غرسة الأشجار، فشجرة الزيتون لا تعطي ثماراً أو دهناً مباشرة بعد إنباتها، وإنما تخرج أولاً بمعنى تظهر بإخراج الأوراق والأغصان ثم تنمو وتشتد، وهي المرحلة التي عبر عنها القرآن بـ"تخرج"، ثم تعطي ثماراً وهي المرحلة الثانية التي عبر عنها القرآن بـ"تبت" بالدهن، وقد تستغرق المرحلة الأولى من أربع إلى ست سنوات قبل أن تنتج الشجرة زيتونا مجردودية مقبولة.

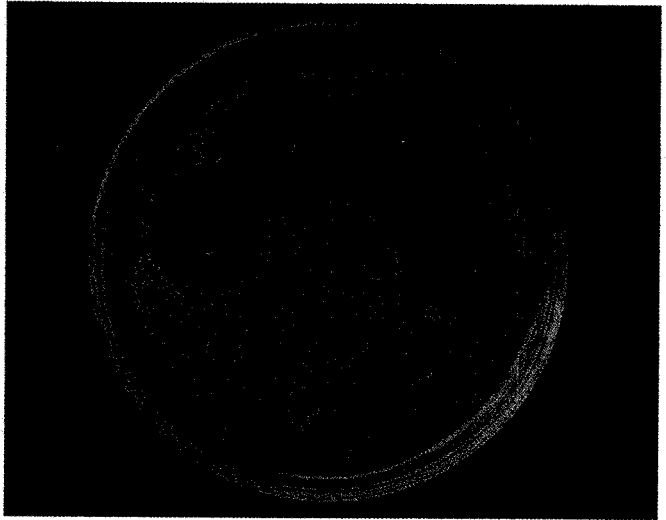
لوجاء التعبير القرآني بالعطف لكانت المرحلتان تشتملان على نفس الأهمية الغذائية أو الصحية، ذلك أن خروج الشجر ليس فيه أهمية غذائية، لكن خروج الثمار فيه أهمية غذائية وصحية من حيث تعطي زيتاً وصبغاً. والعطف يعني حدثين بنفس الأهمية كما يفصل الجملتين، إذ تتوقف كل جملة على إفادة، فالأولى تعني الخروج بأهمية مستقلة عن الإنبات بالزيت والصبغ، والثانية تعني الإنبات بالدهن والصبغ بأهمية مستقلة عن الخروج.

ولما جاء التعبير بدون عطف، يستفاد من التعبير القرآني، أن الأهمية في خروج الشجرة واشتدادها ووصولها إلى طور الثمار، ليست له أهمية لكن الإفادة في إخراج الثمار، أو بمعنى آخر، لا يكون لشجرة الزيتون أهمية إلا لما تخرج الثمار التي تستهلك كما هي بعد التخمر أو يستخرج منها الزيت والصبغ، وهكذا جاء التعبير القرآني دالاً لغوياً على حقائق علمية ثابتة، تفهم من السياق اللغوي في مرحلة سادت فيها اللغة، وتفهم من الطرح العلمي في مرحلة يسود فيها العلم.

الفوائد الصحية :

ولعل مادة الدهن التي يتغذى عليها الإنسان، تشتمل على مزايا صحية وغذائية هائلة ونافعة. وكل الناس يعلمون هذه الحقيقة التي أكدتها العلوم في العصر الحاضر، ولا تزال الأبحاث جارية بشأن المزايا الصحية والاستشفائية والغذائية لزيت الزيتون. أما القراءة العلمية للآية فتجعلنا نذهب إلى حد بعيد لفهم أكثر ونستفيد أكثر. فكلمة دهن جاءت معرفة معرفة تامة، وعطفت عليها كلمة صبغ وهي نكرة تامة. وهذا التعبير بهذه الصورة، واستعمال هذا النسق اللغوي، يجب أن يحضى بالاهتمام البالغ، لاكتشاف الغاية والحكمة، ماذا تعني كلمة الصمغ ولماذا جاءت في الآية على تلك الحال؟ وكيف نفهمها؟

أما فيما يخص الأبحاث الميدانية، فقد قمنا بدراسة هذا الماء الأحمر الذي يفصل عن الزيت (جدول رقم ١)، والذي نسميه بالإنجليزية **Olive mill waste water**، وهو إلى حد الآن يعتبر من المياه المستعملة أو المياه الملوثة، وهو طرح خاطئ. وقد درسنا أولا الخصائص الأحيائية لهذا الماء أو الصبغ، فبين أن هذا الماء الذي يعبر عنه القرآن بالصبغ، خال من الجراثيم (Mouncif et al., 1993)، إلا بعض البكتيريا اللبنة وبعض الخمائر والفطريات وهي جراثيم غير ضارة للإنسان، وهذا فهو يمكن أن يبقى دون تحلل لعدة سنوات تقدر بالعشرات السنين. ودرسنا كذلك الخصائص الكابحة للجراثيم المضرة لهذا الماء أو الصبغ، وتبين أنه جد فعال في كبح نمو الجراثيم، وهذه الخاصية يمكن أن يستعمل كمادة طبيعية لتحفيظ المواد الغذائية، بدل المضافات الكيماوية الصناعية الخطرة. ثم درسنا كذلك مدى أهميته على إبطال فعل بعض الأنزيمات، فبين أن إبطال النشاط الأنزيمي كان واضحا جدا، ولا تزال الأبحاث في شأن هذا السائل سائرة في مختبرنا، إلى أن نتوصل إلى إيجاد أسلوب يجعله يستهلك مباشرة، أو يستعمل مع مواد سائلة أو صلبة والله الموفق.



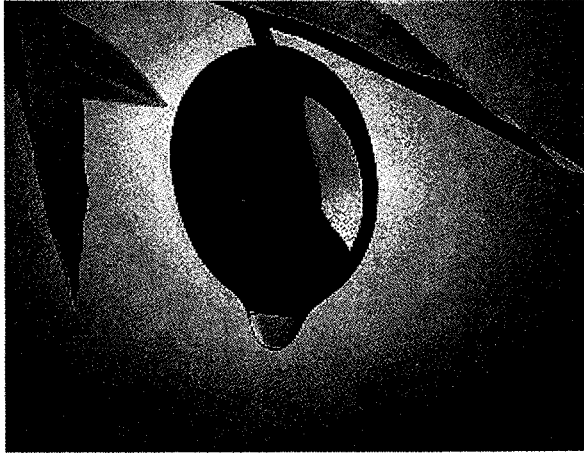
صورة تبين الخاصية الكابحة لنمو
الجراثيم للصبغ

فالمعروف عن شجرة الزيتون أنها تعطي الزيت، وهو أمر لا يحتاج إلى توضيح لغوي أو تدقيق علمي، لكن الصبغ الذي جاء في القرآن، والذي يستخرج من الزيتون مع الزيت أثناء العصر فليس معروفا، وهذا ما لفت نظرنا وقادنا إلى البحث الميداني حول حقيقة كل مشتقات الزيتون بما في ذلك الأوراق.

فلقد بدأت بعض الحقائق تظهر، لتبين أهمية هذه الكلمة من الناحية العلمية المحضة. فالصبغ الذي يتكلم عنه القرآن، هو الماء الأحمر الذي يفصل عن الزيت بالتحتيل، ويرمى مع المياه المستعملة. وقد اعتقد الباحثون في ميدان البيئة أنه جد ملوث، ويجب أن نعالجه، وتعددت الشركات التي تريد أن تعالج هذا الماء في البلدان المنتجة للزيتون، وازداد اهتمام بعض الباحثين بالموضوع. ويتكون هذا الماء الأحمر من صبغ كما جاء في القرآن، والصبغ يعني من الناحية اللغوية كل مادة تصبغ أو تعطي لونا لكل الأشياء التي تصبغها أو تختلط معها، ومن الناحية الكيماوية هي مركبات عضوية توجد في الزيتون، وتمتاز بخاصية تغيير لونها مع التأكسد والضوء، وتشمل هذه المواد كل من البوليفينولات (polyphénol) والمواد الدايفة (tanins) وبعض المواد الملونة الأخرى مثل الأنطوسيانينات (Antocyanans). والمعروف عن هذه المركبات أنها تحول دون التأكسد Antioxydants (Le Tutour and Guedon, 1990) وهو شيء في غاية الأهمية بالنسبة للجسم. وتكون كذلك هذه المواد كابحة للجراثيم والأنزيمات (Fleming et al., 1973; Walker, 1996; Tassou et al., 1991; Renis, 1969)، وتمتص الأوكسجين ومزايا أخرى منها ما توصل إليه العلم ومنها ما يزال طور البحث. وعلى إثر هذه الأهمية تكونت جمعيات بدول أوروبا خصيصا لدراسة هذه المزايا.

والمعروف طبيا أن البوليفينولات والمواد الدايفة عموما، تصنف مع المواد المضادة للتأكسد، وهو ما يعطيها ميزة المواد الكابحة للسرطان عند الإنسان. وتكمن أهمية زيت الزيتون الطبية في هذه العوامل، علاوة على الحمضيات الغير المشبعة من فئة ١٨ كربون أو حمض الأولايك واللينولانك بالإضافة إلى الفيتامينات الذائبة في الدهون ومنها الطوكوفيرولات. ولا تزال الأبحاث قائمة في شأن مكونات زيت الزيتون، وهناك العديد من المختبرات التي تعمل الآن جادة على توضيح واكتشاف أهمية هذه الزيت، إلى درجة أنه أصبح يحمل اسم الذهب الأخضر في أوروبا وأمريكا.

ولا زلنا لم نتوصل بعد إلى استهلاك هذه المادة التي يتكلم عنها القرآن. لكن الذي نعلمه يقينا هو أن لها أهمية صحية كبيرة، وأن فيها نفع للإنسان. وقد بينها الله سبحانه وتعالى في هذه الآية. وجاء لفظ الصيغ كنكرة تامة، لأنه ليس المنتج الأساسي لشجرة الزيتون، والمعلوم أن هذه الشجرة تعطي الزيت أو الدهن كمنتوج أساسي **Product**، والصيغ كمنتوج ثانوي **By product**، لكن ليس من حيث الأهمية وإنما من حيث الكمية. ويكون التفسير على هذا النحو: "وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصيغ للاكلين" أي بمعنى منتج أساسي وهو الزيت للتغذية، ومنتوج ثانوي وهو الصيغ للمنفعة الصحية. ولذلك جاء الدهن معرفا بالألف واللام والصيغ نكرة تامة. فلا زلنا لا نأكل هذا الصيغ رغم أن الله سبحانه وتعالى يقول أنه للاكلين، ولو شاء الله لكان التعبير معرفا، ويكون صحيحا، "بالدهن والصيغ للاكلين" أو يكون نكرة تامة "بدهن وصيغ للاكلين" لكن التعبير القرآني جعل النسق اللغوي يطابق الحقيقة العلمية.



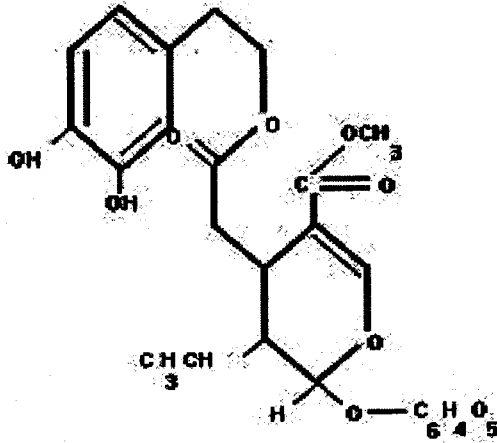
ولا يمكن أن نحصر الأبحاث التي أجريت على زيت الزيتون، وكذلك بعض المستخلصات من أوراق الزيتون، لكن هناك ما يستحق الذكر لأغراض نافلة للبشرية، فاستعمال كلمة دهن بدل زيت في هذه الآية له كذلك دلالة علمية، وغاية طيبة هائلة، فالتعبير القرآني جد مدقق لأنه الدليل الإنساني، الذي سيقى مع الإنسان إلى قيام الساعة، ولذلك جاء بمفاتيح لا تتغير، ونجد في آية أخرى من سورة النور، أن الله عبر بكلمة "زيت"، بدل الدهن.

لقوله تعالى "اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمَشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35)"

إن الخوض في هذه الآية أمر صعب من الناحية العلمية، وقد جاءت بعض التفسيرات الأدبية في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي والتي تبين بطريقة إيمانية معنى السياق العام للآية، لكن هناك حقائق علمية محضة تنطوي عليها الآية الكريمة، فنقف عند الوصف الواضح من الناحية اللغوية بمجموع شجرة الزيتون باللفظ "شجرة مباركة زيتونة" وقد وصفت هذه الشجرة بالمباركة وقد يتسع معنى هذا الوصف ليشمل المزايا الزراعية والبيئية والغذائية والطبية لشجرة الزيتون، ذلك أن شجرة الزيتون لا تفسد التربة من حيث يمكن زراعة ما بين الأشجار بمزروعات أخرى كالحبوب، وهي لا تضيع الفرشة المائية، وهي ترطب الجو وتحتوي في أوراقها على مكونات صحية وطبية كما سنتطرق لذلك فيما بعد.

ونقف كذلك عند "يكاد زيتها يضيء" فالوصف هنا جاء لجودة الزيت التي تستعمل للضوء لصفاتها. فالزيت التي تحترق يجب أن تكون خالصة، فإذا كانت فيها نسبة المياه زيادة أو إذا كانت فيها المركبات الأخرى العضوية غير الدهنية بنسبة عالية فلا تحرق جيدا، ولا تعطي ضوءا كثيرا بل تعطي دخانا. والتعبير عن النقاوة للإضاءة جاء بالزيت يعني أن تكون الدهنيات خالصة. أما التعبير عن الأكل وهو ما يهم صحة الإنسان فجاء بالدهن. وجاء التعبير بالزيت بدل الدهن في هذه الآية الكريمة لأن الزيت ذكر للاستضاءة، وهذه العملية تستعمل اشتعال الزيت، ويجب أن يكون خالصا ليكون الاحتراق أو الاشتعال جيدا، بينما الدهن جاء للأكل وهو أمر صحي، ويجب أن لا يكون مصفى، ليستفيد الجسم من المواد الموجودة كالدسم والفيتامينات والبوليفينولات والمواد الأخرى، ونقف على هذه الحقيقة، لنبين أن العلوم الحديثة قد تكون أفسدت أكثر ما أصلحت في الميدان الغذائي على الخصوص، ولنستعرض بعض الأساليب الصناعية الحديثة.

والأساليب الحديثة لاستخراج زيت الزيتون أصبحت تعتمد تصفية زيت الزيتون **Refining**، وهو أسلوب غير صائب بالنسبة لهذا الزيت، لأن التصفية والتكرير يجب أن يطبق على زيوت أخرى، كالزيوت النباتية من الصويا والفول السوداني ونوار الشمس وما إلى ذلك، لكن زيت الزيتون يجب أن لا يصفى حتى لا تضيع المكونات الصحية.



مادة الأولوروبين

فالزيتون أصبح يعالج بالصودا قبل تخمره، وربما لا يخمر، والمعالجة بالصودا تقدم البوليفينولات، ومنها مكون الأولوروبين **Oleuropein** النافع، وقد جاءت هذه التقنيات لإزالة المرورة، وهناك العديد من المكونات الأخرى التي تقدمها الصودا، فأصبح الزيتون لا يتفحص صحيا، وقد يكون خطيرا إذا ما لم يتمكن الصناع من إزالة الصودا من حبوب الزيتون نهائيا، وقد يصعب ذلك أو يستحيل.

أما فيما يخص بعض الأبحاث الأخرى حول شجرة الزيتون كنبات طبي، فتركزت كلها تقريبا حول أوراق الزيتون لأنها أغنى من الزيت ومن الزيتون فيما يخص بعض المكونات (جدول رقم ١)، وأشهرها حمض الإلينيوليك، وهناك ما يزيد على ٢٣ شركة، التي أصبحت تعرض هذا المنتج في قارورات زجاجية كمنتوج صيدلي طبيعي. وكثرت الإشاعات حول طريقة الحصول على إيلينوليت الكالسيوم **Calcium Elenolate** من حيث أن كل شركة تزعم أنها تتوفر على الطريقة الصحيحة لتهدئ إيلينوليت الكالسيوم. لكن رغم هذا التهافت التجاري على مواد الزيتون، فإن الحقيقة الثابتة هي أن أوراق الزيتون تحتوي على مواد نافعة جدا، وقد تشفى من عدة أمراض، ولا يمكن أن نذكر كل الحالات التي تمت معالجتها بمستخلص أوراق الزيتون، ومنها خفض الضغط الدموي (Samuelsson, 1951 ; Anomymous, 1994) وخفض الكوليسترول في الدم (Muriana et al., 1992)، وكبح السرطان. وهذه المواد قوة عالية في كبح البكتيريا المقاومة للمضادات، وكبح الفايروسات والخمائر والفطريات، ولها كذلك قوة في تفادي كل الأعراض المتعلقة بأمراض القلب والشرايين.



وحسب بعض الباحثين فقد أظهرت أوراق الزيتون نتيجة عالية في شفاء داء المفاصل والروماتيزمات وإصابة الشعر والأظافر والجلد وتسوس الأسنان. وكل هذه المزايا الصحية موجودة في هذه الشجرة المباركة، وقد نستفيد من ثمار الزيتون دون اللجوء إلى الأوراق، لكن يجب أن تستهلك طبيعياً، ويمكن أن نستفيد كذلك من زيت الزيتون لكن دون معالجة قبل عصرها ودون تصفية الزيت بل يكفي التحليل الطبيعي وليس عن طريق الطرد المحوري الذي أصبح هو المستعمل في جل الدول العربية المنتجة للزيتون، وكل هذه المعدات يجب تفاديها لتبقى جودة الزيتون الصحية عالية ولألا يفقد هذا المنتج المكونات التي خلقه الله من أجلها.

جدول رقم ١: التركيبة الكيماوية للصبغ وأوراق الزيتون

(Martín García et al. 2003)

أوراق الزيتون	الصبغ	
		المادة الجافة غ/ كغ من المادة
586	871	المادة العضوية
838	850	الدهنيات
32.1	1.30	دهون
413	624	Neutral detergent fibre
333	540	Acid detergent fibre
190	328	Acid detergent lignin
70.0	78.8	البروتينات
533	706	النيتروجين
		الأحماض الأمينية غ في الكيلوغرام
38.0	31.6	هستيدين
111	77.4	أرجينين
41.7	40.5	تريونين
90.2	107	فالين
18.2	14.1	ميتيونين
38.2	46.4	إيزولوسين
100	114	لوسين
53.3	56.9	فينيل ألانين
52.5	65.3	ليزين
43.1	26.7	حامض أسبارتك
47.4	55.4	حامض كلبيتامى
44.9	39.8	سيرين
63.0	66.4	كليسين
83.3	85.6	ألانين
45.9	48.0	برولين
14.7	16.2	تريروزين
13.6	10.4	سيسئين
		المادة الجافة غ/كغ
25.3	10.5	بوليفينولات
1.00	9.78	مواد دايبغة

ليس من الممكن حصر كل الأبحاث التي أجريت على ثمار الزيتون فيما يخص الاستشفاء والفوائد الصحية والطبية، لكن سنحاول تطويق الموضوع بإحالة القارئ على المنشورات العلمية بعد عرضها وبيان موضوعها.

كل الأبحاث التي أجريت على خفض الكوليسترول الدموي عن طريق تناول زيت الزيتون، بينت أهمية تفادي الإصابات المتعلقة بالقلب والشرايين، وأهم مكون في زيت الزيتون هو حمض الأوليك. وهناك علاقة كبيرة كذلك لهذه الإصابات أو للكوليسترول مع أمراض أخرى كالسكري وارتفاع الضغط والسمنة. والثابت حول دور زيت الزيتون في خفض الكوليسترول الدموي، أن الأحماض الغير المشبعة الموجودة في زيت الزيتون خصوصا حمض الأوليك، وكذلك الفيتامينات والبوليفينولات التي يحتوي عليها زيت الزيتون، وكل هذه المواد تقي الليبوبروتينات الثقيلة LDL من التأكسد (Reaven and Reaven et al., 1991 ; Witzum, 1996 Reaven, 1996).

لا شك أن دور زيت الزيتون في الحد من الإصابة بأمراض القلب والشرايين، أصبح جليا ولا مجال لذكر الأبحاث العديدة التي أجريت في هذا الصدد (Sanders 1996; Le Tutour et al., 1992; EAS, 1992) وقد توصل بعض الباحثين إلى ملاحظة بعض الأحداث التي أدت بهم إلى تناول هذا الموضوع ضمن الأبحاث المهمة بالأغذية الصحية أو الجانب الحموي Dietetic لبعض المركبات، وكان على رأس هذه الملاحظات والاستنتاجات:

١. أن سكان حوض البحر الأبيض المتوسط لا يصابون بأمراض القلب والشرايين (De Lorgeril et al., 1994 ; Spiller 1991 ; EAS 1992)، ويقل السرطان كذلك في هذه المنطقة، ويرجع الفضل في هذا الحادث العجيب إلى كون سكان هذه المنطقة يستهلكون الزيتون وزيت الزيتون بكثرة، وحيث أجريت بعض الأبحاث (Mensink and Katan, 1992; Sirtori et al., 1992; Reaven 1996; 1993; 1992) تبين أن الأحماض الدهنية الغير المشبعة، الأحادية أو المتعددة هي المسؤولة عن الوقاية من الإصابة بهذه الأمراض. وهذه الأحماض الموجودة في زيت الزيتون هي من فئة ٣ أو ما يسمى بالحمضيات الغير المشبعة المتعددة 3-Polyunsaturated Fatty Acids أو Omega-3 وهي الأحماض التي تؤثر على وظيفة الصفائح الدموية وهي المكونات المسؤولة عن تصلب الشرايين . والمعروف في الميدان الطبي فيما يخص أسباب الإصابة بتصلب الشرايين على الخصوص، أن الكوليسترول هو

المركب المسؤول عن هذه الإصابات. والكوليسترول يوجد على شكلين: الكوليسترول الخفيف **LDL** والكوليسترول الثقيل **HDL** ، ويعتبر هذا الأخير نافعاً بينما يعتبر الأول ضاراً. ويؤدي وجود الكوليسترول الثقيل بنسبة مرتفعة في الدم إلى الإصابة بتصلب الشرايين الذي يؤدي إلى ضيق أو انسداد الشرايين وضعف جريان الدم. ويساعد على هذا الحادث وجود دهنيات مشبعة وهي الدهون الحيوانية في الغذاء، ويرتفع هذا المرض في الدول الغربية حيث تمثل الحمضيات من نوع حمض اللوريك **C₁₂** وحمض الميريستيك **C₁₄** وحمض البالمييك **C₁₆** من ٦٠ إلى ٧٠% من الأحماض الدهنية المستهلكة. وتوجد هذه الأحماض في الدهون الصلبة مثل الزبدة والشحم الحيواني.

٢. أن سكان المناطق الثلجية (القطب) أو الإسكيمو لا يصابون ولا يعرفون أمراض القلب والشرايين، وقد فسّر الباحثون هذا الحدث باستهلاك هؤلاء السكان للأسماك التي تحتوي على حمضيات دهنية تحول دون الإصابة بأمراض القلب والشرايين، وهذه الأحماض تكون من فئة الأحماض الغير المشبعة المتعددة من نوع **n-6** أو ما يسمى بـ **Omega 6 (Poly Insaturated Fatty Acids) PIFA** وهي كذلك حمضيات تؤثر على وظيفة الصفائح الدموية وهي المكونات الدموية المسؤولة عن تصلب الشرايين، وتعمل الحمضيات الغير المشبعة **n-6** نفس العمل الذي تعمله الحمضيات الدهنية من فئة **n-3** الموجودة في زيت الزيتون.

ومن جهة أخرى فإن التدقيقات التي توصلت إليها الأبحاث الميدانية إلى حد الآن، لا يمكن حصرها ولا حتى ذكرها لتعدد المواضيع والنتائج. فأهم هذه النتائج أن الحمضيات الغير المشبعة إما الأحادية أو الثنائية أو الثلاثية تحول دون تأكسد الكوليسترول الخفيف أو الليبوبروتينات الخفيفة **LDL**، وهذا التأكسد هو الذي يتسبب في وقوع التصلب داخل الشرايين، وتكون الوقاية ضد التأكسد عالية بالنسبة للحمضيات الغير المشبعة المتعددة بالمقارنة مع الحمضيات الأحادية.

التركيب الكيماوي للزيتون (جدول ٢)

يكاد يشكل زيت الزيتون المكون الأساسي في الزيتون إذ يقترن الزيتون كلما تكلمنا عن الزيتون أكثر مما يقترن بالأكل مباشرة. تركيبة زيت الزيتون تركيبية ربانية تستحق التذكير والعناية وتستحق التدبر والتفكير، وما ذا يجدي هذا التدبر إذا لم ينفع البشرية، فالحقيقية في القرآن وليست في النتائج العلمية ولا تعزى أمور دنيانا إلى العلوم خصوصا في الوقت الحاضر الذي أصبحت العلوم تستعمل كسلاح. ولا يهمنا ما ينتشر في البلدان الغربية من نتائج علمية فلا نحتاجها بل هم اللذين يحتاجون الحقيقة المطلقة من القرآن فهم التائهون وليس نحن. وهذا النهج هو الذي يجب أن يتبعه أصحاب الإعجاز العلمي. وأصبحنا نرى أن كل علماء المسلمين يتسابقون للإيمان بنتائج الأبحاث المنشورة في البلدان الغربية ليزكوا بها حقائق قرآنية فهذا المنحى سيكون خطيرا وهو الآن يبين تدبب الباحثين المسلمين.

جدول رقم ٢ : التركيبة الكيميائية لزيت الزيتون (Kachouri and Hamdi, 2003)

٩٩ %	المواد الدهنية
١٥٠ مغ / كغ	فيتامين E
-	فيتامين أ
من ٨ إلى ٢٥ %	المواد الدهنية المشبعة
من ٥٥ إلى ٨٠ %	حمض أوليك
من ٠,٥ إلى ١,٥ %	حمض لينولينيك
من ٣,٥ إلى ٢١ %	حمض لينولييك
27.3	البوليفونولات (مغ / لتر)
21.4	هايدروكسيستيروزول
1.3	تيروزول
44.5	٣ dihydroxyphenylacetic حمض,4
2.6	P- hydroxyphenylacetic حمض
6.8	P- hydroxybenzoic حمض
0.7	حمض الفانيليك
4.4	حمض الكافيك
3.2	حمض الكومريك
٦,٣	حمض الفريليك
٢٥٩,٣	فانيلين
	الألورويين

١. المركبات الأساسية

تتكون حبوب الزيتون من فواكه بحجم صغير بالمقارنة مع فواكه الأشجار الأخرى كالمشمش والبرقوق، وهي تقترب حجما من التمر والعب، ولكن هذه الفواكه لا تؤكل مباشرة مثل ما تؤكل الفواكه الأخرى وإنما تمر من مراحل التخمر لتصبح جاهزة للأكل، ولو أمكن تناولها مباشرة لكان خيرا لكن المذاق المر لا يتحمسه الإنسان. وتستهمل حبوب الزيتون لاستخراج الزيت وأخرى تخص الأكل وليس هناك ما يدعو إلى العزل إلا الحجم. وربما تأتي عملية استخراج الزيت بعد اختيار الحبوب التي تخمر.

وثمار الزيتون عبارة عن حبوب تتكون من جزئين اللب والنواة ويمثل القسم الأول من ٩٤,٥ إلى ٩٨ % والقسم الثاني أو النواة من ٢ إلى ٥,٥ % بالنسبة للمواد الجافة وتحتوي النواة على قسمين القشرة الداخلية واللوزة. أما فيما يخص المركبات الكيماوية فالزيتون لا يحتوي على سكريات كثيرة كما هو الشأن للثمار الأخرى ويصل مستوى السكريات إلى ما بين ٢ و ٥ % بينما يصل معدل السكر في الثمار الأخرى إلى ١٢ % . كما يتميز الزيتون بنسبة عالية من الدهون بالمقارنة مع الثمار الأخرى التي تنعدم فيها الدهون. وما يميز ثمار الزيتون هو وجود كليزيديات تعطي المذاق المر والتي لا توجد إلا في الزيتون مثل مكون الألوربين، وتوجد الدهون في اللب الداخلي على القشرة كما توجد الألياف الخشبية في النواة أو الغلاف الخشبي للوزة. ولا شك أن العناصر الغذائية متوفرة في الزيتون ولو أن المركبات الثانية التي تلعب الدور الطبي في المهمة. ويصل مستوى البروتينات إلى ما بين ٩,٦ و ١٠,٥ % في القشرة الخارجية واللب. تصل الأملاح المعدنية إلى ٢,٣ % في اللب وهذه المكونات هي ذات أهمية قصوى خصوصا إذا علمنا أن زيت الزيتون غنية بالفيتامينات والمركبات والحمضيات الدهنية الأساسية خصوصا الغير المشبعة.

٢. المركبات الثانوية

الطوكوفيرولات

من المركبات الهامة التي يحتوي عليها زيت الزيتون نجد في الصف الأول الطوكوفيرولات وأشهرها α Tocopherol الذي يوجد بنسبة تصل إلى ٤٣ مغ / ١٠٠ غ من الزيت. ولا تزال الأبحاث جد متأخرة حول الدور أو المنافع التي تعزى لهذه المادة، ولا توجد الطوكوفيرولات الأخرى ومنها β و γ إلا على شكل أثر في الزيت.

البوليفونولات

توجد هذه المركبات في حبوب الزيتون أو اللب وأثناء العصر تنتقل هذه المركبات إلى الزيت، بتركيز ضعيف حسب الطريقة وحسب حدة الأسلوب المستعمل لاستخراج الزيت، وتشمل البوليفونولات مركبات كيميائية متعددة، ومنها البوليفونولات البسيطة وتشمل حمض الفانيليك، وحمض الغاليك وحمض الكوماريك وحمض الكافيك والتيروزول والهيدروكسيتروزول ويصل تركيز هذه المركبات في الزيت إلى ٤,٢ مغ في ١٠٠ غرام من الزيت الخامة و ٠,٤٧ مغ في ١٠٠ غرام من الزيت المصفى وتحتوي زيت الزيتون على مركبات أخرى كالأولوروبين ٢,٨ مغ / ١٠٠ غرام والليكسروزيد ٠,٩٣ مغ / ١٠٠ غرام كما تحتوي على مركبات أخرى كبيرة مثل الليكانان ٤,١٥ / ١٠٠ غرام في الزيت الخامة و ٠,٧٣ مغ / ١٠٠ في الزيت المصفاة وإلى جانب هذه المركبات نجد الفلافونويدات ومنها الأبيجيتين والليتولين.

المركبات المنكهة

ويصل عدد المركبات التي تلعب دورا في نكهة ومذاق الزيت إلى ٧٠ مركبا، وهي مركبات عديدة تكون غالبا على شكل أثر في الزيت، ولها قوة كبيرة في إعطاء المذاق والرائحة والنكهة للزيت، وتشمل عدة مجموعات من المواد الكيميائية المعروفة بخاصيتها النكهوية (الكحولات العالية والسيطونات والإسترات والفيوران والمشتقات التيربينية والمركبات المنحدرة من حل بعض الحمضيات الغير المشبعة).

تعيش شجرة الزيتون حياة طويلة، حيث يمكن أن تعمر من ٣٠٠ إلى ٦٠٠ سنة، أو حتى أكثر من ذلك. وتبقى هذه الشجرة قادرة على النمو من جديد لتعطي شجرة جديدة ولو ماتت الساق والأغصان. يصل عدد أشجار الزيتون الموجودة اليوم فوق سطح الأرض إلى ٨٠٠ مليون شجرة، تنتمي إلى ٤٠٠ صنف مختلف منتشرة في أنحاء العالم. وما يثير الإعجاب أكثر من الأعداد الضخمة لأشجار الزيتون هي السمات الإلهية التي تفوح من أغصان هذه الشجرة.

المراجع

القرآن الكريم
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي
سنن الترمذي
صحيح البخاري

Anonymous, Department of Pharmacology and Toxicology, Society of Pharmaceutical Industries of Tunis, Hypotension, hypoglycemia and hypouricemia recorded after repeated administration of aqueous leaf extract of *Olea europaea*, *Belgian Pharmacology Journal*, March-April 1994; 49(2), 101-8.

De Lorgeril M, Renaud S, Mamelle N, et al.: Mediterranean alpha-linolenic acid rich-diet in the secondary prevention of coronary heart disease. *Lancet* 343: 1454-1459 (1994).

European Atherosclerosis Society (EAS): Prevention of coronary heart disease: Scientific background and new clinical guidelines. Recommendations for the European Atherosclerosis Society prepared by the International Task Force for the Prevention of Coronary Heart Disease. *Nutr Metab Cardiovasc Dis* 2: 113-156 (1992).

Kachouri F. and Hamdi M. Enhancement of polyphenols in olive oil by contact with fermented olive mill wastewater by *Lactobacillus plantarum*, *Process Biochemistry*, *In Press, Corrected Proof, Available online 25 July 2003*.

Fleming HP, Walter WM, Etchells JL. Antimicrobial properties of oleuropein and products of its hydrolysis. *Appl Microbiol* 26 (5), 777—782, 1973.

Le Tutour B, Guedon D. Antioxidative activities of *Olea europaea* leaves and related phenolic compounds. *Phytochem* 31 (4), 1173—1178, 1992.

Martín García A. I., Moumen A., Yáñez Ruiz D. R. and Molina Alcaide E. Chemical composition and nutrients availability for goats and sheep of two-stage olive cake and olive leaves, *Animal Feed Science and Technology*, *Volume 107, Issues 1-4, 30 June 2003, Pages 61-74*.

Mensink RP, Katan MB. Effect of a dietary fatty acids on serum lipids and lipoproteins - A meta-analysis of 27 trials. *Arteriosclerosis Thromb* 12: 911-919 (1992).

Mensink RP, Katan MB. Trans monounsaturated fatty acids in nutrition and their impact on serum lipoprotein levels in man. *Prog Lipid Res* 32: 111-122 (1993).

Mouncif M., Tamoh S., FAID M. and Achkari B.A. 1993. Physico-chemical properties and the microflora of the Olive Mill waste water. *Grasas y Aceites* 44, (6), 335-338.

Muriana FJG, Ruiz-Gutierrez V, Vazquez CM. Influence of dietary cholesterol on polyunsaturated fatty acid composition, fluidity and membrane-bound enzymes in liver microsomes of rats fed olive and fish oil. *Biochimie* 74, 551—556, 1992.

Reaven P, Parthasarathy S, Grasse BJ, et al.: Feasibility of using an oleate-rich diet to reduce the susceptibility of low-density lipoprotein to oxidative modification in humans. *Am J Clin Nutr* 54: 701-706 (1991).

Reaven P: The role of dietary fat in LDL oxidation and atherosclerosis. *Nutr Metab Cardiovasc Dis* 6: 57-64 (1996).

Reaven PD, Witzum JL: Oxidised low density lipoproteins in atherogenesis: role of dietary modification. *Ann Rev Nutr* 16: 51-71 (1996).

Renis HE. In vitro antiviral activity of calcium elenolate. *Antimicrob Agents Chemother*, p. 167—172, 1969.

Samuelsson G, The blood pressure lowering factor in leaves of *Olea Europaea*. *Farmaceutisk Revy*, 1951; 15: 229-39

Sanders TAB: Effects of unsaturated fatty acids on blood clotting and fibrinolysis. *Curr Opin Lipidol* 7: 20-23 (1996).

Sirtori CR, Gatti E, Tremoli E, et al. Olive oil, corn oil, and n-3 fatty acids differently affect lipids, lipoproteins, plate, and superoxide formation in type-II hypercholesterolemia. *Am J Clin Nutr* 56: 113-122 (1992).

Spiller GA ,ed.: The Mediterranean diets in health and disease. AVI, Van Nostrand Reinhold, New York (1991).

Tassou CC, Nychas GJE, Board RG. Effect of phenolic compounds and oleuropein on the germination of *Bacillus cereus* T spores. *Biotech Appl Biochem* 13, 231—237, 1991.

Walker M. *Antimicrobial attributes of olive leaf extract*. Townsend Letter for Doctors & Patients, July 1996, pp 80—85.

المحور السابع

علوم الحياة



- (١) حقيقة الخلق وأكذوبة التطور.
- (٢) الدارونية والأعجاز العلمي في القرآن.
- (٣) تفسير معجزتي الداء والشفاء في حديث الذبابة.
- (٤) التكوين الاجتماعي لمجتمع النحل.
- (٥) ولوغ الكلب بين استباطات الفقهاء واكتشافات الأطباء.
- (٦) دلائل الإعجاز العلمي في اشارات التصميم البيئي.

حقيقة الخلق وأكذوبة التطور

د. حسني حمدان الدسوقي حمامة

مقدمة

الظن لا يغني من الحق شيئا. والظن هو التطور العضوي، والحق هو الخلق، والخلق والتطور ضدان لا يجتمعان، وحقيقة الخلق تنفي فرضية التطور. والانتقاء الطبيعي ليس بذاته قوة خلافة ولا يدفع شيئا جديدا للتطور. ولم تفد الأحافير نظرية التطور العضوي، حيث لم يسجل أرشيف الحياة القديمة أية حلقات وسطى من حلقات التطور المزعوم، وعجز العلماء عن الوصول إلى سلف مشترك لجميع الكائنات. ولم تنجح جميع نماذج التطور في شرح الآلية التي تظهر بها الكائنات الجديدة. وتعددت النظريات حول نشأة الحياة، وما يزال سر الحياة غامضا. ولم يؤد تقصى أصول شجرة الحياة إلى وجود الكائن الفطري الوحيد الذي انبثقت منه الكائنات. وللأسف بعد أن فشلت الدارونية القديمة فشلا ذريعا، أطلت الدارونية الجديدة برأسها في رداء عصري خادع تحت شعار براق أسموه التسلسل الجيني. والوهم كل الوهم يكمن في محاولات فهم نشأة الحياة وتنوعها وتعاقبها بعيداً عن الله. والحقيقة، أن الله خلق من كل شئ زوجين، وخلق الأشياء بقدر، وخلق الله من الماء كل شئ حي، وجعل الله التنوع سمة أساسية في الخلاق التي يعلم الله مستقرها ومستودعها. وخلق الله متجدد ومستمر، وسجل جميع الخلاق لا يحيط به البشر. وهو سبحانه يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي. وضرب الله لكل أمة أجلا، وتنفى جميع الموجودات ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام.

نظرة عامة

حقيقة الخلق تنفي فرضية التطور العضوي: هذا القول يعرفه دعاة التطور الدارويني. فهم يعلمون أن نظرية التطور لا سند لها من العلم الحق، وإيمانهم بما لا يرجع إلى صحة النظرية، بل لأنهم يصدون أنفسهم وغيرهم عن الإيمان بحقيقة الخلق. وللأسف، فهؤلاء جحدوا حقيقة الخلق بعد أن إستيقنتها أنفسهم، وصدق الله حيث يقول: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ (النمل: ١٤). وحتى لا يظن أحد أنني متحامل على نظرية التطور العضوي، أحيله إلى أقوال العلماء. فهذا النشونى الكبير السير آرثر كيث يقول: (إن نظرية التطور لا زالت بدون براهين حتى الآن، وستظل كذلك، والسبب الوحيد في أننا نؤمن بما هو أن البديل الوحيد الممكن لها هو الإيمان بالخلق المباشر، وهذا أمر غير وارد على الإطلاق). وتلك مقولة تعكس الكفر مع سبق الإصرار والجحود. وأسوق أيضا شهادة شاهد آخر من أهلها، إنها شهادة النشونى الكبير أيضا الكونت دى نوى (Conte de Nay) حيث يقول: (كل مجموعة، كل فصيلة تبدو كأنها جاءت إلى الوجود فجأة، إننا لم نعر على أي شكل انتقالى، ومن المستحيل أن ننسب أى مجموعة حديثة إلى أخرى قديمة. ويضيف إننى ألمح كل العلامات المثبتة على حدوث الخلق المطلق). فإذا كان الكونت دى نوى يذكر أن الخلاق جاءت إلى الوجود فجأة فليطمئن إلى قول الله تعالى: ﴿ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ (الذاريات: ٤٩)، وقوله أيضا: ﴿إنا كل شئ خلقناه بقدر﴾ (القمر: ٤٩).

وقد أصاب الكونت دى نوى كبد الحقيقة حينما لم يقر بنسب المحدثين إلى قدماء ليسوا من أنواعهم، وذلك لسبب جلىّ وهو أن كل الأنواع جاءت أزواجا، ولم يتسلسل بعضها من بعض. تلك الحقيقة الجليلة ذكرها الله في ثلاث آيات من القرآن الكريم، وهى: قوله تعالى: ﴿سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ (يس: ٣٦) وقوله ﴿والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون﴾ (الزخرف: ١٢) وقوله ﴿ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ (الذاريات: ٤٩).

- وإذا لاحظ الكونت دي نوى علامات ، أكدت له " حدوث الخلق المطلق ، فإن القرآن الكريم قد صدق بتلك الحقيقة في الكثير من الآيات القرآنية ، منها قوله تعالى:
- * ﴿الذي أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين﴾ (السجدة: ٧).
- * ﴿إن ربك هو الخلاق العليم﴾ (الحجر: ٨٦).
- * ﴿الله خالق كل شئ وهو على كل شئ وكيل﴾ (الزمر: ٦٢).
- * ﴿هو الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى ...﴾ (الحشر: ٢٤).
- * ﴿قال ربنا الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى﴾ (طه: ٥٠).
- * ﴿... ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾ (الأعراف: ٥٤).

ويشترك مع الرأى السابق العالم: استن كلارك من معهد ثبثون ، فنجده يصرح أن: (العلماء الذين يؤكدون على أن التطور واقع علمي هم منافقون، وأن ما يروونه من أحداث إنما هو من الشعوذات التي ابتدعت ولا تحوى على نقطة واحدة من الحقيقة)، ويضيف مؤكدا ، قول الكونت دي نوى السابق: (لا توجد علاقة سابقة تحمل على الاعتقاد بأن أياً من المراتب الحيوانية الكبرى ينحدر من غيره. إن كل مرحلة لها وجودها المتميز الناتج عن عملية خلق خاصة ومتميزة . لقد ظهر الإنسان على الأرض فجأة وفي نفس الشكل الذي نراه عليه الآن). وإذا كان قول استن كلارك قد انتهى ، فإنني أذكره ليطمئن قلبه ببعض آيات الله ، ولعلها قمدى من وصفهم بالمنافقين والمشعوذين، حيث يقول رب العالمين في القرآن الكريم في آيات تتحدى منكري الخلق الخاص:

* ﴿أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شئ ، وهو الواحد القهار﴾ (الرعد: ١٦) .

* ﴿... أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات ..﴾ (فاطر: ٤٠).

* ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون﴾ (النحل: ١٧).

وحول قول استن كلارك عن المراحل المتميزة التي هي نتاج خلق خاص ، نذكره بقوله تعالى:

* ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون﴾ (القصص: ٦٨).

* ﴿والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون﴾ (النحل : ٢٠).

* ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾ (الطور : ٣٥).

وعن ظهور الإنسان المفاجئ على الأرض وفي نفس الشكل الذي يراه، أنصح تلاميذ استن كلارك أن يقرأوا قصة خلق آدم وهبوطه على الأرض واستخلافه فيها ، كما وردت في سور القرآن الكريم.

وإن كان لي من كلمة : فإني أرى أن: التطور ظنّ لا يغني من الحق شيئاً ، والتطور بمعناه المعروف لا هدف له سوى استبعاد كلمة الخلق (Creation) ليحل محلها كلمة من تلبس إبليس ، هي كلمة التطور (Evolution) دوغما سند واحد من عالم الأحياء أو عالم الأحافير . وللأسف فإن دعاة التطور العضوي جحدوا كلمة الخلق بعد أن استيقنتها أنفسهم ظلماً وعلموا .

هل استطاع السيد شارلز دارون أن يفسر لنا لماذا هلكت عمالقة الخلق من الديناصورات في حين استمرت الثدييات الصغيرة في البقاء متجاوزة لحظة الفناء في نهاية العصر الطباشيري. وربما ينجح لحد ما مبدأ البقاء للأصلح في تفسير وجود الأقوى ، ولكنه عاجز عن أن يفسر بقاء الأضعف. كيف دبّرت وحيدات الخلية حائها عبر ملايين السنين حتى يومنا هذا ؟ وكيف تواجدت الشاة الجلحاء بجانب أختها النطحاء؟ لماذا لم تصطفي الطبيعة على حد زعم دارون ذات القرون فقط في صراع الشاه من أجل الحياة؟ وكيف وجدت أسماك الأجناتا عديمة الفكوك جنباً إلى جنب مع الأسماك ذات الفكين لمدة تقرب من ٦٠ مليون سنة ، مع أن ظهوره الفكوك في الأسماك يمثل في عرف دارون ظاهرة تطورية؟ ، فإذا كانت الأسماك عديمة الفكوك دبّرت حائها بدون فكوك فما هو معنى التطور إذن؟. وإذا كانت الزرافة بعنقها الطويل هي حصيلة "الاصطفاء الطبيعي"، وأما أفضل مثال على تنازع البقاء، فما بال الخروف الذي لا يزيد طول عنقه عن سنتيمترات قانعا بقصر رقبة. أى طبيعة عاقلة تصطفى ما تشاء وتعرض عما تشاء. حقا إنما لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب عن رؤية الحقيقة. فيأبها الداروني الغير مأسوف عليك اعلم أن الذي يصطفى هو الله الذي يقول:

* ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار...﴾ (القصص : ٦٨).

* ﴿إن الذين تدعون من دون الله لا يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له..﴾ (الحج : ٧٣).

* ﴿والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون﴾ (النحل : ٢٠).

* ﴿واتخذوا من دون الله آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون﴾ (الفرقان : ٣).

* ﴿قل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده فأني يوفكون...﴾ (يونس : ٣٤).

ثم لماذا يغض أنصار دارون الطرف عن إحدى مقولاته ، الأهم ملكيون أكثر من الملك. إن دارون من حيث لا يدري يدحض ما عرف بالصفاء الطبيعي بنفسه حيث يقول : (إلا أننى أؤمن بالانتقاء الطبيعي ، ليس لأننى أستطيع فى أى حالة واحدة أن أثبت أنه غير نوعاً من الأنواع إلى نوع آخر، وإنما لأنه يفسر ويصنف جيداً كما يبدو لى عدداً هائلاً من الحقائق فى التصنيف وعلم الأجنه وعلم التشكل والأعضاء الأولية والتتابع الجيولوجى). للأسف جعل التطوريون من التطور نداً للإله فى اصطفااته الأشياء. وإننى أسأل مندهشاً لماذا يُغيب العقل ، ويُجهد النفس فى الاعتقاد بطبيعة ميتة تقوم بدور الإله القادر، بينما كل خلية من خلايا الإنسان تنطق بوجود الخالق. وصدق الله حيث يقول: ﴿م جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شى وهو الواحد القهار﴾ (الرعد: ٦).

أعتقد أن الكثير من أساسيات نظرية التطور قد تمات ، ولم يعد من المقبول احتراماً للعقل مناقشتها من مثل اتخاذ تشابه الأعضاء دليلاً على الارتقاء من سلف مشترك. بل إن فكرة السلف المشترك ثبت فشلها حتى فى ضوء دراسة جزيئات الحياة. ولم يعد قانون هيكلم المعروف بمبدأ الاستعارة (Recapitulation) أيضاً مقبولاً، إلا إذا أعيدت صياغته بحيث ينص على أن (تاريخ حياة الفرد يعيد تاريخ حياة نوعه استناداً على أطوار حياته المختلفة) .

وقد لا يحق لدارون أن يهدأ مستقراً فى قبره استناداً على ما يُعرف بالاختيار بالدفع (stress) أو بتأثير البيئة. وقد هوى السند الذى اتخذوه دليلاً على دقة النظرية، حيث ثبت أن التأثيرات البيئية لم تستطع أن تغير الشفرة الوراثية للكائن. إن ظهور أمة من البيتولاريا (*Biston betularia*) ذات اللون الأسود، بعد اختفاء البيتولاريا الرمادية اللون، لتعطى النوع قدرة على التخصص فى ظروف الثورة الصناعية ، وما نتج عنها من سناج (Smog) فى الجو ، هذا الظهور لم يمثل تغيراً فى نوع البيتولاريا . إن اتخاذ تغير اللون فى النوع السابق دليلاً على التطور سذاجة ، لا يعدها إلا تصور تغير نوع الإنسان من أمة الزوج الأفرقة مثلاً إلى نوع آخر ، إذا هاجر الزوج من موطنهم الأصلي ونزحوا إلى سيبيريا مثلاً لعدة آلاف من السنين. وليس تغير لون بشرته إلا نتيجة عمل بعض الجينات من بين المائة ألف جين المستودعة فى نواة الخلية الجسدية.

دارون هذا ، جعلوه صنماً من أصنام الفكر المراد ترويجه ، وكان مستعداً لأن ينفذ ما يطلب منه. والعجيب أنه أشار إلى الخالق فى الطبعة الأولى لكتاب أصل الأنواع الذى صدر سنة ١٨٥٨م حيث ذكر أن الحياة انبعثت من الخالق أول مرة، ثم إذا به ينكر الخالق فى الطبعات التالية من الكتاب.

تأثير دارون في الفكر الحديث: حرت في بحر

يرى أرنست ماير (Ernest Mayer) أستاذ فخري لكرسي الكساندر أجاسيز في جامعة هارفارد: أن التطور حقيقة لا يشك في صحتها أى مثقف، ويعتبر النظرية تلك حقيقة محضة، ويزعم السيد أرنست أن معظم أطروحات دارون الخاصة قد أصبحت مؤكدة، كتلك التي تتعلق بالتحدر المشترك، وتدرج التطور، وبنظريته التوضيحية للانتقاء الطبيعي. وسوف أوضح بعون من الله كذب إدعاء أرنست ماير في ضوء دراسة شجرة الحياة المتخيلة حديثا والتي تنفي بصورة قاطعة سخافة السلف المشترك (Common Ancestor)، وأيضا في ضوء أرشيف الحياة القديمة- الأحافير- التي تنفي وجود حلقات وسطى، الأمر الذي يذهب بفرضية التطور أدراج الرياح، بالإضافة إلى عبثية ما يسمى بالانتقاء الطبيعي. وفي وضوح لا لبث فيه يظهر الهدف الأول والأخير من وراء نظرية التطور ألا وهو انكار حقيقة الخلق، نجد ذلك في قول ماير: (ربما كان أعظم اسهامات دارون إيجاده مجموعة من خلال التطور من دون اللجوء إلى ما فوق الطبيعة Supernaturalism). كما أن أرنست ماير وهو من علماء تاريخ البيولوجيا التطورية، يرى أن التطور غير قائم على قوانين بل ينسب على مفاهيم. حقا إنه الهوى والظن، ولكن الظن لا يغنى من الحق شيئا. وفي دارون وماير وأتباعهما يصدق قول الحق تعالى: ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد * كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضلله ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ (الحج ٣-٤)، وقوله أيضا: ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير * ثابى عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾ (الحج: ٨-٩)، وقوله سبحانه: ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ﴾ (الفرقان: ٤٣)، وقوله: ﴿ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ (القصص: ٥٠). وأصدق ما يقال في دعاة الإلحاد من العلماء والدارونيين هو قول رب العالمين: ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون * وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾ (الجن: ٢٣-٢٤).

ولم يكن دارون سوى عالما ليس ثوبا من أثواب كهان معبد أصنام قوم إبراهيم، وكان مستعدا أن يسخر علم الحياة ليخلع على الإلحاد ثوب العقلانية. ولا توجد في تاريخ البشرية نظرية بلا سند تم الترويج لها مثل نظرية دارون.

وكلمات الجيولوجي داوسون (J.W. Dawson) أعجب من قول أرنست ماير السابقة حيث يقول: (التطورية لا تترك أى مجال للخوارق، فالأرض وسكانها لم يخلقوا كما هم بل تكونوا بالتطور). ومصدر عجبى أنه قال كلماته القاطعة تلك فى الذكرى المثوية للدارونية دون أن يدرك حالة الشك التى أحاطت بصاحب الذكرى غير المأسوف عليه وعلى نظريته حيث يقول دارون ذاته (إذا كانت الأنواع تنحدر من أنواع أخرى بتدرج بطى وغير محسوس، فلماذا لا نجد كثيرا من المخلوقات الانتقالية بين النوعين؟ لماذا لا يوجد شىء فى الطبيعة فى حالة مشوشة؟ لماذا لكل من الأنواع شكل ووصف محدد؟ لماذا لا نجد باستمرار على قشرة الأرض بقايا هذه الأشكال الانتقالية العديدة التى لا تنفى فرضية التطور وجودها؟). والجواب على تساؤلات دارون غاية فى البساطة لسببين: أولا خطأ فرضية تحدر الأنواع الجديدة من أنواع أخرى، وبالتالي لا توجد حلقات وسطى إلا فى عقل الدارونيين؛ سواء القدامى منهم أم الجدد. وثانيا لأن الله خلق الأنواع كلها خلقا خاصا، وأحسن خلقها، وهداها لما خلقت له. وهنا تتألا كلمات الحق فى قوله تعالى:

﴿ الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ (السجدة : ٧)، وقوله: ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾ (القمر : ٤٩)، وقوله سبحانه: ﴿ الذى خلق فسوى * والذى قدر فهدى ﴾ (الأعلى : ٢-٣).

وجميع الصروح التى نسبها أرنست ماير لدارون ليست إلا وهن مثل وهن بيت العنكبوت. وما حسه ماير عن وجوه اسهامات دارون فى الفكر الحديث ليس الا فكر موغل فى الجهالة والضلالة معا. وتلك هى النواحي الست التى ذكها ماير:

١- رفض جميع الظواهر والمسببات فوق الطبيعة.

٢- ترفض الدارونية فكرة النيولوجيا (التنميط).

٣- رفض فكرة الكمال المطلق وبالتالي رفض وجود الإله.

٤- أعلى دارون من شأن المصادفة والاحتمال، ونفى مذهب الجبرية.

٥- نادى دارون بوجود سلف مشترك (Common descent).

٦- هيا دارون كما يزعم أرنست ماير أساسا علميا للأخلاق! (مع العلم بأن فرضية البقاء للأصلح تقوم على الأناية).

وفيما يلي نقض لنظرية دارون ، مبتدئا بما يسمى بشجرة الحياة والسلف المشترك بعد الاشارة الى أصل الحياة.

معرفة أصل الحياة : أمل بعيد المنال

أقولها صريحة : إن محاولة الوصول إلى أصل الحياة بعيدا عن الله طريق مسدود ، يتوه الإنسان في دروبه الملتوية ، دون أن يصل إلا إلى سراب. وأحذر من الدروانية الجديدة التي أطلت رأسها في ثوب براق خادع مادته علم حياة الجزيئات (Molecular Biology) . فقد أعلن الماديون شعار التسلسل الجيني، كما أعلن إمامهم السيد دارون من قبل فكرة التسلسل الشكلي والتطور بالتدرج والبقاء للأصلح . وها هم ألقوا الفرض الذي يحتاج إلى تمحيص دقيق ومؤداه: (بوسع الباحثين إعادة بناء الماضي التطوري لأنواع الحياة ، من خلال تقييم تباعد تسلسل الجينات أو البروتينات التي تم عزلها من تلك الكائنات). عودة ثانية إلى الفكرة السخيفة عن العلاقة بين القرد والإنسان. فمن قبل اتخذوا من التشابه بين جمجمة القرد والإنسان دليلا على تطور مزعوم ، وللأسف اليوم يتخذون من التقارب بين جينات الإنسان وجينات الرئيسات العليا دليلا على تحدر الإنسان من سلالة الرئيسات. وهكذا يجرون الآيسين من رحمة الله وراهم من الآن ، ولمدة قد تماثل المدة التي خدع بها دارون أتباعه - قرابة ١٥٠ سنة - ثم بعد ذلك يعلنون فشل الدارونية الحديثة ، ثم يعودون لما هموا عنه.

من الآن أقول حذارا من عبث فكرة التسلسل الجيني وإعادة الماضي التطوري استنادا على أفكار تفسير علم جزيئات الأحياء وفق هواهم. ولن أحذو حذوهم فأبدأ بطرح سؤالهم: ما أصل الحياة ، ولكن سيكون طرحي ابتداءا بالسؤال التالي كيف بدأ الخلق؟ استلهاما من قول الحق تعالى: ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شئ قدير﴾ (العنكبوت: ٢٠) وقد فهم المفسرون ﴿ كيف بدأ الخلق﴾ : بالنظر إلى خلق الناس على كثرتهم وتفاوت هياتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم (القرطبي). وتوسع آخرون في فهم ذلك بأنه دعوة الله للناس بالسير في الأرض وتتبع صنع الله وآياته في الخلق والإنشاء، في الجامد والحَي سِواء، ليدرِكوا أن الذي أنشأ يعيد بدون عناء، وأن السير في الأرض يفتح العين والقلب على المشاهدة الجديدة التي لم تألفها العين ولم يجلفها القلب وما يشغل علماء اليوم في هذا الشأن قد لاحظته أحد كبار مفسري القرآن

الكريم وهو الشيخ سيد قطب (رحمه الله) حيث يقول : (إن التعبير بلفظ الماضي ﴿ كيف بدأ الخلق ﴾ بعد الأمر بالسير في الأرض لينظروا كيف بدء الخلق يثير في النفس خاطرا معيناً... تُرى هنالك في الأرض ما يدل على نشأة الحياة الأولى، وكيفية بدأت الخليقة فيها كالحفريات التي يتبعها بعض العلماء ليعرفوا منها خط الحياة كيف نشأت ؟ وكيف ارتقت؟ وإن كانوا لم يصلوا في معرفة سر الحياة ما هي ؟ ومن أين جاءت ؟ وكيف وجد فيها أول كائن حي؟

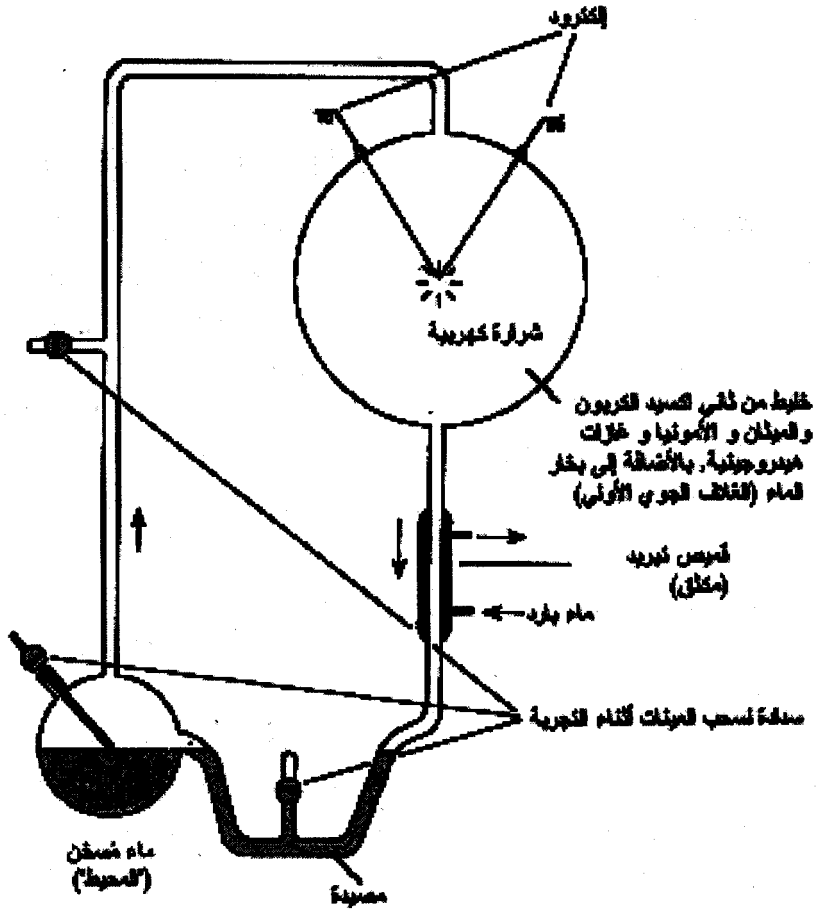
وأعتقد أن فهم سيد قطب لـ ﴿ كيف بدأ الخلق ﴾ يفوق فهم العلماء الباحثين عن أصل الحياة، فالأول رأى في ضوء النص القرآني أن الدليل موجود في الأرض، والآخرون جربوا في المعامل ليبحثوا عن أصل الحياة فلم يصلوا إلى صنع الحياة على الوجه الذي ستعرفه لاحقا. وتوسع ابن كثير (رحمه الله) في فهم ﴿ كيف بدأ الخلق ﴾ ليشمل خلق الله للأشياء فقال: السموات وما فيها من الكواكب النيرة والأراضين وما فيها من مهاد وجبال وأودية وبراري وقفار ، وأشجار وثمار ، وبحار، كل ذلك دال على حدودها في أنفسهم ، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار الذي يقول للشئ (كن فيكون) ورب العالمين قد أعطى مفتاح خلق الكون والحياة ، فذكر في كتابه العزيز أن بداية الكون رُتقَ قد فُتق، وأن أساس الحياة ماء ، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ﴾ (الأنبياء : ٣٠).

وأود التأكيد ثانية على أن بدء الخلق ومسيرة الحياة والنشأة الآخرة ، يستحيل فهمهما بعيدا عن الله . وأؤكد على ذلك براءة من الشرك، وتحذيرا من السير وراء من ينسبون النشأة الأولى وما تلاها من تتابعات إلى طبيعة ميتة تصطفى ما تشاء، أو تطور زائف يسلسل الكائنات بعضها من بعض دونما سند علمي واحد اتباعا للأهواء. فالله تعالى خلق ويخلق ويخلق وهو الخلاق العليم، وكل يوم هو في شأن يدبر أمور خلقه ويحيي ويميت. وأجد نفسي كمسلم، في ضوء عقيدة الإسلام الحق، وأنطلاقا من صحيح العلم، غير المتلبس بظن لا يغني من الحق شيئا، أبرأ من نظرية التطور العضوي سواء قديمها أو حديثها. والقديم منها أخذ منه الجلي ما أخذ واستمته العقول، وجديدها أشم منه رائحة الهوى وعدم الأمانة . وأقرر أن الذين ينسبون وجود الأشياء إلى طبيعة ميتة أغبياء، والذين يجعلون من التطور آلية لظهور الكائنات كذابون منافقون، والحقيقة أن الله وحده هو الخالق ، وصدق تعالى حيث يقول: ﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ﴾ (الزمر : ٦٢)، وقوله: ﴿ الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شرك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾ (الفرقان : ٣)، وقوله: ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ (القمر: ٤٩).

العلم وأصل الحياة

لم يكن نجاح ستانلى ميللر الأمريكى فى مطلع الخمسينات من القرن الماضى ، وكذا نظيره الروسى أوبارن ، فى تصنيع الأحماض الأمينية من خليط من الميثان والأمونيا وثانى أكسيد الكربون وبخار الماء وغيرها مكن المواد غير العضوية باستخدام أجهزة بسيطة عن طريق التفريغ الكهربى وتحت الضغط الجوى (شكل ١) إلا خطوة للحصول على اللبنات الأولى المكونة للكائن الحي. وكان وما يزال الانتقال بالجزئيات العضوية إلى حياة تنبض خارج مقدور جميع علماء الأرض ، وفى ذلك إثبات للعجز البشرى عن صنع حياة .. أى حياة ، وصدق الله تعالى حيث يقول: ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾ (الحج: ٧٣).

ويقينا فإن يد القدرة الإلهية كانت وما تزال هى الوحيدة وراء إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي . إن إشعاع الحياة (life Radiation) سر من أسرار الله الخالق البارئ المصور. ولا حرج على العلم فى النظر فى كيفية إنشاق الحياة بشرط أن يؤمن بالخالق والخلق أولا ، ثم يبحث بجد بعد ذلك ليحقق قوله تعالى : ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ... ﴾ (العنكبوت: ٢٠). ويتفق أغلب العلماء على أن الحياة نشأت عن طريق " سلسلة من التفاعلات الكيميائية" تمت تحت ظروف بيئية مغايرة تماما للظروف السائدة على الأرض اليوم، وأدت إلى إنتاج تجمعات من الجزئيات العضوية. وانطلقت نماذج تلك النشأة من نظرية التطور ، مترسمة هداها فى أن نمو المادة الميتة أو الجزئيات غير العضوية التى سبقت الخلايا الحية قد تأثر بالآليات التى تحكم الكائنات اليوم من التنافس، ونسخ الجزئيات ، والانتقاء الطبيعى. بمعنى آخر، وقع أغلب هؤلاء العلماء فى تفسيرهم لنشأة الحياة فى أسر نظرية دارون ، فإذا بطلت النظرية بطلت معها التأويلات المنبثقة عنها، وقد سقطت النظرية فعلا.



شكل (1): رسم تخطيطي لجهاز ستانلي ميللر المستخدم في تجربة إنتاج الأحماض الأمينية. وعجز ميللر عن صنع حياة (Lemon, 1993, P. 123)

من هكسلي إلى ميللر والحياة سر

ناقش هكسلي (T.H.Huxly) عالم الحياة البريطاني عام ١٨٧٠م الفكرة الخيرة والمثيرة للجدول التي تفترض أن الأنظمة الحية تطورت عن جزيئات غير حية في محيطات بدائية تشبه الحساء العضوى (Organic soap). وفي أثناء مساجلات هكسلي كان معظم العلماء يعتقدون من خلال تجاربهم أن الحياة يمكن أن تأتي فقط من حياة سابقة أو ما يعرف بالتولد الذاتى (Spontaneous generation) وقد تأكد فيما بعد عدم صحة هذا الفرض. وقد تمسك هكسلي بمعتقدده في أن الحياة قد نشأت من كيمائيات غير حية (non living chemicals). إلا أنه أخفق في شرح الطريقة التي تمت بها، ولكن غلبه الإحساس بأن ذلك وقع على الأرض الابتدائية، وكان " يتوقع أن حكمة التطور كانت وراء نشأة الجيلة الحية من المادة غير الحية.

وبين عامى ١٩٢٠ و ١٩٣٠ قام كل من الروسى أوبارن (A.I.Oprin) والانجليزى هالدان (J.B.S. Haldane) بنشر مجموعة من الأفكار تدعم فرضية مجى الحياة على الأرض نتيجة تفاعلات كيميائية في بيئات تفتقد الأكسجين. وتوقع أوبارن حدوث خطوة انتقالية بين الكيمائيات غير الحية والخلايا الحية تشبه ما يعرف اليوم بالقطيرات المتجمعة (Coacervate droplets). وتلك القطيرات المجهرية الحجم تتكون من جزيئات عضوية كبيرة ولكنها غير حية تبقى معلقة في الماء. وتتصرف تلك القطيرات تحت ظروف معينة مثل الخلايا الحية. وتلك القطيرات من الممكن أن تحاكي (Simulate) التفاعلات التي حدثت في ما قبل الجزيئات الحيائى (prebiologic molecules) وبالتالي تقدم مفاتيح لفهم نمو الخلايا الأولى. وفي عام ١٩٥٤ قام هالدان بنشر ورقة علمية تتكهن بأربع تفسيرات محتملة لكيفية ظهور الحياة، وأيد أكثرها قبولاً وهو التفسير المعبر عن أن الحياة قد صعدت من تطور كيمائى في بيئة قديمة فقيرة في الأكسجين

على أن التقدم الحقيقى في محاولات الكشف عن بداية الحياة بدأت مع التجربة التي أجراها ستانلى ميللر (Stanly L. Miller) في الخمسينات من القرن المنصرم في معمل هارولد (Haroldk C. Urey) في جامعة شيكاغو. وقد قام ميللر بتحضير جزيئات عضوية متنوعة تشبه الكثير من الأنواع الموجودة في الكائنات الحية. ومنذ تلك التجربة، أخذت الدراسات تتكهن بأن الغلاف الجوى للأرض في مهدها ربما لم يكن محتويًا فقط على الأمونيا ولكن أيضا يحتوي على خليط من النيتروجين، ونالى أكسيد الكربون وبخار الماء.

كما اتفق العاملون في هذا المجال لاحقا على أن الأكسجين الحر (free oxygen) لم يكن موجودا في الغلاف الهوائي الأولى للأرض . وتمكنت التجارب العملية في ضوء المعلومات الجديدة عن ظروف الأرض في مهدها من انتاج مجموعة من الجزيئات العضوية المعقدة من مثل الأحماض الأمينية. وتمثل تلك الأحماض اللبنة الأساسية للخلايا .

وفي خلال الثمانينات من القرن العشرين أضيفت فرضيات جديدة للأفكار السابقة. وظهرت تكهنات من قبل جيولوجيين من أمثال كابرنيس - سميث (A.S.Caprins-Smith) ونسبت (E.S.Nsbit) تشير إلى أن ظهور الحياة قد ترتبط بمعادن الطين أو الزيوليت (Zeolites) ، وربما تكونت لأول مرة في عيون حارة (Hot springs) . وقد وضع نموذج جديد في عام ١٩٧٧م يفسر أصل الحياة ، خلاصته أن الحياة جاءت من جوف الأرض من خلال القصبات (الفتوات) التي تمر منها المحاليل الحرارية عند (أحيد مطبات) وسط المحيطات في أماكن إتساع قيعانها. فهناك يأتي الكربون من الصهير الصاعد من جوف الأرض . واستندت تلك الفرضية على وجود بكتريا تعرف بالاركيوبكتريا (Archaeo bacteria) ، تعيش في العيون البكتيرية وقصبات البراكين ، تتغذى على الكبريت دون الحاجة إلى الأكسجين وضوء الشمس. وهذا الفرض يعني أن الحياة ظهرت في قاع البحر من المحاليل الحرارية الصاعدة من جوف الأرض.

نعم للخلق بداية ، والسعي لمعرفة تاريخ وظروف تلك البداية أمر محمود يدعو إليه الله تعالى في قوله: ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق... ﴾ . ولكن الوصول إلى حقيقة بداية الخلق يعتمد على مستوى معارف الناس في كل زمان ومكان ، وكلما ازدادت معارف الناس نتيجة لتقدم العلم كلما عرفوا أكثر عن بداية الخلق. ولكني أؤكد على أن محاولة الوصول إلى معرفة الحقيقة بعيدا عن الله في ظل الكفر بحقيقة الخلق سراب وظن. ولذا يجب أن نوضح مفردات وحقائق الخلق في القرآن الكريم في ثنايا هذا البحث إن شاء الله. وهنا أتبع أصول شجرة الحياة ويلزم أن نذكر تعريف التطور كما أراده دارون وآتباعه لا كما تتخيله نحن. إنه يعني في المفهوم الداروني: (إرتقاء الحياة من جهاز عضوى ذى خلية واحدة إلى أعلى درجات الارتقاء).

وتنطوى نظرية التطور كما جاء في الموسوعة العالمية (World Book Encyclopedia) على ثلاثة أفكار رئيسية:

- ١- أن الكائنات الحية تتبدل جيلا بعد جيل وتنتج نسلا يتمتع بصفات جيدة.
- ٢- أن هذا التطور قديم جدا وبه وجدت كل أنواع الكائنات الحية.
- ٣- أن جميع الكائنات الحية يتصل بعضها ببعض بصلة قرابة.

والملاحظ من النظرة السريعة للنبود الثلاثة السابقة أنهم جعلوا من التطور كل شئ ، فهو الذى أوجد جميع الكائنات على تعقد أنظمتها الحياتية ... إنه من وجهة نظر التطورين الإله المعبود وحاشى لله. مع العلم بأن علماء اليوم يجمعون على أن الإنتقاء الطبيعى ليس بذاته قوة خلاق ولا يدفع شيئا جديدا للوجود (إيان تاترسال، ٢٠٠١). ونزيد الأمر وضوحا دفعا للتلبس بأن مفهوم التطور من وجهة نظر أصحابه يشمل النباتات والحيوانات والإنسان، وهو يعنى التحول من نوع إلى آخر وفى ذلك نفى قاطع للخلق الخاص.

والسيد دارون يحدثنا عن السلف المشترك الذى انبثقت منه جميع الكائنات والذى ثبت عدم وجوده ، وذهبت أكذوبة المخلوق القطرى الخام التى أشار إليها دارون أدراج الرياح. وفى طبعته الأولى من كتاب "أصل الأنواع" يعترف دارون بأن الحياة قد استمدت نبتها الأولى من الخالق، ثم أنكر وجود هذا الخالق وسخر منه فى طبقات الكتاب الأخرى كم أشرت من قبل. ومن المؤكد أن إله دارون جاء على هواه ، فوجوده مثل عدمه، ولربما فى زعمه قد مارس الخلق مرة واحدة ، حيث خلق شيئا خاما ، ثم ربما راقبه أو حتى تلهى عنه وهو ينتقل من نوع إلى آخر . إن إله دارون المزعوم إله من وحى هواه (إله تفصيل) وكان به واضعا ساقا على ساق يلعب النرد ويترك خلقه لصدفة عمياء تقلبه من طور إلى طور. وهكذا أشقى دارون نفسه وأشقى معاصريه وتابعيه حينما جعل من الطبيعة لها أسماء الإصطفاء الطبيعى وأقامه مقام الخالق. وأعجب من علماء يرددون بغياء كالبغاوات - مع الاعتذار هن- مقولة (الإنتقاء الطبيعى)، وصدق الله حيث يقول: ﴿ أفرايت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وبصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾ (الجنائىة: ٢٣). وأين ذلك من الإله الحق الذى وصف نفسه قائلا: ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم ﴾ (البقرة : ٢٥٥).

الله يصطفى من خلقه ما يشاء ، وصنم الإلحاد العلمي الميت الحى أو الحى الميت دارون يرى أن البقاء للأصلح، وليذهب الضعيف كما يرى دارون إلى حتفه، أو حتى إلى الجميم. ووفقا لرؤية ذات الرعة الانتهازية العرقية يرى أنه خلال الصراع على الحياة تفرض التغيرات النافعة نفسها على الجسد ، فيعيش الأصلح للحياة ويموت غير الصالح لها، وينقل الأحياء الأقوياء (أو الصالحون) لأنسأهم التغيرات النافعة لتؤدى بها إلى البقاء. والمبدأ الهلامى هذا لا يفسر كيف تتراكم التغيرات البسيطة المستمرة وتؤدى إلى ظهور أجهزة معقدة.

وقد سبقت الأفكار التطورية دارون، فأرسطو إعتقد من قبل أن جميع الأنواع خلقت مرة واحدة ، وماليت (Benoit de Malliet) رأى أن الحياة جاءت من الفضاء. وثار الجدل في أوروبا حول جمع كل الحيوانات في سفينة نوح (Noh's Ark) ، وتحدث أرازموس دارون (Erasmus Darwin) جدّ دارون عن تأثير البيئة على الشكل الخارجى للحيوانات. وظهرت فكرة لا مارك عن توارث الصفات المكتسبة، وظهر كتاب شامبر (Robert Chamber) الذى افترض فيه أن سجل الأحافير يعكس استمرارية الأساس العضوى وليس نتاجا لحق متكرر، مع إشارته بضرورة صعود الحياة من اللاحياة في بداية الأمر ، وقد صدر من كتاب شامبر أحد عشر إصدارا ، كان آخرها سنة ١٨٦٠م بعنوان ضمور التاريخ الطبيعى للخلق (Vistiges of natural history of creation) . ولكن فارس ترسانة الإلحاد إمتطى العلم وكان دائم الاستعداد لدعم أية أفكار تناصر ما يذهبون إليه لدعم الحرب بين الفلسفة المادية والمعتقد الدينى. وكما أشرت من قبل، إن الاستدلال بقانون الانتخاب الطبيعى قد يفسر عملية " بقاء الأصلح ولكنه لا يستطيع أن يفسر حدوث هذا الأصلح. والسؤال المثير للدهشة حقا هو: لماذا تذف الطبيعة دائما إلى نتيجة معلومة؟ . وكيف تنظم نشاطها حتى تطير الطيور فى الهواء ، ويعيش السمك فى الماء، ويوجد إنسان فى الدنيا بجميع الإمكانيات والكفاءات العجيبة المثيرة.

ولن أعجب إذا ما كان دارون قد سلّم بأن لهذا الكون " خالقا" ولكن عجبى من أن ما قدمه دارون لا يتضمن أدنى ربط بين الخالق والمخلوق، كما أنه لا يحس بالحاجة إلى " نهاية" لهذا الكون. وما أعجب من "خالق دارون" - هذا الذى يأتى بكون عظيم هكذا، ثم ينهيه، دون إبداء الأسباب التى دفعته إلى هذا الخلق، ودون تعريف مخلوقية بصفاته العديدة. إن نظرية النشوء والتطور ترى أن جميع الحيوانات تنحدر من نوع بدائى واحد. ويقول دارون فى الباب التاسع من كتابه: ومن الأمور الحتمية عندى أنه - إذا ما أجريت العملية المطلوبة خلال زمن طويل، فمن الممكن أن نجعل من حيوان ذى

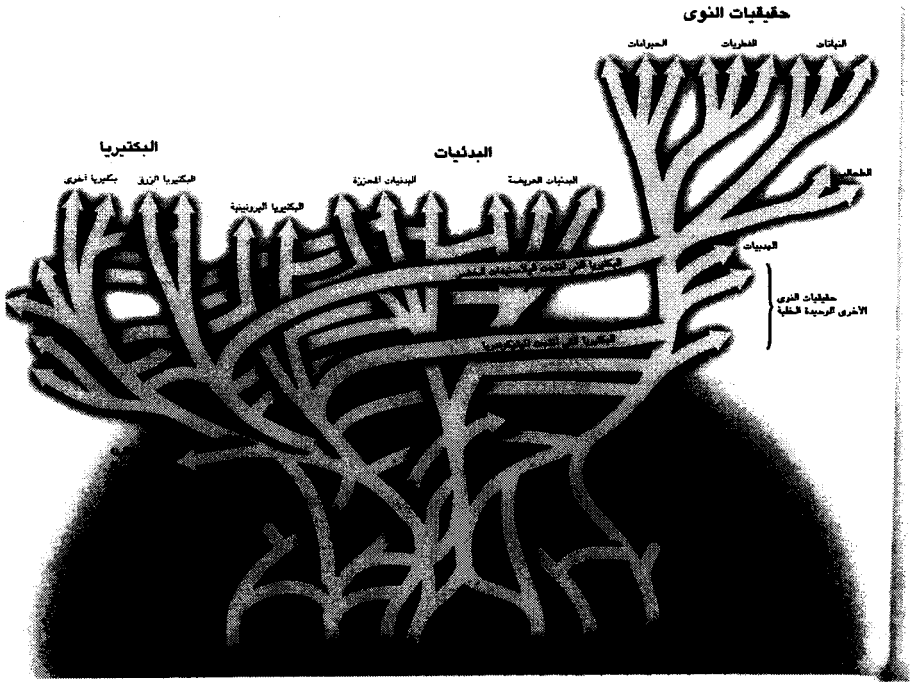
ظلف عادى حيوان مثل الزرافة. وللعلم كما سنرى بعد ذلك، فإن السجل الأحافير لقرابة ٤٠٠٠ مليون سنة تقريبا يكذب كلام دارون جملة وتفصيلاً، فلم يثبت عبر دراسة خواص ٢٥٠,٠٠٠ نوع من الأحافير تحويل نوع إلى نوع آخر. كذب فقال أعطوني وقتاً وسترون، وقد أعطى الوقت الذى يستغرق عمر الحياة على الأرض، ولم يتحقق، ولن يتحقق إلا انتقال المزعوم من نوع إلى نوع آخر، " وكذب الدجال ولن يصدق أبداً"

أصول شجرة الحياة متعددة

كلمات لا بد أن أذكرها أولاً قبل أن أعرض لتقصي أصول شجرة الحياة وذلك لأنها كما سنرى المرجع الذى يعصم من التيه والضلال. وأبدأ بذكر قول الحق، ولن أمل من التكرار ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾: أولم تروا كيف يبدئ الله الخلق إنكم ترونه فى النبتة النامية، وفى أجنة الكائنات، وفى كل عام ما لم يكن ثم يكون، مما لا تملك قدرة البشر مجتمعين ومنفردين أن يخلقوا أو يدعوا أنهم خالقوه. إن سر الحياة وحده لمعجز، كان وما يزال، معجز فى منشأه وكيف جاء، ودع عنك أن يحاوله أحد أو يدعيه، ولا تفسير له إلا أنه من صنع الله الذى يبدئ الخلق فى كل لحظة تحت أعين الناس وإداركهم وهم يرون ولا يملكون الإنكار. اجتثوا عن السر الذى هنالك فى الأرض والدال على نشأة الحياة الأولى وكيفية بدء الخليقة منها.

إن التعريف النمطى (Classical) للتطور على أنه ارتقاء الحياة من جهاز عضوى ذى خلية واحدة إلى أعلى درجات الإرتقاء يعنى وجود شجرة تضم جميع الأحياء والأموات، أصلها ذلك المخلوق البدائى البسيط، وفروعها أنواع الكائنات التى تفرعت من ذلك الأصل المشترك (شكل-٢). بهذا أوصى صنم الإلحاد العلمى أتباعه قائلاً عليكم بنى تشييد شجرة الحياة، فهل نجح الأتباع فى تنفيذ وصية الجذ حتى ينام مستقراً فى قبره؟ تأتى الإجابة بالفشل عن رسم تلك الشجرة "الحيثية" فى بحث نُشر بمجلة أمريكا للعلوم فى المجلد ١٦-العدد-١٠- الصادر فى أكتوبر/٢٠٠٠م حول تقصى أصول شجرة الحياة. قبل نحو عشر سنوات، قام العلماء برسم المخطط الأساسى للكيفية التى نشأت بها الأشكال الحديثة للحياة. ويتضح اليوم أن هذال المخطط أعقد مما توصلوا إليه. وقد فوجيء الجميع بأن الاكتشافات التى تمت فى السنوات الأخيرة، بدأت تلقى بظلال كثيفة من الشك والريبة على بعض ملامح هذه الشجرة، وعلى العلاقات قرب جذورها على وجه التخصيص. وأضافوا بأنه (لم يكن بإمكان السلف أن يكون كائناً حياً بعينه، أو سلالة حية مفردة، بل كانت خلايا أولية فى مشاعية،

تشابك تشابكا رخويا في تجمع شديد التنوع انبثقت كلها وحدة واحدة ، ثم تطورت إلى مرحلة نشطت بعدها إلى مجتمعات عديدة، وهكذا تحولت بدورها لتشكل الخطوط الأولية الثلاثة للبكتريا والبدنيات وحقيقيات النوى (شكل: ٢).



وقد ثبت أيضا أن " طراز التطور ليس خطيا ولا يشبه الشجرة كما تصور دارون، وأن عدا كبيرا من جينات حقيقيات النوى لا يشبه أيا من جينات البدنيات أو البكتريا المعروفة، ويبدو أنها مجهولة الأصل. ومع أن الشجرة الجديدة للحياة قد رسمت على أساس الجينات وحياة الجزينات (Molecular biology) ، فإنها باعتراف واضعها هي في أفضل الأحوال مجرد وصف للتاريخ التطوري لجزء

شكل(٢): شجرة الحياة المرسومة حديثاً كاريكاتورية، تفتقد الى وجود سلف مشترك عام وتبدأ من مجموعة خلايا مشاعة متباينة في جيناتها. كما تظهر مجموعة من الوصلات غير الشجيرة، فهل هي شجرة حقيقية أم شجرة خبيثة !؟

فقط من جينوم الكائن الحي، وأن الشجرة التي نالت الإجماع ليست سوى تصور مفرط في البساطة. وهذا يفسر من وجهة نظري بأى المفهوم الحقيقى للتطور هو تتبع تاريخ حياة الفرد، فالله سبحانه وتعالى خلقنا أطوارا بدأ من التراب ثم النطفة فالعلقة الى آخر المراحل التي ذكرت في القرآن الكريم. وبما أن الدواب والطيور أم امثالنا كما أخبرنا الله في كتابه العزيز، فهم أيضا خلقوا أطوارا.

ويعترف بعض علماء الأحياء أن الأفكار الجديدة التي تعرف " بأنساب السلالات الجزينية (Molecular phylogeny) مُربكة ومُثبِطة بدرجة تجعلهم يقررون أنهم أخفقوا في المهمة التي كلفهم بها دارون، وكانت الشجرة صورة من صور الأحاجي "الكاريكاتور". مع العلم بأن الطريقة المستخدمة في رسم الشجرة اعتمدت على تقنيات حديثة من حياة (بيولوجيا) الجزينات والمورثات (الجينات) لفحص آلاف الأنواع، بالإضافة إلى طرق دارون القديمة من تفحص السبى التشريحية أو الوظيفية والتشابه الشكلى " المرفولوجى". وكانت التي نالت الإجماع ليست سوى تصور مفرط التبسيط، وعلى الرغم من تعقيد الشجرة خاصة في جذورها (شكل : ٣). فقد تكون الصورة المعدلة مضللة أيضا في بساطتها، إنما نوع من الصور الكاريكاتورية على حسب وصفهم لها التخبط في التخمين حول السلف المشترك يوحى بسخافة انبثاق الحياة كلها من كائن فطرى خام بسيط، يضعنا أمام حقيقة تلخص في أن كل شئ خلق خلقا مخصوصا بحكمة وقدرة، وأن كل نوع خلق من زوجين اثنين ولم يأت منحدرًا من نوع قبله، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ (الذاريات : ٤٩). وقوله أيضا ﴿ إنا كل شئ خلقناه بقدر ﴾ (القمر : ٤٩).

الدارونية الحديثة خطر

يقول الأستاذ محمد قطب في كتابه "الإنسان بين المادية والإسلام" : (إن عيب نظرية دارون ليس في الوقائع العلمية التي بسطها في كتبه، وتابعه عليها أعوانه ومريده، وإنما هو في إجماعات تلك النظرية التي خلقت طابعها الخطر، لا في أفكار الجماهير وحدها ، بل في اتجاه العلماء كذلك منذ عهده إلى العصر الحديث". وبدورى أتفق مع الراى السابق لأن ما بما من وقائع علمية لا يمت إلى العلم على وجه الإطلاق ، والخطر كل الخطر هو منحنى العلماء في تبني النظرية. وكثيرا ما نجد علماء الحياة القديمة وعلماء الأحياء يتحدثون عن التطور، وإن تعددت المفاهيم حول التطور لديهم. وكان التطور أصبح داءا عضالا لا براء منه، وكلما تقاوت أسانيده ابتدعوا له أسانيد لا تخلو من التخمين والظن.

فإذا كانت فكرة دارون التي سيطرت عليه هي فكرة تنازع البقاء، وحثمية الصراع من أجل الحياة يؤديان إلى تغير الأنواع وتحولها إلى أنواع جديدة أصلح للبقاء ، فإن شعار الدارونية الجديدة يفترض أنه (بوسع الباحثين إعادة بناء الماضى التطورى للأنواع الحية من خلال تباعد تسلسل الجينات أو البروتينات التي تم عزلها من تلك الكائنات الحية). والفكرة الجديدة مع ما تحمله من بريق لاستنادها على أحدث علوم العصر من حياة الجزينات والجينات، ليست سوى إحياء للدارونية القديمة بعد ارتدادها ثوبا جديدا. وما على الدارونية الجديدة إلا أن تدرس جينات أو جينومات أو بروتينات منتقاه لأنواع تمثل الأسماك والبرمائيات والزواحف والطيور والثدييات التي تعيش على الأرض اليوم، ثم تحاول أن توجد علاقة جينية بينها، ثم تتخذ من تلك العلاقة دليلا على التطور باعتبار أن الأسماك أسبق ظهورا على الأرض من البرمائيات ، ثم تلتها الزواحف فالطيور وأخيرا الثدييات. وتظهر نظرية التطور الجيني ويصبح الجين هو الوحدة الأولى في التصنيف بدلا من النوع. وإذا كانت الدارونية القديمة قد عجزت عن تقديم دليل مادي على التطور من واقع الأحافير أو الكائنات الحية، فالدارونية الجديدة تعجز بل هي بدأت عاجزة عن البات وجود حلقات التحول من جينات نوع إلى جينات نوع آخر دون اللجوء إلى فرضيات لن تقل في سذاجتها عن فرضيات دارون. وللأسف يرددون فكرة التسلسل الجيني بدرجة مزعجة، لأنهم أوجدوا ذلك الفرض الجديد مرادفا لذلك لمبدأ الانتهازي المدعو " البقاء للأصلح".

ترويج الدارونية الجديدة

والحقيقة أن الله أعطى كل شئ خلقه ظاهرا وباطنا في منظومة متميزة بين جينوم كل نوع وصفات ذلك النوع ، فإذا ما تقاربت جينومات أنواع معينة فلا يعنى ذلك إطلاقا تحدرها من بعضها البعض. وسأكتفى هنا بضرب مثلين يتضح منهما كيف تتم ولادة الدارونية الحديثة. في المثال الأول تطرح الدارونية سؤالاً:

١- المثال الأول: ما سبب غرابة الصبغ (الكرموزوم) Y (شكل: ٣)؟

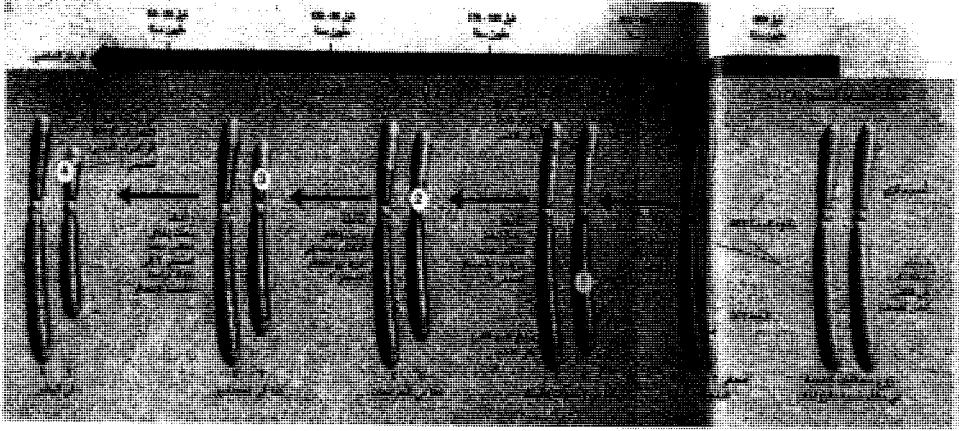


شكل (٣) : خلق الله الصبغين (X) و (Y) غريين لحكمة بالغة، وجميل أن يبحث العلم عن سر غرابتهما.

فالمعروف أن الصبغيين Y,X يؤلفان زوجين غريبين ، فالصبغي X شبيه بأى صبغي آخر، ولكن الصبغي Y - الذى هو مصدر الذكوره- غريب جدا. وهنا يُتوقع أن الفكر المنطقي يبحث فى مكونات كسل صبغ على حده ، ويوجد الفروق المميزة بينهما بعد تحديد صفاتهما. ولكن الفكر الداروينى الحديث يعمل بمنظار آخر ليصرف الناس عن حقيقة الخلق (Creation) ، لأنه يعلم أن الفطرة السوية تنادى بأن الله خلقهما هكذا لعله ، وعلينا أن نبحث فى سبب ذلك التميز القائم بينهما. الأمر بسيط فكما أن الله خلق كل جزء من أجسادنا - قلب أو عين .. الخ ، على هيئته ليؤدى وظيفة بعينها، فقد جعل الصبغيين هكذا. ولكن الفكر التطورى أخذنا بعيدا لينتقل بالقضية إلى طرح ظنى جديد هو: كيف وصل الصبغيان إلى هذا الاختلاف الشديد؟ وهكذا نجد أننا دخلنا فى شراكه ويدخلنا معه فى فروض منها:

- ١- بدأ صبغا الجنس عند البشر حياتهما زوجا متوافقا ، ولنبحث عن البشر الأول لنجده فى عرّف التطورين حيوانا متديبا زاحفا وجد منذ مئات الملايين من السنين من بين ما يعرف بالثدييات شبيهة-الزواحف .
- ٢- تعرض تاريخ الصبغيات الجنسية دائما للتغيير الصارخ ، ميزت الصبغ Y بخلل شديد ، وعوضت الصبغ X .
- ٣- الصبغ Y هو وحده الذى تردى.
- ٤- طلائع الصبغيات الجسدية لكل من Y,X ظلت متشابهة وسليمة فى الزواحف التى وجدت قبل بدء تفرع سلالة الثدييات بشكل واسع.

فإذا ما سلمت بالافتراضات السابقة مع ما بها من تخمين ، تفودك الداروينية الحديثة إلى رسم مخطط تطورى خبيث يتلخص فى أن صبغيات الإنسان قد جاءت من ارتقاء صبغيات السعادين (Monkeys) . مخطط يبدأ بأسلاف الثدييات الشبيهة بالزواحف (منذ ٣٥٠ مليون سنة)، ثم يليه تشوه بسيط فى ذلك السلف ما بين (٢٤٠-٣٢٠ مليون سنة) ، ثم اضمحلال فى الصبغ Y (ما بين ١٣٠-١٧٠ مليون سنة) فى وحيدات المسلك، ثم انكماش الصبغ Y فى الثدييات حدث منذ (٨٠-١٣٠ مليون سنة، ثم اقتراب الصبغ Y من وضعه الأصيل فى القردة فى الفترة من (٣٠-٥٠) مليون سنة إلى أن جاء إنسان يحمل صبغين جنسين مختلفين(شكل:٤).



شكل (٤) : ليس من المانة العلمية أن يتخذ أنصار الفكر التطوري من اختلاف الصبغين (X) و (Y) وسيلة لرسم قصة وهمية تتم أحداثها عبر ٣٥٠ مليون سنة بهدف صرف الناس عن حقيقة خلقهما على حالتيهما المقدرة سلفاً في علم الله.

مفارقة عجيبة بدأت بالبحث عن سبب اختلاف الصبغى الجنسى Y عن زوجته الصبغى X ، لتخرج منها سلسيلا من القردة: مفارقة أشبه بالبحث عن سبب وجود أخوين في عائلة، أحدهما قزم والآخر عملاق، لتخرج منها بأفهما لىسا ابنين لأبوين، ولكنهما جاءا من سلالة الضفادع مثالا. هذا مثال على فكر التسلسل الجينى ورسم الماضى التطورى. وجاء العلم يثبت رغم أنف التطوريين أن حواء أم البشر (Eve the common Ancestor of all humans) ليبتل تخمينات الذين تصوروا وجود سلف للإنسان من الثدييات شبيهة الزواحف. وهنا سأنتقل إلى مثال آخر يعكس هراء الفكر التطورى.

٢- المثال الثاني : التطور وقوام الإنسان:

والتطوريون كاذبون تعمي عيونهم وقلوبهم عن إدراك الحقائق، ففي الوقت الذي يثبت فيه العلم أن جسم الإنسان صمم في أحسن تقويم ، نجدهم يرون في مفهومهم التطوري أن أجسامنا تحتوي على عيوب. والسبب في ذلك من وجهة نظر أولشانسكي وآخرين أن " قانون الانتقاء " الاصطناعي الطبيعي - وهو القوة التي تصوغ سماتنا المحددة وراثيا على حد زعمهم- لا يستهدف الكمال أو الحياة الأبدية المليئة بالصحة. وفي تلك المقولة نجدهم قوما يعدلون الانتقاء الطبيعي بالإله، بل إنهم يتدخلون ليتخيلوا تقيحات مدخله على الصفات التشريحية للجسد (شكل-٥). ويقفز هؤلاء على الحقائق الموضوعية التي تؤكد أننا نعانى البلى بمرور الزمن مدعين أن الشيخوخة، وما يرافقها من اضطرابات ، ليست أمرا طبيعيا ، وليست أمرا يمكن تجنبه ، وبيع هؤلاء الوهم للناس، معللين أن علم الطب الحيوي قادر في المستقبل على التغلب على عيوب التصميم الموجود في أجسامنا. والعجيب أن مصممي الجسد البشري أصحاب التعديلات المدخلة تناسوا عن ذكر الجينوم الذي يتكون من ١٠٠ ألف مورث ! أم إنهم سيدخلون عليها التعديلات أيضا ؟! (شكل: ٥)



شكل (٥) : خلق الله الإنسان في أحسن تقويم و أجرى عليه سنة تنكيس خلقه كلما زاد عمره . و للأسف أعتبر دعاة التطور التنكيس عيوباً لعلهم يصلحونها أملاً في إطالة الحياة .

لم تفد الأحافير نظرية دارون

بطلت نظرية التطور بثلاث حجج: أولاً: عدم مشاهدة أى إرتقاء من أى نوع كان في الأحياء التي تعيش على الأرض من آلاف السنين . ثانياً: عدم وجود حلقات وسطى في السجل الأحفوري اللازم وجودها أثناء عملية تحول الأنواع كما تفترض النظرية. ثالثاً: كذب إدعاء أن قصر الزمان لا يسجل الترقى ، لأنه مع طول الزمان الجيولوجى لم تسجل حالة ترقى واحدة ضمن سجل الحياة القديمة. وفيما يلى نوضح بطلان النظرية من النواحي التي يعدها دعاة التطور مؤيدة لها. ولسوف أشير إلى النقاط التالية:

١- أحافير الإدياكارا وكتانات طفلة بورجس تضرب النظرية في الصميم.

٢- تطور الفكوك في الأسماك ظن لا دليل عليه.

٣- أصل البرمائيات ما يزال لغزاً.

٤- أصل الزواحف ما يزال لغزاً.

٥- لغز أصل الثدييات.

٦- لغز الكائن العتيق.

٧- شجرة الأحصنة خطأ محض.

٨- أكذوبة أصل الإنسان ، فحواء أم البشر.

تأتى الضربات للدارونية من حيث لا تحتسب ، من حيث يطالب أتباع نظرية التطور بالدليل على حدوث التطور، يتعللون بأن التطور يحتاج إلى وقت طويل ، ولا بد أنه حدث في أحقاب متطاولة توجد شواهد في أرشيف الحياة القديمة. ومن واقع تخصصي وتدريسي لمقررات علوم الأحافير والتأريخ للأرض ، اتضح لي كذب محاجة التطورين. ومن كتاباتهم نأتى بالأدلة على كذب عملية التحول المزعومة عبر الزمن الجيولوجى. ولست متحاملاً على النظرية وأصحابها ، فقد أتاحت لي دراسة التطور أثناء الإعداد لأطروحة الدكتوراه بجامعة موسكو في فترة الثمانينات. وتلك هى الأدلة من واقع السجل الأحفوري التي تشهد بسقوط النظرية التي كانت تعد من دعائم النظرية:

١ - كائنات الإدياكارا وطفلة برجس خلق فريد:

انتشرت أحافير الإدياكارا وأحافير الطفلة بورجس على مستوى العالم. وسادت الكائنات الأولى خلال الفترة الانقلاية بين زمان عالم الحياة الخفية (٣٨٠٠ حتى ٥٧٠ مليون سنة)، بينما تواجدت كائنات طفلة بورجس في الفترة الوسطى من عصر الكمبري الذي يمثل بداية عالم الحياة الظاهرة الذي استمر منذ ٥٧٠ مليون سنة حتى يومنا هذا. وتمثل كل منهما ملمحا فريدا في الخلق. وتشتركان في ظهورهما الفجائي من غير سلف كما تدعى نظرية التطور، واختفائهما المفاجئ أيضا دون أن يتركا وراءهما خلفا، الأمر الذي يقطع بفشل نظرية التطور التي تدعى كذبا بتحدر الأنواع بعضها من بعض. وكائنات الإدياكارا الغريبة تمثل أول تجمع حيواني معروف يفتتح (يدشن) به عصر الحيوانات الكبيرة نسبيا (الميتازوا)، وهي تمثل صورة فريدة من صور الخلق (شكل ٦). وغرابة تلك الكائنات جعلت عالم الأحافير زيلنجر (Seilacher) يُصرح بأنها تختلف عن القبايل الحالية لدرجة يلزم معها استحداث تقسيمات جديدة تضمها. ونظرا لظهورها الفجائي وانقراضها دون أن يعقبها خلف لها، نجد علماء التطور يصفونها بأنها تمثل تجربة فاشلة.

وللأسف وصف دعاة التطور إشراقه الخلق الفريدة بالتجربة الفاشلة، دون أن يسألوا أنفسهم من وراء تلك التجربة؟ أم أن معيار النجاح أن يأتي موافقا لنظرية التطور؟ الحقيقة أنهم لا يريدون إطلاقا النطق بكلمة الخلق. تجربة فاشلة في خيالهم المريض مع أنها انتشرت على مستوى العالم لمدة قرابة ١٠٠ مليون سنة. وكائنات طفلة بورجس (Burgess Shale Fauna) تمثل أروع مكتشفات الأحافير في القرن العشرين. وهي تمثل بقايا كائنات حية تعيش في الفترة الكمبرية الوسطى منذ ٥٥٠ مليون سنة، وتتميز بالثراء لدرجة أن عالم الأحافير ستيفن جولد (Steven Gould) ذكر أن أحافير ذلك المنجم الصغير الموجود في غرب كندا يزيد تنوعها التشريحي عن كل كائنات محيطات اليوم. وكائنات طفلة بورجس بلغ من تنوعها درجة عظمى حتى أن المفصليات وحدها تحوي عشرين نظاما تشريحيًا، بالإضافة إلى وجود ٢٠ أحفورة لم يمكن وضعها في التقسيم الحالي للكائنات اليوم.

شكل (٦) : أحافير طينة بورجس الشديدة الغرابة تمثل أروع صور لحفظ الأحافير، وتضرب نظرية دارون في الصميم.

هل يعقل أن توصف إشعاع الحياة التي تمثل انبثاق كائنات طفلة بورجس بأنها تجربة فاشلة أو كما يزعم ستيفن جولد بأنه محض الصدفة (Element of chane) .

هؤلاء التطوريون درسوا سجل الحياة القديمة فوجدوا أن السجل فقير إلا من لحظات تشععت فيها الكائنات كما هو الحال في كائنات طفلة بورجس التي حفظ جسمها الطرى في صخور تكونت منذ حوالي ٥٥٠ مليون سنة. ولكنهم للأسف استبعدوا فكرة الخلق وتمحكوا بكلمات هلامية لا تحمل معنى من مثل التجريب أو الحظ أو الصدفة. ومع الفارق الشديد بينهم وبين قصة العبد الصالح الذي مر على القرية الخاوية فتعجب من إحيائها بعد موتها فأراه الله آياته في الخلق، والتي عبر عنها القرآن الكريم في قول الله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نَنشُرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة : ٢٥٩).

٢- تطور فكوك الأسماك لا دليل عليه:

من المعروف لدى علماء الحياة القديمة، أن الأسماك عديمة الفكوك ظهرت قبل الأسماك ذوات الفكين، في حقب الحياة القديمة المبكر. وظهور الفكوك في ملة التطورين، تمثل سمة نحو الأصلاح، وبالتالي فقد صارت الأسماك لتمتلك الفكوك كما يزعمون. وهلل دعاة التطور مدعين أن ظهور الفكوك يمثل حجر الزاوية في تطور الأسماك. ولكنى أرى أن أى حديث عن ظهور الفكوك يجب أن يتصدره الجملة التالية المأخوذة من كتاب العوالم البائدة (ص ٢٥٤): (لا يوجد شاهد حفري على المراحل الوسيطة في تطور الفكوك عن أسماك ليس لها فكوك). وهذا هو النص الأصلي الذي ورد في المرجع السابق:

(No direct evidence of the various intermediate steps exist vanished worlds. P. 254). ومع أن دعاة التطور لم يشاهدوا في سجل الأحافير شيئاً على الإطلاق يدل على مراحل ظهور الفكوك، إلا أنهم من دراسة تشريح الأسماك، وجدوا أن الأسماك عديمة

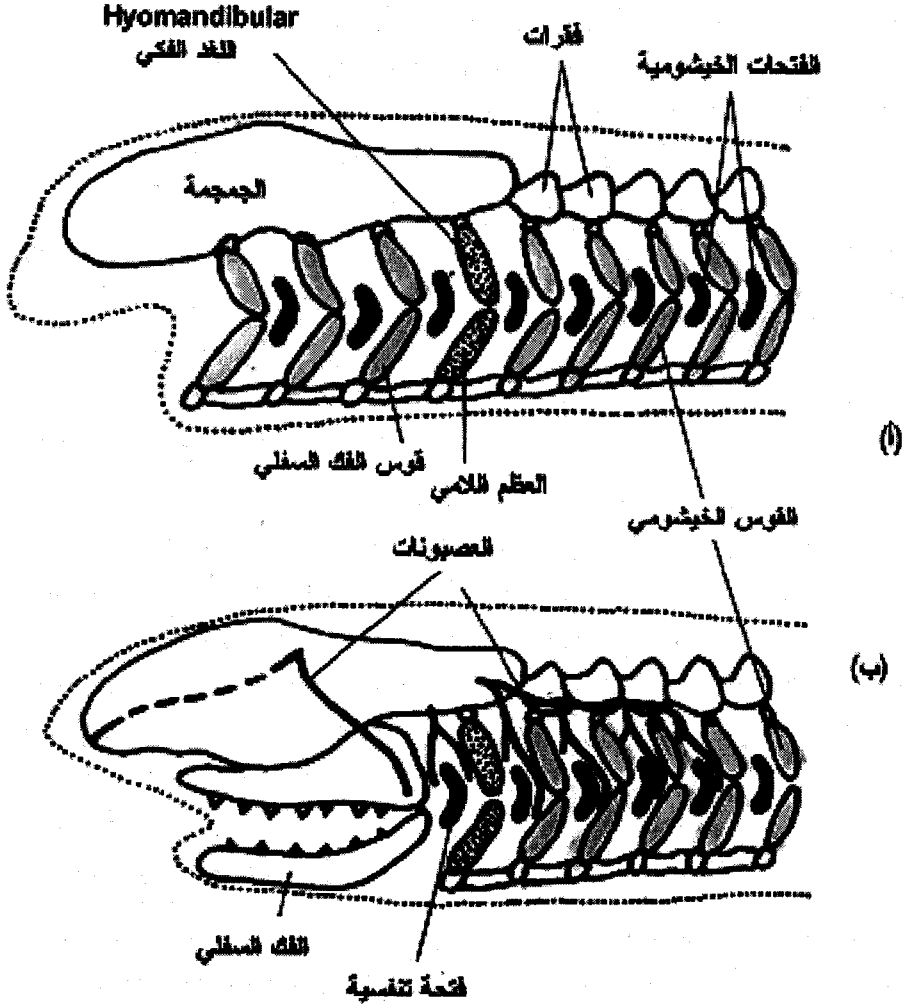
الفكوك وهي الأقدم ظهورا على الأرض تمتلك ثمان أقواس خيشومية تدعم الخياشيم ، بينما الأسماك ذوات الفكين تحوى فقط على ستة منها. وهنا أوحى إليهم خياهم المريض أنه عبر الزمن ، وبالتدرج اختزل الزوجان الأوليان واختفيا ، ثم أتى الدور على الزوجين الثالث ليلتحما ويكونان الفك العلوى والسفلى (شكل:7)، وجاء ذلك في ظنهم استنادا على أن اختزال عدد الأقواس يمثل صفة تطورية.

وأنا بدورى أكاد أجزم بعد فهم فكر التطورين أنهم لو عثروا على الأسماك ذوات الفكوك ذات الستة أقواس خيشومية فى سجل أقدم من سجل عديمة الفكوك لقالوا لنا أنها تحولت إلى عديمة فكوك نتيجة إضافة زوجين جديدين ، وحينئذ سوف يعتبرون اختزال العدد ظاهرة تطورية. إنهم يفسرون الأشياء كما يحلو لهم. ولو قيل لهم لو حدث التحول مرحليا لماذا لم نعرث على هيكل سمكة واحدة ضمن بلايين الأسماك التى ماتت وحفظت لها سبعة أقواس أو سبعة ونصف مثلا، سيقولون إن ذلك يرجع إلى نقص (gap) فى السجل الحفرى.

لكن أليس من العجيب حقا أن السجل دائما وأبدا يوجد به عينات تحتوى إما على ستة أو ثمانية فقط ، حقا إنه إصطفاء حكيم ! فى زعمهم يحفظ المنتج النهائى ويعرض عن الوسائط. من الواضح أن عملية الاختزال لا توجد إلا فى عقولهم المعرضة عن الحق. ثم لماذا لم تحول كل الأسماك عديمة الفكوك إلى أسماك ذات فكوك ، مع العلم بأنهما عاشا معا فترة زمنية قاربت الستين مليوناً من السنين. وبعد أن ساد اعتقاد بأن الأسماك عديمة الفكوك قد بادت فى حقب الحياة القديمة منذ العصر الديفوى- أى منذ حوالى ٣٦٠ مليون سنة - فقد ظهرت أحد الأنواع من الأسماك عديمة الفكوك فى مياه البحار الحديثة. وهذا يؤكد أن ظهور الفكوك نتيجة عملية التطور أكذوبة اخترعها وروج لها المبطلون.. فأين أنت يا حمرة الخجل؟.

٣- لغير أصل البرمائيات ثالث الأثبات:

فىالسعى الدءوب لإثبات التطور المزعوم حاول الفكر التطورى إثبات أن البرمائيات قد انحدرت من الأسماك ، ولكنهم لم يتفقوا على السلف السمكى الذى جاءت منه البرمائيات، من أى مجموعة من الأسماك: أمن ذوات الزعانف الفضية؟ أم من الأسماك الرئوية ، أم من أسماك (Epidistans) أم من أسماك (Coelacanth). فعلى حين يعتقد البعض أن النوع الثانى هو الأصل، نجد أن الدراسة الحديثة ، التى أجراها جراندنر (Grander) من جامعة لندن ، تشير إلى أن



شكل (٧) : تطور مزعوم لفكوك الأسماك لا دليل عليه سوى الظن، حيث لا توجد أحفورة واحدة لسمكة واحدة حفظت مراحل : إختزال الفكوك الأولى و تحول الثالث منها إلى فكين : علوي و سفلي، فالأحافير إما ان تحوي ٨ أزواج من الأقواس الخيشومية (الأسماك عديمة الفكوك) أو ٦ منها (الأسماك ذوات الفكوك). لا يوجد هناك إطلاقاً حلقة وسطى

أصل البرمائيات هو الأسماك ذوات الرئات (Crossopterygians) . وإنه لمن الغباوة أن نرجع أصل البرمائيات إلى الأسماك إستنادا على التشابه الظاهري في عظيما الطرف الخلفي في أحد الأسماك البائدة من العصر الديفوني وأحد البرمائيات. تصور مفرط في السذاجة أن تدعى أن كل ما له خمس من الأصابع فهل يعقل أن ننسبها ومع الإنسان أيضا إلى أصل واحد؟! فليحرسنى الله من أفكار دعاة التطور.

٤- لغز أول الزواحف بلا حل:

اللغز الرابع الذى هو أصل الزواحف: فإن بدا لأنصار التطور بديها وجود سلسلة التطور من الأسماك إلى البرمائيات ، ومن البرمائيات إلى الزواحف، فإن الكلمات الآتية تذكرها المراجع العلمية: (لكن السجل الأحفوري يحوى سفسطه ولغطا فيما يتعلق بالتنظيم الفيزيائى والتشريحي. ولا يزال الإيهام يحيط بخطوة الانتقال من البرمائيات إلى الزواحف). وعلى الرغم من الاشتراك بينهما في بعض الصفات إلا أن طريقة التكاثر تعد فرقا واضحا بينهما. فأولاد الزواحف تخرج مكتملة النمو من البيضة الأميوتية (Amniotic egg) دون المرور بطور أبى ذنبية كما هو الحال في البرمائيات . كما أنه توجد فروقا بين البرمائيات والزواحف تتعلق بتشيد عظام الأطراف، وأنماط الفكوك ، والتسنن وبنية الجمجمة، والأذن ، وشكل الصلوع، وتشيد الفقرات. وكالعادة لا توجد حلقة وسطى.

٥- اللغز الخامس: أصل الثدييات:

قلت إن الفكر التطورى لن يعدم الظن مستكفا الخلق الخاص، وما هو موضوع أصل الثدييات يخترع ما يسمى بثدييات شبيهة الزواحف قد ظهرت في نهاية العصر البرمى. ويعدون جنس سيانوجنائس مثلا جيدا لتلك المخلوقات مع التحفظ حول ما إذا كان لها فرو، وما إذا قامت بتنظيم درجة حرارتها ذاتيا. والسجل الجيولوجى في ذلك عقيم ولا يقدم جوابا عن التساؤلين السابقين. أما كيف توزن أدلتهم فهذا شى عجيب. لقد استشهد التطوريون بوجود فرد غير ناضج (immature) في أحد الأعشاش بجوار عش جنس تيرينادون (*Thrinadon*) في صخور العصر الطباشيرى في جنوب أفريقيا، فاستدلوا من ذلك على عناية الآباء بصغارهم، الأمر الذى يرجح انضمام ذلك الفرد إلى قائمة الثدييات ... هكذا تزن الأدلة!! هذا وقد ساد الاعتقاد بأن الجنس الوحيد المسمى ستيريوجنائس



"Modern taxonomists do not place *Acharopteryx* on the main line of descent of birds and reject the simple missing-link idea"

شكل (٩) يلقي إكتشاف الريش في الزواحف ظللاً كئيباً على الحلقة الوسطى بين الزواحف و الطيور (عن مجلة أمريكا للعلوم)

وأريد أن انبه على انه عند مراجعتي للفقرة السابقة بعد كتابتها بعدة سنوات، اذا بي أطلع العنوان التالي الذي تصدر مجلة أمريكا للعلوم (المجلد ١٩ -

العدد ١٠- أكتوبر ٢٠٠٣) :أيهما نشأ أولا الريشة أم الطائر ؟ حيث اكتشف وجود الريش في أحافير الدينصورات التي عثر عليها أخيراً بالصين (شكل:٩). وهنا تأكد لي ما اعتقدته من قبل عن الحلقة الوهمية التي روج لها أنصار التطور التي يمثلها الطائر النيق بزعمهمز والحقيقة أنه ليس طائراً، بل انه زاحف جعلوه طائراً لسبب لال يخفى على عاقلز فهل هذا علم أم دجل!؟.

٧- لغز الحصان:

يعدون تطور الأحصنة مثالا رائعا للتطور مع العلم بأن شجرة الأحصنة معقدة جدا. وفيما عدا الحصان الحديث من جنس إكيوس، فقد انقرضت جميع مصنفات عائلة الخيل. وقد عثر على بقايا أول الأحصنة في صخور الأيوسين السفلى (منذ قرابة ٥٠ مليون سنة) وكان في حجم الكلب، وله ٣-٤ أصابع في كل قدم (ويقال أربع صوابع في القدم الأمامى و ٣ في القدم الخلفى). وفي عصر الميوسين التالي كبر حجم الحصان ، وقل عدد أصابعه، وتواجد منه أحد عشر جنسا منتظمة في أربعة خطوط عمرية ، ثم ظهر الحصان الحديث في البلايستوسين. وعلى الرغم من أن علماء التطور يحسبون الحصان مثالا تقليديا للتطور ، إلا أنهم قد اختلفوا في الكيفية التي تم التطور بها، أهو تكون وفقا لنموذج التطور التدريجي (تطور بالجملة!) أم وفق نموذج الفواصل (تطور بالقطاعي!)؟.

وما يقال من أن تطور الحصان الفريد حدث عبر ست أشكال وسطية يكذبه الظهور المفاجئ للأحصنة. ويقول العالم باتي في كتابه التحليل الرياضي لنظرية التطور: (إن تعميم صفة من الصفات عن طريق الطفرة، في سلالة من السلالات ، لا يمكن أن يستغرق أقل من مليون جيل من الأجيال المتتابعة. وحتى لو سلمنا بقدوم الأحقاب الجيولوجية، فمن الصعب أن نتصور كيف أن حيوانا حديثا مثل الحصان ، قد نشأ من سلفه الذي كان عدد الأصابع في قدمه خمسا في الفترة من العصر الحجري حتى الآن). يقول الأستاذ ديستول من جامعة درهام: (ن شجرة نسب الحصان أصبحت تقليدية "كلاسيكية" عند علماء التطور ، إذ يقولون بأن الحصان بدأ في شكل مستقيم حتى غدا الفرس الذي نراه اليوم ، وهذا القول خطأ محض). وقد عثر في طبقة واحدة على نوعين ، وأحيانا ثلاثة أنواع من الحیول. ويبدو أن كل واحد من هؤلاء الوسطاء قد ظهر مستقلا عن الآخر، وفي هذا حزن ويأس لدعاة التطور.

نماذج التطور الملققة

يخطئ خطأ كبيرا من يتصور أن نماذج التطور (Models of evaluation) فيها شيء من العلم والحقيقة. وأصدق ما يقال فيها أنها أكاذيب مزخرفة وإن نسبت إلى علماء مرموقين في مجال دراسة الأحافير القديمة والأحياء. وهي من وجهة نظر واضعيها نماذج تفسر الآلية التي ظهرت بها الأنواع الجديدة من أنواع سبقتها في التواجد على الأرض. ولن نحتاج في أن هؤلاء لم يشهدوا خلق أنفسهم (الكثرة منهم تنكر الخلق) فكيف بهم يتناولون ظهور الخلاق قبل الإنسان : وصدق الله حيث يقول: ﴿ ما أشهدكم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا* ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موقفا﴾ (الكهف : ٥٠-٥١). وأرى أن نماذج التطور ليستا الا هراء يزعمون أنها الآلية التي تفسر وجود الكائنات من دون الله. وسأحاج النماذج ذاتها. فمن المعروف أن نماذج التطور كثيرة أهمها ثلاثة تهدف إلى ما يسمى بشجرة الإنساب أو " شجرة الحياة" ، (Tree of life) وهي:

١- التطور التدريجي (Phyletic gradualism) (شكل-٧): ويحلو لي أن أطلق عليه "التطور بالجملة" ، نظرا لأنهم يدعون أن عملية التطور تمارس دورها على جميع أفراد النوع حتى تسدفعها عبر أزمنة متطاولة في ضوء ما أسماه "الارتقاء الطبيعي) إلى التغير إلى أنواع جديدة ووفق هذا النموذج يجب أن تظهر عبر الأزمنة المتطاولة حلقات وسطى تشير إلى هذا التغير. ولكن كما أسلفت من قبل ، إن جميع الحلقات الوسطى لا وجود لها في سجل الأحافير على الرغم من أمد فتراته الطوال. ولكن أصحاب هذا الزعم يتعللون بعدم إكمال السجل الجيولوجي. وبدورى أذكر ما قلته من قبل لماذا مع عدم اكتماله يحفظ فقط ودائما الشكل النهائي للأنواع الجديدة دونما حفظ حالة واحدة وسيطة. وبالتالي فهذا نموذج فاشل لا دليل عليه، وهكذا فشل نموذج التطور الذى اقترحه دارون.

٢- نموذج الفواصل (Punctuated Equilibrium): ويحلو لي أن أسميه نموذج " التطور بالقطاى " أو نموذج الحداع، لأن التطور يمارس على فنة معينة وليس على الجمع، حيث قماجر تلك الفنة وتعزل عن بقية أفراد النوع. وبعد أجيال متعاقبة تصبح الجماعات منعزلة جنسيا ثم ترقى إلى أنواع جديدة . وعلى سبيل التقريب مثلا لو أن جماعة من زنوج أفريقيا هاجروا إلى السكا أو سيبيريا مثلا وانعزلوا انعزالا كاملا جغرافيا وجنسيا عن أفراد موطنهم الأم ، فإن نسلهم بعد عدة ملايين من السنين لن يكون قادرا على التزاوج من نفس موطنهم الأصلي كما يزعم أنصار التطور!. إن صاحبي هذا النموذج هما نيلز الدرديج (Niles Eldredge) من المتحف الأمريكى فى نيويورك و ستيفن جولد (Steven J. Gould) من هارفرد قد استخدمما (عام ١٩٧٢) خيالهما الواسع فى وضع هذا النموذج ليفسرا تارة تشابه الكائنات فى الطبقات المتعاقبة، وتارة فى تفسير عدم التشابه استنادا على الهجرة والانعزال التام. وأستقبل النموذج بالترحيب أولا، ثم توالى النقض عليه بعد ذلك، وفشل النموذج كما فشل دارون فى تفسير ظهور الكائنات على الأرض.

٣- النموذج الشبكي (Reticulate speciation) : وأطلق عليه نموذج "الأحاجى" ، فقد حاول عالم الأحافير الشهير أرنست ماير أن يجمع بين النموذجين السابقين، فجاء نموذجه غاية فى التعقيد بحيث يعجز علماء الأحافير عن تطبيقه على السجل الأحفورى. وإرنست ماير كما أشرت من قبل يرى أن أعظم إنجاز لدارون هو أنه رفض جميع الظواهر والمسببات فوق الطبيعة.

وهكذا عجز منظرو التطور عن تقديم آليه لظهور اللكائنات تباعا، بسبب أنهم جحدوا الخلق، ولن ينفعهم الذين يدعون من دون الله.... ويبقى قول الحق تبارك وتعالى هو الفصل: ﴿ قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب ﴾ * وقل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد ﴿ (سبا - ٤٨ - ٤٩). والحق في ظهور الخلائق هو الخلق ومن ورائه الخلق، والباطل هنا هو التطور ومن ورائه دعائه.

تطور الإنسان أكذوبة كبرى

أكذوبة الأناسي قبل آدم عليه السلام:

الحقيقة المؤكدة أن نسل كل شئ يأتي على شاكلة أبيه، فالإنسان يلد إنسانا بشرا، والقرد لا يلد إلا قردا... ويصفة عامة كل نوع لا يخرج عن حدوده. وحدود كل نوع مفصولة عن حدود جميع الأنواع بمواجز لا يمكن تخطيها. والحقيقة الأخرى أن تشابه مكونات الأسرة الواحدة (الأسرة في علم التصنيف تضم الأجناس) ، لا يدل على تطور عضوي، ويدل على أنها أنواع أو أجناس مختلفة لجماعة واحدة.

وفي مجال ما يسمى " بتطور الإنسان " أورد الحقائق الآتية:

١- لاعلاقة للإنسان- الذي هو نحن - بذلك المدعو " القرد الإنسان " (*Astralopithicus*) إطلاقا.

٢- المدعوة Lucy أو استرالوبيث عفار (*Astralopithecus afarensis*) ليس إلا شيئا ابتدعه داود جونسون من خياله مدعيا أنها أقدم رفات البشر، لا تعدوا إلا أن تكون من القردة.

٣- ما يسمى " بالإنسان منتصب القامة " أو الإنسان القرد ليس إلا قردا، ولم يزد حجم أدمعة أرفعها عن ٧٥٢سم^٣ ، ولا يلتفت في ذلك إلى كلمة " إنسان " التي أدخلت للخداع في مسميات أناسي مزعومة من مثل "إنسان هيدلبرج" و " إنسان رودس" وغيرها.

٤- لا علاقة بين ما يسمى إنسان نياندرتال ونحن ، كما أسلفت من قبل.

٥- أكرر لأن الشئ إذا تكرر تقرر أن " إنسان بلتدادون " وأناسي " علمه التطور ليس إنسان الله - آدم- كما أن جد بشرهم المزعوم ليس أبو البشر من قريب أو بعيد. والعلم لم يصل في مسألة أصل الإنسان إلى رأى قاطع.

٦- إنسان بلتدادون "Piltown Man" إنسان مزيف وفضيحة كبرى (Hoax) .

شجرة تطور الإنسان شجرة خبيثة

وما زال الحديث موصولاً حول السادة ! الأناسي فالسيد هايبيل أو (الماهر) لُقِبَ بذلك الاسم بسبب ما كان يظن من أنه صانع الأدوات الصوانية التي يرجع عمرها إلى ١,٨ مليون سنة، ومع أنهم لم يشهدوا خلقه إلا أنهم يعتقدون أن السيد هايبيل ! شكل النصول الحادة بضرب حصاة صخرية بأخرى. وكما أسمى دافيد جونسون أحد القردة القديمة بـ "لوسى" فقد اقترحوا اسم "فتى تركانا" الذى جُمعت رفاته من موقع فى شرق تركانا فى كينيا ، والذى يعود عمره إلى الفترة من ١,٩ إلى ١,٨ مليون سنة مضت. وقد قيل أنه خرج مهاجراً كما ومعه بقية أفراد نوعه من إنسان يسمونه أرجاستر (*Homo ergaster*) فى أول خروج بشرى ! (*exodus*) من أفريقية فى رحلة مجهولة لم يعرف علماء الإنسان تفاصيلها بعد. وهم بالتأكيد لن يعدموا الوسيلة فى تحييل ذلك الخروج . والمعروف أن الذى هاجر ولم يعد كان قرداً! ، ومع ذلك ترى جهابذة العلم يتحدثون عن هجرة البشر.. ويتوهم الناس أنهم مثلنا... وهم فى الواقع قردة ورئيسيات لا توجد أى صلة توالدية بيننا وبينهم. فلماذا لا نسمى الأشياء بمسمايقها ، فنقول هجرة القردة الأولى مثلاً؟. ومع أن السيد أركاستر على ما يبدو كان يأكل اللحم إلا أن أسنانه الماضغة كانت صغيرة نسبياً. ومن ينظر إلى صورته المتحفية يعجب من أين جاءوا بتفاصيل الصورة الحية ، مع أن ما عثروا عليه من بقايا لا تعدوا إلا أن تكون قحف جمجمة صغيرة فى حجم جماجم القردة فى كينيا، أو فكاً سفلياً فى جورجيا، أو كسرة من هيكل فى أوروبا، أو نحو ذلك فى جاوة والصين. ويبدو أن " إنسان ! إرجاستر " كان واسع الانتشار ولربما سادت العولمة فى ذلك الزمان مع الخروج الأول للسيد أرجاستر القرد الإنسانى! كما هى سائدة اليوم مع ظهور العمالقة المتكبرين!

وأبسط ما يقال فى شجرة الحياة المزعومة للبشر أنها صورة كاريكاتورية بلهاء رسمها مدلس ذو خيال بارع لا يحكمه العلم بل يسوسه الهوى والظن. وأسجل تلك الملاحظات على ما يسمى شجرة البشر المنشورة فى الصفحة رقم ٢٨ من مجلة أمريكا للعلوم (شكل: ١٠).

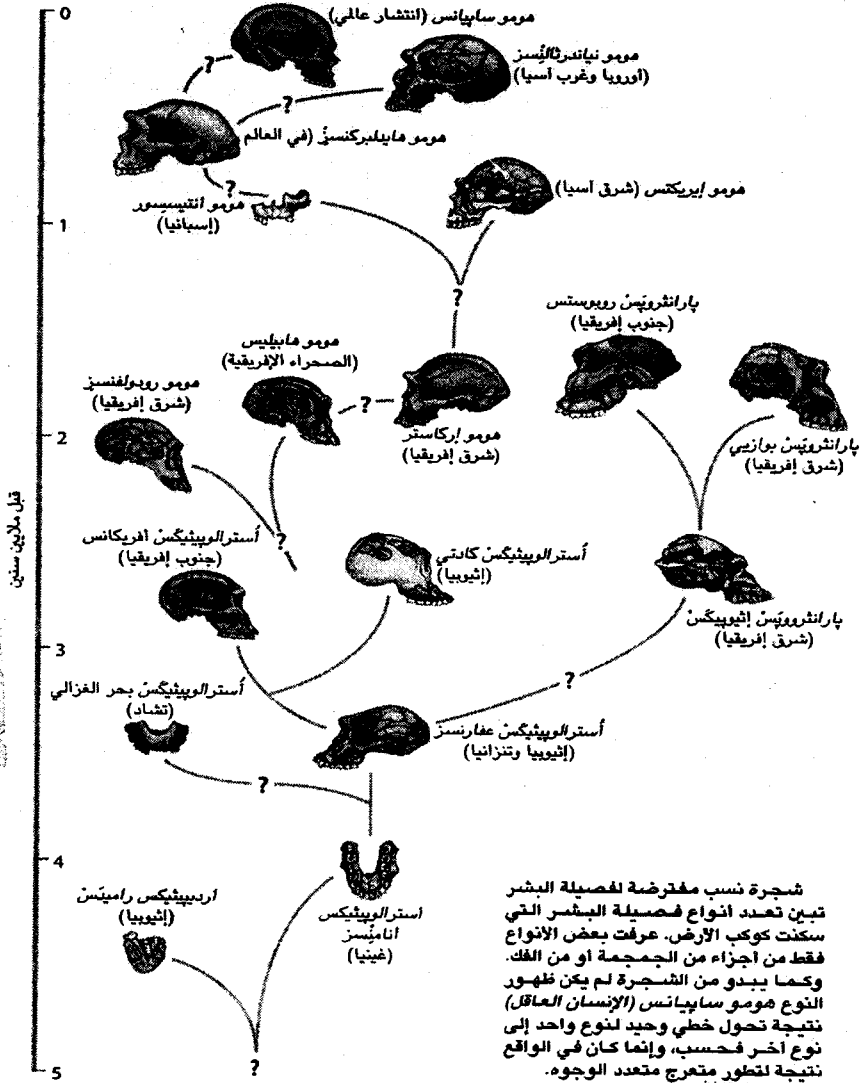
أولاً : فيما يتعلق بالعنوان المدون تحت منخطط الشجرة يجب الانتباه إلى شيئين:

١- أن شجرة النسب مفترضة حتى لا يتخذ أحد متوهماً أن التسلسل حقيقى.

٢- لما كان هناك عجز عن إثبات أن الإنسان قد جاء نتيجة تصاعد رأسى من أصول سبقتة، فإذا بالعنوان يبرز خدعة أخرى مؤداها أن الإنسان جاء نتيجة " تطور متعرج متعدد الوجوه" ... ولما كانت

الكلمات بين القوسين قد صيغت بـجـث ، فإنني أقرها إلى الأذهان .. إنها محاولة من أراد أن يرجع سبب وجود الأسد بأنه انتقال من عدة اتجاهات... ربما من النمر والضبع وقط البراري. وكلمات " تطور متعرج متعدد الوجوه" تعبر عن العجز عن الصعود في سلم مستقيم أو السير في خط مستقيم.

ثانياً: بداية أصل الإنسان في الشجرة الملعونة غير معروف بدليل وضع علامة استفهام عند جذورها. والصورة الساذجة أقرب بمسافر لا يعرف الطريق، ويبحث عن هدف نهائي ولكنه لا يعرف من أين يبدأ. ومع عدم علمه بالبداية قرر السير وفق هواه، ومن المؤكد أن النهاية لن تكن صحيحة كالبداية تماماً. وينطبق على ذلك قول يائس: " جئت لا أعرف من أين أتيت، ولكني سرت في طريق فمشيت" .



شكل (١٠) شجرة تطور الإنسان المزعومة لا أصل لها في الحقيقة و تقوم على الظنون وتكثر بها علامات الإستفهام الكثيرة و الفروع الجانبية المنتهية. أما حقا شجرة خبيثة.

إن أروع تعبير عن تلك الشجرة أنها شجرة خبيثة عبرت عنها كلمات القرآن حيث يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴿ (ابراهيم : ٢٦-٢٧)

ثالثاً: ويتضح من شجرة نسب الإنسان " الخبيثة" أن:

١- من المجهول نشأ فرعان أحدهما ضل الطريق فانزوى في ركن جانبي (حارة سد) هو أرديثيخس راميدوس (*Ardipithecus ramidus*) أو اختصاراً آرام. وهو ممثل بكسرات من الأحافير عشر عليها في موقع أراميس بأثيوبيا تعود إلى ٤,٤ مليون سنة مضت. ومع أنهم يعتبرونه أول فرد بشري محتمل، إلا أنهم لم يقولوا لنا أنه قرد، مع أنه كذلك، وكان قدراً عجبياً أن يحوى اسمه على لفظ قرد التي نقولها بالعامية "إرد" ونقصد قرداً، وأيضاً قدر عجب أن يكون الاسم الثاني من اسمها يهودياً: "أراميس". أما الفرع الآخر والذي سمحوا له بالارتقاء فهو استرالوبيثيخس أنامنسز، والسيد (مستر) أنام قرد يشبه السيد لوسي، القرد البشري الذي اخترعه داوود جونسن. باختصار أنام، وراميدس قردان، وهذان هما الجدان للناس اليوم في زعمهم، " كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً" وتلك هي المرحلة الأولى من شجرة المزعومة.

٢- من " أنامنسز" تولد قردان، أولاهما استرالوبيثيخس بحر الغزال (*Australopithecus bahrelghazali*) من تشاد وقد انزوى مثل جده آرام في حارة سد، أما الآخر فهو القرد عفار المسمى علمياً استرالوبيث عفارنيس (*Australopithecus afarensis*) فقد نشأ منهما بزعمهم ستة أنواع من القردة (ذكروا أنهم بشراً للخداع) بطريقة مجهولة كما تشير إلى ذلك علامات الاستفهام الثلاثة وتلك هي:

١- بارانثروبس أيوبيكس (شرق أفريقيا) (للتبسيط سأكتبه بارأيوبيا)

٢- بارانثروبس بوازي (شرق أفريقيا) (*Paranthropus boiesi*) (بارابوسي)

٣- بارانثروبس روبوستس (من جنوب أفريقيا) (*Paranthropus robustus*) (باراروبي)

٤- استرالوبيث كادتي (من أثيوبيا) (أسترالوبيث كادتي)

٥- استرالوبيث أفريكانس (من جنوب أفريقيا) (*Australopithecus africanus*) (الاسترالوبيث الأفريقي)

٦- هومورودلفنسنز (من شرق أفريقيا) (*Homo rudolfensis*) (إنسان رودولف)

٧- هومو إرجاستر (*Homo ergaster*) (من شرق أفريقيا) (إنسان إرجاستر)

٨- هومو هابيليس (الصحراء الإفريقية) (*Homo habilis*) (الإنسان الماهر).

وكلهم جميعا لم يتركوا خلفا وراءهم، إلا أرجاستر الذي أعطى بطريقة مجهولة (؟) البشر اللاحقين. وهكذا عاشوا جميعا في منطقة واحدة وهي أفريقية ، فأين التطور المزعوم إذن؟، ومن هنا دفعهم هواهم إلى إختراع أكذوبة التطور المقترح متعدد الوجوه الذي أشرت إليه من قبل. إن التطور المزعوم كذب لا يخفى إلا على جاهل.

رابعاً: المرحلة قبل الأخيرة : بطريقة غامضة مشكوك في أول خطوة منها تفرع من "إنسان" أرجاستر إنسان آخر إختفى في فرع جانبي (حارة سد) وهو هوموإيريكتس (شرق آسيا) (*Homo erectus*) الذي يسمونه " الإنسان منتصب القامة . ثم ظهرت ثلاثة فروع مشكوك في أصلها وهي:

١- هومو أنتيسيسور (أسبانيا) (*Homo antecessor*) (إنسان أنتس)

٢- هومو هايدلبرجنسز (في العالم) (*Homo heidelbergensis*) (إنسان هايدلبرج)

٣- هومونياندرتالسنز (أوروبا وغرب آسيا) (*Homo neanderthalensis*) " إنسان نياندرتال"

٤- أخيراً هوموسابيانس (*Homo sapiens*) "الإنسان العاقل، الذي هو أنا وأنت".

وهكذا استنادا على شجرة ليس لها أصل، وفروع اختفى بعضها ومشكوك في تسلسل البعض الآخر، وضعوا الإنسان في قمة الشجرة الخبيثة زاعمين انه المنتج النهائي لبشر سبقه. إستنادا على اللاعلم (الظن ليس علما) ، وضربا بالدين عرض الحائط، جعلوا أصلهم قررة. و كان أصحاب هذا الفكر الشاذ قررة ليس في خلقهم ولكن في تفكير عقولهم. إن الطبيعة عمياء لا قدرة لها على شئ ولا تصطفى ولا تختار. أريخوا أنفسهم أيها المتعاملون فحن نعرف أصلنا معرفة حقيقة . إننا من أبينا آدم ، وأبونا آدم عليه السلام خلقه الله بيده. ورين وربكم خالق كل شئ. خلق الأنواع كلها و بتعبير القرآن الأزواج كلها. والقررة السابقة أزواج، فكل منهم اذن خلق خاص، وكل الكائنات بأنواعها المختلفة كل منها خلق خاص. ويكفيينا على صدق إيماننا تحبطكم الذي عبرتم عنه في السطور التالية:

(عوضا عن ذلك (يقصدون التخطيط في فهم شجرة نسب الإنسان) كانت قصة "الطبيعة" التي تمارس عملها من غير اتقان ، متمثلة في تجارب تطورية متكررة. كأن تاريخنا البيولوجي في الواقع يتمثل في أحداث متقطعة وليس تراكمات تدريجية. فقد ظهرت بانتظام خلال الخمسة ملايين سنة الماضية أنواع جديدة من "البشر" تنافست فيما بينها وتعايشت واستعمرت بيئات جديدة ونجحت أو فشلت . ولا يتوفر لدينا إلا قدر ضئيل من الإدراك غير الواضح عن كيفية تكشف هذا التاريخ المثير من التجديد والتأثير. لكن من الواضح تماما أن نوعنا ، لا يمثل بالمرّة قمة شجرة تطور البشر ، وإنما هو مجرد فرع آخر من فروعها الطرفية الكثيرة).

وتمخض الجمل فولد فأرا : هذا مثل عربي يطلق على حصيلة تافهة لا تناسب الجهد المبذول. تذكرت ذلك المثل حينما طالعت وجها متخيلا يمثل في زعمهم وجه قريتنا الفقود الذي ظل برونيه (عالم الأحافير في جامعة بواتيه) يبحث عنه ٢٦ سنة. ويعتقد برونيه أنه السلف الأقدم لفصيلة الانسان، وقد أسماه ساحيلانثروبس تشادنسز (*Sahelanthropus tchadensis*)، ولقب تومائي (Tomai)، ومعناها في لغة الكوران المحلية أمل الحياة (hope of life). ويعود عمر ذلك الساحلي الى نحو ٧ ملايين من السنين. وفي الوقت الذي يفخر فيه برونيه بكونه أحد رواد الغرب في هذا المجال، نجد هذا الساحلي الذي أدخل عنوة في جنسنا البشري يحمل عددا من السمات الشبيهة بالقرودة العليا، من بينها قحف دماغه الصغير. كما أن توزع العظم القشري في عنق عظم الفخذ يمكن أن يكون أكثر تشابها بمثيله في قرد يمشى على أربع. الأمر الذي دفع الكثيرين من العلماء في انتقاد تفسير كشف برونيه، فها هي وورد (من جامعة ميزوري تنتقد قائلة : (ان السبب في اعتبار ساحيلانثروبس بالضرورة نوعا من فصيلة الانسان ليس واضحا بصورة جلية. وأكد ولبوف المتخصص في علم الانسان القديم في جامعة ميتشجان، في رسالة نشرت في الشهر ٢٠٠٢/١٠ في مجلة نيتشر، التي أعلن فيها فريق برونيه عن اكتشافه-بان ساحيلانثروبس كان من القردة العليا وليس انسان.

النياندرليون لم يكونوا أسلافنا: منهم النياندرتاليون؟ تدل أحافير ما يسمى بانسان نياندرتال على أنه غول بليد الفهم يتوارى خلف العتبة التطورية للبشرية. وهم يتميزون بصفات لا يمكن أن تجعلهم بشر، مثل غلظة هيكلهم العظمية، وأطرافهم القصيرة وصدورهم الريميلية الشكل، وحيود جماهم البارزة وجنبتهم المائلة الواطئة، وأواسط وجوههم الناتئة، وفكوكهم العديمة الذقن. وقد أكدت دراسات المتوكوندريا DNA بشكل صريح نشر في مجلة الخلية Cell أن النياندرتاليين لم يكونوا أسلافنا، حيث قرر العلماء أن الدنا الميتوكوندري النياندرتالي والدنا الميتوكوندري الخاص بأفراد الانسان الحديث الحالي هو أكبر بكثير من الفروق الموجودة لدى الجماعات البشرية الحالية.

الإنسان دماغ وعقل معا: يخطئ من يبحثون في ما يسمى بتطور البشر حينما يركزون أبحاثهم فقط في قحف الجمجمة دون النظر في تميز العقل البشري الفريد. يصرح العلماء أنه بفهمنا للعقل البشري في مستوى أعمق، سنرى فيه أعقد مجموعة للظواهر البيولوجية في الطبيعة. وحينئذ يبدو الإنسان مخلوقا فريدا بما ميزه الله بالعقل والبيان، وصدق الله حيث يقول : ((ياأيها الانسان ما غرك بربك الكريم* الذي خلقك فسواك فعدلك* في أي صورة ما شاء ركبك)) (الانفطار: ٦-٨).

وعلم آدم الأسماء كلها

﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ تعنى الحشد ، أي حشد الأسماء، ﴿وعلمه البيان﴾ تعنى تعلم الإنسان المنطق، أي بيان العلاقات بين الأسماء. ويؤكد علماء اللغة انتصار مدرسة تعلم اللغة بالإلهام أو التلقى في مواجهة النظرية التي ترى اللغة منتج يبني مكتسب من تفاعل الظروف المتغيرة. ويزيد على ذلك علماء الأحياء مؤكدين أن الإنسان زود بتركيبات تشريحية تجعله الكائن الوحيد القادر على تعلم اللغة المعبرة والبيان.

وفي مقالة منشورة بمجلة علوم أمريكا، عنوانها كيف صرنا بشرا؟ يذكر تاترسال (أمين متحف علم الانسان في المتحف المريكى للتاريخ الطبيعي) أن اكتساب اللغة وممارسة الفنون الرمزية قد ميزتنا من بقية الخلق (المجلد ١١-١٢). وليته طرح سؤاله هكذا: كيف خلقنا بشرا؟ فالعلم يبحث في كيفية الخلق لا في كينونة الأشياء. ومع اختلاف الشديد مع فكرة تطور البشر وشجرة النسب التي تحدث عنها السيد إيان تاترسال (Ian tattersall) أمين متحف قسم الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) بالمتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعي ، إلا أنني أشيد في بحثه بنقطة هامة ، وهي إقراره بأن تميز الإنسان مرتبط برهان اختراع اللغة التي هي عنصر أساسى في عملية التفكير نفسها ، واعترافه بعدم معرفه بالضبط كيف ظهرت اللغة عند الإنسان على الرغم من التخمينات الكثيرة للغويين. وهنا أحيله للقرآن الكريم الذى يخبرنا أن الله هو الذى علم الإنسان اللغة والمنطق حيث يقول تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها...﴾ (البقرة: ٣١) و﴿الرحمن* علم القرآن* خلق الإنسان* علمه البيان﴾ (الرحمن : ١-

(٤

وان كان لي بعض التحفظات على بعض ما جاء في مقالة السيد تررسال، إلا اني أثن كثيرا مما جاء بها. ومبعث تقديري يكمن في أن كثيرا من تساؤلات تررسال سبق أن وضع القرآن أجوبتها ؟. وتلك هي النقاط المضيئة في مقالة تررسال مع ذكر إشارات القرآن المتعلقة بها:

١- نفى تررسال دور ما يسمى الإنتقاء الطبيعي في الوصول بالإنسان الى القدرات العقلية التي تميزنا عما عدانا من المخلوقات. والسبب في ذلك يرجع الى أن التطور لا يمكن أن يكون في حد ذاته عملية خلاقة. والحقيقة التي يجب أن يعيها العلماء، خاصة علماء علم الانسان أن الله سبحانه هو الذي يخلق ما يشاء ويختار، وأن الطبيعة مخلوقة ليس لها من الأمر شيء. وفي ذلك يقول رب العالمين:

* ((وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون)) (القصص: ٦٨).
* ((ياأيها الانسان ما غرك بربك الكريم* الذي خلقك فسواك فعدلك* في أى صورة ما شاء ركبك)) (الانفطار: ٦-٨).

* ((سبح اسم ربك الأعلى* الذي خلق فسوى* والذي قدر فهدى)) (الأعلى: ١-٣).
* ((ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل)) (الأنعام: ١٠٢).
* ((ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا اله الا هو فأتى توفكون)) (غافر: ٦٢).
* ((قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى)) (طه: ٥٠).
* ((وخلق كل شيء فقدره تقديرا)) (الفرقان: ٢).

٢- يشير تررسال إلى نقطة غاية في الأهمية، وهي فكرة "التكيف المسبق" (Exaptation) ، بمعنى أنه لا يمكننا أن نرجع ظهور القدرات الإدراكية الحديثة ببساطة إلى عملية بسيطة استهدفت تحسين الدماغ وبلغت أوجها مع مرور الزمن. وتشير الدراسات الحديثة إلى أن دماغنا مكيف تكيفا مسبقا، ومزود منذ أمد بعيد(لا يعلمه إلا الله). ويتساءل تررسال ما الذي منح الدماغ ذلك التكيف المسبق من أجل الأهداف الإدراكية الحديثة؟ وهنا تأتي الإجابة على سؤاله من القرآن الكريم في قوله تعالى:

* ((وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا)) (البقرة: ١٣).
* ((الرُّحْمَنُ *عَلَّمَ الْقُرْآنَ *خَلَقَ الْإِنْسَانَ *عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)) (الحمن: ١-٤).
* ((أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ *وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ *وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)) (البلد: ٨-٩).

٣- يرى تررسال، ومعه الحق في رؤيته، أن اللغة هي الملكة الفريدة التي يبدو أنها لم تنشأ من لغة بدائية لبعض الرئيسيات الشبيهة بالقرودة العليا، كما أنه ليس هناك إنكار لوجود غريزة لغوية في العقل البشرى. وهنا نجد أنفسنا مرة ثانية أمام قوله تعالى ((وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا)). ولا بد أن تكون القفزة الإدراكية في تعلم الأسلوب اللغوي كالذي نألفه قد جاءت مباشرة من الله ((وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا)) تعنى الحشد، أى حشد الأسماء، ﴿وعلمه البيان﴾ تعنى تعلم الإنسان المنطق، أى بيان العلاقات بين الأسماء. ويؤكد علماء اللغة انتصار مدرسة تعلم اللغة بالإلهام أو التلقى في مواجهة النظرية التي ترى اللغة منتج بيئي مكتسب من تفاعل الظروف المتغيرة. ويزيد على ذلك علماء الأحياء مؤكدين أن الإنسان زود بتركيبات تشريحية تجعله الكائن الوحيد القادر على تعلم اللغة المعبرة والبيان.

((

٤- يرجع البناء اللغوي إلى حقيقة أن القاعدة الأساسية كانت موجودة بالفعل في كل فرد قبل أن تظهر اللغة نفسها بوقت طويل. ويشير تررسال إلى تميز البشر وحدهم في صنع الأصوات اللازمة لإنتاج الكلام الواضح. ويقول أن البنى الرئيسية التي يتكون منها السيل الصوتي هي الحنجرة والبلعوم واللسان وجهازه المصاحب له. وهنا ندعو علماء اللغويات تدبر قوله تعالى ((أَلَمْ نَجْعَلْ لَّهٗ عَيْنَيْنِ* وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ* وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)).

أصول الإنسان محفوظة في جيناته

إن تاريخ البشرية مدون في مورثاتنا (جيناتنا)، ولكن تفسيرات الرسائل الدفينة ما زالت متناقضة. ولعل تلك الحقيقة التي تمثل أروع ما توصل إليه العلم اليوم تكشف سرا عظيما أشارت إليه آية في كتاب الله حيث يقول تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٢). إن رب العالمين أخذ العهد والميثاق على بني آدم، مُشْهِدًا إياهم على ربوبيته، وفطر كل خلية وهن في النطف في ظهور الآباء، على فطرته، فجاء الخلق كله مسلما لله .

حواء أم البشر (شكل: ١١)

أثبت علم جزيئات الحياة (Molecular Biology) عن طريق دراسة الحمض النووي في الميتوكوندريا في بَيْضَة المرأة أن حواء أم البشر الحاليين (Eve the common Ancestor of all humans) ويساعد الجينوم البشري في تتبع شجرة حياة البشر إلى أن يقر بأننا كلنا لآدم. ففي عام ١٩٨٧ درس الباحثان كان وولسون من جامعة بركلي الدنا الموجود في الميتوكوندريات (Mitochondria) الذي يأتي من البيضة فقط في سيتوبلازم خلية الأنثى. وبفضل هذا الدنا الميتوكوندري أعاد علماء الوراثة إنشاء سلالة النسب الأمومية من دون صعوبات ترتبط باختلاط مورثات الأبوين. وتوصلت الدراسة إلى أن الناس جميعا يشتركون في دنا ميتوكوندري جاء في الأصل من امرأة واحدة (All humans alive today share mitochondria DNA derived from a single female ancestor). وهنا يتجلى إعجاز القرآن في الإشارة إلى تلك الحقيقة التي لم يكشف عنها العلم إلا في عام ١٩٨٧ حيث يقول رب العالمين ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ

حواء أم البشر Eve, the Common Ancestor of All Humans

As mentioned earlier, molecular biology is making some significant new, if controversial, contributions to the understanding of human evolution. The technique involves tracing family trees by means of mitochondrial DNA. Mitochondria are energy-supplying structures in the cell, and they contain DNA that is not involved in the mixing of parental genes during meiosis but is derived only from the egg, not the sperm. Thus, a lineage can be traced back from mother, to grandmother, to great-grandmother, and so on. Mitochondrial DNA is changed only by mutations, which are passed on matrilineally to the next generation. Given the assumption that mutations occur at a fixed rate, different DNA types can be compared and the number of generations that separate the different types from a common ancestral type calculated. In other words, all humans alive today share mitochondrial DNA derived from a single female ancestor.

That the genetic stock of all humans perhaps arises from a single ancestral female, or "Eve," as she has been called, conforms to basic genetic theory. What is surprising, however, is that calculations show that Eve lived only about 200,000 years ago. This is before the modern human races arose, which implies that, from a common African homeland, carriers of Eve's genes spread to most parts of the world and that it was their descendants who gave rise to the modern races. In other words, the various

racess did not, as some anthropologists have argued, arise independently from different *Homo erectus* lineages.

شكل (١١) حواء أم البشر هكذا أثبتت دراسة الدنا الميتوكونديري (صورة من كتاب **vanished worlds, Lemon, p.431**)

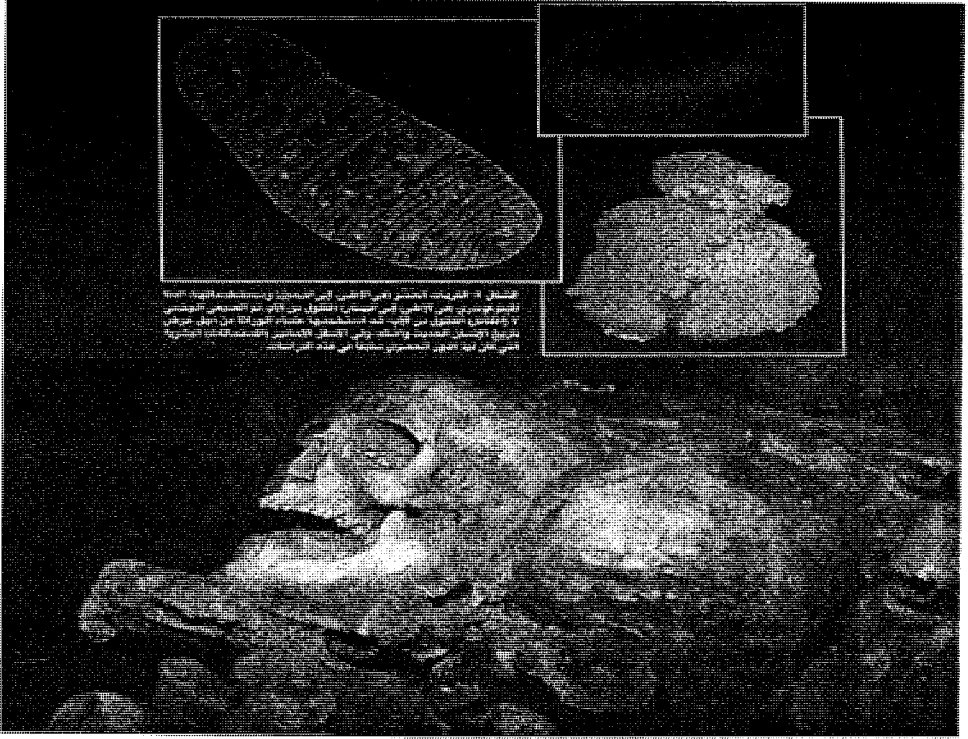
منهما رجلاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً (النساء: ١). وبناء على الدراسات الوراثية ظهر ما يعرف ب "نظرية حواء الإفريقية" (**Eve Africa**) التي تشير إلى أن المجموع الوراثي للدنا الميتوكونديري يعود على وجه الاحتمال إلى أصل إفريقي. واستناداً على ما يعرف بفرضية الساعة الجزيئية (**molecular clock**)، فقد توصلت الحسابات إلى نتيجة مزهلة هي أن حواء (السليف) ظهرت على الأرض منذ ٢٠٠ و ٠٠٠ سنة. وقد أربكت تلك النتيجة علماء الإنسان لأنها تجزم بعدم وجود علاقة بيننا وبين ما يسمى بالإنسان منتصب القامة (**Homo erectus**). إلا أن الحقيقة الناصعة تفيد بأن كل النساء المنحدرن من امرأة واحدة كانت موجودة قبل ٢٠٠ و ٠٠٠ سنة. وتتكامل دراسة الصبغي الجنسي Y مع دراسة الدنا الميتوكونديري الذي تنقله النساء فقط لتتضوي تحت قول الحق تبارك وتعالى ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)) (الحجرات: ١٣) وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كلكم لآدم وآدم من تراب).

النياندرتاليون ليسوا منا:

يمثل نجاح الباحث بابو وزملاؤه في استخلاص الحمض النووي من بقايا أحفورة بشرية ثورة في مجال علم الأحافير. وكانت أولى النتائج للدنا الميتوكونديري لإنسان نياندرتال المكتشف في منطقة فيلهوفر بألمانيا (يعود قدمه الى ما بين ٣٥٠٠٠ إلى ٧٠٠٠٠ سنة) ولالثنين من أقرانه. وقد أدت الدراسة إلى القول إن النياندرتاليين لم يشكلون جزءاً من أسلافنا. وتؤكد الدراسات على أن النياندرتاليين كانوا يفتقدون اللغة المألوفة لدينا، فكيف يكونون بشراً ؟

والحمد لله الذي أراح علماء الإنسان من ذلك الصداع المزمع حول كذبية الأناسي التي ظهرت قبل آدم وحواء.

((قل كونوا حجارة أو حديدا)):



شكل (١٢) : تكشف دراسة الدنا (DNA) الأحفوري عن حقيقة خلق الإنسان من رجل وامرأة.

يسجل القرآن الكريم في بعض الآيات تعجب الكفار من كيفية بعثهم بعد موته وتحول أجسادهم إلى تراب إلى عظام نخرة رميم. وترد الآيات مؤكدة على حتمية ذلك البعث، إلا أن آية سورة النور التي وردت في ذلك الشأن قد أعطت إشارة علمية رائعة متعلقة بطرق حفظ بقايا الكائنات القديمة التي يعثر عليها في طبقات الأرض. ويحس عالم الحفريات بذلك الإعجاز خاصة وهو يعلم من دراسة تاريخ علم الحياة القديمة أن تعريف الأحفورة كان لغزا كبيرا. فقد كان يعتقد أنها ذات منشأ غير عضوي، ناهيك عن تصور أنها رجز من عمل الشيطان، أو قروش الملائكة، أو قروش سقطت من جيب الحجيج دفنت في الحجارة. وإذا بنا قبل اكتشاف حقيقة الأحافير نطالع كلام رب العالمين وهو يتحدث عن تحول عظام البشر إلى حجارة أو حديد أو مادة أكبر من ذلك. واليوم يتعلم طالب علم الأحافير القديمة طرق حفظ الحفريات بالتحجر الذي يضم الإضافة المعدني، والاستبدال المعدني، والإحلال المعدني، والتفحم، والقلب والطابع، وآثار الكائنات القديمة. وهنا نتدبر قول الله تعالى:

((وَقَالُوا أَنَذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَلَيْسَ لِمَعْمُورُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * وَخَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا)) . بمعنى لو أن عظامكم أنتم وآباؤكم لم تبلى بل حفظت لملايين السنين، بأن أصبحت حجارة أو حديدًا، أو أية مادة فوق ذلك. ولو أن رفاتكم حفظت أيضا لنفس امدة الطويلة، فإن الله الذي أوجدكم من العدم سيعيدكم للبعث. ولسوف يفيد دراسة الدنا الأحفوري في بيان أن الإنسان خلق إنسانا في أحسن تقويم على الكيفية التي أخبر بها رب العالمين.

الحق في خلق الانسان في القرآن الكريم

وردت قصة خلق آدم في القرآن الكريم في السور الآتية بشئ من التفصيل مرتبة حسب نزولها:

- أ- في مكة: {ص (٧١-٨٥)-الأعراف (١١-٢٥)-طه (١١٥-١٢٧)-الاسراء (٦١-٦٥)-
الحج (٢٦-٤٤)-الكهف (٥٠)} .
ب- في المدينة: {البقرة (٣٠-٣٨)} .

وفي جميع تلك السور مشترك عام يتضمن اخبار الله الملائكة باسجود لآدم وامثالهم الأمر، ومخلفة ابليس أمر ربه. ومع ما في السور من تكرار ، الا أن قصة خلق آدم تحمل ملمحا خاصا يميزها عن سواها. وهذه تلك الملامح:

١-خلق الله آدم من طين وسواه ونفخ فيه من روحه: ((واذ قال ربك للملائكة اني خالق بشرا من طين* فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) (ص:٧١-٧٢).

٢- صور الله ىدم على هيئته: ((ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين)) (لأعراف-١١).

٣-خلق الله الانسان من صلصال مخصوص: ((ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون)) (الحجر:٢٦).

٤-جعل الله في الأرض خليفة ، وعلمه الأسماع كلها، وجعل الخلافة في بني آدم: ((واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني أعلم من الله ما لا تعلمون* وعلم آدم

الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوهم بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين* قالوا سبحانك لاعلم لنا الا ما علمتنا انك أنت العزى الحكيم)) (البقرة:٣١-٣٣).

وفيم يلي نورد الآيات التي تتحدث عن قصة خلق آدم عليه السلام حسب ترتيب السور في المصحف الشريف:

أولا- سورة البقرة: ٣٠-٣٨

((وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مَا غِيبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فِيمَا يَأْتِيكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)).

الأعراف: ١١-٢٥

((وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَتَعْتُكَ إِلَّا تَسْجُدًا إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَّكِبَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا تَجِدُهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ أَخْرَجْنَا مِنْهَا مَذْزُومًا مَّذْحُورًا لِّمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ * وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَلَدَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ)).

الحجر: ٢٦-٤٤

((وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْتُونٍ * وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارِ السُّمُومِ * وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْتُونٍ * فإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْتُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِي * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ))

الإسراء: ٦١-٦٥

((وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَسِبَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَغْفِرُ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجُلِكَ وَشَارِكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا))

الكهف: ٥٠

((وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا))

طه: ١١٥-١٢٧

((وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَسَىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ * إِنَّ لَكَ أَلًا تَجُوعُ فِيهَا وَلَا تَعْرِىٰ * وَأَلَّكَ لَا تَطْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فِيمَا بَأْتَيْتُكُمْ مِنِّي هُدَىٰ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَيْنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسىٰ * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ)).

ص: ٧١-٨٥

((إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ السَّيِّدِينَ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ)).

حقائق الخلق في الإسلام

الحقيقة الأولى - الله هو الحق وما دونه باطل: الله هو الحق ، ومن ثم فهو أحق أن يعبد، وإن لم يتبع الحق فليس هناك إلا الضلال. والباطل زاهق والحق باق . تلك المعاني هي آيات محكمات في كتاب الله في قوله تعالى: ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العليّ القدير ﴾ (الحج : ٦٣) و﴿ ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ (يونس : ٥) و﴿ فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فاني تصرفون ﴾ (يونس : ٣٢) و﴿ أقم يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى إلا أن يهدى ... ﴾ (يونس : ٣٥) و﴿ إن الظن لا يغنى من الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون ﴾ (يونس : ٣٦) و﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴾ (الأنبياء : ١٨) و﴿ بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ﴾ (الأنبياء : ٢٤) و﴿ والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشئ إن الله هو السميع البصير ﴾ (غافر : ٢٠) و﴿ ويمحق الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور ﴾ (الشورى : ١٢٤)

ومن ثم فإن الإدعاء بأن الطبيعة تصطفى إدعاء باطل، لأنه يناقض الحق الذى يخلق ما يشاء ويختار . والإدعاء بحدوث التطور وفق آليات قائمة على الظن باطل يبعد الناس عن فهم قدرة الله المطلقة. وبناءا عليه، فإن التطور أو الانتقاء الطبيعي باطل من وجهة نظر العلم والشرع. وأيضا ما سوف يستحدث من تجديد للفكر التطورى القديم سيكون باطلا، طالما أنه بعيد عن الله.

الحقيقة الثانية - الله هو الخالق: الله تعالى هو الخالق ، وغيره عاجزون عن خلق أى حياة . سبحانه وتعالى فاطر يخلق من غير أصل، وغيره يحتاجون إلى أصول لم يأتون بها من عندهم. تلك المعاني تؤكد عليها بشدة آيات القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شئ وهو على كل شئ وكيل ﴾ (الأنعام : ١٠٢) و﴿ الله خالق كل شئ وهو على كل شئ وكيل ﴾ (الزمر : ٦٢) و﴿ هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى... ﴾ (الحشر: ٢٤)

وبما أن كل نوع من الخلاق شئ ، فإذا جميع الأنواع مخلوقة رغم أنف دعاة التطور ، وعليهم أن يأتوا ببرهانهم إن كانوا صادقين. والطبيعة لا تخلق ولا تصطفى وليس لها من أمرها شئ ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار... ﴾ (القصص: ٦٨) . ومشكلة التطوريين أنهم قد تشابه عليهم الخلق: ﴿ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ... ﴾ (الزمر : ١٣). ويخبر الحق تعالى عن عجز البشر عن أن يخلقوا حياة سواء بأنفسهم أو بواسطة ما يتخذونه آلهة من دون الله. ﴿ يا أيها ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له.... ﴾ (الحج : ٧٣) و﴿ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ... ﴾ (النحل : ٢٠)

الحقيقة الثالثة- كل شئ خلق بقدر: ظهور الخلائق لا يتم بتجريب ، ولكنه يتم بقدر . وكل شئ خلقه الله بحدود مميزة ، وليس في خلق الله حلقات وسطى بين الأنواع . يقول الحق تعالى: ﴿ إنا كل شئ خلقنا بقدر ﴾ (القمر: ٤٩) . و ﴿ الذي أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ (السجدة : ٣٢) .

الحقيقة الرابعة- كل شئ حي من ماء: جميع الأحياء من ماء، هذا ما أخبر به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ .. وجعلنا من الماء كل شئ حي أفلا يؤمنون ﴾ (الأنبياء : ٣٠) . وجميع الدواب مخلوقة من الماء ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق ما يشاء ويختار إن الله على كل شئ قدير ﴾ (النور : ٤٥)

الحقيقة الخامسة - الزوجية قانون عام: يخبرنا القرآن الكريم أن النباتات والحيوانات ، وكل المخلوقات خلقها الله أنواعا وكل نوع من زوجين. يقول تعالى: ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ (يس: ٣٦) و ﴿ والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ﴾ (الزخرف : ١٢) و ﴿ ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ (الذاريات : ٤٩)

والحقيقة السادسة- الرزق على الله: رزق جميع الكائنات على الله، وصراع الكائنات سنة ، وليست قوة خلاقه ، والقوى يعيش بجانب الضعيف رغم أنف خدعة : " البقاء للأصلح" . يقول تعالى: ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ (هود : ٦) . الرزاق متكفل بإعاشة وتدبير حياة قرابة ٤,٥ مليون نوع من الكائن، يتوقع العلماء وجودها على الأرض في تلك اللحظة ، فكم كان عدد الأنواع التي تعاقبت على الأرض منذ بدء الخلق. فما بالناس إذن بعدد الأفراد في تلك الأنواع ، وصدق الله تعالى: ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ﴾ (هود: ٥٦)

الحقيقة السابعة- تنوع الخلائق: من ينظر إلى التنوع في البشر ، الذين يعمرن الأرض ، والذين عمروها ، عليه أن يدرك أن التنوع سمة رئيسية في جميع الدواب. وصدق الله حيث يقول: ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شئ ثم إلى ربهم يحشرون ﴾ (الأنعام : ٣٨) . و ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود * ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانها كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾ (فاطر : ٢٧-٢٨) .

الحقيقة الثامنة - والدواب مصنفات: تمكن علماء الأحياء من وضع تصنيف يضم الأحياء والأحافير ، ومن الوارد أن تضاف مصنفات مستحدثة في ضوء معرفة ما ليس معلوما اليوم. يقول تعالى: ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ (النور : ٤٥)

الحقيقة التاسعة- الخلق متجدد باستمرار: يشير القرآن إلى تجدد الخلق. يشير الى ذلك قوله تعالى: ﴿ والخيل والحمر والبغال لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ﴾ (النحل : ٨) و ﴿ أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ (الإسراء: ٩٩) و ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار... ﴾ (القصص : ٦٨) و ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ (الأعراف : ٥٤) و ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد... ﴾ (إبراهيم : ١٩) و ﴿ إن ربك هو الخلاق العليم ﴾ (الحجر : ٨٦).

الحقيقة العاشرة - كتاب الخلاق عند الله: سجل العلماء في أرشيف الحياة الماضية قرابة ٢٥٠.٠٠٠ نوع فقط من الكائنات ، مع اليقين بأن هذا العدد ليس إلا عينة من السجل الحقيقي للكائنات التي توالى على الأرض، بالإضافة إلى ما يقرب من قرابة ٤,٥ مليون نوع من الأحياء الحالية. وعلمنا عن الماضيين والمحدثين غير مكتمل، والسجل الكامل لا يوجد إلا عند المحصى المعيد- عند الله تعالى- القائل عز وجل: ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ (الأنعام : ٥٩) و ﴿ إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ (يس : ١٢)

الحقيقة الحادية عشر- تغيير خلق الله عبث: الله تعالى أحسن خلق كل شيء خلقه، ثم هداه لما خلق. ومحاولة تغيير خلق الله من الظاهر، أو من الباطن أو منهما معا عبث. واستخدام تقنيات الهندسة الوراثية في تغيير جينات الإنسان وغيره من المخلوقات خسران مبين. ويحذر القرآن من ذلك العبث في قوله تعالى: ﴿ إن يدعون من دونه إلا إنا وإنا أن يدعون إلا شيطاناً مريداً * لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً * ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسرانا مبيناً * يعدهم ويمنينهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ (النساء: ١١٧-١٢٠).

الحقيقة الثانية عشر - الخلاق تسجد لله: كل المخلوقات تسجد لله طائفة أو كارهة ، والإنسان قد مُيز بالعقل الذى يميز بين البدائل، وحتى المعاندون المنكرون للخلق تخضع أجهزة أجسامهم للسنن والنواميس التى أودعها الله فيهم ، وصدق الله حيث يقول لتعالى: ﴿ والله يسج ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون ﴾ (النحل: ٤٩) و ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ﴾ (الحج : ١٨)

الحقيقة الثالثة عشر - تسخير الكون للإنسان: الإنسان من أكرم الخلق على ربه ، خلقه الله وسخر له ما فى الأرض وما فى السموات. وفى هذا الشأن يقول تعالى: ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل خلق عليم ﴾ (البقرة : ٢٩) و ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرعوف رحيم ﴾ (الحج : ٦٥) و ﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (الجن: ١٣). ويقرر النص القرآنى أن الكون مسخر للإنسان. وإنه لمن إبداعات العلم أن يصل إلى تلك الحقيقة واحد من أعلم علماء اليوم- وهو الدكتور ستيفن هوكنج مجيبا على سؤال طرحه: لماذا يكون الكون جد مستو هكذا؟ وتأتى الإجابة مُصاغة فيما يعرف بالمبدأ الإنسانى ("Anthropic principle") "إننا نرى الكون بما هو عليه لأننا موجودون". ودلالة الآيات القرآنية السابقة أشمل وأعم من الصياغة العلمية لذلك المبدأ ، فكل شئ فى الأرض والسماء قد ضبط ضبطا دقيقا لنحى على الأرض.

الحقيقة الرابعة عشر - الحى من الميت والميت من الحى: إذا كان العلماء منذ زمن بعيد قد تحدثوا عن انبثاق الأنظمة الحية من جزيئات غير حية كما أشرت من قبل، فإن الحقيقة أن إخراج الحياة ليس فى مقدور البشر وذلك لسبب وحيد: هو أن الله وحده هو الذى يهب الحياة . ويتضح هذا بجلاء فى قوله تعالى: ﴿ ... وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترق من نشاء بغير حساب ﴾ (آل عمران: ٢٧) و ﴿ إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون ﴾ (الأنعام: ٩٥) و ﴿ يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويمسى لأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ﴾ (الروم : ١٩)

الحقيقة الخامسة عشر- لكل أمة أجل: الدواب مثل الإنسان تتكون من أمم ، وتحدد كل الأمم (Nations or varieties) في صفات النوع، وتمايز في الصفات ، مثل اللون والحجم والمظهر.. الخ ، هذا ما نلاحظه من فهم قوله تعالى: ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾ (الأنعام: ٣٨). والدابة تضم الأفراد . وكل فرد ، وكل أمة الى أجل محدود. وأجل الفرد في الدنيا هو فترة بقائه حيا من لحظة مولده حتى تخين وفاته، وأجل النوع في الدنيا هي فترة الدوام المحصورة بين أول ظهور له وآخر ظهوره له على الأرض. وقد تعدد الأسباب والموت واحد، ولكن الأجل محدود. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ ولكل أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ (الحجر: ٥). والسؤال: هل يستطيع " الإنتقاء الطبيعي" المزعوم أن يصطفى سلالة ما يكتب لها الخلود ولا يصيبها الموت؟! لا ولن يحدث ذلك.

والحقيقة السادسة عشر- مآل الحياة إلى الزوال: ينص القرآن الكريم على محدودية الحياة الدنيا، وأن الحياة الدنيا إلى زوال وفناء، وأن البقاء لله وحده. يقول تعالى:

﴿ كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ (الرحمن: ٢٦-٢٧)

﴿ لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ (القصص: ٨٨)

﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ (غافر: ١٦)

ويوضح القرآن الكريم معالم الانقلاب الكوني.

﴿ فإذا النجوم طمست * وإذا السماء فرجت ﴾ (المرسلات: ٩: ٨)

﴿ وإذا الشمس كورت * وإذا النجوم انكدرت ﴾: (التكوير: ١-٢)

﴿ وإذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت ﴾ (الإنفطار: ١-٢)

وفي القرآن الكريم وصف لعشرات من صور الانقلاب الكوني تؤدي إلى نهاية الكون. ويرى العلماء أنه مع ازدياد حجم الكون نتيجة لتمدد الكون ، تقل الكثافة المتوسطة لمصادر الطاقة العالية، وتستعرف. ويتوقع العلماء أن تصبح المادة المتاحة مركزة في تقب أسود، وحينئذ تُطوى السماء وتُقبض الأرض . وصدق الله تعالى حيث يقول: ﴿ ما قدروا الله حق قدره والأرض والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ (الزمر: ٦٧).

حينئذ ندرك أن الحياة الدنيا قصيرة جدا يحسبها أهلها يوم القيامة أنما ساعة من فـار. وتمتد حياة البرزخ بعد الموت إلى قيام الساعة. وبعد ذلك تبدأ حياة الخلود. وعلى من يتمسك بأهداب خيوط الطبيعة الواهنة أن يتذكر أن الطبيعة تلك تفتى وتزول ، ثم يقف الجميع أمام رب العالمين، وصدق الله حيث يقول: ﴿ إن كل من السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عدداً * وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴾ (مریم : ٩٣-٩٥) و﴿ فأين تذهبون * إن هو ذكر للعالمين ﴾ (التكوير : ٢٦-٢٨). وتأتى الحقيقة الأخيرة: ﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ (العنكبوت: ٦٤)

تم بحمد الله

المخلص

لم يكتب لنظرية الزبوع والانتشار مثلما كتب لنظرية دارون عن التطور العضوى . ولا يوجد سند علمى واحدة تقوم عليه النظرية؛ لا من الأحافير التى تمثل بقايا الكائنات البائدة، ولا من بين الكائنات الحية على حد سواء. ولم يتمسك بما الكثير من المخدوعين إلا لسبب واحد، وهو أن رفض النظرية يعنى الإيمان بالله . وللأسف حينما أؤكد على أن التطور كذب ومحض افتراء يندفع بعض المسلمين قائلين أن القرآن يشير إلى التطور ، وبعد أخذ ورد اكتشف أن مفهوم التطور يختلف الناس عليه، ويخلطون بين مفهوم التطور كما وضعه دارون ومفهوم التغير فى تاريخ حياة الفرد والنوع. فالثانى يعنى مراحل خلق الكائن كما فى الإنسان مثلا من نطفة وعلقة ومضغة وعظام... الخ.. ودراسة تطور تلك المراحل شئ لا بأس به، بل ومرغوب فيه . أما مفهوم التطور الدارونى على أنه إرتقاء الحياه من جهاز عضوى ذى خلية واحدة إلى أعلى درجات الأحياء فى سلم الارتقاء فقول فيه نظر، لعدة أسباب أهمها: عجز الفروض الثلاثة لنظرية التطور لدارون التى يفسر بها ظهور الأنواع الجديدة. فلم ولن يؤد تبديل الكائنات الحية جيلا بعد جيل إلى ظهور أنواع جديدة عن الأنواع القديمة الا بأمر الله الخالق . ولا يوجد دليل أحفورى قوى على عملية التحول بين الأنواع عبر الزمن الجيولوجى منذ ظهرت الحياة على الأرض إلى اليوم. كما أن الكيفية التى ظهرت بها أوائل جميع الأنواع تمثل ألغازا مختلف عليها بين العلماء، ناهيك عن عملية تبديل الأنواع إلى أنواع أرقى وأحدث.

وهنا حاججت دعاة التطور مستندا على الأدلة المشتقة من آرائهم ذاتها، وساعدي فى ذلك دراسقى فى مرحلة الدكتوراه عن التطور وشجرة الحياة . وتبين لى يقينا مدى ما تحويه أفكار التطور من كذب وخداع . ولم يقدم سجل الحياة على قدمها دليل على صحة نظرية دارون للتطور العضوى. والظهور المفاجئ والمتنوع لكائنات طين بورجس تضرب نظرية دارون فى الصميم. ولما عجز أحد دعاة التطور، وهو ستيفن جابى جولد عن تفسير ظهور تلك الكائنات، وصفها بأنها تجربة فاشلة، وتعامى مع التسليم جدلاً براهيه عن وراء التجربة. وكذلك الحال فى تفسير ظهور الفكوك للأسمك، من أسمك عديمة الفكوك مع إقرارهم بعدم وجود دليل مباشر على التحول من الأولى إلى الثانية، ثم إقرارهم بالألغاز المتعلقة بأصول البرمائيات والزواحف والطيور والثدييات . وقد أخذ بعض العلماء يشككون فى الحلقة الوسطى بين الطيور والزواحف التى يمثلها الطائر العتيق - الاركيوبتركس. كما أن البعض يشك فى تصنيف ذلك الكائن. وهذا ما تأكد اليوم من اكتشاف دينصورات يكسو جسمها ريشا. وبالتالي لم يعد الطائر العتيق طائرا ، ولكنه زاحف جعلوه كذبا طائرا، ليشغل حلقة وسطى بين الزواحف

والطيور، والحلقة لا وجود لها سوى في عقول تنكر حقيقة الخلق. ونفس الشيء تجده مع سلسلة تطور الأحصنة المزعومة. ثم تأتي كبرى الأثافي حول ما يعرف بتطور البشر، ويكفي أن نعلم أن علم جزيئات الحياة أثبت أن حواء أم البشر. كما أثبتت دراسة الدنا الأحفوري (Fossil DAN)، أن البشر الذين يعيشون على الأرض، لا علاقة لهم بما سمي إنسان نياندرتال باعتباره أقرب مخلوق بشري قريبا منا كما يدعون. وشجرة، بل يحسن أن نقول أشجار حياة البشر هي أقرب من الأحاجي منها إلى أي شيء آخر. وكل الأناسي المزعومة ليست سوى قرودة ورئيسات عليا لا علاقة لها بنا من الناحية التصاعدية والإدراكية.

ونماذج التطور المزعومة، لا تمثل سوى خيال واضعها وفق أهوائهم لتعليل ظهور الخلائق المتعاقبة على الأرض. وقد فشلت جميعها، ابتداء من نموذج التدرج المستمر لدارون، ومرورا بنموذج الفواصل لألدردج وجو، وإنتهاء بالنموذج الشبكي لارنست ماير. والأخير يرى أن من أعظم إسهامات دارون إيجاد الكائنات من خلال التطور من دون اللجوء إلى ما فوق الطبيعة! هكذا كفر بواح. ثم إن الانتقاء أو الاصطفاء الطبيعي المزعومة ليس بذاته قوة خلاقه ولا يدفع شيئا جديدا للتطور. ودارون هذا رضى بأن يطوع العلم للهوى، وروج لمبدأ استعماري بغيض هو البقاء للأحسن، الذي يعجز عن تفسير وجود الأضعف بجانب الأقوى، ثم إنه قد أعلى من دور الصدفة على حساب العقل.

ومات دارون ولم تمت أفكاره، حتى بعد السقوط الذريع لنظريته. إلا أن وأخذت الدارونية الجديدة تطل بوجه جديد خادع يرتدى زيا عصريا مفضلا من علم جزيئات الأحياء والمورثات. وهذا المبدأ الجديد يرى أنه: بوسع الباحثين إعادة بناء الماضي التطوري لأنواع الحياة، من خلال تقييم تباعد سلسلة الجينات أو البروتينات التي تم عزلها من تلك الكائنات. ومن قبل أغرق دارون الناس في مسألة التسلسل الشكلي الذي يحكمه الاصطفاء الطبيعي، واليوم يسحبون الجميع إلى معضلة التشابه الجيني. وأنا أحذر العلماء والباحثين قبل العامة من الناس من الانخداع بوهم مبدأ التسلسل الجيني، لأن كل زوج .. بمعنى آخر كل نوع يحمل خريطته الوراثية المستودعة في أول زوج من كل نوع خلقه الله. وتلك الشفرة الوراثية تميز النوع عن غيره من الأنواع.

وهنا أشير إلى بعض الحقائق وليس كل الحقائق المتعلقة بالخلق التي ذكرت في القرآن الكريم: الله هو الحق وما دونه الباطل، وهو الله الخالق كل شيء بقدر، وجعل من الماء كل شيء حي. وخلق سبحانه الكائنات على تنوعها كل نوع من زوجين. وهو سبحانه خلق ويخلق وخلاق عظيم كل يوم هو في شأن، وتكفل برزق جميع الدواب، وهداها إلى المستقر والمستودع. وعنده سبحانه علم جميع الخلائق، وكلها تسجد له طائفة أو مكرهة. والله خلق الإنسان وعلمه اللغة والبيان وميزه بالعقل ليختار بين البدائل.

وربنا هو الذى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى. وضرب سبحانه لكل أمة أجل. وعنده الكتاب الكامل يحفظ فيه جميع أعمال خلقه. وتزول الخلاق كلها وتفنى. ويبقى الله وحده ذو الجلال والإكرام. وقد أحاط سبحانه بعلم كل شىء: ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين﴾ (الأنعام: ٥٩).

المراجع

أولاً: القرآن وعلومه:

- ١- القرآن الكريم
- ٢- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم بحاشية المصحف الشريف. محمد فؤاد عبدالباقي - دار الحديث - القاهرة ، ٩٥٠ صفحة.
- ٣- الجامع لأحكام القرآن الكريم للإمام القرطبي (٢٠ جزءاً) - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٨٩.
- ٤- مختصر تفسير بن كثير (٣ مجلدات) - اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني ، دار القرآن - بيروت.
- ٥- في ظلال القرآن (٦ مجلدات) - السيد قطب - دار الشروق - ١٩٨٧.
- ٦- المنتخب في تفسير القرآن الكريم - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة - ٢٠٠٢.

ثانياً: المراجع باللغة العربية:

- ٧- التفسير العلمي للقرآن في الميزان - دكتور أحمد عمر أبوحجر - دار قتيبة - ٥٦٣ صفحة - ١٩٩١.
- ٨- الإعجاز العلمي في الإسلام - محمد كامل عبدالصمد - الدار المصرية اللبنانية - ٤٠٠ صفحة - ١٩٩٣.
- ٩- أسرار الحياة والكون - المحرر وليم هـ - شور - ترجمة د. السيد رمضان هدارة - مركز الإعلام للترجمة والنشر.
- ١٠- الإسلام والدين - إعداد المكتب العالمي للبحوث - بيروت .
- ١١- القرآن والتوراه والإنجيل: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة - موريس كوكاي - دار المعارف .
- ١٢- الدين والعلم وقصور العقل البشري - د. محمد الحسيني إسماعيل - مكتبة وهبة - القاهرة.

- ١٣- خلق لا تطور - تعريب د. أحسان حقي - دار النفائس - بيروت.
- ١٤- الإنسان في القرآن - عباس محمود العقاد.
- ١٥- أبي آدم - قصة الخليفة بين الأسطورة والحقيقة - د. عبدالصبور شاهين - مكتبة الشباب بالقاهرة - ١٩٩٨م.
- ١٦- كتاب الإعجاز ورد على كتاب أبي آدم. د. حسنى حمدان. دار الصفا بالنصرة-مصر- ٢٠٠٠م.
- ١٦- أصل الأنواع - تشارلز دارون .

ثالثا: الدوريات والصحف السيارة

- ١٧- مجلة الإعجاز العلمي - الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة - جدة - المملكة العربية السعودية - الأعداد من ١-١٤.
- ١٨- مجلة الوعي الإسلامي - الكويت - العدد ٤٣٣ لسنة ٢٠٠١ ، ٤٣٠ لسنة ٢٠٠١ و ٤٤٧ - ٢٠٠٣.
- ١٩- مجلة العلوم - ترجمة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي - أعداد ١٩٩٥-٢٠٠٣

رابعاً: المراجع باللغة الانجليزية:

1. Lemon, Roy, R., 1993: Vanished Worlds. Wmc. Brown Publisher, pp. 475.
2. Montgomery, C.W., 1993: Physical Geology 3rd. W.C.B. Wm.C. Brown Publishers, p. 544.
3. Plumer, C.C. and David McGeary, 1993: Physical Geology 7th Ed., Wm. C. Brown Publishers, pp. 539.
4. Thompson, G.R., Turk, J. and Levin, H.L., 1995: Earth: Past and Present Saunders Colle, pp. 664.

الداروينية والإعجاز العلمي في القرآن الكريم

أ . د . إدريس الخرشاف

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

يعتبر موضوع الداروينية من الموضوعات الشائكة والرئيسية التي شغلت بال الباحثين منذ انطلاقتها إلى عصرنا الحاضر، رغم الأخطاء والمطبات التي تعترض سبيلها. خاصة وأن الألفية الثالثة تتسم ولا سيما في عصرنا الحاضر، الذي يتسم بتحولات عميقة في شتى مجالات المعرفة. وقد حاولنا من خلال الإشكالية التي تطرحها الفكرة الداروينية، رصد الأهداف الكبرى التي نطمح إليها، والعمل على رسم تجليات تلك الأهداف بالنظر إلى مكانتها العلمية والتطبيقية وإسقاطها على أرض الواقع، لتكون نبراسا لعمل شباب الأمة الإسلامية - عماد المستقبل - الذي يؤمن بلغة البرهان مصداقا لقول رب العالمين: ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ [البقرة-١١١].

وبما أن للإنسان الحق في اختيار ما يؤديه إليه اجتهاده، وعدم إكراهه علي تقبل فكرة أو حقيقة إلا بوسائل الإثبات والإقناع وأدوات التفكير كما يقول رب العالمين: ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا ﴾ [الإسراء-٣٦].

كان لا بد لنا أن نختار منهجية ديننا الإسلامي الحنيف، الذي يطرح مشروعا حضاريا، ويعتمد على استعمال الإقناع والحكمة والموعظة الحسنة والدليل العقلاي، كما يقول سبحانه: ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ [النحل - ١٢٥].

مقدمة

تطلب الدراسة العلمية الرصينة لإشكالية الداروينية، قراءة الأفكار التي طرحت في الساحة والمتعلقة بأصل الإنسان، حتى نكون علي بينة من معالم الطريق الذي سلكه الباحثون، ثم معرفة ما جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، لأن ما قرره القرآن الكريم عن أصل الإنسان يظل الحقيقة السائدة وعين اليقين.

ولتسليط الأضواء على مجمل القضايا المتعلقة بالمحور الإشكالي لفكرة التطور (الداروينية) كان لا بد لنا من :

أولاً: التطرق لأسباب اختيار البحث، وأجلناه في ضرورة استفادة المسلم من التقنيات والعلوم المعاصرة (الرياضيات، الاحتمال، البيولوجيا نماذج) حتى يستطيع مقاومة التيارات الفكرية المستوردة من خارج فضائه الإيماني (الداروينية أمثودجا) .

ثانياً: الانطلاق من مقدمة نتحدث فيها عن الإطار العام للداروينية كمدخل لفهم حقائق الدين الإسلامي، الذي عاج فكرة التطور من الناحية العلمية والتاريخية والاجتماعية، وهذا يقتضي :

أ - قراءة حدود المعرفة الإنسانية وإمكاناتها في الكشف عن حقائق قضية تاريخ الإنسان.

ب - الاستعانة بمقومات البحث ومناهجه في شتى مجالات المعرفة .

ج - إعادة قراءة عناصر الفكرة المطروحة في ضوء حدود منهجية القرآن الكريم والسنة النبوية كأرضية للحوار العلمي الرصين.

ثالثاً : فتح الآفاق ، ونذكر منها :

- ١- الأفق العقلاني الذي يؤدي للعقل.
- ٢- الإحساس بالهوية الإنسانية وتحقيق الذات.
- ٣- الأفق الحضاري.
- ٤- الإحساس بالمستوى الرفيع الذي رفع الله إليه الإنسان.

رابعاً: المناقشة العلمية للأفكار الداروينية والداروينية الجديدة، مع طرح المصطلحات العلمية الجديدة - في هذا المضمار - التي ذكرها رب العالمين في كتابه الكريم .
وتكون محصلة القضايا الأربع، الخروج بالإنسان من استلاب الوعي والهوية الإيمانية للاتحاق بركب المسيرة الإنسانية والفطرة التي فطر الله الناس عليها.

مباحث

المبحث الأول : الداروينية والأفكار المختلفة

من بين القضايا التي ظلت وما زالت تشغل فكر الإنسان، نذكر بالخصوص فكرة "التطور" التي قيل عنها (من طرف البعض) بأنها أصبحت في عداد المفقودين ، لكن ومع ذلك فما زالت أطروحتها تستأثر باهتمام الباحثين والمثقفين، الذين يربطون عالم الفكر المطروح بالإطار الإيديولوجي العام.

لذلك ارتأينا ، أنه من المفيد جدا وخاصة في ظروفنا الراهنة ، طرح ومناقشة هذا الموضوع المتشابه الأطراف ، حتى يعرف الإنسان العادي على آخر المستجدات في هذا الفضاء، الذي يحتاج منا أو من غيرنا إلى المزيد من الأبحاث والدراسات في معرفة حقائق الأمور، لكي يتمكن من بناء نظرية عقلانية مخبرية تطبيقية ، يمكنها أن تكون صالحة لكل زمان ومكان.

إن فكرة داروين (ولا نقول نظرية داروين)، جاءت في وقت كان العالم في مرحلة المراهقة المخبرية، وما أن أعلن داروين عن جملة الأفكار الناتجة عن عيناته العشوائية **Echantillons** (aleatoires) التي جمعها أثناء سفره، والتي ربطها بفكرة النشوء والارتقاء (**Evolution**) حتى سارعت كثير من الجهات لتبني الفكرة، وأصبحت بعض الدوائر الرسمية والعلمية تتبنى جملة الأفكار التي روجها، على إثر الرحلة البحرية التي قام بها داروين بتاريخ ٢٧-١٢-١٨٩٣، على متن الباخرة (beagle).

وعندما رجع - داروين - إلى موطنه الأصلي في بريطانيا سنة ٢-١٠-١٨٣٦، كانت جملة النتائج التي خرج بها هي الاتحادات المختلفة بين مختلف المخلوقات، سواء كانت حيوانية أو نباتية أو إنسانية، دون الأخذ بعين الاعتبار بالجانب البيولوجي أو الرياضي أو الاحتمالي. ومما ذكره دارون في كتابه :

١- قانون تنازع البقاء :

ويتلخص في الفكرة الآتية: إن هناك صراعا أزليا بين الكائنات الحية من أجل العيش، وأن البقاء إنما يكون للأكمل والأقوى من المتنازعين، أما الضعيف فإنه يتلاشى لأنه غير صالح للحياة.

٢- قانون انتخاب الأصلح :

ويرتكز على الفكرة التالية: مادامت الحياة معترك صراع من أجل البقاء فإن الذي يخرج منتصرا إنما هو الأصلح والأكثر احتمالا للضغوط الخارجية .

٣- قانون الملاءمة مع المحيط :

يعتمد على فكرة الاختلافات بين الأنواع، فالحيوان مثلا يضطر بحكم الضرورة التلاؤم مع المحيط وينتقل من فصيلة الحيوانات المفترسة إلى الحيوانات الداجنة، ثم إلى الطيور إذا تطلب الأمر ذلك، مثل الأسد الذي يتحول من حيوان مفترس إلى حيوان عاشب إذا قلت الفريسة.

٤- قانون الوراثة :

ويتلخص في الفكرة التالية : "إن الصفات العرضية التي تحدث في الآباء بواسطة اختلاف البيئة والمحيط تنتقل إلى الأبناء، فتنشأ الأبناء مختلفة فيما بينها، ويظل الاختلاف يقوى على مر الأجيال حتى تبدل من اختلافات عرضية إلى اختلافات جوهرية".

لكن الباحث العلمي يجد صعوبة كبيرة في تقبل النتائج المستخلصة من طرف دارون، إذ يلاحظ إن الإجابة عن ذلك من الناحية العلمية، وجود صراع بين فصائل الحيوانات، ولكن هذا لا يعني أن التوازن القائم بين الأحياء يستند إلى هذا الصراع، بالإضافة إلى ذلك، فإن العالم يلاحظ أن الموت قضية محتومة ومبرجة ولا يرتبط ببرنامج مخلوق، وما الكوارث الطبيعية إلا سبب من الأسباب لاندثار بعض الحيوانات لكنها ليست قانونا.

ثم إن التغير في الشكل الخارجي أمر ممكن الحدوث ، وذلك حتى يستطيع الحيوان التكيف مع الوسط الذي يعيشه، إلا أن هذا ليس معناه أن الجنس سيختلف تماما من جيل إلى آخر (كما يدعي دارون).

الداروينية الجديدة :

تأتى هذه الفرضية بعد فشل ثبوت نظرية داروين ، هذه الفكرة لا تؤمن بالأعضاء المكتسبة عن طريق الحاجة (اللامركية) نسبة إلى Lamark، لكنها تقبل فكرة التغيرات عن طريق الانتخاب الطبيعي للأعضاء المكتسبة حسب قانون مندل (Mendel).

وبطل هذه الفرضية هو Sofroix الذي اكتشفها سنة ١٨٣٧، إلا أنها تطورت على يد العالم الهولندي Hugo Devrey [١٩٣٥-١٨٤٨] وتعرف الطفرة "بأنها التغير المفاجئ في طبيعة الوراثة الذي ينشأ عن تغيير في ظهور الصفة الوراثية".

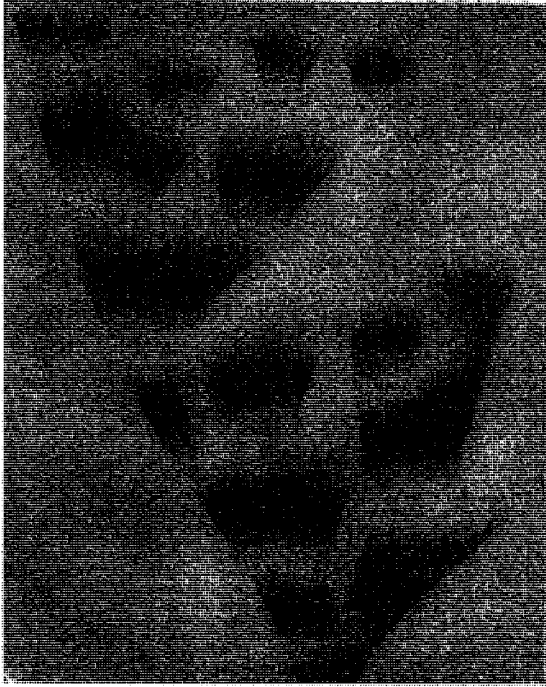
الباحثون المعاصرون إن فشل الداروينية وعجزها عن إثبات الحقائق الكونية، أفرز جماعة أخرى حاولت الحفاظ على هيكل الفكرة، وطحها بشكل يتناسق وعقل إنسان القرن العشرين هذه الجماعة هي أمثال Tobias, Johansen, Leaky.

لذلك نستعرض أفكار هؤلاء (مع إعطاء نبذة موجزة حول تاريخ المخلوقات التي تشبه الإنسان) بالإضافة إلى تعريف المصطلحات المستعملة.



أولا : فرضية *White, Johansen* (شكل ٢)

إن المخلوقات المسماة *Australopithecus Afarensis* (مخلوقات لها جماجم تشبه الغوريلا انظر أشكال المخلوقات) والذي عثر عليها في الحقبة التي تبعد عنا بمليوني سنة، حيث يعتبرها بعض الباحثين بأنها تعتبر الجسد المباشر للمخلوقات *Australopithecus Robustus*, هذا التطور حدث في مدة تساوي مليون سنة (انظر شكل ١ *Australopithecus Boesie*، مع قراءة الشجرة من الأسفل إلى الأعلى).



[شكل ١]

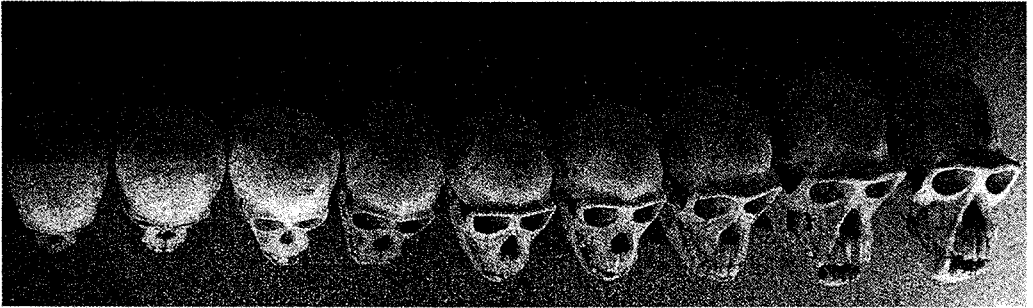
ثم إن مخلوقات فصيلة **Australopithecus Afarensis** قد تطورت وأعطت **Homo Habilis**، هذه الأخيرة أعطت بعد تطورها ما يسمى بالمخلوقات **Homo Erectus**، التي تطورت بدورها وأعطت **Homo Sapiens**.
فمن الشكل ١ يمكننا قراءة ما يلي :

١- نلاحظ أن المخلوق **Australopithecus Afarensis** هو الجسد المباشر

للمخلوقين **Homo Habilis, Australopithecus Africanus**

٢- فرع المخلوقات: **Robustus, Australopithecus Africanus** (يعين الشكل ١)، وهذا الفرع يختلف عن فرع المخلوقات التي تأتي في آخر المطاف بالإنسان الحالي (يسار الشكل ١).

٣- إذا قرأنا الحقبة بين مليون سنة (المستوى) والمستوى الذي يمثل صفر مليون سنة نجد أن المخلوقات تطورت من **Australopithecus Afarensis** (شكل ٢)، إلى **Homo Erectus, Homo Sapiens, Homo Habilis** معنى ذلك أن كل مخلوق كان له الحظ في التطور خلال حقبة زمنية لا تتعدى ٢٥٠٠٠ سنة، وهذا يتناقض مع الداروينية التي تنص على أن التطور يحدث في مدة زمنية كبيرة تعد بالملايين.

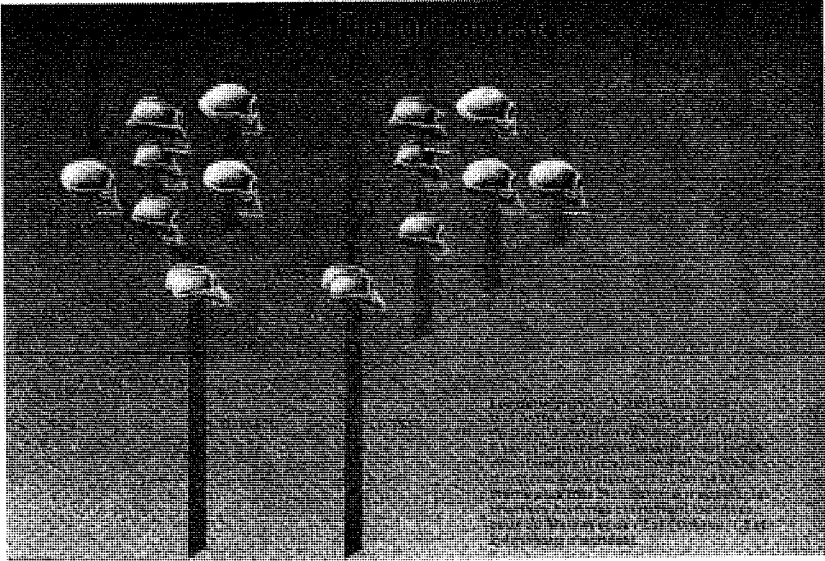


مجموعة مختلطة من الجماجم [جمجمة الإنسان والشمبانزي والغوريلا]

بالإضافة لذلك، إذا آمنة بفكرة التطور السريع الذي يحدث لبعض المخلوقات، لماذا سيكون الشأن بالنسبة لبقية المخلوقات.

اعتمادا على ما تقدم، نطرح السؤال التالي : ما هو السبب في التطور السريع عند بعض المخلوقات ؟

حاول **Coppens** الإجابة عليه حينما قال: "إن ذلك يؤول إلى فكرة الصدفة (سنرى فيما بعد إن كان للصدفة - حسب المفهوم الإنساني - دورا طلائعيا من أجل حل المشاكل المعقدة).



ثانياً: شجرة *Coppens* (الشكل ٢)

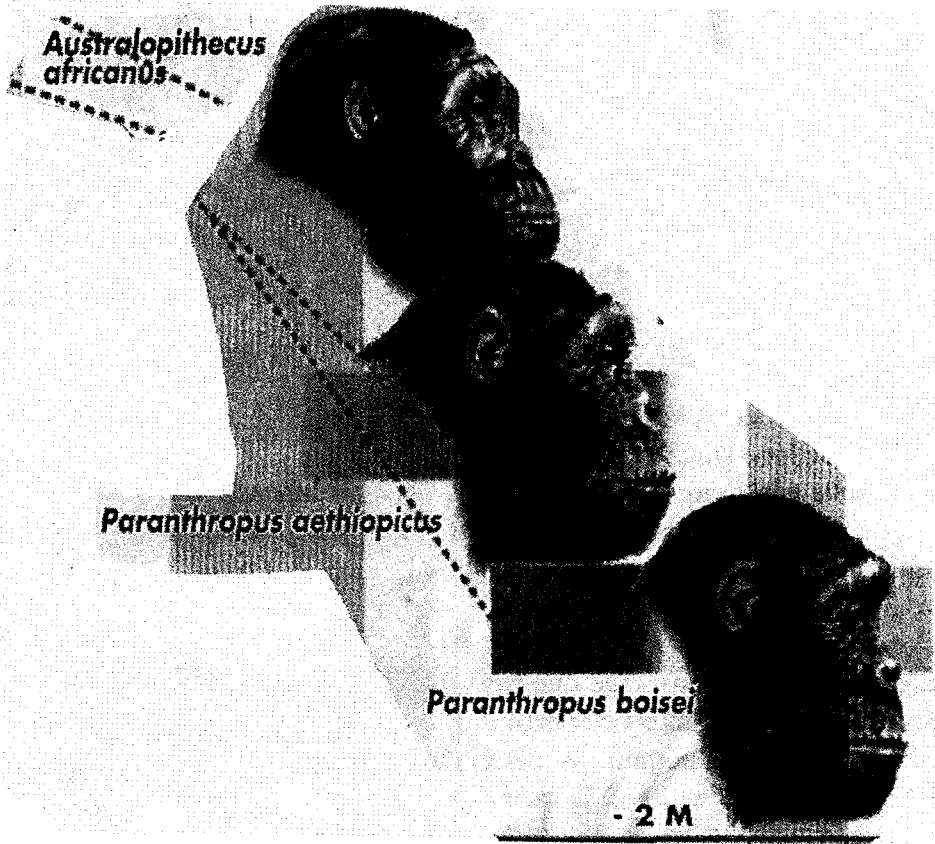
يعتبر هذا الباحث، أن المخلوق *Australopithecus Africanus* هو الجسد المباشر للمخلوقات *Australopithecus Robustus, Boeisie, Homo*. الملاحظات التي يمكن الخروج بها من المعطيات والأطروحات السابقة:

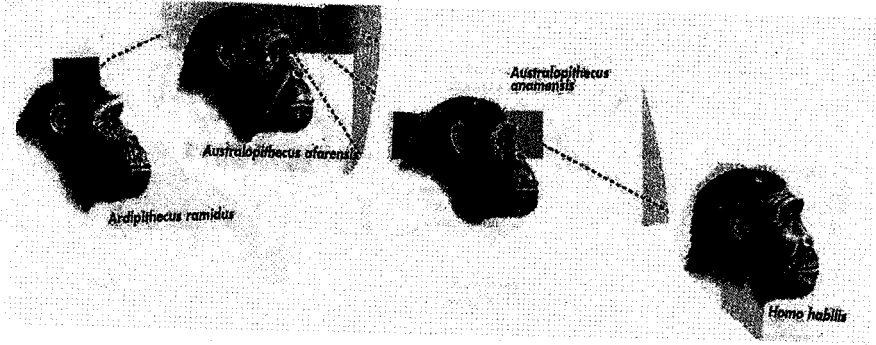
أ- تناقض بين شجرة *Johansen* وشجرة *Tobias*، فعندما يعتبر الباحث الأول أن المخلوق *Australopithecus Afarensis* هو الجسد المباشر للمخلوق *Australopithecus Africanus*، نجد الباحث الثاني يعتبر المخلوق *Australopithecus Africanus* هو الجسد المباشر للمخلوق *Australopithecus Robustus* (انظر الشكل ٢).

ب- من خلال قراءتنا قراءتنا لتشجير *Tobias* نجد ما يلي:

إن المخلوق *Australopithecus Africanus*، قد وجد قبل 3MA في حين يعتبر الباحث *Johansen* المخلوق *Australopithecus Africanus* موجود وفق بعد 3MA.

(انظر الشكل أسفله شكل ٢ مكرر).





[شكل ٢ مكرر]

ج- يعتبر الباحث Johansen أن الجد المباشر لكل المخلوقات هو *Australopithecus Afarensis* وما المخلوق *A. Africanus* سوى فرع من فروع *A. Afarensis* في حين أن *A. Tobias* يعتبر *Australopithecus Africanus* هو الجد المباشر لكل المخلوقات (تضارب).

ثالثاً: شجرة Leaky

أما بالنسبة لهذا الباحث Leaky فهو ينطلق من فكرة أساسية ألا وهي أن الفصائل تكون مختلفة تماماً منذ البداية وغير مرتبطة ببعضها البعض (الشكل ٣)...

صنف _____

Australopithecus

صنف **Homo**

صنف آخر _____

[الشكل ٣]

استخدام الكمبيوتر:

هناك تجارب أخرى كانت مبنية على استخدام الكمبيوتر (أنظر شكل-٤)، وكان القصد منها التعرف على العوامل الأساسية، التي من شأنها إلقاء الأضواء على العلاقة الموجودة بين الشمبازي والإنسان من جهة، والشمبازي والغوريلا من جهة أخرى، وذلك اعتمادا على المتغيرات القياسية والبيولوجية، نذكر منها: الطول، الوزن، السعة المخية، البلوغ، عمر المخلوق، أشكال اليد، شكل الأرجل، الكروموسومات، القواعد (A,T,C,G)، عدد انحناءات الظهر، زاوية الجبهة والفك، مجال السعة بين الأنياب. فوجد العلماء أن هناك فرقا ليس فقط بين الإنسان والشمبازي، ولكن بين الغوريلا والشمبازي كذلك كما هو موضح بالشكل ٤).

وهذا إن دل شيء، فإنما يدل على نقد النظرية التي تجعل الإنسان والشمبازي ينتميان لشجرة واحدة ولهما نفس الأصل.

فيما يلي نقدم أقوال بعض العلماء في هذا الميدان ومهاجتهم لفكرة التوالد الذاتي.

آراء العلماء حول نظرية التطور:

أولا: لويس باستور (Louis Pasteur): يعتبر قطبا من أقطاب القرن التاسع عشر الذين أسهموا بقسط وفير في تقدم العلوم بكشوفه الرائعة، حيث شجع الشباب على البحث العلمي وكان يقول لهم دوما "لا تسمحوا لأنفسكم باليأس من أي عمل تختارون القيام به، بل قولوا لأنفسكم ماذا فعلت لزيادة معلوماتي؟"

وما يهمنا في هذه الأسطر هو أعماله الذي تلخصت في التقارير الرسمية:

أ- إن لكل تخمر جرثومة خاصة به.

ب- إن لكل مرض جرثومة تسببه.

يقول باستور **Pasteur** في محاضرة ألقاها بالسربون - جامعة باريس ٧/٤/١٨٦٤ -

: Sorbonne

"هناك عدة قضايا تشغل وتشد العقل البشري، نذكر منها:

- ١- تفرّد أو تنوع الأجناس البشرية.
- ٢- وجود الإنسان منذ آلاف السنين.
- ٣- ثبات الأنواع أو التحول البطيء والمتوالي، من نوع إلى نوع آخر.
- ٤- خلود المادة وفكرة العدم فيما عدا ذلك.
- ٥- فكرة عدم ضرورة وجود إله.

تلك هي بعض القضايا التي شغلت بال الإنسان في عصرنا الحالي".

ثم يضيف: "إنني لم آت هنا لكي أدعي أنني أستطيع حل المعضلات المطروحة على الإنسان، لكنني سأطرق لها انطلاقاً من التجربة الهادفة والدراسة المسؤولة، إن المشكلة التي سأطرق لها إذن، أضعها على الشكل الآتي: هل يمكن للمادة أن تنتظم من تلقاء ذاتها؟، أو بمعنى أصح، هل يمكن للكائنات الحية أن تتولد بدون اللجوء للالتقاء البيولوجي؟ هذا هو المشكل الأساسي الذي يجب حله. فهل تفهمون الآن العلاقة التي تربط بين قضية التوالد الذاتي والمشاكل التي ذكرتها؟ أظن أنه يجب أن نكف عن العبارات الشعرية، والتضخم الفكري، ولقد آن الأوان أن يأخذ العلم مجراه الحقيقي".

هذا ونجد من خلال التجارب والبحوث التي تطرق إليها فيما يخص موضوع التوالد الذاتي، أنه قام بنقد هذا الأخير نقداً عقلياً وتجريبياً، وذلك في البحث الذي أطلق عليها اسم: "الأجسام المنتظمة في الجو".

ثانياً: جان هنري (Jean Henri) المختص في علم الحشرات (١٩١٥-١٨٢٣) حيث يهاجم فكرة التحول المفاجئ، فيقول: "إن لكل عصر مميزات خاصة، ويتميز عصرنا هذا بالتحولية، وكانت لدينا فكرة التوالد الذاتي (ابتداء من يوم زيارة باستور ١٨٦٥)، وعندما قمت بدراسة فكرة التحولية، تبين لي من خلال التمعن فيها أنها ليست ثابتة بل لها سيولة وذوبان".

بالإضافة لذلك، هناك ردود الفعل في أوساط علماء فرنسا الذين انتقدوا نظرية داروين ونخص من بينهم:

ثالثا: الجغرافي **Elie de Beaumont (1798-1847)**.

رابعا: عالم المستحاثات **Adolphe Brongniart (1801-1876)**.

خامسا: عالم الحيوانات والمتحاثات **Louis Agassiz (1807-1873)**.

سادسا: البيولوجي **Henri Mile Edward (1800-1885)**.

سابعا: عالم دراسة الإنسان: **Armand de Quatrefages (1810-1892)**.

ثامنا: حقبة القرن العشرين:

نلاحظ أن الربع الأول من القرن العشرين قد تميز باندفاع بعض العلماء وتبنى فكرة تغير وتطور الكائنات، وما أن مرت فترة من الزمن حتى ابتداء العلماء يتوصلون إلى الحقيقة.

أ- يقول الأستاذ لويس فيالتون (**Louis Vialleton**) في سنة ١٩٢٩ من كلية الطب

بمونييلي والمتخصص في التشريع المقارن للفقرات:

"تبين لي من خلال الأبحاث والتفكير في كتاب داروين، أن هذا الأخير لم يستطع القيام ببرهان مادي أصيل من أجل إثبات فكرته، كما أنه لم يأت بأي شيء جديد يؤكد على صلاحية أفكاره".

ب- يلخص البروفسور بول لوموان (**Paul Lemoine**) سنة ١٩٣٦، كلامه في الجزء

الخامس من **Encyclopédie française** - مما يدل على خسارة فكرة التحول - حيث يقول:

"بالرغم من كل الظواهر، فإن الإنسان لم يعد واثقا أو بالأحرى لم يعط أي اهتمام لنظرية التطور التي تدل على التسلسل، لأن النقاش البناء هو القاعدة لكل حوار علمي".

ح- يقول البيوفيزيائي هنري دوفو (**Henri Devaux**) سنة ١٩٥٢:

"لقد دلت التجارب، أن نظرية التطور ليست في الواقع سوى فكرة تبنتها ومازالت تدافع عنها حفنة من العلماء، إلا أن هذه النظرية أصبحت منتقدة في الوسط العلمي، أما الذي يثير انتباه الباحث هو الاستقرار الموجود في كثير من أنواع الحيوانات".

د- يصرح الدكتور موريس فيرني (**Maurice Vernet**) سنة ١٩٦٤، بأن الغموض الذي

حدث عند **Teilhard de Chardin** ناتج عن الظواهر التي اعتبرها هذا الأخير عبارة عن حقائق

علمية، ويستطرد قائلا:

"إذا كنا لحد الآن قد سلمنا بفكرة التطور لبعض الحيوانات أو المخلوقات بشكل عام، فماذا سيكون موقفنا بالنسبة للكائنات الحية الأخرى، التي لم تتغير لوقتنا الحاضر، ونذكر على سبيل المثال بعض الرخويات (mollusques) والحشرات، وبعض الأسماك التي بقيت على حالها مثل سمكة COELACANTHE التي لم تتطور منذ ٢٠٠ أو ٣٠٠ مليون سنة، كما أن هناك الشعب البدائية التي بقيت واسعة الانتشار في الطبيعة ولم يحدث لها أي تطور، ونذكر على سبيل المثال: البكتيريا، والكائنات أحادية الخلايا unicellulaires، والاسفنجيات Eponges، وقنابل البحر Méduses، والمرجان Coraux بأنواعه المختلفة، وعلى وجه الخصوص الحشرات العظيمة التكاثر والتي يوجد منها ما يقارب ١٠٠٠٠٠٠ نوع".



سمكة COELACANTHE

ثم هناك أمثلة حية توضح التناقض الذي حصل بين العلماء المهتمين بهذا الميدان، وخاصة عند التطوريين أنفسهم، حيث نستمتع للبروفسور Maurice Caullery سنة ١٩٣١ في كتابه "مشكل التطور" Le problème de l'Evolution وهو يعترف بما يلي:

"ليس هناك مؤشر إيجابي يؤكد تكوّن مخلوقات جديدة من مخلوقات سبقتها، بل على العكس من ذلك، ما يؤكد علم الوراثة هو أن هناك استقرارا لجميع الأنواع (التي قمنا باختبارها)".

هـ- يتحدث الأستاذ البيولوجي Guyenot سنة ١٩٤٧، عن فكرة أساسية بالنسبة، له ألا وهي أن: علم المستحاثات لا يمكنه أن يعطي نظرة مباشرة "تسلسل الكائنات الحية".

ق- يعلن الأستاذ Albert Vandel سنة ١٩٦٨ في كتابه "La Genèse du vivant" وجود ثغرة كبيرة بين الإنسان وباقي الكائنات ذات الرجلين.
ك- يعلن الأستاذ P.P. Graisse سنة ١٩٧١ و١٩٧٣:

"إن غياب كثير من المستحاثات التي تنتمي إلى طبقات التصنيف يجعلنا عاجزين على شرح ميكانيكية التطور، وتبقى في النهاية إذن، مجموعة من الفرضيات نعلم عليها للإدلاء بفكرة تطور المخلوق".

ل- يصرح الأستاذ Jean Rostand سنة ١٩٧١، في حديث إذاعي معلقا على كتاب Jacques Monod بعنوان "الصدفة والضرورة" حيث يقول:

"إذا كنت أتفق مع J. Monod فلسفيا، فإنني أبتعد عنه عندما تطرح قضية التطور، لأن هناك أشياء تنقص هذه النظرية، فلذلك أحتفظ لنفسى، ولو بشكل غير مرضي بفكرة التحول المفاجئ. وأظن أن هناك ميكانيزمات لا نعرفها، فلذلك أعوز بذلك لفكرة الصدفة. إلا أنه من الصعب جدا تقبل فكرة الصدفة عندما نكون بصدد معالجة قضايا بيولوجية".

ط- وهناك علماء أفذاذ تركوا بصماتهم في سجل نقد فكرة التطور، ونخص بالذكر:

١- الأستاذ Louis Vialleton ١٩٢٥ في كتابه "Illusion

"transformisme

٢- Maurice Vernet ١٩٦٤ في كتابه "الوهم الأكبر لـ Teillard de

"chardin

٣- Jacques Goldbert ١٩٨٦ في كتابه "التطور المنبوذ rejetée

"Evolution

م- يقول العالمان: **C. Petit et G. Prévost**: (من مركز الأبحاث العلمية بفرنسا)
"لقد تمسكنا لمدة طويلة بفكرة تطور الإنسان عن القردة، إلا أن هذه الفكرة سرعان ما
اندثرت في الأيام الأخيرة".

ن- يضيف الباحث المتخصص في علم المستحاثات « **Paléontologie** » الأستاذ
Marcellin Boule:

"لم يظهر لنا عمل المستحاثات أي شكل يتعلق بالتغير الذي لا يقبل المناقشة، وبالتالي فلا
يوجد أي شيء مادي يعطينا فكرة انتقال شكل القردة إلى شكل الإنسان"

ع- أما الأستاذ **Maurice Caullery**، فإنه يتطرق في معرض كلامه (كتاب: مشكل
التطور) للفكرة الآتية:

"ليست هناك دلائل تؤيد فكرة نشوء خلائق جديدة، إلا أن العكس هو الصحيح، حيث تدل
دراسة الوراثة أن هناك استقرارا بالنسبة لكافة الأنواع التي أقمنا عليها تجاربنا. إلا أنني أؤيد فكرة
الانتخاب الطبيعي، لأن ذلك لا يرجع إلى كوني لا أستطيع البرهان عليه عندما تتبدل الأنواع، وإنما
(على ما يبدو لي) هناك مجموعة من القضايا تشرح لي ذلك مثل مجموع القضايا في التصنيف الشجري،
وعلم الأجنة وعلم الإشكال، والأعضاء البارزة".

وهناك إشكاليات أخرى مطروحة على مستوى الجينات، الأمر الذي جعل الباحثين في علم
الجينات يتصادمون مع الباحثين في علم المستحاثات (انظر مجلة: **La recherche n°236-1991**
ومجلة: **La recherche n°263-1994** ومقالات في مجلة **Sciences & Avenir n°134-2003**).

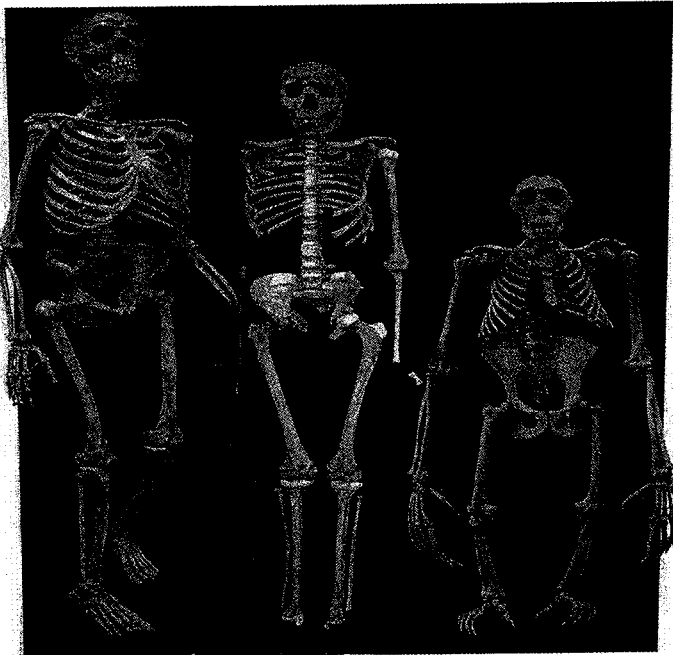
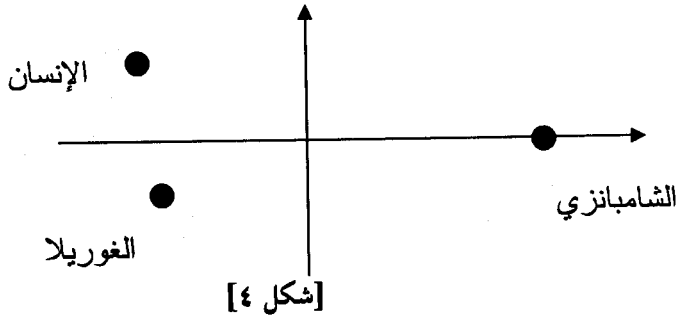
ثم إن القضية الأخرى التي كانت انتكاسة لدارون وأتباعه، فتكمن في الرسالة التي نشرها
الدكتور **Maurice Vernet** في كتابه: "تطور العالم الحي" سنة ١٩٥٠ بباريس، حيث ذكر أن
ابن دارون كان قد تلقى من دارون رسالة يقول فيها:
"إن الخطأ الأكبر الذي اقترفته في حياتي هو عدم إقحامى دور الوسط الذي يقوم بتغيير النوع
مستقلا في ذلك عن الانتخاب الطبيعي".

هذه الفكرة هي التي بعثها كذلك (دارون) إلى كل من الجيولوجي **Lyell**، والطبيعي
Moritz wagner قبل الرسالة الأولى ببضعة أيام.

بالرغم من هذه التصريحات، نجد دارون يجهل قضية المميزات الجسمية الموجودة والمبرجة بواسطة
الحامض النووي الموجود في الجينات والأدوات الجينية للآباء.

إلى هنا كان التركيز محصورا على العلماء الذين انتقدوا دارون وأفكاره. كما أن هناك عددا كبيرا من العلماء الذين أظهروا سوء استعمال تعميم نظرية التطور.

عاشرا: وهناك طرق عديدة أثبتت عدم جدوى الداروينية ومنها طريقة التحليل التوافقي للتقابلات (Analyse factorielle de correspondance) حيث توضح لنا هذه الطريقة استنادا لعدة متغيرات (Variables) على أن الفرق بين الشامبانزي والإنسان والغوريلا شاسع جدا (انظر الشكل ٤).



نضيف إلى ذلك تصريحات الدكتور **Gostaf Julish** الذي أظهر سوء استعمال تعميم نظرية التطور وعدم صلاحيته، وقد وافقه في ذلك علماء كثيرون نذكر منهم على سبيل المثال:
 ١- الباحث الألماني **Von Baer** (١٧٩٢-١٨٧٦)، مؤسس علم الأجنة ومن علماء الفيزيولوجيا.

٢- **Elie Dosison** في كتابه "الله والعلم" ١٩١٢.

٣- العلامة الانتروبولوجي الألماني **De Kelter Vag**.

٤- الفيلسوف الإنجليزي المعروف **Herbert Spencer**.

٥- دائرة المعارف الكبرى الفرنسية.

٦- **Camile Flamarion** (١٨٤٢-١٩٢٥).

٧- الفيلسوف الفرنسي **Gustaf Lupont** صاحب كتاب "حضارة العرب"

٨- العالم الرياضي **A.H. Andrew** (١٨١٣-١٨٨٦) أستاذ في أيرلندا (**Belfaste**)

ويقول العالم الروسي **Dopzonsky** عالم الأحياء - المعروف بدفاعه الحار عن نظرية التطور

- سنة ١٩٥٩:

"إن درجة احتمال حدوث التطور فعلا، لا يتجاوز درجة احتمال وقوع أية حادثة نستطيع مشاهدتها"، ويضيف كذلك: "إن أهم مشاكل نظرية التطور تنقسم إلى مجموعتين: تتعلق أولهما بميكانيكية التطور، وتتعلق الأخرى ب"تفرد" الإنسان وخصوصيته".
 وهذا اعتراف مهم من قبل شخص أمضى حياته يدافع عن نظرية التطور.

الداروينية ونظرية الاحتمالات:

الصدفة وأثرها:

لقد كان للفلاسفة القدماء عذرتهم، عندما تصوروا (مثل ما فعل **Démocritus**) أن المادة الأبدية (الخالدة) تدخلت لتوجد الأنظمة الكونية، وكل شيء في الكون وكل الأشكال الحية والجمادة، ولم يكن لدى ديموقريطس أية فكرة عن تركيب الخلية بعكس ما توصل إليه الإنسان حاليا بتكنولوجياته. وهكذا نجد أوبارين **Oparine** (وهو بيولوجي روسي من الماديين المعروفين) يرفض تماما نظرية الصدفة في تكوّن الحياة، حيث يقول:

"إن شبكة التفاعلات الأرضية ليست منسقة تنسيقاً صارماً فحسب، وإنما هي موجهة أيضاً نحو الحفظ والتكاثر في إطار الظروف العامة التي تفرضها البيئة الخارجية، ولا يمكن أن يكون التكيف البالغ التعقيد الذي يميز الحياة وليد الصدفة".

إلا أن القضية المطروحة علينا كباحثين عن الحقيقة هي كالتالي: هل بإمكاننا معرفة قيمة الاحتمال عندما نريد التعرف على دور الصدفة في إيجاد كائن حي؟

ما من شك في أن البحث عن النموذج العلمي الرصين لا يسمح لنا بالاعتماد على قضايا احتمالية، أو التطرق لعنصر الصدفة، لأن الكون يسير فوق نظام معقد ومضبوط ومرتب، لا يعترضه الخطأ أو المصادفة. وبالرغم من ذلك سنبرهن للذين يؤمنون بلغة الأرقام، أن المخloقات لا يمكن إيجادها عن طريق الصدفة.

من أجل ذلك، نفرض حادثة ما "بسيطة"، ويتعلق الأمر بإيجاد بروتين واحد مكون من α حامض أميني.

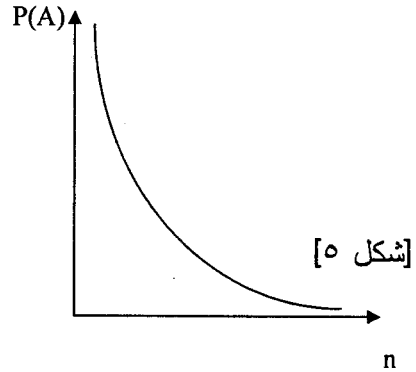
والمطلوب : إيجاد احتمال هذا البروتين عن طريق الصدفة ثم معرفة المدة الزمنية اللازمة لذلك.

البرهان: نعلم أن البروتينات هي عبارة عن توافق (Combinaison) عدد من α حامض أميني، أو بمعنى آخر يمكن اعتبار البروتين بمثابة لفظة، تكون أحرفها مشكلة من مجموعة مؤلفة من ٢٠ حامض أميني (التي تدخل في تكوين جميع الكائنات الحية) وعليه، إذا أردنا الحصول على بروتين واحد مشكل من ١٥ حامض أميني، بشرط أن تكون الحوامض الأمينية مرتبة، فإن احتمال ذلك يكون هو $\frac{1}{20^{15}}$ أو بمعنى آخر: تكون قيمة العدد الناتج عن عملية الاحتمال عبارة عن العدد $\frac{1}{20^{15}}$ مضروب في نفسه ١٥ مرة.

أو بمعنى آخر، يكون احتمال البروتين الذي يتطلب n حامضا أمينيا والذي حصل عن طريقة الصدفة هو: $P(\alpha) = \frac{1}{20^n}$

وواضح أنه كلما كبر n فإن $P(\alpha)$ يصغر صغرا كافيا، ويمكننا قراءة ذلك التحول كما هو بالشكل أسفله (شكل ٥)

$n = 1$	$P(A) = 0.05$
$n = 2$	$P(A) = \frac{1}{20^2} = 0.0025$
$n = 3$	$P(A) = 1.25 \cdot 10^{-4}$
$n = 100$	$P(A) = 78.88608702 \cdot 10^{-132}$



وهكذا نلاحظ أنه كما كبر العدد n ، يقابله عدد صغير يتجاوز القيمة "صفر" (يمثل احتمال الحالة المطلوبة) والنتيجة الأولى التي يمكن الخروج بها من الشكل $-5-$ ، هي أن الصدفة لا تستطيع صنع نموذجاً أو كائناً إلا إذا كان وراءه قوة مسيرة ومبرجة.

ولتوضيح هذه الفكرة بشكل أكبر (لأن الشخص العادي لا يستطيع إدراك قيمة العدد الناتج عن العمليات الحسابية)، لا بد من البحث عن الزمن اللازم للحصول على بروتين واحد مؤلف من α حامض أميني، والناتج عن طريق الصدفة.

تطبيق: لنفرض جدلاً، نريد الحصول - عن طريق الصدفة - على بروتين واحد (وليكن A) مشكل من 10 حامض أميني.

$$\frac{1}{10^9 * 10240} = \frac{P(A)}{20^{10}} = \text{فسيكون احتمال ذلك هو:}$$

إذا فرضنا جدلاً أن كل حادثة من الحوادث الجزئية تتحقق في ثانية واحدة، فإن عدد الشوائب الكلية لجميع الحوادث هو $10^9 * 10240$ ث وهذا يوافق 324708 سنة.

معنى ذلك أن احتمال الحصول على بروتين واحد مؤلف من 10 حامض أميني عن طريق الصدفة، يتطلب زمناً مدته 324708 سنة. أما إذا أخذنا بروتينا واحداً مؤلفاً من 100 حامض أميني فإن المدة الزمنية الموافقة لذلك هي:

$$10^{50} * (3,24708) \text{ سنة.}$$

وبما أن عمر الكون لا يفوق $10^9 * 16$ سنة. معنى ذلك، أن الحصول على بروتين واحد مؤلف من 100 حامض أميني - عن طريق الصدفة - يحتاج أكثر من

$$10^{41} * (3,24708)$$

١٦ عدد مرات خلق وموت الكون

فكيف يكون عليه حال عقل القارئ حينما يتعلق الأمر بخلق المجرات عن طريق الصدفة.

نتيجة: إن كل شيء خلق بقدر من عالم مدبر الأمور هو رب العالمين، وصدق سبحانه وتعالى حينما يقول: ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ﴾ [تبارك - 6].

الداروينية والتوراة:

بعدهما تطرقنا للجانب العلمي، وأوضحنا أن فكرة الصدفة - علميا - لا تنتمي للساحة العقلية، وأنها مجرد فلسفة عابرة، سوف نقوم الآن بعرض ما ورد من أفكار في كل من كتاب التوراة والإنجيل.

يعتبر الجزء الأول من التوراة "سفر التكوين Genèse" من أهم الكتب الموجودة في التوراة، وهذا الكتاب يحكي قصة الكون منذ نشأته إلى استقرار أولاد يعقوب في أرض مصر، مروراً بـقصص بعض الأنبياء مثل إبراهيم...

إن الذي يهمنا هنا هو معرفة النصوص التي تتطرق لقصة الإنسان وتطوره، ثم هل هناك تناسق بين العلم وسفر التكوين فيما يخص موضوع التطور. من أجل ذلك، نقرأ النصوص التي تتحدث عن الإنسان في سفر التكوين:

١. في الإصحاح الأول: الفقرة ٢٦/٢٧

ملحوظة: أوردنا النص باللغة العربية كما هو مكتوب في الكتاب المقدس.

"وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدواب التي تدب على الأرض. فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه ذكراً أو أنثى خلقهم، وقال لهم اثمروا واكثروا واملئوا الأرض وأخضعوا لها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء، وعلى كل حيوان يدب على الأرض."

٢. الإصحاح الثاني: الفقرة ٧

"وجعل الرب آدم من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية."

وهكذا يتضح لنا من النصين السابقين ضرورة التركيز على حقيقة أساسية وهي أن الكتاب المقدس لم يعطنا فكرة أساسية عن جنس المخلوقات وعلى شكله.

بالإضافة إلى ذلك فهو لم يعطنا صورة واضحة عن المخلوقات التي سبقت الإنسان الحالي أمثال

AUSTRALOPITHECUS

آدم وحواء (سفر التكوين ١: ٢٧):

اليوم السادس: الحيوانات المتوحشة - الحيوانات - الزواحف - الإنسان.

اليوم الخامس: الطيور - الأسماك.

اليوم الرابع: الضوء الأكبر والأصغر - النجوم.

اليوم الثالث: الأرض - البحر - الأعشاب - الأشجار.

اليوم الثاني: السماء.

ملحوظة هامة: تناول التقويم اليهودي (الذي يركز على مصادر توراتية) مسألة بداية الخلق،

الذي يحدد في ٥٧٦٤ سنة، وطبعا هذا تقدير يناقض الواقع والحقيقة، مما يدل على أن الكتاب المقدس

كتبه إنسان وليس بوحى من الله كما يدعى البعض.

نتائج:

١. التوراة ليست وحيا من عند الله (نظرا للأخطاء العلمية المرتكبة).
٢. بما أن التوراة ليست فيها ما ذكره القرآن الكريم، فإن هذا يفند الفكرة القائلة أن القرآن الكريم نسخ الآيات من التوراة.

خاتمة:

يتضح لنا مما تقدم، أن رب العزة قد وهب الإنسان العقل، الذي هو المستقبل لكل العبور نحو منطقة التحكم الإنسانية ليكون في مستوى الخلافة، ثم علمه الأسماء كلها التي تتعدى أدوات العيش والمعيشة لتشمل العلوم والتكنولوجيا.

وبما أن دين العقل هو دين العلم الإلهي، إذ به يزداد الإنسان يقينا إلى خالق هذا الكون، خاصة إذا أحس الفرد أنه استطاع بإمكانياته المتواضعة اكتشاف أو برهنة سر من أسرار هذا الكون، فإن محصلة العمل العقلاي هذه وديناميكيته، سوف تكون لا محالة السبب للانتقال - بصاحب العقل - من مجال الكمون إلا مجال الحركة، إلى عالم تنبض فيه الحياة التطورية والأخلاق.

لأن الإسلام مهد الطريق للعقل، ليمارس وظيفته في العالمين، من العالم اللامتناهي في الصغر إلى العالم اللامتناهي في الصغر ليمارس وظيفته في الكونين إذ:

١. رفض التقليد والتبعية الفكرية، لأن هذه الأخيرة تحيد المسلم عن جادة الطريق، فلا يستطيع وقتئذ أداء رسالته التاريخية في بناء المجتمع الإسلامي، وتدفع به في متاهات حيث تسقط الأدوار الرئيسية للعقل، وينتج عن ذلك التقوقع والغربة، ومن ثم تموت شخصية المسلم.
٢. أمر باتباع دين الله والارتكاز عليه في كافة مناحي الحياة، فالآيات الإيمانية التي قرأناها تعتبر بندا من بنود الثقافة الإسلامية والعقيدة الراسخة، لا شك وأنها ستساهم في تصحيح مسار العقل، وخاصة لدى بعض جهات المجتمع العلمي التي ما زالت يتشبث بالداروينية.

المبحث الثاني: القرآن الكريم والقراءة العلمية

إن مشكلة التطور لا يهم أهل الاختصاص فقط، وإنما يهم كذلك الباحثين في الجانب الروحي، لأن الإنسان عبارة عن محصلة محورين أساسيين:

١. المحور الأول وهو الجانب المادي.
٢. المحور الثاني وهو الجانب الروحي.

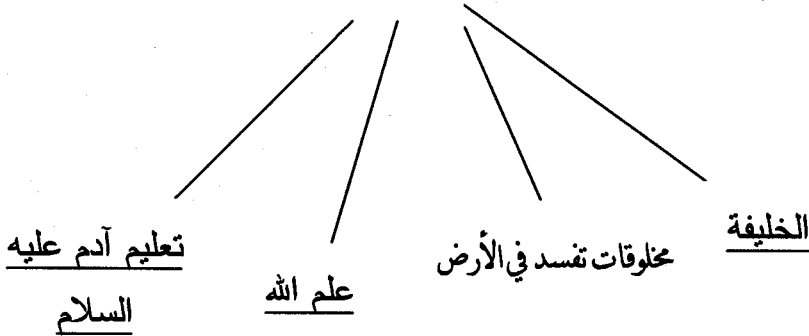
ثم إن الركيزة الأولى التي ينبغي للباحث أن ينطلق من أرضيتها، هي أن الإنسان وكل شيء في الوجود مخلوق، يسير وفق معادلات رياضية لا يعلمها إلى صانعها، أما تفاصيل نشوء الكون وبداية الإنسان الآدمي، فليس هناك نص صريح سوى ما جاء به كتاب الله عز وجل.

وحتى تكون دراستنا دراسة موضوعية علمية وعقلية، فإنه من الواجب علينا أن ننظر ونقرأ ونتعرف على ما جاء به القرآن الكريم حول هذه المسألة، لأن كتاب الله عز وجل منظومة تتميز بكل الخصائص، ويشكل مجالاً ترتبط فيه المادة بالروح، وتتداخل في أجوائه جميع الفعاليات الفكرية والروحية، وتنتهي في سطورها كل تساؤلات الحيارى الباحثين عن الحقيقة.

لذلك يجب قراءة الآيات الكريمة المتعلقة بخلق الإنسان منذ بدايته، لتعرف على سطور تاريخنا، حيث يقول سبحانه: "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة" [البقرة: ٣٠].

قصة الإنسان

في
القرآن الكريم



مصداقا لقوله سبحانه:

﴿ وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون، وإذ قلنا للملائكة أسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين، وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين، فتلقى آدم من ربه كلمة فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾. [البقرة ٣٠-٣٧]

يتميز الدين الإسلامي عن سائر الأديان بشموليته، إذ يُعتبر الدين الكامل الذي احتوى بعلمه جميع الأديان السماوية من جهة، فضلا عن شمولية طرحة في كل ما يتعلق بعناصر الكون، سواء كانت مادية أو لا مادية، ممتدة في عالم المادة أو في عالم الغيب.

جاء القرآن يتطرق لكل القضايا الأنتروبوكونية، ويعالجها وفق نظام متماسك البناني، ومتناسق في عقد أصنافه (Noeuds des classes - حسب التعبير الرياضي الاحتمالي) التخصصات المختلفة.

فذلك يوجه ربنا العظيم أنظارتنا لكل ما يحيط بنا - (وهنا نستخدم لفظة "الكل") - مستخدما منهجه القويم حيث يقول: ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ [الأنعام-٣٨].

ومن بين القضايا التي ظلت وما زالت تشغل فكر الإنسان، نذكر بالخصوص قصة الإنسان وبخاصة فكرة "التطور"، بالرغم من كل ما يقال عنها - من طرف البعض - بأنها أصبحت في عداد المفقودين، لكن ومع ذلك، فما زالت أطروحاتها الجديدة تستأثر باهتمام الباحث والمثقف والشباب والإنسان العادي جميعا، الذين يربطون عالم الفكر الموجود بالإطار الإخباري المتداول.

في هذا الإطار ارتأينا، (أنه من المفيد جدا وخاصة في ظروفنا الراهنة)، طرح ومناقشة قصة الإنسان المتشابك الأطراف، من خلال آيات بداية خلق الإنسان [البقرة - ٣٠]، حتى يتعرف الإنسان العادي على آخر المستجدات في هذا الفضاء، الذي يحتاج منا أو من غيرنا إلى المزيد من الأبحاث والدراسات في معرفة حقائق أمور هذه الإشكالية، لكي يتمكن من بناء نظرية عقلانية مخبرية تطبيقية، يمكنها أن تكون صالحة لكل زمان ومكان، خاصة وأن الألفية الثالثة التي نعيش فيها، تفرض علينا تحديات كبيرة لا مفر لنا من مجابتهها، ولا يجوز لنا بأي حال من الأحوال أن نكون مجرد مستهلكين لمنتجات الغرب، بل يجب علينا المشاركة بفعالية في كل التطورات العلمية، وترشيح القضايا الفكرية التي تخرج من فضاءات المحافل العلمية أو الفلسفية، ومن بينها الداروينية التي تعتبر علامة سوداء على طريق مسيرة الإنسان الحضارية.

كما سبق وحتى تكون إسقاطاتنا متينة، لا بد وأن نعتد على الآيات الكريمة من سورة البقرة من الآية ٣١ إلى الآية ٣٨، لأنها ستشكل لنا فضاء النقاش العقلاني والعلمي لكل الخوارزميات المتعلقة بخلق الإنسان وطبيعته.

المحور الأول

﴿ إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ [البقرة-٣٠].

وقبل بداية المسيرة، لا بد من طرح بعض الأسئلة نذكر منها:

أولا: ما هي طبيعة وأصل الإنسان ؟

ثانيا: ما هو تعريف الإنسان الذي ستوكل إليه مهام الخلافة في الأرض ؟

ثالثا: ما هي المراحل التي سيمرّ بها الإنسان منذ تكوينه ؟

إن التحليل العلمي للآيات الكريمة للخليفة، توضح لنا وجود محاور أساسية أطلقنا عليها اسم القواعد، نظرناها على الشكل الآتي:

القاعدة الأولى: طبيعة خلق الإنسان

قبل الفوص في أعماق الآية الكريمة الأولى (رقم ٣٠ - سورة البقرة)، نلاحظ أن في كتاب الله عز وجل، آيات تكون مكملة في تفسيراتها لآيات أخرى، أي بمعنى أن القرآن يفسر بعضه البعض.

وهكذا نجد آيات تقوم بتوضيح الآية رقم ٣٠، نذكر منها الآية: ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين ﴾ [ص-٧]. ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ [السجدة-٧].

من هذين الآيتين الكريمتين يتضح لنا أن الله سبحانه وتعالى ربط هذا المخلوق - آدم عليه السلام - بعناصر الوجود ونقصد بذلك مادة الطين [السجدة-٧] ثم ينفخ فيها رب العالمين، لكي تقوم بتأدية دورها المنوط بها، مصداقا لقول سبحانه: ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ﴾ [الحجر-٢٩]، فتكون محصلة (Résultante) الآيتين من سورتي السجدة والحجر، هي ظهور آدم عليه السلام في أحسن تقويم، والذي سجدت له الملائكة عندما أمرهم رب العزة بذلك، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ فقعوا له ساجدين ﴾ [الحجر-٢٩].

نستنتج من ذلك أن القرآن الكريم يوضح لنا طبيعة خلق الإنسان في مرحلته الأولى، فهو:

أ- من طين:

﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ [الروم-٧].

﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين ﴾ [ص-٧١].

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال ءأسجد لمن خلقت طينا ﴾ [الإسراء-٦١].

﴿ هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا ﴾ [الأنعام-٢].

﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من العالين قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ [ص-٧٦، ٧٥].

ب- من صلصال:

- ﴿ وأن قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون ﴾ [الحجر-٢٨].
- ﴿ قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ﴾ [الحجر-٣٣].
- ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ﴾ [الحجر-٢٦].
- ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾ [الرحمن-١٤].

ح- من تراب:

- ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ [الروم-٢٠].
- ﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ﴾ [الكهف-٣٧].
- ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة... ﴾ [الحج-٥].

د- من الأرض:

- ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ﴾ [النجم-٣٢].
- ﴿ ولقد أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ﴾ [نوح-١٨، ١٧].
- من الآيات الكريمة نتوصل إلى الحقيقة الأولى:

الحقيقة الأولى: أصل الإنسان من طين

البرهان المخبري على طبيعة خلق الإنسان:

إذا قمنا بدراسة علمية ومخبرية لجسم الإنسان ووضعنا جميع عناصر الجسم تحت المجهر، لأدركنا على أن العناصر التي تدخل في تركيب جسم الإنسان، هي نفس العناصر التي تدخل في تركيب الطين، مع اختلاف في المقادير بكل منها، ويكون ذلك على الشكل الآتي:

أ- العناصر التي تدخل في تركيب جسم الإنسان هي: الأوكسجين، الكربون، المانغسيوم، الحديد، المنجيز، اليود، النحاس، الصوديوم، الفسفور.

ب- العناصر الأخرى التي تدخل في تكوين جسم الإنسان، ولكن بشكل ضئيل جدا، منها الفلور، البور، السيلينيوم، الألومنيوم، الكروم والكاديوم.

وبشكل عام، يمكننا القول بأن نسبة العناصر في جسم الإنسان تختلف باختلاف وظائفها.

فالماء مثلا، يشكل نسبة عالية في الجسم تصل إلى ٧٤% كغ من جسم الإنسان، كما أن الكالسيوم والفسفور مثلا يكوّنان الهيكل العظمي لجسم الإنسان، وبالتالي فإن نسبتتهما تكون كبيرة في الجسم.

ثم إن غذاء الإنسان من الأطعمة، سواء كانت نباتية أو حيوانية، فإنها تأتي كلها من تربة الأرض، وعندما يموت الإنسان فإنه يتحلل ويعود إلى عناصره الأولى التي تشكل وتطابق عناصر الأرض.

نتيجة: [الإعجاز العلمي الأول]

وهكذا نلاحظ أن الحياة في الطبيعة تكون دورية، وصدق رب العالمين وهو أصدق القائلين: ﴿ منها خلقاكم وفيها نعيدكم ﴾ [طه-٥٥].

وهناك ملاحظة هامة لا تقل أهمية عن سابقاتها، ألا وهي أن القرآن الكريم يوجهنا نحو آية لها مكانة عالية - إن كنا في مستوى العقلاء - حيث يقول سبحانه عز وجل: ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ [المؤمنون-١٢]، يرى بعض المحدثين في هذه الآية أن السلالة ترمز "للصفوة المنتقاة والمختارة المصفاة" ولقد جاء ذلك على لسان فضيلة الشيخ محمد بن فتح الله بدران- رحمه الله تعالى - في كتابه "الفطرة والعقيدة".

أما بالنسبة لنا فإن هذه الآية توضح بشكل جلي وبخبر مخبري يقين، على وجود أنواع من الطين، وهذا ما يعرف حديثا بعلم التصنيفات (Taxinomie) حيث توصلت مجموعة من الباحثين في كاليفورنيا (مختبر بقاعدة Nasa الأمريكية في منتصف الثمانينات) إلى وجود ثمانية أنواع من الطين في الطبيعة (حسب قوهم)، بعضها يمكنه أن يساهم في خلق العناصر التي تدخل في سلسلات من المركبات البروتينية والتي تعتبر من المكونات الأساسية لتكوين خلايا الجسم الحي، (لزيد من المعلومات أنظر كتابنا: الداروينية بين القرآن والعلم ١٩٩٣).

وبالطبع لم يتمكن العلماء تجاوز منطقتهم العقلية الإنسانية لإعطاء تلك السلسلات الروح حتى تقوم بالدور الطبيعي المنوط بها، لأن طاقتهم محدودة، وعلمهم محدود ومحصور في مجال ضيق، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ [الإسراء-٨٥].

وفي ذلك تأكيد على أن ما جاء به القرآن لأولئك القوم، إنما جاء ليثبت حقيقة الوجود والخالق، وأن التضاريس الكونية سواء كانت في عقل الإنسان أو في الطبيعة إن هي إلا نتيجة ميكانيزمات الوجود بأكمله.

نتيجة: [الإعجاز العلمي الثاني]: أصل الإنسان من تراب

نلاحظ أن ما ذكره القرآن الكريم منذ قرابة خمسة عشر قرنا، فيما يخص بنية الإنسان الأصلية وأصل الإنسان - يطابق العقل والتجربة المادية والحقيقة الروحية الخالدة، وليس من فصيلة القردة أو المخلوقات Australopithècus. كما يدعي البعض.

القاعدة الثانية: الخليفة أو صفات المخلوق كما أرادها رب العالمين لعبده

هنا يتحكم علينا تبيان مسألة جديرة بالاهتمام، ألا وهي الخلافة التي أوكلها ربنا جل شأنه لهذا المخلوق آدم عليه السلام فما هي الخلافة إذن ؟

إن الخلافة - حسب علماء اللغة - هي كل من يخلف غيره في أمر من الأمور، بقول القرطبي رحمه الله: "والمعنى بالخليفة هنا في قول ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل، آدم عليه السلام".

أما الطبري عن الحسن البصري - رحمهما الله - يقول إن المراد بالخليفة هم أولاد آدم الذين يخلفون آباءهم آدم، ويخلف كل قرن منهم القرن الذي سلف قبله" كما يقول "الخليفة من قولك خلف فلان فلانا في هذا الأمر، إذا قام فيه مقامه".

ثم إن الإمام ابن كثير - رحمه الله - يقول شرحا في الآية، [البقرة- ٣٠] : "أعلم بما يريد أن يخلق من آدم وذريته الذين يختلف بعضهم بعضا كما قال ﴿ هو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ [الأنعام- ١٦٥]."

فأخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته كما يخبر بالأمر العظيم قبل كونه".

ومن هنا، فإن مسألة التسمية تستحق التعمق فيها بكل الأدوات التي تملكها، حتى نكون في مستوى الذين سينعم الله عليهم يوم القيامة - إن شاء الله تعالى -، لأن تسمية آدم في سياق الأخبار بخلقه كانت تسمية بوظيفته المنوطة له ألا وهي الخلافة، التي تعتبر المهمة الوجودية للإنسان، كما أن لفظة "جاعل" تبين لنا عملية التغير في الصيرورة (أي لم يكن من قبل فأصبح خليفة).

وبقي علينا معرفة صفات الإنسان التي أرادها الله سبحانه وتعالى لعبده وكذلك الصفات التي يجب عليه أن يتحلى بها.

إن أول أمر وحقيقة يقدمها لنا رب العالمين هي: "العبادة"، مصداقا لقول رب العالمين: ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾. [الذاريات- ٥٦] والعبادة هنا لا تنحصر في إطارها الديني الضيق لتشمل الصلاة والزكاة والصيام والحج فقط، وإنما تتعدى ذلك لتشمل كافة مرافق الحياة، سواء كانت مخبرية أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو روحية... ويمكننا تلخيص ذلك في الخصائص الآتية:

١- أن يكون في أحسن تقويم وأبهى صور الجمال الروحي، ونقصد بذلك كل الخصال الإسلامية من:

١-أ: تسامح: ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ [البقرة- ٢٣٧].

١-ب: الإخاء: ﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾ [الحجرات- ١٠].

١-ح: صبر: ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم ﴾ [الأحقاف- ٣٥].

١-د: جعل الناس سواسية: ﴿ يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى ﴾ [البقرة- ١٤٣].

١-هـ: الإحسان: الذي يعتبر من العناصر الأساسية التي سأل جبريل عليه السلام نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم، حينما قال له: "وما الإحسان"، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك من حيث لا تراه". [حديث جبريل عليه السلام].

لذلك جعله الله سبحانه أمراً، حيث يقول: ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ﴾ [النحل- ٩٠] وهناك من يقول، ولماذا قسم الفقهاء الأحكام الراحية إلى معاملات وعبارات. نقول: إن ذلك جاء كمصطلح للتفريق بين شعبتين لها نفس العقدة (noeud) - حسب التعبير الرياضي-.

٢- تحمل الأمانة التي أبت كافة المخلوقات تحملها ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ [المعارج- ٣٢].

٣- معاملة الناس بالخلق الحسن ﴿ وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾ [القصص- ٧٧].

٤- ألا يحرم نفسه من ثمرات الحياة وخيراتها ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ [البقرة- ١٧٢]، كما يقول جل جلاله: ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ [القصص- ٧٧].

٥- وأن يكون في أحسن وأهمي صور الجمال المادي والأناقة البدنية: ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ [الأعراف-٣١]، كما يقول: ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ [التوبة-١٠٨].

٦- أن يطلب العلم، وهذا يشكل الأداة الأساسية لعبادة الله عز وجل، حيث يقول سبحانه: ﴿ لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك ﴾ [النساء-١٦٢].

كما يقول معلمنا الأكبر محمد ﷺ: "اطلبوا العلم من المهد إلى الحد" و "طلب العلم فريضة على كل مسلم".

٧- التجارة وكافة المهن: وبما أن الله فرض علينا العبادة، فهي تسمح المجال الزمكاني اليومي، من صلاة وصيام وفرائض أخرى، بما في ذلك الدراسة والتجارة والسعي من أجل كسب الرزق، مصداقا لقول رب العالمين: ﴿ إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾ [الجمعة-٩].

وهكذا نجد في لفظة الخلافة، الإطار الشامل للإنسان السوي، الذي سيقم شرع الله، ويتصف بالخصائص والسلوكيات المدرجة في فضاء التعليمات الإسلامية التطبيقية.

فإذا راعى المؤمن هذه الخصائص، كان في عمله عبادة، وإن لم يكن في المسجد.

فمن كعب بن عجرة، قال: مر على النبي ﷺ رجل فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جده ونشاطه، فقالوا: "يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله؟ فقال: إن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان". [قال المنذري: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح].

فهذا الإنسان الذي يتميز بالخصال السالفة الذكر، هو الذي يستحق لفظة الخلافة التي سيتحملها في مجاله الحركي الزمكاني، وهو كذلك المخلوق الذي سجدت له الملائكة إلا إبليس، بأمر رب العالمين، فهل يعقل أن تسجد الملائكة لمخلوق أصله من قرد؟

■ الحياة الأبدية: مجال يبتدئ من الحساب إلى ما شاء الله [b, →] ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴿ [الجمعة-٨].
وأخيراً: ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم ﴾ [الواقعة-٩، ١٠]

الحقيقة الثانية: مصطلح التطور في القرآن الكريم يختلف عن مصطلح التطور في الفكرة الداروينية

المحور الثاني

مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ [البقرة-٣٠].

إن منهجية القرآن الكريم في التحدث عن أشياء في الطبيعة، ووصفها أحياناً وصفاً دقيقاً، من شأنها حث عقل الإنسان على القيام بالبحث العلمي، سواء كان ذلك في مخنبرات البيولوجيا، أو داخل المسرعات النووية (Accélérateurs)، أو حتى داخل الأرض، كما يبينها لذلك رب العالمين، حينما يقول: ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ [العنكبوت-٢٠].

وفي ذلك إشارة واضحة للقيام بالبحث المخبري وعلى كافة المستويات، وكذلك قراءة الصخور والجبال التي تنطق وتوضح لنا حركة التاريخ وديناميكيته مهما بعدت عنا أحداثه، ومهما تسلسلت وتشعبت.

وها نحن اليوم مع آية عظيمة، توجه أنظارنا نحو فضاء المخلوقات التي سبقت آدم ~~عليه السلام~~ تاريخياً، والتي انفردت بالفساد وسفك الدماء، فكيف يا ترى يمكننا توضيح وشرح ذلك؟

إنه لمن الصعوبة بمكان تحديد عمر الإنسان أو المخلوقات التي سبقت، أو حتى التسلسل التطوري - حسب تعبير علماء الغرب - هذه المخلوقات التي أطلق عليها اسم (Australopithécus).

ثم إن الصعوبة التي لقيها العلماء تكمن في:

١- العينة (الصفيرة الجسم) التي حصلوا عليها إلى يومنا هذا، والتي لا تسمح لهم بالقيام بدراسة علمية مجال زمني يفوق ستة ملايين سنة.

٢- تنوع العلوم المرتبطة بعلم المستحاثات (Paléontologie) والتي تشتمل على:

أ- علم الحفريات (Archéologie)

ب- علم مستحاثات الإنسان (Paléontologie)

ج- البيولوجيا الجزيئية (Biologie-Moléculaire)

وبالتالي فإن الدراسة المخبرية في الاتجاهات الثلاثة، سوف تطرح عدة إشكاليات على مستوى التجانس والقوانين اللازم بناؤها من أجل الخروج بنظرية موحدة، شأنها في ذلك شأن إشكالية القوى الأربع الكونية (Théorie de Trois Corps).

لقد طرحت قضية البحث في أصل الإنسان عدة إشكاليات، إذ بدأت في الآونة الأخيرة، ظهور أصوات تعلن في مضمونها ضرورة استقلالية سلالة الإنسان عن باقي الأنواع الأخرى - فصيلة القروود والمخلوقات التي تنتمي لسلالة Australopithécus.

ويظهر ذلك جليا في جامعة BERKELY بكاليفورنيا، حيث يتحدث العلماء عن الإنسان الحديث (Homo Sapiens Sapiens)، ويحاولون البرهان على ظهوره في إفريقيا منذ ٣٠٠,٠٠٠ سنة (منطقة أرتيريا والسودان والحيشة)، ومن هناك انتشر ليحتل بقاع العالم (أنظر المجلة البريطانية "Nature" رقم ٣٢٥ R.CANN ١٩٨٧).

وهناك من يقول، إن اختلاف وجهات النظر بين علماء ميدان الإنسان القديم لا يمكن رده إلى نقص في المعطيات، بل يرجع إلى التطاحن في نوعية الأبحاث التي يقوم بها العلماء، والتي تركز بالدرجة الأولى على المنهجية المتبعة، ودراسة سلالات الدم وعلم فلسفة العلوم، وتكون النتيجة في آخر المطاف انقسام العلماء في الآونة الأخيرة ١٩٩٣ إلى قسمين:

أ- قسم يفرق بين الاثنين، ويؤكد فترة وجود سلسلة من التغيرات التي حدثت للمخلوق

NEANDERTHAL

ب- وهناك فئة معينة من الباحثين، تكثف كل جهودها على إنشاء تصنيفات الهياكل المحصل عليها (Classification) بغية بناء نظرية معينة، ونقصد "التطور".

إن الهدف من هذا البحث، هو إظهار الرؤى المختلفة للباحثين، سواء تعلق الأمر بالفئة المساندة أو الفئة المعارضة للداروينية حتى يكون القارئ والباحث على بينة واطلاع بشيء من مناحي الإشكالية. لذلك نورد بعض القراءات والملاحظات في الفقرات الآتية:

الملاحظة الأولى:

وجود ثلاثة مخلوقات في حقبة زمنية واحدة لا تتعدى مليون سنة، هذه المخلوقات هي:

Homo و Africanus Homo Habilis, Homo Australopithecus

Rudolefnis وهي مخلوقات جهاجها تشبه جهاجم الغوريلا.

وهذا الوجود يتناقض ومصطلح "التطور"، الذي ينص على أن الطبيعة لا تحتفظ إلا بالمخلوق الأكثر تطورا، أما الأقل تطورا فإنها تعمل على القضاء عليه.

الملاحظة الثانية:

نلاحظ أثناء دراستنا لتسلسل الزمني للمخلوقات الأولية، أن هناك تضاربا بين الباحثين

المتخصصين في علم المستحاثات، نذكر منهم على سبيل المثال لا للحصر الأمريكي **Donald**

Jhonson من جامعة **Berkely** (أمريكا)، والفرنسي **Yves Coppens** أستاذ بـ

Collège de France، عضو الأكاديمية الفرنسية للعلوم، حيث يتناقضان فيما بينهما حول الجد

الأول للمخلوقات التي تشبه القردة، ونخص بالذكر فصيلة **Austrolopathécus Afarensis**

(نتائج أبحاث يوليو 1994).

أنظر كذلك البحث في مجلة ١/٤/١٩٨٤ Science et Avenir H.S. وكذلك كتاب: Les mécanismes de l'évolution. Ed. Dunod, 1979, Paris.

أنظر مجلة Science et Avenir رقم ٥٦٩ شهر يوليو ١٩٩٤.

أنظر مجلة Science et Avenir رقم ٥٩٠ شهر أبريل ١٩٩٦.

أنظر مجلة La Recherche رقم ٢٦٣ شهر مارس ١٩٩٤.

الملاحظة الثالثة: وهي المتعلقة بفضاء الجينات

يقول العلماء: "هناك اختلاف في الحامض النووي بين الإنسان والمخلوق نيوندرتال (Neanderthal) الذي يقول عنه البعض بأنه أصل الإنسان مجلة (Science et Vie p553/2003)

وكذلك: (Science et Vie - 4/1996)، (Science et Avenir - 1/2002)، (Pour la science – n°95- 1985, p.48)

مما يدل على أن النظريات القديمة التي طرحت في مجال أصل الإنسان تشوبها هفوات كثيرة نظرا لقلّة الأدلة من المستحاثات، بالإضافة إلى علم الوراثة الذي يطرح إشكاليات كثيرة للفكرة الداروينية (تمايز بين القواعد الأمينية للإنسان والقواعد الأمينية لمخلوق Neanderthal).

الملاحظة الرابعة: وهي المرتبطة بالانترولوجية الجزئية

يقول David Pilbeau من جامعة هارفرد (USA-Harvard) "الآن يمكننا الجزم بأن الجزئيات يمكننا الاستفادة منها للحصول على معرفة مجموعة الأخبار التي تجعل الفرق بين القرد والإنسان كبيرا" (La Recherche N°236 p:1244- 10/1991) وكذلك (Recherche N°277- p: 1245-1995).

الملاحظة الخامسة: الصدفة ودورها في خلق الإنسان

لقد بينا سابقا أن الصدفة لا يمكن الاعتماد عليها من أجل قضية كثيرة التعقيد، وهذا ما يمكن قراءته في المقال الآتي: "مجلة Science et vie – N°1026 – 3/2003".

الملاحظة السادسة: منطلق الخلق

هناك مشكلة كبيرة تعتبر تحديا للعقل البشري، ويتعلق الأمر بمعرفة المادة الحياتية الأولى، وكيف تطورت؟ وهل هي ذاتية الحركة؟

الملاحظة السابعة: مفهوم التطور عند الشباب

كثيرا ما يطرح الشباب إشكالية الآية الكريمة: ﴿فلنأمرهم كونوا قردة خاسئين﴾ [البقرة- ٦٥]، ﴿فلما عتوا عن ما أمروا به قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ [الأعراف- ١٦٦]، ويقول إن ذلك معناه أن القردة أنشأت مخلوقات أخرى (سلالتها) هي سلالة الإنسان.

وهنا نقول للشباب الذي يفكر بهذا التفكير، إن الأمر يكون سهل المنال عندما نقرأ بعقولنا أحاديث رسول الله ﷺ ومعلم الإنسانية.

فمن ابن كثير، يقول في تفسيره لسورة المائدة الجزء ٢-:

"عن ابن سفيان النوري، عن علقمة بن مرقد، عن المغيرة بن عبد الله عن المعرور ابن سويد عن ابن مسعود قال، سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنزير، أهي مما مسخ الله تعالى؟ فقال: إن الله لم يهلك قوما أو قال: لم يمسخ قوما فيجعل لهم نسلا ولا عقبا وأن القردة والخنزير كانت قبل ذلك" [رواه مسلم في تفسير البقرة (١٠٦/١٠٧ ح: ١١)].

وقال الضحاك عن ابن عباس: "فمسخهم الله قردة بمعصيتهم" يقول: "إذ لا يحيون في الأرض إلا ثلاثة أيام، قال ولم يعيش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب، ولم ينسل" [الحدِيث...].
جاء هذا في معرض تفسير قوله سبحانه: ﴿ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنزير وعبد الطاغوت، أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل ﴾ [المائدة-٦٠].

ثم إن الذي يهمنا في هذا الموضوع، هو صفة المخلوق التي ذكرته الآية الكريمة وتحدثت عنه الملائكة: ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ [البقرة-٣٠].

هنا نطرح سؤالنا العريض الآتي: هل الملائكة تعلم بالغيب؟

والجواب بالنفي طبعاً، وهذا معناه أن الملائكة تحدثت عن أشياء مستقبلية بناء على مخلوقات شاهدتها، وهي تسفك الدماء وتفسد في الأرض، فكيف يمكننا الوصول إلى ذلك في عصرنا؟

لقد أثبتت بقايا العظام التي اكتشفت في مغارة Perrats في Agris بفرنسا (سنة ١٩٩٢)، على أن المخلوقات التي كانت موجودة في حقبة زمنية قبل ٦٠٠٠ سنة، كانت تأكل بعضها البعض.

ولقد توصل الباحثون لذلك بعدما عثروا على عظام مهشمة بالآلات حادة، هذه العظام كانت لأطفال صغار، كما عثروا على عظام متفحمة، ومقطعة بشكل منتظم، مما يدل على أن المخلوقات كانت تأكل بعضها البعض وهي حية، ومما زاد من مصداقية الأطروحة التي توصل إليها الباحثون، هي أن العظام الصغيرة التي عثر عليها العلماء لم تكن مهشمة بشكل طبيعي بل كانت مكسرة بشكل جيد، وذلك بغية الحصول على نخاع العظام، ولقد أثبتت التجارب مصداقية الأطروحة، عندما اكتشف العلماء نفس الوضعية في كل من مغارة Fontbrégona في Levar ومغارة Gardon في L'ain بفرنسا (بعثة مركز الأبحاث العلمية الفرنسية CNRS ١٩٩٠).

كما نجد **Marston Beaths**، (أستاذ علم الحيوان في جامعة **Michigan** الأمريكية) يقول في كتابه: "**The Lence Preva Of People**": ١٩٩١

"أما فيما يتعلق بإنسان **Sinanthropus** وهو المخلوق الذي يشبه القردة، فقد كانت تبدو على كل جمجمة عثر عليها من هذا المخلوق آثار ضربات شديدة، وكانت عظام الأطراف كلها مشقوقة، وهذا شيء لا يستطيع أن يفعله إلا إنسان يبحث عن النخاع، ويبدو من الشواهد التي تقدمها الأحافير (**Fossiles**)، أن سبب موت إنسان **Pekin**، كان الهدف منه قتل الشخص لأكل لحمه".
نفس النتيجة توصل إليها كل من:

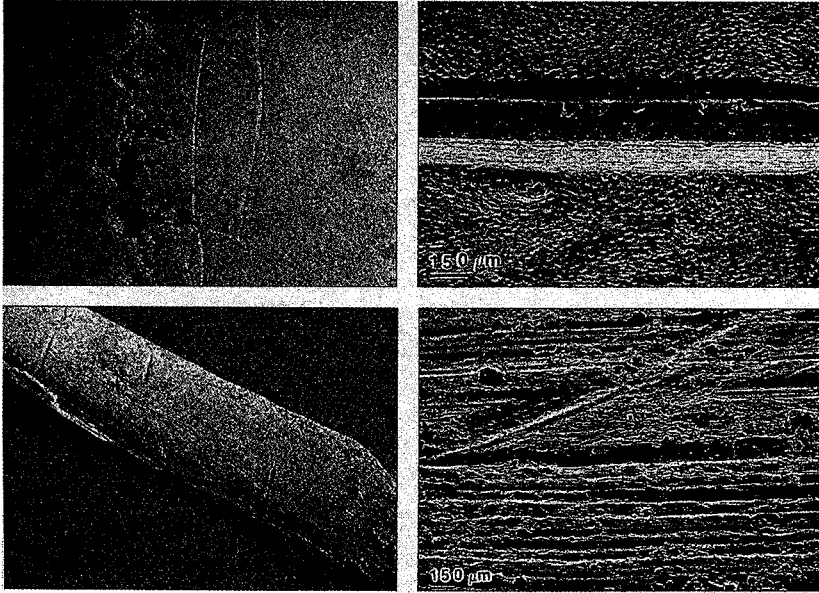
١- **Nichlos Toth, Tim White** من جامعة إنديانا (**Indiana USA**) في مقال: نشر تحت رقم **Current Anthropology 32(2), 118, 1991** في مغارة **Manco** بكولورادو.

٢- **M. Patou-Mathis** في مقالهم: "**Préhistoire européenne**" ١٩٩٧-٦٣ و١٠.

٣- **André le Roi Gourhan** كتاب "**Les religions de la préhistoire**" 1986 **Puf-Paris**، بقايا عظام في مغارة **Krapina** بكرواتيا.

٤- مقالة في **Science et Avenir** رقم ٥٦٤ - ١٩٩٤/٢.
كلها مقالات تؤكد على عثور عظام مفككة ومكسرة بالآلات حادة، مما يدل على أن الكبار كانوا يأكلون الصغار وذلك بتكسير العظام لأخذ المخ بالإضافة إلى بقايا الحيوانات.

ولقد كان من الأولى أن يقوم علماء الإسلام بهذه الأبحاث، ليشرحوا لنا طريقة القتل ومصير المخلوقات السابقة التي فسدت في الأرض، ولكن أين نحن من كلام رب العالمين ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ [البقرة-٣٠].



عظام مكسورة بآلات حادة

[شكل ٦]

الحقيقة الثالثة: الإعجاز العلمي

الفساد في الأرض يتجلى من خلال الآية الكريمة السابقة، أما البرهان عليها، فيكون عن طريق المواد والعظام التي وجدت في المغارات والكهوف (كما سبق ذكره).
وبشكل عام، نلاحظ أنه منذ ١٩٧٠م، والمقالات تكتب حول قضية أكل المخلوقات - التي سبقت آدم ~~الظلمة~~ - بعضهم البعض.

المحور الثالث

﴿ قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ [البقرة-٣٠].

لقد أشار الدين الإسلامي - عند معالجته للقضايا الكونية - إلى قضية أساسية، ألا وهي أن العلم والبحث العلمي يعتبران مصادر التحولات التي تطرأ على المجتمعات، من أجل توليد وضعية أفضل، خاصة إذا كان العلم يصطحبه نوع من الديناميكية الروحية.

وعليه، فمن الواجب على المسلم، استخدام طاقته المختلفة (الروحية والمادية) لمعرفة الكون الذي يعتبر الطريق الوحيد لمعرفة خالق هذا الكون.
والسؤال الذي يبقى مطروحا في كثير من المحافل، سواء كانت إسلامية أو أجنبية، يدور في أغلب الأحيان على نسبية إمكانيات الإنسان العلمية بالنسبة لعلم الحق سبحانه وتعالى.
إن الإطار الشامل للفكرة الأخيرة، هي التي حددها رب العالمين في آيات بينات (نعمل على سردها وفق متتالية (Suite) روحية) حينما قام بإسقاطات أفقية وشاقولية:

١- الإسقاطات الأفقية الجزئية: ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ [المجادلة-١١] والتي تدل على عملية التفضيل بين القوى العقلية المختلفة لكافة الأفراد.

٢- الإسقاطات الزمرية (Groupes) حيث يقول سبحانه: ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ [النحل-٤٣] ثم الحديث النبوي الشريف: "تعلموا العلم وعلموه للناس". ولنا في رسول الله الإسوة الحسنة، حيث تمارى ابن عباس رضي الله عنهما، هو والجر بن قيس بن حصن الفزازي في صاحب موسى، فمر بهما أبي بن كعب فدعاه ابن عباس، فقال إلى تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي يسأل السبيل الذي لقيه، هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه فقال أبي: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: "بينما موسى في ملاً من بني إسرائيل إذ جاءه رجل فقال أتعلم أحدا أعلم منك، قال موسى: لا، فأوحى الله تعالى إلى موسى عبدنا خضر، فسأل السبيل الذي لقيه، فجعل الله له الحوت آية، وقيل له، إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه، فكان موسى يتبع أثر الحوت في البحث، فقال فتى موسى ﴿ رأيت إذ أوتينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾ [الكهف-٦٣].

قال موسى: ﴿ ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصا ﴾ [الكهف-٦٤]. فوجدا خضرا فكان من شأنها ما قصى الله في كتابه".

٣- ثم تأتي الآية الشاملة لتشكيل الإسقاط الكلي الكوني، حيث يقول سبحانه: ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ [يوسف-٧٦].

في هذا الفضاء العقلاني الرباني، سنحاول الوصول إلى بؤرة فضاء بحثنا ألا وهي معرفة الخطوط العريضة لعلم الحق سبحانه، حتى نتعرف على وضعيتنا العلمية، الكونية والميكروسكوبية. يعتبر العلم نظير الجهل، وإذا كان العلم قد مر بمرحلة الكهانة والخطابة والتخمينات إلى مرحلة التفكير الرصين، ودراسة العلوم الكونية، فإننا نجد -حاليا- مازال في طور الإنشاء العقلي والبناء التجريبي، وما أكثر الأدلة على ذلك (الكوارث الطبيعية، حوادث CHERNOVELL أو CHALENGER، المهرطقات الإنسانية الأيديولوجية...).

ويبقى السؤال المطروح هو: ما هي نسبة علم الإنسان بالنسبة لعلم رب العالمين؟ ثم ما هو علم الحق سبحانه حتى نتعرف على وضعيتنا؟

للإجابة على ذلك، يمكننا تبسيط المفاهيم المطروحة - دون اللجوء إلى العلاقات الرياضية - إذ نقول:

يمكننا تمثيل علم الحق سبحانه بمجموعة كلية، ودخلها نجد منطقة صغيرة وصغيرة جدا، تمثل فضاء العلم الإنساني (أنظر شكل - ١ -، وهي المنطقة التي أطلقنا عليها اسم منطقة المعرفة الإنسانية، سواء كانت الحالية أو المستقبلية).

ويمكننا إعطاء نماذج مصغرة لذلك، كي نبين مصداقية منطقة الإنسان النسيبية، وخير دليل على ذلك، ما قاله رب العالمين حينما تحدانا بأن ناتوا بمثل علم القرآن الشامل، على ثلاثة مستويات:

المستوى الأول:

مستوى القرآن الكريم الشامل، حيث يتحدانا بأن تأتي بمثل القرآن الكريم، مصداقا لقوله سبحانه: ﴿ قل لو اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ [الإسراء- ٨٨].

وهو يعلم أشد العلم، أن الإنسان عاجز عن بناء كتاب يشبه القرآن الكريم، ثم يأتي للمستوى الثاني.

المستوى الثاني:

أن ناتوا ولو بعشر سور مثله، مصداقا لقول رب العالمين: ﴿ أم يقولون افتراه، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾ [هود- ١٣] وليس هذا فقط، بل يتحدانا بأن تأتي ولو بسورة واحدة، فرى ذلك في المستوى الثالث.

المستوى الثالث:

أن ناتوا بسورة واحدة مثله: ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ [البقرة- ٢٣] وحاولت قريش والإنسان بشكل عام، أن يعملوا في فضائهما الأنتروبولوجي من أجل الوصول إلى مستوى القرآن المادي والروحي، ولم يستطيعوا. وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على الأفكار الآتية: أولاهما: أن رقعة الإنسان العقلانية تتصف بالحدودية وقصر النظر المعرفي. ثانيهما: أن الآيات الكريمة ذاتها حكمة، وأن فهمها يحتاج لعقل متبصر، ولعيون متفتحة وطاهرة من كل الشوائب.

ثالثهما: وحتى إذا قمنا بمعرفة العلم الذي وصل إليه الإنسان، فسوف نجد من عطاءات الحق سبحانه وتعالى، ولم يرق بعد إلى درجة الكمال، لأن الذي خلق الإنسان هو الله، حيث أهداه العقل الذي يعتبر نوره - كما روى ذلك عن الخاسمي - وأنزل عليه القرآن ليكون دستور الخيري والحياتي (لم نقل المعاشي)، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن علم القرآن هو علم مفتوح في مجال غير محدد العوالم.

وعندما ذكرنا في مقولتنا أن الإنسان لم يرق بعد إلى درجة الكمال، فإنه مازال لم يتعلم علوم القرآن بعد (سواء في ميدان الفقه أو في اللسانيات أو في الذرة أو في الكونيات من فروع كونية ومجرات....)، ويكفي قراءة الآية الكريمة - لتأكد من ذلك - حينما يقول سبحانه: ﴿سنبههم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾ [فصلت-٥٣] ويضيف لذلك الآية الكريمة: ﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾ [المزمل-٤].

من هذا الفضاء، يمكننا الوصول إلى الحقائق الثابتة الآتية:

أ- الإيمان بأن لهذا الكون مسيراً يقوده وفق خوارزميات لا يعلمها إلا هو، هذا المسير هو رب

العالمين.

ب- الإيمان بأن حركة الكون الثابتة والمستمرة على منوال واحد، ووفق نظام موحد، تبين أن

خالق هذا الكون واحد لا شريك له.

ح- الإيمان بأن الكون قد بدأ من نقطة واحدة، معنى ذلك أن هذا الكون حديث الولادة.

د- الإيمان بأن علم الإنسان يقتصر على مجال منطقة محدودة يؤكد علم الله الشاسع.

وهكذا يتبين لنا من الحقائق الثابتة التي تطرقنا إليها، أن علم الإنسان يعمل في مجال ضيق لا

يتعدى ذرة بل أصغر من ذلك بكثير، مصداقاً لقول رب العالمين: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات

ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مداداً﴾ [الكهف-١٠٩].

العلم الإلهي:

ويبقى السؤال المحوري هو: ما هو العلم الإلهي ؟
 يمكننا تعريف العلم الإلهي، بأنه العلم الذي يبحث عن الموجودات كلها، وعندما نستخدم لفظة "الكل" فإننا نقصد بذلك العوالم المتناظرة من العالم المرئي إلى العالم اللامرئي.
 أ- العالم العلوي والعالم السفلي.
 ب- العالم اللامتناهي في الصغر والعالم اللامتناهي في الكبر.
 ج- العالم الظاهر والعالم الباطن.
 د- عالم الغيب وعالم الشهادة.
 وبذلك يمكننا القول، أن العلم الإلهي يمتاز بالشمولية، والحقائق الثابتة، وباستمرارية الحقائق.

ويمكننا تصنيف العلم الإلهي وفق الأصناف الآتية (Classes):

I- العلم التقابلي Science de correspondance

يتلخص هذا العلم في شموليته من خلال:

أ- التقابلات الموجودة بين مجموعة المنطلق (ensemble de départ) والمستقر (ensemble d'arrivée)، ويمكننا رؤية ذلك من خلال الآيات الكريمة الآتية: ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ [آل عمران-١٨٥]، ﴿ ثم توفي كل نفس ما كسبت ﴾ [البقرة-٢٨١].
 ب- الحركة الإنسانية إذ تبتدى بالأمشاج (بداية الحياة الدنيوية) وتنتهي بالحياة الأخروية. ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ [المؤمنون-١٢، ١٦].
 ج- لكل مجموعة - في الرياضيات - منطلق ومستقر، مثل العددين ٣ و ٤ الذي يقابلهما العدد ٧ (في الجمع) أو (١٢ في الضرب) أو في الكيمياء، فيما إذا أخذنا مثلا ذرتين هيدروجين وذرة أو كسجين، فإن مقابل ذلك (المستقر) نجد العنصر H_2O الذي يمثل الماء.

II - العلم الغيبي:

هذا العلم لا يختص إلا بالحق سبحانه وتعالى، وهو الذي يتكون من:

- أ- علم الساعة ؛
- ب- علم الغيب ؛
- ت- علم الأرحام ؛
- ث- علم الأرزاق ؛
- ج- علم موت الإنسان ؛
- ح- علم الجنة والنار ؛
- خ- علم الملائكة ؛
- د- علم القدر والقضاء ؛
- ذ- علوم أخرى.

III - العلم الثالث:

غيب السماوات من مجرات وفروج كونية (Trous noirs) وبناء السماء، مصداقا لقوله سبحانه: ﴿ والله غيب السماوات والأرض ﴾ [النحل-٧٧].

IV - العلم الرابع: غيب الأرض

كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ﴾ [سبا-٢]. ويقحم داخل هذه الآية: علم الجبال والوديان والأمطار والزلازل والبراكين...

V - العلم الخامس: علم الإنسان وما يكتب في نفسه وما يظهر مصداقا لقوله سبحانه:
﴿ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾. [النور-٢٩]

VI - العلم السادس: العلم اللامتناهي في الصغر مصداقا لقول رب العالمين: ﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ﴾ [يونس-٦١].

VII - العلم السابع: العلم اللامتناهي في الكبر كما يقول عز وجل: ﴿ سنبهم آياتنا في الأفاق ﴾ [فصلت-٥٣].

VIII - العلم الثامن: علم الإحصاء الإلهي
وهذا العلم بدوره يعتبر تحديا للعقل البشري، إذ يوجه الله عقولنا وتفكيرنا لكل صغيرة وكبيرة، فهو على سبيل المثال لا الحصر يعلم سقوط كل ورقة، مصداقا لقوله سبحانه : ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾ [الأنعام-٥٩].

وإذا قمنا بحساب كل الأوراق التي تسقط سنويا، سواء كانت أوراق الأشجار والنباتات، أو ما وراء ذلك، من موت الإنسان والنجوم والكواكب والمجرات، لأدركنا أن علم الإنسان، يمكن القول عنه أنه أقل من الذرة في الحجم والاستطاعة، بل أصغر من ذلك بكثير، ويظهر ذلك جليا من خلال الآية الكريمة: ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ [يس-١٢].
وهذا ما نفهمه من داخل منظومتنا المحدودة المعالم، حيث يقول: ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ [الإسراء-٨٥].

IX - العلم التاسع: علم الحق العلمي والرياضي
وفي هذا يدخل علم الحق سبحانه وتعالى الذي بنى هذا الكون وزينه بالنجوم والمجرات، وكل من جاهد ذلك، فعليه النظر في الليل إلى السماء بواسطة التلسكوب، أو حتى باستعمال التلسكوبات الصغيرة ليرى عظمة الله في خلقه، سواء في:
أ- بناء السماء بدون أعمدة، مصداقا لقول رب العالمين: ﴿ الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ﴾ [الرعد-٢].

- ب- بناء السماوات بقوانين رياضية إلهية، مصداقا لقوله تعالى: ﴿والسمااء بنيناها بأيد﴾ [الذاريات-٤٧] ثم يقول: ﴿أفلم ينظرون إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها﴾ [ق-٦].
- ج- بناء الإنسان وجعل تطوره البيولوجي Evolution Embryonnaire يسير وفق نظام رياضي (متوالية هندسية أساسها ٢ على الشكل $U_n = 2^n$; $n = 0, 1, 2, \dots$).
- د- بناء جميع المخلوقات بنفس المنهجية، وجعلها تسير وفق اتجاه ونظام واحد. وتبقى الآية الكريمة: ﴿قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾ [البقرة-٣٠] خالدة في الفضاء الأنثروبوكوني تدق فكر الإنسان، تتحدها عبر الأحقاب، وتنقش كلمات توحيدية على قلبه ووجدانه.

نتيجة: الحقيقة الرابعة: علم الإنسان نقطة بالنسبة لعلم الله الذي لا تحدّه الأبصار.

المحور الرابع

﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ [البقرة-٣١].

لفهم هذه الآية، لابد من استعراض بعض البحوث التي أجريت في المختبرات الدولية، وخاصة في الجامعات الأمريكية والأسترالية، من أجل إثبات عدم صلاحية فكرة الارتقاء والنشوء: من القردة إلى الإنسان.

وكنموذج على ذلك، تلك البحوث التي تقام بجامعة Harvard وفي Georgea على القردة من أجل تعليمهم لغة خاصة، وذلك عن طريق تقابل الألفاظ بالإشارات، كما هو الحال بالنسبة للأشخاص المعوقين.

ولقد توصل الباحثون في هذا الميدان إلى قناعة تامة، على أن الجانب الصوتي عند الحيوان وخاصة الشامبانزي، يختلف اختلافا كبيرا عنه في الإنسان، نظرا للتركيب الفيزيولوجية المختلفة لدى الطرفين، كما أن التعبير عند الإنسان يعتبر الميزة الأساسية له، ويعكس ذلك قوة الذكاء عنده. فالشامبانزي المتوحش مثلا، يقوم باستخدام ثلاثين صوتا مختلفا من أجل إيصال شيء آخر، وهذا ما عبرنا عنه في الحلقة السابقة بالتقابل الموجود بين مجموعة المنطق ومجموعة المستقر، مصداقا لقول رب العالمين: ﴿ لكل نيا مستقر ﴾ [الأنعام-٦٧].

ويمكننا إعطاء نماذج تعكس مصداقية الفكرة المطروحة على بساط البحث، وتبين الفرق الشاسع الموجود بين حوارية الإنسان العقلية، وعشوائية المخلوقات الأخرى كالحشرات والطيور والقردة عندما يتعلق الأمر بإنتاج العقل.

ملحوظة: إننا لا ننكر ذكاء الحيوانات بشكل عام - بما فيهم الشامبانزي - لكن ذلك يظل في خانة لا تتمتع بنفس صفات فضاء الذكاء الإنساني، وستبقى هذه الوضعية ثابتة في الزمان والمكان الحياتي، فهي لا تتجدد بمرور الزمن.

ويمكننا أن نضرب أمثلة على ذكاء الحيوانات، نذكر منها هذه النماذج:

المثال ١: بالنسبة للنحل

حسب الخبراء المهتمين بعلم الحشرات، فإنهم يقولون أن النحل يقوم برقصات مميزة، لإطلاع بني عشيرته على وجود غذاء معين في منطقة محددة، وفي اتجاه معين، لكن النحل لا يستطيع تحديد ارتفاع الغذاء عن سطح الأرض، بالرغم من كون النحل يستطيع استعمال الجهاز المرئي من أجل تحديد أجسام معقدة (حسب آخر الأبحاث: أنظر - S.W. Thang et M.V. Srinivasan - Nature 368, 1994).

ومع ذلك نجد النحل - يستطيع تحديد غذائه بجميع أشكاله وخواصه - قادر على القيام بتقابل بين مجموعة معينة (كالغذاء)، ومجموعة أخرى (بواسطة الحركات والذبذبات)، كل ذلك يبقى - طبعاً - في حيز محدود التعاريف، لا يستطيع أن يضيف لها قضايا تعلمها من الغير أثناء مسيرته المعيشية في المستقبل.

المثال ٢: الطيور

إنها فضلاً عن الأصوات التي تصدرها من أجل إثارة الآخرين، تقوم بحركة دورانية في السماء، أو حركات بالأجنحة، لكن إمكانياتها تبقى محصورة في فضاء ضيق للتعبير عن كل ما تراه.

المثال ٣: الثدييات

قد يستعين القرد ببعض الأدوات التي تعلمها من صاحبه، للوصول إلى شيء معين، لكن هذه العمليات تبقى محدودة في الزمان والمكان، ولم نجد قرداً - على سبيل المثال - قام بصنع آلة، ولو كانت بسيطة التركيب من أجل قطف ثمار الزيتون مثلاً أو البلح الذي يقع في منطقة يصعب على الحيوان الوصول إليها.

وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل أن توافق (combinaisons) الكروموزومات تختلف من مخلوق إلى مخلوق، وأن صنف الإنسان يختلف من الطفولة إلى الكبر مع المخلوقات الأخرى بما فيها الشامبانزي (انظر المقالات السابقة).

لمعرفة ذلك - بشيء من العقولية - لا بد للإنسان الإطلاع على دور الجينات التي تنظم علم التفكير، بالرغم من أن العلم مازال في طور الاكتشاف من أجل دراسة المخ دراسة معمقة، والتعرف على ملايين الخلايا العصبية المتصلة به.

نستنتج من هذه الفقرة أن التجارب المكثفة التي قُدمت إلى جعل الإنسان منتميا لسلسلة القردة أثناء التصنيف البشري (Classification hiérarchique) قد باءت بالفشل، نظرا لعدم وجود توازن بين الوسط المستحاثي (Paléontologique) والفضاء العقلي الذي يحتاج لعينة كبيرة جدا من بقايا العظام، حتى نقيم القوانين العلمية.

فآية الكريمة: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة-31]، وضح لنا عدة عناصر، منها:

أ- أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان بذاكرة قوية، تستطيع إسقاط الماضي البعيد الأنتروبولوجي على أرض الحاضر (نسميها ذاكرة الماضي).

ب- تخزين المعلومات وإظهارها عند الضرورة، لكي تبين قدرة الإنسان ودوره الطلائعي من أجل قيادة المجتمع (نسميها ذاكرة الحاضر).

إن تعلم آدم كان مقصودا ولم يترك للصدفة، كما كان لتعلم آدم هدف معين، وهو ما نصلح عليه في عصرنا الحاضر بـ "التعلم بالوسائل السمعية البصرية".

ح- بين الحق سبحانه وتعالى للملائكة ولآدم عليه السلام كل العلوم، معنى ذلك أننا أمام علم بدأنا نتحدث عنه في الآونة الأخيرة يطلق عليه اسم: العالم الافتراضي (le monde virtuel)، وهو أحدث ما توصل إليه العقل البشري.

فالملائكة وآدم عليه السلام رأوا هذا العالم، إلا أن الملائكة رأت عناصره دون معرفة المصطلحات التي ستستخدم فيه، بدليل الآية الكريمة: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ [البقرة-32].

أما آدم عليه السلام فقد أطلعه الله على هذا العلم بالإضافة إلى معرفة مصطلحاته، بدليل الآية الكريمة ومعنى ذلك ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ [البقرة-33].

لم يترك الله سبحانه وتعالى عبده دون مساعدة، بل قام بتعليمه جميع الأشياء، والتي عجزت الملائكة عن معرفتها، مصداقا لقوله سبحانه: ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة-33] (نسميها ذاكرة المستقبل).

وفي هذا تمييز كبير للإنسان عن الملائكة من جهة، وإعجاز علمي خارق من جهة أخرى، وهذا ما سنعمل - إن شاء الله - على تطويره مستقبلا. لكن هذا لا يمنعنا للقيام بقراءة أولية، فكيف ذلك يا ترى؟

لقد بقيت وضعية التارجح عند الإنسان بالشكل الآتي:

- ١- يولد الإنسان وهو لا يعلم شيئا.
 - ٢- بعدها يزوده رب العالمين بوسائل المعرفة من سمع وبصر وعقل، فيصبح شخصا يقود الطائرات، ويتحكم في مسار الإلكترونيات، ويبني النماذج الرياضية والمدارس الفكرية.
 - ٣- بعد ذلك تأتي مرحلة النسيان والتقهقر استعدادا للرجوع إلى الوضعية الأولى.
- أما المخلوقات الأخرى، فإنها تظل في وضعية منتظمة لا تخرج عن نطاق الشيفرة الوراثية، ثم يموت الحيوان على نفس الوضعية.

ولإظهار ما ذكر آنفا (أ، ب، ج)، يكفي أن نعطي المثال التوضيحي الآتي:

إذ أمعنا النظر في شخص ما، فإننا نكون بذلك قد قمنا بدراسة تحليلية لجميع عناصر الوجه من سعة الوجه، وطول الأنف، ومساحة العين، وبروز أو ضمور الوجنتين، وسعة الفم، إلى غير ذلك من العناصر التي تعين ملامح الوجه.

معنى ذلك أن الرؤية وتخزين المعلومات تتطلب معرفة مجموعة من المتغيرات (Variables) الظاهرية والوحيدة لصورة ما، بالإضافة إلى التقابلات Correspondances الواجب بناؤها من أجل الحفاظ - في الذاكرة - على نفس العنصر، وإسقاطها في الفترة الزمنية المراد مراجعتها والتذكير بها، ويمكن أن ينتج عن ذلك ظهور نموذج رياضي أو فكرة معينة، ويدعي الإنسان أن ما تم الوصول إليه اكتشافا، لكنه في حقيقة الأمر، لم يكن سوى ذلك الباحث الذي يحفر في فضاء ذاكرته، العلوم التي علمها ربنا عز وجل، وأودعها عنده رب العزة منذ أن خلقه (منذ آدم عليه السلام).

فالإنسان إذن لا يصنع المعجزات، بل يخرج إلى الوجود ما علمه ربه عز وجل، مصداقا لقول رب العالمين: ﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ﴾ [البقرة-٣٢]، وتكون محصلة النتائج:

١- يستطيع التحكم في المستجدات المفرة وتحليل وإدراك العلاقة الموجودة بين عناصر الفضاء المطروح.

٢- يعالج البيانات والمعطيات المطروحة حسب الأصناف المختارة، واستخلاص النتائج العلمية.

٣- يمتلك القدرة على بناء نماذج رياضية تكون بمثابة نقطة انطلاق التصنيفات المختلفة للفضاء المطروح.

وبالرغم من ذلك كله تبقى المعادلة الكبرى: ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ [الإسراء-

هذه هي إذن، خلاصة الإنسان، منذ أن نفخ الحق سبحانه وتعالى فيه من روحه، ثم تكريمه المادي بأن علمه في المجال الأنتروبوكوني، وأطلعه على مسيرة المستقبل في الحياتين الدنيوية والأخروية. فهل وعينا بهذه الكرامة؟ وهل نحن معشر المسلمين - حالياً - في مستوى التكريم الإلهي بالرغم من نفعه؟ ثم هل أعطينا للعقل حريته لكي نفكر في مناخ نقي وطاهر؟

لذلك كان من اللازم والواجب علينا، إعادة قراءة وضعيتنا، وتاريخنا، وفهمنا لواقعنا المعيش، وخاصة قراءة إسلامنا، حتى ينطبق علينا كلام رب العزة، وهو أصدق القائلين: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، وأما الذين استكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ [النساء-١٧٤].

خاتمة

بعدما قمنا بجولة عابرة حول مختلف المصادر التي نتحدث عن فكرة التطور أو نظرية التطور، فإنه من الواجب علينا التركيز على بعض النقاط المستقبلية والتي ربما - إن شاء الله - ستكون له عوناً على المرحلة المقبلة، مرحلة البحث والتنقيب والتطور الحقيقي، هذه النقاط تتلخص فيما يلي:

١- القرآن الكريم كتاب جامع شامل، جعل العقل البشري بمثابة المنطلق الأساسي لمعرفة آيات هذا الكون.

٢- القرآن الكريم كتاب إلهي، أنزله الحق سبحانه على نبيه المصطفى ﷺ ليبين لنا معجزاته في الخلق، وهذا ما نلمسه من خلال الآيات التي وردت بشأن الإنسان والتي تطرق لها القرآن الكريم ببساطة ودقة، في زمن كان فيه الإنسان يعيش في ظلمات الجهل.

٣- نظرية الصدفة لا يمكن أن تكون أرضية للمناقشات العلمية، - ولا يمكننا أن نجعلها أساس خلق الكائنات وهذا ما رأيناه سابقاً (انظر قانون الاحتمال).

٤- يجب على الإنسان أن يتعرف على نفسه وأصله حتى يستطيع تقييم الوضعية السابقة ؟

٥- من خلال قراءتنا لكل ما ورد سابقاً، يبقى القرآن الكريم هو المصدر الوحيد الذي يوضح لنا القاعدة الأساسية، هذه القاعدة تحولنا الانطلاق لبناء قواعد علمية تكون في مأمن عن كل الفلسفات التائهة، والأيدولوجيات المتناثرة.

٦- بالإضافة إلى ذلك، نلاحظ أن الأدوات المستخدمة لحد الآن، من حواسيب إلكترونية، ومكروسكوبات جبارة، وصواريخ عابرة للقارات إلى غير ذلك، مازالت تعتبر أدوات متخلفة وبدائية إذا ما قورنت بعلوم الكون الفسيح.

٧- وأخيراً وأمام كل هذا، ونظراً لضعف الإنسان، فهو بحاجة إلى من يحميه ويسانده على حل مشاكله، سواء كانت داخلية أو خارجية، وبالطبع فإن المنبع الأساسي والمرجع الأخير هو خالق هذا الكون، العالم بأسراره، لذلك كان من اللازم علينا إدخال القرآن الكريم والسنة المطهرة إلى مؤسساتنا التعليمية من الابتدائي إلى الجامعة.

٨- انعكاسات ونتائج الفكرة الداروينية.

إن قضية الوراثة التي تطرق لها دارون حسب القانون الثالث وكذلك فكرة البقاء للأقوى قد أثقل كاهل البشرية بظهور الفكرة العنصرية، حيث نجد رينان وتين (Renand & Thin- القرن التاسع عشر-) لم يسلموا بالمساواة بين أفراد البشر، كما أن المعتقدات العنصرية زادت رسوخا بعد الثورتين الأمريكية والفرنسية. وكل هذا كان له تأثير مباشر ومضر على الإنسان وسعادته. ونختتم كلامنا بقول الفكرة الآتية:

إن العلم النافع هو الذي يقود صاحبه إلى أعلى الدرجات، ويجعل شخصيته وعقله بعيدين عن الأهواء والشهوات، وخير ما نستمع إليه كلام رب العزة: ﴿ وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا ﴾ [الجن-١٣].

والله أسأل أن يكون هذا العمل خالصا لوجهه سبحانه وتعالى والله المستعان.

BIBLIOGRAPHIE

- القرآن الكريم

- **SCIENCE & AVENIR TOUS SAPEINS 1984 HENRI DE ST BLANQUAT**

1- R Bauchot et Stephan, « Encéphales et moulages endocrâniens de quelques insectivores et Primates actuels »

Problèmes Actuels de Paléontologie (Evolution des Vertébrés) ?
Ed. C.N.R.S., 1967

2- Emil Borel 1984 PUF

3- L'express origines de l'homme 9/1/1987 n° 66623

4- Fondation Singer-Polignac, Les Origines Humaines et Les Epoques de l'intelligence, Masson, 1978.

5- R. Holloway, « Some problems of hominid brain endocast reconstruction, allometry and neural reorganization »
IXth Congress of Union Internationale des Sciences Préhistoriques et Protohistoriques, Nice, 1973. Contribution to Colloquium VI: Les plus Anciens Hominidés.

6- H.J. Jerison, Evolution of the Brain and Intelligence, Academic Press, 1973.

7- P. MacLean, A Tribune Concept of the Brain and Behaviour, University of Toronto, 1973.

8- H. Stephan and O.J. Andy, Ann. N.Y. Acad. Sci., 167, 370, 1969.

F. Tilney, The brain from Ape to Man, 2 vol., Harper, 1928.

9- P.V. Tobias, The Brain in Hominid Evolution, 170 p., Columbia University Press, 1971.

10- P.V. Tobias, "Brain Evolution in the Hominoidea".

11- La recherche n° 327, p 16 - Janvier 2000.

12- La recherche n° 301, p 80 - Octobre 1997.

13- La recherche n° 236, p 1244,1245 - Octobre 1994.

14- La recherche n° 263, p 316,317 - Mars 1994.

15- Science & Avenir p 42, Septembre 1997.

16- Science & Avenir n° 532, p 47 - juin 1991.

17- La recherche p 614 - n°277 1995.

18- Science & Avenir, p 22 Juillet 1994.

19- Science & Avenir p 62 Janvier 2002.

20- Science & Avenir p 59 Mars 2003.

21- Histoire de la science W. Dampier. Ed. Payot 1951 Paris.

22- Histoire de la Science Pierre Rousseau Librairie Arthème Fayard 1945.

٢٣- موسى بول، المنطق وفلسفة العلوم، ص ١٦٦.

* استغرقت رحلة دارون أربع سنوات، استطاع فيها جمع عينات العظام التي وجدها وملاحظة المخلوقات في كل من جزر الرأس الأخضر و(Saint Paul)، والبرازيل وجزر الفولكلاند والأرض النارية.

**تفسير معجزتي الداء والشفاء
في حديث الذبابة**

د. يحيى إبراهيم محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

حديث الذبابة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 " إذا وَقَعَ الذَّبَابُ في إناءِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ كَلَّهُ ، ثم لِيَطْرَحْهُ ، فإنَّ في أَحَدِ جَنَاحَيْهِ الدَّاءَ ، وفي الآخرِ شفاءً ."

رواه البخاري ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، وأحمد ، وعبد ابن حميد ، والدارمي ، وأبو عبيد ، وأبو يعلي ، وابن الجارود ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، والحاكم ، وابن السكن ، والبخاري ، وابن قتيبة ، والطبراني ، والبيهقي ، والطحاوي ، وأبو داود الطيالسي ، وابن النجار ، والبغوي ، وابن أبي خيثمة ، وابن عبد البر .
 عن أبي هريرة ، وأبي سعيد الخدري ، وأنس بن مالك ، وعلي بن أبي طالب . رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين .

هذا هو الحديث الشريف الذي حير تفسيره على مدى عصور مضت ، عدداً كبيراً من الباحثين والعلماء الأفاضل ، وتطرق لمحاولات تفسيره ، عشرات إن لم نقل المئات ، من هؤلاء العلماء الجهابذة البررة ، الغيورين على دينهم ، كل بجهد وإخلاصه وعلمه .

مقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

الحمد لله خالق السماوات والأرض وما بينهما وهو بكل شيء عليم.

وأستعينه استعانة من لا حول له ولا قوة إلا به.

وأستهديه بهداه الذي لا يضل من أنعم به عليه.

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، وأن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة ورفع الغمة ، فصلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين كلما ذكره الذاكرون ، وغفل عن ذكره الغافلون ، وصلى عليه في الأولين والآخرين ، أفضل وأكثر وأزكى ما صلى على أحد من خلقه ، وزكنا وإياكم بالصلاة عليه أفضل ما زكى أحداً من خلقه ومن أمته بصلاته عليه ، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته ، وجزاه الله عنا أفضل ما جزى مرسلًا عن من أرسل إليه .

فإنه الله أنقذنا بنبيه من الهلكة ، وجعلنا في خير أمة أخرجت للناس ، دائنين بدينه الذي ارتضى ، واصطفى به ملائكته ، ومن أنعم عليه من خلقه ، فلم تمس بنا نعمة ظهرت ولا بطننت ، نلنا بها حظاً في دين ودنيا ، أو دفع بها مكروهاً فيهما وفي واحد منهما ، إلا ومحمد صلى الله عليه وسلم سببها ، القائد إلى خيرها ، والهادي إلى رشدها الذائد عن الهلكة وموارد السوء في خلاف الرشد ، المنبه للأسباب التي تورث الهلكة ، القائم بالنصيحة في الإرشاد والإنذار فيها. فنقل أمته من الكفر والعمى ، إلى الضياء والهدى ، وبين في كتابه ما أحل : من التوسعة على خلقه ، وما حرم : لما هو أعلم به من حظهم في الكف عنه في الآخرة والأولى ، جل ثناؤه . فكل ما أنزل في كتابه - جل ثناؤه - رحمة وحجة ، علمه من علمه ، وجهله من جهله ، ولا يجهل من علمه .

يقول الحق تبارك وتعالى في محكم آياته:

بسم الله الرحمن الرحيم

" وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى " (سورة النجم : ٣-٤)

" وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً تهدي به

من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم " (سورة الشورى : ٥٢)

" وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً " (سورة الإسراء : ٥٨)

" كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم

تكونوا تعلمون " (سورة البقرة : ١٥١)

صدق الله العظيم

الباب الأول

سند هذا الحديث الشريف

وفيه فصلان

الفصل الأول : طرق هذا الحديث .

ويشمل:

المبحث الأول: طرق حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المبحث الثاني: طرق حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

المبحث الثالث: طرق حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

المبحث الرابع: طرق حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

الفصل الثاني : دراسة أسانيد هذا الحديث .

ويشمل:

المبحث الأول : دراسة أسانيد حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

المبحث الثاني : دراسة أسانيد حديث أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه.

المبحث الثالث : دراسة أسانيد حديث أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه.

الفصل الأول : طرق حديث الذبابة

المبحث الأول:

طرق حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وقد بلغت طرق حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أربعاً وثلاثين طريقاً، هذا من حيث الإجمال، وأما من حيث التفصيل فقد بلغت اثنين وأربعين طريقاً.

ويرويه عن أبي هريرة رضي الله عنه : حمسة من التابعين هم :

عُبَيْد بن حُثَيْن، مولى بني زريق وسعيد بن كيسان المقبري ومحمد بن سيرين الأنصاري البصري، وأبو صالح: ذكوان السمان المدني، وثمامة بن عبد الله بن أنس بن مالك رحمهم الله تعالى.

كما يرويه عن أبي هريرة رضي الله عنه: صحابي آخر هو أنس بن مالك رضي الله عنه - إن كانت الرواية محفوظة والله أعلم.

ومن طرق هذا الحديث من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

أولها : قال الإمام البخاري رحمه الله - في صحيحه - حدثنا قتيبة، حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن عتبة بن مسلم - مولى بني تميم - عن عُبَيْد بن حُثَيْن - مولى بني زريق - عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إذا وقع الذباب في إناء أحدكم، فليغمسه كله، ثم ليطرحه، فإن في أحد جناحيه شفاء، وفي الآخر داء".

وقد تواردت الروايات جميعها في هذا المبحث، متطابقة في النص من وجوه كثيرة، بالإضافة إلى ما رواه الإمام البيهقي رحمه الله في شرح السنة قال: أخبرنا أبو عبد الله: محمد بن الفضل الخرقفي، أنا أبو الحسين، علي بن عبد الله الطيسفوني، أنا أبو عبد الرحمن: عبد الله بن عمر الجوهري، أنا أحمد بن علي الكشميهني، أنا علي بن حجر، أنا إسماعيل بن جعفر، عن عتبة بن مسلم - مولى بني تميم - عن عُبَيْد بن حُثَيْن - مولى بني زريق - عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه، فإن في أحد جناحيه داء و في الآخر شفاء".

المبحث الثاني:

طرق حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

فقد أخرجها - بأسانيد صحيحة - الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله - في مسنده - من طريقين، وكل من الأئمة: النسائي، وابن ماجه وابن حبان، وأبي داود الطيالسي، والبيهقي، وابن قتيبة، وأبي عبيد، وابن عبد البر، والبيهقي، عبد بن حميد، من طريق واحد، ورواه الإمام الطحاوي - من طريقين - ورواه أيضاً: الطبراني، وأبو يعلى والحاكم. والله تعالى أعلم.

وقد بلغت طرق حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه سبعة عشر طريقاً.

وقال الإمام النسائي رضي الله تعالى عنه في مجتبه: : حدثنا عمرو بن علي، قال: حدثنا يحيى قال: حدثنا ابن أبي ذئب قال: حدثني سعيد بن خالد، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليمقله " الحديث.

(فليمقله) أي فليغمسه فيه . يقال : مقلت الشيء أمقله مقللاً إذا غمسته في الماء ونحوه.

ومن بين ما جاء في هذا الحديث أيضاً، ما رواه ابن حبان رحمه الله في كتابه (الثقات) فقال رحمه الله : حدثنا إبراهيم بن خزيمة، قال: حدثنا عبد بن حميد، قال حدثنا أبو بكر الحنفي، قال حدثنا ابن أبي ذئب، قال: حدثني سعيد بن خالد القارظي، قال: أتيت أبا سلمة بن عبد الرحمن أزوره بقاء، فقال: سمعت أبا سعيد الخدري يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا سقط الذباب في الطعام فاملقوه، فإن في أحد جناحيه سمّاً ، وفي الآخر شفاءً، وإنه يقدم السم، ويؤخر الشفاء". ساق هذا الحديث في ترجمة (سعيد بن خالد بن عبد الله بن قارظ) وهذا السند هو من طريق (عبد بن حميد) بخلاف السند الذي رواه في صحيحه، فإنه من طريق أبي يعلى الموصلي، المتقدم على هذا والله أعلم.

المبحث الثالث:

طرق حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

فقد أخرج البزار والطبراني برجال ثقات، ورواه ابن قتيبة وأشار إليه الإمام الدارمي رحمه الله.

وقد بلغت طرق حديث أنس بن مالك رضي الله عنه خمس طرق.

- قال ابن قتيبة رحمه الله تعالى في (تأويل مختلف الحديث): حدثنا أبو الخطاب قال: حدثنا أبو عتاب، قال: حدثنا عبد الله بن المنثري قال: حدثني ثمامة قال: وقع الذباب في إناء، فقال أنس ياصبعه، فغمسه في الماء، وقال - "بسم الله" فعل ذلك ثلاثاً، وقال: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم أن يفعلوا ذلك، وقال: في أحد جناحيه سم، وفي الآخر شفاء".

- ذكر الحافظ بن حجر رحمه الله تعالى في (فتح الباري) حديث أنس رضي الله عنه، من رواية عبد الله بن المنثري، عن عمه ثمامة أنه حدثه، قال: كنا عند أنس، فوقع ذباب في إناء، فقال أنس ياصبعه فغمسه في ذلك الإناء ثلاثاً، ثم قال: بسم الله، وقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم أن يفعلوا ذلك. ثم قال: أخرج البزار ورجاله ثقات.

- وقال حافظ الهيتمي رحمه الله تعالى في (مجمع الزوائد) رواه البزار - ورجاله رجال الصحيحين ورواه الطبراني في (الأوسط).

قلت: وسند البزار كما في زوائده (كشف الأستار) قال رحمه الله تعالى، حدثنا زياد بن يحيى، ومحمد بن معمر، قالا: حدثنا أبو عتاب: سهل بن حماد، حدثنا عبد الله بن المنثري، عن ثمامة، عن أنس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الحديث".

- وقاله الدارمي رحمه الله في (سننه) بعد أن ساق سند أبي هريرة رضي الله عنه من طريق ثمامة، والذي هو: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثمامة بن عبد الله بن أنس، عن أبي هريرة قال: "الحديث".

- وأخرجه ابن أبي خيثمة رحمه الله تعالى، في كتاب (التاريخ الكبير) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: وإسناده صحيح، كما في نيل الأوطار.

المبحث الرابع :

طرق حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
فقد أخرج ابن النجار رحمه الله تعالى. وفيه فائدة، تبين قضاء الشفاء على الداء. ولفظه: " في الذباب أحد جناحيه داء، وفي الآخر شفاء، فإذا وقع في الإناء، فإرسابه، فيذهب شفاؤه بدائه". كما جاء في الفتح الكبير.

لقد زادت هذه الطرق على تحسين طريقاً - وكلها كافية في الدلالة لكل ذي عقل وروية، وبصر وبصيرة، ولم تعشه الثقافات الأجنبية - شرقية أو غربية.
وسنقتصر هنا على ذكر مختصر لأسانيد حديث أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وأنس بن مالك رضي الله عنهم أجمعين. إن هذا الحديث صحيح، بل هو من أعلى درجات الصحة، وأن من شكك فيه، فهو جاهل بعيد الصواب قريب من الهوى والزيف، يعيش في الانحراف، ويقلد المنحرفين أو هو مفروض أفاك، يتخذ من الطعن في هذا الحديث - وأمثاله - مدخلاً لتشويه حقيقة وإعجاز وجمال الشريعة وكمال السنة المطهرة، ومغماً للطعن في الإسلام الذي أنزله الله سبحانه وتعالى بأسراره ومعجزاته لكل العصور، وليس لعصر دون غيره، حتى تقوم الساعة.

الفصل الثاني

دراسة أسانيد هذا الحديث : وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : دراسة أسانيد حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

المبحث الثاني : دراسة أسانيد حديث أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه.

المبحث الثالث : دراسة أسانيد حديث أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه.

المبحث الأول

دراسة أسانيد حديث أبي هريرة (رضي الله تعالى عنه)

الذين يروون هذا الحديث عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه هم :
سعيد بن أبي سعيد المقبري، وعبيد بن حنين مولى بني زريق، ومحمد بن سيرين، وثمامة بن عبد الله بن أنس
بن مالك، وأبو صالح: زكوان السمان الزيات المدني .
وكل هؤلاء من التابعين، وهم جميعاً ثقات عدول - بل منهم أئمة .

وروى هذا الحديث عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أيضاً أنس بن مالك الصحابي المشهور .

أ- أما عبيد بن حنين : فهو أبو عبد الله المدني، مولى آل زيد بن الخطاب وقيل مولى بني زريق، قال بن
سعد : ثقة، وليس بكثير الحديث، وقال أبو حاتم صالح الذكر. وذكره ابن حبان في الثقات ،
ولخص الحافظان الذهبي وابن حجر رحمهما الله تعالى الحكم عليه، فقالا : ثقة. وقد روى له
أصحاب الكتب الستة.

ب- وأما محمد بن سيرين : فهو الأنصاري، أبو بكر بن أبي عمرة، البصري، ثقة ثبت، عابد، كبير
القدر، كان غاية في الثبوت، إمام وقته وكان مأموناً، عالياً رفيعاً، فقيهاً، إماماً، كثير العلم، قال أبو
عوانة: رأيت ابن سيرين في السوق، فما رآه أحد إلا ذكر الله تعالى، وكان لا يرى الرواية بالمعنى،
من شدة تحريه وضبطه وإتقانه وحفظه، رحمه الله تعالى . وهو من رجال الكتب الستة.

ج- وأما أبو صالح : فهو ذكوان السمان المدني الحافظ الضابط الثقة المتقن، سمع منه
الأعشى ألف حديث، قال أحمد بن حنبل رحمه الله عنه : ثقة ومن أجل الناس
وأوثقهم ، وقال ابن معين : ثقة، وقال أبو حاتم : ثقة، وقال أبو زرعة : ثقة ثقة
مستقيم الحديث، وقال ابن سعد : ثقة كثير الحديث. وقال عنه ثقة أيضاً :
الساجي والحربي والعجلي وغيرهم، وهو من رجال الكتب الستة.

د- وأما سعيد المقبري : فهو ابن كيسان المقبري، أبو سعد المدني، قال ابن المديني، وابن سعد، والعجلي، وأبو زرعة، والنسائي : ثقة ، وقال ابن خراش: ثقة ثقة جليل، وهو من رجال الكتب الستة. وقال أبو داود : سألت ابن معين : من كان أثبت في أبي هريرة ؟ فقال : ابن المسيب، وأبو صالح، وابن سيرين، والمقبري، والأعرج، وأبو رافع .
قلت: وثلاثة منهم في هذه الرواية : أبو صالح، وابن سيرين، والمقبري.

هـ- وأما ثمامة بن عبد الله بن أنس بن مالك الأنصاري البصري، قاضيا، فقد قال عنه أحمد و النسائي : ثقة، وقال العجلي : تابعي ثقة. وهو من رجال الكتب الستة. فهؤلاء التابعون الذين يروون هذا الحديث عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، وكلهم ثقات إثبات، بل ثلاثة منهم — كما يرى ابن معين إمام أهل الجرح والتعديل في زمانه:— أنهم من أثبت الرواة عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

المبحث الثاني

دراسة أسانيد حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه)

الذي يروي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه تابعي واحد، هو : أبو سلمة عبد الرحمن بن عوف، الزهري، المدني، قيل اسمه : كنيته، من كبار أئمة التابعين، الحافظ، الثقة، البحر المكثر، قال الزهري : أربعة وجدتم بمجوراً : عروة بن الزبير، وابن المسيب، وأبو سلمة، وعبيد الله بن عبد الله ، ومن علو مكانه أنه كان يناظر ابن عباس رضي الله عنهما. وهو من رجال الكتب الستة رحمه الله تعالى.

ومن طريقه رواه : سعيد بن خالد بن عبد الله بن قارظ، الكنايني، حليف بني زهرة، قال عنه النسائي في الجرح والتعديل : ثقة ، وقال عنه الدارقطني : مدني محتج به، وذكره بن حبان في الثقات له، وقد ذكره البخاري في تاريخه .

ومن طريقه رواه ابن أبي ذئب وهو : محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث بن أبي ذئب، القرشي العامري، أبو الحارث، المدني، الفقيه، الثقة، الفاضل. قال عنه الذهبي في تذكرة الحفاظ: الثبت العابد شيخ الوقت. وهو من رجال الكتب الستة رحمه الله تعالى.

المبحث الثالث

دراسة سند حديث أنس بن مالك (رضي الله عنه)
فقد رواه عنه : ثمامة بن عبد الله بن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه — وهو حفيده — وهو تابعي ثقة معروف رحمه الله تعالى.

وعن ثمامة رحمه الله تعالى يرويه :

ابن أخيه : عبد الله بن المثني — بن عبد الله بن أنس بن مالك الأنصاري — أبو المثني البصري — قال عنه يحيى بن معين، وأبو زرعة، وأبو حاتم : صالح، وقال عنه العجلي : ثقة، وقال عنه الترمذي : ثقة، وقال عنه الدارقطني : ثقة، وذكره ابن حبان في ثقاته، وهو من رجال البخاري و الترمذي وغيرهما، رحمه الله تعالى.

ويرويه عن عبد الله بن المثني : أبو عتاب، وهو : سهل بن حماد، العنقري، أبو عتاب، الدلال البصري. قال عنه أحمد بن حنبل : لا بأس به، وقال عنه أبو زرعة وأبو حاتم صالح الحديث، شيخ، وقال عنه العجلي وأبو بكر البزار : ثقة، وقال عنه أبو عثمان الدارمي : ليس به بأس، وذكره ابن حبان في ثقاته أيضاً . رحمه الله تعالى. وعنه إثنان أحدهما :

أبو الخطاب : وهو : زياد بن يحيى بن زياد بن حسان، الحساني، أبو الخطاب، النكري، العدني، البصري، قال أبو حاتم و النسائي عنه: ثقة، وذكره ابن حبان في الثقات رحمه الله تعالى.
ورواه عنه إثنان :

الإمام ابن قتيبة رحمه الله في (تأويل مختلف الحديث).

ومن طريق زياد بن يحيى رحمه الله رواه البزار في مسنده أيضاً.

ثانيهما : هو محمد بن معمر، وهو الحافظ الثقة، أبو عبد الله : محمد بن معمر بن ربيع القيسي البصري، البحراني، كذا في تذكرة الحفاظ للذهبي. وهو من رجال الكتب الستة رحمه الله تعالى. وأخرجه من طريقه، الإمام البزار رحمه الله في (مسنده) أيضاً .

خاتمة الفصل

إن هذا الحديث ثبت من تراجم رواته الثقات من علماء هذه الأمة، من زمن الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين، إلى زمن المصنفين، وليس في رواية واحد منهم : رجل ساقط، أو وضاع، أو ضعيف، أو متهم، أو منكر، بل هم في مجموعهم في الدرجات العليا من الثقة، و الضبط، والأمانة، والإمامة، والرواية .

والقرآن الكريم والسنة المطهرة شريعتنا الحقة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .
لذا فليس في هذا الحديث في مجموعه ما يوجب التوقف والتردد، فضلاً عن الاستغراب والإنكار، إن الخبر إذا ورد من طريق صحيح ثابت — ولم يكن مما ألفتة النفوس قد تتوقف في أمره حتى ينكشف لها أمره، أو يؤيده مؤيد، وهذا عند أصحاب الفطر السليمة، والقلوب الحية الخاشعة المؤمنة، والنفوس الصافية، والعقول المستتيرة، فكيف وقد ورد هذا الحديث من طرق كثيرة زادت على خمسين طريقاً أو أكثر، ورواتها في الغاية من الحفظ والضبط والإتقان والتثبت و الأمانة، وحسن الأداء. وبهذا فقد تبين وثبت أن هذا الحديث المُمعجز صحيح من حيث الرواية والسند، وأن حكم أئمتنا عليه بالصحة قول صحيح سليم، لا غبار عليه، وأن من خالف وأنكر — من حيث الرواية — فعليه البرهان وهيات ، وأنى له ذلك، وقد رواه الأئمة الثقات الأثبات ، والحمد لله رب العالمين.

الباب الثاني

متن الحديث : وفيه فصلان

الفصل الأول : اعتماد الفقهاء على هذا الحديث
(الناحية الفقهية) .

المبحث الأول : أقوال أئمة المذهب المالكي .

المبحث الثاني : أقوال أئمة المذهب الشافعي .

المبحث الثالث : أقوال أئمة المذهب الحنفي .

المبحث الرابع : أقوال أئمة المذهب الحنبلي .

المبحث الخامس : أقوال أئمة مذاهب أخرى .

الفصل الثاني : الناحية الطبية في هذا الحديث .

الاكتشافات الطبية الحديث وتشمل ثلاثة تقارير عن:

(تأثر السقوط والغمس للذبابة المنزلية على مدى تلوث المساء و الأغذية بالميكروبات و الجراثيم)

- التقرير الأول:دراسة مبدئية..
- التقرير الثاني:تأثر درجة حموضة ماء الغمس.
- التقرير الثالث: تأثير السقوط والغمس للذباب على تلوث ونمو الميكروبات في الحليب.

بيان خطأ يقع فيه كثير من الناس

(وهو (عدم التفريق بين المستحيل والمستغرب)

حيث تجدر الإشارة في هذا المقام إلى بيان خطأ وقع فيه كثير من الناس . وذلك هو عدم التفريق بين المستحيل الذي يرفضه العقل ، ولا يقبله وبين المستغرب الذي هو ناشئ من عدم القدرة على تصوره .

فالمستحيل يعود إلى أصل الشيء ونكرانه، بينما المستغرب يعود إلى ضعف المتصور وعدم إدراكه، وشتان بين الأمرين .

فمن المقرر في الإسلام : أنه ليس فيه ما يرفضه العقل، ويحكم باستحالته، لأنه دين فطرة، ولا يكون التناقض بين قول الله تعالى الحكيم، و بين فعله عز وجل، لأن الكون كله فعله الله، والقرآن الكريم كلامه، فلا يتناقضان، وكذا ما صدر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فهو لا ينطق عن الهوى، كما لا تعارض بين الكتاب و السنة .

لكن يوجد في الإسلام — كما يوجد في كل دين سماوي — أمور قد تستغربها عقول بعض الناس ، ولا تستطيع أن تتصورها، كأمر النبوات، والحشر، والنشر، والجنة، والنار، والسرائط، وأحوال القبر

....

وشأن المسلم — بل العاقل — إذا سمع خبر ما يرفضه العقل، ويتأني فيما يستغربه، حتى يتيقن من صدقه أو كذبه، ولا يصح له أن يبادر إلى التكذيب والحكم بالاستحالة. حتى لا يقع في التناقض عندما يتبين صحة الخبر وسلامته، اللهم إلا أن تأخذه العزة بالإثم، فلا يسلم بصحته، ولا يتراجع عن قوله السابق . وكما أسلفت، فإن القرآن والسنة المطهرة، تمتد أسرارهما وإعجازهما إلى يوم القيامة، فما لم يعرف حقيقته السابقون والأولون، فسره اللاحقون من بعدهم، وما خفي على اللاحقون فهمه، فسره من جاءوا بعدهم

إننا نرى من الاستقراء التاريخي، وتبع التطور العلمي والفكري الحديث، أن كثيراً مما كان غامضاً على العقول من فهم، أو تفسير، أو استدلال أو حتى مجرد توقع كشفه، قد أصبح مفهوماً وواضحاً، بل نرى كثيراً مما كان ينكره أو يتوقعه العقل، أصبح الآن يقره، ويسلم بوجوده، وصار عنده من الحقائق، والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة ولا يتسع هذا المكان لذكرها.

إن هؤلاء الذين حكموا العقول في صحة النصوص، وفي فهمها ونادوا وينادون بذلك، هم صنفان، وكلاهما قد التفتيا في نقطة واحدة، وهي التأثير بالغرب وحضارته، ولكنهما يفترقان بالنية، في الاستغراب والإنكار.

أما الصنف الأول : فهم الذين يريدون — على زعمهم — أن يتقوا الإسلام من كل ما يستغربه أو ينكره الغرب وأعداء الإسلام، تقريباً لهم، وتحسيناً لصورة الإسلام لهم، لذا يرون أن كل ما يمكن أن يكون مردوداً عند الغرب، يجب عليهم إنكاره، والحكم باستحالته، وهذا واضح من أصحاب المدرسة الحديثة، التي أنكرت كثيراً من الأحاديث، وأنكرت كثيراً من الحقائق، وأولت كثيراً من الآيات القرآنية، كإنكار الجن، والشياطين، والطير الأبايل... كل ذلك — في زعمهم — ترغيباً للغرب في دخول الإسلام، والله أعلم بنياتهم .

أما الصنف الثاني : فهم المنكرين المستغربين، ممن غشيتهم سحابة التقليد، فأصمت آذانهم وأعمت أبصارهم، فلم يفرقوا بين ما هو مستغرب ولازم، إلا بمقياس واحد فقط، وهو ميزان من بهروهم بعلومهم وآرائهم ، فهم لا يصدرون إلا عن مصدر واحد، وليس لهم إلا ما قاله المستشرقون وأحفادهم ، إذ هم إمعة يسرون وراء هؤلاء، ولا يقولون إلا تقليداً، فمجدوا العقل، امتثالاً لقول الغرب، وجعلوه المقياس الذي لا يخطئ ، وقدسوه، وأحلوه محلاً فوق مستواه، فصار الفيصل في جميع الأمور، سواء غيبية أو مشاهدة، مدركة أم غير مدركة، خاضعة للتجربة أم فوق التجربة.

إن هذا الفريق من الناس ، قد آمنوا بالمكتشفات الحديثة، أكثر من إيمانهم بالغيب، ولكنهم لا يصرحون، ثم اختطوا لأنفسهم خطة عجيبة، فقدموها كل شيء ، وأولوا القرآن، بما يخرج عن معنى كلام العرب، إذا خالف ما يسمونه (الحقائق العلمية) لأنهم لا يستطيعون الطعن فيه صراحة، أو إنكاره جهاراً ، خشية من نقمة المسلمين وتكفيرهم، لكنهم يرون من السنة الصحيحة، ما يظنون أنه يخالف حقائقهم هذه، افتراء على الله تعالى، وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم، وحباً في التجديد والتقليد. وهذا خطأ فاحش، وغلو مشين وقهور طائش، وإلا رحم الله امرأة عرف قدر نفسه .

وإذ تدعي بعض الحضارات الحديثة أنها قد وصلت إلى حقائق كل شيء ، فإن الواقع الملموس الذي نعيشه ينكر هذا ويكذبه ، إذ لا يزال في الكون الكثير من مختلف العلوم و الفنون من طب، وفيزياء، وفلك، و...، و مجهولة حقائقها ولم يعرف العلم الحديث كنهها ولا حقيقتها، ولم يسر أغوارها. فكم من أخبار أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتبين أمرها، إلا بعد مئات السنين. والاكتشافات العلمية الحديثة ما زالت تظهر لنا يوماً بعد يوم موافقتها للقول النبوي الشريف و تصديقه، مما يزيد في الاعتقاد في صحة هذا الدين وصدقه، وأن هذا لا يصدر عن بشر، وإنما من مشكاة النبوة، وأن من جاء به أكمل الخلق على الإطلاق، وأنه مؤيد بوحى إلهي، خارج عن قوة البشرية جمعاء " وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً" (سورة الإسراء آية ٨٥)

والإنسان العاقل المنصف، إن اطلع على شيء مما لا يعرفه، لا يبادر إلى التكذيب، ولا يسارع إلى الإنكار ، ولكن يقول بصدق وشجاعة : هذا مما لا أعرف، ويسأل عنه بصبر وأمانة وروية حتى يتبين له وجه الصواب .

وهذا هو حال سلفنا الصالح رضي الله عنهم أجمعين، من صحابة وتابعين وأتباع تابعين، إن انكماش أحدهم عن الفتوى أكثر بأضعاف مضاعفة من تسارع هؤلاء ، لإصدار الأحكام الفجة، التي لو تروى أحدهم لندم على هذا الإقدام .

ومن الغريب جداً أن هذا الحديث بعينه (حديث الذبابة) لم يكن مما قد استدركه أحد أنمة الحديث على البخاري رحمة الله عليه، بل هو عندهم جميعاً ، مما جاء على شرطه، وفي أعلى درجات الصحة، ولم يتكلم فيه إلا من لا خلاق لهم ، في العصور المتأخرة.

إن هذا الحديث قد أجمع المسلمون على الأخذ به ، والعمل بمقتضاه ، وجعلوه أصلاً ، بنوا عليه حكماً مهماً ، وهو طهارة الماء القليل، والطعام إذا وقع فيه ما لا نفس له سائلة، وقاسوا على الذبابة ما شاكلها مما يرتبط معها بنفس العلة ..

الفصل الأول :

أقوال أئمة المذاهب الأربعة وغيرهم
وفيه :

المبحث الأول : أقوال أئمة المذهب المالكي .

المبحث الثاني : أقوال أئمة المذهب الشافعي .

المبحث الثالث : أقوال أئمة المذهب الحنفي .

المبحث الرابع : أقوال أئمة المذهب الحنبلي .

المبحث الخامس : أقوال أئمة مذاهب أخرى .

وهنا نوجز القول، بأن أقوال أئمة المذاهب جميعهم رحمهم الله تعالى، قد أجمعت، على أن : كل ما يقع من خشاش الأرض في إناء فيه ماء أو في قدر، فإنه طهور، يتوضأ بالماء، ويؤكل ما في القدر، وخشاش الأرض مثل : الذباب والزنبور والعقرب، والصرصار والخنفساء وبنات وردان، والجعلان والجراد والدود، والنمل والبق والبعوض والنحل، والقمل والبراغيث (وهو كل شيء وقد يكون الميتة ما ليس بنجس، وهو كل شيء ليس له دم سائل) وكلها وإن سقطت حية أو ميتة، فإنها لا تؤدي إلى تغير اللون أو الطعم أو الرائحة ، فإنها لا تنجس . أما إذا تغير الماء، (برائحة أو لون أو طعم) بعد موتها فيه أو وقعت فيه ميتة كما في حالة الحيوانات أو الحوت، فإنه ينجس .

اعتماد الفقهاء على هذا الحديث (الناحية الفقهية)

إن فقهاء المسلمين — سلفاً وخلفاً — على اختلاف مذاهبهم ، قد اعتمدوا هذا الحديث ، وجعلوه أصلاً ، بنوا عليه أحكاماً متعددة ، وقاسوا عليه غيره ، مما يشترك معه في العلة .

وإذا كان الفقهاء — وهم يفرعون الفروع ، ويقعدون القواعد ، وهم أعرف الناس بشرع الله تعالى ، وهم أحرص الناس على هداية الخلق ، وهم القدوة المتبعون قد أخذوا بهذا الحديث ، واعتمدوه ، وجعلوه أصلاً وفرعوا عليه ، إذا كان ذلك ، فإن هذا مما يزيد الحديث قوة مع قوته ، لأن الحديث صحيح لا يحتاج إلى من يقويه ، لأن قوته من نفسه — لكن عمل الأمة به ، واتفاقها عليه ، يعطيه قوة أخرى زيادة على قوته ، خاصة وقد اتفق على هذا الحديث : المحدثون والفقهاء ومثل هذا لا يصح إنكاره ، لأن من أنكره فقد جهل وسفه عقول وعمل جميع الأمة ، التي اعتمدت عليه ، والفاعل مثل هذا خارج عن حدود الأمة ، والمشتكي إلى الله ، ومتبع غير سبيلها ومن اتبع غير سبيل الأمة ، فهو في الدنيا مستكره مستقبح ، وله في الآخرة العذاب الأليم .

قال الله عز وجل : " وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ ، وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا " . (سورة النساء: آية ١١٥)

الفصل الثاني

الاكتشافات الطبية الميكروبية الحديثة

الاكتشافات الطبية الحديث وتشمل ثلاثة تقارير عن:

(تأثر السقوط والغمس للذبابة المرلية على مدى تلوث الماء و الأغذية بالميكروبات و الجراثيم)

● التقرير الأول : دراسة مبدئية ..

● التقرير الثاني : تأثير درجة حموضة ماء الغمس.

● التقرير الثالث : تأثير السقوط والغمس للذباب على تلوث و نمو الميكروبات في الحليب.

لقد تصدت نخبة من علماء البحث العلمي في الجامعات العربية والإسلامية لتفسير هذا الحديث ، وأجروا بحثاً مخبرية كان من بينها كما جاء في كتاب الإصابة في صحة حديث الذبابة في طبعته الأولي للعالم الجليل الدكتور خليل إبراهيم ملا خاطر، عندما أجرى مجموعة من باحثي قسم الأحياء بكلية العلوم بجامعة الملك عبد العزيز بمكة وجامعة القاهرة منذ عدة أعوام دراسات جاءت نتائجها في ثلاثة تقارير :

أولاً: التقرير الأول ، تناول (تأثير السقوط والغمس للذبابة المرلية على مدى تلوث الماء و الأغذية بالميكروبات و الجراثيم).

١- دراسة مبدئية: وقد أجريت هذه الدراسة ، ثلاث مرات على ماء مقطر عادي ، وآخر مضبوط عند درجة حموضة (Ph4) وهو ما يماثل درجة حموضة المعدة ، وأظهرت نتائج تلك الدراسة أن أعداد الميكروبات النامية ، في الأوعية الخاصة بالماء الملوث ، عن طريق الغمس كانت أقل من ذلك الملوث ، عن طريق الزرع فقط بعد السقوط ، وهذه النتائج قد لوحظت وسجلت من متوسط عدد كبير جداً ، من المكررات حتى وصل في بعضها إلى الخمسين مرة ، وهذه النتائج جاءت على عكس المتوقع .. لو أن عملية التلوث هنا كما يتقبلها العقل مجردة ، حيث يعطي غمس الذبابة ، فرصة أكبر لإزالة الميكروبات عن جسم الذبابة ، عما إذا تمت إزالتها فقط عند سقوطها على سطح السائل. كما أظهرت نتائج تحضين الماء الملوث ، في كل معاملات السقوط والغمس لمدة ٦٠ دقيقة (على مزارع ميكروبية خاصة) أن أعداد الميكروبات تظهر تناقصاً ، في معاملات الغمس عن معاملات السقوط ، مما قد يوحي بأن غمس الذباب ، ربما أدى إلى خروج عامل ذات تأثير مضاد للميكروبات ، ومثل هذا الافتراض ، يمكن أن يفسر نقص أعداد الميكروبات ، في معاملات الغمس عموماً عن معاملات السقوط ، وأيضاً الانخفاض الشديد في الأعداد عند تحضين الماء الملوث ، في معاملات الغمس. ولقد كانت ظاهرة انخفاض أعداد الميكروبات في معاملات الغمس ، مقارنة مع معاملات الزرع (السقوط) ، واضحة في حالة كل الأعداد الكلية للميكروبات النامية ، على بيئة الآجار المغذي ، والأعداد الكلية على بيئة آجار الدم وأعداد الميكروبات المحللة للدم. كما ظهر أيضاً أن الماء غير المعقم ، عند درجة حموضة (Ph4) أظهر انخفاضاً في أعداد الميكروبات في معاملات الغمس عن مثيلاتها في معاملات الزرع (السقوط) أكثر وضوحاً عن نتائج الماء المعقم المعادي. كما لوحظ أيضاً أن غمس الذباب ثلاث مرات في الماء قد أعطى أعداداً للميكروبات أقل من معاملات زرع (سقوط) الذباب من على سطح السائل دون غمسه ، كما أظهرت نتائج التجارب بوضوح أن تحضين الحليب الملوث في معاملات الغمس ، قد أعطت في أغلب العينات النتائج أعداداً أقل من معاملات السقوط (الزرع) ، مما يوضح أن الغمس لا يقلل فقط من أعداد الميكروبات الملوثة للحليب ، ولكن يجد أيضاً من نموها .

ثانياً: التقرير الثاني : (تأثير السقوط والغمس للذبابة المنزلية على مدى تلوث الماء والأغذية بالميكروبات).

٢- تأثير درجة حموضة ماء الغمس : حيث أجريت تجارب على معاملات السقوط ، و الغمس في ماء مقطر عند درجة (Ph7) وعند درجة (Ph4) ، وتتبع الباحثون مدى تلوث الماء بالميكروبات ، حيث قدرت الأعداد الكلية، وأعداد الميكروبات النامية ، على آجار الدم ، وتلك المحللة للدم (Hemolytic) تحت هذه المعاملات، التي كررت بأعداد كبيرة لتأكيد الظاهرة. وتبين من النتائج أن الأعداد الكلية للميكروبات ، كانت في أغلب العينات أقل في معاملات الغمس ، عن معاملات السقوط ، ولقد ظهرت هذه النتيجة في أكثر من ٥٠ معاملة متتالية .

وعندما أجريت دراسة مماثلة ، على المجموعة الميكروبية النامية على آجار الدم ، فإن نتائج الدراسة كانت مشابهة أيضاً لتلك التي تم الحصول عليها من الأعداد الكلية ، حيث كانت أعداد الميكروبات الناتجة من معاملات الغمس ، أقل في أغلب العينات عن معاملات السقوط (الزرع).

أما بالنسبة لأعداد الميكروبات المحللة لآجار الدم ، فإن الاختلافات في أعداد الميكروبات بين معاملات السقوط والغمس ، كانت أكثر وضوحاً من أثره على الميكروبات الكلية ، والمقصود بها الميكروبات المتعايشة (غير المرضية) ، لأن هناك نوع آخر من الميكروبات ، ألا وهو المجموعة المسببة للأمراض مثل الكوليرا و التيفويد وغيرها ...

كما ظهر من النتائج التي أمكن الحصول عليها ، من عدد كبير من المكررات ، فإنه بالرغم من أن معاملات الغمس أعطت في المتوسط العام ، أعداداً مختلفت المجموعات الميكروبية ، أقل من معاملات السقوط، فإن الدراسات التي أجريت عند درجة (Ph7) وعند درجة (Ph4) أثبتت بوضوح ، أن الانخفاض الراجع لمعاملات الغمس ، كان أكثر وضوحاً ، مما يؤكد أن العامل المؤثر على الميكروبات يناسبه التأثير الحامضي عن المتعادل.

ثالثاً: التقرير الثالث (تأثير السقوط والغمس للذبابة المنزلية على مدى تلوث الماء والأغذية بالميكروبات).

٣- تأثير السقوط والغمس للذباب على تلوث ونمو الميكروبات في الحليب:

أجريت هذه الدراسة على حليب معقم ، حيث عرض بمعاملات سقوط وغمس الذباب ، وقدر مدى التلوث الميكروبي ، في كل حالة. كما حضن الحليب الملوث في كل حالة ، لمدة ثلاث ساعات ، وقدرت الميكروبات النامية ، على فترات خلال مدة التحضين ، في كل المعاملات. ولقد ظهر من النتائج أن معاملات السقوط أعطت أيضاً أعداداً أكبر من معاملات الغمس في الحليب ، بالنسبة لكل من الأعداد الكلية ، وأعداد الميكروبات النامية على آجار الدم ، وأيضاً أعداد الميكروبات المخلفة للدم . كما أظهرت النتائج بوضوح أن تحضين الحليب الملوث في معاملات الغمس ، أعطى في أغلب العينات أعداداً أقل من معاملات السقوط ، مما يوضح أن الغمس لا يقلل فقط أعداد الميكروبات الملوثة للحليب ، ولكن يحد من نموها أيضاً ، مما يعطي برهاناً أكثر وضوحاً ، عن وجود عامل ميثبط لنمو الميكروبات على الذباب ، يصل إلى الحليب عند غمس الذبابة.

فرضيات واستنتاجات نتائج الأبحاث المخبرية البيولوجية الحديثة

لقد انتهت نتائج التقارير المخبرية الثلاثة كما أرى والله اعلم ، إلى أن نتائج عملية الغمس للذباب في الماء أو الحليب ، قد إلى انطباعات أو فرضيات منها على سبيل المثال:

١. وجود عامل ميثبط لنمو الميكروبات والجراثيم الموجودة على الذباب ، والتي تسقط في الماء أو الطعام عند سقوط الذباب فيه ، ومن ثم الحد من نمو الجراثيم وتقليل عددها أيضاً.

٢. أن عملية الغمس تقلل من تأثير الجراثيم ، التي يحملها الذباب وتسقط في الماء أو الطعام عند سقوط الذباب فيه .

٣. أن تأثير عملية الغمس ، هي على الجراثيم المرضية ، أكثر مما هي على الجراثيم الكلية التي لا تحمل الأمراض وهذا ما يؤكد الحديث الشريف (داء ، شفاء).

٤. أن فعالية الغمس ، أظهرت فعالية القضاء على الجراثيم عند درجات مشابهة لدم الإنسان وجسمه بخلاف ما لو أجريت في وسط متعادل.

٥. أن النتائج أثبتت بشكل واضح ، أن الذباب إذا سقط ثم طار ، فإن الجراثيم التي تسقط منه في الطعام أو الشراب ، تزداد أعدادها ، بينما في حالة غمس الذبابة ثم رفعها ، فإن الجراثيم التي تسقط لا تبقى إعددها كما هي ، بل تبدأ في التناقص ، ويحد ذلك من نموها أيضاً .

٦. أن هذه التجارب ، أثبتت صحة الحديث أيضاً من الناحية العلمية التجريبية ، وإن كنا نتنظر ما هو أكثر من ذلك .

٧. إن الأمر المتوقع والمنطقي ، أن غمس الذبابة ، سيزيد من عدد الميكروبات و الجراثيم التي تسقط منه في الماء أو الطعام ، وذلك لأنها تعطي فرصة أكبر لانفصال الجراثيم و الميكروبات عن سطحه ، بخلاف وقوفه على الطعام أو الشراب ، ذلك لأن ما يمس منه إنما هي أطرافه وخرطوميه وأطراف أجنحته ، بينما في الغمس يسقط كله . هذا لو كان الأمر عادياً ومتوقعا . بينما نتائج التجارب جاءت عكس ذلك تماماً .. وهذا هو المذهل في الأمر ، نتيجة لتجارب كثيرة ومتعددة ، في مدة تزيد على العامين في كل من جدة والقاهرة في معامل الجامعات وعلى يد أساتذة مختصين ، هدفهم الناحية العلمية . وإن كانوا قد فرحوا بالنتائج التي توصلوا إليها .

٨. أن هذه التجارب أثبتت أعجازاً علمياً ، في السنة يضاف إلى المعجزات العلمية الأخرى التي تدلل على معجزة النبي صلى الله عليه وسلم الخالدة ، التي أوحى بها الله عز وجل ، قبل أن تقدم العلوم بالصورة التي نراها ونعيشها الآن .

٩. أننا ننتظر اكتشافات علمية أخرى ، سيفصح عنها الزمن تؤكد سبق الإسلام ونبي الإسلام عليه الصلاة و السلام ، في كل الميادين ، للحضارة الحديثة . وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وإن كان الباحثون قد اطمأنوا إلى النتائج التي توصلوا إليها ، على أساس صحة إسناد الحديث ، ومصداقته النبوية التي جاءت على لسان المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، وهو النبي الأمي الذي لم يعرف القراءة أو الكتابة ، ولم يتلمذ إلا على يد خالقه الأعظم وليس على مخلوق من البشر ، ولم تكن بين يديه ثمة مختبرات ، أو أجهزة بصرية مكبرة ، إلا أن كل ما سجلوه في نتائج هذه التجارب المخبرية لم يكن إلا افتراضات ...

إنه الإعجاز الإلهي على لسان النبي الذي لا ينطق عن الهوى ... إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى.

وقد ورد في حديث الذبابة هذا أقوال أئمة المسلمين في صحة الأسانيد ، التي تثبت صدقه الكامل ، وأوردها جميعها العالم الجليل الفيور على دينه ، الدكتور خليل إبراهيم في كتابه (الإصابة في صحة حديث الذبابة).

وقد تضمن هذا الكتاب أيضا نتائج التقارير الطبية ، التي تؤكد صدق الحديث من الناحية المخبرية حيث تبين أن عدد الميكروبات في السائل الذي غمست فيه الذبابة كاملة ، كانت أقل بكثير من أعداد الميكروبات في السائل الذي نزعته منه الذبابة دون غمسها . فإذا كانت هذه الأسانيد التي تثبت صحة الحديث ، وكانت تلك هي النتائج الطبية والمخبرية التي تؤكد صدقه على المستوى العلمي ، إذاً فما هو تفسير هذه الظاهرة المعجزة..؟!.

المعجزات العلمية الحديثة في حديث الذبابة

متى وأين ولمن قيل هذا الحديث ؟

إن هذا الحديث النبوي الشريف ، جاء على لسان المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام ، وقيل لأناس يعيشون على رمال الصحراء و في بطون الجبال وأوديتها في بيئة شحيحة الماء ، لا يجد فيها البشر حاجتهم من الماء ، إلا بشق الأنفس ، لقد ألفوا الرمضاء أكثر من ألفتهم لوفرة الماء ، فكانوا شديدي الحرص في المحافظة على كل قطرة ماء يحصلون عليها ، ولا يفرطون فيها . ومن الواضح لمدقق فيما جاء به هذا الحديث ، أن الناس كانوا يحرصهم يزعون الذباب إذا ما سقط في إناء أحدهم ، فجاء حديث النبي صلوات الله وسلامه عليه ، بنصيحة فطرية ، علمية ، طيبة ، معجزة ، بأن يغمسوه ثم يطرحوه .. وأكد القول فقال صلى الله عليه وسلم : .. فإن في أحد جناحيه الداء و في الآخر الشفاء .. ففعلوا بإيمانهم وتصديقهم بكل ما يحدث به الرسول صلى الله عليه وسلم .

إن هذا الحديث النبوي الشريف ، يؤكد ويثبت في مضمونه ثلاث معجزان علمية وطبية سبقت زمانها بمئات السنين ، وأنبأنا بها النبي الأمي الذي لا ينطق عن الهوى ، سيد الخلق أجمعين قبل أكثر من أربعة عشر قرناً .

أولى معجزات الحديث

الإنباء بوجود كائنات حية مجهرية مرضية ..

والتي تتصل بالإشارة الضمنية ، إلى وجود مسببات للمرض وهي كائنات مجهرية دقيقة كالميكروبات والجراثيم والفيروسات والفطريات وبعض الطفيليات ، التي يحملها الذباب وبعض خشاش الأرض كما أسلفنا ، ويتناولها الإنسان في أكله وشرابه ، أو تصيبه بالمرض بطرق مختلفة من العدوى ، وهو لا يراها ولم يعرف عنها من قبل ، فيصيبه الداء ، وهو لا يدري سبباً لدائه ، فكان يتقبل المرض بقوة إيمانه وعقيدته الراسخة ، بأن ذلك ابتلاء من الله ، يصيب به من يشاء من عباده ، فيصبر على المرض ويحتسب الأجر عند الله . وقد جاء الإنباء بوجود تلك الكائنات المسببة للأمراض المعدية بكافة أشكالها ، قبل اختراع الأجهزة البصرية المكبرة بمختلف أنواعها والتي أثبتت هذه الحقائق بعد اختراعها في العصور الحديثة أي بعد مرور مئات ومئات السنين ..

ثاني معجزات الحديث

الإنباء بوجود ظاهرة التوتر السطحي في السوائل ..

ولنقدم هنا اجتهادا بني على أساس علمي ، لتفسير هذا الحديث المعجز قديماً وحديثاً ، وإلى قيام الساعة ، وتتطابق استنتاجاته بكل دقة وموضوعية ، مع نتائج التجارب البيولوجية و الحيوية ، التي أجريت في المعامل المتخصصة ، عل يد مجموعة من الأساتذة المتخصصين و الباحثين بقسم الأحياء ، بكلية العلوم بجامعة الملك عبد العزيز بمجدة وجامعة القاهرة منذ عدة أعوام .

إننا نشاهد باستمرار ، وكل يوم أشكالاً طبيعية مألوفة لدينا ولا نتمتع فيها .. والأمثلة على ذلك متعددة ، نذكر منها شكل حبيبات المطر ، وقطرات الندى ، وقطرات الماء ، وفقائق رغوة الصابون ... إن جميعها لا يأخذ إلا الشكل الهندسي الكروي ، كامل الاستدارة في كل مقاطعه ، أو مساقطه .. بلا زوايا! فلماذا هذا الشكل الهندسي بالذات ؟ لماذا لا تأخذ الشكل المكعب ، أو المخروطي ، أو الأسطواني أو المنشوري أو غيرها من أشكال المجسمات الهندسية المعروفة لنا جميعاً ؟

الإجابة باختصار ، هي أن الشكل الكروي ، يضع الحجم المعين من أي سائل في حالته الحرة ، في أقل مساحة سطح .. وهو ما لا يتأتى إلا في الشكل الكروي دون غيره من الأشكال الهندسية الأخرى جميعها ...

لقد أثبت العلم الحديث ، وجود ظاهرة ربانية طبيعية في علم خواص السوائل تعرف بظاهرة التوتر السطحي. ومفاد هذه الظاهرة ، أن جزيئات سطح أي سائل ، تتجاذب فيما بينها بقوة ترابطية ، متساوية متجانسة في كافة الاتجاهات ، حتى يأخذ حجم معين من السائل ، أقل مساحة سطح في الفراغ .. بسبب تجاذب جزيئات سطح هذا السائل بعضها لبعض ، وفي حالة وجود السائل في وعاء ، فإن تجاذب جزيئات سطح السائل ، يكون على سطحه ما يشبه (الغشاء الوهمي المرن) ، ويتخذ سطح كل سائل شكلاً خاصاً محدداً ، يختلف من سائل لآخر باختلاف نوع السائل وكتافته ودرجة حرارته وقطر الوعاء ومادته وعوامل أخرى ..

فنشاهد على سبيل المثال أن سطح الزئبق يأخذ شكلاً محدباً لارتفاع كثافته وقوة التجاذب بين جزيئات سطحه ، في الوقت الذي يأخذ سطح سائل الكحول شكلاً مقعراً ، لانخفاض كثافته وضعف قوة التجاذب بين جزيئاته ، في حين يأخذ سطح الماء شكلاً مستوياً تقريباً .
كما تفسر لنا نفس الظاهرة ، تعلق قطرات بعض السوائل بجدر الأوعية ، التي كانت تملؤها عند تفرغها .. حيث تعلق قطرات السائل بجدار الوعاء بتأثير قوة تجاذب جزيئات سطح قطرات السائل بجدار الوعاء..

ويتم التحقق من إثبات ظاهرة التوتر السطحي ، عند دراسة خواص السوائل في علم الطبيعة (الفيزياء) ، وفي علم الكيمياء ، وذلك بوضع جسم مسط ، (غير أجوف) برفق مثل إبرة الحياكة ، أو قطعة من عملة معدنية خفيفة الوزن (من معدن الألومنيوم مثلاً) فوق سطح الماء في أحد الأوعية ، فنجد أن الجسم المسط ، لا يغوص إلى قاع الوعاء ، ولكنه يستقر على سطح السائل (ليس طفواً لأنه مسطاً ولا يخضع لقاعدة أرشميدس وقوانين الطفو) .

إن ثبات الجسم المسط واستقراره على سطح السائل يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك ، أن قوة تجاذب جزيئات سطح هذا السائل (الماء مثلاً) قد حالت دون غوصه في السائل وهذه القوة التجاذبية بذلك تكون أكبر من محصلة ثلاث قوى تؤثر على الجسم المسط من أعلى إلى أسفل ألا وهي :

وزن الجسم المسط.

الجاذبية الأرضية.

الضغط الجوي.

وهذا كما أسلفنا يقرب إلى الأذهان ، وجود غشاء وهمي مرن ، مكون من تجاذب جزيئات سطح السائل فيما بينها ، بقوة حالت دون غرق أو غوص الجسم المسط إلى قاع الوعاء .

ما هي العلاقة بين ظاهرة التوتر السطحي والذباب؟

من المعروف أن الحشرات الطائرة والهوام بصفة عامة ، تعلق على أجسامها أو تلتصق بها آلاف بل ملايين ، من مختلف أنواع الجراثيم والميكروبات والفيروسات والفطريات المجهرية الشكل والحجم والتركيب ، ونؤكد هنا على كلمة (تعلق) أو تلتصق بجسمها بسبب وجود بعض الإفرازات اللزجة على أطراف وأجسام بعض الحشرات ، فهذه الميكروبات والجراثيم والفيروسات ، ليست جزءاً من جسم الحشرة (كالأرجل و الشعيرات و الخرطوم أو الذنب أو الأجنحة...).

فإذا ما سقطت الذبابة وارتطمت بسطح السائل ، صارت طبقة الجراثيم والميكروبات والفيروسات والفطريات العالقة عليه ، طبقة وسطى ، بين جسم الذبابة و سطح السائل..

عند نزع الذبابة (دون غمسها) ، فإن طبقة الميكروبات والجراثيم والفيروسات والفطريات العالقة ، تنجذب في اتجاه سطح السائل بقوة التوتر السطحي بين جزيئاته .. وكأنها بمثابة عملية تقشير لتلك الطبقة العالقة على جسم الذبابة.. فيتلوث السائل بأكبر قدر من تلك الميكروبات والجراثيم والفيروسات .. وهذه طبيياً تعرف بالجرعة المرضية

(Clinically infective dose) ، أي الجرعة التي تتسبب في نقل عدوى المرض، أو الداء ، وبالتالي ظهور أعراضه بعد فترة حضانة داخل الجسم ، تتكاثر خلالها الميكروبات وتتححر الجراثيم والفيروسات من أغلفتها ، وتبدأ تلك الكائنات المرضية ، المجهرية الدقيقة في غزو أنسجة الجسم ، وتبدأ معها أعراض المرض في الظهور. وهنا تختلف ، وتتنوع صورة المرض (الداء) ، حسب كثافة ونوع وقوة الميكروب وقدرته على اختراق الأنسجة

(Virulence of the organism) ويبدأ معها الجهاز المناعي بجسم الإنسان بالتعامل ، حسب شرفتها الوراثية التي لا يألفها (الجهاز المناعي للجسم) وبالتالي فإنه يتعامل معها كأجسام غريبة عن شفرته الوراثية المألوفة له ، ويتعامل الجهاز المناعي تجاه هذا التفاعل كرد فعل حيوي متخصص.(Specific Reaction).

إما بتكوين أجسام مناعية مضادة متخصصة (Specific Antibodies) أو

مضادات لسموم تلك الميكروبات (Specific Antitoxins)

أو مضادات فيروسية (Specific Antiviral Antibodies)

تختلف استجابة الجهاز المناعي حسب طبيعة هذه الكائنات المجهرية المرضية الدقيقة من حيث نوعها وطريقة غزوها لأنسجة الجسم.

المعجزة الثالثة

الإنباء بالاستجابة المناعية للعدوى

(فكرة التطعيم ضد بعض الأمراض المعدية)

ملخص الحيل الدفاعية بالاستجابة المناعية بالجسم

Mechanisms Of Immune Response.

تنقسم الاستجابة المناعية بالجسم إلى نوعين :

النوع الأول : استجابة دفاعية ومناعية غير متخصصة .

Non-Specific immune response

والتي تنشط ضد جميع الميكروبات أو الجراثيم أو الفطريات (المرضية) دون سابق التعرف عليها أو سابقة التعرض لها :

كالجلد السليم (بدون تشققات أو جروح) .

إفراز الدموع والتي تحتوي على مادة الليزوزيم .

حامض الهيدروكلوريك بالمعدة ، والذي يؤثر بدرجة شديدة على العديد من الميكروبات ،

والجراثيم ، والفيروسات أيضاً ويقتلها .

الأغشية المخاطية المبطنة لقنوات ، وتجويفات الأجهزة المختلفة بالجسم والتي تقوم بإفراز مادة (

البروبردين) المضادة للبكتريا .

إفراز مادة المكمل (Complement) والتي تحمل بعض البكتريا وعلى وجه الخصوص

البكتريا السالبة (Gram Negative) .

الإنترفيرون ، وهو مادة مضادة للفيروسات ، تفرزها الخلايا المصابة بالفيروس الأغشية المخاطية ، وبعض كرات الدم البيضاء (T-Helper cells) ، ويحول الإنترفيرون دون تكاثر الفيروسات داخل الخلايا .
الخلايا الأكلة (Phagocytes) ، والتي تتعرف على الميكروبات والفيروسات والجراثيم ، وتبتلعها .

النوع الثاني : استجابة مناعية متخصصة .

Specific immune response

- وتنشط ضد ميكروبات أو جراثيم أو فيروسات محددة النوع بعد التعرف عليها أو بالتطعيم ضدها . ومنها نوعان :
النوع الأول : مناعة سائلة (Humeral Immunity) ، تسبح مضاداتها في سائل الدم وسوائل الأنسجة ، بعد تكوين أجسام مضادة دفاعية ، ضد الميكروبات التي دخلت الجسم (Immunoglobulins) ، ومنها خمسة أنواع مختلفة التأثير والوظيفة : IgA , IgG, IgM, IgE, & IgD .

• IgA

- هذا النوع من الأجسام المناعية متخصص لوقاية الأغشية المخاطية من الإصابة ، حيث يرتبط بالميكروبات ويحول دون قدرتها على إحداث المرض .

• IgG

- يمثل هذا النوع ٨٥ ٪ من الأجسام المناعية السابحة في الدم . كما أن له القدرة على التصدي للفيروسات ومعادلة سموم البكتيريا ، والتفاعل مع البكتيريا وتنشيط المكمل (COMPLEMENT) الذي يتم من خلال تحطيم البكتيريا .
- يتفاعل هذا النوع ، من الأجسام المناعية مع الميكروبات ، فإنه يساعد الخلايا الأكلة على ابتلاع هذه الميكروبات .

- هذا النوع من الأجسام المناعية ، هو الوحيد دون غيره من الأجسام المناعية الأخرى ، الذي يمكنه اختراق الأغشية المشيمية (**PLACENTAL BARRIERS**) في الرحم ، وتكسب الوليد مناعة متخصصة ، قد تمتد ستة شهور بعد الولادة.
- كما أن هذا النوع من الأجسام المناعية ، هو المسؤول عن الاستجابة المناعية الثانوية ، و التي تمتد لفترات طويلة بالجسم .

• IGM

- هذا النوع من الأجسام المناعية ، يعتبر من أكبرها في التركيب البنائي ، حيث يتكون الواحد منها ، من خمس وحدات مناعية مرتبطة (**PENTAMERS**) .
- أول الأجسام المناعية التي تظهر في الدم ، بعد التعرض للإصابة بالميكروب .
- يختفي هذا النوع من الأجسام المناعية من الدم ، خلال شهرين من التعرض للعدوى الميكروبية ، لذا يستدل به مخبرياً للتعرف على الإصابة الميكروبية الحديثة .

• Ige

- تتكون هذه الأجسام المناعية ، نتيجة التعرض للإصابة ببعض الميكروبات ، ثم تتحد مع أسطح الخلايا الدبقية أو الشبكية (**Mast cells**) ، و تلعب دوراً هاماً في إحداث الحساسية من بعض الميكروبات والأجسام مولدة الضد (**Antigens**) .

• Igd

- وهي أجسام مناعية قليلة التركيز ، مقارنة بغيرها من الأجسام المناعية الأخرى في الدم .
- وعلى الرغم من غموض دورها المناعي ، إلا أنها تتحد مع خلايا بي الليمفاوية (**B- lymphocytes**) وتلعب دوراً في تنشيطها .

أي أن هذه الأجسام المناعية تتفاعل ، بطرق متباينة مع الميكروبات المرضية المختلفة أو سمومها أو مع الفيروسات أو الفطريات ، وتعادل تأثيرها أو تبطل مفعولها المرضي ، كما تقوم هذه الأجسام المناعية ، بمساعدة عمل الخلايا الأكولة (**Phagocytes**) ، في ابتلاع الميكروبات وتحطيمها ، كما أنها تنشط عمل المكمل (**Complement**) ، الذي يقوم بدوره أيضا بقتل الميكروبات بصفة عامة من خلال تثقيب وتحطيم جدر هذه الميكروبات .

ما هي الخلايا المسؤولة عن تكوين الأجسام المناعية و المضادة المتخصصة ؟

تقوم بتكوين الأجسام المضادة ، خلايا ليمفاوية تعرف بخلايا بي الليمفاوية (B- lymphocytes) وتحتاج هذه الخلايا لنوعين آخرين من الخلايا لإتمام وإنجاز عملها: الخلايا الأكلة (Phagocytes) ، والتي تقوم بتجهيز الميكروب وتقديمه للخلايا الليمفاوية من النوع بي الليمفاوية (B- lymphocytes) في صورة تمكنها من التعامل معها. الخلايا الليمفاوية من نوع (بي الليمفاوية) (T- lymphocytes) المساعدة ،

و التي تقوم بإفراز مواد منشطة للخلية من نوع بي الليمفاوية (B- lymphocytes) مع دعم من الخلايا الأكلة ، لتتحول الخلايا من نوع بي الليمفاوية (B- lymphocytes) من الحالة الكامنة إلى الحالة النشطة التي تعرف آنذاك بخلايا البلازما (Plasma Cells) ، والتي تقوم بإفراز أجسام مضادة متخصصة (Specific Antibodies) .

- يتحول جزء من الخلايا الليمفاوية ، إلى خلايا تعرف بخلايا الذاكرة، (Memory Cells) ، والتي يسهل عليها التعرف على الميكروب أو الفيروس أو الفطر، عند التعرض للإصابة به مرة أخرى.. وبصورة استجابية ، أسرع وأقوي من المرة الأولى وهو ما نعرفه الآن طبيياً بالاستجابة المناعية الثانوية (Secondary Immune Response).

النوع الثاني من الاستجابة المناعية

Cell mediated Immunity المناعة الخلوية

ويتفاعل هذا النوع من المناعة ، مع الميكروبات التي لها خاصية التعايش داخل الخلايا

(Intra-cellular Pathogens)

مثل الفيروسات وبعض الميكروبات كعصيات الدرن و البروسيللا وبعض الفطريات.

وتتم هذه المناعة الخلوية بالتفاعل بين الخلايا الأكلة (Phagocytic Macrophages) وخلايا تي الليمفاوية (T- lymphocytes) والخلايا القاتلة (Natural Killer cells)، وينتج عن هذا التفاعل تحطيم الميكروبات التي لها القدرة على التعايش داخل الخلايا .

كيف يتخلص الجهاز المناعي من الخلايا الغريبة عنه ؟

. بابتلاعها — (Phagocytosis) .

. بتنشيط المكمل — (Complement Activation) .

. بتدميرها بالخلايا القاتلة — (Natural Killer cells) .

بقتلها بمضادات الحياة الخلوية المستقلة — ADCC
(Antibody dependent Cell Mediated Cytotoxicity)

المعجزة في غمس الذبابة قبل طرحها :

في حالة غمس الذبابة بعد سقوطها على سطح السائل ، قبل طرحها أو التخلص منها ، فإن جسم الذبابة وما يعلق عليها ، من ميكروبات وجراثيم وفيروسات وفطريات ، والتي تمثل طبقة وسطى بين جسم الذبابة وسطح السائل، فإن الذبابة وما عليها ، تتغلف بطبقة شبه كاملة من السائل (وكأنها غلاف) ، يحول دون تلوث السائل بقدر كبير من الميكروبات والجراثيم والفيروسات والفطريات ، وعلى الرغم من نزول أو تلوث السائل بقدر ضئيل نسبياً من هذه الكائنات الدقيقة إلا أن هذه الجرعة البسيطة تعرف طبيياً بالجرعة دون المرضية (Sub clinical infective dose) . وهي التي تحث الجهاز المناعي بالجسم ، لتكوين أجسام دفاعية أو مناعية أو مضادات لسموم تلك الميكروبات ، أو الفيروسات أو الفطريات ، ولكن دون ظهور أعراض مرضية ، وعادة ما تبقى مثل هذه الأجسام المناعية المضادة ، في جسم الإنسان تسبح في دمه لشهور ، أو لسنوات أو مدى حياته ، لترد عنه نفس السداء ، إذا ما تعرض للعدوى به مرة ثانية !

أليست هذه فكرة التطعيم الحديثة ضد الأمراض المعدية ، والتي عرفها الطب الحديث ، بعد جهد جهيد وأبحاث وتجارب مضنية ، قام بها آلاف من العلماء والأطباء المتخصصين ، من شتى بقاع الأرض وأعدوا لها الأبحاث ، وأقاموا لها المؤتمرات و تبادلوها عبر الخافل الدولية ، وسجلها لهم التاريخ بأحرف من نور ، في أمهات الكتب والمراجع ، وبكل اللغات بعد أن استعانوا بوسائل التكبير ، البصرية والمجهرية والإلكترونية ، والمزارع الميكروبية وأجهزة التعقيم وغيرها من أدوات ، وأجهزة علمية حديثة ومعقدة ؟ وأنبأنا بما النبي الأمي الذي لا ينطق عن الهوى؟
وبذلك فقد تطابقت نتائج الأبحاث المخبرية ، التي أجراها فريق البحث في كلية العلوم ، بجامعة الملك عبد العزيز بمجدة ، والتي سبق الإشارة إليها كفرضيات ، مع الأخذ بتطبيق ظاهرة التوتتر السطحي ، لتفسير تناقص أعداد الميكروبات والجراثيم في معاملات الغمس بعد التحضين على المزارع الميكروبية ، وتزايد أعدادها في معاملات الرع بعد التحضين .

خاتمة البحث

بقي أن نقول بعد ذلك للمعترضين على هذا الحديث المعجز :

إن هذا الحديث على الرغم من أعجازه العلمي إلى يوم الدين ، قد عني بأمور كثيرة ، تمس مشاعر المسلم الفطن الواعي ، وتحفظ عقله من التشتت ، إذا ما تعقل وصبر على فهم هذا الحديث ، وعلينا أن نتدبر بعض هذه الأمور :

■ إن هذا الحديث قد قاله الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام ، في بيئة صحراوية قاحلة ، تندر فيها الموارد المائية ، حتى أن أهلها قد ألفوا الرمضاء قبل الرغداء.

■ مراعاة الدقة في اختيار كلمات الحديث ، فلم يحدد الرسول صلى الله عليه وسلم ، في مجمل هذا الحديث ، أي الجناحين يحمل الداء ، وأيهما يحمل الشفاء .! أهو الجناح الأيمن أم الجناح الأيسر؟ لأن ذلك لن يغير في الأمر من شيء .

■ إن هذا الحديث ، لا يجبر المسلم على احتساء شراب أيا كان ، سقطت فيه ذبابة أو ما شابهها من هوام أو قشاش الأرض كما أسلفنا ، فإذا عافتك نفسك أن تشربه ، فهذا ليس إثماً منك ، ولا بأس ، لأنك لم تحرم شربه ، ولكن عافتك نفسك أن تتناوله .. وهذا يذكرنا بموقف الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، عندما دُعي لأكل لحم الضب ، فلم يأكله ، وقال صلى الله عليه وسلم : "لم يكن بأرض قومي ، فتجدني أعافه" . فالبعض منا لا يأكل دهن الضأن المطبوخ ، أو بعض الوجبات الدسمة أو الحارة أو غيرها من الأطعمة التي تقدم له على بعض الموائد أو في بعض المناسبات ، وقد يعتذر عن عدم تناولها أو لا يعلق على ذلك ، لأن هذا لا يعني تحريمه إياها ، ولكن نفسه تعافها ، وهذا أمر طبيعي في نفوس البشر كافة .

■ ليس هناك من البشر ممن لا يزالون يعيشون في صحاري تندر فيها الماء ؟ أليس هناك من الجنود أو غيرهم ممن يحاصرون في مكان ما ، فلا يجدون إلا القليل من الماء ، أليس هناك من يعانون جفاف أوديتهم في بعض الفصول من السنة ؟.. ألا ترى أيها المسلم الفيور ، أن هذا الحديث مكانة في عصرنا هذا وإلى يوم الدين وإن استغربته ؟ ولكن إياك أن تنكره ..فقائله صلوات الله وسلامه عليه لا ينطق عن الهوى .

" وما أوتيتم من العلم إلا قليلا" صدق الله العظيم

والله من وراء القصد.

مراجع البحث :

١. القرآن الكريم.
٢. الإصابة في صحة حديث الذبابة - ت للدكتور خليل إبراهيم ملا خاطر - ط أولى ١٤٠٥ هـ.
٣. الاستذكار - للحافظ ابن عبد البر طبعة القاهرة.
٤. الإكمال - لابن ماكولا - تصوير بيروت.
٥. الأم - للإمام الشافعي - ، ط دار الشعب بمصر.
٦. الأنساب - للسمعاني ، ط دائرة المعارف العثمانية - الهند.
٧. الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف - للمرداوي، ط السنة المحمدية بمصر ١٣٧٥.
٨. أبو هريرة في الميزان - للأستاذ محمد محمد السماحي.
٩. أقرب المسالك لمذهب الإمام مالك - للدردير - مع الشرح الصغير له.
١٠. البحر الرائق شرح كثر الدقائق - لابن نجيم ، ط ٢ دار المعرفة ببيروت.
١١. بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع - للكاساني - تصوير بيروت عن الطبعة الأولى .
١٢. بداية المبتدي - ط أخيرة نشر المكتبة الإسلامية .
١٣. تأويل مختلف الحديث - لابن قتيبة، ط القاهرة.
١٤. التاج والإكليل لشرح مختصر خليل - لابن المواق - بمأمش مواهب الجليل.
١٥. التاريخ - ليحيى بن معين - رواية الدوري ت د. أحمد .
١٦. تاريخ بغداد - للخطيب البغدادي، ط القاهرة .
١٧. التاريخ الصغير - للإمام البخاري - طعتان.
١٨. التاريخ الكبير - للإمام البخاري ط الهند.
١٩. تبصير المنتبه بتحرير المشته - للحافظ ابن حجر العسقلاني ط القاهرة.
٢٠. تبين الحقائق شرح كثر الدقائق - للزيلعي - نشر دار المعرفة - بيروت.
٢١. تحفة الفقهاء - لعلاء الدين السمرقندي ط دار الفكر بدمشق.
٢٢. تذكرة أولي الأبواب و الجامع للعجب العجاب - لداود بن الضير الأنطاكي ط ٢ المطبعة الأزهرية ١٣٢٤ هـ.
٢٣. تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبي - ط الهند.

- ٢٤ . ترتيب المدارك للقاضي عياض ط بيروت.
- ٢٥ . تقريب التهذيب - للحافظ ابن حجر العسقلاني ط القاهرة.
- ٢٦ . الثقات لابن حبان . ط دائرة المعارف العثمانية الهند ١٤٠٠ هـ .
- ٢٧ . الثقات - لابن شاهين ط على الآلة الكاتبة - رسالة ماجستير قدمت لجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض.
- ٢٨ . التلخيص الحبير للحافظ ابن حجر العسقلاني ت. السيد عبد الله هاشم اليماني.
- ٢٩ . التمهيد - للحافظ ابن عبد البر ط المغرب.
- ٣٠ . تهذيب التهذيب - للحاف ابن حجر العسقلاني تصوير بيروت عن الطبعة الهندية.
- ٣١ . تهذيب الكمال - للحافظ المزي مخطوط.
- ٣٢ . الجامع الكبير للحافظ السيوطي، محفوظ.
- ٣٣ . الجامع لمفردات الأدوية والأغذية - لابن البيطار - تصوير مكتبة المثنى ببغداد.
- ٣٤ . جذوة المقتبس - للحميد الأندلسي، ط الدار المصرية للتأليف - القاهرة.
- ٣٥ . الجرح والتعديل - لابن أبي حاتم، ط الهند.
- ٣٦ . الجمع بين رجال الصحيحين - لابن القيسراني، ط الهند.
- ٣٧ . حاشية الصاوي على الشرح الصغير - ط عيسى البابي الحلبي - مصر.
- ٣٨ . حلية العلماء - للشاشي القفال ط مؤسسة الرسالة - بيروت.
- ٣٩ . حياة الحيوان - للدميمي - دار الفكر - بيروت.
- ٤٠ . الحيوان - للجاحظ، مطبعة التقدم بمصر ١٣٢٤ هـ.
- ٤١ . الخرشني على مختصر سيدي خليل - تصوير دار صادر بيروت.
- ٤٢ . الخلاصة - للإمام الخزرجي - طبعتان.
- ٤٣ . دفاع عن أبي هريرة - للأستاذ عبد المنعم صالح العلي ط بيروت.
- ٤٤ . الرسالة - للغمام الشافعي - ت احمد محمد شاكر.
- ٤٥ . زاد المعاد - للإمام ابن القيم - طبعتان.
- ٤٦ . سبل السلام - للصنعاني ط بمطابع الرياض - الرياض.
- ٤٧ . السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي - للأستاذ الدكتور مصطفى السباعي.
- ٤٨ . السنن - لأبي داود - ت محي الدين عبد الحميد، نشر دار إحياء السنة النبوية.
- ٤٩ . السنن - لابن ماجه - ت محمد فؤاد عبد الباقي، ط عيسى البابي الحلبي.

٥٠. السنن - للدرامي ت. السيد عبد الله هاشم اليماني.
٥١. السنن - للنسائي بحاشية السيوطي والسندي.
٥٢. السنن الكبرى - للإمام البيهقي ، تصوير بيروت عن الطبعة الهندية.
٥٣. شدرات الذهب - لابن العماد الخنيلي - ط القاهرة.
٥٤. شرح السنة - للإمام البغوي ط ١ - المكتب الإسلامي ١٣٩٧ هـ.
٥٥. شرح العناية على الهداية - لأكمل الدين البابري ، مع فتح القدير.
٥٦. الشرح الصغير - للدردير ، ط عيسى البابي الحلبي.
٥٧. صحيح البخاري - للإمام البخاري - بشرح فتح الباري و ط اسطنبول.
٥٨. صحيح بن حبان - ت عبد الرحمن عثمان - ط القاهرة
٥٩. صحيح ابن خزيمة - ت مصطفى الأعظمي - ط بيروت.
٦٠. الطب النبوي - للإمام ابن القيم ط القاهرة.
٦١. طبقات الحفاظ للحافظ السيوطي - ، ط القاهرة.
٦٢. طبقات الشافعية الكبرى - للإمام تاج الدين عبد الوهاب السبكي ت الأستاذين الحلو والطناحي ط عيسى البابي ط أولى.
٦٣. الطبقات الكبرى - لابن سعد ط بيروت.
٦٤. عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات - للقزويني ط ٤ ، مصطفى البابي الحلبي.
٦٥. علل الحديث - لابن أبي حاتم - تصوير مكتبة المثنى ببغداد.
٦٦. عمدة القاري شرح صحيح البخاري - للإمام العيني: تصوير دار الفكر بيروت.
٦٧. غريب الحديث - لأبي عبيد القاسم بن سلام ط الهند.
٦٨. فتح باب العناية - لملا علي القاري ت - الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة.
٦٩. فتح الباري شرح صحيح البخاري - للحافظ ابن حجر، ط السلفية بالقاهرة.
٧٠. الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير - للشيخ يوسف النبهاني، ط مصطفى البابي الحلبي.
٧١. فردوس الحكمة في الطب - لأبي الحسن علي بن سهل الطبري.
٧٢. القانون في الطب - لابن سينا - تصوير مكتبة المثنى ببغداد.
٧٣. الكاشف - للحافظ الذهبي، ط القاهرة.

٧٤. الكافي في فقه أهل المدينة المالكي - لابن عبد البر، نشر مكتبة الرياض الحديثة - الرياض .
٧٥. كشف الأستار عن زوائد البزار - للهيثم ت الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي.
٧٦. كثر الدقائق بشرح تبين الحقائق - لحاف الدين النسفي ، دار المعرفة بيروت.
٧٧. اللباب في تهذيب الأنساب - لابن الأثير، تصوير بغداد.
٧٨. المسوط - للإمام السرخسي - ط ٢ دار المعرفة بيروت.
٧٩. مجلة الزهار ، المجلد الثلاثون - عام ١٣٧٨ - عدد رجب - منها فقط.
٨٠. مجمع بحار الأنهار - محمد طاهر الفتني - ط الهند.
٨١. مجمع الزوائد - للحاف الهيثمي ، ط القاهرة.
٨٢. المجموع - للإمام النووي - ط مطبعة التضامن الأخوي ١٣٤٤هـ.
٨٣. المجمع للإمام النووي - محمد نجيب المطيعي ، توزيع المكتبة العالمية بالفجالة.
٨٤. مجموع الفتاوى - لابن تيمية ن ط الرياض.
٨٥. مختصر الزني - للإمام الزني - بهامش الأم.
٨٦. المدونة - للإمام مالك - رواية سحنون - ط أولى مطبعة السعادة مصر.
٨٧. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح - للملا علي القاري ط الهند.
٨٨. المسند للإمام أحمد بن حنبل - ت أحمد شاكر.
٨٩. المسند للإمام أحمد بن حنبل تصوير دار صادر والمكتب الإسلامي - بيروت.
٩٠. مسند أبي داود الطيالسي - للإمام أبي داود سليمان بن داود بن الجارود ن ط دائرة المعارف النظامية بالهند ١٣٢١ هـ.
٩١. المسند - عبد بن حميد - مخطوط - وقد أعده الشيخ سالم الدخيل لثيل الدكتوراه في الحديث.
٩٢. مسند أبي يعلى الموصلي - مخطوط بالجامعة الإسلامية - بالمدينة المنورة.
٩٣. مشكل الآثار - للإمام الطحاوي ، ط الهند.
٩٤. المصنف - لابن أبي شيبة ، ط الهند.
٩٥. المصنف - للإمام عبد الرزاق الصنعاني ، ط بيروت.
٩٦. معالم السنن - للإمام الخطابي ، ط القاهرة.
٩٧. معجم البلدان - للإمام شهاب الدين ياقوت الحموي ، ط دار صادر بيروت ١٣٩٧هـ.
٩٨. معرفة السنن والآثار - للحافظ البيهقي - مخطوط : نسخة احمد الثالث.
٩٩. المغني - لابن قدامة المقدسي ، ط بيروت.

١٠٠. مغني المحتاج إلى معرفة معاني المنهاج - للخطيب الشربيني - مصطفى البابي الحلبي .
١٠١. المقنع - لابن قدامة - نشر المؤسسة السعيدية بالرياض.
١٠٢. المنتقى - لابن الجارود ، ت السيد عبد الله هاشم اليماني ط القاهرة.
١٠٣. منحة المعبود في ترتيب مسند الطيالسي أبي داود - للساعاتي ، ط القاهرة.
١٠٤. المهذب - للإمام الشيرازي ، ط القاهرة .
١٠٥. موارد الظمان - للحافظ الهيثمي ، ط القاهرة.
١٠٦. مواهب الجليل لشرح مختصر خليل - للحطاب ، ط مكتبة النجاح - ليبيا.
١٠٧. النهاية في غريب الحديث - لابن الأثير الجزري ، ت الطناحي ط عيسى البابي الحلبي بمصر.
١٠٨. نهاية المحتاج إلى شرح المحتاج - للرملي - نشر المكتبة الإسلامية.
١٠٩. نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار - للشوكاني - دار إحياء التراث.
١١٠. وفيات الأعيان - لابن خلكان - ط بيروت.
١١١. مواقع الإنترنت عن ظاهرة التوتر السطحي (www.Surface tension demo.)

112. Medical Microbiology 22nd edition-Lange medical book
Copy right 2001 - p.109 - 132 - Roderick Nairn, Professor
and Chairman dept. of Medical Microbiology and
Immunology -Creighton University of Medicine Omaha,
USA.

التكوين الاجتماعي لجماع النحل كما صورّه القرآن الكريم

م. حاتم البشتاوي

الفهرس

٢	المقدمة	أولاً:
٣	الدواب والنحل في القرآن الكريم	ثانياً:
٦	التكوين الاجتماعي لمجتمع النحل	ثالثاً:
١٤	بيوت النحل	رابعاً:
١٩	ذكاء النحل	خامساً:
٢٢	إن في ذلك لآية لقوم يفكرون	سادساً:
٢٦	المراجع	سابعاً:

أولاً : المقدمة

قال الله تعالى : ((سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)) - الأعلى (١-٣) سبحانه الذي جلَّت قدرته فخلق الخلائق من العدم، وهو وحده سبحانه الذي صمَّم شكل هذه الخلائق وحجمها ليتلاءم مع الظروف المعيشية التي تعيش فيها ، ثم هداها إلى مهمتها في الحياة . . فألهمها كيف تتكاثر وتتغزل وتتزوج . . وعلمها كيف تطير وكيف تصنع أعشاشها . . وكيف تربِّي صغارها وتحافظ على نسلها ونوعها . . وتتوارث ذلك كله تلقائياً وبشكل غريزي .
وهو وحده سبحانه الذي قدر كل صغيرة وكبيرة في جسمها تقديراً دقيقاً ((وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ)) - الرعد ٨ . .

وهو الذي قدر لها أقواتها في هذه الحياة ((وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ، وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ، كُلٌّ فِي كِتَابٍ مَبِينٍ)) - هود ٦ .

والمراد من ذكر الدوابِّ والأنعام والطيور والحشرات أينما ذكرت في كتاب الله تعالى إنما هو على وجه الدقة صرف الانتباه إلى التفكير في الخلق واستدلال العبرة والتأمل في حياة المخلوقات جميعها دون تفريق بين الكواكب والجبال والبحار في جانب . . والنحل والنمل والعناكب في جانب آخر ، أي أن كل ما في الكون جلّ أو حقير موضوع بحث وتأمّل وتدبّر لا يصحّ من وجهة النظر الإسلامية إهماله ، ولا غنى عن إيلائه أقصى ما يستطاع من درس وإعمال فكري ، لما ينبج عن هذين - الدرس والتفكير - من ترسيخ للإيمان بالله وحكمته وقدرته ، ثم من فوائد تعود على الإنسان في حياته وتدبير معاشه .

ذلك هو الجديد الذي جاء به الإسلام حين وجّه الإنسان إلى التفكير حتى في الذبابة والنحلة والنملة وغيرها . . بيد أن العبرة الكبرى التي لم يحسن تبينها الأقدمون إجمالاً واخذثون على العموم إنما هي تلك الفروق الأساسية أو الفطرية بين الإنسان والحيوان التي تشدّد القرآن الكريم في بيانها . . والوقوف طويلاً عندها . . وحثّ الناس على التنبّه لها وحسن الاستفادة منها في تسيير الحياتين : الشخصية والعامّة .

ويمكن تلخيص تلك الفروق في هذا المعنى الدقيق والجليل معاً وفي آن واحد وهي أن الحيوان في سعيه للبقاء وتعلّقه الشديد بالحياة ورهاقة غريزته التي تزوده بكل ما يحتاج إليه من مهارات وتقنيات وقوى وحتى من ذكاء في معظم الحالات ، هذا الحيوان يظلّ بصفاته الفطرية هذه " قوّة عمياء " . . يشكل ضلاله من خلال تلك الفطرة أساساً لسلكه مهما بلغ من النباهة وحسن التصرف والقدرة على التكيف ، بينما يظلّ الإنسان على العكس من الحيوان قابلاً للهداية وللتبصّر وللتفكير لتجنّب السوء في الحال والمصير . . والتطلّع إلى عالم الفضل . . وبناء حياة أرقى من حياته الراهنة : في إطار الفرد والمجتمع على السواء .

ثانياً : الدوابّ والنحل في القرآن الكريم :

وقد أوردَ القرآن الكريم الكثير من الأمثلة عن عالم الحيوان، وقسمها إلى حشرات وطيور ودواب ، وقسم الدوابّ إلى أنعامٍ ومستأنساتٍ ووحوش . والدوابّ جمع دابةٍ ، وتصغيرها دويبة ، والدابةُ والدويبة مشتقة من فعل (دبّ) ومعناه مشىً ممدوءٍ ولم يسرع ، ومنه ديبب الحشرات على الأرض وديبب السقم في الجسم .

وقبل أن يهتمّ العلم الحديث بالحيوان ويخصّص له الدراسات المستقلة والمعاهد المتفرّعة لدراسته نجد أن القرآن الكريم يسبقه بأربعة عشر قرناً من الزمان بالدعوة إلى دراسة الحيوان ، وتوجيه النظر لملاحظته ومتابعته ومراقبته للوقوف على بعض أسرار معيشته والوقوف على اليسير من بدائع حياته . وفي هذا السياق أكد القرآن الكريم اهتمامه بالحيوان بأن أطلق أسماء بعض أصنافه على بعض سورهِ الشريفة مثل : سورة البقرة ، وسورة الأنعام ، وسور النحل والنمل والعنكبوت ، وسورة العلق، وسورة العاديات، وسورة الفيل .

وقد ذكّر القرآن الكريم تسعة أنواع مختلفة من الحشرات تشمل كلاً من: الذباب والبعوض والقمل والجراد والنحل والنمل والعنكبوت والمنّ ونمل الخشب (دابة الأرض) .

ولا بد لنا من الإشارة في هذا المقام إلى الحياة الاجتماعية لدى كثير من أنواع الحيوان : ((وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أممٌ أمثالكم)) - الأنعام ٣٨ ، ولم يكن التعرّض لذكر الحيوانات مراراً وتكراراً إلا لمقاومة الضلال ودفع الغفلة واستئلال العبرة والركون إلى العقل - ميزة الإنسان الكبرى - في إدراك العواقب والنفاذ إلى المصير . (٢)

ويحتل النحل المقام الأول في عالم الحشرات في مجال الحياة الاجتماعية: في تحديد الواجبات والمسؤوليات، وفي تصميم البيوت، وفي ترتيب حجر النحل، وفي تربية الملكات والحفادات، وفي الأخلاق والسلوك كما تبينه الفقرات التالية:

مجتمع النحل:

قال تعالى: (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يعرشون * ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) النحل ٦٨-٦٩.

تعتبر الحشرات التي يزيد عددها على ٩٢٨٠٠٠ نوع العدو الأول للإنسان في الأرض حيث تشاركه رزقه وتتطفل على حياته بل تحيلها في كثير من الأحيان إلى جحيم لا يطاق، بينما تعمل أنواع أخرى من هذه الحشرات في خدمة الإنسان يتمتع بجمالها ويأكل من خيراتها ويستفيد مما حباها الله بها من قدرات وإمكانات. ولقد تعرّف علماء الحشرات على أكثر من ١٢٠٠٠ نوع من أنواع النحل منها حوالي ٦٠٠ نوع (٥٥%) من أعداد هذه الأنواع يمّون حياة اجتماعية في مستعمرات متباينة الأحجام، والباقي يمّون حياة فردية.

وقد استوطن النحل الأرض وعاش فيها قبل أن تطأها أقدام بني آدم بأكثر من ١٥٠ مليون سنة، كما تشير إلى ذلك أقدام آثار النحل التي تم اكتشافها في صخور القشرة الأرضية. وتعتبر - النحلة - إحدى هذه الحشرات المباركة، التي أودع الله فيها من الأسرار ما لم يودع في غيرها، وتجلّى فيها قدرته تعالى وحكمته وطلاقة مشيئته، وفضله الكبير على الإنسان بأن جعل مما يخرج من بطون هذه الحشرات الصغيرة شفاء لأسقام بني آدم وغذاء لجسده إضافة إلى جعله ما يخرج من بطونها آيات يتدبرها المؤمنون أثناء الليل وأطراف النهار.

والنحلة حشرة صغيرة ضعيفة من رتبة غشائيات الأجنحة، ومن العائلة التي تستطيع - بإذن ربها - تخزين رحيق الأزهار من أجل غذائها وتحويله إلى شمع وعسل. وقد ورد ذكرها في الآيتين السالفتين من سورة النحل، حيث جاءت بعد ذكره تعالى ما يدل على باهر قدرته، وعظيم حكمته من إخراج اللبن من بين فرث ودم، وإخراج الرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب، فبيّنت إلهام الله وهدايته للنحلة بأن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها، كما تتخذ من الشجر والأكوار التي يبنها الناس لها كذلك.

النحل آية من آيات الله في الخلق والإبداع

ويتراوح عدد الأفراد في خلية نحل العسل سنوياً ٤٠٠٠٠ - ٨٠٠٠٠ شغالة من إناث النحل العاقرات (العواقر)، اللواتي يشكلن ٨٠% من مجموع أفراد الخلية، وحوالي المائتين من ذكور النحل، وملكة واحدة تبيض حوالي (١٥٠٠) بيضة في اليوم، وما يلحق من هذا البيض ينتج إناثاً وملكات، ومالا يلحق ينتج الذكور، ووظيفة ذكر النحل منحصرة في إخصاب الملكة بينما تقوم الشغالات النحل العقيمة بجميع أعمال الخلية.

وإن إنتاج كيلوغرام واحد من العسل يتطلب من النحل القيام بـ ٦٠٠,٠٠٠ - ٨٠٠,٠٠٠ طلعة والوقوف على ٦ - ٨ مليون زهرة، تقطع خلالها النحل مسافة ٢/١ مليون كيلومتر أي أكثر من ١٠ أضعاف محيط الكرة الأرضية، وتخزن الرحيق في معدة غير المعدة التي تخزن فيها الطعام. (٤)

هذا وتطير النحلة بسرعة ٢٤ كم في الساعة وقد تصل سرعتها إلى ٦٠ كم في الساعة وهي سرعة مذهلة، وتطير على ارتفاع ١ - ٨ أمتار متجاوزة فيها الأشجار والأبنية والهضاب. وقد زوّد الله أجنحتها بعضلات مذهلة تضرب الهواء بسرعة تتجاوز ٥٠٠ ذبذبة في الثانية. (٤)

ويصنع النحل بيوته من الشمع في غاية الإحكام والإتقان، في أشكال سداسية مرصوصة، بحيث لا يكون بينها خلل. والله تعالى قد أذن لها إذناً قديراً تسخيراً أن تأكل من كل الثمرات (الأزهار) التي تستهيتها، وأن تسلك الطرق في طلب المرعى في الجو، ثم تعود ملهمة إلى بيتها لا تحيد عنه. وقد بين الخالق العظيم أنه يخرج من بطونها عسل متنوع الألوان فيه شفاء من كثير من الأمراض، فهذه النحلة هي آية من آيات الله تعالى لقوم يتفكرون فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر الحكيم العليم.

والفعل (أوحى) في هذه الآية من معانيه الإلهام والتسخير، ومن معاني الوحي الإلقاء بالأمر أو بالخبر في خفاء وسرعة. والوحي من الله تعالى إلى نحل العسل قد يكون نوعاً من الإلهام الفطري الذي زرعه الله تعالى في جبلتها أو في الشفرة الوراثية الخاصة بنوعها، أو ألقاه في روعها بعلمه وحكمته وقدرته، وكلا الأمرين يشي بشيء من الفرائز الفطرية لدى نحل العسل تعطيه قدراً من الذكاء والوعي والإدراك والشعور والإحساس الذي يمكنه من تمييز الأشياء، والأماكن والاتجاهات والأوقات، كما يمكنه من تنظيم وترتيب وضبط حياته الاجتماعية بعدد من القواعد الدقيقة التي وهبها الله تعالى إياها. (٢)

وعندما تعود النحلة الجامعة محملة بالرحيق تتلقاها النحل الشابة الصانعة للعسل، فتأخذ منها الرحيق. وتتقاسم هذا الحمل من الرحيق ثلاث نحللات أو أكثر، ثم تخرج النحلة الجامعة ثانية إلى الأزهار. أما عندما تكون النحللات العاملة داخل الخلية لا تزال محملة بالرحيق في الموسم الغزير، فإن النحلة الجامعة العائدة إلى الخلية تبقى منتظرة حتى تتسلم منها أخواتها ذلك الحمل من الرحيق أو تضعه مباشرة في إحدى العيون، مخازن العسل. وفي هذه المرحلة يكون العسل غير ناضج، وعليه أن يمرّ بطريق طويل حتى ينضج، ذلك أن عدداً كبيراً من النحللات صانعات العسل، تبدأ في تبخير جزء كبير من الماء الذي فيه. (٣)

وقد زوّد الخالق العظيم شغالات النحل فقط بأربع مجموعات من الغدد التي تنتقي من غذائها: العسل، والغذاء الملكي، والشمع، والخمائر، والسموم. (٣)

ثالثاً: التكوين الاجتماعي لاجتمع النحل

يقول الله تعالى عن النحل: ((وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)) - النحل ٦٨ .

وتفيد الآية الكريمة السابقة بأن الله قد وضع في بعض أنواع النحل وبالذات نحل العسل غريزة التجمع ، فالنحل أتى في هذه الآية بصيغة الجمع ، واتخاذ المساكن بصورة جماعية سواء في البرية أو حتى في الأنواع المستأنسة منها. وهو يحيا في جماعات منظمة تنظيمياً دقيقاً للغاية، ويسكن كل منها بيتاً خاصاً يسمى الخلية، ولذلك جاء اسم السورة الكريمة بصيغة الجمع (النحل)، كما جاءت الإشارة في هذه الآيات المتعلقة بهذه الحشرة المباركة بصيغة الجمع حيث يقول ربنا تبارك وتعالى (وأوحى ربك إلى النحل ...)، وبنفس الوقت فلو أن إحدى أفراد خلية النحل انزلت عن جماعتها لسبب من الأسباب فعليها أن تنضم إلى جماعة أخرى من صنفها إذا قبلتها أو أن تموت. ثم كلي من كل الثمرات

والنحلة آية من آيات الله تعالى إذ كيف تصنع لنا العسل ؟ وكيف تبنى بيوتها ؟ وكيف تقسم البيت إلى غرف في نظام هندسي عجيب ؟ منها الصغيرة للعمال ، ومنها الكبيرة لليعاسب ، ومنها غرف للملكات الحوامل !

وانظر كيف يتقاسمن الأعمال كما يتقاسمن المساكن ، فمنها ما يقوم بحني السكر من كؤوس الأزهار ، ومنها ما يقوم بإعداد الغذاء للأطفال فيمضغ لها العسل ليسهل عليها هضمه ، فإذا بلغ الأطفال الحد الذي تستغني به عن هذه المساعدة كفت العاملات الطابحات عن المضغ ، ولكن هذا الدلال يبقى للمرشحات للعرض . . ويستمر هذا التعاون الجماعي من دون أن يختل أو يتبدل على كثر الأيام والسنين بدقة لا يتيسر لنا أن نراها في أحسن مؤسسة اجتماعية يديرها الإنسان العاقل . (٩)

ومجتمع النحل من أنشط المجتمعات إن لم يكن أنشطها على الإطلاق . . يعمل أفرادها في هدوء وإخلاص . كل فرد فيه يعلم واجبه تماماً فيؤديه خير أداء دون خوف من حاكم أو سلطان . . فليس في مجتمع النحل جهاز التنظيم والرقابة . . فكل فرد يعمل بفطرته التي فطره الله سبحانه عليها . . فلا جدال ولا مشاحنات ولا صراعات . . كل يعمل لصالح الجماعة ، ولذلك ظهرت خلية النحل وكأنها جسد واحد في تماسكه وترابطه ، وكل فرد في الخلية يعمل ما يشبه الحال لإنقاذ الخلية مما قد يقضي على حياتها أو يهدد أمنها .

ففي الخلية نحل للحراسة ، ولكل نحلة سلاحها المتمثل بحويصلة من السم متصلة بإبرة حامية تطعن بها أي عدو يقرب منها فتشلته ثم تلتهمه . . وفي الداخل عاملات لرعاية البيض حتى يفقس وتخرج منه اليرقات فتطعمها العسل حتى تتحول إلى عذارى فتغطيها بالحرير ، وتغلق عليها غرفها حتى تكبر وتخرج لممارسة عملها الذي تعرفه جيداً . . طبعاً وغريزةً واستعداداً . (٤)

وفي الخلية نحلّ لكنس الأرض وإزالة الشوائب ويقوم فريق آخر من الشغالات بأعمال صيانة خلايا النحل وترميمها ونظافتها باستمرار، ومن عجائب الأمور أن النحل لا يتفوط أبداً داخل الخلية ولا يبقى فيها أدنى نوع من القاذورات.

ويقوم فريق آخر بتهوية الخلية وتكييفها، وفريق آخر بالعناية بالصغار في مراحل النمو المختلفة من البيضة حتى الحشرة الكاملة. وعندما يختار النحل موقع خليته تصعد نحلة إلى أعلى المكان ثم ترع بقمها وأرجلها إحدى طبقات الشمع المتدلية من بطنها وتطويها وتنشرها حتى إذا توفرت لها الأبعاد اللازمة اتخذت منها حجر زاوية لبناء مسكنها الذي يبدأ بناؤه بحيطين أو ثلاثة ومن أكثر من موقع ، لكن الخلايا تخرج سداسية متماثلة تماماً ، على الرغم من كثرة العاملين في بنائها . . وتجتمع نقاط الاتصال في هذه الخلايا بأناقة عجيبة كأنها كانت كذلك في البدء وقبل أن تلتقي . (٤)

وتقوم النحلة العاملة بعشرات الوظائف بيديها ، فكل منهما تحمل ملعقة وفرشاة ومكنسة وكماشة وخرقة للتنظيف .

وظائف جديدة:

وحق العاملات الصغيرات اللواتي ولدن حديثاً يعرفن واجباتهن، ويقمن بأدائها كما في البرنامج الآتي، ولا تعرف هذه الجيوش الحرارة من النحل إلا أن تقوم به بلا تردد، فالوظائف تناسب الأعمار والتخصصات.

العمر بالأيام	الأعمال التي تؤديها العاملات الصغيرات
٣ - ١	تنظيف العيون السداسية لقرص الشمع
٦ - ٣	إطعام اليرقات الكبيرة
١٥ - ٦	إطعام اليرقات الصغيرة
٢٣ - ١٠	تنظيف الخلية وأعمال أخرى داخلية
١٠ فما فوق	أول طيران تجريبي من الخلية
١٥ - ١٢	تسلم الرحيق من النحلات العائدات من الحقول
١٨ - ١٦	إنتاج الشمع وبناءه على شكل أقراص
٢٠ فما فوق	الرحلة لجلب الرحيق من الحقول
٢٤ فما فوق	أداء واجبات حراسة الخلية

(٣)

سلوك النحلة يلهب خيال الشعراء

وقد شغل سلوك النحل الاجتماعي خيال الشعراء ولا سيما أميرهم، أحمد شوقي، فألف قصيدته المشهورة بعنوان، (ملكة النحلة) من ٦٦ بيتاً، ونورد فيما يلي بعضاً منها:

ملكة النحل

بامرأة مؤتمره	مملكة مدبّرة
والصناع عبء السطره	تحمّل في العمال
يؤلّون عليهم قيصره	فاعجب لعمال
ذكارة معبّره	تحكمهم راهبة
عن ساقها مشمّره	عاقدة زنارها
ن وارتدته منزره	تلثمت بالأرجوا
شرارة مطيّره	وارتفعت كأنها
كأنها مسمّره	ووقعت لم تختلج

من خلق مصوّره	مخلوقة ضعيفة
وما أجلّ خطره	يا ما أقل ملكها
بأيّ عقل دبّره؟	قف سائل النحل به
وهي كالعقول جوهره	يجبك بالأخلاق
تغني القوى المفكره	تغني قوى الأخلاق ما
من شاء، حتى الحشره	ويرفع الله بها

النحل تقوم تبصره؟	أليس في مملكة
بهمة ومجدّره	ملك بناه أهله
بطّال الدين؛ لم تره	لو التمت فيه
لي فيه غير منذره	تقتل أو تنفي الكسا
فيه قومها موقّره	تحكم فيه قيصره
كانوا البنين البرره	لا تورث القوم ولو

حيها لبّاة مُخَدَّرَه
طاردة من كَدَّرَه
وأذرعَت بالحبرة
قد رابطت بأنقَرَه
ليس الأمر ثرثره
ألوية المنشره
يحميه إلا قسوره

أنثى، ولكن في جنا
ذائدة عن حوضها
تقلدت إبرتها
كأنها تركية
إن الأمور همة
ما الملك إلا في ذرى الـ
عريته منذ كان لا

مصالحة، معمَّره
لا تستبين أنثره
أصلاً له من ثمره
من البلاء أكثره
لأمرهم مسيَّره
له ملكهم وطهره
عاملة، مسخره
من معملٍ منحدره

مالكمة، عاملة
المال في أتباعها
لا يعرفون بينهم
لو عرفوه عرفوا
واتخذوا نقابة
سبحان من نزه عنـ
وساسه بحجرة
صاعدة في معمل

وتجىء موقَّره
الحمائل المنوَّره
زهرة الرياض الشَّيره
على الجنى مزرره
أمانة مقصَّره؟
أو استعارت زهره
سُكَّرة بسكَّرة

وتذهب النحل خفافا
جواب الشمع من
حوالب الماذي من
مشدودة جيورها
فهل رأيت النحل عن
ما اقترضت من بقله
أدت إلى الناس به

ديوان الشوقيات - أحمد شوقي (٥)

أبحاث العلماء:

ولقد أثارَت مثاليَّة النحل في تصرّفاته هذه همم الكثير من الباحثين لمعرفة المزيد ، وكان من هؤلاء الباحثين العالم ميكولا هايداك الذي قام برفع أقراص الحَصْنَة من الخلية ومن ثمّ لم يَعد في الخلية يرقّات ثمّ وضع فيها لُحلاً صغيراً حديث الفقس ولم يكن في الخلية شغالات للحراسة أو لإفراز الشمع أو لجمع الرحيق ، وأخذ ميكولا هايداك ينتظر . . . ويا لعجب ما رأى . . . لقد ضبطت الأفراد الصغيرة نفسها وزادت من معدّل نموّها حتى قامت مجموعة من الأفراد بعمر ثلاثة أيام بجولات داخل الخلية لتنظيفها ، وقامت مجموعة ثانية في العمر نفسه ببناء العيون السادسة . . . وهذه أعمال لا يقوم بها إلا أفراداً أعمارها ستة عشر يوماً ، بينما قامت مجموعة بعمر أربعة أيام بجمع الرحيق وحبوب اللقاح . . . وهكذا بدأت الخلية الفتية في أداء وظيفتها المعتادة خلال أسبوع واحد . وبعد أن نُشر هايداك أبحاثه واكتشافاته تساءل العلماء : إذا كان بإمكان النحل الصغير أن ينمو سريعاً ليتخطى ما يواجهه من صعاب فهل بإمكان النحل العجوز أن يعيد شبابه للغرض نفسه ؟ ..

وهذا ما حاولت إثباته السيدة فاسيليا موسكو لبيفك من يوغوسلافيا حيث قامت بوضع ٥٠٣ لُحلات من الشغالات الهرمة التي تجمع الرحيق عند عمر ٢٨ يوماً وقد جفّت لديها عُدد إفراز الغذاء الملّكي . . . وضعتّها في خلية فيها قرص حَصْنَة منفصل من ملكة أخرى ، وبالطبع لم يكن أمام هذه المجموعة الهرمة من النحل إلا أحد خيارين : إما أن تقوم بإفراز الغذاء الملّكي لهذه اليرقات وقد جفّت لديها عُدد الغذاء الملّكي ، وإما أن تترك اليرقات تموت جوعاً . . . ومَرّت أيامٌ دون أن يحدث شيء ، وفي أحد الأيام لاحظت السيدة فاسيليا أن إحدى الشغالات تنحني فوق إحدى العيون . . . فنظرت السيدة يامعان لترى عجباً ، لقد رأت هذه الشغالة تفرز قطرة لامعة من الغذاء في فم اليرقة حديثة الفقس . . . فقامت الباحثة فوراً بفحص عُدد هذه الشغالات تحت المجهر لتجد الدليل القاطع فقد انتفخت تلك العُدد الجافة وامتلأت بالغذاء الملّكي ، وهكذا حدثت المعجزة وتجدد الشباب عند شيخوخة النحل.

إن كلّ خلية من خلايا النحل تعيش مستقلة بنفسها . . . ويعرف كلّ فرد فيها بقية الأفراد . . . ومهما سَرحَت النحلة بعيداً عن خليتها، وقد تَسرح النحلة مبتعدة عن الخلية ١١ كيلومتراً فإنها تعود إليها. لقد فطر الله سبحانه وتعالى النحل على حياة اجتماعية في خلايا متميزة . . . لا يمكن أن يختلط أفراد خلية بأفراد خلية أخرى . . . فلكل مجموعة صفات خاصة تختلف عن صفات غيرها . . . تماماً كما تختلف بصمات أصابع الفرد الواحد منا عن بقية بصمات الناس أجمع ، ولكل مجموعة من النحل رائحة خاصة تميّزها عن غيرها، ولقد وهب الله سبحانه وتعالى النحلة من حاسة الشم ما تستطيع به أن تميّز الرائحة الخاصة بأفراد

مجموعتها . . ويمكن أن تُعدّ هذه الرائحة (كلمة السرّ) التي لو أخطأها النحلة وضلّت الطريق لظلتّ شريدة لا يقبلها أيّ مجتمع آخر . . ولُحِكِمَ عليها بالفناء ، ويواصل العلماء دراسة سلوك النحل من هذه الناحية ليجدوا أن لكلّ مجموعة - أو خلية - رائحةً مميّزة ، ولقد شبّه الرسول الكريم صلوات الله تعالى وسلامه عليه المؤمن بالنحلة فقال : [مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلُ النَّحْلَةِ لَا تَأْكُلُ إِلَّا طَيِّبًا وَلَا تَضَعُ إِلَّا طَيِّبًا] - حديثٌ حسن . (٦)

ويقول العالم البلجيكي موريس في كتاباته عن النحل : إذا تسلّل حيوانٌ غريبٌ إلى داخل الخلية فإنه يُقتل فوراً ، ثم يتخلّص النحل من جثته لكيلا تتعفن ، فإذا ما استحال عليه التخلّص منها قام بإفراز مادة شمعية تكون للجنة بمثابة قبر محكم - أو تابوت ملفوف - حتى يدرأ عن الخلية خطر الأوبئة فلا تتسمّم أفرادُه حينما تشيع الرائحة الكريهة فيها ، وكان النحلُ قد شَبِعَ بشموعه ذلك الميت قبل أن يتعفن . (٤)

من آيات الإعجاز في الهداية:

والنحل هو الكائن الوحيد (بعد الإنسان) الذي يمكنه أن يحيط مجتمعه علماً بتحديد الأمكنة البعيدة مثل موقع المسكن الذي يبحث عنه أو الغذاء الذي يجمعه بدون أن يصحب أيّاً من أفراد أسرته كما تفعل سائر الحيوانات الأخرى ، وليس عن طريق الكلام كما يفعل الإنسان ، ولكن ببلغة حركية ذات قدرة فائقة على تحديد المسافات والاتجاهات بطريقة تلقائية فطرية موروثية (أي بناءً على وحيٍّ من الله) بدقة لا تُقَارَن إلا بتقنيات الأجهزة التي اخترعها الإنسان ، ويتصرّف بتلقائية مبرمجة مثل الأجهزة الإلكترونية والحاسبات الآلية والرادار والأجهزة الفلكية وأجهزة الموجات فوق الصوتية . (١٢)

*** فعملية استكشاف النحلة للأزهار ذات الرحيق هي - في الدرجة الأولى - إلهام من الله تعالى (وأوحى ربك إلى النحل) الآية. ولكن لا بد أن الله تعالى قد أعطى هذه المخلوقة الضعيفة قدرة على الإحساس، ذلك أن رائحة الأزهار مثلاً تجذب النحلة من بعيد، والنحلة تستطيع تذكّر الرائحة على مدى عدة أيام كما بينت التجارب التي قام بها العلماء. ثم إنه بإمكان النحلة نشر هذه الرائحة لبقية النحل العاملة في الخلية على مدى قوى الشم عندها ولكل خلية ومجموعة من النحل رائحتها الخاصة بها، مما يساعد النحلة على معرفة خليتها وأخواتها.

ولللنحلة - عدا حاسة الشم - حاسة أخرى جيدة لإبصار الألوان، إذ إن بعض الألوان تجذبها أكثر من غيرها، إلا أن مدى قوة الإبصار أقل من ذلك الذي للشم، وهي لا تستطيع تذكّر الألوان طويلاً. وتستطيع النحلة رؤية الألوان فوق البنفسجية التي لا يراها الإنسان. وشكل الزهرة له أثر في النحلة، فبعض الزهور تنجذب النحلة إليها، بينما لا تقترب من بعضها الآخر. وهي كذلك قهتدي في أسفارها بعلامات تتذكرها، كأشكال وألوان الأجسام والأشجار والشجيرات.

وتستطيع النحلة معرفة موقع الشمس في الأفق وتذكره، أي معرفة زاوية الميل التي يصنعها طريقها مع الشمس، فهي تميز خط مسارها من الخلية إلى موارد الرحيق.

والنحلة تستهلك شيئاً من الطاقة في طيرانها، ومعرفتها لمقدار الطاقة عندئذٍ، تساعدها على قياس مقدار المسافة التي قطعتها في رحلتها.

ويعتقد بشكل عام أن النحلة يمكنها زيارة الأزهار على مدى ثلاثة أميال أو أكثر، تأخذ معها الطعام الضروري لهذه الرحلة قبل انطلاقها.

إن النحلة العائدة إلى الخلية من رحلتها، تكون قد خزنت في ذاكرتها رائحة الأزهار التي مرت بها ولون كل منها وشكله، ثم بعدها وموقعها من الخلية والوقت الذي وجدت فيه رزقها.

والنحلة تقوم غناء الرحيق وصلاحه بتذوقها للتعرف بمقدار حلاوته وتركيزه، فهي لا تأخذ كل أنواع الرحيق بل لا بد أن تتوافر فيه صفة تجعلها ميالة لامتناصه ونقله للخلية (٣)

وهكذا يقوم النحل بأرقى الأعمال التي يعجز عنها أرقى الحيوانات في سلم التطور كالفييل والفرس والأسد والقرود وأحياناً حتى الإنسان ، ومن الجدير بالذكر أن عدد الخلايا العصبية في مخ النحلة ٩٠٠ خلية، وفي مخ النملة ١٥٠ خلية ، وفي مخ الإنسان حوالي ١٠٠,٠٠٠ مليون خلية عصبية .

رابعاً : بيوت النحل

ويجرتنا الحديث عن التكوينات الاجتماعية للحيوانات إلى موضوع بيوت الحيوان ، والمهدف من البيت الحياة والوقاية وتربية الصغار وحفظ الطعام .

والكثير من الحشرات تعيش بصورة منفردة غير اجتماعية وتبنى بيوتاً بسيطة على شكل حفرة في الأرض أو تنسجها من أوراق الشجر أو غيرها ، أما الحشرات الاجتماعية فتبنى بيوتاً ضخمة معقدة لأداء وظائف متعددة حسب المقتضى .

وقد أورد القرآن الكريم ذكر البعض منها :

مثل قوله تعالى : ((وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)) - النحل ، ٦٨

وقوله تعالى : ((.. يَا أَيُّهَا التَّمَلُّ اذْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَخْطِمْتُكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)) - النمل ، ١٨

وقوله تعالى : ((مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ، وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتَ لَبِيتُ الْعَنْكَبُوتَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)) - العنكبوت ٤١ .

ويهمني في المقام الأول أن أعقد مقارنة لغوية تبين مدى الدقة العلمية القرآنية في التعبير، فنلاحظ أن دور النمل عبر الله عنها بـ (المساكن)، بينما عبر الخالق عز وجل عن دور النحل والعنكبوت بـ (البيوت) في الآيات السابقة ، وكلمة البيت تفيد البيات ليلياً أو البيات فصلياً أو الكُمون، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ((قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا)) - يونس ٥٠ ، أي أنه استعمل هنا لفظ (البيات) كمرادف لكلمة (الليل) .

وهناك علاقة وثيقة اكتشفت حديثاً بين نوعية البيوت والسلوك الحيواني، فهناك حيوانات ليلية أي لا تنشط إلا في الليل فقط، بينما يوجد على العكس منها حشرات نهارية ومنها النحل ، أي أن هناك حشرات موجبة وأخرى سالبة للاستجابة للضوء .

وقد ثبت أن النحل - مثلاً - وبعد بحوث علمية - حشرة نهارية تعمل في النهار وتبيت في الليل ، وتعتمد أيضاً على شدة الضوء الآتي من الشمس للتعرف الغريزي على خط السير .

وثبت أيضاً أن عدداً معيناً من الشغالات هو الذي يخرج للبحث عن الرحيق فقط وتبقى الشغالات الأخرى للعناية بالخلية التي تحتوي على كل الأطوار الأخرى التي لا تخرج منها مثل البيض واليرقات والعذارى الملكة والذكور . وأن هذه الشغالات لها فترة محددة فقط للبقاء في الخلية بل ويقضي في الخلايا طول الوقت عدد كبير منها ، لذا فالوصف لدارها هو (البيت) من البيات وهو ليلي ويوحى بالنوم والسكون ، وهذا صحيح علمياً كما أسلفنا . (٨)

ولمكان خلية النحل مواصفات محددة : فلا بد أن تتوفر له فجوة واسعة لها مدخل صغير متجه إلى الجنوب ، ولا بد أن يكون عالياً لمنع المتطفلين من التسلل إليه . . وإذا لم يجد النحل مكاناً ليعيش فيه فإنه يهلك فوراً . (٩)

وفي قوله تعالى: ((.. أن اتخذني من الجبال بيوتاً وما يعرشون))، الخطاب هنا لإناث النحل الشغالات اللاتي يقمن بالبحث عن المكان المناسب لبناء بيوت النحل، ويقمن بالبناء بذواتهن وتنظيف البناء وترميمه وعلى وحمايته وقهوته.

وهذا القدر من الحرية الكبيرة الذي أعطاه الله تعالى لأمة نحل العسل في اختيار مسكنها، أي المكان الذي تبني به بيوتها من الجبال ومن الشجر وما يعرشون، له حكمة بالغة لأنه يتيح لهذه الحشرة الصغيرة الحجم فرصة الاستفادة لأكثر عدد ممكن من البيئات المختلفة وبما فيها من متنوع النباتات والثمار حتى تُنوع ذلك الشراب المختلف الألوان الذي يخرج من بطونها والذي فيه شفاء للناس، ويجعل الله تعالى من أنواعه المختلفة شفاءً لأمراض متباينة. وهذا بخلاف العديد من الحيوانات - بصفة عامة - ومن الحشرات بصفة خاصة التي حدّد لها تعالى بيئات لا تستطيع الخروج عنها وإلا هلكت.

وإن اتخاذ أي تجمع من تجمعات أمة نحل العسل القرار ببناء بيوت لها يحتاج إلى عمليات استطلاع وبحث وتساور مكلفة حتى يتم الإجماع على اختيار المكان، حيث تبدأ الشغالات في بناء مستعمرة النحل من الشمع الذي تفرزه من غدد خاصة في أسفل بطن كل منها تعرف باسم الغدد الشمعية وعددها أربعة أزواج.

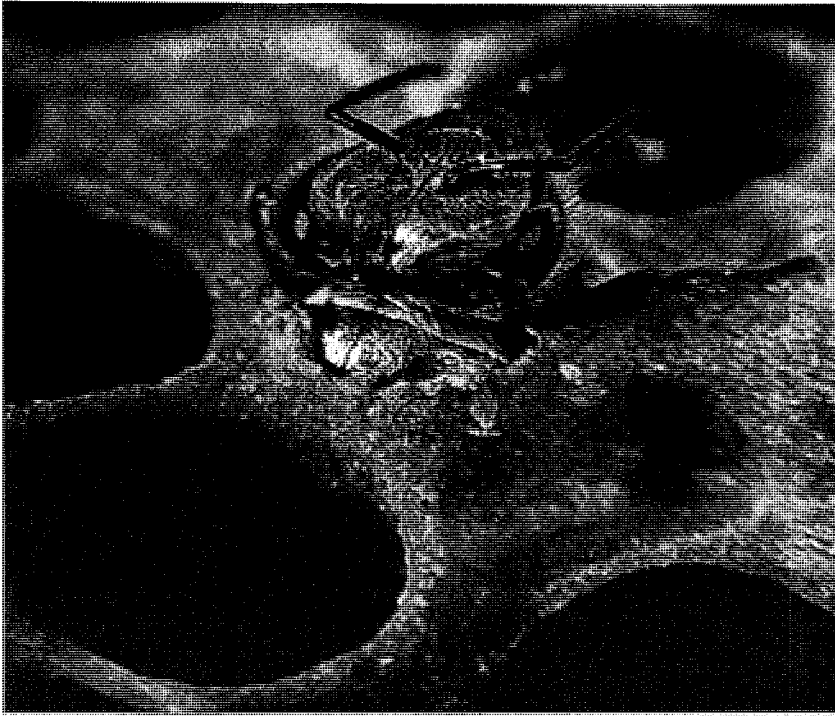


حجرة حشرة النحل

حجرة النحل

وبيت النحل عالمٌ عجيبٌ يمور بالحركة ويخضع لنظام ثابت لا يعرف الخلل إليه سبيلاً : فثمة آلاف الحزانات المليئة بالعسل ، وعلى كل منها ختمٌ لا يفضُّ إلا في أيام الجوع . . وإلى جانبها العديد من الحرس يخفق بجناحيه كي يمدّ الخلية بتيار مستمرٍّ من الهواء . وتحشر كلُّ نحلة بدنها وهي تمّ بالخروج بمؤونة من العسل تكفيها أياماً ، ومن هذا العسل يُستقطر الشمع اللازم لإنشاء المباني الجديدة بطريقة كيمائية غامضة . . وتستعمل الصمغ لتسدّ به الشقوق وتطوي به الجدران . (٤)

وتعتبر النحلة الشغالة بحق أصغر وأعظم مهندسٍ في فنّ العمارة والبناء ، وهي تبني بيوتها على هذا الشكل الهندسي المتناسق ببساطة وسهولة في نفس الوقت الذي يعجز فيه مهندسو الإنسان عن بناء هذه البيوت إلا إذا استعانوا بأدق الأجهزة وأحدثها .



النحل يبني حجرته بنفسه

الملائمة الوظيفية لبيوت النحل والنمل والعنكب

ولنا كلمة أخرى هنا وهي عن الملائمة الوظيفية للبيت لكل نوع، فنحل العسل - ونظراً لفوائده للإنسان وكثير من الحيوان - فإنه نادراً ما تتعرض خلاياه للتدمير من قبلها، وكذلك فإن نمط الحماية عند تلك الحشرات يكون غالباً باللسع من الحشرات الحارسة الطائرة بالمئات (فشغالة النحل تطير بينما شغالة النمل مندثرة الجناحين) ، وأيضاً يحتاج النحل لأداء وظائفه الحيوية إلى التعرف على درجة الضوء وشدة الرياح وغيرها من المؤثرات المناخية ، لذا وجب أن تكون مواقع بيوتها في أماكن مفتوحة عالية تستطلع الشمس والرياح بما فيها من شدة تؤثر على الطيران وبما فيها من حبوب اللقاح وروائح الأزهار المختلفة التي يتخذها النحل دليلاً على خط المسير للحصول على الغذاء، لذا فقد قال الله عز وجل : ((وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يعرشون)) - النحل ٦٨ ، أي أن تتخذ بيوتها في الأماكن المفتوحة المكشوفة على العوامل الجوية المختلفة .

كما أن في الآية إشارة أخرى إلى وجود نوعين من النحل: النحل البيئي (في الجبال والغابات) والآخر المستأنس في (مما يعرشون) حيث إن (مما يعرشون) تعود على الناس وترتيباً تم المختلفة على الأرض (الخاليا الصناعية) . (٨)

وقد جاء وحى الله للنحل أن يبني بيوته في مواقع لا تصلح لسكنى أي كائن آخر سواء كان ضاراً أو نافعاً ، فهو إما أن يبني أقراصه الشمعية في العراء معلقةً تحت صخور الجبال أو فروع الأشجار أو في جحور واسعة ناتجة عن العوامل الطبيعية، ومدخلها صغيرة ضيقة لا يمكن أن تدخلها الطيور والحشرات المفترسة ولا يمكن أن يراها بعيونه ولكنه يتمكن من تمييزها بواسطة الموجات فوق الصوتية التي تصدر منها وهي قدرة لا تتوفّر للإنسان إلا باستخدام أجهزة خاصة .

ونلاحظ كذلك أن الآية قد قدمت النحل البرّي (الجبلي و نحل الغابات) على الأليف ، وفي هذا إشارة إلى ما أثبتته العلم من وجود أنواع كثيرة من النحل مختلفة المواطن وأمكنة السكن، حيث أثبت علم الحشرات وجود أكثر من ١٢,٠٠٠ نوع من النحل وتعيش ٥ ٪ منها فقط حياة اجتماعية أي ٦٠٠ نوع فقط ، وعدد قليل من هذه النسبة هو المستأنس (كما جاء في الترتيب القرآني للأنواع حسب الأغلبية العددية) .

(٨)

وتعيش أنواع من النحل في الجبال في الفجوات والجحور كالنحل الطنان المنتج للعسل مثلاً (من الجبال) ، وتعيش أنواع منها بصورة برية في الغابات متخذة شقوق الأشجار أعشاشاً حيث تبطنها بتلات النباتات مثل أنواع نحل أوزميا ونحل اللوداب (من الشجر) .

أما نحل العسل (أبس ملفكا) فهو أعلى المراتب في الحشرة من حيث التطور وهو نحل اجتماعي حقيقي ومستأنس (وما يعرفون) ، وله أنواع متعددة جداً ، وكلما زاد التطور وتعقيد التكوين الاجتماعي في النحل كانت بيوته أكثر انفتاحية على البيئة . (٨)

خامساً : ذكاء النحل

يقول الله تعالى: ((.. ما من دابة إلا هو آخذٌ بناصيتها ، إن ربي على صراطٍ مستقيم)) - هود ٥٦ .
ويأتي اللفظ القرآني (الناصية) للتعبير دائماً عن الجبهة في الأحوال المقترنة بالإرادة والذكاء والفعل ، وقد أثبت العلم الحديث أن كل هذه المراكز تقع في الفصّ الجبهي الأمامي للمخ (الناصية) .
ومن تأمل الآية السابقة نستطيع أن نفهم أن الله عز وجل قد أهدم مخلوقاته الغريزة كبديل عن الذكاء والابتكار والإبداع الذي يوفره الذكاء المتطور ، وهذه الغريزة أو الفطرة تعني مجموعة من السلوكيات والتصرفات والأفعال النمطية التي تحكم أنشطة الحيوان كافة لتحقيق أهدافه الحيوية من حفظ للنسوع وحماية وتغذية وتناسل . . . إلخ ، ويمكن تشبيه تلك الغريزة ببرنامج كمبيوتر مبرمج مسبقاً ومصنوع بخصوصية لكل كائن حي بشكل متفرد ومتميز ، ويمكن كتابة آلاف الصفحات بل الملايين منها عن إعجاز وعبقريّة هذه الغريزة وتواؤمها مع أهدافها في كل نوع مما يعكس في النهاية عظمة واضع البرنامج وقدرته، أي خالق الخلق أجمعين ، وهذا ما تبيّنه الآية الكريمة التي أوردناها والتي تقرّر أن الله وإن لم يهب الكائنات الأدنى الذكاء إلا أنه وهبها الغريزة بصورة دقيقة متقنة .(٨)

إن الله قد يسر لها التعرف على الطرق التي تلزمها للذهاب إلى الحقول وإلى الزهور ومن ثم العودة للخلية . كما أن الآية الكريمة قد حدّدت أن هذه السبل مخصصة للنحل فقط ولا يوجد مثلها في كائنٍ سواه .
وقد أثبتت التجارب العلمية أن هذا يتم بالاعتماد على اتجاهات الشمس والرياح والمجال المغناطيسي للأرض واختلاف درجات الإضاءة وتغير الروائح وغيرها كما أثبتته تجارب بيلنج ١٩٢٩م ، وفون فريتش ولاموك وفاندر بلانك وفوريل وغيرهم من علماء السلوك الحيواني في تجاربهم على النحل في القرن العشرين .
(٨)

أما بالنسبة لذكاء النحل فإنها تقوم بتدبير خليتها وتسوس جنودها وتجنّب عملها بإتقان غريب بواسطة آلتها البسيطة . . فمثل هذه الحذاقة والحكمة في تقسيم الأعمال والسياسة العجيبة التي تخضع الكلّ للسنن والقوانين وتحمل على الاستعداد لملاقاة الطوارئ التي يمكن حدوثها فجأة لا تسمّى سوى سليقة .
ومن طبائع النحلة أنّها تظهر الاضطراب والنفور والغضب . . وتعمل بمقتضى الأحوال وتحتال على العدو الذي هو أقوى منها وتتقن الوسائل الدفاعية لحماية نفسها إذا هُجم عليها .

ومن جانبات العسل ما لا تبني بيوتاً جديدة ما لم يتعسر عليها إيجاد بيوتها القديمة، وإذا وجدت بيتاً قديماً قامت بإصلاحه وترتيبه قبل أن تسكنه . ونحل الخشب لا تنقر ثقوباً جديدة ما لم تياس من إيجاد النقر القديمة . . وهكذا يستوطن كل جيل مساكن الجيل الذي سلفه إذا أمكن . . دفعاً لمشقة هو في غنى عنها. (٢)

وحين يعمل النحل أقراص العسل يترك فسحة قدر نصف قيراط بين كل قرص طريقاً لمروره ويعمل ثقوباً مستديرة غير هذه يتمكن بها من المرور بسهولة من قرص إلى آخر اتقاءً لمشقة السير طويلاً ، والأقراص والطرقات تختلف جرماً وهيئة باختلاف الأماكن والأحوال . ومتى صنعت النحلة قرصاً وصلته بأحد أطراف القرص الذي صنعته قبله تاركةً فسحةً صغيرةً بينهما وهي تبذل كل الجهود في أن يكون الاثنان متشاهمين وأن تكون الفسحة بينهما معتدلة ، وإذا أخطأت مرةً بإبعاد الواحد عن الثاني أكثر مما تقتضي الحال أخذت تضع الثالث عرضاً وجعلت البعيد ينحرف قليلاً إلى جهة الأول انحرفاً يقربه إليه على قدر ما تراه مناسباً . . فهل هذا مجرد عمل السليقة مع ما فيه من التعديلات والمقابلات والتأمل والنباهة ؟ . .

ثم إن النحل ينشئ في كل خلية خرباً عديدةً يبلغ عمق كل منها نحو ثمانية أعشار القيراط لادخار المؤونة فإذا ضاقت تلك الخرب بالعسل وسعها وعمقها على قدر الحاجة.

ومن الإعجاز الإلهي في خلق النحل أن النحلة العاملة تتفقد أحوال كل خلية وكل خربة لترى هل يوجد فيها طعام كاف لصغار النحل . . وإذا ظهر لها أن الغذاء في إحداها غير كافٍ أفرغت فيه ما تظنه كافياً . . وهكذا لا تهدأ ما لم تنجز هذا العمل المهم. (٢)

ومعلوم أن الملكة الأم تضع البيض في الخلية بينما يشتغل غيرها بالبناء والنهب والتموين والحراسة . . فيحرس جند النحل الذي لا يحصى عدداً ويتولى أمر إخراجها من الخلية بالتتابع في الأوقات التي تعينه هي له حسب عمر كل نحلة وأحوالها بموجب قوانين شديدة، فلا تسمح بإطالة أسر واحدة أكثر من الوقت المعين أو بإطلاقها وقت وجوب دوام حراستها ، وكلما حاول النحل الخروج من الخلية تزيد تيقظاً واحتراساً وتسد كل الثقوب التي يهدمها تمهيداً لفره، والثقوب التي يتناول منها الغذاء من أفواه مربياته . . وهذا دليل قاطع على أن للنحل قوة ناتجة عن الإدراك والانتباه والإرادة وعن مأسسة نظام إدارة الخلية وتكوينها الاجتماعي.

وقد تكون الأم ملكة تملك على النحل وتقتل بحمتها من يناظرها وينازعها الملك . . وتقبض على زمام الحكم فينظر الكل إليها كأمٍ وجب عليه إطاعتها.

وقال بعضهم : إنها تحصل على مركزها أحياناً بالقوة الإجمالية وبالنباهة الغريبة . . فإنه شاهدها تخرج من خربتها وتهجم على خربة الملكة المالكة وتحاول دخولها ، ومتى تمكنت من ذلك لسعتها بمحمتها . . ومتى رأى النحل نجاحها فإنه يساعدها على عملها ويوسع لها الباب الذي ثقبته للدخول إلى الخربة لإخراج جثة الملكة المقتولة ويظهر لها الخضوع التام ، ثم تهجم على خربة أخرى لكي تكثر أنصارها وتعلن ملكها لا لكي تقتل أحداً فيه . . لأنها تكون قد فازت وقتند بما رغبت فيه . . إذ أصبحت سائدة مالكة تحكم على الجميع : تأسر من تشاء وتطلق من تشاء بموجب السنن والشرائع التي تراها مناسبة للمصلحة العامة .

ويوصف النحل بقوة الذاكرة ، وقد ذكر موريس جيرارد في كتاب له في تقلبات الحشرات أمثلة متعددة تبرهن صحة ذلك قال : إن النحل يعرف خليته ولو كانت بين خلايا عديدة، وإذا لذ له طعم زهر في حقل من الحقول عاد إليه ولو بعد مرور سنة كاملة بدون أدنى صعوبة في إيجاد الطريق المؤدية إليه .

وقد قيل إن خشرماً من النحل استوطن ممرات أحد السقوف وشرع في عمل الأقراص الذهبية اللون ، وتولت الأم حفظ العسل في الخلية ، ولما أعجب النحل الموضع الذي اختارته مركزاً لها وقت جني العسل كانت ترسل من قبلها من يكشف لها أحواله كل سنة ثم تأتي إليه . . ودامت تتردد إليه عدة أجيال ولم تنس المكان ولا الخلية .

وحكى هيوبر سنة ١٨٠٦م أن الفراش قد كثر جداً وكان يحب العسل ، فسطا على الخلايا وكسرت الأقراص بأبدانه التي هي أكبر من أبدان النحل فخافت النحل وتحيّرت إذ لم يتعدّ عليها خصم كهذا من قبل . . وبعد تأمل برهة رفعت سوراً عريضاً من شمع عند مدخل كل من الخلايا . . وعندما رأى الفراش أنه لا يستطيع الهجوم حاول فتح الأبواب فلم يمكنه ذلك ، ثم رجع بعد ثلاث سنين بأعظم قوة لكنّ النحل أغلقت الأبواب حالاً وصدّت هجومه كما فعلت في السابق ، فهي قد نجحت بتدبيرها الناتج عن التبصر والتأمل . . وهو ما يدل على نباهتها . (٢)

أما بالنسبة لذكاء النحل أيضاً فقد ذكر العالم البيولوجي " فريش " أن هناك نوعين من الرقص تؤديهما النحلة الشغالة ، هما الدائري والاهتزازي . والنوع الأول يؤدي عندما تكون المسافة بين الخلية ومصدر الغذاء لا تتعدى خمسين متراً ، وتشارك بقية النحلات الشغالة الرقص لا إرادياً أيضاً .

أما إذا زادت المسافة عن ذلك فتتغير الرقصة إلى أخرى اهتزازية ، تطير فيها الشغالة في خط مستقيم لمسافة قصيرة ثم في حركة نصف دائرية يتحرك معها الجزء السفلي للجسم فتدور نصف دائرة إلى اليسار ومثلها إلى اليمين مع هزّ بطنها في كلتا الحركتين ، وهذه الرقصات تنبئ عن بُعد الخلية عن مصدر الرحيق ،

فإذا تكرر الرقصة عشر مرات كل ١٥ ثانية كانت المسافة بينهما ٩٠ متراً ، وإن بُعدت المسافة إلى ٩٠٠ متر تكرر الرقصة خمس مرات كل ١٥ ثانية ، وهكذا نرى أنه كلما بُعدت المسافة بطؤ الرقص وقل الحماس

وتستطيع الشغالة كذلك تحديد الاتجاه المطلوب للوصول إلى هذا المصدر بواسطة النوع الثاني من الرقص ، والنحلة هنا تمتاز وتمرّ بطنها بالزاوية نفسها مع قرص الشمس ، وقد لاحظ " فريش " ومساعدوه اختلاف الرقصات في المساء عنها في الصباح ، ففي هذا الوقت تكون الحركة في خط مستقيم ثم يميل في المساء بميل قرص الشمس ، فإذا اتجهت الشغالة في خط مستقيم إلى أعلى مباشرة فمعنى هذا أن مصدر الاغذاء في اتجاه الشمس ، وإن اتجهت في الخط إلى الأسفل فالمصدر في الاتجاه المضاد للشمس ، وإن اتجهت في خطها المستقيم بزاوية 60° كان الغذاء بالزاوية نفسها . . وهكذا .

سادساً: إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون

وبعد أن أهتمنا دراسة التكوين الاجتماعي لجموع النحل، فإننا نحتاج إلى وقفة طويلة أخرى نتدبر فيها مزيداً من آيات الله الدالة على كمال قدرته وبيدع صنعه وطلاقة مشيئته وحكمته في خلق هذه الحشرة المباركة، وفي سلوكها المتميز وفي أسرار ما يخرج من بطونها، تلك الأسرار التي لم يستطع العلماء الإحاطة بها إلا في العقود الأخيرة من القرن العشرين.

لقد اختار الله هذه الحشرة من بين مئات الألاف من الحشرات، فأوحى إليها وحيّاً نحسّ به وندرك آثاره التي تنعكس في حياتنا ومعاشنا.

والوحي بالنسبة للمخلوقات أعلى من مرتبة الهداية التي أشار إليها الخالق العظيم بقوله: (قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) طه ٥٠.

إنها رفعة عظيمة لحشرة صغيرة لا يزيد وزنها على أجزاء من الغرام، ارتفع مقامها في بني جنسها من سائر الحشرات لتصبح صديقاً وياً، وخداماً أميناً يقدم عرقه وجهده وعطاءه لبني آدم بأحسن ما يكون العطاء وأرقى أنواع التسخير.

وقد غدت النحلة الآن وما يخرج من بطونها على موائد البحث العلمي في جميع أرجاء الأرض .. فحيثما اتجهت رأيت علماء الأحياء منهمكين في تطوير الأبحاث المتعلقة بها .. فمنهم من يدرس تركيب العسل .. ومنهم من يدرس حلاوته .. وآخرون يدرسون شذاه ونكهته .. كما يدرس آخرون لونه وأثر المعادن عليه وتبلوره وكثافته، ولزوجته وحامضيته، وآخرون يدرسون جودته.

وها هم أساتذة الطب يدرسونه في جامعاتهم ويعالجون به مرضاهم، .. فقد أقيمت المراكز الطبية العالمية للاستشفاء بمنتجات نحل العسل وذلك منذ عام ١٩٧٥.

كما تجده لدى علماء الصيدلة في مختبراتهم وعلماء الزراعة في مزارعهم .. وبين بساتينهم وأشجارهم، وعلماء الاقتصاد يدرسون آثاره الاقتصادية، ... وعلماء البيئة يدرسون تأثيره على بيئاتهم، حتى أن الشعراء قد تغزلوا به في أشعارهم.

وتتعقد المؤتمرات العلمية وورشات العمل والندوات المتخصصة - وتلقى المحاضرات - وتعدّ الأبحاث - كل ذلك من أجل هذه النحلة وما يخرج من بطونها، إذ لم يعد العسل مجرد شربة من سكر تنفكه بها، بل غداً تزياناً ومعيناً من علم لا ينضب.

إنه لم تحظ أية حشرة بمثل هذا الاهتمام الذي حظيت به النحلة في التاريخ المعاصر.

وما كان اكتساب هذه الحشرة الصغيرة من شهرة ملأت الآفاق وشغلت العقول والأفهام إلا ثمرة لوحي الله إليها، هذا الوحي الذي أخرجها من قمقمها ليكون ما في بطونها شهيداً على موائد الملوك، وشفاء لذوي الأسقام .. وأن يكون هذا الشهد هو الوعد الإلهي لعباده الصالحين في الفردوس الأعلى - يوم لقاء الله - أثماراً من عسل مصفى.

هذه النحلة التي أفرد لها الخالق العظيم سورة خاصة تسمت باسمها - سورة النحل - السورة التي تحدث عن نعم الله على الإنسان في الأنفس والآفاق والتسخير والخلق والإطعام.

هذه الجيوش الجرارة من النحل تتجاز الجبال والسهول والروابي والوديان، تصارع الرياح والأنواء في خدمة الإنسان. تقوم بعملها هذا بهدوء وصمت - لا يحدّها زمان - طاعة لخالقها، وتسبيحاً بحمده، وخدمة للإنسان الذي كرمه ربه. فهي نعمة مهداة من خالق السموات والأرض، لا يدرك أهميتها إلا العارفون والعالمون.

هذه النحلة نكتشف كل يوم سراً من أسرارها أو لغزاً من ألغازها، فهي وإن كانت من أصغر المخلوقات حجماً، وأضعفها بنية، إلا أنّها الأكثر عطاءً والأكثر تأثيراً في حياة الإنسان.

فلقد سابقت الإنسان في حياته وتطوره الاجتماعي، وقد كان لها سبق كبير في شتى الميادين، إذ إنَّها تسير في سبيل جمع الرحيق ما يقارب ٦٠ كم / الساعة وهو ما يعادل عشرة أمثال سرعة الإنسان. أما بيتها الذي تسكنه فكانت تطبق عليه أرقى المواصفات الهندسية في العمران والبنان وفي إشغال المساحات .. حتى غدت النحلة أصغر وأدق مهندسة معمارية في العالم.

ومن فضل الله تعالى على هذه البيوت أن الله تعالى اختارها لها لتكون في أعالي الجبال أو في أماكن وجحور لا يمكن أن تدخلها طيور ولا حشرات مفترسة مما يزيد هذه البيوت عزة ورفعة. وقد كان بيتها من أرقى البيوت نظافة، فلقد خصصت ملكة النحل جنوداً منذ لحظة ميلادهم لهذه الغاية وذلك مهما كان موقع هذا البيت في أي بلد في العالم.

أما ملكة النحل - الأم الولود - ذات الحكم والسلطان، فهي آية كبرى في خلقها وهدايتها: فقد رعاها الخالق العظيم فقد كانت يرقة تتغذى على الغذاء الملكي طيلة حياتها لتصل عند تمام نموها إلى وزن يعادل ١٨٠٠ مرة قدر وزن غيرها من يرقات الخلية، وتعمّر ١٠٠ ضعف قريناتها من الشغالات والذكور. وهذه الملكة ترعى صغارها الذين يتكاثرون بمعدل ١٥٠٠ وليد في اليوم الواحد. فما أظن أن مؤسسة عالية تستطيع أن تستقبل مثل هذه الأعداد وترعاها وتربّيها كما تربّي هذه الملكة رعاياها وأبناءها.

وأما غيرها على بيوتها فقد أقامت الحجاب والحراس على كل خلية يجرسونها فلا تسمح لمطفل ولا لعدو أن ينتهك حرمة بيتها بل تبعث عليه السمّ الزعاف كما أنّها لا تسمح بخروج أي من رعاياها إلا بإذن ومهمة رسمية.

وأما إدارتها الاجتماعية لمملكتها - فلا يجادل فيها مجادل .. فإن فيها توزيعاً للواجبات والمسؤوليات ... فهذا نحل للنظافة ... وآخر لبناء المساكن ... وثالث للصغار ... ورابع لاستقبال العسل وصنعه وخزنه ... وآخر للحراسة ... كما أن هناك نحلاً خاصاً لتنهوية الخلية ... وآخر لتلقيح الزهور ... وآخر من المستكشفات يغادرن الخلية للبحث عن الأزهار ... ونوع آخر من جامعات الرحيق. الكل في خلية النحل يعمل ... حتى لقد تم ضرب الأمثال بمجتمع النحل ... فلا مكان فيه لكسول ولا خائن خلّيته ولا متطفل عليها.

وإن الله طيّب لا يقبل إلا طيباً، وقد أمر ربنا - تبارك وتعالى - رسله الكرام وعباده المؤمنين ألا يأكلوا إلا طيباً، وجعل المؤمنين كذلك مثل النحلة لا تأكل إلا طيباً، ولا تضع إلا طيباً، ولا يخرج من بطونها إلا الشفاء للأجساد والأسقام، كما جعل الله تعالى القرآن الكريم شفاء للقلوب والأرواح. فمصدر الوحي واحد في كلا الحالين، من رب السموات والأرض رب العالمين.

فمن أجل أن تقوم النحلة بإطعامنا كيلوغراماً واحداً من عسل فإنها تقوم بما يقارب ٦٠٠,٠٠٠ - ٨٠٠,٠٠٠ طلعة وتقف على مليون زهرة وتقطع ما يزيد على ١٠ أضعاف محيط الكرة رغم الرياح والأنواء. فأي إخلاص وأي عطاء وأي تضحية وأي إنجاز عظيم تقدمه هذه الحشرة الصغيرة للبشرية؟ وأي إعجاز إلهي في خلقها وقد حباها الخالق العظيم من الحواس المتطورة في البصر والشم والتذوق، ومن أجهزة خاصة لتقدير المسافات والاتجاهات والأزمنة وما يسمى بالساعة الحيوية ما لم يزود به الإنسان نفسه بذلك؟؟

ألا يزيد هذا الإعجاز في الخلق والهداية والتسخير المؤمن إيماناً على إيمانه و يقيناً على يقينه وشكراً لسيدته ومولاه.

وتبقى آيتا سورة النحل التي يتلوها المؤمنون صباح مساء، شاهداً على عظمة الله، وشاهداً على قدرته تعالى على أن يودع في أصغر مخلوقاته شأناً أعظم الأسرار، وأن يجعل النحل آية يتدبرها العلماء والحكماء وأولو الألباب إلى يوم القيامة، ويكتشفوا من أسرارها في كل زمان ما يبهر البشرية كلها، حتى تعلم أن هذا القرآن العظيم هو كلام الخالق الحكيم الذي أحسن كل شيء خلقه ثم هدى.

المراجع

١. القرآن الكريم .
٢. نباهة الحيوان / س. ط. (مترجم من الإنجليزية) - إعداد وتقديم الأستاذ عبداللطيف شرارة .
٣. النحل والزهر والعسل / المهندس عبدالرحيم إبراهيم خدرج .
٤. بحث د. زغلول النجار / جريدة الأهرام - ١ ديسمبر ٢٠٠٣ .
٥. بحث إبراهيم سليمان عيسى / مجلة الأمة - العدد ١٦ شباط ١٩٨٢ م .
٦. ديوان الشوقيات / أحمد شوقي .
٧. عالم الحيوان بين العلم والقرآن / د. محمد محمود عبدالله .
٨. التفسير العلمي لآية النحل / د. عبدالعليم خضر .
٩. الجديد في المنظور العلمي للقرآن الكريم / د. أسامة الشراوي .
١٠. بحث : عيسى أمين جبر / مجلة الأمة - العدد ٣٥ آب ١٩٨٣ م .

ولوغ الكلب بين استنباطات الفقهاء واكتشافات الأطباء

أ. نجيب بوحنيك

أ. سلاف لقيط

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده و نستعينه و نستهديه و نستغفره و نتوب إليه، و نعوذ بالله من شرور أنفسنا و سيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتد، و من يضل فلا هادي له، و الصلاة و السلام على أشرف الخلق الذي بعث رحمة للعالمين، و على آله و صحبه أجمعين، و من تبعه بإحسان إلى يوم الدين، و بعد :

عند قراءتنا لمجالات البحوث التي عرضتها الأمانة العامة للمؤتمر العالمي السابع حول الإعجاز العلمي في القرآن و السنة، استوقفنا مجال : علم الحياة، عند مسألة : ولوغ الكلب، فبحثنا في كتب الفقه و دواوين السنة. فإذا بنا أمام موروث ضخم يشمل في غالبيته كثيرا من الحقائق العلمية المعاصرة التي توصل إليها العلم الحديث بعد مرور آلاف السنين، من نزول الوحي الكريم، على محمد المصطفى الأمين، عليه أفضل الصلاة و أزكى التسليم.

و بعد قراءة مع تدبر.. و بعد نظر و تفحص.. اطمأن قلبينا لهذا الموضوع، فعزنا -مستعينين بالله- على بحثه و إثرائه.. و اعتبرنا هذا الفتح نعمة من عليم لغير عليم، و من قدير لغير قدير.

فرجعنا إلى آراء الفقهاء من خلال مؤلفاتهم و موسوعاتهم في مجال الفقه و التفسير و الحديث و غيرها... فعرضنا مختلف آراء المذاهب الأربعة مع مذهب الظاهرية في حكم -غالب- المسائل التي تضمنتها هذا البحث، باعتماد مصادر و مراجع كل مذهب، و التي تعبر حقيقة عن قول أصحابها.

و كذلك رجعنا إلى البحوث العلمية و الطبية التي بحثت هذه المسألة من خلال التجارب و التحاليل العلمية الدقيقة، و التي نقلت إلينا من أطباء و علماء أمناء من خلال كتبهم و مجلاتهم -وقد تيسر لنا منها القليل- و قد اعتمدنا هذا المنهج في جمع المادة العلمية، و ذلك لكي تتجلى الفكرة في أسمى صورها باعتماد الرأيين : الشرعي و العلمي.

و قد حاولنا الموازنة بين مختلف الآراء في المسألة، مع اختيار ما نراه قريبا إلى وجه الصواب ثم التذليل عليه ما أمكن ذلك، في حدود نظرنا القاصر الشبيه بالعدم، أمام أدلة هؤلاء الجهابذة و حججهم من الفقهاء و الأطباء على حد سواء، مع إبراز منهج الأقدمين في كتاباتهم، و بيان أنهم لا يخطئون في دين الله خبط عشواء، بل كانوا يَحْكُمُونَ الخطة، و يحدّدون المنهج، ثم يخطّون إلى أهدافهم بخطى ثابتة و عقل واع، فإذا بهم يدركون الغاية من وجهها الصحيح، و من ثم يدرك القارئ يقينا عميقة تلك العقول المبدعة التي عرفت كيف تضع المنهج الصحيح لإدراك غاية صحيحة، مستلهمة في ذلك عون الله أولا... و الأخذ بالأسباب ثانيا..

و بعد جمع المادة العلمية و قديها و ترتيبها، وفق ما تتطلبه المنهجية العلمية المقررة في مثل هذه البحوث، جاءت خطة هذا البحث متضمنة مطلباً تمهيدياً، و ستة مطالب، كلّ مطلب مفرّع إلى ثلاثة فروع حسب التفصيل و الترتيب الآتي :

- المطلب التمهيدي : الأحاديث الواردة في مسألة ولوغ الكلب من الصحيحين: البخاري ومسلم.
- المطلب الأول : عدد غسلات الإناء الذي ولغ فيه الكلب.
- الفرع الأول : رأي الفقه.
- الفرع الثاني : رأي الطبّ.
- الفرع الثالث : نتيجة المقابلة بين الفقه و الطبّ.

- المطلب الثاني : مدى اشتراط الترتيب في غسل الإناء، و في أيّ منهنّ يكون؟
- الفرع الأول : رأي الفقه.
- الفرع الثاني : رأي الطبّ.
- الفرع الثالث : نتيجة المقابلة بين الفقه و الطبّ.

- المطلب الثالث : هل يقوم مقام التراب غيره من مواد التنظيف في إزالة النجاسة؟
- الفرع الأول : رأي الفقه.
- الفرع الثاني : رأي الطبّ.
- الفرع الثالث : نتيجة المقابلة بين الفقه و الطبّ.

- المطلب الرابع : هل يجب إراقة كلّ ما ولغ فيه الكلب من شراب و طعام؟
- الفرع الأول : رأي الفقه.
- الفرع الثاني : رأي الطبّ.
- الفرع الثالث : نتيجة المقابلة بين الفقه و الطبّ.

- المطلب الخامس : هل الأمر بغسل الإناء سبعا تعبدِيّ - غير معقول المعنى-، أو معلل - معقول المعنى-؟

- الفرع الأول : رأي الفقه.

- الفرع الثاني : رأي الطبّ.

- الفرع الثالث : نتيجة المقابلة بين الفقه و الطبّ.

- المطلب السادس : هل تقاس أعضاء الكلب الأخرى على لسانه في الحكم؟

- الفرع الأول : رأي الفقه.

- الفرع الثاني : رأي الطبّ.

- الفرع الثالث : نتيجة المقابلة بين الفقه و الطبّ.

- ثم جاءت في أعقاب هذه مطالب خاتمة أوجزنا فيها أهم ما انتهينا إليه من نتائج بعد رحلتنا مع هذا البحث.

و بعد هذه المقدمة الموجزة، سنشرع الآن بعرض مضمون كل مطلب.

المطلب التمهيدي : الأحاديث الواردة في مسألة ولوغ الكلب من صيحي البخاري و مسلم :

- ١/ عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال : إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : "إذا شرب الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً"^(١).
- ٢/ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : "إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليرقه ثم ليغسله سبع مرار"^(٢).
- ٣/ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : "طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرّات أولاًهنّ بالتراب"^(٣).
- ٤/ عن ابن مغفل قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : "إذا ولغ الكلب في الإناء فاغسلوه سبع مرّات، وعفّروه الثامنة في التراب"^(٤).

المطلب الأول : عدد غسلات الإناء الذي ولغ فيه الكلب

- الفرع الأول : رأي الفقه

اختلف الفقهاء في عدد غسلات الإناء الذي ولغ^(٥) فيه الكلب على مذهبين :

المذهب الأول : ذهب الحنفية إلى أن الإناء الذي ولغ فيه الكلب يغسل ثلاثا :

- قال السرخسي : "سؤر الكلب فإنه نجس... فإذا ولغ في الإناء فعليه أن يغسله ثلاثا"^(٦).

- وقال المرغيناني : "و سؤر الكلب نجس، و يغسل الإناء من ولوغه ثلاثا"^(٧).

و استدلوا على ذلك بما يأتي :

١/ عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنه قال : "إذا ولغ الكلب في إناء فأهرقه ثم اغسله ثلاث

مرّات"^(٨).

٢/ عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال في الكلب يلغ في الإناء :

"يغسل ثلاثا أو حمسا أو سبعا"^(٩).

وجه الاستدلال من الحديثين من وجوه :

أ/ فلما كان أبو هريرة قد رأى أن الثلاثة يطهر الإناء من ولوغ الكلب فيه، و قد روى عن النبي -

صلى الله عليه وسلم- ما ذكرنا، ثبت بذلك نسخ السبع، لأننا نحسن الظنّ به فلا نتوهم عليه أنه يترك ما سمعه

من النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا إلى مثله و إلا سقطت عدالته، فلم يقبل قوله ولا روايته^(١٠).

ب/ حديث الثلاث يعارض حديث السبع و يقدم عليه، لأنّ مع حديث السبع دلالة التقدّم للعلم بما

كان من التشديد في أمر الكلاب أوّل الأمر حتى أمر بقتلها، و التشديد في سؤرها يناسب كونه إذ ذاك و قد

ثبت نسخ ذلك، فإذا عارض قرينه معارض كان التقدمة له، و الأمر الوارد بالسبع محمول على الابتداء^(١١).

جـ/ لو طرحنا الحديث بالكلية كان في عمل أبي هريرة على خلاف حديث السبع و هو راويه كفاية

لاستحالة أن يترك القطعي للرأي منه، و هذا لأنّ ظنية خبر الواحد إنما هو بالنسبة إلى غير راويه، فأما بالنسبة

إلى راويه الذي سمعه من في النبي -صلى الله عليه وسلم- فقطعي حتى ينسخ به الكتاب إذا كان قطعي الدلالة

في معناه، فلزم أن لا يتركه إلا لقطعه بالناسخ، إذ القطعي لا يترك إلا لقطعي، فبطل تجويزهم تركه بناء على

ثبوت ناسخ في اجتهاده المحتمل للخطأ، و إذا علمت ذلك كان تركه بمرة روايته للناسخ بلا شبهة، فيكون

الآخر منسوخا بالضرورة^(١٢).

٣/ إنَّ الغسل سبعا كان في ابتداء الإسلام لقلع عادة الناس في الألف بالكلاب، كما أمر بكسر الدنان و نهي عن الشرب في ظروف الخمر حين حرمت الخمر، فلمَّا تركوا العادة أزال ذلك^(١٣).

٤/ أن بول الكلب يطهر بالثلاث، فالأولى أن يطهر سؤره بالثلاث^(١٤).

المذهب الثاني : ذهب المالكية و الشافعية و الحنابلة و الظاهرية إلى القول بغسل الإناء سبعا مع اختلاف بينهم في بعض التفاصيل على النحو الآتي :

أولاً : المالكية :

قال ابن عبد البر : "فجملة مذهب مالك عند أصحابه اليوم أن الكلب طاهر و أن الإناء يغسل منه سبعا عبادة"^(١٥).

ثانيا : الشافعية :

قال المزني : قال الشافعي -رحمه الله- : "ويغسل منه الإناء سبع مرّات أولاًهنّ بالتراب"^(١٦).

ثالثا : الحنابلة :

قال ابن قدامة : "التجاسة تنقسم إلى قسمين :

أحدهما : نجاسة الكلب و الخنزير المتولد منهما، فهذا لا يختلف المذهب في أنه يجب غسلها سبعا إحداهنّ بالتراب.. و عن أحمد : أنه يجب غسلها ثمانيا إحداهنّ بالتراب... و الرواية الأولى أصحّ (رواية السبع)"^(١٧).

رابعا : الظاهرية :

قال ابن حزم : "فإن ولغ في الإناء كلب... يغسل بالماء سبع مرّات و لا بد أولاًهنّ بالتراب مع الماء و لا بد"^(١٨).

و استدلوا هؤلاء جميعا بالأحاديث الصحيحة المذكورة سابقا (في المطلب التمهيدي).

وجه الاستدلال منها :

قال الماوردي : "كل هذه النصوص تدل على أن الكلب إذا ولغ من إناء فإنه يغسل سبع مرّات"^(١٩).

و قال الشوكاني : "هذه الأحاديث تدل على وجوب الغسلات السبع من ولوغ الكلب"^(٢٠).

• المناقشة والترحيج : إن العلماء طعنوا في أدلة الحنفية من وجوه كثيرة نذكر منها :

١/ إن الحجّة في السنّة لا فيما خالفها، و لم يصل إلينا قول أبي هريرة إلا من جهة أخبار الآحاد، كما وصل إلينا المسند من جهة أخبار الآحاد العدول، فالحجّة في المسند^(٢١).

٢/ و إذا جاز للكوفيين أن يقولوا : لو صحّ الحديث عن أبي هريرة ما خالفه، جاز لخصمائهم أن يقولوا : لا يجوز أن يقبل عن أبي هريرة خلاف ما رواه و شهد به على رسول الله صلى الله عليه و سلم- و قد رواه عنه الثقات الجماهير، لأن في تركه ما رواه و شهد به على رسول الله صلى الله عليه و سلم- من غير أن يحكى عنه و ما ينسخه جرّحة و نقيصة. و حاش للصّحابة من ذلك، فهم أطوع الناس لله و لرسوله^(٢٢).

٣/ و قد روي عن أبي هريرة أنّه أفقّى بغسل الإناء سبعا من ولوغ الكلب، و هذا أولى من رواية من روى عنه أنّه خالف ما رواه بغير حجّة سوى الظنّ الذي لا يغني من الحق شيئا^(٢٣).

٤/ تفسير الراوي مقبول في أحد احتملي الخبر، كما يقبل تفسير الراوي من الصحابة، فأما أن يقبل في نسخ أو تخصيص فلا... و حديث الولوغ مفسّر لا يفتقر إلى تفسير راو و لا غيره، فوجب حمله على ظاهره^(٢٤).

٥/ الجواب عند فتيا أبي هريرة بالثلاث، فهو أنّها متروكة بروايته : لأن فتياه إذا تعدّدت فليست بحجّة، و روايته إذا انفردت حجّة، أو تكون محمولة على إناء غسل أربعة، و بقي من السبع ثلاث فأفقي بالثلاث استكمالا للسبع^(٢٥).

٦/ حتى لو صح عن أبي هريرة خلاف ما روى -ومعاذ الله من ذلك- فقد رواه من الصحابة غير أبي هريرة و هو ابن مغفل و لم يخالف ما روى^(٢٦).

٧/ إن الأمر بقتل الكلاب كان في أوائل الهجرة و الأمر بالغسل متأخر جدا لأنه من رواية أبي هريرة و عبد الله بن مغفل، و قد ذكر ابن مغفل أنّه سمع النبي صلى الله عليه و سلم- يأمر بالغسل و كان إسلامه سنة سبع كأبي هريرة^(٢٧).

٨/ إن العبرة بما روى إذ لا حجّة في الموقف مع صحة المرفوع و لا يقدم ذلك فيه، لاحتمال أن يكون نسي ما روى فأفقي بخلافه، و لا يثبت النسخ بمجرد الاحتمال^(٢٨).

٩/ و أمّا قياسهم على سائر النجاسات فلا يلتفت إليه مع هذه السنن الصحيحة المتظاهرة على مخالفته^(٢٩).

و بعد هذه الاعتراضات و الطعون يتبين حقيقة ضعف مذهب الحنفية فيما ذهبوا إليه، لأنه تعارض مع ما ثبت بطريق مستفيض و صحيح من السنة، و اليقين من السنة مقلّم على ما ورد فيه الاحتمال و الظن، و في هذا يقول ابن عبد البرّ: "قد ثبت عن النبي -صلى الله عليه و سلم- في هذا ما يردّ قول هؤلاء، فلا وجه للاشتغال به"^(٣٠).

و يقول ابن حجر: "ثبت أنه أفى بالغسل سبعا (أي أبو هريرة) و رواية من روى عنه موافقة فتياه لروايته أرجح من رواية من روى عنه مخالفتها من حيث الإسناد و من حيث النظر"^(٣١).

• الفرع الثاني : رأي الطبّ

في عرض مسألة ولوغ الكلب من الناحية العلمية أشار العلماء إلى العدد سبعة من خلال طرحهم، مؤكدين على استعمال التراب في أحدها، و عليه سننقل إشاراتهم للعدد سبعة الذي يهمننا في هذا المطلب، و نرجى الأمور الأخرى إلى حينها.

- جاء عن أطباء في مقال (للصحة العامة) قولهم: " الإناء الذي ولغ فيه الكلب يغسل سبع مرات أو لاهن بالتراب"^(٣٢).

- قال الأستاذ محمد كامل عبد الصمّد -المهتم بمسائل الإعجاز العلمي في الإسلام من خلال القرآن و السنة -: "و قد تبين الإعجاز العلمي في الحثّ على استعمال التراب في إحدى المرّات السبع"^(٣٣).

- و قال محمد منير عبده: "وقد بيّن بعض أطباء العصر وجه غسل الإناء سبعا من ولوغ الكلب طبّاً..."^(٣٤).

فظاهر كلامهم يوحي إلى أنّ العدد سبعة معتبر من الناحية العلميّة، إذ لا بدّ من تقييد الغسل به، و أنّ غسل الإناء دون هذا العدد لا يجدي شيئا في تنظيف الإناء.

• الفرع الثالث : نتيجة المقابلة بين الفقه و الطب

من خلال أقوال الفقهاء و ما ورد من اكتشافات الطب اليوم، تبين أن غسل الإناء سبعا- هو القول القوي و الصحيح شرعا و طبيا- فالتقى قول الجمهور مع قول الأطباء، و هو المعنى المستفاد من ظاهر قول الرسول صلى الله عليه و سلم- في الأحاديث المذكورة التي صرحت بالعدد تصريحاً لا يحتاج إلى تفسير كما هو مقرر شرعا، و في هذا يقول الماوردي رحمه الله- : "...فهو أنه تطهير شرعي في شيء غير مرسي، فوجب أن يكون العدد فيه معتبرا كالأعضاء الأربعة في الطهارة"^(٣٥).

و قد تفتن من علماء الشريعة قديما إلى أن العدد سبعة- الوارد في هذه المسألة يفيد التداوي لاسيما فيما يكون سماً، و فعلا وصف الطب المعاصر ما و لغ فيه الكلب بالسّم، و قد كتب الدكتور : السيد سلامة السقا مقالا تحت عنوان : "اللعب القاتل"^(٣٦) وهذا يؤكد ما نصّ عليه العلماء قديما من تبين وجه الحكمة في تحديد الغسل بسبع مرّات أنه يفيد معنى السّم، و من ذلك : ما نصّ عليه ابن رشد الجّد رحمه الله- حيث يقول : "تحديده صلى الله عليه و سلم- لغسل الإناء سبعا، لأن السبع من العدد مستحبٌ فيما كان طريقه التداوي، لاسيما فيما يفيد معنى السّم، فقد قال صلى الله عليه و سلم- في مرضه : "أهريقوا عليّ من سبع قرب لم تحلّل أو كيتهن"^(٣٧)، وقال صلى الله عليه و سلم- : "من تصبّح بسبع ثمرات عجوة"^(٣٨) لم يضرّه ذلك اليوم سمّ و لا سحر"^(٣٩)، و قد نصّ على هذا المعنى أيضا الإمام القرافي رحمه الله- فقال : "...و أما عدد سبع فمناسب بخصوصيته لدفع السّموم و الأسقام"^(٤٠).

و قال الغوي رحمه الله- مبينا حكمة أخرى من تخصيص الكلب بغسل لعابه سبع مرّات : "وعامة أهل العلم على أن الكلب مخصوص به (أي سبع مرّات)، لأنّ العرب كانت تقرب الكلاب من أنفسها و تألفها، فلما كانت نجاسته مألوفة، غلظ الشرع الحكيم في غسلها، فطمأ لهم عن عادتهم، كالحمر لما كانت نجاسة مألوفة غلظ الأمر في شربها بإيجاب الحدّ، بخلاف سائر النجاسات"^(٤١).

المطلب الثاني : مدى اشتراط الترتيب في غسل الإناء، و في أيّ منهن يكون؟

الفرع الأول : رأي الفقه

اختلف الفقهاء في اشتراط الترتيب في غسل الإناء على مذهبين :

المذهب الأول : ذهب الحنفية و المالكية إلى عدم اشتراط الترتيب. و استدلوا على ذلك بما يأتي :

- أما الحنفية فإنهم استندوا إلى الأدلة نفسها التي استدلوا بها على عدم وجوب غسل الإناء سبعا، و اعتمدوا على القياس : باعتبار أن سؤر الكلب نجس كسائر النجاسات، فتزال نجاسته كأي نجاسة دون اشتراط عدد أو تراب"^(٤٢).

و أما المالكية فلم يقولوا بوجوب الترتيب، لأن الإمام مالكا -رحمه الله- لم يثبت عنده الترتيب، حيث روى هذا الحديث -حديث أبي هريرة- بدون أن يذكر فيه أمر الغسل بالتراب^(٤٥).
و قد صور الشوكاني ما ذهب إليه الحنفية و المالكية فقال : "وقد خالفت الحنفية... في وجوب الترتيب كما خالفوا في التسبيح، و وافقهم ههنا المالكية مع إيجابهم التسبيح على المشهور عندهم، قالوا : لأن الترتيب لم يقع في رواية مالك، قال القرافي منهم : قد صحّت فيه الأحاديث، فالعجب منهم كيف لم يقولوا بها"^(٤٦).

المذهب الثاني : ذهب الشافعية و الحنابلة و الظاهرية إلى اشتراط الترتيب في غسل الإناء الذي ولغ فيه الكلب، إلا أنهم اختلفوا في أيّ منهن يكون؟
فأما الشافعية فعندهم روايتان :
الأولى : أن تكون أولاهن بالتراب.
الثانية : أن تكون إحداهن بالتراب من غير تحديد^(٤٧).
- قال المزني : "قال الشافعي -رحمه الله- : ويغسل منه الإناء سبع مرّات أولاهن بالتراب"^(٤٨). هذا فيما يخص الرواية الأولى عندهم.

- وقال الماوردي : "فإذا ثبت وجوب غسله سبعا، فالتراب لها مستحق في واحدة من جملتها، و لا يلزم أفرادها عنها"^(٤٩). و هذا فيما يخص الرواية الثانية لديهم.

و أما الحنابلة فعندهم أيضا روايتان :
الأولى : يغسل سبعا إحداهن بالتراب.
الثانية : يغسل ثمانية إحداهن بالتراب.
- قال ابن قدامة : "... نجاسة الكلب... لا يختلف المذهب في أنه يجب غسلها سبعا إحداهن بالتراب... و عن أحمد أنه يجب غسلها ثمانية إحداهن بالتراب... و الرواية الأولى أصحّ -رواية السبع-."
- ثم قال أيضا : "و المستحب أن يجعل التراب في الغسلة الأولى لموافقته للفظ الخبر"^(٥٠).

و أما الظاهرية فقد اشترطوا أن تكون الأولى بالتراب : قال ابن حزم -رحمه الله- : "...يفسل (أي الإناء) بالماء سبع مرات ولا بدّ أولاهن بالتراب"^(٥١).
 و استدلّ هؤلاء على وجوب الترتيب، و هو أمر متفق بينهم بما ورد في الأحاديث الصحيحة السابقة : فقوله -صلى الله عليه و سلم- : "أن يغسله سبع مرّات أولاهن بالتراب"، و قوله: "وعفّوه الثامنة بالتراب" يدل على وجوب ترتيب الإناء الذي ولغ فيه الكلب بالتراب - أي غسله بالتراب - استجابة و طاعة و عملا بما أمر به رسول الله -صلى الله عليه و سلم-^(٥٢).
 قال ابن دقيق العيد : "قوله : "بالتراب" يقتضي تعينه"^(٥٣).

- أما فيما يخص استدلالهم على أيّ منهنّ يكون فيها التراب، و كيف يمكن الجمع بين الروايات الواردة فيها :

فالخلاف راجع إلى رواية الترتيب التي تفرد بها الإمام محمد بن سيرين و هو ثقة، فهي زيادة ثقة مقبولة، و هي التي رواها الإمام مسلم، و قد لخصّ ابن حجر هذا الخلاف الواقع في الروايات، ثم رجح ما رآها راجحا فقال: "واختلف الرواة عن ابن سيرين في محلّ غسلة الترتيب، فلمسلم وغيره... "أولاهن"، و هي رواية الأكثر... و قال أبان عن قتادة "السابعة" ... وللشافعي... "أولاهن أو إحداهن"، و في رواية السدي عن البزار "إحداهن"...

فطريق الجمع بين هذه الروايات أن يقال : "إحداهن" مبهمة و "أولاهن و السابعة" معيّنة، و"أو" إن كانت في نفس الخبر فهي للتخير، فمقتضى حمل المطلق على المقيد أن يحمل على أحدهما، لأنّ فيه زيادة على الرواية المعيّنة...

و إن كانت "أو" شكا من الراوي، فرواية من عين و لم يشك أولى من رواية من أجهم أو شك، فيبقى النظر في الترجيح بين رواية : "أولاهن" و رواية "السابعة".

و رواية "أولاهن" أرجح من حيث الأكترية و الأحفظية، و من حيث المعنى أيضا، لأنّ ترتيب الأخيرة يقتضي الاحتياج إلى غسلة أخرى لتنظيفه، و قد نصّ الشافعي... على أن الأولى أولى -والله أعلم-^(٥٤).

- و قال العراقي مرجّحاً رواية "الأولى" و معترضاً على الحنفية الذين قالوا "بالاضطراب" : "...وفيما قالاه (يقصد عالمين من مصتفي الحنفية لم يذكر اسمهما) نظر (أي القول بالاضطراب) : فإنّ الحديث المضطرب إنّما تتساقط الروايات إذا تساوت وجوه الاضطراب، أمّا إذا ترجّح بعض الوجوه بالحكم للرواية الراجحة فلا يقدر فيها رواية من خالفها كما هو معروف في علوم الحديث، و إذا تقرّر ذلك، فلا شك أنّ رواية : "أولاهن" أرجح من سائر الروايات، فإنّه رواها عن محمد بن سيرين ثلاثة... و أخرجها مسلم في صحيحه... فتترجّح بأمرين :

- كثرة الرواة.

- تخريج أحد الشيخين لها.

و هما من وجوه الترجيح عند التعارض^(٥٥).

و قد رجّح هذا القول أيضا الشيخ محمد بن صالح العثيمين -رحمه الله- فقال : "الأولى أن يكون التراب في "الأولى" لما يلي :

١/ ورود النص بذلك.

٢/ أنّه إذا جعل التراب في أوّل غسلة خفّت النجاسة، فتكون بعد أوّل غسلة من النجاسات المتوسطة.

٣/ أنّه لو أصاب الماء في الغسلة الثانية بعد التراب محلاً آخر، غسل ستّاً بلا تراب، و لو جعل التراب في الأخيرة و أصابت الغسلة الثانية محلاً آخر غسل ستّاً إحداهما بالتراب^(٥٦).

أمّا فيما يخصّ التعارض الحاصل -في الظاهر- بين حديث أبي هريرة الذي ينصّ على سبع مرّات، و حديث ابن مغلّ الذي قيّد الغسل بثماني غسلات، فقد نقل ابن حجر أنّ الترجيح بين الحديثين لا يصار إليه، و إنّما يمكن الجمع بينهما. فقال : "و جنح بعضهم إلى الترجيح لحديث أبي هريرة على حديث ابن مغلّ، و الترجيح لا يصار إليه مع إمكان الجمع، و الأخذ بحديث ابن مغلّ يستلزم الأخذ بحديث أبي هريرة دون العكس، و الزيادة من الثقة مقبولة، و لو سلكتنا الترجيح في هذا الباب لم نقل بالترتيب أصلاً لأن رواية مالك بدونه أرجح من رواية من أثبته، و مع ذلك فقلنا به أخذاً بزيادة الثقة، و جمع بعضهم بين الحديثين بضرب من اجاز فقال : لما كان التراب جنساً غير الماء جعل اجتماعهم في المرّة الواحدة معدوداً باثنتين، و تعقبه ابن دقيق العيد بأنّ قوله : "و عقروه الثامنة بالتراب"، ظاهر في كونها غسلة مستقلة، لكن لو وقع التعفير في أوّله قبل ورود الغسلات السبع، كانت الغسلات ثمانية، و يكون إطلاق الغسلة على الترتيب مجازاً، و هذا الجمع من مرجّحات تعيّن التراب في الأولى^(٥٧).

- و قال الشوكاني -رحمه الله- : "وقد وقع الخلاف، هل يكون التتريب في الغسلات السبع أو خارجا عنها؟... و ظاهر حديث عبد الله ابن مغفل أنه خارج عنها"^(٥٨).

- وقال النووي : "أن المراد "اغسلوه سبعا" واحدة منهنّ بالتراب مع الماء، فكانَ التراب قائم مقام غسلة، فسميت ثامنة لهذا -والله أعلم-"^(٥٩).

• الفرع الثاني : رأي الطب

أكد الأطباء على ضرورة استعمال التراب في عملية غسل الإناء الذي ولغ فيه الكلب وبينوا سبب ذلك، حسب التفصيل الآتي :

- بين الأطباء السر في استعمال التراب دون غيره في مقال (للصحة العامة) جاء فيه: " الحكمة في الغسل سبع مرات أولاهن بالتراب: أن فيروس الكلب دقيق متناه في الصغر، و من المعروف أنه كلما صغر حجم الميكروب كلما زادت فعالية سطحه للتعلق بجدار الإناء و التصاقه به، و لعاب الكلب الخثوي على الفيروس يكون على هيئة شريط لعابي سائل، و دور التراب هنا هو امتصاص الميكروب - بالالتصاق السطحي - من الإناء على سطح دقائقه"^(٦٠).

- و قد ثبت علميا أن التراب يحتوي على مادتين قاتلتين للجراثيم حيث: "أثبت العلم الحديث أن التراب يحتوي على مادتين (تتراكسلين) و (التتاراليت) و تستعملان في عمليات التعقيم ضد بعض الجراثيم"^(٦١).

- توقع بعض الأطباء الباحثين أن يجدوا في تراب المقابر جراثيم معينة بسبب جثث الموتى، لكن التجارب و التحاليل أظهرت أن التراب عنصر فعال في قتل الجراثيم... و هذا ما أعلنه مجموعة من الأطباء بقولهم : " قام العلماء في العصر الحديث بتحليل تراب المقابر ليعرفوا ما فيه من الجراثيم، و كانوا يتوقعون أن يجدوا فيه كثيرا من الجراثيم الضارة، و ذلك لأن كثيرا من البشر يموتون بالأمراض الإنثانية الجرثومية، و لكنهم لم يجدوا في التراب أثرا لتلك الجراثيم الضارة المؤذية ... فاستنتجوا من ذلك أن للتراب خاصية قتل الجراثيم الضارة، و لولا ذلك لانتشر خطرها و استفحل أمرها، و قد سبقهم النبي - صلى الله عليه و سلم- إلى تقرير هذه الحقيقة بهذه الأحاديث النبوية الشريفة"^(٦٢).

- قال محمد كامل عبد الصمد : " و قد تبين الإعجاز العلمي في الحث على استعمال التراب في إحدى المرات السبع"^(٦٣)؛ فقد ثبت أن التراب عامل كبير على إزالة البويضات و الجراثيم، و ذلك لأن ذرات التراب تندمج معها فتسهل إزالتها جميعا.. كما قد يحتوي التراب على مواد قاتلة لهذه البويضات.."^(٦٤).

- وقد جاء عنه في مقدّمة كتابه.. عند كلامه على الذين يريدون أن يستبعدوا بعض أحاديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بحجة عدم مسيرتها للعلم الحديث.. منها حديث ولوغ الكلب، فقال: "و من الأحاديث التي قالوا عنها أنّها متعارضة مع العقل و العلم قوله -صلى الله عليه وسلم- : "إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فاغسلوه سبعا إحداهن بالتراب".

...لقد ذهبوا محتجين بالعقل وحده : إنّ غسل الإناء سبع مرّات بالماء كفيّل أن ينظّفه.. أمّا أن يغسل بالتراب، فكيف ينظف بالتراب؟ إنّ شأن التراب أن يزيد الاتساخ لا أن يجلب التظافة.

و نقول في ذلك... بأنّ للعقل حدوده التي لا يتعدّاها.. و على العلم أن يبحث، ليكشف ويتحقق من صحّة الحديث، لا أن يرفضه للوهلة الأولى لمجرد أن العقل لا يستسيغه.

و بالفعل تحقّق الباحثون من ذلك، فتيّنوا صحّة ما ورد في حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- و قالوا : بأنّ جرائم الكلب لا يمكن أن تزول إلّا بالتراب مهما غسلت بغيره، و قد ثبت ذلك من تجارب عديدة أجريت في حقول معملية في بلاد لا تدين بالإسلام^(٦٥).

• الفرع الثالث : نتيجة المقابلة بين الفقه و الطب

إنّ القول باشتراط التّريب في غسل الإناء الذي ولغ فيه الكلب قد ثبت قوّته شرعا و علما، و في هذا دليل صريح على مدى تطابق ما صرّح به الشّارع الحكيم، و ما اكتشفه العلم الحديث من حقائق و دقائق.. تنبى أن هذه النصوص من لدن حكيم خبير، عليم قدير.. لا يستطيع بأيّ حال من الأحوال أن يتنبأ بها محمد بن عبد الله من تلقاء نفسه أو بمساعدة غيره كان من كان..

و هذه الحقيقة العلميّة تعتبر بمثابة دليل آخر على صحّة ما رجّحه العلماء من أنّ الزيادة في حديث ولوغ الكلب - أي زيادة التّريب التي رواها الإمام مسلم- عن الإمام محمد بن سيرين، أنّها زيادة ثقة مقبولة يجب العمل بها، و بهذا يَضَعُ قول من قال بعدم التّريب من حنفية و مالكية، و يقوى قول من قال به من شافعية و حنابلة و ظاهرية... و ندرك بذلك أيضا أنّ الفقهاء الذين استغربوا و تعجبوا من عدم اشتراط التّريب كانوا محقّين في ذلك، منهم الإمام القرافي المالكي حيث يقول : "... قد صحّت فيه (أي التّريب) الأحاديث، فالعجب منهم كيف لم يقولوا بها"^(٦٦).

- و قال ابن دقيق العيد : "في رواية ابن سيرين زيادة التراب، و قال بها الشافعي و أصحاب الحديث، و ليست في رواية مالك هذه الزيادة فلم يقل بها، و الزيادة من الثقة مقبولة، و قال بها غيره"^(٦٧).

— وقال العراقي: "لو غسله مرّة ثامنة بالماء بدلا عن التراب لا يكفي و هو الأصح... و أما من قال ... يكفي، لأن الماء أبلغ في التطهير من التراب فمردود، لأنه لا يجوز أن يستنبط من النصّ معنى يعود عليه بالإبطال، و لو كان الماء أبلغ من التراب مطلقا لجاز لمن وجد بعض ما يكفيه من الماء لأعضاء التيمم أن يقتصر على غسل الوجه و اليدين دون التيمم، لأن الماء أبلغ في التطهير، و لا قائل بذلك — الله أعلم" (٦٨).

• المطلب الثالث : هل يقوم مقام التراب غيره من مواد التنظيف في إزالة النجاسة؟ • الفرع الأول : رأى الفقه

بما أن الحنفية و المالكية لا يقولون بوجوب الترتيب أصلا، فإن هذه المسألة لا ترد عندهم من باب أولى.
أما الذين قالوا بوجوب الترتيب فقد تعددت الروايات عندهم في قيام غير التراب مقام التراب على النحو الآتي :

أولا : الشافعية : عندهم أربعة أقوال.
قال التتوي : "مسألة بدل التراب... فحاصل المنقول فيها أربعة أقوال :
أظهرها : لا يقوم غير التراب مقامه.
و الثاني : يقوم... و الثالث : يقوم عند عدم التراب دون وجوده، و الرابع : يقوم فيمننا يفسده التراب كالثياب دون الأواني و نحوها" (٦٩).

• ثانيا : الحنابلة : حكى ابن قدامة روايتين في المذهب :

قال : "الأولى لا يجزئه... و الثانية يجزئه" (٧٠).

ثالثا : الظاهرية : ذهبوا إلى عدم قيام غير التراب مقام التراب.
قال ابن حزم : "و لا يجزئ بدل التراب غيره، لأنه تعدّد لحدّ رسول الله صلى الله عليه

وسلم" (٧١).

و استدلل هؤلاء بالأدلة الآتية :

أ/ أدلة من قالوا بعدم الإجزاء :

١/ لأنها طهارة أمر فيها بالتراب فلم يقم غيره مقامه كالتيتم.

٢/ ولأن الأمر به تعبد غير معقول فلا يجوز القياس فيه.

ب/ أدلة من قالوا بالإجزاء.

١/ لأن الصابون ونحوه أبلغ من التراب في الإزالة، فنصّه على التراب تنبيه على ما سواه.

٢/ لأن التراب جامد أمر به في إزالة التجاسة فألحق به ما يماثله كالحجر في الاستجمار.

٣/ لأنه تطهير نجاسة نصّ فيه على جامد فلم يختص به كالاستنجاء و الدّباغ^(٧٢).

الترجيح :

ذهب زين الدّين العراقي إلى ترجيح القول بعدم الاجزاء، بمعنى : أن غير التراب لا يقوم مقامه، فقال

—رحمه الله— : "و الأصح... تعين التراب و أنّه لا يكفي الصّابون و الأشنان^(٧٣) ونحوهما، و فيه وجه أنه يكفي فيما يفسد بالتراب كالشيايب خصوصا النفيسة"^(٧٤).

و إلى هذا الرأي —أيضا— ذهب ابن دقيق العيد فقال : "قوله : "بالتراب" يقتضي تعينه : و في مذهب

الشافعي —رحمه الله— قول أو وجه أنّ الصّابون و الأشنان و الغسلة الثّامنة يقوم مقام التراب، بناء على أنّ المقصود بالتراب زيادة التنظيف، و أنّ الصّابون و الأشنان يقومان مقامه في ذلك، و هذا عندنا ضعيف.

لأنّ النصّ إذا ورد بشيء معيّن و احتمل معنى يختص بذلك الشيء لم يجوز إلغاء النص وإطراح

خصوص المعين فيه، و الأمر بالتراب و إن كان محتملا لما ذكره و هو : زيادة التنظيف، فلا يجوز بتعيين ذلك المعنى، فإنه يزاحمه معنى آخر، و هو الجمع بين مطهرين، أعنى الماء و التراب، و هذا المعنى مفقود في الصّابون و الأشنان.

و أيضا فإن هذه المعاني المستتبطة إذا لم يكن فيها سوى مجرد المناسبة فليست بذلك الأمر القوي، فإذا

وقعت فيها الاحتمالات، الصّواب إتباع النصّ.

و أيضا فإنّ المعنى المستبطن إذا عاد على النصّ بالإبطال و التخصيص فمردود عند جميع

الأصوليين"^(٧٥).

• الفرع الثاني : رأي الطب

- أكد الأطباء على التراب في عملية الغسل فقال الدكتور الإسمعلاوي المهاجر: " أوصي في حال ملامسة لعاب الكلب باليد أو بالأجسام، بغسلها سبع مرات، إحداهما بالتراب أو الطين: الذي اكتشف مؤخرا أنه يقتل الديدان و الطفيليات" (٧٦).

- لقد بين الأطباء في أبحاثهم سبب استعمال التراب و أن الماء وحده لا يفي عنه فقالوا:

" ... أما لماذا الغسل بالتراب ؟ ... إن الحُمة المسببة للمرض متناهية في الصغر ، و كلما قل حجم الحمة إزداد خطرهما، لازدياد إمكانية تعلقها بجدار الإناء، و التصاقها به، و الغسل بالتراب أقوى من الغسل بالماء، لأن التراب يسحب اللعاب و الفيروسات الموجودة فيه بقوة أكثر من إمرار الماء، أو اليد على جدار الإناء ، و ذلك بسبب الفرق في الضغط الحلولي بين السائل (لعاب الكلب)، و بين التراب، و كمثال على هذه الحقيقة الفزيائية إمرار الطباشير على نقطة حبر" (٧٧).

- و من الأطباء من ذهب إلى وجوب استعمال الماء و الصابون معا: فقالوا: " العلاج ... ينبغي في الخطوة الأولى عند معالجة شخص عقره حيوان الكلب غسل الجرح بالماء و الصابون" (٧٨).

- و قد أكد الدكتور عبد المجيد على الغسل بالماء كما أشارت إلى ذلك السنة مع زيادة الصابون معه فقال: " الإسعاف ... غسل الجرح فوراً بالماء الدافق و الصابون، ثم مسح الجرح بالكحول المخروط بالماء بنسبة ٤٠ ٪" (٧٩).

- وقال الدكتور علي بن سعيد الغامدي : " قد ثبت علمياً أن ريق الكلب فيه الدودة الشريطية، وأن الصابون و غيره من المنظفات الحديثة لا يقتل هذه الدودة، كما اكتُشف أن في التراب مادة تقتل هذه الدودة وتقضي عليها" (٨٠).

- و قال محمد كامل عبد الصمد : " ... قد ثبت أن التراب عامل كبير على إزالة البويضات والجراثيم... " (٨١).

• الفرع الثالث : نتيجة المقارنة بين الفقه و الطب

الراجح من أقوال المحققين في هذه المسألة أن : التراب لا يقوم مقامه في تنظيف الإناء الذي ولغ فيه الكلب، و هذا ما وصل إليه فعلا الطب الحديث، و قد رجح كثير من العلماء المعاصرين قول من قال بعدم الإجزاء معتمدين في ذلك على أمرين :

- الأول : ما صح من روايات الفقهاء القدامى كابن دقيق العيد و العراقي و النووي وغيرهم...
- و الثاني : ما ثبت علميا بواسطة التجارب و التحاليل المخبرية.
- و إليك بعض أقوال العلماء المعاصرين في هذا :
- ١ / قال أحمد محمد شاكر- في تعليقه على رأي ابن حزم القائل بعدم الإجزاء -: "ثبت في الطب أن بعض ما في لعاب الكلب من الأمراض لا علاج له إلا الدلك بالتراب"^(٨٢).
- ٢ / قال الشيخ- محمد بن صالح العثيمين : "... و قول من قال : "بجزء عن التراب"... فيه نظر لما يلي :
- أ- أن الشارع الحكيم نص على التراب، فالواجب إتباع النص .
- ب- أن السدر و الأشنان كانت موجودة في عهد النبي- صلى الله عليه و سلم- و لم يشتر إليهما.
- ج- لعل في التراب مادة تقتل الجراثيم التي تخرج من لعاب الكلب"^(٨٣).

٣/ قال الدكتور علي بن سعيد الغامدي- عند تعرضه لاختيارات ابن قدامة في هذه المسألة-: " و لم يرجح ابن قدامة آيا من الروايتين... فإن وجد ما يستأنس به من العلم الحديث فلا مانع من الترحيح - و ذكر كما سبق أن في التراب مادة تقتل الدودة الشريطية...- ثم قال : "وهذا يرجح جانب الرواية الأولى - أي رواية عدم الإجزاء"^(٨٤).

المطلب الرابع : هل يجب إراقة كل ما ولغ فيه الكلب من شراب و طعام؟

الفرع الأول : رأي الفقه

- الماء الذي ولغ فيه الكلب إهراقه و بهذا قال عامة الفقهاء، لكنهم اختلفوا فيما لو كان في الإناء مانع غير الماء، أو كان طعاما حسب التفصيل الآتي :
- أولا : الحنفية : قالوا بنجاسة الماء الذي ولغ فيه الكلب، و لذلك يجب إراقتة و يقاس عليه كل مانع.
 - قال الزبلي : "و سؤر الكلب نجس ... و الأمر بالإراقة دليل التنجس"^(٨٥).
 - و قال الباري : "الولوغ حقيقة في شرب الكلب و أشباهه من المانعات بطرف لسانه"^(٨٦).
 - ثانيا : المالكية : ذهبوا إلى القول بإراقة الماء الذي ولغ فيه الكلب، لكن لم يعتبروه نجسا، و أن المانعات غير الماء -خاصة الثمينة- و كذا الأطعمة إذا ولغ أو أكل منها الكلب فلا تنجس و لا يجب إراقتها.
 - و قال ابن عبد البر : "و لا يهرق شيئا مما ولغ فيه غير الماء وحده ليسارة مؤونته، و أن من توضع به إذا لم يجد غيره أجزأه (أي لأنه طاهر) و انه لا يجوز التيم لمن كان معه ماء ولغ فيه كلب"^(٨٧).

ثم نص على أن الإمام مالك لا يستحب الوضوء به، فقال: "وقال (أي مالك) مع هذا كله: لا خير فيما ولغ فيه كلب، و لا يتوضأ به أحب إلي هذا كله ما روى ابن القاسم عنه".
أما حكم الطعام الذي أكل منه الكلب، فلم يقل مالك بنجاسته، وكذلك الماتعات غير

الماء :

- قال ابن عبد البر : "و لا بأس عنده (أي : مالك) بأكل ما ولغ فيه لكلب من اللبن والسمن و غير ذلك، و يستحب هرق ما ولغ فيه من الماء، و في الجملة هو عنده طاهر، و قال : هذا الحديث ما أدري ما حقيقته!... و كل إناء ولغ فيه- طعاما كان أو غيره، يؤكل الطعام، و يغسل الإناء بعد تعبدا، و لا يراق شيئا من الطعام، و إنما يراق الماء عند وجوده ليسارة مؤونته"^(٨٨).

ثالثا : الشافعية : اختلفوا بين القول بالجوب و الاستحباب في إراقة ما ولغ فيه الكلب، وكذلك في

الانتفاع به :

- قال الماوردي : " اختلف أصحابنا : هل إراقتة واجبة و الانتفاع به محرم؟ فذهب بعضهم إلى التمسك بظاهر هذا الكلام، و أوجب إراقتة، و حرم الانتفاع به ... و قال جمهورهم : إن إراقتة لا تجب، و إنما تستحب، و الانتفاع به من وجه مخصوص لا يحرم"^(٨٩).

- و قال النووي : " لو ولغ الكلب في إناء فيه طعام جامد، ألقى ما أصابه و ما حوله، و بقي الباقي على طهارته السابقة و ينتفع به كما في الفأرة تموت في السمن و نحوه"^(٩٠).

رابعا : الحنابلة : ذهبوا إلى ما ذهب إليه الشافعية، حيث قال ابن قدامة : " لو كان سوره طاهرا، لم تجز إراقتة، و لا وجب غسله"^(٩١).

خامسا : الظاهرية : ذهبوا إلى أن الكلب إذا ولغ في أي مائع يجب إراقتة، أما ما أكل منه الكلب من

طعام فلا يجب هرقه، و لا يغسل الإناء منه سبعا، و أن الماء الذي يغسل به الإناء طاهر.

- قال ابن حزم : " فالقروض إهراق ما في ذلك الإناء كائنا ما كان... فإن أكل الكلب في الإناء

... لم يلزم غسل الإناء و لا هرق ما فيه البتة و هو حلال طاهر كله كما كان"^(٩٢).

- و قال في موضع آخر : "والماء الذي يغسل به الإناء طاهر"^(٩٣).

و استدل هؤلاء على القول بالإراقة بما يأتي :

- "قوله - عليه السلام- "فليرقه"، فيه الأمر بالإراقة"^(٩٤).

- قال ابن حجر : " و قوله : " فليرقه "، يقوي القول بأن الغسل للتجنيس، إذ المراق أعم من أن يكون ماء أو طعاما، فلو كان طاهرا، لم يؤمر بإراقته للنهي عن إضاعة المال"^(٩٥).

- و قال النووي : " قوله : " فليرقه" تدل على نجاسة ما ولغ فيه، و أنه إن كان طعاما مانعا حرم أكله، لأن إراقته إضاعة له، فلو كان طاهرا لم يأمرنا بإراقته"^(٩٦).

- و قال ابن حزم : " و أما وجوب إزالة لعاب الكلب و عرقه في أي شيء كان، فلأن الله تعالى حرم كل ذي ناب من السباع، و الكلب ذو ناب من السباع، فهو حرام، و بعض الحرام حرام بلا شك، ولعابه و عرقه بعضه، فهما حرام، و الحرام فرض إزالته واجتنابه"^(٩٧).

أما المالكية و من وافقهم فإنهم ذهبوا إلى أن الماء الذي ولغ فيه الكلب طاهر مطهر، إلا أنه يكره استعماله مع وجود غيره مراعاة لمن قال بنجاسته"^(٩٨) و من بين ما استندوا إليه ما يأتي :

١- قال ابن عبد البر : "لفظة" : "فليرقه" لم يذكرها الحفاظ"^(٩٩).

و اعترض عليه العراقي فقال : "قوله : "فليرقه" زيادة غير محفوظة، هذا غير قادح فيه، فإن زيادة الثقة مقبولة عند أكثر العلماء من الفقهاء و الأصوليين و المحدثين"^(١٠٠).

٢- و استدل ابن حزم على عدم تحريم ما أكل منه الكلب فقال : " و أما ما أكل فيه الكلب... فلا غسل في ذلك و لا هرق لأنه حلال طاهر قبل ذلك بيقين، إن كان مما أباحه الله تعالى من المطاعم و المشارب و سائر المباحات، فلا ينتقل إلى التحريم و التجنيس إلا بنص لا بدعوى"^(١٠١).

و أما فيما يخص طهارة الماء الذي غسل به الإناء فقال : " و الماء الذي يغسل به الإناء طاهر، لأنه لم يأت نص باجتنابه، و لا شريعة إلا ما أخبرنا بما عليه السلام، و ما عدا ذلك فهو مما لم يأذن الله تعالى به، و الماء حلال شربه طاهر فلا يحرم إلا بأمر منه عليه السلام"^(١٠٢).

و قال في موضع آخر : " فأمر عليه السلام بهرق ما في الإناء الذي ولغ فيه الكلب، و لم يخص شيئا من شيء، و لم يأمر عليه السلام باجتناب ما ولغ فيه في غير الإناء، بل نهي عن إضاعة المال"^(١٠٣).

الفرع الثاني : رأي الطب

لقد حذّر الأطباء من استعمال الماء الذي ولغ فيه الكلب، و ذلك لوجود جراثيم تؤدي إلى الإصابة بأمراض عديدة :

- أكدت الأبحاث العلمية على وجوب الاحتراز مما ولغت فيه الكلاب و اكلت، تأييدا للطب النبوي، حيث جاء في مقال للصحة العامة: "... إعجاز آخر للطب النبوي حين أرشدنا إلى الأسلوب العلمي الرفيع في الاحتراز من الآنية و المياه التي يردّها الكلاب، خوفا من نقلها مرض الكلب - الريبس - الخطير و عدة أمراض أخرى" (١٠٤).

- وقال محمد كامل عبد الصمد : "قد أفاض العلماء حديثا عن أضرار الكلب الكثيرة... وهذا مما يؤيد قول رسول الله - صلى الله عليه و سلم- في عدم استعمال الماء الذي شرب منه الكلب أو ولغ فيه، و ذلك بعد أن قررت الأبحاث العلمية أن الكلب ينقل إلى الإنسان كثيرا من الأمراض ... منها الجرب، و منها داء الكلب و هو داء خطير، و منها المرض الشديد الخطورة المسمى "كسيت إيداتيک" هذا المرض الذي يتولد بدخول بيوض الدودة المسماة "تيتا اكنياكوكس"، و توجد هذه الدودة بكثرة في أمعاء الكلب، يزرعها في كل ناحية بواسطة برازه في البيوت، و في كل مكان يتردد عليه، و ينتقل هذا المرض إلى الإنسان بلمس الكلب و عاء الطعام أو بشربه من إناء الماء، لأن أنف الكلب و فمه و ما حوله منابع الداء.

و قد أظهرت الدراسات الوبائية و الحيوانية مدى خطورة لعاب الكلب الذي يؤدي إلى الفتك بالإنسان، و يعتبر هذا المرض القاتل من الأمراض المتوطنة في البلاد التي تحرض على اقتناء الكلاب، الأمر الذي نهى الرسول - صلى الله عليه و سلم- عنه في قوله : " لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها" (١٠٥)، (١٠٦).

الفرع الثالث : نتيجة المقابلة بين الفقه والطب

إذا قابلنا رأي الفقه مع رأي الطب، فإننا نستخلص أن ما ولغ فيه الكلب من شراب - و هو المنصوص عليه-، و طعام، يأخذ الحكم نفسه و هو : الزامية إراقتة، لأنه تبين أن لعاب الكلب يحتوي على هذه الدودة الشريطية... فلا شك إذن أنه كلما ولغ في الإناء، به أي مائع من المائعات، أو أي طعام، فإن هذه الدودة تسري فيه، و تكون سببا في نقل الأمراض التي ذكرها الطب- كما مر بيانه- و بهذا يتبين صحة ما ذهب إليه الفقهاء من وجوب إراقة ما ولغ فيه الكلب، لكن يبقى أن قول المالكية القائلين بالاستحباب، و بإراقة الماء دون غيره من المائعات الثمينة باعتبار يسارة مؤونة الماء، رأي ليس بالقوي في نظرنا، و ذلك لأن سريان الجراثيم في الماء يماثل سريانها في بقية المائعات.

أما فيما يخص الطعام فإن رأي الطب- كما سبق- ينص على طرح ما أكل فيه الكلب، لأن الجراثيم لها سرعة كبيرة في الانتشار، زيادة على أن النفس تنفر من كل ما هو غير نظيف، و قد وافق هذا الرأي رواية من قال من الفقهاء بطرح الطعام قياسا له على إراقة الماء سواء بسواء.

- قال القرافي -رحمه الله- : " قوله : " إذا ولغ "، يختص بالماء عملا بالغالب، أو يعم الماء والطعام لخصوص السبب في الجميع، قولان... و هل يؤكل الطعام أو يطرح قولان" (١٠٧).

و هذا المذهب أحوط و أسلم ممن ذهب إلى طرح طعام المكان الذي أكل فيه الكلب فقط، و قد بالغ ابن حزم في هذا، فذهب إلى طهارة ما أكل منه الكلب مطلقا دون ما ولغ فيه...

و باستقراء ما قيل في هذه المسألة نجد علماء الإسلام- منذ آلاف السنين- قد تفتنوا إلى كثير مما نص عليه الطب الحديث اليوم، فحذروا و شددوا في وجوب إراقة ما ولغ فيه الكلب :

- قال النووي- رحمه الله- : " قوله : " فليرقه"، هذا نص في وجوب إراقتة و إتلافه، و ذلك ظاهر في نجاسته، فلولا النجاسة لم تجز إراقتة" (١٠٨).

- و قال ابن حجر- رحمه الله- : " و في الحديث دليل على أن حكم النجاسة يتعدى عن محلها إلى ما يجاورها بشرط أن يكون مائع، و على تنجيس المائعات إذا وقع في جزء منها نجاسة، و على تنجيس الإناء الذي يتصل بالمائع، و على الماء القليل ينجس بوقوع النجاسة فيه و إن لم يتغير، لأن ولوغ الكلب لا يغير الماء الذي في الإناء غالبا" (١٠٩).

و قال احمد محمد شاکر معترضاً على ابن حزم عند حكمه على طهارة الماء الذي يغسل به الإناء : " معاذ الله أن يكون هذا الماء طاهرا وهو مما دل قوله -صلى الله عليه و سلم- " ظهور إناء أحدكم" على نجاسته بمعناه الظاهر الذي لا يحتاج إلى تأويل، و هو ماء قدر مستنكر" (١١٠).

و نقول في الأخير : باعتماد الطرح الفقهي و الطبي فإنه يتوجب علينا أن الكلب إذا ولغ في إناء أم أكل طعاما كان به... فيجب إهراق كل مائع رخيص كان أم ثمين، و كذلك الطعام يجب طرحه كان ما كان، و هذا من باب العمل بالأحوط الذي أمرنا به شرعا -والله أعلم-

المطلب الخامس : هل الأمر بغسل الإناء سبعا تعبدي- غير معقول المعنى- أو معلل- معقول المعنى-؟

الفرع الأول : رأي الفقه .

إن هذه المسألة مبنية على مسألة أخرى و هي : هل أن الكلب و سؤره يعتبر نجسا أم لا ؟. فالحنفية^(١١١) و الشافعية^(١١٢) و الحنابلة^(١١٣) يذهبون إلى أن الكلب و سؤره نجس، أما المالكية فيذهبون إلى أن الكلب و سؤره طاهر^(١١٤) .

قال ابن عبد البر مبينا ذلك : "من ذهب إلى أن الكلب ليس نجس، فسؤره عنده طاهر، و غسل الإناء من ولوغه سبع مرات هو عنده تعبد في غسل الطاهر خصوصا لا يتعدى، و من ذهب إلى أن الكلب نجس و سؤره نجس، فمن قال أيضا إن الإناء من ولوغه يغسل سبعا، قال : "التعبد إنما وقع في عدد الغسلات من بين سائر النجاسات"^(١١٥).

فالمالكية يذهبون إلى أن غسل الإناء من ولوغ الكلب و العدد سبعة كليهما تعبدا، و لذلك فإن الماء الذي ولغ فيه الكلب طاهرا .

قال ابن عبد البر : " فجملة مذهب مالك عند أصحابه اليوم أن الكلب طاهر، و أن الإناء يغسل منه سبعا عبادة"^(١١٦).

أما الجمهور من حنفية و شافعية و حنابلة يقولون أن التعبد وقع في العدد سبعة فقط أما عملية الغسل فهي معللة، و لذلك فإن الماء الذي ولغ فيه الكلب نجس.

و قد رجح ابن دقيق العيد قول الجمهور بعد أن تعرض لقول مالك - رحمه الله - فقال : "الأمر بالغسل ظاهري في تنجيس الإناء، و أقوى من هذا الحديث في الدلالة على ذلك الرواية الصحيحة و هي قوله - صلى الله عليه و سلم- " ظهور إناء أحدكم ... و أن لفظه ظهور تستعمل إما عن الحدث أو عن الخبث، و لا حدث على الإناء بالضرورة فتعين الخبث، و حمل مالك - رحمه الله - هذا الأمر على التعبد لاعتقاده طهارة الماء و الإناء ..."^(١١٧).

ثم رجح فقال : " و الحمل على التنجيس أولى لأنه : متى دار الحكم بين كونه تعبدا و بين كونه معقول المعنى، كان حمله على كونه أولى لندرة التعبد بالنسبة إلى الأحكام المعقولة المعنى"^(١١٨).

و قد ذكر ابن عبد البر أن الأحكام المعقولة المعنى أكثر، ثم تعرض إلى الخلاف الواقع بين المالكيين والشافعيين في هذه المسألة فقال: "إن الأصل في الشرائع العلل، و ما كان لغبر العلة ورد به التوقيف، و في هذه المسألة كلام كثير بين الشافعيين و المالكيين يطول الكتاب بذكره"^(١١٩).

ووجدت العراقي قد وضع جيدا مسلك ابن عبد البر و ابن دقيق العيد في هذه المسألة فقال: "اختلف العلماء في تسيب نجاسة الكلب هل هو تعبد أو معقول المعنى؟ فحكم ابن عبد البر في التمهيد عمّن ذهب إلى نجاسة الكلب أن العدد في الغسلات تعبد.

و في كلام ابن دقيق العيد ما يدل على أنه تعبد، و أن أصل الغسل معقول المعنى و هو النجاسة، قال: و إذا كان أصل المعنى معقولا قلنا به، و إذا وقع في التفاصيل مالا يعقل معناه في التفصيل لم ينقض لأجله التأصيل و لذلك نظائر في الشريعة، قال: و لو لم تظهر زيادة التلغيز في النجاسة، لكننا تقتصر في التعبد على العدد و نكتفي في أصل المعنى على معقولة المعنى"^(١٢٠).

الفرع الثاني: رأي الطب

لم يسلك الأطباء في هذه المسألة مسلك الأصوليين و الفقهاء ببحثهما "هل هي تعبدية أو معللة"، و إنما سلكوا مسلك تبيين السر من تحذير رسول الله - صلى الله عليه و سلم- من الماء الذي ولغ فيه الكلب، فتوصلوا باعتماد التجارب و التحاليل إلى أن هذا الماء يحتوي على جراثيم يطرحها الكلب من فمه أثناء شربه، فاستنتجوا أن الأمر بغسل الإناء معقول المعنى، لظهور العلة في ذلك و هي "الجراثيم".

- قال الدكتور الإسماعلاوي المهاجر: "أكد كشف طبي جديد حقيقة ما أوصى به نبي الإسلام محمد - صلى الله عليه و سلم- عندما حذر الأطباء من أن لمس الكلاب و مداعبتها و التعرض لفضلاتها أو لعابها يزيد خطر الإصابة بالعمى، فقد وجد الأطباء بيطريون مختصون أن تربية الكلاب و التعرض لفضلاتها من براز و بول و غيرها، ينقل ديدان طفيلية تعرف باسم "توكسوكارا كانيس" التي تسبب فقدان البصر و العمى لأي إنسان، و لاحظ الدكتور إيان رايت- أخصائي الطب البيطري في سومر سيت- بعد فحص ٦٠ كلبا، أن ربع الحيوانات تحمل بيوض تلك الدودة في فرائسها، حيث اكتشف وجود ١٨٠ بويضة في الغرام الواحد من شعرها، و هي كمية أعلى بكثير مما هو موجود في عينات التربة، كما حمل ربعها الآخر ٧١ بويضة تحتوي على أجنة نامية، و كانت ثلاثة منها ناضجة تكفي لأصابة البشر، و أوضح الخبراء في تقريرهم الذي نشرته صحيفة "ديلي ميورور" البريطانية، أن بويضات هذه الدودة لزجة جدا و يبلغ طولها ملليمتر واحد، و يمكن أن تنتقل

بسهولة عند ملامسة الكلاب أو مداعبتها، لتنمو و تترعرع في المنطقة الواقعة خلف العين، و للوقاية من ذلك ، ينصح الأطباء بغسل اليدين جيدا قبل تناول الطعام و بعد مداعبة الكلاب، خصوصا بعد أن قدرت الاحصاءات ظهور ١٠ آلاف اصابة بتلك الديدان في الولايات المتحدة سنويا، يقع معظمها بين الأطفال، و قد أوصى نبي الإسلام محمد- صلى الله عليه و سلم- منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة، بعدم ملامسة الكلاب و لعابها، لأن الكلب يلحس فروه أو جلده عدة مرات في اليوم ، الأمر الذي ينقل الجراثيم إلى الجلد و الفم و اللعاب فيصبح مؤذيا للصحة^(١٢١).

- و قال الدكتور عبد الحميد محمود طهماز : " ثبت علميا أن الكلب ناقل لبعض الأمراض الخطرة، إذ تعيش في أمعائه دودة تدعى المكورة تخرج بيوضها مع برازه ، و عندما يلحس دبره بلسانه تنتقل هذه البيوض إليه، ثم تنتقل منه إلى الآواني و الصحون و أيدي أصحابه، و منها تدخل إلى معدتهم فأمعانهم، فتنحل قشرة البيوض و تخرج منها الأجنة التي تتسرب إلى الدم و البلغم، و تنتقل بما إلى جميع أنحاء الجسم، وبخاصة إلى الكبد لأنه المصفاة الرئيسية في الجسم... ثم تنمو في العضو الذي تدخل إليه و تشكل كيسا مملوء بالأجنة الأبناء، و بسائل صاف كماء الينبوع، و قد يكبر الكيس حتى يصبح بحجم رأس الجنين، و يسمى المرض: داء الكيس المائية و تكون أعراضه على حسب العضو الذي تتبعض فيه، و أخطرها ما كان في الدماغ أو في عضلة القلب، و لم يكن له علاج ... سوى العملية الجراحية"^(١٢٢).

- و قد أكد الأطباء على خطورة هذه الدودة و سم اللعاب الذي تسبب فيه فقرروا أن: " المرض ينتقل في غالب الأحيان إلى الإنسان أو الحيوان عن طريق دخول اللعاب الحامل للفيروس ...إثر عضه أو تلوث جرح بلعابه"^(١٢٣).

- و قد بين مجموعة من الأطباء مكان استقرار هذه الدودة من أجهزة الإنسان بعد وصولها إلى الجسم من طريق لعاب الكلب فذكروا أن : " ... الرئة تصاب بالدودة الأكيينو كوكية Echinococcus، فتؤدي الدودة الأكيينو كوكية التي تستقر في الرئة ، و أحيانا في الكبد و بعض الأعضاء الداخلية الأخرى إلى نشوء كيس مملوء بالسائل و محاط من الخارج بكبسولة من طبقتين ، و قد يصل حجم الكيس أحيانا إلى حجم رأس الوليد، و يتطور المرض بشكل بطيء و تحتفظ الدودة الأكيينو كوكية بالنمو داخل الكيس لعدة سنوات، و يتم انتقال العدوى إلى الإنسان من الكلاب"^(١٢٤).

- وقال أمين قلعة جي : " و الأحاديث النبوية الواردة في تطهير الآنية إذا ولغ فيها الكلب، تعتبر من الصحة الوقائية في الإسلام، و التي ينادي بها الأطباء اليوم وقاية من أضرار الأمراض قبل أن تحدث، و هذا من الإعجاز النبوي في السنة المطهرة، و أصل علة النجاسة أن قم و أنف الكلب منبع الداء، و جسمه يتلوث كلما مسه بأنفه و فمه و لعابه، و يسبب مرض الكلب الفتاك، و إذا ولغ بالإناء ينقل دودة تسمى : " Taenia ecinocaccus " إلى الإنسان، فتصل إلى الكبد، و الرتتين، و الكليتين، و المخ، و الأعضاء التناسلية على شكل أكياس متحوصلة تضغط على الشرايين و الأوردة و الأعصاب و تؤدي إلى آلام و أمراض، و إن انفجرت هذه الأكياس فليس إلا مبيض الجراح، كما ينقل الكلب الجرب، حيث تتمركز طفيليا ته على قنطرة أنف الكلب، و عندما يحك جسمه بأنفه يتلوث كله، فإذا داعبه أحد انتقلت إليه العدوى"^(١٢٥).

الفرع الثالث : نتيجة المقابلة بين الفقه و الطب

إذا أمعنا النظر فيما نص عليه علماء الفقه- ممن قالوا بنجاسة سؤر الكلب- و علماء الطب، نجد أن غسل الإناء من ولوغ الكلب معلل معقول المعنى، وذلك بما ورد من استدلالات عن الفقهاء، و ما ثبت من تحليلات لهذا الماء بوجود جراثيم من قبل الأطباء، فبالاستئناس على الحقيقة العلمية الثابتة للأعيان نقول : أن قول من قال بالتعليل أرجح و أقوى دلالة ممن قال بعدم التعليل- التعبد- وعند البحث و الاستقراء في أقوال علماء المالكية الذين تصدروا القول بالتعبد، وجدت أن من علمائهم من ينجح إلى التعليل و معقولية المعنى و يرجحه، و سأعرض لقول منهم وفق الترتيب الآتي :

١/ نقل ابن رشد- الحفيد- عن جده مخالفته للمالكية في هذه المسألة، و القول بالتعليل، فقال : "و قد ذهب جدي- رحمه الله- في كتاب المقدمات إلى أن هذا الحديث معلل معقول المعنى، ليس من سبب النجاسة، بل من سبب ما يتوقع أن يكون الكلب الذي ولغ في الإناء كَلْبًا"^(١٢٦)، فيخاف من ذلك السم"^(١٢٧).

٢/ ثم أيد ابن رشد جده فقال : " و لعل في سؤره خاصية من هذا الوجه ضارة... و لا يستنكر ورود مثل هذا في الشرع، فيكون هذا من باب ما ورد في الذباب إذا وقع في الطعام أن يغمس، و تعليل ذلك بأن في أحد جناحيه داء و في الآخر دواء"^(١٢٨).

٣/ قال القرافي- رحمه الله- : "... و هل هذا الأمر تعبد لتقيده بالعدد، كفصل الميت، و دلالة الدليل على طهارة الحيوان كما تقدم ؟ أو هو معلل بدفع مفسده الكلب عن بني آدم؟ لأن الكلب في أول مباشرة الماء يعلق لعابه بالإناء وهو سم، و يؤكد ذلك أمره- عليه السلام- في بعض الطرق باستعمال التراب لزوال اللزوجة الحاملة للسم... أو هو معلل بنجاسة، لقوله- عليه السلام- " طهور إناء أحدكم... " ثم رجح فقال : " و الطهارة ظاهرة في النجاسة"^(١٢٩) أي لو لم يكن نجسا لما أمر بالطهارة.

و من هذه الأقوال هؤلاء العلماء الأفاضل تبين لك كيف تفتنوا إلى وجود السم في لعاب الكلب، و الذي لم يكتشفه علماء العصر الحديث إلا في عهد قريب، فجازى الله الجميع خيرا... لأنهم سعوا إلى تأكيد أن مثل هذه الحقائق لا تكون إلا بمن علم غيب السماء والأرض و ما بينهما، "فتبارك الله أحسن الخالقين" [المؤمنون : ١٤] .

المطلب السادس : هل تقاس أعضاء الكلب الأخرى على لسانه في الحكم؟ الفرع الأول : رأي الفقه

هذه المسألة تعرض لها المالكية و الشافعية و الظاهرية في كتبهم بشيء من الإيجاز. فالمالكية و الظاهرية يقصرون التجاسة على فم الكلب دون بقية الأعضاء، و أما الشافعية فلم يها قولان : أحدهما أن بقية الأعضاء تماثل اللسان في حكم التجاسة، و إليك تفصيلهم على النحو الآتي :

أولا، المالكية :

قال القرافي : "الحكم مختص بولوغه، فلو أدخل يده أو رجله فلا أثر لذلك خلافا للشافعي" (١٣٠).

ثانيا، الظاهرية :

قال ابن حزم : "... فإن أكل الكلب في الإناء و لم يبلغ فيه أو أدخل رجله أو ذنبه أو وقع بكله فيه، لم يلزم غسل الإناء و لا هرق ما فيه البتة، و هو حلال طاهر كله كما كان، و كذلك لو ولغ الكلب في بقعة في الأرض أو في يد إنسان أو في ما لا يسمى إناء، فلا يلزم غسل شيء من ذلك و لا هرق ما فيه، و الولوغ هو الشرب فقط" (١٣١).

ثالثا، الشافعية :

قال التتوي : "قال أصحابنا لا فرق بين ولوغ الكلب و غيره من أجزائه، فإذا أصاب بوله أو روثه أو دمه أو عرقه أو شعره أو لعابه أو عضو منه شيئا طاهرا مع رطوبة أحدهما و جب غسله سبعا إحداهن بالتراب... و قيل يكفي غسله في غير الولوغ مرة كسائر التجاسات... و هذا الوجه متجه و قوي من حيث الدليل، لأن الأمر بالغسل سبعا من الولوغ إنما كان لينفرهم عن مواكلة الكلب، و هذا مفقود في غير الولوغ. و المشهور في المذهب أنه يجب سبعا مع التراب و به قطع الجمهور، لأنه أبلغ في التنفير من مقاربتها و اقتنائها" (١٣٢).

الفرع الثاني : رأي الطب

أثبت الطبّ المعاصر أن سؤر الكلب به سمّ قاتل يحمله الكلب بلسانه، و يطرحه في كل ما يلامسه من شراب و طعام، ثمّ بينوا أن هذا الأمر غير مقتصر على حاسة لسانه فحسب، بل يتعداه لجميع أعضائه الأخرى، وذلك لأنّ الكلب يلحس جميع بدنه بلسانه، فأَيّ منها لامس الماء أو الطّعام، كان سببا في نقل جراثيمه إليه، و إليك تفصيلهم على النحو الآتي :

- اكتشف الأطباء أن صوف الكلب المنتشر على كامل جسمه يحمل هذه الدودة ، لذلك فإن بقية أعضائه الأخرى تماثل لسانه في نقل العدوى لوجود هذا الشعر، حيث جاء في الموسوعة الطبية قولهم : " يتم انتقال العدوى إلى الإنسان من الكلاب لأنه يوجد على صوفها بويضات الدودة الأكيينو كوكية " (١٣٣).

- و قد حذر الأطباء من التماس مجسم الكلب كاملا فقالوا: " تعتمد الوقاية من هذا المرض الواسع الانتشار (أي مرض الكلب) على تجنب التماس مع الكلاب... " (١٣٤).

- و قال كامل عبد الصمد : " و ينتقل هذا المرض إلى الإنسان بلمس الكلب وعاء الطّعام أو بشربه من إناء الماء، لأنّ أنف الكلف وفمه و ما حوله منابع الداء " (١٣٥).

- وقال محمد منير عبده : "وقد بين بعض أطباء العصر وجه غسل الإناء سبعا من ولوغ الكلب طبا هو : أنّ في أمعاء أكثر الكلاب دودة شريطية صغيرة جدا، طولها ٤ مليمترا، فإذا راث الكلب خرجت البويضات بكثرة في الرّوث، فيلصق كثير منها بالشعر الذي بالقرب من دبره، فإذا أراد الكلب أن ينظف نفسه بلسانه كما هي عادته، تلوث لسانه و فمه بها، و انتشرت في بقية شعره بواسطة لسانه أو غيره، فإذا ولغ الكلب في إناء أو شرب ماء، أو قبله إنسان كما يفعل الإفرنج أو بعض من قلّد الإفرنج في العادات القبيحة، علقت بعض هذه البويضات بتلك الأشياء، و سهل وصولها إلى فمه في أثناء أكله أو شربه، فتصل إلى معدته و تخرج منها الأجنة، فتثقب جدار المعدة وتصل إلى أوعية الدم فتحدث أمراضا كثيرة في المخ و القلب و الرئة إلى غير ذلك، و كلّ ذلك مشاهد لأطباء أوروبا في بلادهم، و لما كان تميز الكلب المصاب بهذه الدودة عسيرا جدا، لأنه يحتاج إلى زمن و بحث دقيق بالآلة التي لا يعرف استعمالها إلا القليل من الناس كان اعتبار الشّارع إيّاه نجسا، وغسله سبع مرات إنقاء للإناء، بحيث يعلق فيها شيء، و ثما ذكرناه هو عين الحكمة والصّواب " (١٣٦).

الفرع الثالث : نتيجة المقابلة بين الفقه و الطب

عند المزاوجة بين ما استنبطه الفقهاء، و ما قرّره الأطباء اليوم، نجد أن الرأي المشهور لفقهاءنا الشافعية -من عدم التفريق بين ولوغ الكلب و غيره من أجزائه-، وافق نتيجة أبحاث علماء العصر اليوم. و بالاستئناس على هذه الحقيقة العلمية، بدا ضعف من قال بالاعتصار على عضو اللسان في الحكم دون غيره من الأعضاء.. و عند تتبعي لتراثنا الفقهي البديع، و قفت على من انتصر لرأي : من مائل بقية أعضاء الكلب بلسانه في الحكم، قديما و حديثا من علمائنا الأجلاء -رحمة الله عليهم أجمعين- :

١/ قال ابن دقيق العيد : "إذا ظهر أنّ الأمر بالغسل للتجاسة فقد استدل بذلك على نجاسة عين الكلب و لم في ذلك طريقان :

أحدهما : أنّه إذا ثبت نجاسة فمه من نجاسة لعابه، فإنه جزء من فمه، و فمه أشرف ما فيه، فبقية بذنه أولى.

الثاني : إنه إذا كان لعابه نجسا، و هو عرق فمه، ففمه نجس، و العرق جزء متحلّب من البدن، فجميع عرقه نجس، فجميع بدنه نجس لما ذكرناه من أن العرق جزء من البدن.

فتبين بهذا أن الحديث إنما دلّ على التجاسة فيما يتعلق بالفم، و إنّ نجاسة بقية البدن بطريق الاستنباط... و أنّ الحكم منوط بالغالب... و هذا البحث إذا انتهى إلى ههنا يقوى قول من يرى أنّ الغسل لأجل قذارة الكلب" (١٣٧).

٢/ قال العراقي ملخصا قول الظاهرية و الشافعية في المسألة، و مرجّحا لما رآه راجحا نقلا و عقلا فقال : "استدلّ بعض الظاهرية بقوله : "إذا ولغ" أو "إذا شرب" على أنّ هذا الحكم لا يتعدى الولوغ و الشرب، لأنّ مفهوم الشرط حجة عند الأكثرين، و مفهومه أنّ الحكم في الإناء من غير أن يبلغ فيه أنه لا يغسل الإناء منه، و لا ينجس ما فيه، و كذلك لو وقع في الماء غير فمه من أعضائه كيده أو رجله لا ينجس، و كذا لو بال في الإناء أو تغوط فيه لا يجب غسله سبعا، و إنّما يغسل مرّة كسائر التجاسات لتقييد الأمر بالولوغ أو الشرب، و هو وجه لبعض أصحاب الشافعي في غير لعابه...

و المذهب الصحيح و جوب التسبيح... في سائر أجزاء الكلب، و أنّه إنّما نصّ على الولوغ لكونه الغالب فيما تصيبه الكلاب من الأواني، فإنّها إنّما تقصد الأكل و الشرب من الأواني، فخرج بذلك مخرج الغالب لا مخرج الشرط...

و جميع أعضاء الكلب يده أو ذنبه أو رجله أو أيّ عضو من أعضائه إذا وقع في الإناء غسل سبع مرّات بعد هراقة ما فيه" (١٣٨).

٣/ قال الشوكاني : "واستدلّ بهذا الحديث على نجاسة الكلب، لأنه إذا كان لعابه نجسا وهو عرق فمه، ففمه نجس، و يستلزم نجاسة سائر بدنه، و ذلك لأن لعابه جزء من فمه، و فمه أشرف ما فيه، فبقية بدنه أولى" (١٣٩).

٤/ قال محمد أحمد شاکر مُتَعَبِيًا ما ذهب إليه ابن حزم بالاستناد إلى ما أثبتته العلم الحديث فقال : "كلّ هذا تغال و مبالغة في التمسك بالطّاهر بدون نظر إلى معاني الشريعة، و ما تنفق مع المعقول، فما حرّم الله شيئا إلا وهو قدر مؤذ، و لا حَکَمَ بنجاسة شيء إلا و كان مما تتجنّبه الطّباع النقية، و إزالة التّجاسات واجب معقول المعنى، فمن العجيب إذن أن يفرّق ابن حزم بين أكل الكلب من الإناء و بين شربه، بل الأعجب أن يفرّق بين الشرب و بين وقوع الكلب كلّه في الإناء، والكلب قدر بكلّ حال، و قد ثبت من الطبّ الحديث أنّه يحمل كثيرا من الأمراض الخبيثة ينقلها للإنسان والتوقي منه ضروري، و هذا مصدّق لما نفهم من معاني الشريعة في هذا الباب، و التّظافة من الإيمان" (١٤٠).

الخاتمة :

زيادة على ما ذكرناه من نتائج جزئية في مقابلة رأي الفقه مع الطب لكل مطلب من المطالب السابقة، فإننا سنوجز في هذه الخاتمة بعد رحلتنا مع هذا البحث بعض النتائج العامة التي تعتبر بمثابة ثمرة الاستقراء والتبع لجزئيات هذه المسألة من خلال صريح المنقول والمقول، مما استنبطه الفقهاء واكتشفه الأطباء، عبر النقاط الآتية :

أولا : إن مسألة حديث ولوغ الكلب تعتبر من المسائل التي تستند كثيرا في جزئياتها على الاجتهاد الفقهي والطبي، وعليه فقد اختلفت فيه (هذا الحديث) الآراء وتشعبت من قبل علماء الشريعة، وكان حقلها خصبا لتجارب وتحاليل أطباء العصر، وقد نص كل من ابن رشد وابن حجر على هذه الحقيقة خاتمة دراستهما هذه المسألة التي تضمنتها هذا الحديث :

قال ابن رشد -رحمه الله- : "... فهذه هي الأشياء التي حركت الفقهاء إلى هذا الاختلاف الكثير في هذه المسألة، وقادهم إلى الافتراق فيها، والمسألة اجتهادية محضة، يعسر أن يوجد فيها ترجيح^(١٤١)... و ظاهر الحديث وقول أكثر الفقهاء... القول بنجاسة سؤر الكلب، فإن الأمر بإراقة ما ولغ فيه الكلب محتمل ومناسب في الشرع لنجاسة الماء الذي ولغ فيه، أعني : أن المفهوم بالعادة في الشرع من الأمر بإراقة الشيء و غسل الإناء منه هو لنجاسة بحكم دون حكم تغليظا^(١٤٢) لها^(١٤٣).

وقال ابن حجر -رحمه الله- : "... والكلام على هذا الحديث وما يتفرع عنه منتشر جدا، ويمكن أن يفرد بالتصنيف"^(١٤٤).

ثانيا : توصلنا من خلال المقارنة بين الفقه والطب إلى تثبيت الحقائق الآتية :

١/ إن الإناء الذي ولغ فيه الكلب يغسل سبع مرات استثناء لما صح في أحاديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وما أشار إليه الطب اليوم .

٢/ يجب غسل الإناء بالتراب لما اشترط شرعا و ثبت علما، وأن يكون في أول غسله، بعد ترجيح رواية " الأولى".

٣/ أثبت التجارب والتحاليل المخبرية أن غير التراب لا يقوم مقامه في إزالة نجاسة الكلب، وهذا ما قرره فقهاء الشريعة في صحيح أقوالهم.

- ٤/ تطابق الرأي بين الشرع و العلم في لزومية إراقة ما ولغ فيه الكلب سواء كان شرابا أو طعاما.
 ٥/ الأمر بغسل الإناث سبعا من ولوغ الكلب معقول المعنى فقها و طبا.
 ٦/ كل عضو من أعضاء الكلب يماثل لسانه في حكم النجاسة شرعا و علما.

ثالثا : إن دراسة بعض المسائل المشتركة بين الفقه و الطب تكون مثمرة إذا جمعت بين التنظير الأصولي الفقهي الاستنباطي، و التجارب و التحاليل الاستكشافية الدقيقة.

رابعا : يمكن الاستئناس بالحقائق العلمية الثابتة في الترجيح بين الكثير من آراء الفقهاء في المواضيع التي لها ازدواجية بين الشرع و العلم، و ذلك للارتباط الوثيق الكائن بين الاستنباط الشرعي و الاستكشاف العلمي في شتى العلوم و الفنون.

خامسا : تتبع آراء المذاهب الفقهية المتنوعة في المسائل الفرعية العملية، و مقارنتها بالآراء العلمية الدقيقة تجعلنا ندرك سعة الشريعة الإسلامية، و دقة تشريعاتها، و قيمة علمائها، و تميز تراثها، و صلاحيتها لكل عصر و مصر.

سادسا : الباحث الإسلامي يجب أن تكون غايته السامية هي : مرضاة الله - عز وجل - في دنياه، و العمل على الفوز بجنته في آخره، و ذلك لأن أول نداء فتح به الباري - سبحانه - باب السماء على الأرض قوله : "اقرأ باسم ربك الذي خلق" [العلق : ١] .

و آخر نداء أغلق به قوله : " و اتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله " [البقرة : ٢٨٠] .
 فإذا ترسخت هذه الغاية في وجدانه، تكون كل خطوة يخطوها في سبيل تحصيل المعرفة - سواء كانت شرعية أو علمية - ، وسيلة ناجحة لاستعادة الباحث المتقن، و العالم القدوة فيتحقق بذلك قسم الله - عز وجل - الذي مفاده أن : كل من طلب العلم ابتغاء رضاه رفعه على من سواه لقوله - سبحانه - " هل يستوي الذين يعلمون و الذين لا يعلمون " [الزمر : ٩] .
 فالله نسأل أن نكون ممن يطلبون العلم لقرباه، و لا يبتغون به سواه.

" و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين "

المصادر والمراجع

أولاً : المؤلفات الشرعية

- حرف - أ -
- ١- آل سليمان : أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان : حاشيته في التحقيق على كتاب الموافقات، دار ابن عثان، ط (١) : (١٤١٧هـ-١٩٩٧م).
- حرف - ب -
- ٢- البابري : محمد بن محمود البابري (ت: ٧٨٦هـ) : شرح العناية على الهداية (مطبوع مع فتح القدير)، دار الفكر بيروت - ط (١).
- ٣- البخاري : محمد بن اسماعيل بن المغيرة الجعفي (ت: ٢٥٦هـ) : صحيح البخاري (مطبوع مع فتح الباري)، دار المعرفة بيروت-.
- ٤- البغدادي : القاضي أبي محمد عبد الوهاب علي بن نصر المالكي (ت: ٤٢٢هـ) : المعونة على مذهب عالم المدينة، تحقيق محمد حسن اسماعيل الشافعي : دار الكتب العلمية بيروت- ط(١) : (١٤١٨هـ-١٩٩٨م).
- ٥- البغوي : أبو محمد محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي (ت: ٥١٦) : شرح السنة، تحقيق الشيخ : علي محمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت- ط(١) : (١٤١٢هـ-١٩٩٢م).
- ٦- البيهقي : أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت: ٤٥٨) : السنن الكبرى، دار الفكر. حرف - ت -
- ٧- الترمذي : أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (ت: ٢٧٩هـ) : سنن الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

حرف - ح -

- ٨- ابن حجر : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) : فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق و تعليق محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة - بيروت.
- ٩- ابن حزم : أبو أحمد علي بن أحمد بن سعيد (ت: ٤٥٦هـ) : المغلي، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الفكر.
- ١٠- الخطاب : محمد بن محمد المغربي المعروف بالخطاب (ت: ٩٥٤هـ) : مواهب الجليل شرح مختصر خليل، دار الفكر، ط (٣) : (١٤١٢هـ-١٩٩٢م).
- ١١- حنبل : أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١هـ) : مسند الإمام أحمد، دار الفكر.

حرف - د -

- ١٢- الدارقطني : علي بن عمر الدارقطني (ت: ٣٨٥هـ) : سنن الدارقطني، عالم الكتب - بيروت، ط (٤) : (١٤٠٦هـ-١٩٨٦م).
- ١٣- داود : أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت: ٢٧٠هـ) : سنن أبي داود، دار الفكر.
- ١٤- دخان : د/ عبد العزيز صغير دخان : إتخاف الأنام بشرح أحاديث الأحكام، مؤسسة الريان، ط (١) : (١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م).
- ١٥- ابن دقيق العيد : أبو الفتح الشهرير بابن دقيق العيد (ت: ٧٠٢) : أحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، دار الكتب العلمية - بيروت.

حرف - ر -

- ١٦- ابن رشد الجدل : أبو الوليد محمد بن رشد (الجلد) (ت: ٥٢٠هـ) : المقدمات الممهديات، مطبعة السعادة - مصر.
- ١٧- ابن رشد الحفيد : محمد بن أحمد بن رشد (الحفيد) : (ت: ٥٩٥هـ) : بداية الاجتهاد و نهاية المقتصد، دار الكتب الحديثة - القاهرة.

حرف - ز -

- ١٨- الزرقاني : محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني (ت: ١١٢٢هـ) : شرح الزرقاني على موطن مالك، دار الكتب العلمية - بيروت، ط (١)، (١٤١١هـ-١٩٩٠م).
- ١٩- الزيلعي : فخر الدين عثمان بن علي الزيلعي (ت: ٧٤٣هـ) : تبين الحقائق شرح كبر الدقائق، دار الكتاب الإسلامي - القاهرة - ط (٢).

حرف - س -

- ٢٠- سحنون : سحنون بن سعيد التنوخي : المدونة الكبرى، دار الفكر - بيروت - (١٤١١هـ - ١٩٩١م).
 ٢١- السرخسي : شمس الدين السرخسي (ت: ٤٩٠هـ) : المبسوط، دار المعرفة - بيروت - (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).
 ٢٢- سعدي : د/سعدي أبو حبيب : القاس الفقهي لفة و اصطلاحا، دار الفكر - دمشق - ط(٢) : (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

حرف - ش -

- ٢٣- الشاطبي : أبو اسحاق ابراهيم بن موسى الشاطبي (ت: ٧٩٠هـ) : الموافقات في أصول الأحكام، تحقيق : أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط(١) : (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).
 ٢٤- شاکر : أحمد بن محمد شاکر : حاشيته على المحلى لابن حزم، دار الفكر.
 ٢٥- الشوكاني : محمد بن علي الشوكاني : نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، تحقيق طه عبد الرؤوف الهواري، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة -.
 ٢٦- الشيرازي : الشيخ الإمام أبي اسحاق بن علي بن يوسف الفيروز آبادي الشيرازي : المهذب في فقه الإمام الشافعي، دار الفكر.

حرف - ص -

- ٢٧- الصّمد : محمد كامل عبد الصّمد : الإعجاز العلمي في الإسلام - السنة النبوية - الدار المصرية اللبنانية، ط(٥) : (١٤٢١هـ - ٢٠٠١م).

حرف - ع -

٢٨- عبد البرّ : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البرّ (ت: ٤٦٣هـ) : الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار فيما تضمّنه الموطن من المعاني و الآثار، تحقيق : عبد المعطي أمين قلعة جي، دار قتيبة - دمشق - ط(١) : (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م).

٢٩- عبد البرّ : التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد : (١٤٠١هـ - ١٩٨١م).

٣٠- عبده : محمد منير عبده : حاشيته على أحكام الأحكام لابن دقيق العيد، دار الكتب العلمية - بيروت -

٣١- العراقي : زين الدين أبي الفضل العراقي (ت: ٨٠٦هـ) : طرح التتريب في شرح التتريب، مكتبة ابن تيميه - القاهرة -

٣٢- ابن العربي : محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي (ت: ٥٤٣هـ) أحكام القرآن، دار المعرفة - بيروت -

٣٣- العثيمين : محمد بن صالح العثيمين : الشرح المتع على زاد المستقنع، مطبعة الرياض : (١٤٠٧هـ - ١٩٩٧م).

٣٤- عياض : أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (ت: ٥٤٤هـ) : شرح صحيح مسلم، تحقيق د/ يحيى اسماعيل، دار الوفاء، ط(١) : (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).

حرف - غ -

٣٥- الغامدي : د/علي بن سعيد الغامدي : اختيارات ابن قدامة الفقيهية، دار طيبة الرياض، ط(١) : (١٤١٨هـ).

حرف - ق -

٣٦- ابن قدامة : موفق الدين أحمد بن محمود بن قدامة (ت: ٦٢٠هـ) : المغني شرح مختصر الخرقي، مكتبة الجمهورية - مصر -

٣٧- القراني : شهاب أحمد بن ادريس القراني (ت: ٦٨٤هـ) : الذخيرة تحقيق : د/محمد حجي، دار المغرب الإسلامي - بيروت -، ط(١) : (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).

٣٨- قلعة جي : د/ محمد رواس قلعة جي : معجم لغة الفقهاء (عربي-إنجليزي)، دار النفائس - بيروت - ط(٢) : (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

حرف - ك -

٣٩- الكساني : علاء الدين بن مسعود الكاساني (ت: ٥٨٧هـ) : بدائع الصناعات في ترتيب الشرائع، دار الكتاب العربي بيروت- ط(٢) : (١٤٠٢هـ-١٩٨٢م).

٤٠- الكرمانى : محمد بن يوسف الكرمانى : شرح الكرمانى على صحيح البخارى، دار إحياء التراث العربى - بيروت- (١٤٠٠هـ-١٩٨٠م).

حرف - م -

٤١- ابن ماجه : أبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى (ت: ٢٧٥هـ) : سنن ابن ماجه ضبط وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي.

٤٢- مالك : أبو عبد الله مالك بن أنس (ت: ١٧٩) : الموطأ، رواية يحيى الليثى، دار النفائس، ط(١١) : (١٤١٠هـ-١٩٩٠م).

٤٣- الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد حبيب الماوردي (ت: ٤٥٠هـ) : الحاوي الكبير، دار الفكر - بيروت- (١٤١٤هـ-١٩٩٤م).

٤٤- المرداوي : علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي (ت: ٨٨٥هـ) : الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، تحقيق : محمد حامد الفقسي، دار إحياء التراث العربى - بيروت- ط(٢) : (١٤٠٦هـ-١٩٨٦م).

٤٥- المرغيناني : أبو الحسن علي ابن أبي بكر عبد الجليل المرغيناني (ت: ٥٩٣هـ) : الهداية شرح بداية المبتدى، دار الكتب العلمية - بيروت- ط(١) : (١٤١٠هـ-١٩٩٠م).

٤٦- مسلم : أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ) : صحيح مسلم، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربى - بيروت-.

حرف - ن -

٤٧- النووي : أبو زكريا محيي الدين بن شرف التتوي (ت: ٦٧٦هـ) : المجموع شرح المهذب، دار الفكر.

حرف - هـ -

٤٨- ابن الهمام : كمال الدين المعروف بابن الهمام : فتح القدير شرح الهداية، دار الفكر - بيروت - ط(٢).

ثانيا : المؤلفات الطبية العلمية

تبييه:

هذه المؤلفات في مجموعها عبارة عن مقالات و أبحاث عثرنا على بعضها من الموسوعات الطبية و العلمية، و بعضها من مواقع عديدة على الأنترنت، و بعضها في حواشي بعض الكتب التي اهتمت بالإشارة إلى الجانب العلمي لبعض المسائل العلمية.

حرف - أ -

٤٩- الإسمعلاوي المهاجر: كشف طبي يؤكد التحذير النبوي من لمس الكلاب (Ismaily.Online.htm).

حرف - ر -

٥٠- د/ رثيف بستاني، د/ محمد عبد الرؤوف السماك، د/ عدنان اليازجي: الموسوعة الطبية (أول موسوعة عربية صحية طبية مصورة بالألوان تأليف مجموعة من أشهر الاختصاصيين و أساتذة الطب)، توزيع الشركة الشرقية للطبوعات: (ش.م.م)، سنة (١٩٩٥م).

حرف - س -

٥١- د/ السيد سلامة السقا: اللعاب القاتل، مجلة منار الإسلام (مارس ١٩٨٦).

٥٢- ابن سينا: الصحة و الطب: Maghrebmed: articlevétérinaire.htm

حرف - ش -

٥٣- شبكة ياهووه الثقافية، سلسلة الإعجاز - إذا شرب الكلب في إناء أحدكم - (٢٠٠٣).

حرف - ص -

٥٤- الصحة العامة، سلسلة الإسلام للجميع، مكتبة الأسرة المسلمة

حرف - ع -

٥٥- د/ عبد الحليم عويس: صدق الرسول صلى الله عليه وسلم- في الدين والعلم معا، مجلة اللواء الإسلامي (١٣ ماي ٢٠٠٣).

٥٦- عبد الحميد محمود طهماز: الكلب والجراثيم و التراب، الأربعون العلمية - مجلة النهدي الثقافية- دار القلم (٢٠٠٣-٢٠٠٤). www.magazine.alnahdi.ws.

حرف - ق -

٥٧- القاموس الطبي (larousse médicale): تأليف مجموعة من الأطباء، مكتبة لاروس، سنة (١٩٩١م).

حرف - ك -

٥٨- د/ كمال المويل: الإعجاز الطبي في السنة النبوية، دار ابن كثير - دمشق-

حرف - م -

٥٩- د/ مازن عبد المجيد رئيس مؤسسة الأمصال و المطاعيم بوزارة الصحة الأردنية: اللقاحات المستخدمة للمعالجة الوقائية بداء الكلب (RABIES) و أسس المعالجة النوعية باللقاح و المصل، مجلة الدواء العربي- العدد الأول- (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

٦٠- الموسوعة العربية العالمية: مجموعة من العلماء الأطباء والأساتذة، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع - الرياض - ط (٢): (١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م).

حرف - ه -

٦١- د/ هشام ابراهيم الخطيب: المضار الصحية لاقتناء الكلاب، الوعي الإسلامي - مارس ١٩٨٦م-

ملخص البحث

إنّ نصوص التشريع الإسلامي من كتاب و سنة تمتاز بالمرونة و الشمولية و الوضوح لما جعلها كفيفة إن تساير الزّمان و المكان في نواحي الحياة كافة : سياسيا و اجتماعيا و اقتصاديا وثقافيا و علميا... و قد حاولنا من خلال هذا البحث المتواضع أن نبرز أحد هذه النواحي التي تضمنها هذا الوحي الكريم و المتمثلة في تجلية وجه الإعجاز العلمي لإحدى المسائل التي يمكن للعلم أن يكون له فيها رأي، فيستأنس به في تجلية بعض الأحكام الشرعية التي خاض فيها فقهاؤنا الأعلام منذ مئات السنين فكان الاختيار على حديث "ولوغ الكلب" من سنة المصطفى -صلى الله عليه و سلم- التي تعتبر المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي.

فقمنا بعرض رأي الفقه و الطب في المسائل الجزئية التي تفرّعت عن هذا الحديث من : عدد غسلات الإناء.. و مدى اشتراط التراب في عملية التطهير مع بيان فاعلية غيره فيها.. و هل يلزم إراقة ما ولغ فيه الكلب سواء كان مانعا أو جامدا.. و بيان أن هذا العمل (الغسل) الذي يقوم به المكلف معقول معناه أم لا؟.. و استخلاص مدى جريان حكم الولوع في بقية أعضاء الكلب بعد ما ثبت الحكم بالتصريح في لسانه.. و بعد استظهار الرأيين جنحنا للمقابلة و المزوجة بينهما لتقوية بعض آراء الفقهاء على بعضها دون تجريح أو تقريع لأي أحد منهم على حدّ سواء.. ثم استخلاص وجه الإعجاز بين ما استنبطه هؤلاء الأفذاذ مع ما اكتشفه علماء الطبّ في العصر الحديث.

و عند مصابحتنا لآراء العلماء قديما و حديثا حول هذا الحديث، ازددنا يقينا على يقين أن مثل هذه النصوص لن تكون صادرة إلا من عليم حكيم.. عليم بأسرار خلقه.. حكيم في دقة بنائه لكون.. بدءا من أصغر جزء، و هي الذرة.. إلى أكبر جرم، و هي المجرة.. و ذلك لأنها توافقت مع ما حققته التجارب و التحاليل التي اعتمدت على أدق الأجهزة و الوسائل بعد استفراغ جهود مضيئة، عبر أزمان متتالية.

و أكدنا من خلال نتائج هذا البحث أننا مطالبون ببذل مزيد من الجهد حتى ندرك وجوه الإعجاز التي ما بدا لنا منها إلا التزر اليسير لآيات القرآن و أحاديث السنة.. و نبرز أيضا سرّ حث رسول الله - صلى الله عليه و سلم- بوجوب الاستمساك بنصوص هذين الوحيين.. حتى لا نضل في ميدان الشرع و كذا ميدان العلم.. في كل عصر و مصر.

الهوامش

- ¹ متفق عليه أخرجه :
- البخاري في صحيحه مع الفتح (٢٧٤/١) كتاب : الوضوء، باب : الماء الذي يغسل به شعر الإنسان.
- مسلم في صحيحه (٢٣٤/١) كتاب : الطهارة، باب : حكم ولوغ الكلب.
- ² أخرجه :
- مسلم في صحيحه (٢٣٤/١) كتاب : الطهارة، باب : حكم ولوغ الكلب.
- ³ أخرجه :
- مسلم في صحيحه (٢٣٤/١) كتاب : الطهارة، باب : حكم ولوغ الكلب.
- ⁴ أخرجه :
- مسلم في صحيحه (٢٣٥/١) كتاب : الطهارة، باب : حكم ولوغ الكلب.
- ⁵ ولغ الكلب : وغيره من المتباع في الإناء، ومنه، و به -ولغًا، و ولغًا، و ولغًا : شرب ما فيه بأطراف لسانه، أو أدخل فيه لسانه، فحركه، فهو والغ، و هي والغة.
- يقال : فلان يأكل لحوم الناس، و يُلغ في دمانهم : يفتابهم.
- أنظر : سعدي أبو جيب : القاموس الفقهي (٣٨٧)، قلعة جي : معجم لغة الفقهاء (٥١٠).
- وقال العراقي : "لو قد استعمل اللوغ في الأمي مجازًا، فقالوا فيمن قتل رجلا و شرب دمه : ولغ في دمه، تشبيها له بالمتباع"، طرح التشريب (١٢٨/٢).
- ⁶ المبسوط (٤٨/١).
- ⁷ الهداية (١٠٩/١)، و انظر : الكاساني : بدائع الصنائع (٨٧/١).
- ⁸ أخرجه :
- البيهقي في سننه (٢٤٢/١) كتاب : الطهارة، باب : نجاسة ما منه الكلب بسائر بدنه إذا كان أحدهما رطبا، و قال عنه : "رواية عبد الملك عن عطاء عن أبي هريرة في الثلاث خطأ، و عبد الملك لا يقبل منه ما يخالف فيه الثقات".
- الدارقطني في سننه (٦٦/١) كتاب : الطهارة، باب : ولوغ الكلب في الإناء. و قال عنه : "هذا موقوف".
- الطحاوي في شرح معاني الآثار (٣٣/١). كتاب : الطهارة، باب : سؤر الكلب.
- ⁹ أخرجه :
- البيهقي في سننه (٢٤٠/١) كتاب : الطهارة، باب : غسل الإناء من ولوغ الكلب سبع مرات، و قال عنه : "هذا ضعيف بمرّة".
- الدارقطني في سننه كتاب : الطهارة، باب : ولوغ الكلب في الإناء، و قال عنه النووي : "حديث ضعيف باتفاق الحفاظ".
- المجموع (٥٨١/٢).
- ¹⁰ الطحاوي : شرح معاني الآثار (٢٣/١).
- ¹¹ ابن الهمام : فتح القدير (١٠٩/١).
- ¹² ابن الهمام : المصدر نفسه (١٠٩/١-١١٠).
- ¹³ الكاساني : بدائع الصنائع (٨٧/١).
- ¹⁴ ليابرتي : العناية على الهداية (١٠٩/١).

- 15 الاستنكار (٢٠٨/٢).
- 16 مختصر المزني (٨)، الموردي : الحاوي (٣٧٣/١).
- 17 المغني (٥٢١/٥٣)، وقال المرداوي : "تغسل نجاسة الكلب سبعا على الصحيح من المذهب" الإتحاف (٣١٠/١).
- 18 المحلى (١٠٩/١).
- 19 الحاوي (٣٧٤/١).
- 20 نيل الأوطار (٥٤/١).
- 21 ابن عبد البر : الاستنكار (٢١٠/٢).
- 22 ابن عبد البر : المصدر نفسه.
- 23 ابن عبد البر : المصدر نفسه.
- 24 الموردي : الحاوي (٣٧٥-٣٧٤/١).
- 25 الموردي : الحاوي (٣٧٥/١).
- 26 ابن حزم : المحلى (١١٥/١).
- 27 ابن حجر : فتح الباري (٢٧٧/١).
- 28 أبو الفضل العراقي : طرح التثريب (١٢٤/١).
- 29 النووي : المجموع (٥٨٢/٢).
- 30 التمهيد (٢٦٩/١٨)، و قال في الاستنكار عنهم : "فردوا الأحاديث في ذلك و ما صنعوا شيئا" (٢٠٩/٢).
- 31 فتح الباري (٢٧٧/١)، و انظر : الشوكاني : نيل الأوطار (٥٤/١).
- 32 الصحة العامة، سلسلة الإسلام للجميع، مكتبة الأسرة المسلمة، ص (١٠).
- ٢ الإعجاز العلمي في الإسلام - السنة النبوية- (٥٠).
- 34 حاشيته على أحكام الأحكام لابن دقيق العيد (٢٧/١).
- 35 الحاوي (٣٧٥/١).
- 36 انظر : مجلة منار الإسلام مارس ١٩٨٦. نقلا من كتاب الإعجاز العلمي في الإسلام - السنة النبوية- ص ٥١.
- 37 لو كيتنهن : الأوكية جمع الوكاء، وهو الذي يشد به رأس القربة، الكرمانى : شرحه على صحيح البخاري (٣٦/٣).
- 38 أخرجه :
- البخاري في صحيحه مع الفتح (٣٠٢/١) : كتاب الوضوء، باب : الغسل و الوضوء في المخضب و القدح.
- قال الكرمانى : "و يحتمل أن يكون إما خصن به عدد السبع من ناحية التبرك، و في عدد السبع بركة، و له شأن لوقوعها في كثير من معازم الخليقة و بعض أمور الشريعة" شرح الكرمانى على صحيح البخاري (٤٦/٣)، و انظر : ابن حجر : فتح الباري (٣٠٢/١).
- 39 عجوة : يقصد بها تمر القرى العالية التي تقع في الجهة العالية من المدينة. انظر : ابن حجر : فتح الباري (٢٣٩/١٠).
- 40 أخرجه :
- البخاري في صحيحه (٥٦٩/٩) كتاب : الأطعمة، باب : العجوة.
- مسلم في صحيحه (١٦١٨/٣) كتاب : الأشربة، باب : فضل تمر المدينة.
- 41 المقدمات الممهذات (٦١).
- 42 الدخيرة (١٨٢/١).
- 43 شرح السنة (٣٧٩/١).
- 44 ابن الهمام : فتح القدير (١٠٩/١). قال العراقي عنهم : "وقد ضعف بعض مصنفى الحنفية الرواية التي ذكر فيها التراب بهذا الإضطراب من كونها : "أولاهن" أو "أخرهن" أو "إجدهن" أو "السابعة" أو "الثامنة" فقال : إن هذا الاضطراب يقتضى طرح ذكر التراب رأسا... و أن هذه الزيادة مضطربة"، طرح التثريب (١٢٩/١) و عند الترجيح ستعرف كيف رد العراقي على الحنفية. انظر ص (١٣) من هذا البحث.

- 45 انظر: موطأ مالك (٣٤/١) كتاب: الطهارة، باب: جامع الوضوء، سخنون: المدونة (٦٠٥/١). =
= قال الزرقاني: "لم يقل مالك بالترتيب أصلاً مع قوله باستحباب التمسيع في ولوغه في الماء فقط على المشهور... لأنه لم يقع في رواية مالك"، شرحه على الموطأ (١١٠/١).
- 46 نيل الأوطار (٥٨/١).
- 47 النووي: المجموع (٥٨٢/٢، ٥٨٢).
- 48 مختصر المزني (٨).
- 49 الحاوي (٣٧٦/١).
- 50 المغني (٥٢/١، ٥٣، ٥٤، ٥٥)، وقال المرادوي: "لا خلاف أنه لو جعل التراب في أي غسلة شاء أنه يجزي"، الإنصاف (٣١١/١)، و استدلل ابن قدامة لذلك فقال: "و متى غسل به أجزاءه، لأنه روي في حديث "إحداهن بالتراب" و في حديث "اولاهن" و في حديث "في الثامنة"، فيدل على أن محل التراب من الغسلات غير مقصود"، المغني (٥٥/١).
- 51 المطي (١٠٩/١).
- 52 د/ عبد العزيز صغير دخان: بإحاف الأنام بشرح أحاديث الأحكام (١٠٢).
- 53 إحكام الأحكام (٣١/١).
- 54 فتح الباري (٢٧٦-٢٧٥/١)، و انظر: الشوكاني: نيل الأوطار (٥٨/١)، ابن عبد البر: التمهيد (٢٦٥/١٨).
- 55 طرح التتريب (١٢٩/٢، ١٣٠).
- 56 الشرح الممتع على زاد المستنقع (٣٥٤/١).
- 57 فتح الباري (٢٧٧/١، ٢٧٨)، و انظر: ابن دقيق العيد: إحكام الأحكام (٢٩/١).
- 58 نيل الأوطار (٥٩/١).
- 59 شرحه على صحيح مسلم (١٨٨/٢)، و انظر: القاضي عياض: شرحه على صحيح مسلم (١٠١/٢).
- 60 موقع الصحة العامة، سلسلة الإسلام للجميع، مكتبة الأسرة المسلمة ص(١٠).
- 61 د/ عبد العظيم عويس: صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم- في الدين و العلم معا، مجلة اللواء الإسلامي (١٣ ماي ٢٠٠٣).
- 62 عبد الحميد محمود طهماز: الكلب و الجراثيم و التراب، الأربعون العلمية - مجلة النهدي الثقافية- دار القلم (٢٠٠٣).
٢٠٠٤. www.magazine.almahdi.ws.
- و انظر: د/ هشام إبراهيم الخطيب: المضار الصحية لاقتناء الكلاب، الوعي الإسلامي - مارس ١٩٨٦م.
- 63 أي لم يشترطوا أن تكون في غسلة معينة، و عليه يمكن البحث ثانية -علمياً- في قابلية تأثير الغسلة في إزالة النجاسة، هل تكون في الأولى أم في الثانية... أم في السابعة من خلال التجارب و التحاليل العلمية.
- 64 الإعجاز العلمي في الإسلام - السنة النبوية- (٥١).
- 65 المرجع نفسه (١٢).
- 66 الشوكاني: نيل الأوطار (٥٨/١).
- 67 إحكام الأحكام (٢٩/١).
- 68 طرح التتريب (١٣٢/٢، ١٣٤).
- 69 المجموع (٥٨٢/٢)، و انظر: الشيرازي: المهذب (٥٨٣/١).
- قد بين العراقي سبب اختلاف الشافعية في هذه المسألة فقال: "اختلف أصحاب الشافعي في الأمر بالتتريب في نجاسة الكلب هل هو تعبد أو معقول المعنى؟
- فمن قال إنه تعبد جعله متعبدًا و أنه لا يقوم غيره مقامه و إن كان أبلغ في الإزالة كالصابون و الأثان و نحوهما.
- و من جملة معقول المعنى اختلفوا في العلة:
- * فقال بعضهم: العلة فيه الجمع بين نوعي الطهور وتطليظا للنجاسة.
- * و جعلها بعضهم: الاستظهار مع الماء بغيره.
- فمن علل بالجمع بين نوعي الطهور لم يكف بغير التراب، و من جعله للاستظهار لكتفى بأمر آخر مع الماء و لم يكف بالغسلة الثامنة إذ لا زيادة على الماء". طرح التتريب (١٣٢/٢).

- 70 المغني (٥٣/١)، المرداوي : الإتيان (٣١٢/١).
- 71 المحلى (١١١/١).
- 72 انظر هذه الأدلة في المغني (٥٣/١، ٥٤)، المهذب للشيرازي (٥٨٣/٢)، طرح التثريب للعراقي (١٣٢٢/٢-١٣٢٤).
- 73 الأثنان : "لفظ معرب... و هو نبات من فصيلة السرمقيات، تستخرج منه الصود المستعملة في صناعة الزجاج، و كان يستعمل قديما في غسل الثياب كإداة من أدوات التنظيف"، قلعة جي : معجم لغة الفقهاء (٧٠)، سعدي أبو جيب : القاموس الفقهي (٢٠).
- 74 طرح التثريب (١٣٣/٢).
- 75 لحكام الأحكام (٣١/١).
- 76 مقال تحت عنوان: كشف طبي يؤكد التحذير النبوي من لمس الكلابين، (ismaily.online.htm).
- 77 شبكة ياهووه الثقافية، سلسلة الإعجاز - إذا شرب الكلب في إناء أحكمم - (٢٠٠٣).
- 78 و انظر: ابن سينا: الصحة و الطب: Maghrebmed: articlevétérinaire.htm.
- 79 د/مازن عبد المجيد رئيس مؤسسة الأمصال و المطاعميم بوزارة الصحة الأردنية: اللقاحات المستخدمة للمعالجة الوقائية بداء الكلب (RABIES) و أسس المعالجة النوعية باللقاح و المصل، مجلة الدواء العربي- العدد الأول- (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
- 80 اختيارات ابن قدامة الفقهية (٨٧/١)
- 81 الإعجاز العلمي في الإسلام - السنة النبوية- (٥١).
- 82 حاشيته على المحلى (١١١/١).
- 83 الشرح الممتع على زاد المستنقع (٣٥٦/١).
- 84 اختيارات ابن قدامة الفقهية (٨٦/١، ٨٧).
- 85 تبيين الحقائق (٣١/١، ٣٢).
- 86 العناية على الهداية (١٠٩/١).
- 87 الاستنكار (٢٠٨/٢).
- 88 التمهيد (٢٧٠/١٨).
- 89 الحاوي (٣٧٢/١)، فهم متفقون على نجاسة ما وُلغ فيه الكلب، و لكنهم اختلفوا في مدى الانتفاع بهذا الماء على وجه مخصوص
- 90 المجموع (٥٨٧/٢).
- 91 المغني (٤٧/١).
- 92 المحل (١٠٩/١).
- 93 المصدر نفسه (١١١/١).
- 94 نيل الأوطار (٥٤/١).
- 95 ابن حجر : فتح الباري (٢٧٥/١).
- 96 شرحه على صحيح مسلح (١٨٧/٢).
- 97 عبد الوهاب : المعونة (١٨٠/١)، الخطاب : مواهب الجليل (٧٤/١).
- 98 المحل (١١١/١).
- 99 نقلها عنه ابن حجر في فتح الباري (٢٧٥/١).
- 100 طرح التثريب (١٢١/١).
- 101 المحل (١١١/١).
- 102 المصدر نفسه.
- 103 المصدر نفسه (١١٠/١).

- 104 مقال للصحة العامة، سلسلة الإسلام للجميع، مكتبة الأسرة المسلمة، ص(١٠).
- و انظر: د/ مازن عبد المجيد رئيس مؤسسة الأمصال و المطاعيم بوزارة الصحة الأردنية: اللقاحات المستخدمة للمعالجة الوقائية بداء الكلب (RABIES) و أسس المعالجة للنوعية باللقاح و المصل، مجلة الداء و الدواء العربي - العدد الأول- (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).¹⁰⁵ أخرجه :
- أحمد في مسنده (٥٤/٥).
- أبو داود في سننه (٢٦٧/٣)، كتاب: الصيد، باب: في اتخاذ الكلب للصيد و غيره.
- الترمذي في سننه (٨٠/٤)، كتاب: الأحكام و الفوائد، باب: ما جاء من أمسك كلبا ما ينقص من أجره.
- ابن ماجة في سننه (١٠٦٧/٢)، كتاب: الصيد، باب: النهي عن اقتناء الكلب.
- 106 الإعجاز العلمي في الإسلام - السنة النبوية- (٥١/٥٠).
- 107 الخيزرة (١٨١/١، ١٨٢).
- 108 المجموع (٥٨١/٢).
- 109 فتح الباري (٢٧٦/١).
- 110 حاشيته على المحلى (١١١/١).
- 111 السرخسي: المبسوط (٤٨/١)، ابن الهمام: فتح التفسير (١٠٩/١).
- 112 الشيرازي: المهذب (٥٦٧/٢)، النووي: المجموع (٥٦٧/٢، ٥٦٨).
- 113 المر داوي: الإنصاف (٣١٠/١).
- 114 سحنون: المدونة (٦٠٥/١)، الحطاب: مواهب الجليل (٧٤/١)، عبد الوهاب: المعونة (١٨٠/١).
- من خلال تتبعي للمحلى لم أعثر على أن ابن حزم صرح بنجاسة الكلب، لكن وجدت النووي- رحمه الله- ينسب القول بطهارة الكلب و سوره إلى =
- = داود الظاهري فقال: "و قال مالك و داود هو طاهر و إنما يجب غسل الإثاء من ولوغه تعبدا " المجموع (٥٦٧/٢).
- 115 التمهيد (٢٧٣/١٨).
- 116 الاستنكار (٢٠٨/٢).
- 117 إحكام الأحكام (٢٦/١).
- 118 المصدر نفسه.
- 119 التمهيد (٢٧٤/١٨).
- 120 طرح التثريب (١٢٥/٢).
- 121 مقال بعنوان: كشف طبي يؤكد التحذير النبوي من لمس الكلاب (Ismaily.Online.htm)
- و انظر: القاموس الطبي لمجموعة من العلماء الأطباء ص(٣٥٤).
- 122 مقال: الكلب و الجرثيم و التراب، الأربعون العلمية- دار القلم.
- و انظر: القاموس الطبي لمجموعة من الأطباء (٨٥٨).
- 123 ابن سنيا: الصحة و الطب (Maghrebmd.article vétérinaire.htm)
- و انظر: الموسوعة العربية العالمية (١٢/٢٠، ١٣).
- 124 مجموعة من الأطباء و الطماء: الموسوعة الطبية (١٩٦٢، ١٩٦١/١١).
- و انظر: السيد سلامة السقا: ألعاب القاتل، مجلة منار الإسلام (مارس ١٩٨٦).
- 125 حاشيته على الاستنكار (٢٠٦/٢).
- 126 أي مصاب بمرض الكلب.
- 127 المقدمات الممهديات (٦١)، بداية المجتهد (٣١/١).

- 128 بداية المجتهد (٣١/١، ٣٢).
- 129 الذخيرة (١٨١/١، ١٨٢) وقال العراقي: "قوله "طهور إبناء لحنكم"، يدل على نجاسة سؤر الكلب و نجاسة في نفسه لأن الطهارة إنما تكون عن حدث أو نجس، و لا حدث على الإثاء، فتعين أن يكون ذلك للنجاسة، و هو قول أكثر العلماء"، طرح التتريب (١٦٧/٢).
- و قد نقل الإمام الشاطبي تعليق مالك في عدم نجاسة لعاب الكلب فقال: " يقول (أي مالك): يوكل صيده، فكيف يكره لعابه، و كان يضعفه (أي هذه الحديث) و قال في موضع آخر: " قال (أي مالك): لأن هذا الحديث عارض أصلين عظيمين:
- أحدهما: قول الله تعالى: " فكلوا مما أمسكن عليكم " [المائدة: ٤]
- الثاني: أن علة الطهارة هي الحياة، وهي قائمة في الكلب.
- الموافقات (201، 196/3)، و قال ابن العربي: " كل حيوان عند مالك طاهر لأن علة الطهارة عنده الحياة"، أحكام القرآن (٥٤/١).
- و قد اعترض الشيخ أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سليمان على هذا فقال: " فكان يضعف الحديث لمعارضته للقطعي، و هو طهارة فمه، و مع ذلك: فما بال العدد، و ما بال التراب، مع أنهما لا يراعيان في غسل النجس؟ هذا، و قد ظهر الوجه، و هو اكتشاف المادة السمية في لعاب الكلب بسبب لعقه لديره بلسانه كثيرا، و في برازه الجرثومة المرضية (الميكروب) الذي متى انتقل من حيوان إلى آخر أضرب به".
- أنظر: حاشيته في التحقيق على كتاب الموافقات (١٩٦/٣).
- 130 الذخيرة (١٨٢/١).
- 131 المحلى (١٠٩/١).
- 132 المجموع (٥٨٦/٢).
- 133 مجموعة من الأطباء: الموسوعة الطبية (١٩٦٢/١١).
- 134 مجموعة من الأطباء: الموسوعة الطبية (٦٦٠/٠٤).
- و انظر: الموسوعة العربية العالمية (٨/٢٠).
- 135 الإعجاز العلمي في الإسلام - السنة النبوية - (٥٠).
- 136 أنظر: حاشيته على إحكام الأحكام لابن دقيق العيد (٢٧/١).
- 137 إحكام الأحكام (٢٧/١، ٢٨).
- 138 طرح التتريب (١٢٣/٢).
- 139 نيل الأوطار (٥٥/١).
- 140 حاشيته على المحلى (١٠٩/١، ١١٠).
- 141 لكن هذا الإحصار زال بوضوح سرّ التحذير من ولوغ الكلب باعتماد الحقيقة العلمية الثابتة.
- 142 فعلا إن الله غظظها لتطهيرها لأنها نجاسة تغاير باقي النجاسات، للسّم القاتل - في كثير من الأحيان- الذي يحمله لعاب الكلب.
- 143 بداية المجتهد (٣١/١).
- 144 فتح الباري (٢٧٨/١).

دلائل الإعجاز العلمي في إشارات التصميم البيئي في القرآن الكريم

د. يحيى وزيري

ملخص البحث

يهتم علم التصميم البيئي بدراسة العناصر البيئية و المناخية التي تؤثر على تصميم المباني والفراغات الخارجية من أجل هئية وتوفير المناخ المناسب لراحة الإنسان سواء داخل المباني أو في الفراغات الخارجية في المحيط العمراني.

وبدراسة العديد من الآيات القرآنية يتبين لنا مدى الإعجاز القرآني في الإشارات الخاصة بعلم التصميم البيئي سواء على مستوى مبادئه أو عناصره الأساسية، لذلك فإن هذا البحث يهدف الى إبراز جوانب من الإعجاز القرآني في مجال التصميم البيئي من خلال عرض لبعض النماذج التي وردت في بعض الآيات القرآنية الكريمة، وقد تم اختيار النماذج الثلاثة التالية لتكون محورا لهذا البحث:

١- قوله سبحانه وتعالى: " لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً" (١٣-الانسان): حيث يتم إبراز أن مصطلح ومنطقة "الراحة الحرارية" والتي تعتبر أحد أهم مقاييس الحكم على مدى نجاح التصميم البيئي للمباني قد ورد ذكرها في الآية الكريمة المذكورة.

٢- قوله سبحانه وتعالى: والله جعل لكم مما خلق ظلالاً و جعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سراويل تقيكم الحر وسراويل تقيكم بأسكم، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون" (آية ٨١- النحل): حيث تم إبراز أهمية الظلال كأحد أهم عناصر التصميم البيئي واختلاف تأثير الظلال حسب العنصر المستخدم في التظليل، مع بيان الإعجاز الوارد في الآية نتيجة الربط بين ذكر الظلال والملابس التي تقي من الحر.

٣- قوله سبحانه وتعالى: "وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه، ذلك من آيات الله، من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا" (آية ١٧-الكهف): حيث تم عمل دراسة ميدانية وشمسية على كهف موجود جنوب شرق العاصمة الأردنية عمان ترجح العديد من الدلائل أنه هو الكهف المذكور في الآية الكريمة، مع إبراز جوانب التصميم البيئي والشمسي في هذا الكهف والتي تبرز أحد جوانب الإعجاز القرآني في إثبات وجود هذا الكهف من جهة، ومدى توافق مبادئ التصميم البيئي في هذا الكهف مع مبادئ علم التصميم البيئي المتعارف عليها حديثا .

مقدمة:

تحدثت العديد من الآيات القرآنية عن العلاقة بين الإسلام وعمارة الأرض^(١)، ولو تأملنا أسماء سور القرآن الكريم لوجدنا أن الله سبحانه وتعالى قد اختار أسماء لبعض من هذه السور لها ارتباط بالعمارة، ومن أمثلة ذلك سور "البلد" و "الكهف" و "الحجرات"، كما جاء ذكر العمارة بلفظها أو اشتقاقها في سور عديدة منها "هود" و "الطور" و "الروم"، كما لم تغفل بعض الآيات القرآنية عن ذكر أسماء بعض القرى والمدن مثل "بكة" بالجزيرة العربية و "سبأ" باليمن و "مدين" بفلسطين و "ارم" بالأحقاف و "بابل" بالعراق، وذلك من خلال قصص الأمم البائدة وما كانت تحويه من حضارات تميزت بالتقدم العمراني الكبير.

و يعتبر علم التصميم البيئي (العمارة البيئية) أحد أهم فروع علم العمارة وتخطيط المدن والذي يهتم بدراسة العناصر البيئية و المناخية التي تؤثر على تصميم المباني والفراغات الخارجية من أجل تهيئة وتوفير المناخ المناسب لراحة الإنسان سواء داخل المباني أو في الفراغات الخارجية في المحيط العمراني.

وبدراسة العديد من الآيات القرآنية يتبين لنا مدى الإعجاز القرآني في الإشارات الخاصة بعلم التصميم البيئي سواء على مستوى مبادئه أو عناصره الأساسية، لذلك فإن هذا البحث يهدف الى إبراز جوانب من الإعجاز القرآني في مجال التصميم البيئي من خلال عرض لبعض النماذج التي وردت في بعض الآيات القرآنية الكريمة، وقد تم اختيار النماذج الثلاثة التالية لتكون محورا لهذا البحث:

١- الآية (١٣) من سورة الإنسان.

٢- الآية (٨١) من سورة النحل.

٣- الآية (١٧) من سورة الكهف.

١- الإشارة الى مصطلح ومنطقة "الراحة الحرارية" لفئة تبرز أحد جوانب الإعجاز القرآني في مجال التصميم البيئي:

يقول الله سبحانه وتعالى: " متكئين فيها على الأرائك ، لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا" (آية١٣-الإنسان).

١-١ بعض معاني الكلمات:

* زمهريرا: الزمهرير هو شدة البرد^(١).

٢-١ آراء بعض المفسرين في شرح الآية الكريمة:

يقول ابن كثير (رحمه الله) في شرح معنى قوله: "لا يرون فيها شمسا ولا زمهيرا"، أي ليس عندهم حر مزعج ولا برد مؤلم بل هو مزاج واحد دائم سرمدي لا ييغون عنها حولا^(٢).

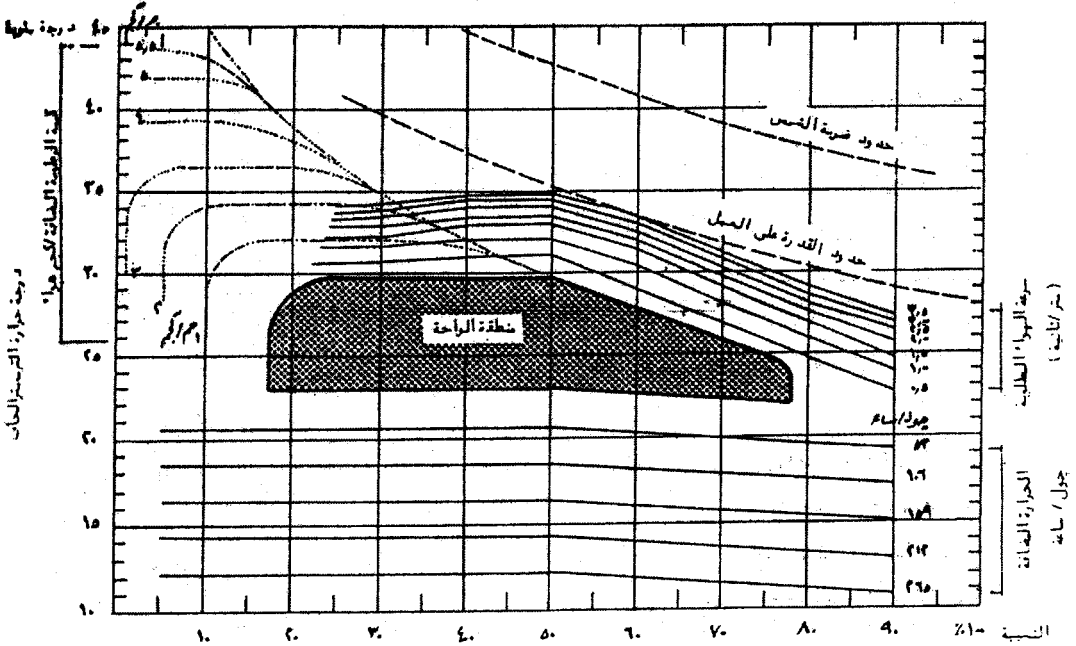
كما جاء في التفسير الميسر أن المقصود^(٣): "لا يرون فيها حر شمس ولا شدة برد".

٣-١ الجانب العلمي الوارد في الآية الكريمة:

في مجال علم العمارة والتصميم البيئي يتم تعريف مصطلح "الراحة الحرارية" على أنها حالة العقل التي يشعر فيها الإنسان بارتياح ورضا فيما يتعلق بالبيئة الحرارية الموجود فيها^(٤)، فأى إنسان عاды لا يشعر بالراحة الحرارية إذا زادت أو قلت درجة الحرارة عن حدود معينة، أي أنه لا يشعر بالراحة في درجات الحرارة العالية مثلما لا يشعر بالراحة أيضا في حالات البرودة الشديدة.

لإذا كانت درجة حرارة الهواء أعلى من درجة حرارة البشرة فإن الحرارة المتولدة من الجسم تجد صعوبة في الخروج وينتج عن ذلك ارتفاع في درجة حرارة البشرة ونشاط الغدد التي تفرز العرق، ويمكن أن يصل معدل إفراز العرق إلى ٤ لتر/ساعة مما يسبب إرهاقا لا يمكن احتماله إلا لفترة قصيرة، أما في حالة انخفاض درجة حرارة البيئة المحيطة عن الحد المناسب فإن الاستجابة الفسيولوجية الأولى لذلك انقباض الشعيرات الدموية تحت الجلد وبالتالي يقل اندفاع الدم إلى البشرة مما يؤدي إلى برودة الشعيرات وخاصة اليدين والقدمين، وتحدث رعشة لا إرادية في حالات البرد الشديد (الزمهير) ويزيد معدل الاحتراق إلى مرتين أو ثلاث مرات^(٥).

وبصفة عامة وعلى أساس التجارب العملية وضعت الحدود لراحة الإنسان الحرارية فكانت تقريبا هي درجة الحرارة التي تقع بين ٢٢,٥ و ٢٩,٥ درجة مئوية، ورطوبة نسبية تقع بين ٢٠% إلى ٥٠%^(٦)، وتسابق العلماء في وضع بعض المقاييس والخرائط التي يمكن عن طريقها تحديد مناطق الراحة الحرارية للإنسان تحت ظروف مناخية محددة وبدقة كبيرة، ومن أشهر هذه المقاييس "خريطة الراحة الحرارية" التي قام بتصميمها "فيكتور أولجاي" وهي صالحة لكل المناطق الحارة، جافة كانت أو رطبة، وفي الأماكن التي لا تتعدى أكثر من ٣٠٠ متر فوق سطح البحر، وتمثل المنطقة المهيشرة على الخريطة، شكل (١)، منطقة الراحة عندما يكون الهواء ساكنا وذلك بدلالة درجة حرارة الترمومتر الجاف والرطوبة النسبية، وهي تقع بين ٢١,١ و ٢٦,٦ درجة مئوية والرطوبة النسبية بين ٣٠% إلى ٦٥% طبقا لهذه الخريطة^(٧).



شكل (١): خريطة الراحة الحرارية من تصميم "فيكتور أوجاي"^(١).

فإذا كانت الجنة تمثل البيئة المثالية بكل ما فيها من متع ونعيم مقيم فإن الآية الكريمة تصيف متعة الراحة "الحرارية" أيضا أي لا يرى في الجنة شدة حر كحر الشمس ولا زمهيرا أي ولا بردا مفرطا، ومفهوم الراحة الحرارية لم يكن معروفا بالمعنى الذي وضحناه وقت نزول القرآن، حيث أن البيئة العربية التي نزل فيها القرآن يغلب عليها المناخ الصحراوي الحار وكان أهم الأكبر للعرب هو الوقاية من حر الشمس، ولكن جاءت الآية بمعنى يتمشى مع مفهوم معاصر نتج عن دراسات وتجارب عديدة توصلت إلى ما يسمى "منطقة الراحة الحرارية"، وهي تتحدد بمدى حراري سفلي وعلوي لا يجب أن تقل أو تزيد عنه درجات الحرارة في وجود مستوى معين من الرطوبة النسبية، مما سبق نجد أن الآية الكريمة قد عبرت عن مفهوم ومنطقة الراحة الحرارية بإيجاز وإعجاز كبير في قولسه سبحانه وتعالى: (لا يرون فيها شمسا ولا زمهيرا)، والحمد لله على نعمة الإسلام.

٢- تأثير الاحتماء بالظلال و الملابس في الوقاية من الإشعاع الشمسي والحر:
يقول سبحانه وتعالى: " والله جعل لكم مما خلق ظلالا و جعل لكم من الجبال أكتانا و جعل لكم سراويل تقيكم الحر و سراويل تقيكم بأسكم، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون" (آية ٨١-النحل).

٢-١ معاني بعض الكلمات:

* الظل: نقيض الضح (بالكسر)، أو هو القبي أو هو بالعادة و القبي بالعشى، و مكان ظليل ذو ظل، و الظلة شئ كالصفة يستتر به من الحر و البرد، و الظلال و المظلة (بالكسر و الفتح) الكبير من الأحياء، و الظليلة مستنقع الماء في أسفل مسيل الوادي و الروضة الكثيرة الحرجات، و الظلل الماء تحت الشجر لا تصيبه الشمس^(١).

و في المعجم الوجيز^(٢): الظل هو ضوء الشمس إذا استترت عنك بحاجز، و الظليل ذو الظل و يقال ظل ظليل أي دائم.

* الأكتان: مفردا "كن"، و هو ما يرد الحر و البرد من الأبنية و المساكن^(٣).

٢-٣ آراء بعض المفسرين في شرح الآية الكريمة:

أورد الإمام القرطبي (رحمه الله) في تفسير الآية الكريمة ما يلي^(٤): " لما كانت بلاد العرب شديدة الحر و حاجتهم إلى الظل كبيرة فقد أوضح الله سبحانه و تعالى أن الظلال إحدى نعمه التي من بها على بني البشر، فأنه سبحانه و تعالى قد خلق للبشر الأشجار التي توفر الظلال كما جعل من الجبال مواضع للسكنى كالكهوف (كما في كهف أهل الكهف) يلجأ إليها الإنسان طلبا للظل و الحماية، كما أهتمهم اتخاذ الأبنية حماية لهم من الحر و البرد و طلبا للظل".

أما الإمام ابن كثير (رحمه الله) فقد أورد في تفسير الآية الكريمة ما يلي^(٥): " (والله جعل لكم مما خلق ظلالا) قال قتادة يعني الشجر، (و جعل لكم من الجبال أكتانا) أي حصونا و معاقل، كما (جعل لكم سراويل تقيكم الحر) و هي الثياب من القطن و الكتان و الصوف، (و سراويل تقيكم بأسكم) كالدروع من الحديد المصفح و الزرد و غير ذلك، (كذلك يتم نعمته عليكم) أي هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم و ما تحتاجون إليه ليكون عوناً لكم على طاعته و عبادته (لعلكم تسلمون)، و قال قتادة في قوله (كذلك يتم نعمته عليكم) هذه السورة تسمى سورة النعم، و قال عطاء الخراساني إنما أنزل القرآن على قدر معرفة العرب ألا ترى إلى قوله تعالى (والله جعل لكم مما خلق ظلالا و جعل لكم من الجبال أكتانا) و ما جعل من السهل أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب جبال، ألا ترى إلى قوله (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاناً و متاعاً إلى حين) و ما جعل لهم من غير ذلك أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب وبر و شعر، ألا ترى إلى قوله تعالى (سراويل تقيكم الحر) و ما تقي من البرد أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب حر".

٢-٤ الجانب العلمي في بيان تأثير الظلال وأن هذا التأثير يختلف حسب العنصر المستخدم في التظليل:

تعتبر عملية تظليل المباني أو الفراغات الخارجية أحد أهم مبادئ علم التصميم البيئي، وحتى يمكن أن ندرك أهمية إيجاد وتوفير الظلال خاصة بالمناطق الحارة فإن بعض الدراسات أوضحت أن تظليل الشوارع يؤدي إلى خفض في درجة الحرارة يقدر بحوالي ٤ درجات مئوية^(١)، وفي قياسات تمت على بعض أفنية المنازل الإسلامية القديمة بالقاهرة اتضح أن درجات الحرارة داخل هذه الأفنية المعرضة للظل تقل بحوالي ٤ إلى ٧ درجات مئوية عن درجة حرارة سطح المنزل المعرض للشمس^(١).

وإذا كان بعض المفسرين (جزاهم الله خيرا) قد أوضحوا أن المقصود بالظلال في الآية الكريمة ظلال الأشجار على وجه التحديد، فلقد أوضحت إحدى التجارب في اليابان أثر استخدام النباتات في خفض درجة حرارة الحوائط الخارجية، حيث تم استخدام أحد أنواع النباتات اليابانية (Japanese Ivy) في تغطية حائط غربي معرض للشمس فوجد أن درجة حرارة الحائط قبل تغطيته بالنباتات أعلى بحوالي ١٠ درجات مئوية عن درجة حرارة الهواء المحيط، أما بعد التغطية فوجد أن درجة حرارة الحائط تقل بحوالي ١ درجة مئوية عن درجة حرارة الجو المحيط^(٢)، كما أوضحت دراسة أخرى أجريت لمعرفة تأثير استخدام النباتات الطبيعية في تظليل المباني مدى التباين في تقليل درجات الحرارة نتيجة اختلاف أسلوب استخدام هذه النباتات في عملية التظليل، أنظر جدول (١)، فعلى سبيل المثال فإن متوسط الانخفاض في درجات الحرارة نتيجة التظليل باستخدام الأشجار الكبيرة الحجم (في وجود إشعاع شمسي مباشر) يقدر بحوالي ١٤,٥٠ درجة فهرنهايت، أما في حالة استخدام شجيرات متوسطة الحجم shrub فيصل الانخفاض إلى ٢٤,٣٠ درجة فهرنهايت^(٣).

كما أوضحت دراسة أخرى أن الانخفاض في درجة حرارة الحوائط المظللة باستخدام خليط من الأشجار والشجيرات يصل لحوالي من ١٣,٥٠ إلى ١٥,٥٠ درجة مئوية، أما في حالة استخدام النباتات المتسلقة فإن درجة حرارة الحائط تنخفض حوالي من ١٠ إلى ١٢ درجة مئوية^(١).

جدول (١): متوسط الانخفاض في درجة حرارة سطح الحائط نتيجة استخدام عناصر تظليل مختلفة. (القياسات مسجلة في الصيف بولاية ميامي بفلوريدا)^(١)

متوسط الانخفاض في درجة الحرارة (فهرنهايت)، في وجود إشعاع شمسي مباشر.	متوسط الانخفاض في درجة الحرارة (فهرنهايت)، في عدم وجود إشعاع شمسي مباشر.	عناصر التظليل المستخدمة Landscape elements
١٤,٥٠	٦,٤٠	<input type="checkbox"/> أشجار بحجم كبير.
٢٤,٣٠	٧,٦٠	<input type="checkbox"/> شجيرات بحجم متوسط.
١٣,٨	٨	<input type="checkbox"/> كرمة غير كثيفة. Thin vine
١٢	٧,٥	<input type="checkbox"/> كرمة كثيفة. Thick vine
٢,٨	١٠	<input type="checkbox"/> خليط من الأشجار وحاجز نباتي hedge

إن الدراسات العديدة السابقة توضح أمرا هاما وهو اختلاف النقص في درجات حرارة المباني أو الحوائط المظللة تبعا للعنصر المستخدم في التظليل، فالظل الناتج عن طريق تظليل المباني بعضها البعض يختلف عن الظل الناتج عن استخدام النباتات الطبيعية، كما أن الظل الناتج عن استخدام الأشجار أو الشجيرات يختلف عن الظل الناتج عن النباتات المتسلقة، لذلك نجد أن الآية الكريمة ذكرت لفظ (ظللا) بصيغة الجمع و كأنها تلفت النظر الى أنه توجد اختلافات في تأثير الظلال تبعا للعنصر الذي يلقي الظل، ويتأكد ذلك المعنى أيضا في قوله سبحانه وتعالى: "وظل من يحموم، لا يبارد ولا كريم" (٤٤، ٤٣- الواقعة) حيث توضح الآية الكريمة أن الظل الناتج عن يحموم وهو الدخان شديد السواد لا يكون بارد المنزل ولا كريم المنظر^(١)، كما أن الآية أحت الى أن هذه الظلال ناتجة عن العناصر التي خلقها الله سبحانه وتعالى (والله جعل لكم مما خلق ظللا) لتوضح لنا أن الظلال الناتجة من العناصر الطبيعية التي خلقها الله كالنباتات والأشجار والأكنان بالجبال يكون تأثيرها في خفض درجة الحرارة أكبر.

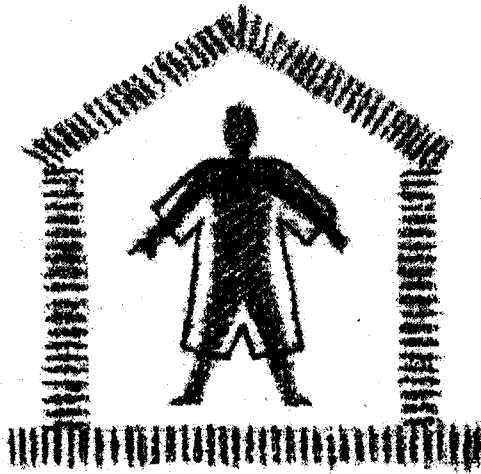
إن الآية الكريمة السابقة توضح وتنبه الى أثر الظلال الكبير في خفض درجة الحرارة، وصدق الله العظيم حيث يقول: " وما يستوي الأعمى والبصير، ولا الظلمات والنور، ولا الظل ولا الحرور" (الآيات من ١٩ الى ٢١- فاطر)، والشاهد في الآيات السابقة هو تأكيد المولى سبحانه وتعالى على عدم المساواة بين الظل والحر.

٢-٥ أثر الملابس في الوقاية من الحر والإعجاز العلمي في الربط بين ذكر الظلال والملابس في الآية الكريمة:

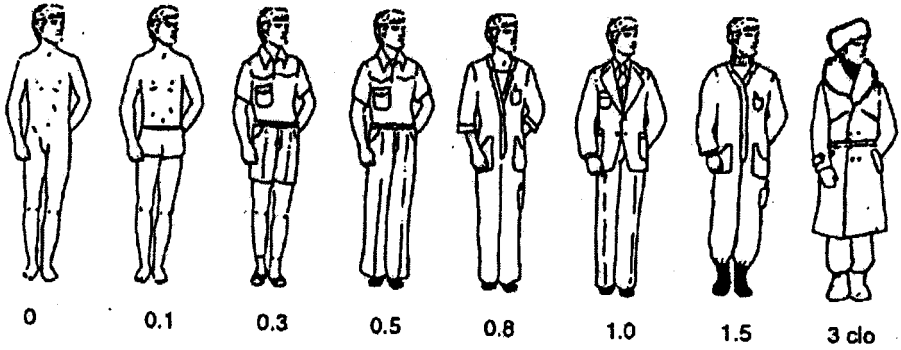
الملابس تعمل كعازل بين الإنسان والبيئة المحيطة تقيه من حرارة الجو أو برودته حسب المناخ السائد، ولأهمية الدور الذي تلعبه الملابس فإن البعض اعتبر الملابس بمثابة "الجلد الثاني" **second skin** و المبنى أو المأوى بمثابة الجلد الثالث للإنسان^(١)، شكل (٢).

و يمكن للإنسان التحكم الى حد كبير في التبادل الحراري بين جسمه وبين الجو المحيط، وذلك بالاختيار الصحيح للملابسه، إذ تمثل الملابس حاجزا أو مانعا لانتقال الحرارة كما تقلل من إحساس الجسم بالاختلاف في سرعة ودرجة حرارة الهواء، شكل (٣)، ولتيسيط عملية النفاذ الحراري خلال الملابس اتخذت وحدة "الكلو" **Clo** (اختصار لكلمة **Clothes**)، وهى تعادل مقدار ٦,٥ وات/م^٢. درجة مئوية من المقاومة الحرارية، وتعطى القيم التالية مؤشرا لهذا المقياس^(٢):

- أ- كالسون + شورت + قميص سبور نصف كم = ٠,٢٥ كلو.
 ب- ملابس داخلية + قميص نصف كم + بنطلون = ٠,٦٧ كلو.
 ج- ملابس داخلية + بدلة صيفي خفيفة = ١,٠٠ كلو.
 د- ملابس ثقيلة للمناطق الباردة مبطنة + معاطف ثقيلة (فرو) = ٤,٥٠ كلو.
 فمثلا إذا كان الهواء ساكنا وكان الشخص يقوم بنشاط مكثي خفيف فان التغير في ١ كلو من الملابس بالزيادة أو النقصان يقابله الإحساس بتغير في درجة الحرارة يبلغ ٧ درجة مئوية ، و يزيد



شكل (٢): الملابس تعتبر الجلد الثاني للإنسان نظرا لأنها تقيه الحر، وتمنحه الدفاء شناء.



شكل (٣): اختلاف المقاومة الحرارية للملابس نتيجة اختلاف نوعيتها.

الإحساس بتأثير الملابس في حالة الحركة وازدياد النشاط.
لقد قام بعض الباحثين بعمل معادلات بسيطة يمكن عن طريقها التنبؤ بكمية الحرارة الإشعاعية radiative heat التي يمكن أن يكتسبها الإنسان في ظروف المناخ الصحراوي واضعين في الاعتبار عاملي الملابس والتعرض للشمس، وفيما يلي هذه المعادلات^(١):

أ- في حالة إنسان لا يرتدى ملابس (عاري الجسد) ويتعرض للشمس:
 $200 + 25(T-33); \text{Kcal/hour.}$

ب- في حالة إنسان يرتدى ملابس ويتعرض للشمس:
 $100 + 22(T-33); \text{Kcal/hour}$

ج- في حالة إنسان يرتدى ملابس ليلاً :

Where: T is the air temperature in ° C. $20+ 18(T-33); \text{Kcal/hour.}$

وبفرض أن درجة حرارة الهواء هي ٣٩ درجة مئوية، فإن الإنسان الذي لا يرتدى ملابس ويتعرض للإشعاع الشمسي المباشر فانه يكتسب ٣٥٠ كيلو كالوري/الساعة، أما الإنسان الذي يرتدى ملابس ويتعرض للإشعاع الشمسي المباشر فانه يكتسب ٢٣٢ كيلو كالوري/الساعة، أي أن ارتداء الملابس يقي الإنسان حوالي ١١٨ كيلو كالوري/الساعة، وصدق الله العظيم حيث يقول: "وجعل لكم سراويل تقيكم الحر".

كما يتجلى الإعجاز العلمي في الآية الكريمة في ذكر الظلال والربط بينها و بين السراويل أو الملابس التي تقي الحر، حيث تمكن بعض الباحثين من وضع معادلات (تحت ظروف البيئة الصحراوية) يمكن عن طريقها حساب معدلات العرق التي يفرزها الإنسان يرتدى ملابس ويجلس إما معرضا للشمس أو في الظل، وهذه المعادلات هي^(١):

أ- في حالة إنسان يرتدى ملابس ويجلس معرضا للشمس:

$$300+36(T-33), \text{ g/hour.}$$

ب- في حالة إنسان يرتدى ملابس ويجلس في الظل:

$$180+25(T-33), \text{ g/hour.}$$

.C ° Where: T is the air temperature in

وعلى ذلك فانه يفرض أن درجة حرارة الهواء هي ٣٩ درجة مئوية، فان الإنسان الذي يرتدى ملابس و يجلس معرضا للإشعاع الشمسي المباشر فانه يفقد ما يعادل ٥١٦ جرام/الساعة من العرق، أما الإنسان الذي يرتدى ملابس ويجلس في الظل فانه يفقد فقط ٣٣٠ جرام/الساعة من العرق، أي أن الجلوس في الظل (مع ارتداء الملابس) يقلل من فقد الإنسان لحوالي ١٨٦ جرام/الساعة من العرق، وفي المناطق الصحراوية الجافة يصبح من الأهمية تقليل الفاقد من الماء المخزون في الجسم حتى لا يشعر الإنسان بالتعب والإعياء و يتعرض جسمه للجفاف.

إن الآية الكريمة محل البحث قد أعطتنا بعض المفاهيم التي تتفق مع حقائق ومبادئ علم التصميم البيئي، والتي تتمثل في أهمية الظلال واختلاف تأثيرها في خفض درجات الحرارة باختلاف العنصر الذي يلقي الظل، كما أخت الى أهمية الملابس في الوقاية من الحر بالرغم من أن العقل البشري في وقت نزول القرآن كان يعي بصورة أكبر أهمية الملابس في الوقاية من البرد، ثم يأتي أخيرا الإعجاز في الربط بين ذكر الظلال و ارتداء الملابس التي تقي الحر في نفس الآية وهو ما أوضحنا أثره في التقليل من إفراز العرق، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

٣- دراسة ميدانية وشمسية للتصميم البيئي لكهف "أهل الكهف" :

يقول الله سبحانه و تعالى: " وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه، ذلك من آيات الله، من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا" (آية ١٧-الكهف).

٣-١ توضيح معاني بعض الكلمات:

* الكهف: هو الغار في الجبل، وهو المغارة الواسعة في الجبل^(١).
* فجوة: فجوة الدار أي ساحتها^(٢)، والفجوة أيضا المتسع بين الشيتين^(٣).

٣-٢ آراء بعض المفسرين في شرح الآية الكريمة:

يذكر ابن كثير (رحمه الله) في شرح الآية الكريمة^(٤): " أن هذا دليل على أن باب هذا الكهف المذكور كان من نحو الشمال، لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه (ذات اليمين) أي يتقلص الفيء يمنة، كما قال ابن عباس و سعيد بن جبير و قتادة (تزاور) أي تميل و ذلك أمّا كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان، ولهذا قال (وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال) أي تدخل إلى غارهم من شمال بابه وهو من ناحية المشرق فدل على صحة ما قلناه وهذا بين لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر و الكواكب، وبيانه أنه لو كان باب الغار من ناحية المشرق لما دخل إليه منها شيء عند

الغروب، ولو كان من ناحية القبلة (يقصد الجنوب) لما دخل منها شيء عند الطلوع و لا عند الغروب و لا تزاور الفيء يمينا و لا شمالا، ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع بل بعد الزوال ولم تنزل فيه إلى الغروب فتعين ما ذكرناه والله الحمد، وقال مالك عن زيد بن أسلم تميل (ذات اليمين) وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه) أي في متسع منه داخلا بحيث لا تصيبهم إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم و ثيابهم قاله ابن عباس، (ذلك من آيات الله) حيث أرشدهم إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء و الشمس و الريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم .

ويقول الإمام الشوكاني (رحمه الله) في تفسير الآية الكريمة^(١): " للمفسرين في تفسير هذه الآية قولان: الأول: أنهم مع كونهم في مكان منفتح انفتحا واسعا في ظل جميع غارهم ولا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا في غروبها لأن الله حجبتها عنهم.
والثاني: أن باب الكهف كان مفتوحا جهة الشمال فإذا طلعت الشمس كانت عن يمين الكهف و إذا غربت كانت عن يساره".

٣-٣ اكتشاف مكان الكهف المذكور بالقرآن الكريم وأدلة ذلك :

اختلفت الآراء حول موقع ومكان الكهف الذي ارتبط بقصة الفتية المؤمنتين المذكورة في القرآن الكريم ضمن سورة الكهف، وقد أشارت بعض الاكتشافات الأثرية في العقود الماضية لبعض الكهوف التي تم اكتشافها بالقرب من عمان بالأردن أو أفسوس بآسيا الصغرى أو حتى في اسكتلندا، وقد رجحت بعض الأدلة التاريخية و الأثرية و كذلك انطباق آية طلوع الشمس وغروبها أن الكهف الموجود بجنوب عمان في الأردن أن يكون هو الكهف المذكور في القرآن الكريم .

ففي عام ١٩٦٣ قامت دائرة الآثار العامة الأردنية بحفريات أثرية تحت إشراف المرحوم رفيق وفا الدجاني في منطقة تسمى "سحاب"، وتقع على بعد حوالي ١٣ كم جنوب شرق العاصمة الأردنية عمان، وقد استدل علماء الآثار والتاريخ بعدة أدلة ترجح بقوة أن يكون هذا الكهف هو الذي جاء ذكره في القرآن الكريم، وهذه الأدلة هي:

أ- الدليل التاريخي: من الأدلة التاريخية التي يذكرها رجال الآثار أن العديد من الصحابة و قادة الجيوش الإسلامية قد ذكروا أن موقع الكهف الذي يوجد به أصحاب الكهف موجود بجبل الرقيم بالأردن حيث زاروا هذا الموقع وعرفوه، و منهم الصحابي عبادة بن الصامت الذي مر على الكهف في زمن عمر بن الخطاب وأيضاً معاوية بن أبي سفيان، وكذلك حبيب بن مسلمة وابن عباس قد دخلوا هذا الكهف ورأوا عظام أصحاب الكهف^(١).

ب- الدليل الأثري: تم العثور على بناء أثري بني فوق الكهف وهو الذي أشير إليه في قوله تعالى: "فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا"، فقد أثبتت الحفريات عن وجود بنيان فوق هذا الكهف كان مبعدا (كنيسة) ثم تحول الى مسجد في العصر الإسلامي، ويوجد بقايا سبعة أعمدة مصنوعة من الأحجار غير مكتملة الارتفاع ومخرطة على شكل دائري، كما يوجد بقايا محراب نصف دائري يقع فوق باب الكهف تماما، وبين الأعمدة الباقية بالمسجد بئر مملوء بالماء وهي البئر التي كان يتم استخدامها في الوضوء، وقد أتيح لمقدم البحث أن يرى هذا المسجد خلال الزيارة الميدانية للكهف، شكل (٤).

وقد تم ترميم المسجد أكثر من مرة وفقاً لما هو مدون على الأحجار التي وجدت بداخله، وهي تشير إلى تجديد تم عام ١١٧ هجرية ثم عام ٢٧٧ هجرية، ثم أعيد التجديد مرة أخرى عام ٩٠٠ هجرية مما يدل على اهتمام المسلمين الأوائل بهذا المسجد لاقتناعهم بأنه المذكور في القرآن الكريم، ولما يؤكد الاهتمام بهذا الموقع وجود مسجد آخر يقع بالجهة القبلية من الكهف وما زال منبر هذا المسجد قائماً إلى اليوم وهو مكون من ثلاث درجات ضخمة من الأحجار على يمين المحراب، شكل (٥)، وقد عثر بالمسجد على بلاطة تفيد بأن الخليفة الموفق العباسي قد أمر بتجديده.

كما تم العثور على ثمانية قبور بنيت بالصخر أربعة منها يضمها قبر يقع على يمين الداخل للكهف والأربع الأخرى تقع في قبر على يسار الداخل للكهف والمرجح أنها القبور التي دفن فيها الفتية التي ورد ذكرهم في القرآن، شكل (٦)، وفي المنطقة الواقعة بين القبورين في الجزء الأول من الكهف تم العثور على جمجمة لكلب وبفكه ناب واحد وأربعة أضراس، ويوجد بالكهف دولاب زجاجي يحتوي على جمجمة الكلب إلى جانب بعض قطع من النقود التي كانوا يستعملونها ومجموعة من الأساور والحواتم والخرز وبعض الأواني الفخارية، شكل (٧).

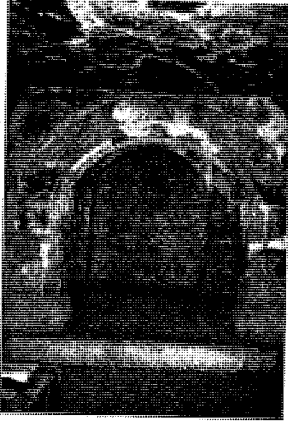
ج- الدليل الجيولوجي: يؤكد المهندس الجيولوجي ناظم الكيلاني^(١) من خلال فحوصاته المختبرية على أن تربة الكهف ومنطقة الرقيم تساعدان على صيانة الجسم، ويذكر أن هذه التربة تتكون من الكاربوهيدرات



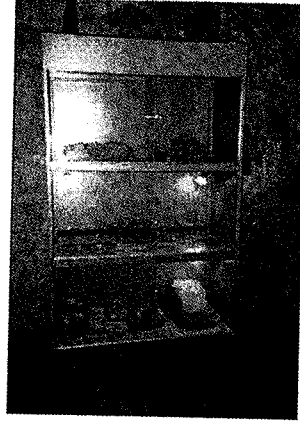
شكل (٤): بقايا المسجد الأثرى الموجود فوق الكهف.



شكل (٥): بقايا المسجد الأثرى الموجود أمام الكهف



شكل (٦): القبو الشرقي بالكهف.



شكل (٧): الدولاب الزجاجي الموجود بالقبو الشمالي ويحتوى على جمجمة الكلب.

(جميع الصور من تصوير الباحث).

والكاليسيوم والمغنسيوم إضافة الى حفريات النباتات والحيوانات المشبعة بالراديويم، وهذه المواد توجد في معادن اليورانيوم والثوريوم المشعة والتي من خصائصها إنتاج أشعة "ألفا" و"بيتا" و"جاما"، وهذه الأنواع من الأشعة ذات تأثير كبير في تعقيم اللحوم والنباتات والمحافظة عليها وتحول دون تفسخها، ويعتقد الكيلاينى بأن وجود هذا النوع من التربة بعناصرها وأملاحها ربما يكون (ومعها أشعة الشمس المتناوبة) الوسيلة التي حفظت أجساد فتيمة الإيمان أكثر من ثلاثة قرون دون أن تؤثر فيهم عوامل الهواء والتربة.

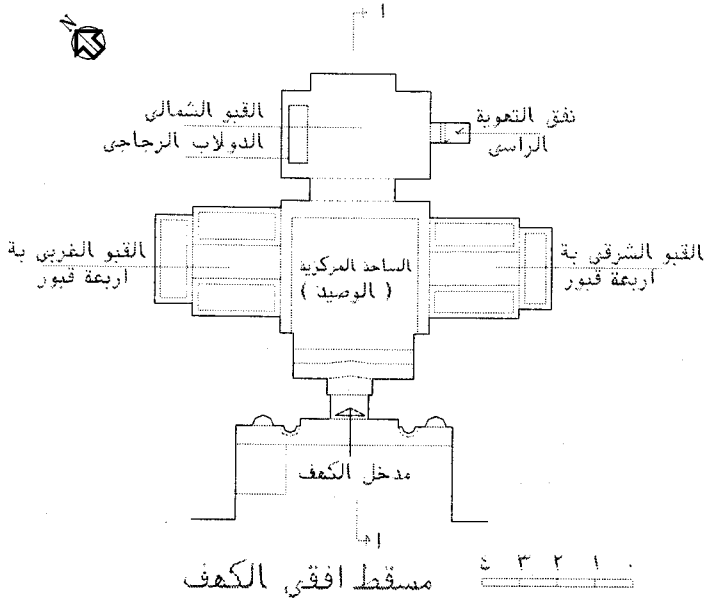
د- أدلة أخرى: وتمثل في أن الكهوف الأخرى التي تم الإشارة إليها على أنها هي التي جاء ذكرها في سورة الكهف لا ينطبق عليها آية طلوع الشمس وغروبها، وهو ما أكده الدكتور عبد العزيز كامل الذي زار كهف الرقيم بالأردن مرتين وتأكد من انطباق حركة الشمس في طلوعها وغروبها وعلاقة أشعتها بالكهف، كما درس من قبل عددا من الكهوف التي نسب إليها أهل الكهف وأهملها في أفسوس وطوروس واستبعدها لأنها ذات فتحات لا تتفق في سقوط الشمس عليها مع ما جاء في الآيات الكريمة^(١)، وهو ما توصل إليه خبير الآثار الأردني "محمد تيسير طيبان" بناء على دراسة استمرت لأكثر من عشر سنوات، كما أن كثير من المتخصصين و المهتمين الذين زاروا كهف أفسوس ينفون أن يكون هو الكهف المعنى لبعده عن عاصمة الإمبراطورية الرومانية (حوالي ٤٥٠ كم عن أفسوس)، وحتى لو كانت مدينة أزمير هي مقر الحاكم الروماني ومنطلق الفتية المؤمنين فإنها أيضا بعيدة و لا يمكن للفتية أن يبتعدوا كل هذه المسافة عن أزمير^(٢).

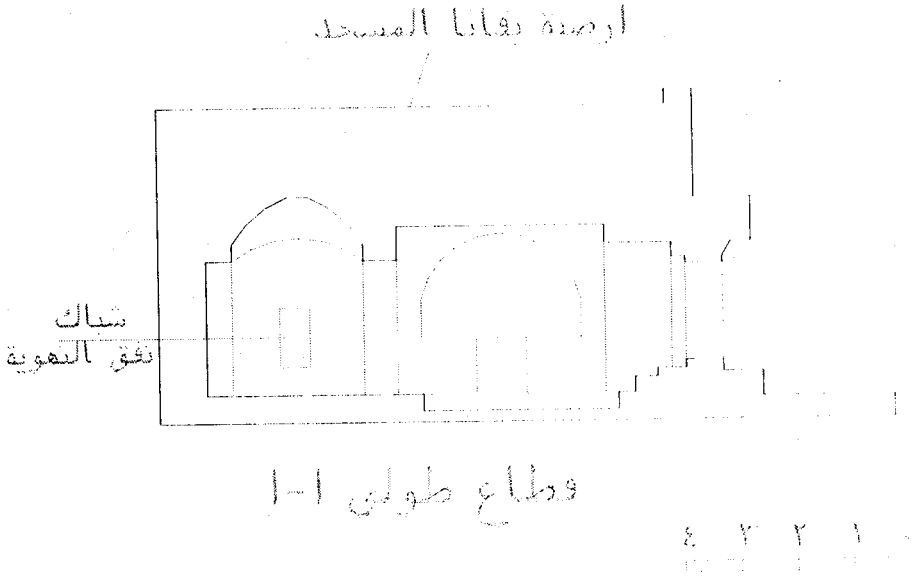
٣-٤ بيان علاقة تصميم الكهف بمسار الشمس الظاهري على مدار العام:

إذا كنا قد أوضحنا عليه بعض الأدلة التي ترجح أن كهف الرقيم الواقع في جنوب شرق عمان (خط عرض ٣٢ درجة شمالا تقريبا) هو الكهف المذكور في سورة الكهف، فإنه قد أتبع لمقدم هذا البحث أن يقوم بزيارة هذا الكهف في يوم ٦ يونية عام ٢٠٠٣م ورفع مقاسات الكهف من الطبيعة وتحديد اتجاه فتحة باب الكهف باستخدام البوصلة، مع عمل بعض قياسات درجة الحرارة داخل وخارج الكهف، الى جانب تصوير الكهف من الخارج والداخل وكذلك المسجد الأثرى المبني فوقه والمسجد الأثرى الواقع أمام فتحة مدخل الكهف الى الجنوب.

وقد اتضح من الدراسة الميدانية أن للكهف مدخل واحد يواجه الجنوب الغربي حيث أن واجهة الكهف تميل ٤٠ درجة الى جهة غرب الجنوب، ومقاسات هذا المدخل هي ١,٠٢م عرض و ١,٧٣م ارتفاع وله عتبة بارتفاع ٠,٢١م، والكهف من الداخل يتكون من صالة مركزية بارتفاع حوالي ٣,٣٥م يفتح عليها قيوين (فجوتين) من كل من الجهة الشرقية والغربية، كما تفتح عليها فجوة من الجهة الشمالية وهي أكبر مساحة وأكثر ارتفاعا من الفجوتين الشرقية والغربية، ويفتح شباك بالفجوة الشمالية يتصل بنفق هواء رأسي يساعد على تهوية الكهف من الداخل، شكل (٨)، ومن الواضح أن المسلمين الأوائل قد عرفوا مكان هذا الكهف وقاموا بعمل بعض العقود الدائرية ونقش بعض الزخارف الإسلامية أهمها النجمة الثمانية المعروفة في الفن الإسلامي على أحد القبور المتواجدة بالفجوة الشرقية.

ولدراسة المسار الظاهري للشمس بموقع الكهف لتحديد مدى انطباق الوصف القرآني لطلوع وغروب الشمس على هذا الكهف، فقد تم الاستعانة ببعض المعادلات التي تحدد قيم الزوايا الشمسية





شكل (٨): مسقط أفقى وقطاع طولى بالكهف.

(رفع الباحث من الطبيعة)

في أي شهر أو يوم أو ساعة من السنة ، وفيما يلي المعادلات التي تم استخدامها لتحديد هذه الزوايا الشمسية^(١):

أ- معادلة تحديد زاوية ارتفاع الشمس (Azimuth (A):

$$\sin(A) = \cos(L) * \cos(h) * \cos(d) + \sin(L) * \sin(d)$$

Where: L = Latitude angle, h = Hour angle and d = Declination angle.

ب- معادلة تحديد زاوية الانحراف الأفقي للشمس (Azimuth (a):

$$\sin(L) * \sin(A) / \cos(L) * \cos(A) - \cos(a) = \sin(d)$$

ج- معادلة تحديد زاوية الظل الأفقية للشمس (HAS):

$$WA - HAS = \frac{\sin(L) * \sin(A)}{\cos(L) * \cos(A) - \cos(a)}$$

Where: WA = Wall's orientation (Building's orientation).

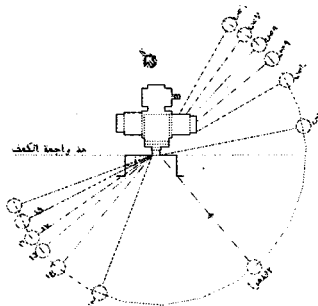
د- معادلة تحديد زاوية الظل الرأسية للشمس (VSA):

$$\tan(VSA) = \tan(A) / \cos(HAS)$$

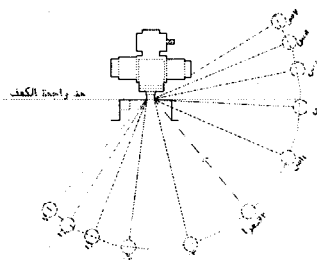
وباستخدام المعادلات السابقة أمكن تحديد الزوايا الشمسية الخاصة بمحط عرض ٣٢ درجة شمالا والتي تمثل موقع الكهف في جنوب شرق عمان العاصمة الأردنية، أنظر جدول (٢)، كما تم رسم وتحديد مسار الشمس الظاهري في فصل الشتاء (ويعتدله يوم ٢١ ديسمبر) وفصل الصيف (ويعتدله يوم ٢١ يونيو) والاعتدالين (ويعتدلهما يومي ٢١ مارس و ٢١ سبتمبر)، شكل (٩)، كما تم تحديد الأوقات التي تدخل فيها الشمس الى داخل الكهف ورسم وتحديد مساحة ومكان هذه الأشعة الضوئية، شكل (١٠).

جدول (٢): قيم الزوايا الشمسية في خط عرض ٣٢ درجة شمالا (عمان) في الشتاء (٢١ ديسمبر) والاعتدالين (٢١ مارس و ٢١ سبتمبر) والصيف (٢١ يولية)

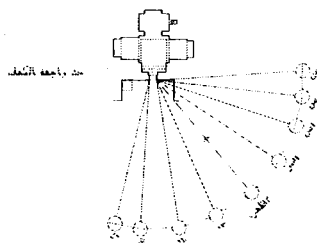
الساعة الزاوية	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨
الصيف (٢١ يولية)													
الارتفاع	١٢,١٧	٢٤,٣٤	٣٦,٣٨	٤٩,٥٥	٦٢,٢٠	٧٤,٢٣	٨١,٤٤	٧٤,٢٣	٦٢,٢٠	٤٩,٥٥	٣٦,٣٨	٢٤,٣٤	١٢,١٧
الانحراف الأفقي	٦٩,٨٠	٧١,٥٦	٨٣,٢٢	٩٠,٥٥	١٠٠,٢	١١٩	١٨٠	١١٩	١٠٠,٢	٩٠,٥٥	٨٣,٢٢	٧١,٥٦	٦٩,٨٠
الظل الرأسى	٢٣,٤٦	٣٧,٢١	٤٧,٥٩	٥٦,٦٤	٦٥,٣٩	٧٤,٥٠	٨٣,٤٣	٧٤,٥٠	٦٥,٣٩	٥٦,٦٤	٤٧,٥٩	٣٧,٢١	٢٣,٤٦
الظل الأفقى	٦٠,٢٠	٥٣,٤٣	٤٦,٧٧	٣٩,٤٤	٣١,٦٧	٢٤,٩٠	١٨	١١	٢٩,٦٧	٣٩,٤٤	٤٦,٧٧	٥٣,٤٣	٦٠,٢٠
الاعتدالين (٢١ مارس و ٢١ سبتمبر)													
الارتفاع	—	١٢,٣٤	٢٤,٧٣	٣٦,٤٤	٤٦,٧٨	٥٤,٤٤	٥٧,٣٩	٥٤,٤٤	٤٦,٧٨	٣٦,٤٤	٢٤,٧٣	١٢,٣٤	—
الانحراف الأفقى	—	٢٦١,٢	٢٥٢,٤	٢٤١,٥	٢٢٦,٩	٢٠٦,٤	١٨٠	١٥٣,٥	١٢٣	١١٨,٤	١٠٧,٥	٩٨,٦٠	—
الظل الرأسى	—	١٦,٢٧	٢٨,٢٢	٣٨,٤٤	٤٦,٩٩	٥٥,٢	٦٧,٦٤	٥٦,٧٦	٤٦,٨٢	٣٧	٢٦,٤٩	١٤,٣٨	—
الظل الأفقى	—	٤١,٣٩	٣٢,٤٥	٢١,٥١	١٠,٩٠	١٣,٥٧	٤٠	٢٣,٥٧	٣,١٠	١١,٥١	٢٢,٤٤	٣١,٣٩	—
الشتاء (٢١ ديسمبر)													
الارتفاع	—	—	١٠,٢٦	١٩,٨٢	٢٧,٥٧	٣٢,٧٢	٣٤,٥٥	٣٢,٧٢	٢٧,٥٧	١٩,٨٢	١٠,٢٦	—	—
الانحراف الأفقى	—	—	١٣٣,٨	٢٢٣,٥	٢١١,١	١٩٦,٣	١٨٠	١٦٣,٦	١٤٨,٨	١٣٦,٤	١٢٦,١	—	—
الظل الرأسى	—	—	١٠,٥٦	١٩,٨٦	٢٧,٨٥	٣٥	٤١,٩٥	٣٧,٦٥	٢٨,٨٨	١٩,٩٤	١٠,٢٨	—	—
الظل الأفقى	—	—	١٢,٨٤	٣,٥٩	٨,٨٢	٢٣,٦١	٤٠	٢٣,٦	١٨,٨٢	٦,٥٠	٣,٨٤	—	—



مسار الشمس الظاهري في الصيف
(يوم ٢١ يونيو)

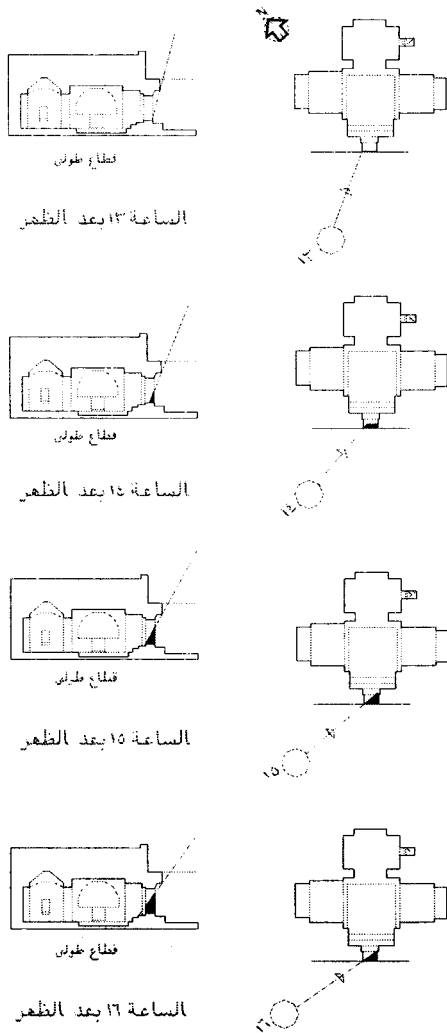


مسار الشمس الظاهري في الاعتدالين
(يوم ٢١ مارس و٢١ سبتمبر)

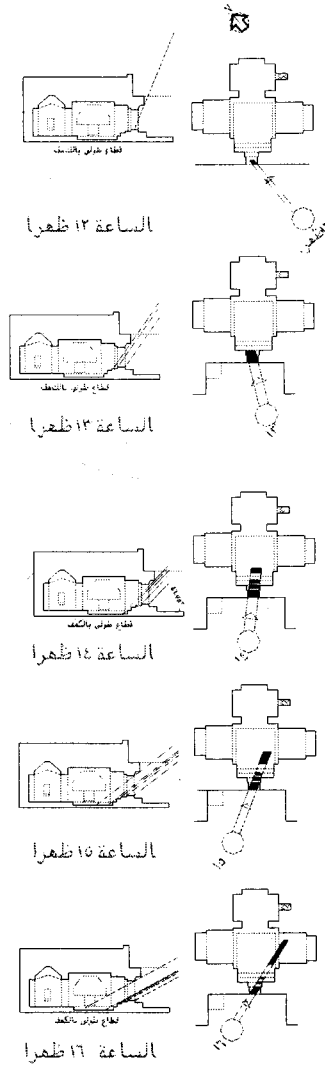


مسار الشمس الظاهري في الشتاء
(يوم ٢١ ديسمبر)

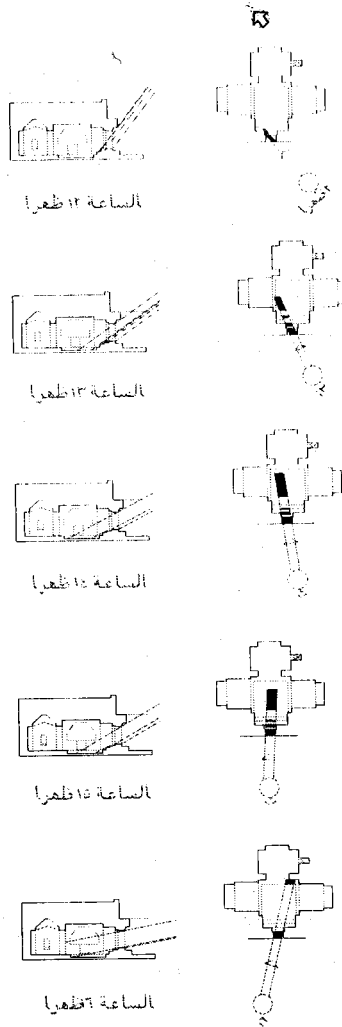
شكل (٩): المسار الظاهري للشمس بالنسبة للكهف على مدار العام.



شكل (١٠-أ): أشعة الشمس لاتتعدى عتبة مدخل الكهف في الصيف.



شكل (١٠-ب): الشمس في الاعتدالين تدخل كبقع ضوئية من الساعة ١٢ الى ١٦ .



شكل (١٠-ج): الشمس تدخل الكهف في الشتاء على هيئة بقع ضوئية من الساعة ١٣ الى ١٦.

ويتضح من دراسة حركة الشمس بالرسومات السابقة مدى انطباق الوصف القرآني على هذا الكهف، حيث تشرق الشمس على مدار العام (أي في الشتاء والصيف والاعتدالين) عن يمين الكهف ولا تدخل من باب الكهف عند طلوعها، وبدءاً من غروب الشمس أي من الساعة ١٢ ظهراً تبدأ أشعة الشمس في الدخول الى داخل الكهف على هيئة بقع ضوئية صغيرة المساحة وحتى غروبها في فصل الشتاء وما قبل الغروب في فصلي الربيع والخريف، أما في الصيف فان الشمس تبدأ في الوصول لبداية عتبة المدخل في الساعة الواحدة ظهراً (الساعة ١٣ ظهراً) وتزداد مساحتها حتى تبلغ ذروتها في الساعة الرابعة من بعد الظهر (الساعة ١٦ ظهراً) ولكن لا تتعدى عتبة المدخل.

إن انحراف واجهة مدخل الكهف الى جهة الجنوب الغربي أدى الى انطباق الوصف القرآني على كهف الرقيم بالأردن، حيث تشرق الشمس عند طلوعها من على يمين الكهف دون أن تدخله ولكن تقرض الكهف بأشعتها بدءاً من الظهر (أي بدءاً من أول لحظات رحلتها الى الغروب) على التفصيل الموضح عاليه، ومن جانب أخرى فان الشمس لا تتعدى أشعتها عتبة مدخل الصيف في الصيف حيث أنه لا يوجد احتياج لذلك لارتفاع درجة حرارة الجو بصفة عامة في ذلك الفصل، في حين أنها تدخل الى الصالة المركزة فقط في فصلي الشتاء والاعتدالين على هيئة بقع ضوئية صغيرة المساحة وهو مطلوب في هذه المنطقة لامداد الكهف من الداخل ببعض الدفء حيث أن الأردن في هذه الفصول تميل الى البرودة.

وبناء على قياسات درجات الحرارة داخل وخارج الكهف في يوم ٦ يونية (أي في الصيف) فقد وجد أن الانخفاض في درجة الحرارة يصل في المتوسط الى أكثر من ستة درجات مئوية، ويعزى ذلك لعدم دخول الإشعاع الشمسي المباشر الى داخل الكهف الى جانب أن هذه النوعية من الكهوف تتميز بكبر سمك الطبقة الصخرية التي تكسوها من جهة السقف والحوائط مما يؤدي الى عدم انتقال الحرارة الخارجية الى داخل الكهف، وصدق الله العظيم حيث يقول: "والله جعل لكم من الجبال أكتانا" تقيكم الحر في الصيف والبرد في الشتاء.

إن وجود نفق الهواء الرأسي، الذي سبق وأن أشرنا إليه، يقوم بدور ملقف الهواء في أغلب ساعات النهار حيث يقوم بإدخال الهواء البارد الى داخل الفجوة الشمالية، عن طريق فتحة تشبه الشباك، ومنها الى باقي الكهف مما يساعد على تجديد الهواء الداخلي بالكهف طوال اليوم، وفي أحيان أخرى خلال أيام الصيف تدخل الشمس داخل هذا النفق الهوائي وتصل الى أسفل نقطة بالنفق في وقت الظهيرة (الساعة ١٢ ظهرا) حيث تكون زاوية الشمس قريبة من العمودية فتقوم بتسخين الهواء داخل نفق الهواء الرأسي فيتمدد الهواء ويرتفع الى أعلى خارجا من فتحة النفق العلوية فيقوم بسحب هواء من داخل الكهف ومن ناحية فتحة مدخل الكهف ليحل محل الهواء الذي يرتفع خارجا من النفق والذي يعمل في هذه الظروف كالمدخنة Stack effect فيساعد أيضا على تحريك الهواء داخل الكهف وتجديده باستمرار.

إن جميع الدلائل التاريخية والأثرية تؤكد أن الكهف الموجود في منطقة "سحاب" في جنوب شرق عمان هو الكهف المذكور في القرآن الكريم، كما أن دراسة أسلوب تصميم الكهف من الناحية المعمارية والشمسية تؤكد الوصف القرآني لحركة الشمس بالنسبة للكهف وأنه في فترات الغروب حتى بالرغم من دخول بعض البقع الضوئية فإنها لاتصل الى الفجوات الموجودة بالكهف بل تصل فقط للصالة المركزية (ساحة الكهف أو الوصيد)، وهو ما يتطابق أيضا مع الوصف القرآني (وهم في فجوة منه) أي في متسع منه لا تصيبهم أشعة الشمس كما أخبر بذلك المفسرون رحمهم الله.

الخاتمة والنتائج:

مما سبق يتضح لنا أن القرآن الكريم قد جاءت به إشارات علمية تتوافق مع مبادئ علم التصميم البيئي من جهة، كما أكدتها الدراسة الميدانية والشمسية لكهف الرقيم بالأردن من جهة أخرى، وهذه الإشارات تعتبر من دلائل الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، ويمكن إنجاز النتائج التي توصل إليها البحث فيما يلي:

١- اتضح لنا من دراسة الآية (١٣) من سورة الإنسان مدى توافق التعبير القرآني في قوله سبحانه وتعالى: " لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً " مع مفهوم ومصطلح "الراحة الحرارية" والذي يعتبر أهم مقياس للحكم على مدى نجاح تصميم المباني والفراغات الخارجية من الناحية البيئية في مجال علم التصميم البيئي (العمارة البيئية).

٢- إن ذكر الظلال وذكر السراويل التي تقي الحر في الآية (٨١) من سورة النحل في قوله سبحانه وتعالى: " والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سراويل تقيكم الحر... "، تعتبر أحد دلائل إعجاز القرآن الكريم نظراً لما أثبتته العلم الحديث من تأثير الظل والملابس على الإنسان من ناحية الراحة الجسمية والحرارية، كما يتجلى هذا الإعجاز في ذكر هذين العنصرين في آية واحدة نظراً لما أثبتته العلم الحديث من وجود صلة وثيقة بينهما تؤثر أيضاً على راحة الإنسان وقلة إفراجه للعرق.

٣- وأخيراً فإن الدراسة الميدانية والشمسية لكهف الرقيم بالأردن توضح إعجاز القرآن الكريم في وصف علاقة الكهف بحركة الشمس وهو ما يتوافق مع ما ورد في الآية (١٧) من سورة الكهف في قوله سبحانه وتعالى: " وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه... "، كما تبرز مدى الكفاءة التصميمية لهذا الكهف من ناحية توفير الظلال صيفاً ودخول قدر ضئيل من الشمس شتاءً وفي الاعتدالين في فترات الغروب، إلى جانب التهوية الجيدة والتي تساهم باستمرار في تجديد الهواء بهذا الكهف، وهي كلها عوامل تتوافق تماماً مع مبادئ علم التصميم البيئي الحديث، وهي توضح من جانب آخر إحدى النعم التي من الله بها على عباده ألا وهي إمكانية اتخاذ الأكنان بالجبال، مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى: "والله جعل لكم من الجبال أكنانا".

مراجع البحث:

- ١- القرآن الكريم.
- أ- كتب التفسير والمعاجم اللغوية:
- ٢- الإمام الحافظ ابن كثير. تفسير القرآن العظيم.
- ٣- الإمام القرطبي. الجامع لأحكام القرآن.
- ٤- الإمام الشوكاني. فتح القدير. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
- ٥- التفسير الميسر (إعداد نخبة من العلماء) (١٤١٩ هجرية). وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية.
- ٦- الفيروزآبادي (١٩٧٧). القاموس المحيط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- ٧- مجمع اللغة العربية (٢٠٠٠). المعجم الوجيز. طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم، جمهورية مصر العربية.
- ب- المراجع العربية:
- ٨- الدبركي، آمال عبد الحليم (١٩٩٩). التهوية الطبيعية كمدخل تصميمي في العمارة المسالبة (رسالة ماجستير)، كلية الهندسة، جامعة عين شمس.
- ٩- المؤمن، حيدر (١٩٩٩). كهف الرقيب في عمان.. هل هو لأصحاب الكهف؟. مجلة "منار الإسلام" - عدد (٦)، السنة (٢٥): ٣٨-٤٣، وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف، دولة الإمارات العربية المتحدة.
- ١٠- الوكيل، شفق العوضى و سراج، محمد عبدالله (١٩٨٥). المناخ وعمارة المناطق الحارة. القاهرة
- ١١- جريدة اللواء الإسلامي (١٩٨٣). تحقيق عن الكهف وأهل الكهف وجبل الرقيم. عدد (٥٦،٥٧)، القاهرة.

١٢- غالب، عبد الرحيم (١٩٨٨). موسوعة العمارة الإسلامية. جروس برس، بيروت.

١٣- مظهر، سليمان (١٩٨٩). آخر أيام البادية الأردنية. مجلة العربي- عدد يونيو: ١٣٢-١٥٥، وزارة الإعلام، الكويت.

١٤- وزيري، يحيى (١٩٩٢). التعمير في القرآن والسنة. القاهرة.

ج- المراجع الأجنبية:

- 15- Baroum, A.H. (1983). Energy responses to vernacular shelter and settlement in continental Morocco, North Africa. Proceedings of the second international plea conference: "Passive and low energy Architecture". Pergamon press, New York.
- 16- Givoni, B. (1994). Passive and low energy cooling of buildings. Van Nostrand Reinhold company, New York.
- 17- Goulding, J.R. (1986). Energy in Architecture. Commission of the European communities, Dublin.
- 18- Griffiths, J.F. (1966). Applied Climatology. Oxford University Press, New York.
- 19- Nour, M.M.A. (1981). Factors underlying traditional Islamic urban design. Alam Albenaa, Cairo. Vol. (0), 16: 4-5.
- 20- Pearson, D. (1995). The Natural House Book. Conran Octopus Limited, London, pp.126.
- 21- Wazeri, Y. H. (1997). The relationship between solar radiation and building design in North Africa (M.Sc Thesis). Institute of African research and studies, Cairo University.

الهوامش

- (١) لمزيد من التفاصيل لرجع الى: وزيرى، يحيى (١٩٩٢). التعمير في القرآن والسنة. القاهرة.
- (٢) الفيروزابادى (١٩٧٧). القاموس المحيط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- (٣) انظر تفسير الآية رقم (١٣) من سورة الإنسان في كتاب "تفسير القرآن العظيم" للإمام الحافظ ابن كثير.
- (٤) انظر تفسير الآية رقم (١٣) من سورة الإنسان في كتاب "التفسير الميسر" (إعداد نخبة من العلماء) (١٤١٩ هجرية). وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية.
- (٥) Goulding, J.R. (1986). Energy in Architecture. Commission of the European communities, Dublin
- (١) الوكيل، شفق العوضى و سراج، محمد عبدالله (١٩٨٥). المناخ وعمارة المناطق الحارة. القاهرة، ص ١٦٦.
- (٢) المرجع نفسه : ص ١٧٤.
- (٣) المرجع نفسه : ص ١٧٨.
- (٤) الوكيل، شفق العوضى و سراج، محمد عبدالله: المرجع السابق، ص ١٧٨.
- (٥) الفيروزابادى : مرجع سابق.
- (٦) مجمع اللغة العربية (٢٠٠٠). المعجم الوجيز. طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم، جمهورية مصر العربية.
- (٧) غالب، عبد الرحيم (١٩٨٨). موسوعة العمارة الإسلامية. جروس برس، بيروت، ص ٣٢٧.
- (٨) انظر تفسير الآية (١٨) من سورة النحل في كتاب "الجامع لأحكام القرآن" للإمام القرطبي.
- (٩) انظر تفسير الآية (١٨) من سورة النحل في كتاب "تفسير القرآن العظيم" للإمام الحافظ ابن كثير.
- (١٠) الدبركى، أمال عبد الحليم (١٩٩٩). التهوية الطبيعية كمدخل تصميمي في العمارة السالبة (رسالة ماجستير)، كلية الهندسة، جامعة عين شمس، ص ١١.

Nour, M.M.A. (1981). Factors underlying traditional Islamic urban design. Alam ⁽¹⁾
Albenaa, Cairo. Vol. (), 16: 4 -5.

⁽²⁾ Givoni, B. (1994). Passive and low energy cooling of buildings. Van Nostrand Reinhold company,
New York.

⁽³⁾ Baroum, A.H. (1983). Energy responses to vernacular shelter and settlement in continental
Morocco, North Africa. Proceedings of the second international plea conference: "Passive and low
energy Architecture". Pergamon press, New York.

.the previous reference : Givoni ⁽¹⁾

.Baroum : the previous reference ⁽²⁾

⁽¹⁾ لرجع الى تفسير الأيتين (٤٣،٤٤) في كتاب "التفسير الميسر" (مرجع سابق).

⁽¹⁾ Octopus Limited, London, pp.126 Pearson, D. (1995). The Natural House Book. Conran
الوكيل و سراج : مرجع سابق، ص ١٦٩.

⁽¹⁾ .Oxford University Press, New York, pp.73 .Griffiths, J.F. (1966). Applied Climatology

⁽¹⁾ Griffiths: the previous reference, pp.75.

⁽¹⁾ المعجم الوجيز: مرجع سابق.

⁽²⁾ غالب : مرجع سابق.

⁽³⁾ المعجم الوجيز : مرجع سابق.

^(٤) أنظر تفسير الآية (١٧) من سورة الكهف في كتاب "تفسير القرآن العظيم" للإمام الحافظ ابن كثير.

⁽¹⁾ أنظر تفسير الآية (١٧) من سورة الكهف في كتاب "فتح القدير" للإمام الشوكاني.

⁽¹⁾ لمزيد من التفاصيل أنظر: جرية اللواء الإسلامي (١٩٨٣). تحقيق عن الكهف وأهل الكهف وجبل الرقيم. عدد (٥٦،٥٧)، القاهرة

⁽¹⁾ المؤمن، حيدر (١٩٩٩). كهف الرجيب في عمان.. هل هو لأصحاب الكهف؟ مجلة "منار الإسلام" - عدد (٦)، السنة (٢٥): ٤٣-٣٨،
وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف، دولة الإمارات العربية المتحدة.

⁽¹⁾ لمزيد من التفاصيل أنظر: مظهر، سليمان (١٩٨٩). آخر أيام البلدية الأردنية. مجلة العربي- عدد يونيو: ١٣٢-١٥٥، وزارة

الإعلام، الكويت. ⁽¹⁾ لمزيد من التفاصيل أنظر: المؤمن (مرجع سابق).

Wazeri, Y. H. (1997). The relationship between solar radiation and building design in North Africa ⁽¹⁾
(M.Sc Thesis). Institute of African research and studies, Cairo University.